بيتر رايت

صائد الجواسيس

ترجمة عماد القسوس

بيتر رايت

صائد الجواسيس

ترجمة عماد القسوس

الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان - الأردن

* بيتر رايت، صائد الجواسيس.

* الطبعة العربية الأولى ١٩٨٨ .

* الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
ص. ب ٩٢٦٤٣ تلفون ٦٢٤٣٢١
عمان ـ الأردن.

* التوزيع ـ المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش. م. م
ص. ب ١٣/٥٦٨٧ بيروت ـ لبنان.

* هذه هي الترجمة الكاملة لـ

SPYCATCHER

Peter Wright

with Paul Greengrass

* صف الأحرف والماكيت: المجموعة الطباعية (ناصر عاصي) ش. م. ل.

مقدمة المترجم

في صيف ١٩٨٧ استنفرت أجهزة الجمارك في المطارات والموانىء البريطانية، وبدأت عملية تفتيش لا مثيل لها للقادمين، وخاصة من أمريكا. فقد خرجت لندن عن وقارها المزعوم وديمقراطيتها العريقة لتشن حملة واسعة لاصطياد كتاب عنوانه «صائد الجواسيس» الذي نضعه الآن بين يدي القارىء العربي.

ويحدونا الأمل من وراء ترجمة هذا الكتاب ونشره بالعربية هدفان.

الأول، هو أن الكتب التي تعالج فترة الحرب الباردة قليلة إن لم تكن نادرة. وقد كانت هذه الحرب السمة الأساسية للعلاقات الدولية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى منتصف السبعينات. وقد عكس التوتر الذي ساد علاقات الشرق والغرب آنذاك حملة شعواء قادتها الدول الغربية ضد الثقافة الإنسانية. وتجلت هذه الحملة في «المكارثية»، التي كانت نتيجة طبيعية لبروز الولايات المتحدة بتراثها الحضاري المتواضع كقوة أساسية، بل وزعيمة بلا منازع للدول الغربية. وقد استطاعت الولايات المتحدة أن تعكس مكارثيتها على الغرب وأن تنميها. ولعل بيتر رايت أحد بقاياها.

أما الهدف الثاني، فهو إبراز الدور الخطير الذي قامت به القوى الاستعمارية لوقف نهوض حركات التحرر في العالم الثالث، وخاصة في العالم العربي.

فقد أدت الحرب العالمية الثانية وهزيمة النازية والفاشية إلى ظهور قوى جديدة في ميزان الصراع الدولي من ضمنها حركات التحرر والدول المستقلة حديثاً. وقد حاولت بريطانيا العظمى وغيرها من الدول الاستعمارية الاحتفاظ بالمستعمرات وإبقاء سيطرتها

عليها، وقد شملت محاولاتها لتحقيق هذا الهدف الحروب المباشرة أو الدسائس والمؤامرات المستترة.

ولأن بيتر رايت لا يدخل إلى تفاصيل المؤامرات التي حيكت ضد مصر من قبل جهاز أم آي ٦، بحكم عمل رايت في أم آي ٥، فلا بأس من أن نلقي نظرة سريعة لتكتمل الصورة. فالكاتب يلوم أم آي ٦ على تخبطها في مصر ويعيب عليها عدم فعاليتها في تنفيذ خطة «سالاماندر» لاغتيال الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، بالإضافة إلى حنقه الشديد لفشل العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦.

لا بأس هنا من مراجعة بعض تفاصيل عملية «سالاماندر»، كما جاءت في كتاب «العمليات السرية للمخابرات البريطانية» تأليف جوناثان بلوتش وباتريك فيتزجيرالد، الذي صدر في العام الماضي في موسكو. وقد قدم لهذا الكتاب فيليب إيجي الموظف السابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ففي شباط من عام ١٩٥٧ التقى في زوما محمود خليل، نائب مدير المخابرات الجوية المصرية، موظفين من الأم آي ٦. وسلموه مبلغاً كبيراً بالعملة الإنجليزية لتمويل مؤامرة ضد الحكومة المصرية. وبعد ذلك بوقت قصير التقى ويلبورغ ايفلند، ضابط ارتباط السي آي إي في الشرق الأوسط، مع أحد الجواسيس الإنجليز العاملين في المنطقة. فأبلغ الأخير ضابط السي آي إي بأنه تم إرسال فريق لاغتيال عبد الناصر. وكان لكلا الحادثتين علاقة مباشرة بعملية «سالاماندر».

وكانت الكثير من الدول العربية في تلك الفترة قد حصلت على استقلالها السياسي وبدأت تسعى نحو استقلالها الاقتصادي. وتمخض عن تلك المرحلة واحدة من أهم الثورات في العالم العربي ألا وهي ثورة ٢٣ يوليو بقيادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. وقد أثارت سياسة عبد الناصر الوطنية المتحررة غضب الأمبراطورية العجوز نظراً للدور العربي والعالمي الذي بدأت تلعبه مصر. وكان في قمة إنجازات عبد الناصر تأميم قناة السويس التي حفرها الشعب المصري بأظافره رغم الطاعون والجوع ولفح الشمس الحارقة. ولم ينجح العدوان الثلاثي، ومرغ الشعب المصري بقيادة الزعيم الراحل أنوف ثلاثة جيوش في الرمال.

وبعد فشل العمل العسكري المباشر ضد مصر، عادت المخابرات البريطانية لإحياء مخططاتها الهادفة إلى اغتيال عبد الناصر. وظهر من جديد على المسرح محمود خليل الذي دفعت له المخابرات البريطانية لتمويل عملية «سالاماندر» في الفترة ما بين شباط ١٩٥٧ - تشرين الثاني ١٩٥٨ مبلغاً وقدره (١٦٢٥٠٠) جنيه استرليني.

ويذكر رايت في كتابه هذا بأن فشل العملية كان يرجع إلى فساد الأسلحة التي كانت مخبأة في إحدى ضواحي القاهرة دون أخذ الاحتياط لحمايتها من الصدأ. ولكنه لم يقل إلا نصف الحقيقة. أما نصفها الآخر الذي خجل على سمعة بريطانيا العظمى من ذكره فهو أن محمود خليل كان يعمل في الحقيقة لصالح وطنه ولحساب المخابرات المصرية وبتوجيه منها. وبذلك فشلت العملية فشلاً ذريعاً بإرادة الشعب المصري وليس بسبب عدم فعالية أم آي ٦.

لم تقتصر نشاطات الأم آي ٦ المعادية للعرب على محاولة اغتيال جمال عبد الناصر. فقد امتدت إلى اليمن بشطريه وإلى غيرها من الدول العربية. كما تعاونت تعاوناً كاملاً مع المخابرات الإسرائيلية ضد مصالح الشعوب العربية. ويذكر الكاتبان في هذا المجال تبادل المعلومات بين الجهازين فيما يتعلق بالثورة الفلسطينية بشكل أساسي وبالدول العربية الأخرى.

بقي السؤال الذي يطرح نفسه بالنسبة لكتاب بيتر رايت وهو: لماذا الآن؟ من الطبيعي جداً أن يتلقى الرأي العام كتاب «صائد الجواسيس» على أنه مجرد مذكرات، وأن الرجل أراد أن يدلي بشهادته في عمل أمضى فيه حياته. وهذا أمر مشروع.

لكن المؤكد أيضاً من وراء نشر هذا الكتاب هو المحاولات اليائسة لصناع الحرب والدمار لوقف عجلة التاريخ، وقصر القدرة على فهمه واستيعابه عليهم هم فقط. وهم لا يريدون أن يقتنعوا بأن الحرب الباردة قد انتهت. وأن عصراً جديداً بدأ يبزغ في سماء العلاقات الدولية ألا وهو عصر التعاون بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة. وربما لا يدرك هؤلاء، أو ربما لا يريدون أن يدركوا، بأن التعايش السلمي كصيغة للعلاقات الدولية، قد أصبح الآن لا يكفي. فكيف إذن يمكن العودة إلى الحرب الباردة؟!

المترجم

عماد القسوس

تمهيد

لسنوات طويلة كنت دائماً أتساءل، كيف سيكون اليوم الأخير، ففي كانون الثاني عام ١٩٧٦، وبعد عقدين من العمل في الصفوف العليا في المخابرات البريطانية ـ الشعبة أم. اي. ٥، حان وقت انضمامي مرة أخرى إلى العالم الحقيقي.

خرجت للمرة الأخيرة من محطة المترو في شارع يوستون، حيث لمعت أشعة الشمس، بينما كنت أشق طريقي إلى ميدان ترافلاجار Traflagar. وبعد خمسين ياردة، استدرت لأدخل إلى مجمع مكاتب لا يحمل أية إشارات، يقع بين كلية للفنون ومستشفى، ولا يظهر أبداً كأنه المقر الرئيسي لقيادة قسم مكافحة التجسس البريطاني.

أبرزت بطاقتي إلى رجل الأمن الذي يقف بأدب في ردهة الاستقبال وأستقليت واحداً من المصاعد المخصصة لاستعمال كبار الضباط إلى الطابق السادس. وسرت بصمت عبر الممر متجهاً إلى غرفة مكتبي المجاورة لمكتب المدير العام.

كانت المكاتب هادئة. وكنت أسمع ضجيج قطار المترو وهو يحمل الركاب إلى منطقة ويست إند. فتحت الباب، فرأيت أمامي ما يحتاجه رجل المخابرات من أثاث: تلفونين أحدهما مخصص للمكالمات الخارجية، وخزانة حديدية خضراء بقفلها الكبير. علقت معطفي على المشجب وبدأت أرتب شؤوني بشكل ميكانيكي. ولكثرة ما شاهدت من الضباط المتقاعدين طوال خدمتي وهم يستغلون حفلات الكوكتيل للحصول على آخر الأنباء والإشاعات، حزمت أمري على أن أخرج من عملي نهائياً. وكنت قد قررت أن أبدأ حياة جديدة وأربي الخيول في أستراليا.

أدرت قرص القفل وفتحت باب الخزانة الثقيل. ورأيت أمام عيني كمية كبيرة من السجلات ممهورة بعبارة «سري جداً»، تقبع خلفها مجموعة من الصناديق الصغيرة المرتبة بعناية. لقد مر من بين يدي آلاف الملفات طوال خدمتي. أما ما إراه الآن فإنها آخر الملفات: تقارير روتينية من العملاء، وأحدث تقارير الكمبيوتر، وتحليلات عن قوة الجيش الجمهوري السري الايرلندي. والملفات بحاجة دوماً إلى أجوبه، والأجوبة ليست لدي. أما ملف الدبلوماسيين الروس فقد أرسل إلي مع ضابط شاب. هل عرفته؟ بالطبع لا. كان يحتوي على قضية عميل مزدوج تتقدم وتتراجع منذ سنوات. وهل لدي رأي في الموضوع؟ بالطبع لا. عندما تنضم للعمل في المخابرات تبدو كل قضية مختلفة عن غيرها. أما عندما تترك العمل فإنها جميعاً تبدو متشابهة. ووضعت بعناية أول الأحرف من اسمي على الملفات وطلبت من سكرتيرتي نقلها إلى قسم السجلات.

أما بعد فترة الغداء فقد أخذت أتفقد الصناديق الصغيرة المرتبة، اسحبها واحداً واحداً. كان أول صندوق يحتوي على تفاصيل تقنية عن الميكروفونات وأجهزة الاستقبال الإذاعية - وهي بقايا من فترة بدايات عملي عام ١٩٥٠ كأول ضابط عالم في جهاز أم آي ٥. وأمرت بنقل المحتويات إلى القسم الفني. وبعد ساعة جاء رئيس القسم ليشكرني. بدا لي نموذجاً للعالِم الحكومي الحديث، أنيق حذر ولا يتوقف عن البحث عن المال.

قلت له: «إنها أشياء قديمة تلك التي كنت احتفظ بها، لا أعتقد أنها ستفيدك الآن. هذا عصر الأقمار الصناعية. أليس كذلك؟».

«آه لا!» أجابني: «ستكون متعة لي أن أطالعها». وبدا محرجاً بعض الشيء. كنا ننتمي إلى عصرين وعالمين مختلفين. كنت أعمل بالغراء والمسطرة والممحاة، أما هو فكان يعقد الصفقات لوزارة الدفاع. صافحني مودعاً وعدت أنا لتفريغ خزانتي الحديدية.

أما بقية الصناديق فقد كانت تحتوي على قصاصات من الورق تجمعت لدي بعد أن عملت في قسم مكافحة التجسس عام ١٩٦٤، عندما كانت عملية البحث عن الجواسيس في المخابرات البريطانية في ذروتها. ملاحظات مكتوبة بخط اليد ومذكرات للمساعدين مطبوعة على الآلة الكاتبة، كانت جميعها مخزونة: مادة الجاسوسية - قوائم المشكوك بهم، وتفاصيل الاتهامات، الخيانات والأحكام. وفي هذه الأوراق، التي بدأ البحث فيها واضحاً جداً ثم تحول إلى غموض كبير، تكمن خيوط مهنتي..

وأخيراً جاءت السكرتيرة وناولتني كتابين أزرقين. وقالت: «يومياتك». ووضعناهما معاً في كيس الحرق قرب الطاولة إلى أن يحين موعد حرقها.

ثم سرت نحو مكاتب المؤسسة. وسلمني الضابط المناوب ملفا يحتوي على قائمة من التعليمات. وأخذتُ أوقع الأوراق الصغيرة، وأسلم معها رموز المخابرات ومخابرات القمر الصناعي. ثم بدأت أعمل على تسليم كتلة كبيرة من التعليمات التي كانت بحوزتي. وهنا أدركت بأن الحصول على الأسرار أمر شخصي تماماً، أما التخلص منها فهو أمر بيروقراطي مغث. وكان خط القلم يغلق مع كل حركة له جزءاً من تاريخي. وبعد نصف ساعة تم إغلاق العالم السري الذي لفني في ثناياه إلى الأبد.

عند الغياب أخذت سيارة أجرة وذهبت إلى قيادة أم آي ٥ القديمة في مبنى ليكون فيلد في حي ماي فير. كانت المؤسسة وسط عملية نقل مكاتبها إلى المكاتب الجديدة في شارع كيرزون، أما الموظفون وبعض الأقسام، والنادي الذي ستقام فيه حفلة وداعية لي، فكانت جميعاً ما تزال في مبنى ليكون فيلد.

دخلت المبنى. هنا في هذه الممرات الخشبية والمكاتب القديمة تم اصطياد فيلبي وبيرغيس وماكلين وبلانت. وهنا أيضاً خضنا معارك أم آي ٥، وهي معارك غامضة ضد أشخاص غامضين يبعثون على الشك. كان شكنا يحوم حول المدير السابق لأم آي ٥، السير روجر هوليس، ولكننا لم نفلح مطلقاً في إثبات هذا الشك ببرهان قاطع. وقد رفض أصدقاء هوليس بشدة هذا الاتهام وقامت بين الطرفين حرب ضروس، مثل الحروب الدينية في القرون الوسطى، يحكمها العقل والعاطفة.

وواحداً بعد الآخر، تقاعد جميع المتحاربين في السبعينات، حتى جاء الانتقال إلى المبنى الجديد ليعلن انتهاء الحرب. ولكنني كنت أشعر وأنا أسير عبر ممرات ليكون فيلد بالإحساس المادي بالخيانة، والمطاردة وأشم رائحة القتل.

كانت الحفلة هادئة. تحدث الناس فيها عن أشياء لطيفة. وألقى المدير العام الحالي السير ميخائيل هانلي كلمة جميلة. واستلمت بطاقات الوداع وعليها كلمات بخط اليد.

اللورد كلان موريس، أعظم مسؤول عن عملاء أم آي ٥، كتب أن فراقي لهم خسارة محزنة جداً ولا يمكن تعويضها. ولكنني كنت الخاسر الحقيقي.

في تلك الليلة نمت في الشقة الواقعة في مكاتب شارع غورر، حيث أيقظني صوت وصول قطارات المترو إلى محطة يوستن. وفي وقت مبكر من صباح ذلك اليوم لبست ملابسي وحملت حقيبتي التي كانت فارغة لأول مرة، ونزلت نحو المدخل الرئيسي، وقلت للشرطي وداعاً ثم بدأت أخطو إلى الشارع. وهكذا انتهى عملي. خسارة محزنة جداً لا يمكن تعويضها.

الفصل الأول

بدأ ذلك في عام ١٩٤٩ في يوم ربيعي يذكرك بالشتاء. كان المطر يدق سقف مبنى المختبر المصنوع من مواد البناء الجاهزة، والواقع في غريت بادو في أيسكس، حيث كنت أعمل كعالم بحار ملحق بشركة ماركوني. وكانت تتراقص أمامي طاولة الرسم بشكل يثير الصداع. فقد كانت تحوي كتلة من الحسابات، إذ لم يكن من السهل تصميم رادار قادر على اكتشاف غواصة في الأعماق اللانهائية للبحر، وهو المشروع الذي كنت أعمل عليه منذ سنين. قرع جرس التلفون، كان والدي على الخط، موريس رايت، كبير مهندسي شركة ماركوني.

وقال: «يا فريدي، براندريت يريد رؤيتنا».

لم يكن أي سيء جديد في هذا. فقد كان براندريت رئيس العمليات العلمية البحرية الملكية، أما الآن فهو كبير علماء وزارة الدفاع. وكان يبدي اهتماماً شخصياً في تقدم المشروع. كان هناك قرار سيصدر قريباً حول الاستمرار في إنتاج مثل هذا الجهاز. سيكون مكلفاً. وكانت أبحاث الدفاع بعد الحرب في نزاع دائم مع الميزانية المنهكة، لذا جهزت نفسي لمناوشة كلامية جديدة.

سرني أن أحصل على فرصة التحدث إلى براندريت مباشرة. كان صديقاً قديماً للعائلة. كنا أنا ووالدي قد عملنا لديه في أبحاث الأدميرالية أثناء الحرب. وفكرت ربما يكون هناك فرص لوظيفة جديدة.

في اليوم التالي ذهبنا بالسيارة إلى لندن في جو ممطر نوعاً ما، وضعنا السيارة قرب

مكتب براندريت في مبنى ستوري غيت. بدت القاعة البيضاء الكبيرة رمادية شاحبة، والتماثيل مهملة تدل على عالم يتغير بسرعة هائلة. كان كليمنت أتلي لا يزال يعد الناس «بأسنان ونظارات»، ولكن الشتاء كان قارساً وأخذ الناس بالتذمر من حصص الغذاء. وكانت نشوة الانتصار في عام ١٩٤٥ قد بدأت تتلاشى أمام القلق العارم.

قدمنا نفسينا للسكرتيرة المهذبة في مكتب براندريت الخارجي. وجرى هناك همهمات ونقاش متواضع. لم نكن أول من يصل. حييت بعض الوجوه المألوفة: علماء من مختلف المختبرات العلمية. بدا لي أن هذا اللقاء أكبر من لقاء روتيني. شخصان لم أعرفهما انفردا خارج هذا الحشد.

«لا بد أنكما آل رايت»، قال أقصرهما بشكل فظ. كان يتحدث بلهجة عسكرية صارمة. وأضاف «أنا الكولونيل مالكولم كمنغ من وزارة الحربية، وهذا صديقي هيو وينتربورن». وجاء غريب آخر. «وهذا جون هنري، أحد أصدقائنا من وزارة الخارجية». لقد استخدم كمنغ الوايت هول لتمييز المخلصين. لم يخطر ببالي مطلقاً أن للاجتماع علاقة بالحرب ضد الغواصات، خصوصاً بحضور مجموعة من أم آي ٥ وأم آي ٦. ظهر براندريت في باب مكتبه ودعانا جميعاً.

كان مكتبه واسعاً مثلما كانت سمعته واسعة. شبابيك عملاقة وسقف عال جعل مكتبه يبدو صغيراً. تقدمنا نحو طاولة الاجتماعات التي كانت تصطف عليها زجاجات الحبر والنشافات. كان براندريت رجلاً قصيراً ذا طاقة وحيوية بالغة، وكان من فئة أولئك النخبة أمثال لندمان، تيزارد، وكوكروفت، المسؤولين عن توجيه بريطانيا نحو المتطلبات العلمية والتقنية اللازمة لخوض الحرب العالمية الثانية. عمل كمساعد لمدير الأدميرالية للبحث العلمي، وفيما بعد نائب مدير الأبحاث العلمية البحرية الملكية، حيث كان مسؤولاً عن توزيع العلماء في القوات المسلحة أثناء الحرب. لم يكن موهوباً كعالم، إلا أنه كان يدرك الدور الحيوي الذي يمكن أن يلعبه العلماء. وكانت سياسته تعتمد على تشجيع الشباب ودعمهم بكافة الإمكانات المتوفرة، وساعدته ثقة المخابرات به على الحصول على الموارد الضرورية لتمكينهم من تقديم أفضل ما عندهم.

ولما كانت بريطانيا الضعيفة بعد الحرب أعدت نفسها لحرب جديدة في نهاية الأربعينات ـ الحرب الباردة ـ فقد كان براندريت الاختيار الواضح لتقديم النصح في كيفية إعادة صياغة المؤسسة العلمية. فتم تعيينه نائب المستشار العلمي لوزير الدفاع، ثم خلف السير جون كوكروفت كمستشار علمي ورئيس لجنة سياسة أبحاث الدفاع عام ١٩٥٤.

«أيها السادة» بدأ براندريت بمخاطبتنا بعد أن جلسنا. «من الواضح لنا جميعاً، كما أعتقد، بأننا نخوض الآن حرباً منذ أحداث برلين في السنة الماضية». أوضح براندريت بأن حصار الروس لبرلين والجسر الجوي الغربي الذي تبع ذلك تركا أثراً كبيراً على تفكير وزارة الدفاع.

«هذه الحرب ستكون حرب جواسيس، وليس جنود، على الأقل في المدى القصير». وأضاف: «ناقشت موقفنا مع السير بيرسي سيليتو مدير عام قوات الأمن. وختم كلمته بقوله: «أود أن أقول لكم بصراحة، بأن الوضع ليس على ما يرام».

هكذا قدم براندريت المشكلة لنا. لقد أصبح من المستحيل إدارة العملاء بشكل ناجع خلف الستار الحديدي، كما أنه كانت تنقصنا المعلومات الاستخبارية عن نوايا الاتحاد السوفياتي وحلفائه. كان لا بد من اللجوء إلى المبادرات العلمية والتقنية لملء الفراغ في هذا المجال.

«لقد بحثت القضية بخطوطها العريضة مع بعض الحاضرين: الكولونيل كممنغ من قوات الأمن، وبيتر ممثلاً لجهاز أم آي ٦، وقد شكلت هذه اللجنة لتقييم الاختيارات المتوفرة والبدء في العمل فوراً. كما أنني أقترحت على السير بيرسي أن يكون تحت تصرفه خبرات عالم شاب يقدم المساعدة في مجال الأبحاث. وأود أن أقدم اسم بيتر رايت الذي يعرفه بعضكم. إنه الآن يعمل في مختبرات الأبحاث الالكترونية وسينضم إليكم بدوام جزئي إلى أن يتم تحديد العمل المطلوب منه».

نظر براندريت إلي قائلاً: «ستقوم بهذا لنا، أليس كذلك يا بيتر؟».

قبل أن أرد على سؤاله اتجه نحو والدي قائلاً: «إننا سنكون بالطبع بحاجة إلى ماركوني. لذا اخترتك عضواً في هذه اللجنة أيضاً».

كان براندريت يتصرف بطريقته المعهودة، يصدر الدعوات وكأنها أوامر، ويضغط على الوايت هول حتى يبدو العمل فيه نسخة طبق الأصل عن براندريت وأسلوبه.

أما بقية بعد الظهر فقد أمضيناه في مناقشة الأفكار. كان ممثلو أم آي ٥ وأم آي ٦ صامتين طوال الوقت. وافترضت أنا أنه من الطبيعي أن يصمت رجال المخابرات أمام الغرباء. قدم كل عالم شرحاً مرتجلاً عن البحث الذي يجري في مختبره، والذي يمكن أن تكون له أهمية في خدمة المخابرات. كان واضحاً بالطبع أن مراجعة تقنية كاملة لمتطلبات المخابرات ستأخذ وقتاً طويلاً، ولكن كان واضحاً أنهم يريدون بإلحاح تقنيات جديدة في مجال التنصت دون الدخول

في مشاكل حول الموضوع. واستبعدت إمكانية التوصل إلى مدخل لاختراق الأمن السوفياتي الشديد خارج نطاق الحزب أو بناء جديد للسفارة. وحوالي الساعة الخامسة مساء تجمع لدينا حوالي عشرين اقتراحاً يتعلق بالمناطق الممكنة للبحث المثمر. وطلب مني براندريت أن أقدم ورقة أقيم فيها هذه الاقتراحات ثم انتهى الاجتماع.

عندما كنت أهم بالخروج قدم لي جون تيلر نفسه، وهو من قسم الاتصالات السلكية والبريد، وكان قدم العديد من النقاط حول استخدام المواصلات السلكية للتنصت. وقال: «سنعمل سوياً في هذه المسألة». وأضاف ونحن نتبادل أرقام الهواتف، «سأتصل بك في الأسبوع القادم».

عندما عدنا إلى غريت بادو، تناقشت أنا وأبي حول ما دار في الاجتماع بحماسة. لقد كان أسلوب عمل الوايت هول خلال الحرب، ونادراً ما بعد ذلك أسلوباً غير ممكن التكهن به على الإطلاق. كنت سعيداً بفكرة الهرب من العمل المتعلق بمضادات الغواصات. أما بالنسبة لوالدي فقد كان يعني ذلك امتداداً لعمل المخابرات الذي استمر في عائلتنا لمدة أربعة عقود ونصف العقد.

الفصل الثاني

انضم والدي إلى شركة ماركوني وهو في الجامعة عام ١٩١٢، وبدأ عمله كمهندس على جهاز لتتبع إشارات الراديو. وقد استطاع هو والكابتن هـ. جـ. راوند أن يطورا جهازاً مستقبلاً جعل اعتراض الاتصالات البعيدة المدى أمراً ممكناً.

قبل يومين من بدء الحرب العالمية الأولى، حين كان يعمل على هذا المستقبل في مختبر ماركوني الواقع في شارع هول، في كيلمز فورد، أدرك بأنه كان يلتقط إشارات بحرية ألمانية. أخذ أول مجموعة من هذه الإشارات إلى مدير مشاغل ماركوني أندرو غراي، الذي كان صديقاً شخصياً للكابتن ريغي هول، رئيس المخابرات البحرية.

كان هول الشخصية البارزة في المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان مسؤولاً عن مهاجمة الشيفرة الألمانية من الغرفة رقم ٤٠ المشهورة في الأدميرالية. وقد رتب لوالدي السفر إلى محطة شارع ليفربول على سطح قطار خاص. وبعد دراسة الموضوع أصر على مؤسسة ماركوني أن تسمح لوالدي بإقامة محطات اعتراض أو تشويش، وتحديد اتجاه البث المعادي، لصالح البحرية.

كانت المشكلة المركزية التي تواجه المخابرات البحرية مع اشتعال الحرب العالمية الأولى هي كيفية تتبع الأسطول البحري الألماني لتمكين الأسطول البحري البريطاني، الموجود في قاعدة سكابا فلو، من اعتراضه. وكانت المخابرات البحرية تعلم بأنه عندما يكون الأسطول الألماني هادئاً فإنه يكون في الطرف الشرقي من قناة كيل. واعتقد هول أنه بالامكان تتبع الاتصالات اللاسلكية للقائد العام الألماني الصادرة عن سفينته أثناء عبوره قناة كيل نحو بحر الشمال.

يبدأ والدي العمل في تصميم جهاز حساس بشكل كاف. وأخيراً توصل إلى اختراع جهاز تحديد اتجاه الإشارت، وأصبح بالإمكان تحديد مصدر إشارة ما بدقة متناهية وتمييزها عن الكثير من الإشارات الأخرى المتداخلة معها. وتطلب تطوير هذا الجهاز عدة سنوات ليصبح في الخدمة. إلا أنه أصبح سلاحاً مهماً في الحرب ضد الزوارق الحربية. وحتى هذه الأيام لا يزال هذا الجهاز يعمل.

في عام ١٩١٥، وقبل أن يتم إنجاز الجهاز تماماً ووضعه في الخدمة، اقترح والدي على هول أن أفضل حل يكمن في وضع جهاز تحديد الاتجاه في كريستيانيا (أوسلو حالياً). كانت النرويج في ذلك الحين محايدة، غير أنه لم يكن بالإمكان استخدام السفارة البريطانية خشية إثارة الألمان ولفت انتباههم. لذا طلب هول من والدي الذهاب هناك وإدارة المحطة بشكل سري لصالح أم آي ٦. وبعد بضعة أيام كان في طريقه إلى النرويج، بصفة تاجر متنقل يبيع الأدوية الزراعية، وأقام في فندق صغير في شارع جانبي من مدينة كريستيانيا واستأجر غرفة على السطح كافية لوضع الجهاز وتشغيله دون إثارة أية شكوك.

وقد زودته محطة أم آي ٦ الموجودة في السفارة بأجهزة الاتصال وقطع الغيار. وكان أمراً في غاية الخطورة. إذ أن وجود جهاز الراديو عنده كان سيؤدي إلى طرده إذا ما اكتشف. فلم يكن يتمتع بالحصانة الدبلوماسية كما أنه ليس جزءاً من البعثة الدبلوماسية في البلاد. وفي أفضل الأحوال فإنه سيسجن حتى نهاية الحرب، أما أسوأها فهي المغامرة بمواجهة نوايا المخابرات الألمانية والوقوع في يدها.

استمرت العملية بنجاح لمدة ستة أشهر تم خلالها تزويد البحرية البريطانية بمعلومات لا تقدر بثمن عن نوايا الأسطول الألماني. وذات صباح نزل كي يتناول طعام فطوره على نفس الطاولة المعتادة. وخلال نظرة عابرة على الشارع رأى ملصقاً جديداً معلقاً على الجدار المقابل. كانت صورته ومكافأه لمن يدلي بمعلومات تقود لاعتقاله.

كان قد وضع خطة الهرب مع أم آي ٦ قبل أن تبدأ العملية. أنهى فطوره بسرعة، وعاد لغرفته، ثم جمع بعناية كبيرة جهازه ووضعه في صندوقه المخصص لذلك ودفعه تحت السرير. كما جمع وثائق السفر مثل جواز السفر وهوية البحرية، وترك مبلغاً من النقود على أمل أن يشجع ذلك صاحب الفندق على نسيانه.

وبدل أن يسلك الطريق المؤدي إلى الشاطىء السويدي، الذي تعتقد السلطات النرويجية بأنه أفضل طريق للهرب، اتجه نحو الجنوب الغربي. وعلى بعد عشرة أميال جلس على صخرة قرب الطريق. وبعد مضي بعض الوقت جاء ليفيتنانت بحري بريطاني إليه وسأله

من يكون. وعندما عرّف أبي بنفسه تم نقله بواسطة لنش إلى ظهر مدمرة بريطانية.

وبعد سنوات، عندما اقترب موعد تقاعدي، حاولت الوصول إلى تفاصيل هذه العملية في ملفات أم آي ٦. ورتبت مع السير موريس أولدفيلد، الذي كان حينها مديراً لأم آي ٦، قضاء يوم كامل في قسم السجلات للبحث عن الأوراق. ولكنني لم أستطع العثور على أي شيء. فقد قام المسؤولون في أم آي ٦ بالتخلص من كافة الوثائق ضمن عملية روتينية قبل سنة من ذلك التاريخ.

ولدت عام ١٩١٦ في بيت جدتي في تشسترفيلد، حيث كانت تقيم أمي أثناء غياب والدي في النرويج من أجل أم آي ٦. وكان هناك ليلتها غارة قام بها منطاد من نوع زيبلين على شيفيلد المجاورة، وجئت أنا قبل موعد ولادتي. لم يكن هناك أسرة كافية في المستشفيات بسبب ضغط الحرب، ولكن والدتي احتفظت بي حياً باستخدام حاضنة من زجاج حاويات المواد الكيماوية وزجاجات الماء الساخن.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عاد والدي للانضمام إلى شركة ماركوني. وأصبح تحت حماية ماركوني نفسه فجعله رئيس قسم الأبحاث. وهكذا انتقلنا إلى بيت واسع قرب البحر في منطقة فرنتون حيث مكثنا بضعة أشهر انتقلنا بعدها إلى بيت في ضواحي كيلمز فورد. وكان بيتنا يبدو وكأنه مصنع مهمل للأجهزة اللاسلكية، إذ كانت أجهزة الراديو المعطلة بمختلف درجات عطلها والصناديق الحديدية المحشوة بالأسلاك متناثرة في كل مكان في البيت. وكان والدي عاطفياً هادئاً فيه من صفات الفنان أكثر من صفات المهندس. وبقدر ما كنت أتذكر فإنه كان يأخذني معه إلى الحديقة أو إلى الحقول الواسعة على شواطىء ايسيكس ليعلمني أسرار اللاسلكي. كان يمضي الساعات الطوال وهو يشرح لي عمل الصمامات والبلورات ويريني كيف يدير بعناية بالغة قرص التوجيه بحيث تتحول الأصوات المتشابكة والمشوشة إلى إشارة واضحة. كما علمني كيف أقوم بتجاربي الخاصة. ما زلت أذكر فخره واعتزازه بي عندما كنت أقوم بعرض مواهبي الخام لضيوفنا مثل السير آرثر ايدنغتون وج. ج. تومسون.

كان لجهاز أم آي ٦ علاقات قوية مع شركة ماركوني بعد الحرب العالمية الأولى، وحافظ والدي على علاقته بهم. وكان لماركوني قسم بحري مسؤول عن تصليح أجهزة اللاسلكي وتزويدها بالعاملين عليها في السفن. وقد قدمت شركة ماركوني بذلك غطاء جيداً لجهاز أم

آي ٦، حيث يمكنهم أن يرتبوا مع والدي إمكانية استبدال عامل لاسلكي في وضع معين بضابط من طرفهم يقوم بتنفيذ مهمات خاصة في ظروف محددة.

كان الأدميرال هول يزور بيتنا باستمرار. وكان يمضي مع والدي ساعاتٍ طويلة يبحثان خلالها القضايا الخاصة وآخر التطورات. وكان والدي يعرف أيضاً الكابتن مانسفيلد كمنغ، أول مدير لجهاز أم آي ٦. وكان معجباً بشخصية كمنغ لشجاعته وقدرته التقنية. كما التقى والدي بالكابتن فيرنون كيل مؤسس أم آي ٥، إلا أنه لم يكن يحبه.

كان المتخرجون من أكسفورد أو كامبريدج، يعملون في الغالب في أم آي ٥ أو أم آي ٦، إلا أن والدي اختار نهائياً العمل مع أم آي ٦.

كانت شركة ماركوني في العشرينات من أفضل الأماكن في العالم لعمل العلماء. وكان ماركوني نفسه، الذي يعرف بأول حرفين من اسمه ج. م.، يلتقط العلماء بدقة ونجاح، وكان شجاعاً في استثمار ما يفكر به. وكان أعظم نجاح له هو اختراع نظام الموجة القصيرة في الراديو، كما أنه يستطيع أن يدعي لنفسه عن حق بأنه أول من وضع أسس الاتصالات الحديثة، وهو إنجاز عظيم تحقق، كغيره من الانجازات العلمية في بريطانيا، رغم المعارضة الشديدة من قبل الحكومة في حينه.

قبل الحرب العالمية الأولى قررت بريطانيا بناء نظام راديو ذي موجة طويلة لكي يحل محل النظام السلكي القائم آنذاك والذي كان يعتبر الوسيلة الأساسية في ربط أطراف الأمبراطورية ببعضها ولقد ظل القرار معطلاً أثناء الحرب. أما ماركوني فكان يعتقد بأن الأفضل بناء نظام يقوم على الموجة القصيرة لتغطية أكبر مساحة ممكنة من الأمبراطورية. وكان هذا يعني الأمل ببث كميات أكبر من المعلومات في وقت أقصر. ورغم التقدم الكبير في مجال اللاسلكي أثناء الحرب فقد أعتبرت اللجنة الملكية عام ١٩٢٢ مشروع ماركوني بأنه غير ناضج. كما علق أحد أعضاء اللجنة كذلك بقوله إن الراديو برمته قد أصبح فناً منتهياً.

وهكذا طرح ماركوني تحديه. وقدم عرضاً ببناء أي نظام اتصال عبر العالم ـ مقابل أن تعلن الحكومة مشروع الموجة الطويلة لحين إنهاء تجاربه، وأن تقوم الدولة بتبني مشروع الموجة القصيرة في حال نجاحه. ووافقت الحكومة ووضعت شروط العقد مع الشركة وهي شروط تعجيزية.

وهكذا طلبوا من ماركوني أن يكون الاتصال بين غريمسبي وسيدني في أستراليا بطاقة ٢٥٠ كلمة في الدقيقة وباستخدام طاقة كهربائية لا تزيد قوتها عن عشرين كيلواط. وضمّنوا العقد أيضاً أن يتم إنجاز هذا المشروع خلال اثني عشر شهراً.

كانت هذه شروط تعجيزية. فالراديو كان في مراحله الأول وكانت المعلومات عن التيار المستمر متواضعة. وهكذا بدا أن نجاح المشروع سيكون مستحيلاً بدون أن تكرس ماركوني طاقماً من العلماء لإنجاحه. وكان هذا الطاقم يتألف من والدي، والكابتن هـ. ج. راوند، وس. س. فرانكلين. أما ماركوني فكانت عنده موهبة عظيمة في اكتشاف العلماء الأذكياء الذين يعتمدون على ثقافتهم الذاتية. فلقد اكتشف فرانكلين، على سبيل المثال، الذي كان ينظف المصابيح في مصنع ابسويتش مقابل أجرة أسبوعية زهيدة لا تزيد عن بضعة شلنات. وبعد عدة سنوات أصبح فرانكلين واحداً من العلماء البارزين في الشركة.

أذهل مشروع غريمسبي - سيدني أقطاب صناعة الاتصالات اللاسلكية. وكان والدي يتذكر دائماً كيف كان يسير في شارع برودواي مع ديفيد سارنوف، الذي كان حينئذ رئيس وكالة الاتصالات، وكان العمل في المشروع في قمته.

سأل سارنوف والدي مرة: «هل جن ماركوني؟ سيقضي عليه هذا المشروع. لن ينجح أبداً..».

فأجابه والدي: «ج. م. وفرانكلين يعملان بشكل جيد».

وأضاف سارنوف: «هل تراهن؟».

بعد ثلاثة أشهر كان المشروع قيد العمل، في نفس الوقت المحدد في العقد. كان يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم بطاقة ٣٥٠ كلمة في الدقيقة. وكنت اعتبره وما زلت أعظم اختراع في هذا القرن.

أمضيت شبابي وأنا أعيش في هذا الجو المشحون بالإثارة. وكنت أعاني من وضع صحي سيء. فقد أصبت بالكساح الذي أجبرني على استخدام أرجل حديدية حتى سن المراهقة. وكان التعويض عن ذلك قائماً. فقد كان يحضرني والدي من المدرسة ويأخذني معه إلى مختبره. وكنت أتابعه هو ومعاونيه وهم يبذلون محاولاتهم الكبيرة لإنجاز مشروع سيدني - غريمسبي. وقد علمني ذلك درساً مهماً في حياتي هو أن الخبراء يخطئون في القضايا المهمة.

في بداية الثلاثينات تفتحت الآمال أمام عائلة رايت. فبالكاد شعرنا بالأزمة المالية العالمية. انضممت في ذلك الوقت إلى مدرسة المطران ستورتفورد، وهي مدرسة صغيرة، بدأت أتألق فيها أكاديمياً حتى انني ألقيت عن كاهلي الصحة المعتلة التي لازمتني منذ ولادتي. وعدت إلى البيت في العطلة الصيفية عام ١٩٣١ بعد النجاح في المدرسة بتفوق في

كل المواد. وفي الفصل اللاحق كان علي أن التحق بمجموعة الجامعة، آملاً في بعثة جيدة إلى أكسفورد أو كامبريدج.

بعد أسبوع واحد تحطم عالمي. فقد عاد والدي ذات مساء ليخبرنا بأنه فصل وفرانكلين من الخدمة. وقد مضت أيام عديدة قبل أن يستطيع هو أن يفسر لنا ما حدث، أما أنا فقد تطلب مني تفهم ما حدث سنين عديدة.

في بداية العشرينات توصل ماركوني مع شركات الاتصال السلكي إلى القناعة بأن التعاون معهم هو السبيل الوحيد لجعل مشروع اللاسلكي ينطلق في العالم أجمع على أنه الطريقة الوحيدة للاتصال بين أطراف العالم الأربعة. ولكن أجهزة الاتصال اللاسلكي كانت تشكل تهديداً متواصلاً لمصالح الاتصالات السلكية. وهكذا أصبح لأصحاب الاتصالات السلكية النفوذ الأكبر في الشركة، وبدأت عملية التخفيض تتم على حساب اللاسلكي والمشاريع الجديدة المرتبطة به. وكان ماركوني، الذي أصبح مريضاً وكهلاً، قد تقاعد في إيطاليا، وتقلص نفوذه في الشركة حتى أصبح عاجزاً عن التدخل لفرض موقفه على الإدارة الجديدة. وهكذا تم فصل فرانكلين ووالدي وغيرهما من العمل. فتجمدت صناعة الاتصالات اللاسلكية عقداً من الزمان أدت إلى ظروف عيش صعبة مرت بها عائلتنا.

خلال أشهر قليلة انزلق والدي إلى عالم الإدمان على الكحول. وأصبح عاجزاً عن تقديم ما يكفي لولديه لبقائهما معاً في المدرسة. وبما أنني كنت الأكبر وحصلت على شهادة مدرسية كان علي أنا أن أترك المدرسة. وأعادت حدة تلك الأيام المرض إلي وأصبت بالتلعثم المزمن الذي جعلني في كثير من الأوقات أبدو صامتاً وعاجزاً عن الكلام. جعلتني أيام ذلك الصيف أتحول من طالب مدرسة ذي مستقبل أمامه، إلى رجل لا مستقبل له مطلقاً.

وقد ترك قرار تركي المدرسة أثره السيء على صحتي كما أغرق أبي في الشعور بعقدة الذنب، فانساق وراء الشرب بكثرة. وكافحت أمي بكل إرادتها ولكن انهيار وضعنا المادي والاجتماعي جعلها تعيش معزولة عزلة تامة. ولم يعد يزور بيتنا سوى الممرضات اللواتي يأتين لمحاولة إنقاذ حياة أبي من شرب الويسكي بكميات كبيرة.

وبعد عدة سنوات بدأت أبحث عن أم آي ٥، في الوقت الذي انضم فيه العديد من الشباب الإنجليز المرفهين إلى الشيوعية. كانت هذه الفترة تثيرني باستمرار. فكانوا يتمتعون بكافة الامتيازات والخلفية الثقافية التي حرمت منها، بينما عانت عائلتي من ظلم الرأسمالية. لقد عانيت أنا من الانهيار المالي والكساد الكبير أما هم الذين لم يطالهم شيء من هذا فقد

تحولوا إلى التجسس ضد بريطانيا. وهكذا أصبحت أنا الصياد وهم الطريدة.

- بدا بالإمكان تفسير ذلك ببساطة، كان ذلك عام ١٩٣٢. لم يكن لدي أية مؤهلات. كنت في الخامسة عشرة وبحاجة ماسة لوظيفة، أي وظيفة، ولم يكن لدي الوقت الكافي للانخراط في الفلسفة السياسية. نشرت إعلاناً في صحيفة التايمز أطلب فيه العمل وجاءني أول رد من سيدة تدعى مارغريت لي، التي كانت تدير مزرعة صغيرة في سكوتلندا. وهكذا أصبحت أعمل عندها مقابل الأكل والنوم فقط. وهنا في هذه الطبيعة الجميلة من سكوتلندا بدأت أستعيد ما فقدته فيما سبق من الأيام، واكتشفت حبي الكبير للزراعة.

كانت مارغريت لي مثالية. كانت تريد إدارة مزرعتها بشكل تكون فيه مركز تدريب لشباب الأكواخ في لندن بحيث يستطيعون الحصول على وظيفة مدراء مزارع. في الواقع لم تنجح هذه الفكرة، فقررت مقابل ذلك أن تكتب رواية عن الحياة في هذه المزرعة. كانت هي تكتب فيما أقوم أنا بإدارة المزرعة. أما في الليل فكانت تطلب مني أن أقرأ لها بصوت عال ما كتبته، الأمر الذي ساعدني على التخلص تدريجياً من اللعثمة. وفيما بعد نشرت الكتاب فسجل نجاحاً هائلاً.

في ربيع ١٩٣٥ قام ملاّك جشع بإجبارنا على الرحيل من المزرعة طمعاً في أجر أكبر لم تستطع توفيره. فانتقلنا إلى مزرعة أخرى بأجرة أقل في كورنويل، واستمرت حياتنا على نفس الطريقة سابقاً. كان طموحي في هذه الفترة أن أصبح عالماً زراعياً يبحث في تقنية إنتاج الطعام. ولكن دراستي المبتورة لم تكن لتؤهلني للتقدم لبعثة دراسية. فلم يكن يوجد منح دراسية في الثلاثينات. وأخيراً استطعت أن أجمع مبلغاً من المال بمساعدة صغيرة من مارغريت، ومن صفقات بيع الخنازير، ومن صديق قديم للعائلة، أهلني للحصول على مقعد في مدرسة الاقتصاد الزراعي. بعد هذا الوقت بسنة تقريباً كنت قد دخلت جامعة أكسفورد وتزوجت زوجتي لويس. كان ذلك عام ١٩٣٨. وكان شبح الحرب يحوم في كل مكان. فشعرنا، مثل غيرنا من الشباب، بأن الفراق آت لا محالة.

في الوقت الذي ذهبت فيه إلى أكسفورد بدأ والدي بترميم الخراب الذي تركته فترة ست سنوات من الإدمان على الكحول. وبفضل إصرار أمي عاد للعمل في شركة ماركوني كمستشار. وأعتقد أن إحساسه بقدوم الحرب أعاده إلى العمل هناك. وبحكم رغبته في تقديم خدماته، كما فعل في عام ١٩١٥، اتصل بالسير فريدريك براندريت في الخدمات العلمية البحرية. وأخبره براندريت بصراحة أن سمعته كمدمن كحول تجعل من المستحيل تسليمه

وظيفة عليا. وبدل ذلك اقترح عليه براندريت وظيفة ضابط علمي عادي لفترة تجريبية. كان هذا مثار إعجابي المستمر بأبي. فقد ضحى بنصف راتبه الذي كان يتقاضاه كمستشار في شركة ماركوني ليبدأ العمل العلمي الميداني مع علماء أصغر منه بعشرين سنة. لم يكن يطرح مطلقاً مسألة أنه كان ذات يوم المسؤول الأول عن الأبحاث العلمية في شركة ماركوني. كنت أحس بشكل ما حنينه إلى الماضي. ولكنه كان دائم التعلق بفكرة أن الحرب قادمة وعلى كل شخص واجب يؤديه.

أكدت خبرته الطويلة في تفحص الأثير انتعاش عمله من جديد. فعيِّن مديراً لقسم تطوير وسائل اعتراض الاتصالات الألمانية ـ ثم أصبح بعد ذلك كبير العلماء في مؤسسة الإشارة الأدميرالية. وعاد ليشارك في اللعبة الكبيرة حيث اكتشف شبابه من جديد. وفي عام ١٩٤٣ كان مسؤولاً عن خطط الإشارة، المستخدمة يوم الهجوم. كانت مهمة كبيرة. لكنه كان يعود بعد العمل كل يوم ليمضي بقية الساعات مع جهاز اللاسلكي، يستمع إلى إشارات المورس، يرتبها ويحللها ويجهزها لليوم التالي. وغالباً ما كنت أفكر بأن هذه اللحظات هي من أسعد أوقاته إذ كان يجلس بين الأجهزة ويضع السماعات على أذنيه مجاولاً أن يكتشف شيئاً من خلال هذه الأجهزة الغامضة.

عندما اندلعت الحرب، أغلقت مدرسة الاقتصاد الزراعي، وأصبح أستاذي سكوت واتسون كبير العلماء في وزارة الزراعة، وقد أخذ معه غالبية الموظفين للبدء في المهمة النبيلة ألا وهي تأمين الغذاء للبلاد في زمن الحرب. كنت أنا الوحيد من أفراد عائلتي غير المتورط بشكل أو بآخر بالجهد الحربي. انضم أخي إلى مختبر الأبحاث الالكترونية، أما أختي فقد كانت تعمل عاملة مقسم اعتراض. وهكذا كتبت لبراندريت أبحث عن مكان لي في الادميرالية. فوجئت، إذ تسلمت برقية منه يطلب مني مقابلته في مكتبه.

كان براندريت يعرفني منذ سنوات عديدة. فقد كان مزارعاً ذكياً نجح في تربية نوع مميز من القطعان، كما أبدى اهتماماً بتجاربي في المزرعة. وسألني ماذا يمكن أن أفعل في الأدميرالية. فقلت له إن مشاهداتي لعمل والدي ومراقبتي له تجعلني مؤهلاً للتعامل مع الالكترونيات بنفس المستوى الذي يمكن أن تؤهلني له الجامعة. وخلال عشر دقائق رتب مسألة تعييني في مختبر الأبحاث الأدميرالي على أن أبدأ العمل في الأسبوع القادم.

كان القسم الذي أعمل فيه في مختبر الأبحاث تحت إدارة ستيفن باترورث الذي كان يسمى دائماً سام. كان طويلاً ونحيلاً وذا شعرٍ أجعد غزير، يدخن الغليون باستمرار، ويعمل كالمجنون، ويجمع حوله مجموعة من العلماء الأفذاذ الشباب مثل ماسي، غان، ويغلزورث،

بايتز وكريك. شعرت بعدم الاطمئنان عندما دخلت مختبر الأبحاث لشعوري بالنقص في مؤهلاتي. لذا كنت أمضي الوقت كل ليلة على طاولة المطبخ في شقتنا الصغيرة في هامبتون ويك أتعلم الفيزياء المتقدمة من الكتب في الوقت الذي تتساقط فيه القنابل الألمانية في كل مكان. إلا أن باترورث كان مصدراً دائماً من التشجيع. فكان الفشل مصدر القوّة، وكان يعمل بصمت تاركاً الشهرة للآخرين. وفعلاً كانت مكافأته تافهة بعد الحرب.

كان تقييم دور مختبر الأبحاث في كسب الحرب أقل بكثير من الواقع. فالألغام المغناطيسية كانت واحدة من أهم المشاكل التي واجهت بريطانيا أثناء الحرب. فبدأ مختبر الأبحاث بالعمل على تطوير أنظمة تؤدي إلى تحييد المجال المغناطيسي لسفننا مما يؤدي لحمايتها من هذه الألغام. وبدون أنظمة فعالة حقيقية فإن مسألة قدرتنا على القتال في عام ١٩٤٠ كانت موضع تساؤل.

ففي دنكرك، مثلاً، غطت آلاف الألغام مياه الشاطيء الضحلة. وكان هتلر واثقاً من أنها ستمنع نقل القوات البريطانية بشكل كبير. عرف باترورث أن الألغام الألمانية تعمل في حالة كون القطب الشمالي نحو الأسفل، وأقترح أن يتم مغنطة السفن البريطانية بالقطب الجنوبي في الأسفل بحيث تبعد السفن هذه الألغام. وهكذا قامت قيادة البحرية بمغنطة كل السفن الذاهبة إلى دنكرك. وكانت النتيجة اننا لم نفقد أية سفينة بواسطة هذه الألغام.

وفي حمى الحرب لم يكن هناك خيار كافٍ مما أعطى المجال للشباب للإبداع. ففي فترة قصيرة بعد دنكرك طلب مني ومن عالم شاب آخر في مختبر الأبحاث هو راي غوسيج تغيير المجال المغناطيسي للبارجة الحربية «أميرة الويلز». وكانت مقطورة للصيانة في مكان جاف، وكان ضمن برنامجها في أول رحلة لها حمل ونستون تشرشل إلى مؤتمر مع روزفلت. كانت تعاني من خلل في مجالها المغناطيسي منذ إنشائها. لذا كانت تعتبر غير آمنة في وضعها الحالي.

ولذلك قمنا أنا وغوسيج بتفريغ مجالها المغناطيسي عن طريق إحاطتها بملفات ضخمة حولها. ثم قمنا بشحن هذه الملفات بالتيار بواسطة بطارية غواصة. استغرقت هذه العملية عدة أيام وتطلب عمل كافة أفراد طاقم السفينة. ورغم أننا كنا في منتصف العشرينات فقد كان مئات العمال يقومون بتنفيذ أوامرنا ويعملون بانسجام كامل مع توجيهاتنا.

العلم في زمن الحرب يتطلب تطوير الأدوات المتوفرة وحل القضايا بسرعة فائقة وفي الوقت المناسب، ولا يعتمد على الخطط طويلة الأمد لأنها تكون في وقت غير مناسب تماماً. لقد ساهمت الحرب في تشكيل فهمي اللاحق للاستخبارات التكنولوجية. علمتني

كذلك قيمة وأهمية التطوير العلمي، ومدى تأثير إطاعة المنفذين للعلماء الشباب الذين يمثلون العلم المبدع. لكن المحزن ان هذا كله اختفى من بريطانيا بعد الحرب، وتركت يد اللجان الميتة لتعبث بالحياة فيها.

ومنذ العام ١٩٤٢، عملت في أنظمة المتابعة المضادة للغواصات الصغيرة. وكانت تستخدم هذه الأنظمة بشكل ناجح لحماية الموانىء أثناء الرسو في شمال أفريقيا، وفيما بعد في شمالي غربي أوروبا. جعلني هذا العمل أشارك في عملية إغراق البارجة الألمانية الكبيرة «تيربيتز». كانت ترسو في التينفيورد وتشكل خطراً داهماً على الملاحة البريطانية. وهكذا قمنا بوضع خطة لإغراقها. كنا نعلم أن الألمان يقومون بحماية التينفيورد بواسطة أجهزة مراقبة للغواصات تتألف من صفوف من الملفات المنتشرة في قاع البحر بعناية تقوم بالتقاط المجال المغناطيسي للسفن المارة فوقها. وكانت هذه الملفات شبيهة بتلك التي صنعتها بنفسي في المختبر الجنائي. وهكذا طلب مني أن أقوم بتكييف مغناطيسية غواصاتنا الصغيرة لتمكينها من المرور إلى منطقة فيورد دون أن تكتشفها الأجهزة الألمانية.

لا شك بأن مسألة مغنطة الغواصة عملية أكثر صعوبة وتعقيداً من الباخرة، ومع ذلك اكتشفت في النهاية طريقة تجعل المجال المغناطيسي محايداً مع مجال أجهزة الاكتشاف القابعة في قاع البحر. دفعني النجاح في هذا الأمر إلى التوصل إلى أنه إذا مرت سفينةٌ ما في عاصفة مغناطيسية فإن هذا سيساعد في فشل جهاز المراقبة بنسبة تتراوح بين ١٠٪ إلى ١٠٠٪. فوضعت كافة استنتاجاتي هذه أمام قوات البحرية.

في عام ١٩٤٤ تم تغطية تقدم إحدى السفن البريطانية بواسطة مجال مغناطيسي عاصف. وقام البحارة الشجعان بوضع الشحنات باتجاه السفينة الألمانية تيربيتز ثم أغرقوها. ورغم أهمية الشجاعة التي تحلى بها البحارة فإن العامل الرئيسي للنجاح كان الدعم التكنولوجي الذي قدمه مختبر الأبحاث.

ومع نهاية الحرب تغير مجرى حياتي بشكل كبير. ورغم حبي الكبير للزراعة بدا واضحاً أن القدر يقودني في اتجاه آخر. وبدل الزراعة تقدمت بعد الحرب للمسابقة التي أجرتها سلطات الخدمة المدنية العلمية التي كان يرأسها س. ب. سنو. وكان هدفها إعادة تصنيف العلماء الذين أتسع عددهم في فترة الحرب. وقد نجحت في المسابقة وحصلت على ٢٩٠ علامة من ٣٠٠. وقد هنأني بترورث بحرارة.

إذن لم تضع خسارة تلك الأيام التي قضيتها وأنا أراجع الكتب، رغم أن الفضل يعود إلى باترورث.

وعاد والدي للعمل في شركة ماركوني كمهندس مسؤول في عام ١٩٤٦، كما عملت أنا في نفس السنة كضابط علمي في قسم مختبر الأبحاث الألكترونية. وقد عملنا معاً الأربع سنوات القادمة، دون أن نتحدث عن مأساة الثلاثينات التي عشناها، إلى أن جاءتنا تلك المكالمة الهاتفية من السير فريدريك براندريت عام ١٩٤٩ وأدخلت جهاز أم آي ٥ في حياتي.

الفصل الثالث

بعد عدة أيام من لقائنا الأول في مكتب براندريت عام ١٩٤٩ تلقيت مكالمة هاتفية من جون تيلر يدعوني فيها لزيارة لندن. واقترح عليَّ اللقاء في حديقة القديس جيمس حيث التقينا على الجسر مقابل قصر بكنغهام. وقد آثار امتعاضي أن نقوم بتحديد عملنا المتعلق بالأمن القومي بين أفواج البط والوز، نقف بين حين وآخر لنطالع صورتينا على وجه الماء.

كان تيلر رجلاً صغير القامة بشارب دقيق يشبه القلم ووجه حاد. وكان أحد ضباط الإشارة مع مونتغمري أثناء حملة الشمال الافريقي. ورغم أنه الآن يعمل فنياً في مكتب بريد إلا أنه استعاد حماسه العسكري. كان مسؤولاً عن البحث الفني كما كان يسمى، لمصلحة أم آي ٥، و أم آي ٦ من مختبره داخل وحدة التحقيق الخاصة في مبنى مكتب البريد في دوليس هيل. بذل تيلر جهده لكي يجعلني أعلم بأنه المسؤول. وأخبرني بأنه بالإضافة لزيارة قصيرة إلى قيادة أم آي ٥ في مبنى لينكون فيلد لمقابلة الكولونيل كمنغ، فإنه علي أن أتعامل معه كوسيط. ولم يشجع تيلر على بحث «المكتب»، وأوضح أنه سيتم إعطائي لقب «مستشار علمي للشؤون الخارجية»، وأنه لن يتم دفع راتب مقابل ما أؤديه من عمل. استمرت لقاءاتنا لعدة سنوات في حديقة القديس جيمس حوالي مرة في الشهر لنتحدث عن التقارير المكتوبة حول القضايا الفنية التي كنت أضعها في ملفات وأسلمها لسكرتير لجنة براندريت، س. و. رايت، الذي أصبح فيما بعد نائب سكرتير وزارة الدفاع.

قمت أنا وتيلر بتقسيم العمل الفني. كان مكتب البريد يضغط باتجاه إجراء بحوث لاستخدام الأشعة تحت الحمراء للمراقبة. أما أنا فبدأت استخدم مصادر مختبر الأبحاث الالكتروني لتطوير نوع جديد من الميكروفونات، وأدرس انعكاس الأصوات على أثاث

الغرف. كنت على علم بالمبادىء الأساسية للتذبذب من خلال عملي المضاد للغواصات. فعندما تصطدم أمواج الصوت بسطح مشدود مثل الشباك أو مكتب الملفات، فإن آلافاً من الأصوات تتشكل. المهم هو تتبع النقطة التي يكون فيها حجم التشوش أقل درجة ممكنة بحيث يمكن التقاط الموجات الصوتية كصوت مسموع.

ذات يوم في عام ١٩٥١ تلقيت مكالمة هاتفية من تيلر، الذي بدا متوتراً بشكل واضح.

«يجب أن أراك» قال بلهفة، وأضاف: «هل نلتقي بعد الظهر؟».

التقيت به ذلك اليوم على مقعد خشبي في حديقة مقابل مبنى وزارة الخارجية. ووصف لي كيف كان ملحق سلاح الجو البريطاني في سفارتنا بموسكو يستمع عبر جهاز الاستقبال W.H.F في مكتبه والذي كان يراقب بواسطته حركة النقل الجوي العسكرية الروسية. وفجأة سمع ملحق الطيران البريطاني صوته على نفس الجهاز عالياً وواضحاً. وإذ أدرك الملحق بأنه يوجد اختراق ما، بادر فوراً إلى الإبلاغ عن ذلك ـ وتباحثت مع تيلر في أي نوع من الميكروفونات يمكن أن يكون مستخدماً ـ ثم طلب مهندساً في اللاسلكي الدبلوماسي اسمه دون بيلي ليحقق في الأمر. أبلغت بيلي قبل سفره إلى موسكو الطريقة الأفضل لمراقبة الجهاز. بدأت أشعر للمرة الأولى إلى أي مدى تفتقر المخابرات البريطانية إلى الخبراء الفنيين. لم يكن لديهم حتى الأدوات المناسبة للعمل، لذلك قمت بإعطاء بيلي أدواتي الخاصة. وقد شنت حملة بحث واسعة النطاق داخل السفارة دون اكتشاف أي شيء. كان من الواضح أن الروس أدركوا أنهم كشفوا فقاموا بإغلاق الجهاز.

خلال سؤالي لبيلي بعد عودته من موسكو بدا لي أن هذا الجهاز ليس مجرد ميكروفون عادي، طالما أنه كان يوجد إشارات راديو قوية أثناء عمل الجهاز. فخطر ببالي أن الروس يجرون التجارب، مثلنا، على جهاز يعتمد على التذبذب. وبعد ستة أشهر ثبتت صحة وجهة نظري. ودعاني تيلر إلى اجتماع طارىء في حديقة القديس جيمس.

أخبرني تيلر بأن رجال الأمن في وزارة الخارجية الأمريكية كانوا يقومون بتفقد روتيني لمكتب السفير الأمريكي في موسكو للتحضير لزيارة يقوم بها وزير الخارجية الأمريكي. واستخدموا مولد إشارات لايجاد ما يسمى «بالتأثير المتكرر» وهو ما يشبه الصوت الناتج عن محطة راديو ما مع شخص على التلفون بينما يكون الراديو أو التلفزيون عنده يعملان. أدت هذه الطريقة إلى اكتشاف جهاز صغير موضوع في شعار الولايات المتحدة على الحائط خلف مكتب السفير.

كانت ذبذبة «التأثير المتكرر» تصل إلى ١٨٠٠ ميغا هرتز. وافترض الأمريكيون أن يكون الجهاز المكتشف يعمل على نفس الذبذبة. لكن الاختبارات التي أجريت على الجهاز أثبتت بأنه غير ثابت وغير حساس عندما يعمل على هذه الذبذبة. بعد اليأس اتجه الأمريكيون لطلب المساعدة من البريطانيين ليعرفوا كيف يعمل هذا «الشيء» كما كانوا يسمونه.

رتب لي براندريت مخبراً جديداً آمناً في غريت بادو، ثم أحضر «الشيء» إلي كل من تيلر وأمريكيين. كان الجهاز ملفوفاً بالقطن داخل صندوق خشبي صغير بدا لي انه صندوق لقطع الشطرنج. كان طوله حوالي ثمانية انشات، ومعه أنتين يقود إلى فجوة. داخل هذه الفجوة كان هناك ما يشبه الفطر المعدني له قمة مسطحة يمكن من خلالها تزويده بالطاقة المناسبة. ووراء هذه القطعة كان هناك غشاء رقيق لاستقبال الكلام، والذي بدا أنه مصاب بشيء ما. أوضح لي الأمريكيان بأن أحد علمائهم وضع أصبعه على الغشاء بالصدفة.

جاءتني هذه المهمة في أسوأ الأوقات. كان نظام مراقبة الغواصات يصل إلى مرحلة حاسمة تتطلب ساعات طويلة من التركيز. ومع ذلك كنت أقوم كل ليلة وكل يوم عطلة بالذهاب إلى المخبر الجديد المعزول. بقيت أعمل هناك لمدة عشرة أسابيع حتى استطعت حل اللغز.

أولاً كان علي تصليح الغشاء. فالجهاز يحمل علائم تشير أنه أداة تعجّل الروس في وضعها في الخدمة، فالمفروض أنها وضعت على عجل قبل زيارة وزير الخارجية الأمريكي. ولا شك أنه لديهم نوع من الأدوات المجهرية تم بواسطتها تركيب هذا الغشاء، لأنني في كل مرة كنت أحاول فيها تركيب الغشاء بواسطة الملقط كان يتمزق. وفي النهاية وبعد عمل شاق من التجريب استطعت أن أضع الغشاء أولاً ثم أثبته لاحقاً. لم يكن عملاً كامل الدقة ولكنه ناجح.

الخطوة التالية كانت قياس طول الأنتين لتجريب مدى التذبذب فيه. وظهر أن ١٨٠٠ ميغا هيرتز هي الذبذبة الصحيحة. عندما بدأت بتجربته بواسطة مولد إشارات ـ بدا بأنه عاجز عن المتابعة تماماً كما قال الأمريكيان بعد أربعة أسابيع من العمل اكتشفت بأننا نفكر بهذا «الشيء» بطريقة مقلوبة تماماً. افترضنا جميعنا بأنه يجب فتح الصفيحة المعدنية للخارج لكي تزيد نسبة التذبذب، فيما كان العكس هو الصحيح، أي أنها كلما اقتربت الصفيحة أكثر من الفطر المعدني كلما زادت حساسية الجهاز. وهكذا قمت بتجربة الجهاز على إشارات تصل إلى ٨٠٠ ميغا في الدورة، فبدأ «الشيء» بالعمل. اتصلت بوالدي وأنا في جو من الإثارة والاندهاش:

«لقد جعلت «الشيء» يعمل!».

«أعرف ذلك». قال لي، وأضاف: «صوتك يكاد يتلف طبلة أذني».

وهكذا قمت بتجربة الجهاز مع والدي وصديق له من شركة ماركوني يدعى كمب والكولونيل كمنغ وتيلر ورجلي الأمن الأمريكيين. دهش الأمريكيان من بساطة الجهاز أما كمنغ فانه شعر بالاعتزاز. جرى هذا بعد مأساة بيرغيس وماكلين. فقد أدى لجوء هذين الدبلوماسيين إلى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥١ إلى الغضب الشديد في الولايات المتحدة. وبدا أن أي طريقة ولو بسيطة يمكن من خلالها إبراز التفوق البريطاني كانت ذات أهمية حاسمة للأمريكيين. أما كمب الذين كان يرافق والدي فقد تعهد بإنتاج مثل هذا الجهاز في شركة ماركوني.

وسأل كمنغ:

«متى يمكن أن نحصل على مثل هذا الجهاز؟»

أوضحت له أنا وكمب بأن الأمر يتطلب سنة كاملة حتى نحصل على جهاز يعتمد عليه.

وقال كمب مخاطباً كمنغ:

«أعتقد أنه بإمكاننا تقديم العقد يا مالكولم، ويبدو أننا بحاجة لرجل يعمل تحت أمرة بيتر ولا يبقى سوى التمويل من جانبك».

«حسناً، ولكن من الصعب أن ندفع نحن، كما تعلم.» أجابه كمنغ. «إن وزارة المالية لن توافق على توسيع الميزانية السرية».

تدخلت أنا في الحديث فقلت: «لو كانت الحكومة تتجه جدياً نحو تطوير أدوات أم آي ٥ وأم آي ٦ الفنية، فأعتقد بأنه سيتم التصويت على الميزانية علناً».

«إنهم مترددون جداً»، أجاب كمنغ، «وكما تعلم فنحن في الواقع غير موجودين».

ثم نظر إلي نظرة كمن خطرت بباله فكرة معينة. وقال:

«يمكن أن تتصل بالأدميرالية باسمنا وتطلب منهم المساعدة في التصويت العلني...».

كانت هذه بدايتي في التعامل مع طرق مالية المخابرات. وكانت مشكلة لاحقتني حتى الستينات. وبدل أن يكون هناك مصدر مالي لدعم المتطلبات التقنية، كان على المخابرات

بريطانية أن تمضي فترة ما بعد الحرب معتمدة على عطايا القوات المسلحة المتذبذبة. ني أعتقد أن هذا السبب بالذات هو الذي يكمن وراء ضعف جهاز المخابرات البريطاني في فترة ما بعد الحرب المباشرة.

وكما طلب مني، بدأت بمحاولة إقناع الأدميرالية بتحمل مسؤولية الإنفاق على تطوير الميكروفون الجديد. رتبت موعداً طارئاً لمقابلة خليفة براندريت في رئاسة الخدمات العلمية البحرية السير ويليام كوك. كنت أعرف كوك معرفة جيدة. كان نحيلاً بشعر أحمر وعيون زرقاء، مولعاً بالمخططات الضخمة. كان منظماً بارعاً ومليئاً بالأفكار. تعاملت معه لأول مرة بعد الحرب عندما طلب مني العمل تحت أمرته في أحد المشاريع الذي ألغي فيما بعد عندما أصيب السير بن لوك سبيزر، الذي كان وقتها كبير علماء وزارة التموين، بأزمة ضمير. والمفارقة هنا هي أن كوك نفسه بدأ يشارك في الشك القائم حول الأسلحة النووية لأسباب عملية وسياسية أكثر منها أخلاقية. شعر بأن بريطانيا تستعجل إنتاج القنبلة النووية، وخشي أن تفقد البحرية أهميتها مع تطور صناعة الصواريخ. أدرك أيضاً، كما أعتقد، بأن هامش القنبلة النووية كان مضحكاً جداً أمام التفوق الهائل للقوة الأمريكية والروسية. كانت هذه وجهة نظر تبناها العلماء العاملون في رتبة أدنى في الخدمات أثناء فترة الخمسينات.

أوضحت لكوك بأن الميكروفون الجديد سيكون له فوائد استخبارية كبيرة، يمكن أن تستفيد منه البحرية لو وافقت على تمويل المشروع. ابتسم لهذا التبرير لكنه وافق في نهاية اللقاء على تزويدي بستة علماء من البحرية وتمويل مختبر يبنى خصيصاً لهذا الغرض في موقع شركة ماركوني.

خلال ثمانية عشر شهراً كنا جاهزين لعرض أول عينة أعطيناها اسماً كودياً هو «ساتير». قدمت نفسي أنا وكمب عند مدخل قيادة أم آي ٥ في مبنى ليكون فيلد. استقبلنا هيو وينتربورن وأخذنا إلى مكتب في الطابق الخامس وقدمنا لرجل طويل القامة محدودب الظهر يلبس بذلة مخططة وعلى شفتيه ابتسامة.

«اسمي روجر هوليس». قدّم نفسه لنا من خلف طاولة المكتب وهو يصافحنا.

«أخشى ألا يكون بإمكان المدير العام حضور العرض، لذا سأكون أنا موجوداً نيابة عنه».

كان هوليس جدياً. لاحظت أن طاولة المكتب فارغة لا أوراق عليها، وجاهزة لعرض «ساتير». وهكذا أريته الجهاز. كان عبارة عن حقيبة يقبع في داخلها «ساتير»

وأنتينين على شكل مظلتين يمكن فتحهما للخارج بحيث يصبحا مصدر استقبال وإرسال. ووضعنا ساتير في إحدى شقق أم آي ٥ جنوبي شارع أودلي، بينما كانت المظلتان على مكتب هوليس. نجح الاختبار بشكل جيد. فقد سمعنا كل شيء من الكلام الذي قيل حتى صوت إغلاق العلب بالمفتاح.

«رائع يا بيتر!». كان هوليس يردد أثناء الاختبار. ويضيف: «إنه سحر!».

أما كمنغ فكان يصدر ضحكة مكبوتة.

أدركت عندها بأن ضباط أم آي ٥ قد أمضوا فترة الحرب متشرنقين في المبنى القديم، ولم يحاولوا تجريب استخدام التقدم التقني. بعد انتهاء الاختبار وقف هوليس خلف مكتبه وألقى كلمة رسمية حول هذا اليوم الجميل في تاريخ المؤسسة، وكيف أن هذا بالضبط ما كان يدور بخلد براندريت عندما قام بتشكيل مجموعته. وكان الجميع يشعر بالارتياح حتى بدا الأمر وكأن الخدم قد عثروا على الماسة التي ضاعت في حديقة الزهور.

لقد أثبت «ساتير» بأنه نجاح باهر فعلاً. فقد طلب الأمريكيون منه اثني عشر نموذجاً بالإضافة إلى تصويرهم المخططات وصنعهم عشرين عدداً منه. وهكذا أصبح «ساتير» في الخمسينات ـ إلى أن تفوقت عليه أجهزة أخرى جديدة ـ يستخدم من قبل بريطانيا وأمريكا وكندا وأستراليا كأفضل السبل للتغطية المضاعفة. أما المهم بالنسبة لي فهو أن تطوير «ساتير» جعلني عالماً معتمداً في أم آي ٥. فمنذ ذلك اليوم ولاحقاً كان يتم الرجوع إلي لاستشارتي بشكل منتظم حول المشاكل التقنية المتزايدة.

كانت علاقتي مع كمنغ مقصورة عليه هو. إلا أنني بدأت أتعرف على تركيبة دائرته ـ فرع أ ـ كان يدير أربعة أقسام: أ ١ كان يقدم المصادر لأم آي ٥ من الميكروفونات حتى مفاتيح الأقفال السرية. أما أ ٢، فكان يعتبر القسم الفني الذي كان يضم موظفين مثل هيو وينتربورن الذي يستخدم المصادر الواردة في أ ١. أما أ ٣ فهو شرطة اتصال مع الفرع الخاص. وأخيراً القسم الرابع أ ٤ الذي يضم شعبة «واتشرز»* والتي بدأت مسؤولياتها بالتنامي بشكل ملحوظ وكانت تتضمن مراقبة الدبلوماسيين الأجانب وغيرهم ممن يجوبون شوارع لندن.

كان كمنغ يعاني من خطأ أساسي فيما يتعلق بالمسائل التقنية. إذ كان يعتقد بأن الفرع أ يجب أن يكون مسؤولاً عن إدارة العلم، وليس العكس. الأمر الذي أدى إلى تأخير تحديث

(*) شعبة «واتشرز» Watchers: هي شعبة تابعة للقسم أ ٤ في جهاز الأم آي ٥ وتضم ضباطاً تتركز مهامهم على مراقبة الأشخاص الذين يشكلون تهديداً لأمن الدولة.

كامل الدائرة العلمية لفترة طويلة. وطالما كنا نبحث في متطلباتنا التكنيكية، كانت علاقتنا مثمرة. ولكن آجلاً أم عاجلاً كنا سنصل إلى وقت لا أستطيع فيه أن أقدم النصح لأم آي ٥ ما لم يأخذني كمنغ أو وينتربورن مأخذ الثقة الكاملة. فغالباً ما كان وينتربورن يسألني إذا كان عندي أفكار عن مراقبة التلفونات. وكنت أجيب بأنه من الصعب عليّ العمل في هذا الموضوع دون الإلمام الكامل بالتقنيات المستخدمة في هذا المجال.

وكان كمنغ يقول:

«حسناً، بالطبع، لقد وصلنا إلى مرحلة متميزة وأود أن نتركها». وكان يضرب الطاولة بكفه وهو يرى ثورة وينتربورن.

حصل نفس الشيء مع شعبة «واتشرز». كانت المشكلة الرئيسية التي تواجه أم آي ٥ في فترة الخمسينات هي كيفية مراقبة ومتابعة العدد الكبير من الروس في شوارع لندن دون افتضاح أمرهم.

«هل لديك أية فكرة يا بيتر؟». سألني كمنغ وكأنني أحمل الجواب في جيبي. فاقترحت عليه أنه على الأقل يجب أن أطلع ولو بشكل سريع على عملية المراقبة. وقال كمنغ إنه سيرى ما يمكن تقديمه بهذا الخصوص، ولم أسمع منه شيئاً أكثر من ذلك.

ولكن برغم كافة الصعوبات فقد وجدت أم آي ٥ انني نافع لهم. فمع بداية عام ١٩٥٤ بدأت أمضي يومين كاملين من الأسبوع في مبنى ليكون فيلد. وبعد أحد الاجتماعات المطولة، قام كمنغ بدعوتي إلى الغداء في ناديه. وهكذا سرنا سوياً عبر حديقة القديس جيمس باتجاه بول مول إلى النادي، فيما كان كمنغ يلوح بالمظلة التي يحملها دوماً.

وعندما جلسنا إلى الطاولة أدركت أنه رغم أنني أتعامل مع كمنغ منذ خمس سنوات، فإن هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بأن علاقة ما تربطني به. كان قصير القامة، بعيداً كل البعد عن مهارات المثقفين، وفياً تماماً لجهاز أم آي ٥. ومثل شرطة روايات جون بوخان بدا كمنغ يطارد البطل والشرير في آن معاً. كان ضابط فرقة بنادق وينتمي إلى التقاليد العسكرية العريقة في أم آي ٦ التي تعود في جذورها إلى مؤسس الجهاز فيرنون كيل. كانت له صلة قرابة مع اول رئيس لجهاز أم آي ٦، الكابتن مانسفيلد كمنغ، وهي حقيقة أحب ان يؤكدها لي منذ التقينا لأول مرة. كما أنه كان المسؤول عن تجنيد المدير العام الحالي لأم آي ٥ السير ديك غولد سميث وايت. فلقد أخذوا مجموعة من الشباب في إحدى المخيمات أثناء الثلاثينات، ولم يكن وايت مسروراً بعمله كمدرس، فأقنعه كمنغ بأن يتقدم بطلب عمل في أم آي ٦.

أبدى وايت الكثير من الذكاء وقوة الحدس كضابط مخابرات وتجاوز أستاذه

بسرعة، ولكن الدين الذي كان يدين به لكمنغ دفعه لأن يقدم خدمات جليلة لهذا الأخير في الخمسينات.

كان كمنغ في وضع مادي جيد. فقد كان له مقر في ساسيكس. وكان يبدو في الريف ملاكاً كبيراً، أما في المدينة فقد كان يلعب دور الجاسوس. ربما يعود هذا إلى أيام الكشافة في المدرسة. وفي الحقيقة أمضى مدة خدمته في اعداد ملفات أم آي ٥ وغيرها من الأعمال الروتينية الإدارية، وتعايش بصعوبة مع النخبة من الجامعيين الذين تدفقوا على المخابرات أثناء الحرب. لكنه كان يتمتع بموهبة واحدة مدهشة: الاحتفاظ بأرقام خيالية من الصلات والعملاء. ولم تكن تشمل القائمة عنده أعضاء النوادي على كثرتهم فحسب، بل كان يقيم صلات مع أناس في كل مكان. فإذا ما احتاج المكتب امرأة غسالة برجل واحدة وتتكلم اللغة الصينية، فإن كمنغ قادر على تقديمها له. وعندما أصبح موقع مدير فرع أ شاغراً كان كمنغ مرشحاً واضحاً لمثله.

طلب كمنغ وجبة من بيض الفري. وسألني عن تاريخ حياتي أسئلة عابرة. وكان يصغي بدون اهتمام أثناء الغداء إلى أن طلب كأسين من البراندي واتجه للحديث عن سبب كرمه.

«أردت أن أسألك، يا بيتر، عن رأيك في سير الأمور في جهازنا، أقصد من الناحية التقنية؟».

كنت أتوقع إلى حد ما ما طرحه، لذا قررت أن أبوح بما يدور في رأسي:

«لن تستطيع أن تستمر أكثر» قلت له بحياد، «حتى تعين عالماً يقوم بحل المشاكل التقنية وتضعه في الصورة بشكل كامل».

وتوقفت فيما كان النادل يصب البراندي في الكأسين.

«يجب أن يكون له الحق في الاتصال مباشرة بالضابط المسؤول عن المشكلة، وعليه أن يساعد في تخطيط وتحليل العمليات».

وأخذ كمنغ الكأس وسكب البراندي في فمه.

«أجل!» قال موافقاً. «لقد توصلنا نحن إلى هذا بأنفسنا، ولكن الصعب في المسألة هو أن نجد الشخص المناسب. لقد كان جونز(*) يسعى للحصول على هذا المركز، ولكن إذا ما

(*) ر. ف. جونز: عمل عن قرب مع تشرشل في المخابرات العملية أثناء الحرب. كان ذكياً ولكن ليس أهلاً للثقة بسبب استقلاليته.

سمحنا له بالدخول إلينا فإنه سيطالب ثاني يوم بإدارة الفرع كله.

ووافقته على ذلك.

وكنت منذ بعض الوقت أشير على ويتربورن بأنني مهتم بالانضمام إلى أم آي ٥ بوظيفة كاملة إذا كان هناك مكان مناسب لي.

«أعتقد أن هيو أبلغك بأنني مهتم بهذه الوظيفة؟».

وأجابني:

«حسناً، هذه هي المشكلة يا بيتر، فليس لدينا اتفاقية مع الوايت هول. فنحن، ببساطة، لا نستطيع أن نجنّدك وأنت هناك حتى لو كنت متطوعاً».

وعاد كمنغ ليفرغ بقية الكأس في جوفه.

بالطبع»، قال، «إذا ما تركت البحرية فإن الأمور ستكون مختلفة..».

كان هذا كمنغ كما أعهده، كان يريدني أن أبدأ الحركة الأولى. فطرحت قضية تقاعدي من البحرية. كنت سأخسر تقاعد أربعة عشر عاماً إذا ما تركت العمل هناك، وبعكس كمنغ الغني، فإنه لم يكن عندي ما يكفي من الدخل الخاص لألجأ إليه. ودق كمنغ على طرف الكأس بلطف ثم أبدى تعبيراً عن المفاجأة لطرحي هذا الموضوع. وقال:

«أعتقد أنك تعي تماماً بأن هذه ستكون فرصة استثنائية لك، يا بيتر».

ثم توقف عن الكلام وعاد إلى واحدة من أفكاره المحببة، قائلاً:

«لسنا من الخدمة المدنية، ويجب أن تعتاد على الثقة بنا. فهناك دائماً التصويت السري. ونحن لا نستطيع أن نقدم فواتير مكتوبة. ولكنني متأكد من أنه عندما يحين الوقت فإننا سنرتب شيئاً ما. فنحن لا نحب أن نرى زملاءنا يعانون».

وبعد الغداء تركنا نعومة السجاد والبراندي في النادي إلى حي بيكاديللي.

«ستخبرني عندما تقرر ترك البحرية، أليس كذلك يا بيتر؟ وسأسعى أنا عند المسؤولين».

وتصافحنا ثم انطلق هو نحو مبنى ليكون فيلد والمظلة تحت إبطه.

كان طرح كمنغ مصادفة جيدة. فمشروع الأجهزة المضادة للغواصات يوشك على الانتهاء. والبحرية تسعى لنقلي إلى عمل في بورتسموث لا أحبه مطلقاً. أما شركة ماركوني

فكانت في هذه الأثناء قد تعاقدت على تطوير مشروع الخط الأزرق بالاتفاق مع شركة الكهرباء الإنجليزية. وقام إيريك إستوود نائب رئيس مختبر ماركوني، بعرض وظيفة علي تتعلق بالمشروع. فقدمت استقالتي إلى البحرية، وانضممت للعمل في شركة ماركوني كعالم أساسي فيها.

وجدت العمل في أبحاث الصواريخ مغثياً. ربما لأنني كنت آمل بالعمل قريباً في أم آي ٥. ولكن لم أكن الوحيد الذي شعر بأن نظام الصواريخ لن يتم بناؤه مطلقاً، كان مجرد وهم تخدع بريطانيا به نفسها. وعلى أية حال فإن هذا النوع من العلوم سلبي بشكل كامل. فما الداعي لإنفاق مبالغ طائلة على انتاج سلاح ستمضي حياتك كلها بالصلاة والأمل بألا تستخدمه؟.

اتصلت هاتفياً مع كمنغ وأخبرته بأنني استقلت من البحرية وإنني أنتظر حركته التالية. أخيراً، وبعد ستة أشهر تلقيت دعوة جديدة للغداء. كان كرمه أقل من المرة السابقة بشكل ملحوظ، وقد دخل إلى الموضوع مباشرة.

«لقد بحثت اقتراحك مع اللجنة ونحن نرغب بضمك إلينا. لذلك سنواجه صعوبات كبيرة مع الوايت هول إذا ما أخذناك كعالم. فلم يحدث أن أخذنا عالماً حتى الآن. وهذا قد يعقد الأمور. وما نقترحه عليك هو أن تنضم إلينا كضابط عادي، وسنرى ماذا يمكن أن ينتج عن ذلك».

أبديت رأيي بوضوح لكمنغ من انني لست راضياً عن هذا الاقتراح. فالفرق كما أراه أنه سيدفع لي كضابط عادي وليس كعالم ذي مرتبة عالية ـ الأمر الذي سيفرق حوالي ٥٠٠ جنيه في السنة. كما أن هناك مسألة مبدأ كما طرحها أبي عندما عرضت عليه القضية.

«لا تذهب قبل أن يعينوك كعالم، فإذا ما ساومت على هذه المسألة فلن يكون بمقدارك أبداً أن تعمل كعالم. وستنتهي كأي ضابط عادي ذي عمل روتيني دون أن تشعر بذلك».

فوجيء كمنغ برفضي ولم يحاول أن يقنعني. ثم تركني زاعماً أن لديه موعداً مهماً للغاية في مبني ليكون فيلد.

بعد شهر، عندما كنت في المختبر في غريت بادو، تسلمت دعوة للذهاب إلى مكتب كمب. كان هناك كمنغ وونتربورن.

«حسناً يا بيتر»، قال كمب، «يبدو أنني سأفقدك أخيراً؟ مالكولم يريد أن يأخذك للعمل كأول عالم في أم آي ٥».

أخبرني وينتربورن فيما بعد بأن كمنغ ذهب ليرى كمب وَيسأله كم من الممكن أن يدفع لي. أجابه كمب الذي كان يعرف حرص كمنغ على توفير أي مبلغ من أموال الحكومة، «نفس الراتب الذي يمكن أن تدفعه لي ـ راتب عادل».

«بالطبع سيكون هناك لجنة» قال كمنغ. «ولكنها ستكون مسألة شكلية».

صافحت الجميع وذهبت إلى المختبر لابدأ بتحضير نفسي لبدء حياة جديدة في الظلال.

الفصل الرابع

بعد أربعة أيام ذهبت إلى مبنى ليكون فيلد لمقابلة اللجنة. فتحت الطاقة الزجاجي المغطاة بالثلج وطلت منها عينان تفحصتاني بدقة. ورغم أن وجهي كان مألوفاً، فلم يكن لدي تصريح دخول. انتظرت بصبر إلى أن اتصل الشرطي بمكتب كمنغ لترتيب إرسال مرافق لي.

«هل تبدأ بزيارة المدير العام اليوم يا سيدي!» قال المرافق وهو يضغط زر المصعد ففتحت الأبواب الحديدية الثقيلة. كان مصعداً من الطراز القديم يصدر أصواتاً في صعوده وأخذت أعد الطوابق وهي تمر أمامنا حتى وصلنا إلى الطابق الخامس، حيث تتواجد مكاتب كبار ضباط الأم آي ٥.

ما أن سرنا قليلاً في الممر حتى دلفنا إلى غرفة كبيرة ومستطيلة تضم بداخلها مكتب المدير العام، بدت لي مثل أي مكتب من مكاتب السكرتيرات في الوايت هول ـ اللواتي مررن بحياة هانئة، وآلات الطباعة بصوتها المألوف. أما ما بدا غير مألوف في هذه الغرفة فهو مجموعة من الخزانات الحديدية مقابل الشباك. وفي منتصف الجدار البعيد كان هناك الباب المؤدي إلى مكتب المدير العام. إن طول المكتب الخارجي مصمم بشكل متعمد لإحباط أي محاولة للدخول عنوة. فهو يعطي المدير العام الوقت الكافي لتشغيل القفل الأوتوماتيكي على الباب قبل أن يستطيع أي شخص الدخول منه. عندما أشعل الضوء الأخضر على الباب جاءت سكرتيرة لترافقني عبر هذه المسافة الطويلة وأدخلتني غرفة المدير العام.

كان مكتب المدير منيراً ومنعشاً. وقد جعله الأثاث القديم والكراسي المغطاة بالجلد

يبدو أكثر شبهاً بشارع بوند منه بالوايت هول. كانت صور الثلاثة مديرين السابقين تطل على الغرفة من أحد الجدران.

في الجهة المقابلة كان يجلس كامل أعضاء لجنة مديري أم آي ٥ إلى طاولة الاجتماعات اللماعة. عرفت من بينهم كمنغ وهوليس، أما البقية فكانوا غرباء بالنسبة لي.

دعاني المدير العام السير ديك غولد سميث وايت للجلوس. لقد قابلته سابقاً في زياراتي العديدة إلى مكتب كمنغ، ولكنني لا أستطيع أن أزعم بأنني أعرفه جيداً. والمفارقة هنا أنه هو أيضاً كان يدرس في كلية المطران ستورتفود، ولكن قبل وجودي أنا فيها. كان طويل القامة ذا تقاطيع لطيفة وعيناً ثاقبة. كان فيه شيء من ديفيد نيفين، نفس الأخلاق الإنجليزية، السحر البسيط، والحس المرهف في اللباس. وهو، إذا ما قورن بلجنة، يبدو أكثرهم سفالة.

وعندما جلسنا افتتح المقابلة بملاحظة رسمية:

«سمعت بأنك ستنضم إلينا يا سيد رايت. أرجو أن تفسر لنا الأسباب وراء ذلك».

بدأت بتوضيح الأعمال التي قمت بها. وأكدت، كما أكدت سابقاً لكمنغ، بأنه من المستحيل أن أقدم خدمة أكبر إلا إذا كنت من الداخل وأحظى بثقة كاملة.

«أعتقد بأنني أتحدث باسم جميع مدرائي» أجابني، «أعتقد بأنه يجب أن أؤكد لك بأننا لن نقبل بالتعاون مع عالم في الداخل دون أن نقدم له التسهيلات اللازمة لإنجاز عمله. سنطلعك على كل الأمور وبشكل وافٍ».

هز كمنغ رأسه موافقاً.

«على أية حال»، أضاف وايت، «أعتقد أنه يجب علي أن أوضح لك أن العمل الأمني يختلف عن أي عمل في أقسام الوايت هول الذي اعتدت أنت عليه. وإذا ما انضممت إلينا فلن تكون مؤهلاً للترفيع».

ثم أوضح أن الدخول إلى العمل الأمني يأتي في سن أكبر من سن الدخول في العمل المدني، كما يتضمن عدة مراحل من التدريب العام في مختلف فروع أم آي ٥. وقليل جداً من الضباط العاديين استطاعوا الوصول إلى مراتب عليا، بينما لا يملك البقية أي فرصة حقيقية للوصول إلى أحد المناصب الإدارية الستة العليا. وبدخولي في مرتبة ضابط كبير لإنجاز وظيفة متخصصة جداً، جعلت فرصة الوصول لقيادة أي فرع أمراً مستحيلاً. أخبرت أعضاء اللجنة أنني

بطبيعتي أفضل العزلة والانزواء على المناصب لذا فإن هذا الأمر لن يضايقني مطلقاً.

ثم تحدثنا عن وحدة العمل مع الوايت هول، الأمر الذي كنت أشعر بأنه يحتاج إلى اهتمام ملح في الحقل التقني، وبعد حوالي عشرين دقيقة بدأت تنتهي الأسئلة. وأخيراً لخص ديك وايت رأيه:

«إنني أرى يا سيدي بأننا لسنا متأكدين من أننا بحاجة إلى شخص شهواني مثلك في جهاز الأمن». ثم توقف ليقدم رأيه النهائي: «ولكن إذا كان عندك الاستعداد للمحاولة فنحن مستعدون».

وهكذا ذاب التشدد والجمود. وقام أعضاء اللجنة من أماكنهم وتحدثنا لبعض الوقت. وفيما كنت أغادر أشار إلي ديك وايت فذهبت إلى مكتبه في نهاية الغرفة.

«بيتر، ستبدأ العمل في أ ٢ مع هيو وينتربورن، وبالطبع سيكون مالكولم مسؤولاً عن المهمات. ولكنني أخبرته بأنني أتوقع أن تمضي معظم وقتك على قضايا فرع د - القضايا السوفياتية».

ونقر بإصابعه على المذكرة الموضوعة على الطاولة وأخذ يحدق من النافذة باتجاه مجمع السفارة الروسية في منطقة كينغستون.

«إننا للآن لم نكسب المعركة بأي حال من الأحوال». ثم أغلق المذكرة وتمنى لي حظاً جيداً.

بعد الغداء ذهبت عن طريق الطابق الخامس لمقابلة روتينية مع مدير الموظفين جون ماريوت. خلال الحرب كان ماريوت يعمل سكريتيراً للجنة الصليب المزدوج، وهي اللجنة المسؤولة آنذاك عن نجاح عمليات أم آي ٥ - عن طريق تجنيد عشرات العملاء المزدوجين داخل المخابرات الألمانية. أما بعد الحرب فقد خدم في مخابرات أمن الشرق الأوسط قبل أن يعود إلى مبنى ليكون فيلد. لقد كان بيروقراطياً موثوقاً.

«أريد أن أتحدث معك - بعض التفاصيل الشخصية، شيء من هذا القبيل». قال وهو يصافحني بطريقة ماسونية مميزة. وأدركت عندها لماذا طلب والدي، الذي كان ماسونياً أيضاً، بشكل غير مباشر الانضمام إلى حركة الأخوة عندما طرحت عليه لأول مرة العمل مع أم آي ٥ بدوام كامل.

«نود أن نتأكد بأنك لست شيوعياً، أنت تفهم ذلك».

قالها وكان هذا الأمر مستحيل في أم آي ٥ . ففي الأسابيع القليلة التي سبقت اتصال كمنغ بي كنت أعي تماماً بأن أحد رجال الشرطة المتقاعدين والمرتبط بسكرتارية المدير العام قام باستجواب روتيني عني في شركة ماركوني. ومع ذلك فإنه لم يتم استدعائي لأية مقابلة مماثلة بعد هذه. وبالفعل فإنه بالرغم أن هذه الفترة كانت فترة تخل عن برامج التدقيق الصارمة في الوايت هول، فإن عمليات الاستقصاء المنظمة لم يبدأ العمل بها في جهاز أم آي ٥ إلا في منتصف الستينات.

كانت طاولة مكتب ماريوت فارغة، ولذا افترضت أن المقابلة مسجلة لضمها إلى سجلي الوظيفي. وقد اهتم ماريوت بالاجتماع بجدية بالغة، لكن لم يطرح إلا أسئلة قليلة.

«أعتقد أنك كنت تنتمي إلى الجناح اليساري عندما كنت شاباً، أليس كذلك؟».

«باعتدال. كنت أدرس في رابطة العمال الثقافية في الثلاثينات».

«إنها رابطة شيوعية، أليس كذلك؟».

«لقد صوّت لحزب العمل عام ١٩٤٥، أليس كذلك؟».

«أعتقد أن الجميع صوتوا لحزب العمل آنذاك».

«وأنت الآن في الوسط، كما أعتقد؟».

وأخبرته بأنني أمقت النازية والشيوعية. وبدا أنه كان مسروراً من الكلام الذي قلته. ثم انتقلنا إلى حياتي الخاصة. وظل يلف ويدور حول الموضوع ثم سألني :

«هل كنت شاذاً بأي شكل من الأشكال؟».

««لا مطلقاً!»

كان يدرس تعابير وجهي بعناية.

«هل حدث أن اتصل بك أي كان للقيام بعمل سري؟!».

«لا أحد سواك».

وحاول أن يضحك، ولكنه كان واضحاً بأنه سمع هذه الجملة آلاف المرات من قبل. ثم فتح درج المكتب وسلمني نموذجاً لتعبئته بتفاصيل عائلية. وهكذا تم التحقيق معي. فلا غرابة إذن أن يكون الأمر سهلاً لأمثال فيلبي وبيرغيس وماكْلين وبلانت.

قبل أن أنضم شكلياً ل أ ٢ كضابط عالم، مررت بيومين من التدريب مع ضابط شاب انضم إلى أم آي ٥ من الجامعة. كان برنامج التدريب تحت مسؤولية ضابط جلف اسمه جون

كاكني. وتقدمنا في التدريب بسرعة. بدا لي أن جلافة كاكني تعود إلى الجهد الذي يبذله لصياغة المجندين في أم آي ٥ وصقلهم. لذلك كان يختلف عن أي ضابط عادي في أم آي ٥. فهو يرفض الرتابة في العمل والركون إلى الروتين ويفضل عليهما الأساليب الأكثر حيوية وشجاعة. كان لكاكني شخصيته المستقلة وآفاقه الواسعة خارج حدود المكتب. لم يكن مفاجئاً لي عندما ترك العمل في الجهاز ليبحث عن وظيفة في القطاع الخاص. واليوم يعمل السير جون كاكني مديراً عاماً لشركة ويستلاند لصناعة الهليكوبتر.

بدأ كاكني برنامج التدريب بمحاضرة روتينية عن الحالة القانونية لجهاز أم آي ٥. وقال:

«لا يوجد وضع قانوني لهذا الجهاز. لا يمكن أن تحصل المخابرات على الوضع العادي الذي يتمتع به قسم الوايت هول، لأن عملها لا علاقة له في الغالب بالتجاوزات على القانون والملكية».

وقدم كاكني عدة أمثلة كالدخول إلى المباني بدون تصريح، أو الاعتداء على خصوصية الفرد، حيث تكمن المصيبة. وأوضح أن أم آي ٥ تعمل على قاعدة الوصية الحادية عشرة (من الوصايا العشر)، ـ «لا تمسك بجسرم» ـ وإن الجهاز لا يملك سوى القليل من الأساليب لحماية موظفيه. وشرح لنا عن كيفية الارتباط بالشرطة. فقد كانت تقوم على تقديمها المساعدة لأم آي ٥ إذا ما وقع خطأ ما، خاصة إذا ما تم الاقتراب من الشخص المطلوب. ولكن كان يوجد باستمرار توتر معين بين الطرفين.

«الشعبة الخاصة كانت تريد أن تكون نحن، ونحن لا نريد أن نكون هم».

وقدم لنا كاكني كتاب التعليمات في أم آي ٥، وشرح تنظيم العمل. كان هناك ست دوائر. الشعبة أ وتهتم بالمصادر؛ الشعبة ب وهي قسم الموظفين؛ الشعبة جـ المسؤولة عن الأمن الوقائي والتحقيق في كافة المؤسسات والمشاريع الحكومية، الشعبة د وتتولى التجسس المضاد؛ الشعبة هـ وهي المسؤولة عن المخابرات البريطانية في المستعمرات آنذاك والاختراق المضاد في ملاوي وكينيا، وأخيراً الشعبة و وتتولى القضايا المحلية وخاصة التصنت على تلفونات الحزب الشيوعي البريطاني وعلاقاته مع الحركة العمالية.

ولم يحدثنا كاكني إلا القليل عن المنظمات الشقيقة مثل أم آي ٦ والمخابرات السرية. وأخبرنا عن الأسس العامة التي تقوم عليها إدارة أم آي ٦ وتطرق بشكل عرضي للجهات التي ترتبط بها هذه المنظمة. ومن الناحية العملية ذكر قسم مكافحة التجسس وقسم الأبحاث اللذان يتعاملان مع الشؤون الشيوعية، رغم أن هذا الأخير أغلق في فترة لاحقة لانضمامي إلى أم آي ٥

وكان كاكني يتحدث بحياد، ولم أدرك إلا متأخراً، عندما بدأت أقيم علاقات خاصة بي مع التقنيين في أم آي ٦، عمق الكراهية بين المنظمتين.

بعد يومين من التدريب تم تصويرنا ومنحنا تصاريح دخول أم آي ٥. ثم قدم لنا كاكني شرطياً متقاعداً من الشعبة جـ، الذي قام بدوره بالمحاضرة فينا عن أمن الوثائق. وقال لنا بأنه يجب أن لا يتم نقل الوثائق من المكتب ولا بأي حال من الأحوال، ويجب أن نتأكد دوماً من أن المكتب خال من الأوراق، وأن الباب مغلق أثناء خروجنا ولو لعشر دقائق فقط. كما صرف لي الرقم السري للخزانة الحديدية وقيل لي بأن نسخة عن هذا الرقم ستبقى في خزانة المدير العام، بحيث تكون الإدارة قادرة على الوصول إلى أي ملف لأي ضابط في أي وقت من الأوقات على مدار اليوم. بدت لي كل هذه الإجراءات دقيقة وحساسة، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من مقارنتها بعمليات الاستقصاء غير المناسبة.

بعد الأسبوع الأول أدخلني كوكني إلى غرفة مكتب خالية إلاّ من جهاز تسجيل على المكتب. وأخرج مجموعة من بكرات أشرطة التسجيل من خزانة هناك. وقال: «خذها، تستطيع أن تحصل على المعلومات من فم الحصان!».

كان موضوع الأشرطة مطبوعاً على البكرة. «ملخص تاريخ قوات الأمن البريطانية» تأليف غاي ليديل، نائب المدير العام ١٩٤٦ ـ ١٩٥١. كان ليديل شخصية بارزة في تاريخ الـ أم آي ٥. لقد أنضم في عام ١٩٢٧، من خلال الشعبة الخاصة، حيث كان يدير لوحده تقريباً برنامجاً للتجسس المضاد للاتحاد السوفياتي. كما كان يدير عمليات أم آي ٥ المضادة للتجسس في فترة الحرب بتصميم وحماس شديدين، حتى انه كان أبرز المرشحين لمنصب المدير العام في عام ١٩٤٦. ولكن آتلي عين شرطياً، هو السير بيرسي سيليتو بدلاً عنه كتعبير عن الازدراء الذي يكنه لأم آي ٥ حيث كان يشك بأنها كانت وراء عملية رسالة زينوفيين عام ١٩٢٩. وجاءت خدمة ليديل تحت أمرة سيليتو، الذي ضاق ذرعاً بها، لتجعله يسقط مشوهاً في فضيحة بيرغيس/ ماكلين عام ١٩٥١. كان متعاطفاً مع بيرغيس لعدة سنين، وعندما هرب بيرغيس بقي ليديل يَسْعى للقمة. ثم استقال فيما بعد من لجنة الطاقة النووية.

وأدرت الشريط بعناية ووضعت السماعات على أذني. وجاءني صوت ناعم حريص ليبدأ بسرد التاريخ السري لبريطانيا. تأسست أم آي ٥ تحت رئاسة الكابتن فيرنون كيل عام ١٩٠٩، في وقت رأت فيه وزارة الحربية أن الصراع الأوروبي المستمر يتطلب وجود التجسس المضاد. وقد أثبتت أم آي ٥ فائدتها بسرعة من خلال تطويق كافة الجواسيس الألمان بعد وقت قصير من اندلاع الحرب. وتحدث ليديل بحرارة عن كيل الذي استطاع حسب رأيه أن يبني منظمة متميزة

من بدايات متواضعة بالاعتماد على قوة شخصيته. لقد كانت ميزانية أم آي ٥ محددة بشكل صارم في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى، فيما كانت أم آي ٦ تسعى لابتلاع منافستها. ولكن كيل قاتل بضراوة للحفاظ على منظمته واستطاع أن يزيد نفوذها تدريجياً.

كانت نقطة انطلاق امتياز أم آي ٥ بعد الحرب العالمية الأولى في نجاح غارة آركوس عام ١٩٢٧. فقد تعرض الوفد التجاري السوفياتي، المقيم في مكاتبه الواقعة في ٤٩ مورغيت مع شركة الجمعية التعاونية لعموم روسيا (آركوس) لغارة من قبل الشرطة بتعليمات وتوجيهات من أم آي ٥، مما أدى إلى اكتشاف كميات هائلة من النشاط التجسسي. وقد كرست غارة آركوس الاعتقاد السائد داخل أم آي ٥ أن الدولة السوفياتية الفتيّة هي العدو الرئيسي وأنه يجب وضع كافة الإمكانات لمحاربتها. وقد تم تأكيد هذا الاعتقاد من خلال عمليات أخرى لاحقة في الثلاثينات منها محاولة سوفياتية عام ١٩٣٨ لخرق ترسانة وول ويتش عن طريق مهندس شيوعي قديم يعمل هناك اسمه بيرسي غليدنغ. وقد استطاع ضابط أم آي ٥ الذكي ماكسويل نايت الذي كان يتابع العميل أن ينجح في زرع امرأة عميلة كشفت الخطة وأفشلتها.

في عام ١٩٣٩ بدأ كيل يفقد لمسته الخاصة به. إذ أصبح مهملاً. واضطر ليديل لأن يقدم تبريرات سخية لفشل أم آي ٥ في التحضير للحرب العالمية الثانية. وعندما أصبح تشرشل رئيساً للوزراء، كان مصمماً على إخضاع الوايت هول بكل السبل، ولذا فإن ذهاب كيل كان مسألة وقت لا أكثر. ورغم أن ليديل كان يندب ذهاب كيل، إلا أنه بدأ يكيل المديح للمدير العام الجديد السير ديفيد بيتري. وأشرف بيتري على عملية تجنيد واسعة للمثقفين الموهوبين، كما أشرف (بمشاركة ليديل رغم أن هذا لم يُثْبتْ) على إنجاز نظام التقاطع المزدوج المشهور. فكل جاسوس ألماني يهبط في بريطانيا إما أن يتم أسره أو يعاد ليقدم معلومات مضللة للقيادة الألمانية. ولقد لاقت هذه العملية نجاحاً كبيراً، كما كانت عاملاً أساسياً في خداع الألمان فيما يتعلق بساعة الصفر. وكان ليديل يصف أم آي ٥ أثناء الحرب بشكل بسيط. كان يقول «إنها أجمل رابطة في تاريخ المخابرات بين رؤوس متنافرة».

لكن حسابات ليديل سرعان ما انتهت بعد الحرب. وفي الحقيقة فإن محاضراته على الشريط كانت مضللة. لقد سجلت القضايا بدقة واحدة بعد الأخرى، وحادثة بعد الأخرى، لكنْ فكرة النجاح المتواصل لأم آي ٥ كانت فكرة مضللة. لقد كان يعرف بشكل جيد النواقص في فترة ما بعد الحرب التي تعود جذورها في الحقيقة، إلى الثلاثينات. لم يذكر بيرغيس وماكلين، أو ما يعنيان، كما لم يذكر شيئاً عن برنامج التحديث الكبير الذي كان يعلم هو وديك وايت في نهاية الأربعينات بأنه أصبح قديماً جداً.

ذكرتني هذه الأجواء بمدرسة عامة صغيرة. فقد كان الطلبة يعاملون المعلمين بمزيج من الاحترام والتملق الذي اعتادوا عليه، فيما كان عريف الصف النموذج لديهم. فقد كان المدراء العامون فقط يخاطبون بعبارة «سيدي» أما البقية فيخاطبون بأسمائهم الأولى. وفي أجواء أم آي ٥ هذه برزت شخصيات متهورة، من رجال ونساء دخلوا عرضاً في هذه المهنة العظيمة فظهروا على حسابها.

على السطح بدت الحياة مزيجاً من الغرابة والتعفن. كانت المكاتب تغلق كل سنة لحضور بعض الاحتفالات. وكل صباح كان الضباط الكبار، بدون استثناء أحد، يقضون نصف الساعة الأولى من اليوم في حل الكلمات المتقاطعة في صحيفة «تايمز». أما التلفونات التي كانت تنقل بالصوت أخطر الأسرار في العالم الغربي، فقد كانت تعامل بإهمال، كما كانت الأسئلة السرية تنتقل من مكتب إلى آخر.

كانوا يستخدمون الشيفرة في حل الكلمات المتقاطعة. فلقد كان كورتني يونغ، الذي كان مسؤولاً عن شعبة ج ١ لمكافحة التجسس السوفياتي في الخمسينات، ملك الكلمات المتقاطعة الذي لا يشق له غبار في الوسط الأمني. وكان يدعي دائماً أنه من السهل حل الكلمات المتقاطعة بقلم رصاص. كما كان يدعي قدرته على حلها في دماغه دون كتابه. لقد تحملت رؤيته وهو يمارس هذا العمل لسنة كاملة حتى جاء وقت لم أعد احتمل قوة الإغراء فانجرفت معه. فتحديته أن يقدم كل جواب فوراً وبدون تردد. وهكذا كان علي أن أقدم له كل ليلة، لمدة أسبوع، مشروبه على حسابي.

مركز العصب في أم آي ٥ كان السجل. كان يشغل كامل الطابق الأرضي في مبنى ليكون فيلد. أثناء الحرب العالمية الثانية نقل إلى سجن ورم وود سكرابز لحمايته من القصف الجوي على لندن. كانت عملية النقل هذه غير حكيمة. إذ لم تمض سنة على نقله حتى تعرض السجن للقصف مما أدى إلى تدمير واحتراق عدد كبير من الملفات. أما ما تبقى من هذه الملفات فقد تم حفظه في أكياس مضادة للرطوبة. وفي الستينات عندما بدأنا بدراسة تاريخ التجنيد في الثلاثينات، كان علي مراجعة ملفات ما قبل الحرب. كانت عملية شاقة لفصل الورق عن بعضه والوصول إلى المعلومات.

بعد كارثة ورم وود سكرابز بدأت أم آي ٥ التفكير في تصميم سجل فعال. وقام البريغادير هاركر، الذي كان نائب السير ديفيد بتيري أثناء الحرب، وكان إدارياً ناجحاً، بتجنيد خبير في الشؤون الإدارية هو هارولد بوتر ليقوم بإعادة تنظيم السجل. وكان اختيار بوتر

موفقاً تماماً. فقد كان ذا عقل منظم بدقة وذا إرادة لفرض أوامره حتى في فوضى أيام الحرب.

وفي عام ١٩٥٥ كان بوتر على وشك التقاعد، وكان يعجبه أن يطلعني على ما أنجزه. كانت السجلات موضوعة في قاعة مركزية، تحتوي على الجداول والملفات معاً. أما الغرف المحيطة فكانت تحتوي على الجداول المتخصصة. وكان يتم أخذ نسخة ثانية عن الملفات والجداول بشكل روتيني على ميكروفيلم، ثم يتم خزنها في مخزن خاص تابع لأم آي ٥ في تشيلتنهام لتفادي تكرار كارثة ورم وود سكرابز. كان وضع مكتب بوتر في زاوية من قاعة السجلات يدل على دهاء كبير.

«أرجو أن تعيد الملفات في الوقت المناسب، أليس كذلك يا بيتر؟ فأنا لا أريد أن أبدأ بملاحقتك مثل أولئك التعساء!».

كان يمكن أن يكون موظف مكتبة لطيف في قرية صغيرة. ولكن المؤسف بالنسبة لبوتر هو إنني أصبحت من أسوأ مستخدمي السجل إذ كنت أضطر لحجز عدة ملفات في آن واحد. إلا أنني لم أكن أكثر سوءاً من ميلسنت باغوت العجوز العانس التي كانت أسطورة في الشعبة والتي أصرت على إبقاء التنصت على مقر الحزب الشيوعي عشرات السنين. كانت حسامة، ولكنها تتمتع بذاكرة عجيبة في حفظ الحقائق والملفات. ولقد يأس بوتر ومن تبعه في إدارة السجل من الآنسة ميلسنت. كان يقول دائماً: «آمل أن أحصل على الملفات عندما تحال إلى التقاعد».

كان السجل يسحرني دائماً. فبمجرد وجودي هناك كان يملأني شعور بالحدس والتوقع، شعور لا يقاوم بأنه في داخل هذه الكتلة الكبيرة من الورق الجاف خطوط حية تنتظر من يمسك بها. ولقد وضَّح لي بوتر الطريقة الصحيحة للتوقيع على استلام وتسليم الملف لتبيان استخدامه. فنظام الملف صمم بحيث يكون كل ملف حسب التسلسل التاريخي، بحيث تكون الأوراق والملحقات في الجهة اليمنى فيما يوضع على الجهة اليسرى جدول وتفاصيل تساعد على سرعة الوصول للمعلومات.

كان النظام الذي وضعه بوتر يعتمد على الدقة والتصنيف الصارم. فإذا ما أراد ضابط ما أن يحفظ شيئاً في ملف فيجب أن يأخذ موافقة أحد موظفي بوتر. ففي العادة يتم رفض طلبات الملفات حتى لا تصبح عامة. ويتم تسجيل هذه الطلبات، وإذا ما تكرر الطلب من أكثر من جهة يتم فتح الملف للقضية المعنية. كان هناك ثلاثة تصنيفات أساسية في السجل. الأولى

هي ملفات الموظفين وهي ذات لون أصفر برتقالي ومرتبة حسب الأحرف الأبجدية. كان هناك حوالي مليوني ملف للموظفين عندما دخلت الخدمة عام ١٩٥٥. وقد بقي هذا الرقم يراوح مكانه، ثم بدأ بالارتفاع بشكل متسارع في نهاية الستينات وبداية السبعينات مع اشتعال انتفاضات الطلبة والعمال. ثم هناك الملفات حسب الموضوع، أو حسب المنظمات، مثل ملف الحزب الشيوعي في بريطانيا العظمى.

كانت هذه الملفات تصنف في مجموعات مختلفة ومرتبطة بملفات الموظفين. أما آخر أهم الأصناف فهي ملفات بيضة البطة الزرقاء ـ ملفات القوائم. وتحتوي هذه الملفات المعلومات المجموعة خلال قضية ما والتي لا يمكن وضعها في أي من الملفين السابقين. كما كان هناك صناديق خاصة يتم بواسطتها ابعاد الملفات ذات الحساسية الخاصة من التعرض للاطلاع العشوائي. فمثلاً كانت تحوي هذه الصناديق أسماء الجواسيس المحتملين بالإضافة لمعظم المنشقين. ولا يستطيع الضابط الحصول على المواد التي يريدها من الصندوق إلا بتصريح من الضابط المسؤول أو حتى من المدير العام أحياناً.

«إن سلامة الملف مسألة حيوية» قال لي بوتر، وحذرني من مغبة تحريك أي ورقة فيه من مكانها، تحت أي ظرف كان، بدون إذن مكتوب من الضابط الأعلى. ان قدسية الملفات هي الدرس الأول الذي يجب أن يستوعبه تماماً، عن حق، أي ضابط منذ بداية عمله.

كان يتم تحديد الملفات عن طريق بطاقات الجدول. وقد استخدم بوتر نظاماً ميكانيكياً لهذه البطاقات. فكل بطاقة يوجد فيها عدد من الثقوب تدل إلى أي صنف من الملفات تنتمي. فللبحث في صنف من الملفات، لنجد مثلاً ضابط مخابرات روسي يستخدم عدة أسماء مستعارة، علينا أن نسحب البطاقة المتطابقة مع التصنيف. وهناك عدد من القضبان الرفيعة تمر من خلال هذه الثقوب للتأكد من أنه لا يوجد بطاقة أخرى مناسبة لنفس التصنيف. ثم بالإمكان بعد ذلك الوصول باليد إلى الملف إياه. لقد كان نظاماً قديماً، رغم أنه كان يعمل بشكل جيد. وكان التمسك به يعني أن أم آي ٥ ترفض التحول إلى الكمبيوتر.

كانت قاعة السجل مشغولة دائماً بالعربات التي تنقل الملفات من رفوف السجل إلى مصاعد خاصة. وكانت العربات تتحرك على خطوط خاصة تمكنها من نقل الملفات بسرعة فائقة إلى الأدوار العليا حيث يعمل الضباط. قام قسم السجل بتوظيف عدد هائل من الفتيات لضمان النقل السريع للملفات داخل المبنى، ولمواجهة مهمة التصنيف والتدقيق وترتيب المواد الجديدة. في أيام كيل كان يتم تجنيد «ملكات السجل» اما من الطبقة

الأرستقراطية أو من عائلات ضباط أم آي ٥. كان كيل يعتقد أن هذا أفضل إجراء أمن على الاطلاق. كانت الفتيات جميلات وثريات، مما أدى إلى عدد هائل من الزيجات من داخل المبنى. حتى بدا الأمر وكأنه نكتة يتم تداولها. إذ أن أقصى مدة خدمة للملكة هناك لا تتجاوز تسعة أشهر لتصبح حامل.

مع بداية السبعينات أصبحت عملية تزويد السجل بالموظفين مشكلة رئيسية لأم آي ٥. كان هناك أكثر من ثلاثماية فتاة موظفة، ومع تدفق الملفات الجديدة في ذلك الوقت، بدا أن الاستمرار في التجنيد مشكلة ملحة. وكان الإعلان علناً عن التجنيد مستحيلاً. كما أنه أصبح من الصعب تجنيد هذا العدد من الفتيات دون المخاطرة بالناحية الأمنية. وقد وقعت حادثة واحدة على الأقل، إذ نجح الحزب الشيوعي بأن يوصل فتاة إلى السجل، لكنها سرعان ما اكتشفت وتم فصلها بهدوء. أدت هذه المشكلة بالإضافة لعدم الرضا عن النظام القديم في التصنيف، إلى إجبار أم آي ٥ على القبول، متأخراً، بسجل الكمبيوتر.

تحت السجل كانت تقبع الزنازين. وكانت في الواقع عبارة عن مجموعة من الغرف يقوم بإدارتها ليسلي جاغر، الذي عمل تحت إمرة هيو وينتربورن في شعبة أ ٢.

كان جاغر واحداً من رجال كمنغ. كان ضخماً عريض الكتفين سيرجنت ميجور سابق خدم مع كمنغ في فرقة البنادق. وكان جاغر يلبس دائماً سترة حفار قبور.

كان جاغر يقوم بعمل أم آي ٥ القذر. ولا بد أنه شعر ببعض القلق تجاهي عندما بدأت العمل، لكنه لم يظهر أي شيء من هذا القبيل ثم لم نلبث أن أصبحنا أصدقاء. كما كان يتمتع بمهارات عجيبة وغير عادية أكثرها إثارة فتح الأقفال. في البداية تسنى لي أن أحضر أحد دروسه التي كان يعطيها في أم آي ٥ وأم آي ٦ في مشغله. كان القبو مليئاً بالمفاتيح، آلاف المفاتيح مرقمة ومصنفة ومعلقة على الجدران. وقد أوضح جاغر يومها أن أم آي ٥ ما أن تحصل أو تصنع نماذج سرية لمفاتيح المكاتب والفنادق وحتى البيوت الخاصة، حتى يتم تصنيفه وترقيمه هنا. وها هي قد تجمعت هنا مع الزمن.

«أنت لا تعرف متى يمكن أن تحتاج نفس المفتاح مرة أخرى»، قال جاغر وأنا أحدق بمجموعته الغريبة.

«إن أول قاعدة في الاقتحام لمكتب أو بيت هي أن تلجأ لفتح القفل كإجراء أخير»، قال في بداية محاضرته. «إذ أنه من المستحيل أن تفتح القفل بدون مفتاح، دون أن تخدشه، الأمر الذي من السهل أن يكتشفه الضابط المدرب. فإنه سيعرف بأن المكان تم اقتحامه. إذن عليك أن تحصل على المفتاح إما عن طريق قياس القفل أو أخذ شكل المفتاح».

وشرح لنا جاغر كيفية التغلب على أنواع مختلفة من الأقفال. وكانت أقفال بورما التي تستخدم في خزانات الماس، من أصعب الأقفال. فالأسنان داخل القفل أفقية مما يجعل من الصعب التقاطها. أما خزانات تشاب، التي يعتقد بأنها صعبة الاقتحام، فإنها لعبة جاغر المفضلة.

«إليكم ما ستتعاملون معه في الغالب». وعرض علينا أجزاء من قفل شائع وشرح لنا بأنه يتكون من عدة مجموعات من الأسنان تصطف في أوضاع مختلفة داخل القفل. ويتطلب الأمر منا أن نبدأ بالسن الأول».

وهكذا أجرى أمامنا اختبار فتح القفل بواسطة سلك عادي.

الفصل الخامس

بعد عدة أيام من محاضرة الأقفال الشهيرة ذهبت في أول عملية لي.

«قضية الرجل الثالث تبرز من جديد». قال لي هيو وينتربورن. «أم آي ٦ تستجوب أحد ضباطها واسمه فيلبي. يريدوننا أن نزودهم بالميكروفون».

قابلت كيم فيلبي لوقت قصير جداً في أول زيارة لي إلى مبنى ليكون فيلد عام ١٩٤٩. كنت في مكتب كمنغ لبحث عمل براندريت، عندما أطل فيلبي برأسه من الباب. اعتذر فوراً عن إزعاجه لنا.

«لا بأس تفضل يا كيم»، قال كمنغ بطريقته الودية المعروفة، «يوجد شخص يجب أن تتعرف عليه».

وأوضح كمنغ بأنني عينت حديثاً مستشاراً علمياً للشؤون الخارجية. وصافحني فيلبي بحرارة. كانت التجاعيد تملأ وجهه ولكنه بدا شاباً.

«أجل، إنها لجنة براندريت. الأمريكيون مهتمون جداً بهذا الموضوع»، قال فيلبي.

انجذبت إلى فيلبي بسرعة. كان جذاباً وذا أسلوب مميز، كما كنا كلانا نعاني من لعثمة مزمنة. كان عُين لتوه رئيساً لأم آي ٦ في واشنطن، وودع أصدقاءه في أم آي ٥ وأطلعوه على بعض الأفكار قبل سفره. كان لفيلبي علاقات جيدة بأم آي ٥ أثناء الحرب، وهو واحد من القلة من أم آي ٦ الذين غامروا بهذه العلاقة. بدت الزيارة مطابقة لنموذج فيلبي العملي والجاد. واتضح السبب الحقيقي وراء هذا فيما بعد. فقد سألني فيلبي عن رأيي بالعلم. وأوضحت له بأن

المخابرات بحاجة لأن تبدأ بمعاملة الروس كما يعالج العالِم موضوعه ـ كظاهرة يجب دراستها ـ بالوسائل التجريبية.

«كلما جربت كلما تعلمت، حتى لو سارت الأمور بشكل خاطىء»، قلت له.

وسأل فيلبي: «وماذا عن المصادر؟».

أوضحت له بأن الحرب أثبتت بأن العلماء يستطيعون حل قضايا المخابرات بدون الحاجة إلى عدد هائل من الأفراد. ولا شك بأن هناك حاجة ماسة لبعض هؤلاء الأفراد، ولكن الأهم من ذلك هو استخدام المتوفر بطرق مبتكرة. وقلت له:

«خذ مثلاً البحث العملياتي»، مشيراً بذلك إلى أول برنامج بحث مضاد للغواصات في البحرية أثناء الحرب، «لقد كان عملاً استثنائياً، ولكن كل ما عملناه كعلماء هو استخدام إمكانات البحرية بشكل فعّال».

بدا فيلبي متشككاً، ولكنه قال إنه سيضع أفكاري هذه في ذهنه عندما يناقش الأمريكيين حول هذا الموضوع حين وصوله إلى واشنطن.

«سأراك عندما أعود»، قال لي: «كي أرى إلى أين وصلت». ثم ابتسم باعتزاز وذهب.

بعد سنتين انشق بيرغيس وماكلين. كان ذلك قبل وقت قصير من ذكر كمنغ للموضوع، ولكن ما أن جاءت سنة ١٩٥٤ حتى استطعت أن أجمع منه ومن وينتربورن بعض النتف التي أدركت من خلالها بأن فيلبي كان يعتبر الشخص الرئيسي المشتبه أنه الرجل الثالث، المسؤول عن انشقاقهما. في عام ١٩٥٥ تم فصله من أم آي ٦، رغم أنه لم يعترف بما يدينه. وفي ٢٣ أيلول ١٩٥٥ بعد ثلاثة أسابيع من انضمامي الرسمي لأم آي ٥، تم إعلان الكتاب الأبيض المتعلق ببيرغيس وماكلين وهو كتاب طال انتظاره. وهجمت علينا الصحافة. كان اسم فيلبي معروفاً جيداً في فليت ستريت في ذلك الوقت، وكان من الواضح أنها مسألة وقت قبل المناقشة علناً.

وفي تشرين الأول، أبلغت أم آي ٥ وأم آي ٦ بأن مسألة الرجل الثالث ستطرح في مجلس العموم عند انعقاده بعد العطلة، وبأن وزارة الخارجية ستقوم بإصدار بيان يتعلق بوضع فيلبي. وقد طُلب من أم آي ٦ كتابة مراجعة كاملة للقضية. كما طلب فيلبي مرة ثانية للتحقيق. وقد طلبت أم آي ٦ من أم آي ٥ الشعبة أ ٢ تزويدها بالتسهيلات لتسجيل التحقيق.

ذهبت أنا ووينتربورن بالسيارة إلى أحد بيوت أم آي ٦ قرب ميدان سلوني، حيث كان مكاناً للتحقيق مع فيلبي. وكانت الغرفة التي اختارتها الأم آي ٦ للتحقيق قليلة الأثاث، مجرد

صوفا وبعض الكراسي تحيط بطاولة صغيرة. وكان هناك أيضاً خزانة جانبية عليها جهاز تلفون.

ولما كان من المهم جداً أن نحصل على أفضل نوعية تسجيل ممكنة، فقد قررنا أن نستخدم ميكروفونا عالي الجودة ب. ب. س. فالحديث من خلال ميكروفون تلفون لا يكون جيداً إلا إذا كان المصدر قريباً جداً. وهكذا فتحنا مكاناً في الأرضية بجانب الموقدة في الجانب الذي أعتمد لجلوس فيلبي ووضعنا فيه ميكروفونا. ورتبنا وضع مكبر صوت لتكبير إشارة الميكروفون من خلال خط تلفوني يقوم البريد من خلاله بتوصيل الإشارة إلى مبنى ليكون فيلد.

كان مركز التسجيل مخبأ وراء باب سري في الطرف الآخر من الممر إلى مطعم أم آي ٥، ولا يسمح بالإطلاع عليه إلا لضباط معينين. وكان بجانب الباب جرس. عرّف وينتربورن بنفسه فانفتح الباب بشكل أوتوماتيكي. وبعد هذا الباب مباشرة باب آخر يقود إلى غرفة واسعة مربعة حيث يقوم موظفو البريد بكل عمليات التسجيل. وعندما يتم تسجيل المادة المطلوبة، يمكن للبريد أن يعطيها لموظفي أم آي ٥، ولم يكن يسمح لـ أم آي ٥ بالتسجيل الحي على الخطوط (رغم أنه في بعض المناسبات كانت تتم عمليات مراقبة وتسجيل جيد على البريد، خاصة من قبل وينتربورن ومن قبلي أنا، في حالة الأهمية القصوى أو الصعوبات الفنية الاستثنائية). ويتم تسجيل المكالمات على أجهزة معينة، بينما يتم تسجيل دورة الميكروفون بواسطة أسطوانات غراموفون خاصة. وكانت هذه الغرفة التابعة لأم آي ٥ تسمى «برج بابل» ثم تسلم هذه التسجيلات لنساء تقوم بحفظها في غرف صغيرة في الممر الرئيسي.

كانت الفين غريست تدير هذا القسم، وهي امرأة مرعبة انضمت إلى أم آي ٥ منذ البدايات تقريباً. كانت تدين بولاء مطلق للمؤسس فيرنون كيل، وما زالت ساخطة على تشرشل لما فعله بهذه المنظمة عند فصل كيل عام ١٩٤٠. وهي ترى أن عمل المخابرات انهار منذ ذلك العام.

رتب وينتربورن أن يكون الإنصات في غرفة مغلقة في الطرف البعيد من الممر. وهكذا جلسنا ننتظر بدء التحقيق. وفي الواقع ان تسمية ما جرى بأنه تحقيق مجرد مهزلة. كان أقرب إلى المقابلة الداخلية. دخل فيلبي فحياه بطريقة ودية ثلاثة من زملائه السابقين الذين كانوا يعرفونه بشكل جيد. لقد تعاملوا معه بلطف وألفة. أولاً ماضيه الشيوعي، ثم عمله في أم آي ٦ وصداقته هو وغي بيرغيس. تلعثم فيلبي وهو يحتج مؤكداً براءته. ولكن سماع الأسئلة يقود لإدراك الكذبة الكبيرة. فكلما تلكأ فيلبي في الإجابة قام أحد سائليه بإرشاده إلى جواب مناسب.

«حسناً، أعتقد أن كذا وكذا يمكن أن يكون تفسيراً معقولاً».

فيوافق فيلبي بلهفة وتستمر المقابلة. وعندما أتضحت هذه الطريقة طلب ويتربورن من كمنغ الحضور، فدخل هذا إلى الغرفة والغضب يتطاير من وجهه كالرعد. استمع لبعض اللحظات وهو يضرب على رجله، قائلاً، «السفلة! إنهم يبرئونه!». وأرسل كمنغ مذكرة عاجلة إلى غراهام ميتشيل، رئيس قسم التجسس المضاد في أم آي ٥، يقدم فيها تقويماً حاداً لتبرئة أم آي ٦. ولكنها ذهبت أدراج الرياح. فبعد عدة أيام أعلن ماكميلان في مجلس العموم براءة فيلبي. وأدركت للمرة الأولى انني انضممت إلى عالم غريب يتم فيه دفن الحقائق الواضحة البسيطة وإخفائها. كان هذا نهجاً دائم التكرار مرات ومرات طوال العشرين سنة اللاحقة.

كانت «مقابلة» فيلبي أول تجربة لي مع سلطة أم آي ٥. كان الطابق السابع، في الواقع، مجرد جزء من شبكة واسعة من التسهيلات. كانت أهم محطة فيه هي القيادة العليا لوحدة التحقيقات الخاصة في بريد القديس بطرس. كان لأم آي ٥ عدد من الغرف في الطابق الأول يديرها الماجور دينمان، وهو رجل عسكري تقليدي ذو حس جميل بالنكتة. وكان عمل دينمان يقتصر على الرقابة المباشرة على الرسائل ووضع التلفونات المعنية تحت المراقبة. كما أنه كان يشرف على مختبر أم آي ٥ للعمليات الفنية المتعلقة بالكتابة السرية. وكان لكل مكتب بريد ومقسم في البلاد غرفة وحدة تحقيقات خاصة، تحت إمرة دينمان تقوم بمراقبة التلفونات والرسائل. قمنا فيما بعد بنقل المختبرات إلى مكتب بريد مارتيلشام في سافولك. وبعد ذلك كان يتم إرسال الرسائل المفتوحة والتي تحتاج إلى مزيد من العناية من بريد القديس بطرس إلى سافولك، بواسطة الدراجة النارية.

كان مكتب دينمان موصولاً بعدد كبير من الطاولات تملأ الغرفة. وعلى كل طاولة كانت هناك رسائل معنونة إلى اتجاه معين: رسائل لندن في جانب، وأوروبا في جانب آخر، وفي الجانب الثالث رسائل إلى ومن دول ما وراء الستار الحديدي. كان يوجد حوالي عشرين موظفاً فنياً ليقوموا بفتح هذه الرسائل. وكانوا يضعون الكفوف المطاطية في أيديهم كيلا يتركوا أية بصمات على الرسالة، ولكل واحد منهم ضوء قوي وبجانبه إبريق ماء يغلي. كما كانوا يستخدمون أعواد البامبو التقليدية. وهي طريقة قديمة ولكنها لا تزال فعالة ومستعملة. يتم إدخال عود البامبو الرفيع جداً من قرنة المغلف الذي يتم وضعه على ضوء مبهر. ومن خلال إدارة العود داخل المغلف فإن الرسالة تلتف حول العود ثم تخرج معه من المغلف.

أما عندما يكون المغلف ذا عنوان مطبوع، فكانوا أحياناً يلجأون إلى تمزيق المغلف فوراً وطبع واحد آخر بدلاً منه. ولكن المغلف الذي لم نستطع فتحه طوال مدة عملي دون أن نترك أثراً فهو ذلك الذي يتم لصقه بالشريط اللاصق. وفي هذه الحالة كان على أم آي ٥ أن تتخذ

قرارها إما بفتح الرسالة وتمزيقها، أو بإرسالها وآثار الفتح بادية عليها. وكان يتم تصوير هذه الرسائل بواسطة كميرات، الميكروفيلم وإرسالها إلى قسم السجل للحفظ.

وضع دينمان على الحائط ما يعتبره فخراً له واعتزازاً، رسالة ضمن إطار على اللوحة. كانت مرسلة إلى عضو بارز في الحزب الشيوعي كانت تتم مراقبة بريده بانتظام. وعندما فُتحت الرسالة اكتشف الموظفون الفنيون بأنها تحتوي على رسالة مكتوبة بالآلة الكاتبة، جاء فيها: «إلى أم آي ٥، إذا فتحتم هذه الرسالة فأنتم سفلة». أما دينمان فقد اعتبرها رسالة ضائعة، أي أنه لا واجب قانونياً يجبره على إرسالها إلى العنوان المكتوب على المغلف.

في الواقع، كان دينمان عملياً جداً فيما يتعلق بتصاريح المراقبة. كان دائم الاستعداد للبدء في عملية مراقبة تلفون أو فتح رسالة قبل أن يصله التصريح بمجرد علمه أن هذا التصريح في الطريق إليه. كما أن أم آي ٥ كانت على أي حال تستطيع الحصول على شكل من أشكال فحص الرسائل بدون مذكرة رسمية. فمثلاً كنا نسجل كل ما يرد على المغلف مثل المصدر والمرسل وتاريخ الإرسال دون أن نفتحه بالفعل. وكان دينمان، مثل كل شخص في مكتب البريد يعرف عن هذا النشاط، يشعر بالخوف الشديد إذا ما اكتشف دور البريد في مراقبة التلفونات والرسائل. لم يكن هذا الخوف ينشأ بسبب البريد الخارجي، لأنه يمكن تأخيره عدة أيام دون إثارة أية شكوك. بل كان الهم الرئيسي هو أن يصل البريد الداخلي في أقرب وقت ممكن.

كانت تصريحات المراقبة ضمن مسؤولية نائب المدير العام في أم آي ٥. فإذا ما أراد ضابط ما أن يحصل على تصريح بالمراقبة على تلفون أو رسائل، كان عليه أن يكتب طلباً قصيراً إلى نائب المدير العام، الذي يقوم بدوره بالاتصال بنائب وزير الداخلية لشؤون أم آي ٥، الذي يقوم بدوره بشرح فيما إذا كان هذا الطلب سيؤدي إلى أية مشاكل. ويقوم وزير الداخلية بتدقيق كافة الطلبات مرة في الشهر. ومثل مكتب البريد فإن وزارة الداخلية كانت دائماً تبدي حساسية كبيرة إزاء قضايا المراقبة وكانت تسيطر عليها بقوة.

وبالإضافة إلى بريد القديس بطرس كان هناك دوليس هيل، البناء الفيكتوري البشع في شمالي لندن الذي بدأ عمله في مطلع الخمسينات. وقد أدار جون تيلر مختبره الصغير لصالح أم آي ٥ وأم آي ٦ في الطابق الأسفل خلف باب كتب عليه، «وحدة التحقيقات الخاصة». كانت الغرف معتمة ومزدحمة، وغير مناسبة تماماً للعمل الذي اختيرت من أجله.

عندما انضمت إلى أم آي ٥ كان مختبر تيلر مشغولاً بعملية نفق برلين. إذ قام فريق مشترك من أم آي ٦ والمخابرات الأمريكية سي آي إي بحفر نفق تحت القطاع الروسي في برلين في شباط ١٩٥٥، ووضع أجهزة تنصت على مركز الاتصالات الرئيسي للقيادة العسكرية السوفياتية وقام موظفو البريد بإنجاز العمليات الكهربائية في هذا النفق. ولقد حصلت السي آي إي وأم آي ٦ على شرائط هائلة تم جمعها من النفق. كانت الكمية الهائلة من المعلومات الخام تتدفق بشكل كبير حتى أربك حجمها مسؤولينا من حيث القدرة على التحليل. وكان لأم آي ٦ فرع خاص للتحليل أقيم في ايرلزكورت، وكانوا يقومون بتحليل المعلومات المخابراتية الواردة من النفق عندما اكتشفوا أن جورج بليك خان النفق لصالح الروس منذ أكثر من سبع سنوات. كما عانى هذا النفق من عدة مشاكل منها الرطوبة التي كانت تعيق الدوائر الكهربائية.

وكان مختبر تيلر مشغول أيضاً بإعداد مشروع «للتسهيلات الخاصة» باسم «ساب مان». وكان مصمماً لالتقاط المكالمة الهاتفية دون الاتصال السلكي المباشر، بل بمجرد استخدام موجات معينة. وقد نجح هذا المشروع إلا أنه اقتصر على العمل ضمن مسافات قريبة جداً.

كما كانوا يعملون في المراحل الأولى لإنتاج جهاز يُدْعى «موب» ليجعل السلك يقوم بوظيفتين: بث الصوت الملتقط واستقبال التيار الكهربائي. كان في بداية مراحله. وكان يؤمل أن يؤدي إلى ثورة في عمل أم آي ٦ بإزالة كافة الأسلاك الإضافية التي كثيراً ما تكشف عملية التنصت والمراقبة. وقد أمضيت وقتاً طويلاً من سنواتي الأولى في أم آي ٥ وأنا أحدد الخصائص الصحيحة لجهاز «موب»، وفي النهاية تم إنتاجه بنجاح وصنع في مصنع أم آي ٦ في بورهام وود.

بعد وقت قصير من «مقابلة» فيلبي بدأت أبحث عن طرق لتحسين وتحديث الطابق السابع. فقد أصبحت عملية المراقبة تتبع نموذجاً محدداً. إذ يقوم الضابط صاحب القضية بتزويد قسم المراقبة بملخص مكتوب يحدد فيه نوع المعلومات التي يعتقد أنه بالإمكان الحصول عليها من هذه المراقبة. ثم يقوم موظفو المراقبة بتقسيم المحادثة إلى مقاطع تتناسب وهذا التلخيص. وعندما بدأت العمل كانت التسجيلات تحفظ على نوع من الأسطوانات، وليس على أشرطة. وكان يتم التأشير على مكان المكالمة في الأسطوانة. وإذا ما ورد شيء ذا قيمة في المكالمة تم تحديد مكانه بالطبشور بحيث يتم إدارة الأسطوانة حسب هذه الإشارة. كانت هذه الطريقة غير عملية ومضيعة للوقت، إلا أنها كانت أكثر فعالية من الطريقة التقليدية في التسجيل على الأشرطة.

ان معظم هؤلاء الموظفين جندوا في أيام فيرنون كيل من المهاجرين الذين لجأوا

إلى بريطانيا مع نهاية الحرب العالمية الأولى. ولقد حولوا الطابق السابع إلى قطعة صغيرة من روسيا القيصرية. كان معظمهم من أعضاء الارستقراطية الروسية، والجيش الأبيض، الذين كانوا يتحدثون بثقة عن العودة إلى الأرض التي تمت مصادرتها منهم بعد الثورة. وبالنسبة لهم فإن ال ك ج ب ليست ك ج ب بل مجرد حزب بلشفي. كان معظمهم متدينين، كما أن بعضهم كان يضع الأيقونة في غرفته. وكانوا مشهورين في المكتب بطبعهم الحاد وعصبيتهم. اعتبروا أنفسهم فنانين وكانوا يتصرفون بهذه الروح. أما الضباط المجربون الذين كانوا يسعون إلى توضيح عملية مراقبة ما فقد كانوا يقتربون من الطابق السابع وهم يرتعشون خوفاً من أن يكونوا سببوا أي ازعاج هناك. كان هذا الجو الصعب حتمياً. فلقد أمضت هذه النساء سنين طويلة وهن يستمعن، يوماً إثر يوم، وساعة إثر ساعة، للكلام المبهم الغامض وللمؤامرات التي يحوكها الدبلوماسيون الروس. إن قضاء الحياة كلها بحثاً عن نتفٍ من المعلومات الاستخبارية من خلال آلاف من الساعات من المحادثات التافهة، كافٍ لأن يؤدي بأي إنسان إلى حافة الجنون.

كان أول شيء عملته إجراء فحص أذن للنساء اللواتي أصبحن بغالبيتهن كبيرات على المهنة. وشجعت اللواتي يفتقدن القدرة الجيدة على السمع العمل في الأعمال ذات الذبذبة العالية، مثل مراقبة التلفونات. كما أعطيت تسجيلات الميكروفونات الدقيقة إلى الضباط الأكثر شباباً، والتي كانت من أفضلهن آن أورفنج، التي انضمت إليّ فيما بعد كضابط في قسم التجسس المضاد. تسجيلات الميكروفون صعبة لأنه يكون لديك عادة مصدر واحد لمحادثة متعددة القنوات. وقررت أن أصمم جهازاً لتخفيف هذه المشكلة. فذهبت إلى معرض الكترونيات في أولمبيا واشتريت آلة تسجيل ذات رأسين. وكان الرأس الثاني يساعد على تأخير الصوت واحد على الألف من الثانية أو أكثر مما يجعله أكثر وضوحاً. وفي الواقع كان يعطي صوت ستيريو، وبالتالي فإن أسوأ الأشرطة أصبحت سهلة السماع. ووضعت الجهاز في الطابق السابع، مما جعلني صديقاً مدى الحياة للسيدة غريست.

كان هذا نصري الأول في العلم. أما تحت الطابق السابع فقد كانت غرفة أم آي ٥ القديمة لا تزال تهجع في نوم عميق.

القسم الذي كان بحاجة ماسة للاهتمام، ولا يزال يقاوم التحديث بإصرار عجيب، الشعبة أ ٤. فمنذ الحرب بدأت قدرة شعبة «واتشرز» وامكانياتها تتناقص بحكم العدد المتزايد من الدبلوماسيين السوفيات والأقمار الصناعية السوفياتية في شوارع لندن. وقد انصب اهتمامي الأول على عمل مسح شامل للطريقة التي تعمل بها هذه الشعبة.

وقد رتبت لزيارة واحد من مراكز أم آي ٥ في بيت تابع للمنظمة مخصص لمراقبة واحدة من بوابات السفارات الروسية الرئيسية في حديقة كينغستون غاردن. كان مركز المراقبة يقع في غرفة درج على السطح، حيث يجلس مخبران على طرفي الشباك. كما كان يوجد كاميرا ذات عدسة مقربة مثبتة على حمالة تقوم بتصوير الشارع. وكان الرجلان مزودين بالإضافة لذلك بمنظارين مكبرين. وقد كانا متعبين. كان الوقت قريباً من موعد استبدالهما. منفضة السجائر مليئة بالأعقاب، وعلى الطاولة تنتشر أكواب القهوة.

وكلما يخرج دبلوماسي سوفياتي من المدخل يقوم أحد الرجلين بمراقبته بواسطة المنظار. وحالما يتم التأكد من شخصيته يقوم المركز ببث اسمه بواسطة اللاسلكي إلى مركز المراقبة بواسطة أرقام سرية. كل موظفي السفارة لهم أرقام سرية يتم تداولها بواسطة اللاسلكي. وكل مخبر أو سيارة ملزم بمتابعة أرقام معينة. وحال سماعه الرقم يقوم فوراً بمتابعة الشخص المعني بدون الرد على الإشارة اللاسلكية التي تلقاها. والرجل المراقب لا يدرك فيما إذا كان مراقباً أم لا. ويقوم الراديو بإصدار خشخشة معينة في حال طُلب من سيارة المراقبة التي تقف في شارع ما ملاحقة دبلوماسي غاب عن نظر مركز المراقبة متجهاً نحو الويست إند.

لقد قضى هؤلاء الرجال الذين يعملون في هذا القسم سنوات عديدة في عملهم. ولطول فترة العمل هذه فإنهم يتذكرون الوجوه بطريقة استثنائية، ويتعرفون بسهولة على ضباط الـ ك ج ب الذين غادروا بريطانيا منذ زمن بعيد. ولمساعدتهم في ذلك فقد زوّد مركز المراقبة بثلاثة ملفات تحتوي على صور وصفات كل رجل مخابرات روسي زار بريطانيا. أما أولئك الذين يقيمون في السفارة فتوضع صورهم في إطار بلاستيكي شفاف لسهولة الاستخدام. وإذا ما دخل أو خرج من السفارة وجه غير معروف يتم تصويره وإرسال هذه الصورة إلى قسم الأبحاث في أم آي ٥، ومن ثم تبدأ عملية البحث اللانهائية. كان هذا العمل مملاً ومضجراً يتطلب صبراً كبيراً وتضحية. كان عملاً حيوياً بكل معنى الكلمة. فإذا كان قسم السجل مركز العصب بالنسبة لأم آي ٥، فإن قسم المراقبة والمخبرين أطرافُ أصابعه. يجب أن تكون دائماً ممدودة تتحسس أي حركة من حركات العدو.

كان حجم ملفات ضباط المخابرات الروسية نتيجة جهد عشرات السنين في استغلال كل مصدر ممكن: صور فيزا، المنشقون، العملاء المزدوجون، أو غيرها. تطل وجوههم من الصور. كان معظمهم من ال ك ج ب أو (ن ك ف د) يختفون بملابس الملحق الثقافي أو ببزة الملحق العسكري. ولم ألبث أن شعرت بدهشة بالغة، ذلك أن مراكز المراقبة مزودة بصور للدبلوماسيين الروس بالاعتماد بشكل أساسي على جوازات سفرهم الدبلوماسية. وكانت هذه

الصور ترسل إلى أم آي ٥ ولكنها ذات نوعية رديئة أو إنها قديمة بشكل متعمد لجعل إمكانية تحديد الملامح مسألة صعبة.

اقترحت أن يتم تزويد مراكز المراقبة بصور من نفس اللقطات التي يحصلون عليها. وهذه الصور بلا شك تكون أوضح من الصور الشخصية الرسمية. هذا ما تؤكده أيضاً قضية كلاوس فوخس. فعندما اعترف فوخس عام ١٩٤٩ بأنه أفشى معلومات حول الأسلحة النووية، كان قد بدأ بالتعاون معنا. وفي محاولة من الأم آي ٥ للحصول على أسماء المشاركين في المؤامرة، عُرض على فوخس صورة جواز سفر هاري غرينغلاس، أحد الجواسيس العاملين في مجال الأسلحة النووية. لكن فوخس فشل في التعرف على غرينغلاس من خلال تلك الصورة في حين استطاع التعرف عليه حين عرضت عليه مجموعة الصور الملتقطة له في مواضع مختلفة.

ولسنين عديدة كانت أم آي ٥ تدرك أنه إذا ما عمل المراقبون والمخبرون من مبنى ليكون فيلد فإنهم سيتعرضون للمراقبة من داخل البناء ويتم كشفهم من قبل العملاء الروس. لذلك كانوا يقيمون في مبنى مجهول يتألف من أربع طبقات في ريجينت بارك. وتحتوي القاعة الرئيسية على خارطة كبيرة لشوارع لندن تستعمل لملاحقة العمليات. وفي منتصف القاعة يوجد مقسم اللاسلكي الذي يقوم بعملية الاتصالات مع المراكز والتنسيق بينها وبين السيارات.

يحتل مكتب رئيس المخبرين، جيم سكاردون، طابقاً كاملاً. وسكاردون هذا شرطي سابق أنيق الشكل ويدخن الغليون، وكان محققاً في أم آي ٥ أثناء الحرب، كما كان بعد الحرب محققاً رئيسياً في عدد من القضايا المهمة، خاصة قضية كلاوس فوخس. كما أنه معتز بنفسه وبقدرته على العمل، وكان بلا شك محبوباً في العمل. إذ كانت لديه أخلاق العمال النقابيين. كان يشعر أن المخبرين يقومون بعمل شاق وصعب للغاية، ولذلك فهم بحاجة للحماية من ضباط التحقيقات في مبنى ليكون فيلد. وبشكل أو بآخر كان هذا الشعور صحيحاً. ولكن سرعان ما أدركت بأن سكاردون لا يواجه الواقع المتجدد في شوارع لندن. إذا كان واضحاً، بأن الروس خاصة، كانوا يقومون بعمليات تضليل لمنع مراقبة عملائهم. ومن خلال مراقبتي لنظام العمل بدأت أشك في جدوى عمل المخبرين دون أن يكونوا عرضة بشكل سهل للغاية للمراقبة. ويرجع ذلك بالطبع للتقنيات التي كانوا يستخدمونها.

عندما طرحت على سكاردون قضية إعادة صياغة عمل المخبرين، رفض بحث الفكرة. كانت أجهزة أم آي ٥ تتنافس، وكان سكاردون يعتبر قسمه معقلاً له للحفاظ على سلطته. إلا أنه في النهاية وافق على أن أقوم أنا ووينتربورن بشن عملية مراقبة لاختبار فعالية الأدوات الحالية وتقنيات

المراقبة. وهكذا قسمنا الفريق إلى مجموعتين. أعطيت المجموعة الأولى صورة لضابط في أم آي ٥ غير معروف من قبلهم، وطلب منهم متابعته. أما المجموعة الأخرى فقد أخبرت بالمنطقة التي تعمل فيها المجموعة الأولى، وطلب منها (من الثانية) أن تحدد أفراد المجموعة الأولى وأن تحدد كذلك الشخص المراقب. قمنا بهذا التمرين ثلاث مرات وفي كل مرة كانت المجموعة الثانية تصل إلى التشخيص الصحيح. وقمنا بتصوير المحاولة الثالثة على فيلم تم عرضه في قيادة المخبرين أمام الجميع. وقد ساهمت هذه التمارين في إزالة أي شك بأن عمليات المراقبة، كما هي عليه، كانت معرضة لدرجة خطرة إلى التضليل والمراقبة المضادة.

وكخطوة أولى اقترحنا على سكاردون أن يقوم بتوظيف عدد من النساء. إذ أن عمليات المراقبة الكثيرة تتضمن الجلوس لساعات طويلة في المقاهي والحانات والحدائق العامة لانتظار ومتابعة اللقاءات حال حصولها. فرجل وامرأة سيكونان أقل إثارة للشك من رجل واحد أو رجلين. إلا أن سكاردون عارض الخطة بشدة. كان يخشى أن تؤدي هذه الإضافات إلى إغراءات تؤثر بشكل عكسي على معنويات رجاله.

قال: «لن تحب الزوجات هذه الطريقة».

وقاطعه هيو وينتربورن: «وماذا لو تبادلوا القبلات وحضن أحدهما الآخر. هذا غطاء جيد».

أما سكاردون فلم تعجبه الفكرة. وكان الإصلاح الثاني الذي نسعى إليه في عمل المخبرين هو توصيل المعلومات. إذ كان تسليم المعلومات لا يتم فوراً بعد الانتهاء من العملية، بل يتم ذلك في وقت متأخر من الليل، أو حتى أحياناً في نهاية الأسبوع. وأشرت إلى سكاردون بأنه ثبت بما لا يدع مجالاً للشك في زمن الحرب بأن تسليم المعلومات يجب أن يتم فوراً لضمان الدقة. أما إذا كان هناك أي تأخير فإن الذاكرة تفقد القدرة على استرجاع ما حدث بالضبط وتبدأ بالسرد المنطقي لما حدث.

رد عليَّ سكاردون: «إن الشباب يمضون ثماني ساعات وهم يتسكعون في الشوارع، ولا يريدون أن يعودوا ليمضوا بقية الوقت في السؤال والجواب طالما أن باستطاعتهم أن يكتبوا التقارير بأنفسهم». وفي النهاية وافق على أن يتم استدعاء رجاله قبل نهاية مدة وظيفتهم بخمس عشرة دقيقة. ومع ذلك استمر الصراع معه.

أما المخبرون المحمولون في سيارات فكانت لهم مشاكل تختلف. وقد ذهبت معهم يوماً كاملاً لآخذ فكرة عن عملهم. كانت سيارات أم آي ٥ من موديلات لا تثير أي شك، ولكنها

كانت مزودة بمحركات ذات صوت عال في كراج أم آي ٥ في باترسي. ويتم تغيير لونها كل ثلاثة أشهر لإخفاء هويتها. ولكل سيارة هناك مجموعة من الأرقام يتم تغييرها مرة كل أسبوع.

كان الأمر مضحكاً أن يتم مطاردة السيارات الروسية الدبلوماسية عبر شوارع لندن خارقين المرور ومزودين ببطاقات تعفيهم من المخالفة. وقد أخبرني سائق سيارتي بفرح غامر كيف كان يلاحق سيارة دبلوماسي روسي من شارع مول حتى قصر بكنغهام في يوم ماطر. ولأمر ما أضطر الدبلوماسي الروسي لأن يدوب الفرامل فكان أن اصطدم سائقي به. وخرج الطرفان من سيارتيهما ليتبادلا الاعتذار بوجوه تخفي ما وراءها. إن مهمة المتبعة بالسيارة هي السيطرة على مجموع الشوارع قدر الإمكان. أما النجاح فيعتمد في النهاية على توجيهات اللاسلكي من القيادة. يجب عليهم أن يتنبأوا بخط سير السيارة الروسية اللاحق، بحيث يتم إبلاغ السيارات في المكان المعني بنقاط المتابعة.

المشكلة الأولى في مراكز المراقبة المحمولة كانت بسيطة جداً. إذ كانت السيارة تقل ثلاثة رجال، وبما أن معظم الوقت كان يمضي والسيارة واقفة على منعطفات الشوارع أو مقابل المكان المراقب، فقد بدت السيارات مثل الخوازيق. وهكذا مرة أخرى قمت أنا ووينتربورن بدراسة ميدانية. ذهبنا إلى منطقة نعرف أن المخبرين يعملون فيها. وخلال نصف ساعة استطعنا تحديد كل السيارات في المنطقة. كانت إحداها صيداً سهلاً. الرقم غُيّر حديثاً، ولكن السائق نسي أن يغير الرقمين معاً (الخلفي والأمامي). اقترحت على سكاردون أن يخفض عدد الأفراد في السيارة، ولكنه أصر إصراراً عجيباً وأخذ يشرح لي كيف أنه من الجوهري أن يكون العدد ثلاثة أفراد.

وقال باقتناع كامل دون أن يدرك مدى عبثية كلامه:

«هناك السائق، والثاني يتابع الخارطة، والثالث يستخدم اللاسلكي».

ولكن كان هناك مجال لم يكن التقصير فيه نكتة بأي حال من الأحوال، جعلني أشعر بالقلق أكثر من المشاكل السابقة مجتمعة. فالاتصالات هي أضعف حلقة في عمل أي منظمة استخبارية. فالمخبرون يقومون ببث واستقبال مئات الرسائل في اليوم بين القيادة والمراكز المختلفة. وأول شيء يجعل من هذه الاتصالات عرضة للتنصت أنها لم تكن مطلقاً تستخدم إشارات معروفة ـ فالروس قادرون ببساطة شديدة على تحديد اتصالات المخبر عن طريق البحث في الموجات عن الإشارات غير المعروفة. وكانت أم آي ٦ سيئة في هذا المجال حتى في الخارج. فلقد ظل الأمر لمدة طويلة معروفاً، وهو كيفية تحديد موظف أم آي ٦ في السفارة، الذي يتم عادة بمعرفة من الموظف الذي يستخدم الخطوط الخارجية غير المرتبطة

بالقسم الداخلي للسفارة. وفيما بعد قامت أم آي ٥ بإحضار نظام معقد للشيفرة يستخدمه المخبر في اتصالاته. وقد أشرت وقتها - إلى أن هذا لن يغير شيئاً، طالما أن إشاراتهم ستبقى الآن مميزة حتى عن إشارات الشرطة والأطفائية وسيارات الأسعاف، وهي إشارات ليست لها شيفرة أو كود. يبدو أنهم لم يكونوا مدركين أن الروس يجمعون معظم معلوماتهم الاستخبارية من حركة الاتصالات نفسها أكثر مما تحتويه هذه الاتصالات من رسائل. لأن تحليل حركة الاتصالات يخبرهم متى وأين تقوم عملية ملاحقة، وبمقارنة هذا التحليل بما لديهم من سجلات فإنهم سيعرفون كل ما يريدون معرفته.

عملت جاهداً من أجل القيام بجهد رئيسي نكشف من خلاله إذا كان الروس يراقبون بشكل منتظم اتصالات مخبرينا. من الناحية النظرية كان الأمر يبدو مجدياً، لأن أي جهاز استقبال سيرسل بعضاً من الأمواج التي يمكن التقاطها من مكان قريب. وقدمت خطتي من خلال القنوات الصحيحة إلى القيادة العامة، التي تملك الجهاز التقني والقوة البشرية اللازمة لإجراء مثل هذه التجربة. انتظرت عدة أشهر قبل أن استلم الرد الذي وصف بأنه الرد المناسب. كان رأي قيادة الاتصالات الحكومية أن هذا المشروع غير مجد من الناحية التقنية ومرت سنتان أخريان قبل أن تدرك القيادة العامة وأم آي ٥ كم كان الخطأ شنيعاً.

وفي نفس الوقت بقيت دائم القلق. فإذا كانت اتصالات المخبرين مخترقة، ومهنة المخبر ضعيفة إلى الدرجة التي تحدثنا عنها، فإن على أم آي ٥ أن تفترض أن جزءاً رئيسياً من عملها في التجسس المضاد خلال سنوات عديدة إنما هو نفخ ريح في الرماد. أو على الأقل أن بعض العمليات التي استخدم فيها المخبرون تم خرقها مسبقاً من قبل الروس. ولكن أي هذه العمليات وكم عددها؟؟

الفصل السادس

كانت شعبة أ٢ الجبهة الأمامية لأم آي ٥ في خنادق الحرب الباردة، وكنت أنا وونتربورن نقود عملها. وكان وينتربورن رفيق سلاح جيد. فقد خدم في الجيش في الصين واليابان وسيلان وبورما، قبل أن ينضم إلى أم آي ٥، وكان يتحدث الصينية واليابانية بطلاقة. إلا أنه كان فيلد مارشال فاشلاً. كان يخطط عملياته بشكل جيد حتى أدق التفاصيل، وبشكل معقد أحياناً وتنفذ دائماً بدقة عسكرية، ومع ذلك لم يكن إنساناً جافاً. كان يتعامل مع كل عملية بهدف جمع المعلومات الاستخبارية، وبهدف المتعة أيضاً. ولطالما استمتعنا سوية في العمل. فقد أمضينا حوالي خمس سنوات كنا خلالها نمارس السطو على أوامر الدولة في لندن، بينما كان مخبرو الوايت هول المدنيين يتظاهرون بأنهم لا يروننا.

كنت أنا وونتربورن نلتقي في الرأي بشكل كامل، فقد كنا نؤمن إيماناً قاطعاً بالتحديث، فإنه ينقص كل مستوى من مستويات العمل، وخاصة في المجال التقني. وكنت أركز دائماً على الأفكار. أما هو فقد كان يقوم بدور الغلاف الذي يعطي اقتراحاتي شكلها، إذ يأخذ منها ما هو منطقي من الناحية العملية ويخطط لكيفية تنفيذها في الواقع.

عندما عملت مع وينتربون لأول مرة كان دائم الحديث عن آخر عملية نفذها لشعبة أ٢، وكانت تسمى عملية «بارتي بيس». كانت عملية نموذجية على طريقته - فهي مزيج من الكمال والحظ الجيد. فقد علم أحد المسؤولين عن إدارة العملاء في الشعبة ف ٤، من مصدر داخل الحزب الشيوعي البريطاني، بأن كافة ملفات عضوية الحزب السرية محفوظة في

شقة تعود لأحد أعضاء الحزب الأغنياء في ماي فير. طلب من شعبة أ ٢ التخطيط للسطو على الشقة ونسخ الملفات.

هكذا وضعت الشقة تحت المراقبة الكاملة المكثفة من قبل شعبة «واتشرز»، وفي اللحظة الحاسمة جاء الحظ ليضرب ضربته غير المتوقعة لصالح أم آي ٥. فقد اتصلت السيدة المقيمة في الشقة بزوجها الذي كان في عمله آنذاك تخبره بأنها ستخرج بعد ساعة. وقالت له بأنها ستترك المفتاح تحت الحصيرة التي أمام الباب. وخلال عشرين دقيقة من تسجيل المكالمة في ليكون فيلد، كنا متواجدين عند الشقة لنطبع شكل المفتاح على المعجون.

تم ترتيب السطو بشكل دقيق في وقت كان فيه أصحاب الشقة يقضون عطلة نهاية الأسبوع في إحدى الضواحي. وهكذا قام وينتربورن بإرسال فريق من المخبرين لمراقبة أصحاب الشقة فيما إذا قرروا العودة مبكراً إليها. تم تجهيز أجهزة تصوير الميكروفيلم في ليسون فيلد للبدء في نسخ الملفات. ودخل فريق من شعبة أ ٢ إلى الشقة وفتحوا أقفال الخزانات التي تحوي ملفات العضوية بطريقتهم. ثم صورت محتويات كل درج من كل خزانة بواسطة كاميرا بولارويد. تم إخراج كل ملف وترقيمه بعناية شديدة بحيث يتم إرجاعه إلى مكانه الصحيح. وبعد ذلك تم نقل الملفات إلى مبنى ليكون فيلد ليتم تصويرها حسب الأهمية. قمنا يومها بتصوير ٥٥ ألف ملف، وكانت النتيجة مجموعة كبيرة من المعلومات لا تقدر بثمن حول الحزب الشيوعي.

أعطت عملية «بارتي بيس» لأم آي ٥ فرصة كاملة لاختراق الحزب الشيوعي. كل ملف يحتوي على بيان مكتوب بخط يد العضو، يوضح فيه سبب انضمامه للحزب، مصحوباً بتفاصيل شخصية كثيرة، بما فيها وصف دقيق ومفصل لظروف الانضمام، والخدمة التي قدمها العضو للحزب، والاتصالات التي يقوم بها داخله. غير أن الأكثر أهمية من هذا كله هو أن المواد التي حصلنا عليها بواسطة عملية «بارتي بيس» أدت إلى الاستيلاء على ملفات الأعضاء السريين أو أولئك الذين يخفون هوياتهم حسب رغبتهم أو حسب رغبة الحزب. ولم تكن غالبية الأعضاء السريين من نفس الجيل من الشيوعيين السريين التقليديين في الثلاثينات، الذين تم تجنيدهم للتجسس. أما هذا الجيل فكان أفراده ينتمون إما إلى حزب العمل، والحركة النقابية العمالية وأما موظفين في الخدمة المدنية أو غيرها من أنواع العمل الحكومي، وكانوا قد لجأوا إلى هذا المستوى من السرية بسبب الإجراءات الأمنية المشددة التي اتخذتها حكومة أتلي.

في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، احتفظ الحزب الشيوعي البريطاني بدعم لا بأس به وخاصة في نقابات العمال، كنتيجة لتحالفنا مع الاتحاد السوفياتي أثناء الحرب. كانوا نشيطين جداً في النقاش حول الصناعة، الأمر الذي أثار رعب رئيس الوزراء أتلي في أواخر أيامه. وفي أواخر الأربعينات بدأت أم آي ٥ تبذل ما في وسعها لمراقبة وتحييد نشاط الحزب الشيوعي البريطاني في حركة نقابات العمال. وما أن جاء عام ١٩٥٥، العام الذي جرت فيه عملية «بارتي بيس»، حتى كان قد تم اختراق الحزب في كل مستوى من مستوياته بواسطة المراقبة التقنية أو المخبرين. كان الحصول على المواد نتيجة «بارتي بيس»، التي كانت تشكل قلب إدارة الحزب الشيوعي، آخر إثبات لسيادة أم آي ٥ في فترة ما بعد الحرب. ثم جاءت المفارقة، إذ قام الاتحاد السوفياتي بعد سنة واحدة بغزو هنغاريا، أما الحزب فقد بدأ يفقد شعبيته ببطء.

وبمجرد حصول أم آي ٥ على وثائق عملية «بارتي بيس»، فقد الحزب كل إمكانية لتهديد أمن المملكة. فمنذ ذلك اليوم أصبحت أم آي ٥ قادرة على تحديد أي عضو نشيط، خاصة أولئك السريين، ومراقبة تحركاتهم، ومنعهم من الإطلاع على أي مواد سرية يمكن أن تجر خطراً ما. وقد وضعت وثائق «بارتي بيس» في صناديق خاصة، وبقيت مصدراً كبيراً لمساعدتنا حتى مطلع السبعينات، خاصة عندما بدأ الحزب فيما بعد بإنكار العضوية السرية وبأنه أصبح حزباً علنياً.

عملت لأول مرة ضد الحزب الشيوعي البريطاني في أواخر الخمسينات، عندما قمت أنا ووينتربورن بوضع ميكروفون آخر في قيادة الحزب لفرع كنغ ستريت. وكان الحزب يعرف أن مبناه موضوع تحت المراقبة الفنية الدائمة، فأخذ يغير بانتظام مكان الاجتماعات المهمة. وقد أبلغ أحد العملاء من داخل كنغ ستريت رئيسه من شعبة ف ٤ بأن مباحثات اللجنة التنفيذية تم نقلها من مكان عقدها إلى غرفة اجتماعات في أقصى طرف للمبنى. لم يكن للغرفة نوافذ كما أنه لم يكن بها جهاز تلفون حسب معلومات العميل، لذا لم تستطع شعبة التسهيلات الخاصة أن تحل مشكلة إيجاد الغطاء المناسب. وفيما بعد في الستينات، اتضح سبب عدم وجود تلفون في الغرفة. فقد كان أول سر باح به أنتوني بلانت للروس هو وجود شعبة التسهيلات الخاصة، مباشرة بعد أن تم إنجاز عملها في كنغ ستريت، فقاموا بتحذير الحزب وطلبوا منهم نقل التلفونات من الأماكن الحساسة. ولكن الحزب لم يصدق ذلك ويأخذه مأخذ الجد. وكانوا يتخذون الاحتياطات اللازمة في الحالات ذات الأهمية الاستثنائية.

ذهبت مع وينتربورن بسيارتي إلى كنغ ستريت وأخذنا ندرس الجدران الخارجية، في

محاولة للوصول إلى أفضل طريقة لمهاجمة الغرفة المقصودة. فكان على الجانب الأيسر من الجدار الذي على الشارع نفق لمنجم فحم قديم ومهجور منذ مدة طويلة. بدا أنه أفضل موقع لنا. وعرفنا من خلال العميل بأن هذا النفق يقود إلى غرفة الاجتماعات. واقترحت على وينتربورن أن نصنع باباً مزيفاً يشبه الباب الموجود في النفق ثم نشبكه بالباب القديم ونضع ميكروفوناً بينهما يغذي فتحة المفتاح.

هكذا بدأ وينتربورن بعمل الترتيبات اللازمة. فقام أولاً بتصميم باب جديد لإغلاق مدخل النفق بواسطة نوابض. وكان من الواضح أنه يجب أن يدهن الباب بنفس لون الباب القديم، الذي حولَّهُ الطقس إلى بني محروق. . فاتصلنا بمحطة الأبحاث في غارستون وأرسلنا لهم عينة من الدهان القديم أخذها وينتربورن بواسطة مفك في إحدى زياراتنا الروتينية هناك. وقام رجال المحطة بتحديد نوع الدهان وقاموا بتحضير الكمية اللازمة. أما نحن فقد استخدمنا بريموس معين، مع إغراق الباب في الماء، كي نُظهر تأثير الطقس عليه. وقمت أنا بوضع الميكروفون في الباب الجديد، ثم وصلته بأنبوب سمعي بلاستيكي بفتحة مفتاح الباب القديم. ثم قمت بوضع عدد كبير من البطاريات لضمان عمل الميكروفون مدة ستة أشهر على الأقل بدون صيانة. أما المستقبل فقد وضعناه في علبة توزيع الهاتف في نهاية كنغ ستريت، التي كانت لحسن حظنا ضمن مدى الميكروفون، بحيث تتولى أسلاك الهاتف نقل الإشارات مباشرة إلى الطابق السابع في مبنى ليكون فيلد.

كان عنصر المخاطرة في هذه العملية وضع الباب المزيف. إذا كان يجب أن يتم ذلك، تحت أنظار الحزبين المتواجدين في المبنى، الذين كانوا في حالة استنفار مستمرة إزاء أية شكوك. لذلك قام وينتربورن بوضع خطة معقدة للغاية. إذ قرر أن يتم وضع الباب في ساعة متأخرة من ليلة السبت، في الوقت الذي يكون فيه رواد المسرح يملأون كوفنت غاردن (Covent Garden). ورتب مع ضباط شعبتي أ ٢ و ف ٤ التوافد مع زوجاتهم إلى كنغ ستريت من عدة جهات مختلفة في وقت محدد. أما نحن فقد كان علينا أن نلتقي في مجموعتين تتظاهران بالسكر في نفس النقطة. التقينا هناك وتبادلنا التحيات. وفي ظل هذه الضوضاء قام وينتربورن بإنجاز أربعة ثقوب صغيرة في مدخل النفق بواسطة مثقب يدوي. وخلال دقيقة واحدة بدأ جمعنا يتفرق ولكن وينتربورن استمر في عمله بأعصاب حديدية، إذ ثبت النابض وتخلص من بقايا عملية الثقب بواسطة منديله الخاص ثم وضع الباب في مكانه.

نجحت خطتنا التي أطلقنا عليها اسم «تيبين»، وبقينا على علم بكل ما يجري في اجتماعات الحزب الشيوعي الهامة، لمدة تزيد عن خمسة أشهر. ولكن لم يلبث الأمر أن اكتشف. فقد صدف أن اكتشف أحد الشيوعيين إشاراتنا عندما كان يستخدم جهاز الراديو،

مما نبهه إلى وجود جهـاز تنصـت. تـم البحث في كل أرجاء البناء عنه. ولحسن الحظ أن هيو وينتربـورن كان يقيم في شقة في الطابق الأخير من مبنى ليكون فيلد بينما كانت زوجتـه تزور أقرباء لها في النرويج. فقد شعر باكتشاف عملية التنصت، وذهب فوراً إلى المكان ونزع الباب القديم وأعاده إلى المكتب وكأنه غنيمة حرب.

أما أكثر العمليات إثارة لنا فقد كانت في مبنى لانكستر، الذي كانت تعقد فيه مؤتمرات المستعمرات في الخمسينات والستينات. فعندما أصبح ماكميلان رئيساً للوزراء بدأت عملية التغيير الواسعة في قضايا المستعمرات. ولما كانت أم آي ٥ مسؤولة عن الأمـن وجمـع المعلومـات الاستخبارية في كافـة مناطـق التـاج البريطانـي وقعـت تحـت ضغـط متزايد لجمـع المعلومات المناسبة أثناء المفاوضات التي كانت تجري حول مسائل الاستقلال. وكان من الصعوبة بمكان تغطية النشاط في مبنى لانكستر بالتدريج. ولم يكن باستطاعتنا التأكد من الغرف التي سيتم استخدامها، مما أدى إلى تشتيت قدرتنا على جمع المعلومات.

لذا اقترحت أنا ووينتربورن أن تقوم أم آي ٥ بوضع نظام تنصت شامـل للمبنـى بحيث يمكن استخدامه في أي مكان وزمان نـريد. وافـقـت وزارة المستعمرات بحماس على هذا الاقتراح. وهكذا أعلن أن المبنى مغلق لإجراء بعض التجديدات لمدة أسبوعين، فيما دخله فريق من شعبة أ ٢. وكنت أنا ووينتربورن قد رسمنا مخططات الدارات الكهربائية التي تحدد خواص وموقع كل ميكـروفون. أشـرفـنـا على وضع هذا النظام الذي استمر في العمل في الستينات والسبعينات كلما عقدت في المبنى مباحثات دبلوماسية ذات مستوى عال.

غير أن التنصت على الحزب الشيوعي البريطاني ومراقبة وفود العالم الثالث لم تكن في النهـاية سـوى عمل عابر في مجمـل العمل الـرئيسي لنا وهـو مواجهـة الاتحاد السـوفياتي وحلفائه. وكانت أول عملية لي عن طريقة شعبة أ٢ ضد الروس هي عملية «كوير» CHOIR، التي بدأت في وقت سابق لانضمامي لـ أم آي ٥ بعدة أشهر، عندما قام هيو وينتربورن بعملية للتنصت على القنصلية الروسية في بيزواتر رود Bayswater Road. وقد لاحت لـنـا الفرصـة عندما خلا البيت المجاور للقنصلية وأجريت فيه تصليحات استعداداً لاستقبال ساكن جديد. دخلت أم آي ٥ إلـى البنـاء تحـت غطـاء عمـال ديكور، حيث قام وينتربـورن بوضـع أجهزة جديدة تسمى ميكروفونات جسّاسة (ذات مجس)، التي كان جون تيلر قد طورها في مختبـر دوليس هيل.

كـان الميكروفون الجسّاس كبيـراً وذا حساسيـة عاليـة جداً، بـإمكانـه الحصول على المعلومات مع تغطية كافية عبر الحائط. وقد تم وضع الميكروفون داخـل الجدار على بعـد

ثماني عشرة بوصة ناحية الهدف. حصلنا على هذا الوضع من خلال ثقب الجدار يدوياً ثقباً قطره يبلغ ربع بوصة وعلى مرات متباعدة كل مرة نصف بوصة. وقد تركت آخر نصف بوصة من الثقب من الجهة الأخرى باتجاه الهدف حيث قمنا باستخدام أدوات ثقب يدوية دقيقة جداً (ريشة رقم ٦٠) للحصول على فتحة صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة من داخل الغرفة. ثم وضع أنبوب خاص داخل الثقب يتصل بالميكروفون الذي يقوم بدوره بالتقاط الإشارة من الغرفة الهدف وبثها عبر أسلاك التلفون إلى مبنى ليكون فيلد، حيث تقوم مكبرات الصوت بإعادة بثه كصوت مسموع.

وبعد ستة أشهر من وضع الميكروفون الجساس في عملية «كوير»، توقف الميكروفون عن العمل. وكان لدى أم آي ٥ عميلاً يعمل عامل ديكور لدى الروس في ذلك الوقت، يدعى نوتكين، ويلقب «بالسنجاب». أخبرنا نوتكين بأن الغرفة الهدف تم دهانها. ورغم أننا اعتقدنا أن الثقب الصغير جداً قد غطاه الدهان إلا أننا لم نستطع أن نخفي حيرتنا. فقبل أن ننفذ العملية حصل وينتربورن على تفاصيل دقيقة لقياسات الجدار من نوتكين. وبالاعتماد على هذه القياسات خطط لأن يكون هذا الثقب خلف الإفريز الذي يغطيه ورق الجدران البلاستيكي على ارتفاع أربعة عشر قدماً من الأرضية. وقد بدا من غير المعقول أن يكون أحد قام بعملية الدهان من أجل إغلاق الثقب. لذا قررت أنا ووينتربورن إعادة العملية ثانية.

تطلبت منا العملية الجديدة جهداً كبيراً في التخطيط لها. فقد انتهت عمليات التصليح في البيت المجاور لمبنى القنصلية. وأصبح الآن مكتباً يضج بسيل من الزائرين، والذين كان من ضمنهم بعض الروس الذين كنا نعرف أنهم يأتون للتأكد من الناحية الأمنية. لذا كان علينا أن نعمل في الليل وبصمت كامل. وكنا بحاجة إلى سقالة للعمل على ارتفاع أربعة عشر قدماً، بالإضافة إلى قطعة من ورق الجدران والدهان لتصليح أي خراب. وهكذا رتب وينتربورن وجود سقالة جاهزة سهلة الاستعمال ومواد دهان سريعة الجفاف، طورت بشكل خاص من قبل محطة أبحاث البناء، لحساب أم آي ٥، بحيث يتم إدخالها إلى المكتب في طرود صغيرة كيلا نلفت انتباه القنصلية المتحفزة لأي إنذار.

وبعد أسبوع قمت أنا وجاغر بالذهاب إلى موقع في بيز واتر ستريت. كان الطقس شتاء والشوارع مظلمة ومليئة بالناس العائدين من عملهم. ومشينا بتسكع في الشارع باتجاه القنصلية ثم دخلنا العمارة المجاورة باستخدام أحد مفاتيح جاغر الشهيرة. وقمنا بفض الطرود التي كانت تحوي أدواتنا وجهاز استقبال صغير. وفي هذه الأثناء تم إبلاغ مركز المراقبة مقابل

القنصلية بمراقبة أية حركة. وأتخذنا الاحتياطات الفنية اللازمة لوقف العمل في حالة دخول أي شخص إلى الغرفة الهدف.

إن كل ميكروفون تستخدمه أم آي ٥ يتم تسجيله لدى الشعبة أ، التي تقوم بدورها بتسجيل مواصفاته الفنية، وتاريخ عمله، وأهم من ذلك موقعه. وبينما كان جاغر يقوم بتركيب السقالة بصمت كامل، كنت أدرس الخطة الخاصة بالجدار والتي أحضرناها معنا من جدول الشعبة أ، ثم قمت بإنجاز القياسات اللازمة، ثم بدأنا بإزالة ورق الجدران. كان عملاً شاقاً ومثيراً للأعصاب. إذ كان علينا أن ننزع كل قطعة من الورق باليد قبل أن تسقط على الأرض، ثم توضع في حقيبة خاصة. وبعد حوالي الساعة وصلنا إلى الميكروفون، الذي كان موضوعاً بعناية داخل الثقب، وقمت بفصل الأسلاك والأنبوب البلاستيكي الذي يصل إلى الغرفة إياها.

وكان لريشة المثقب رقم (٦٠) تكنيك خاص بحيث تقف عن العمل عند مسافة معينة لمنع دفع طبقة الدهان أو ورق الجدران إلى داخل الغرفة الهدف. أدخلت الريشة في الثقب الكبير فيما بدأ جاغر بإدارة المثقب بهدوء شديد. وكان هناك مقاومة. وأدركنا أن وراء هذه المقاومة أي شيء إلا طبقة من الدهان. تبادلنا النظرات المليئة بالحيرة على ضوء السيارات العابرة. ودار المثقب من جديد مرة أخرى. وأخرى وأخرى. وكانت هناك مقاومة. ثم فجأة اختفت المقاومة. وسحبت المثقب بهدوء ناحيتنا وقام جاغر بوضع الريشة في علبة خاصة لإرسالها إلى ليكون فيلد لإجراء الفحوص اللازمة عليها. ومن خلال الثقب الرئيسي سمعت صوت تكتكة ساعة في الغرفة الهدف. إذن فقد أنجزنا مهمتنا كما صممت. وهكذا أعدنا وضع الميكروفون داخل الجدار وأعدنا وصل الأسلاك وتغطية الثقب بورق الجدران. وبعد ذلك كان علينا أن نمضي ثلاث ساعات بانتظار أن يجف الورق كي نقوم بدهان المكان. وهكذا جلسنا ندهن فيما كان المستقبل يواصل بث الإشارات. وحتى في منتصف الليل كان الطرفان يرقصان رقصة الحرب الباردة، بينما تقوم سيارات «واتشرز» بملاحقة الدبلوماسيين الروس عبر شوارع لندن المظلمة. أما القنصلية فقد ظلت صامتة.

وفي اليوم التالي استمعت أنا ووينتربورن في الطابق السابع لميكروفون «كوير». لم يكن هناك ما يبثه. إذ أن المشكلة الوحيدة التي واجهتنا أن لا أحد يتكلم في هذه الغرفة. فكل ما أستطيع سماعه هو صوت الآلة الطابعة الرتيب. وذهبنا سوية إلى الطابق السفلي لمعرفة نتيجة فحص الغبار على الريشة. وأيّ كان عامل الديكور الروسي ذلك، فقد كان حي الضمير.

وقال وينتربورن وهو يتطلع من خلال الميكروسكوب: «إنها ليست عملية دهان».

وبعد شهر أو أكثر استطاع نوتكين أن يلقي نظرة على الغرفة الهدف. فاكتشف أن الجدار

المشترك مع العمارة المجاورة تم تغطيته بشكل كامل بطبقة من المواد المضادة للصوت. وكان هناك مجرد موظفة واحدة تعمل على الآلة الطابعة. لقد عرف الروس كما كنا نعرف بأن الجدران المشتركة عرضة للاختراق. ولكن بقدر ما أعرف فإن الروس لم يعرفوا شيئاً عن الميكروفون الجساس. إلا أنه يبدو محتملاً أنهم اكتشفوا الثقب الصغير جداً وأغلقوه.

في تموز ١٩٥٥ كان لي فرصة التعامل مع الروس مرة أخرى، وكانت هذه المرة في كندا. فقد تلقت أم آي ٥ طلباً للمساعدة الفنية من الشرطة الكندية الخيالة التي كانت تخطط لإنجاز وضع ميكروفون داخل السفارة الروسية في أوتاوا. حيث كان البناء القديم المؤلف من ثلاثة طوابق والمطل على نهر ريدو، قد احترق بأكمله وكانت الشرطة الكندية تسعى لزرع معدات التنصت في المبنى أثناء عملية البناء، ولكنها كانت بحاجة لمعرفة آخر المنجزات في هذا المجال. لذلك اتصلت بنا.

استقبلني في المطار تيري غيورنسي مدير قسم التجسس المضاد في الشرطة الكندية (الشعبة أ). وكان معه مساعده جيمس بينيت الويلزي الأصل. كان غيورنسي طويلاً ونحيفاً ورغم لطفه كان عصبياً وذا طاقة قابلة للانفجار. تدرب في بريطانيا على يد رجال أم آي ٥ وأم آي ٦، ثم عاد إلى كندا في مطلع الخمسينات وهو يحمل قناعة بأن الشرطة الكندية غير مناسبة، كونها شرطة بالزي الرسمي، لعمل التجسس المضاد الدقيق. وبدأ غيورنسي بتجنيد ضباط المخابرات المدنيين، وأنشأ لوحده الشعبة ب بحيث أصبحت واحدة من أحدث وأقوى وحدات التجسس المضاد في الغرب. وكان لمبادراته دور كبير في التفكير البريطاني والأمريكي الذي طبق فيما بعد، مثل إدخال الكمبيوتر لتسجيل تحركات الدبلوماسيين الروس في الغرب. كان يعارض باستمرار التقيد بتقاليد الخيالة، التي كانت تؤمن بأن الشرطي ذو الزي الرسمي أكثر تفوقاً من زميله ذي الزي المدني. ولم تكن الشرطة الكندية لوحدها تعاني من هذا التنافس بل كذلك الـ اف بي آي الأمريكية. وكان غيورنسي يعتقد بأن البريطانيين يتصرفون بالشكل الصحيح في تفريقهم بين عمل رجل المباحث الجنائي، والمهارات المختلفة تماماً كالتي يتمتع بها ضابط المخابرات، كما أنه ناضل باستمرار من أجل الحفاظ على استقلالية الشعبة ب عن مجمل تنظيم الشرطة الخيالة. وقد كلفه هذا الجهد عملياً وظيفته. إذ أن الخيالة لم يسامحوه على ذلك، فكان أن أبعد في النهاية إلى المملكة المتحدة ليعمل كحلقة وصل للشرطة الكندية الخيالة مع أم آي ٥ وأم آي ٦ قبل أن يؤدي به وضعه الصحي في النهاية إلى التقاعد.

في عام ١٩٥٦، عندما قمت بأول رحلة لي إلى كندا لتقديم المساعدة في عملية «دبو ورم»، كان غيورنسي ما زال يتمتع بسلطات كبيرة. وأثناء العشاء في تلك الليلة الأولى

من لقائنا وصف لي مكان العملية. كانت الشرطة قد نجحت في تجنيد المقاول الذي يقوم بإعادة بناء السفارة الروسية، وقامت بزرع ضباطها هناك تحت غطاء أنهم عمال في الموقع. وبمساعدة ايغور غيوزنكو، وهو روسي كان يعمل داخل مبنى السفارة القديم ككاتب شيفرة إلى أن هرب إلى الجانب الكندي عام ١٩٤٥، استطاع غيورنسي أن يحدد بدقة المنطقة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من المبنى على أنها المكان الذي ستكون فيه ال ك ج ب والمخابرات العسكرية السوفياتية والأقسام السرية وغرف الشيفرة.

بعد دراستي للمخططات قررت عدم جدوى عملية «ساتير» التي يتم من خلالها استخدام ميكروفون يتم تشغيله من الخارج بواسطة ميكروويف. فالمسافة من مكان الجهاز حتى أول أرضية آمنة بعيدة لدرجة لا تضمن لنا النجاح. إذن لا بد أن تكون عملية سلكية. وللعمليات السلكية فائدة رئيسية واحدة. فإذا كان بالإمكان وضعها فإنه من المستحيل غالباً كشفها. وقررت أن أفضل طريقة للهجوم هي إخفاء الميكروفونات داخل إطارات الشبابيك الألمنيوم في الجانب المستهدف من البناء. وكان غيورنسي قد تسلم نماذج من الإطار من المتعهد. كانت الشبابيك تفتح بالسحب أي بدون مفاصل خارجية الأمر الذي يجعلها مثالية لإخفاء الجهاز. وكان هناك فراغ طولي في الإطار حيث يتم قفل القطعتين معاً، مما يعطي صوتاً جيد النوعية. كما أن الإطارات المعدنية ستقوم بامتصاص المجال الألكترومغناطيسي الذي يصدر عن الميكروفونات مما يجعل أمر كشفها من قبل رجال الأمن الأخصائيين صعباً.

المشكلة الرئيسية برزت في كيفية إخفاء الأسلاك الموصولة بالميكروفونات. كان سمك جدار مبنى السفارة قد تقرر تقريباً حوالي قدمين، أربع عشرة بوصة من الإسمنت المسلح، ثم فراغ بعرض بوصتين في الوسط، ومن ثم أربع بوصات من الحجر يكون من الناحية الخارجية للجدار. وقمت بالتدقيق مع أم آي ٦ عن عمليات روسية لمسح الجدران. فأبلغوني بأن الروس لا يقومون بمسح السطح الخارجي للجدار بل الداخلي فقط. ويبدو أن الروس كانوا يعتقدون أنه من المعيب مسح الغلاف الخارجي لجدران مبانيهم. وهكذا أخبرت غيورنسي بأن أفضل طريقة هي في توصيل الأسلاك عن طريق الفراغ في وسط الجدار حيث تكون بعيدة عن أن تكتشف خلف طبقة من الإسمنت سمكها أربع عشرة بوصة، خاصة وأن أم آي ٥ قد طورت سلكاً رفيعاً يطلق مجالاً الكترومغناطيسياً محدوداً جداً.

وعندما بدأ البناء كان علينا أن نجد طريقة نخفي فيها الأسلاك عن فرق الأمن الروسية التي تتفقد عمل المقاول الكندي. دفنا لفات كبيرة من الأسلاك في النقاط الثماني المحددة. وفي كل ليلة ما أن يتم إنجاز مرحلة من البناء، حتى يقوم رجال الشرطة الخيالة بسحب كل

نستطيع أن نحل الكثير من الشيفرات الآن ـ وليس لدينا أجهزة كمبيوتر تستطيع أن تقوم بالعمل. وسنحصل عليها قريباً، بالطبع، ولكن أي مساعدة في الوقت الحاضر ستربكنا».

سألت الكساندر ما هو الهدف الرئيسي الآن. وبدا أنه غير راضٍ عن سؤالي المباشر. لكنه أجاب:

«حسن. هناك الكثير من الأهداف التي نسعى لتحقيقها وكلها ملحة».

قلت بعناد: «نعم! ولكن إذا أردت أن تحدد هدفاً واحداً مهماً لليوم، فأي واحد تختار؟».

وألقى الكساندر نظرة على دينهام وقال:

«وزارة الخارجية تضغط علينا منذ عدة أشهر للحصول على شيء من الشيفرة. ولم نحصل إلا على نتف بسيطة. وهذا كل ما نستطيعه، لأن عملنا ليس متواصلاً».

جاء ربيع عام ١٩٥٦، وبدأ التوتر بين بريطانيا ومصر يتصاعد بسرعة عندما اتخذ عبد الناصر إجراءات أدت إلى أزمة السويس في أواخر ذلك العام.

سألت: «ما نوع آلة الشيفرة التي يستخدمها المصريون؟».

أجابني دينهام: «إنها هاجلين!». وهي آلة من صنع سويسري كانت مفضلة لدى العالم الثالث في الخمسينات.

وهكذا رتبت عملية استعارة جهاز من نوع هاجلين من قيادة الاتصالات الحكومية، وعدت به إلى لندن بسيارتي. ووضعت الجهاز في إحدى شقق أم آي ٥ بمساعدة ليسلي جاغر في منطقة ريجنت، ثم بدأت تجاربي لأرى فيما إذا كانت نظريتي عملية أم لا. كان جهاز هاجلين آلة تعتمد على لوحة مفاتيح، مع شريط يحتوي رسالة الشيفرة الذي يخرج أحد جوانبها. ان مبدأ عمل الآلة بسيط جداً. إذ يوجد هناك سبعة دواليب دوارة بواسطة تيار كهربائي، تؤدي ميكانيكياً إلى إنتاج أشكال عشوائية حسب برمجة الآلة. وكل صباح يبدأ مسؤول الشيفرة الذي يعمل على آلة هاجلين في أية سفارة بوصل التيار لتتحرك الدواليب قبل أن يبدأ البث. وشعرت أنه إذا ما تم التنصت على صوت بدء عمل الآلة هذه بواسطة الميكروفونات، فإنه سيكون بإمكان قيادة الاتصالات الحكومية استخدام هذا الصوت لمعرفة ما يسمى بالصوت الأساسي للآلة، الذي يساعد على حل الشيفرة فيما بعد. وكان الكساندر ودينهام قد أخبراني أنه إذا ما تم تحديد ثلاثة أو أربعة دواليب فإن إمكانية حل الشيفرة تصبح ممكنة جداً.

قمت بوضع مجموعة من الميكروفونات ذات الحساسية العالية في مسافات مختلفة بعيداً عن آلة هاجلين، بالإضافة إلى ميكروفون حسّاس في الجدار خلف الآلة. وقد تم وصل كل ميكروفون على حدة مع جهاز أوسيليسكوب بحيث يتم تحويل الأصوات المسجلة إلى ذبذبات مرئية على الشاشة. كما قام ليسلي جاغر بتركيب جهاز تصوير لالتقاط صور للشاشة. ثم شغلت الآلة لتتحرك الدواليب مع الأخذ في الاعتبار وضع الدواليب قبل وبعد التشغيل. وبدأت الآلة بالعمل. ثم أرسلت النتائج إلى دينهام في تشيلتنهام لتزويدي بأي تعليق منه.

بعد تظهير الأفلام، وجدت أن ما زودتنا به شاشة الأوسيليسكوب يكفي لإعطائنا مفتاحاً لحل لغز آلة هاجلين، كما أوضحت حركة ثلاثة دواليب على الأقل من سبعة. ثم قررت أن أقوم بمزيد من التجارب باستخدام جهاز «ساتير» الذي أعطى صوتاً أقل حساسية. كما سجلنا حركات على الدواليب، ولكنها كانت مضللة. أرسلت النتائج إلى تشيلتنهام مع مراسل. وبعد يوم واحد اتصل بي دينهام تلفونياً قائلاً: «إنها رائعة يا بيتر».

شعرت من صوته بأنه مندهش تماماً، كالمجنون. أضاف: «إن ميكروفونات الصوت هي الأفضل. بإمكاننا أن نحصل دولابين أو حتى ثلاثة باستخدام هذه الميكروفونات. أما اللاسلكي فإنه ليس جيداً، ولكن مع الوقت أعتقد أننا نستطيع أن نحصل على شيء ما منه».

ورغم أن خط الهاتف لم يكن واضحاً بشكل جيد فقد سمعته يسأل: «متى يمكن أن نبدأ العمل؟».

أجبته: «عندما تحصلون على الموافقة من الجهات العليا».

في اليوم التالي أرسلت قيادة الاتصالات الحكومية راي فريولي من قسم التخطيط إلى لندن. وكان رجلاً عملياً يجسر الهوة بين ذكاء الكساندر ودينهام، والمتطلبات الإدارية لمنظمة ضخمة مثل قيادة الاتصالات الحكومية. كما كان ملحداً يعتقد بأن البشرية ستقع يوماً ما تحت حكم الكمبيوتر، وبذلك يزول اللامنطق. ولا شك أن هذا كان شيئاً من المثالية الطفولية في ظل سنوات الحرب الباردة. ومع ذلك أصبحنا صديقين رغم أنني بقيت في أعماقي لامنطقياً أؤمن بأن الوحي أو الحدس سيأتي فجأة ليحل لي مشاكلي.

عندما جلست مع ويتربورن وفريولي لنخطط للعملية ضد السفارة المصرية، كنا ندرك أن أفضل وسيلة هي أبسطها. واتصلت بوحدة التحقيقات في مكتب البريد وحصلت على قائمة كاملة لكافة توصيلات الهاتف داخل السفارة وبدا أنه لا بد أن يكون هناك جهاز تلفون داخل أو قرب غرفة الشيفرة، لذلك قررنا وضع أسلاك الهاتف تحت تصرفنا واستخدام ميكروفون

سلك على حدة داخل الفراغ. وكان كلّ سلك معلّم بشكل عشوائي من واحد إلى عشرين لتضليل السوفيات في حالة اكتشاف الأسلاك. وفي الحقيقة فقد كانت العملية لمسة جميلة؛ بل نكتة. كان السوفيات سيفضلون تمزيق البناء بعد الانتهاء منه بحثاً عن هذه الأسلاك الأشباح.

غير أن أصعب جزء في العملية كلها كان عملية وصل الأسلاك بالميكروفونات. فقد وضعت الشبابيك في الجهة الشمالية الشرقية مكانها، بإشراف ضابط شرطة كندي لضمان وضع الإطارات بالشكل المناسب في المكان المناسب. فيما تم رفع الأسلاك عبر الفراغ بشكل تدريجي أثناء أشهر البناء. أما عملية وصل هذه الأسلاك بالميكروفونات داخل إطارات الشبابيك فمن المستحيل إخفاؤها. ويتطلب إنجاز هذا العمل وجود مهندس يعمل خارج المبنى على ارتفاع أربعة طوابق بواسطة سقالة. قام بهذا العمل أحد رجال غيورنسي الفنيين، وهو مهندس شاب نفذ عمله بدقة كاملة. وقد تسلق الجدار في الظلام الدامس وفي درجة حرارة تصل إلى ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر وهو يحمل أدواته في حقيبة كتف. ثم قام بتوصيل الثمانية ميكروفونات بالأسلاك وتأكد من صحة وقوة التوصيل.

وما أن تمت عملية التوصيل حتى قام فنيو الشرطة الكندية بحفر نفق طوله عشرون ياردة بين بيت مجاور للسفارة تابع للشرطة، وموقع دفن الملفات السلكية في أساس البناء. تم تغذية الأسلاك الموصولة بمكبرات صوت مخبأة في كراج البناية بالطاقة اللازمة من خلال مصادر قيادة الشرطة الكندية. وعندما فحصت هذه الميكروفونات كانت جميعها تعمل بشكل جيد.

وفي هذا الوقت بالذات، عندما شارفت هذه العملية الناجحة تماماً على الاكتمال، وقعت الكارثة. فعندما كان أحد العمال يقوم بوضع خزان وقود بجانب الجدار الخارجي للزاوية الشمالية الشرقية من مبنى السفارة الجديد، دون أن يعلم بأنه في هذه النقطة بالذات تمر السلسلة الكاملة من الأسلاك الثمانية تحت الأرض لتصل إلى مبنى الشرطة قام بتثبيت المشابك في الأرض لدعم أنبوب التهوية، وكان أحدها يخترق بشكل مباشر مجموعة الأسلاك الثمانية ليقطعها جميعاً مدمراً بذلك كل التوصيلات مع الميكروفونات.

لم يكن أمامنا أي خيار سوى أن نعود لدخول البناء. ولكن العملية هذه المرة أكثر خطراً. فقد كان المبنى في المراحل النهائية والروس على وشك الإقامة فيه. ولكن هناك مغامرة في أن لا يصدق الروس بأن رجال الشرطة السريين هم مجرد عمال إذا ما اكتشفوا في الموقع ثانية. كانت ليلة باردة جداً أيضاً. دخلوا بصفتهم السابقة كعمال. واستطاعوا

إعادة وصل ستة أسلاك فقط. ورغم أننا فقدنا ميكروفونين إلا أن الستة الأخرى كانت تعمل في ست غرف متفرقة من الغرف المستهدفة، وهكذا تم استدراك الكارثة.

وما أن أقام الروس في سفارتهم حتى بدأنا نسمع الأصوات من بعض هذه الميكروفونات. كان رجال الاستخبارات العسكرية يناقشون توزيع أثاثهم في الغرف. وبعد ٤٨ ساعة قاموا فجأة بإخلاء مكاتبهم. وغادر السفير إلى موسكو، ودخل فريق من العمال الروس إلى السفارة. أدركت من المواد التي كان يتم إدخالها إلى السفارة بأنهم كانوا يبنون مكاتب للاستخبارات العسكرية و ال ك ج ب في مكان آخر من السفارة، باستخدام مولد كهربائي مستقل.

وبعد ذلك بوقت قصير بدأت الميكروفونات تبث الإشارات إلى قيادة الشرطة لتدلنا على وجود أصوات فريق الأمن الفني الروسي وهو يقوم بتفقد البناء. وكانت قيادة الشرطة حددت وصولهم إلى البناء قبل أيام عديدة، ولكنها لم تتأكد من ذلك إلا عندما وصل عملهم إلى الزاوية الشمالية الشرقية. كانوا يدقون على الجدار لمعرفة الفراغات المحتملة فيه، ويفحصون السقوف بواسطة أجهزة التدقيق. أمضوا فترة عشرين يوماً وهم يدققون في إجراءاتهم الأمنية في الغرف التي تم وضع الميكروفونات فيها، وكأنهم كانوا يعرفون بوجود أجهزة تنصت إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا الأسلاك ولا الميكروفونات. وحسب المقاييس النموذجية بالنسبة لسفارات الاتحاد السوفياتي في العالم، كان البناء صغيراً، ومع ذلك ورغم ازدحام العمل داخلها، فقد بقيت الزاوية الشمالية الشرقية غير مستخدمة في الأعمال القنصلية، حتى بعد مغادرة فريق الأمن الفني. وبعد ذلك بثمانية أعوام وصل الفريق الأمني الفني ثانية إلى أوتاوا. وذهبوا فوراً إلى الغرف التي تحوي الميكروفونات، وخلال ساعة واحدة فقط اكتشفوا الميكروفونات والأسلاك. وكانت السفارة تضم ٤٢ غرفة. ومع ذلك فإن عمل الفريق الفني اقتصر على البحث في الغرف الست إياها. ولا بد أنهم كانوا يعرفون أين يجب أن يبحثوا.

ومثل عملية «كوير»، كان هناك ما يثير قلقي في عملية «ديو ورم». وكان سبب هذا القلق يعود بالطبع إلى الخذلان. فلقد كانت العملية نجاحاً تقنياً هائلاً، ولكن أشهر الصبر الطويلة لم تزودنا بأية معلومات استخباراتية. وبالطبع، كان تفسير فشل العملية هو الافتراض بأن الروس قاموا بإعادة بناء قسم الأمن داخل السفارة في وسط البناء كما كان الأمر عليه في المبنى القديم. ولكن إذا ما حللنا طريقة تزويد البناء بالطاقة فإن هذا الأمر يبدو مغامرة معقولة. إن الحقيقة القائلة بأنهم قرروا إعادة القسم الأمني إلى نفس موقعه وحصره في الوسط، ليس قراراً استثنائياً. فلقد أدرك البريطانيون والأمريكيون، ولا بد أن يكون الروس

قد أدركوا أيضاً بأن أفضل طريقة لحماية القسم الأمني في السفارات من هجمات الميكروفونات هي بوضعه في العمق، مزوداً بطاقة خاصة به. ولكن الثقة التي عمل بها فريق الأمن الفني في الزاوية الشمالية الشرقية، حيث بدا أنهم يفتشون عن شيء يعرفون بوجوده، جعلت الشك يستهلك تفكيري.

تكرر نفس الشيء في كندا مرة أخرى. فقد منحت الحكومة البولندية تصريحاً بإقامة قنصلية في مونتريال. فاشتروا بيتاً قديماً وبدأوا عملية التصليحات. وفي كانون ثاني ١٩٥٧ ذهبت إلى مونتريال للمساعدة في وضع ميكروفون هناك. وقد عرفت الشرطة الكندية هوية ضابط المخابرات البولندية وموقع غرفته، ولكن البناء كان تم ترتيبه بشكل نهائي، لذا أسقطنا أي عملية سلكية. وبدا لنا أن ميكروفون «ساتير» هو المناسب. فقد تم تغيير شبكة الأسلاك في البناء ووضعها عبر أنابيب معدنية. وهكذا قدرت، كما فعلنا في عملية «ديو ورم» وإطارات الشبابيك، بأنه سيكون من المستحيل كشف ميكروفون «ساتير»، إذا ما وضعناه قرب هذه الأنابيب. وبعد أسبوعين من وضع الميكروفونات طلب البولنديون فجأة من المقاول تغيير الجدار الذي كان يحوي «ساتير» واستبداله بآخر جديد. وقد استطاعت الشرطة الكندية استرداد أحد هذه الميكروفونات أما الآخر فقد استولى عليه البولنديون. وفيما بعد علمت الشرطة الكندية من مصدر داخل السفارة البولندية بأن الروس كانوا قد حذروا البولنديين من إمكانية وجود مثل هذه الميكروفونات. وهكذا للمرة الثانية يسبقنا الروس بخطوة.

لم تكن هذه الأشياء لتحدث فقط في كندا. فلقد كانت هناك عملية «مول» في أستراليا. وقد بدأت بزيارة السير تشارلز سبراي رئيس منظمة المخابرات الخارجية الأسترالية إلى لندن عام ١٩٥٩. إذ تلقيت مكالمة تلفونية لإبلاغي بأنه يود مقابلتي. وقد كان سبراي شخصاً حسن المظهر ذا شارب كثيف، جعله حبه للأشياء الجميلة يبدو شخصاً جذاباً. وعُين سبراي رئيساً للمخابرات الخارجية الأسترالية منذ تأسيسها عام ١٩٤٩. كان قبل ذلك مدير المخابرات العسكرية، حيث قام بالتعاون مع مجموعة من الرسميين الذين يوافقونه الرأي بالعمل من أجل إيجاد منظمة لجمع المعلومات الاستخبارية على نمط أم آي ٥. قاد سبراي نشاط المنظمة لمدة تسعة عشر عاماً بيد حديدية، وأصبح أحد أبرز رجال المخابرات في فترة ما بعد الحرب. ولم تتراخ قبضته الحديدية على المنظمة إلا في أواخر أيام عمله عندما بدأ يفقد الصلة بموظفيه.

كان سبراي يحب زيارة لندن. خدم في الجيش الهندي في منطقة ممر خيبر في الثلاثينات. وقد ساعدته خلفيته التي تجمع بين الضابط العسكري والسيد المهذب في أن يكون له أصدقاء كثيرون في أوساط مجتمع عالم المخابرات البريطاني. كما أنه لم يكن

متملقاً. وعند التقائي به دخل فوراً في بحث الموضوع. فأخبرني بأنه كان منذ فترة قصيرة في كندا حيث أوصاه تيري غيورنسي بالتحدث معي في عملية وضع ميكروفون ضد الروس. وأوضح لي بأنه منذ هرب عائلة بتروف، وهما زوج وزوجته كانا يعملان معاً في قسم الشيفرة في السفارة الروسية في كانبيرا، قام الروس بقطع العلاقات الدبلوماسية ووضعوا سفارتهم تحت رعاية سويسرا. ولكنهم عادوا مؤخراً لبحث إعادة فتح السفارة. أما المخابرات الخارجية الأسترالية فإنها تريد أن تضع ميكروفونات في السفارة قبل أن يعود الروس إليها. وبعد دراسة الخطط نصحت سبراي بوضع ميكروفون «ساتير» الذي أطلعته عليه. ان أفضل مكان لوضع «ساتير» كان إطار الشبابيك الخشبي، وأرسلت أحد مساعديَّ إلى أستراليا للإشراف على تفاصيل العملية. تم وضع الميكروفون بنجاح في مكانه، ولمزيد من الاحتياط طلبت من المخابرات الخارجية الأسترالية عدم استخدام الجهاز لمدة سنة كاملة. لمواجهة احتمال أن يقوم الروس باستخدام الميكروويف في الثلاثة أشهر الأولى من إقامتهم في السفارة. وتماماً كما حصل في عملية «ديو ورم»، فقد نجحت عملية «مول» نجاحاً فنياً كاملاً، ولكن لم يتم الحصول على أية معلومات استخبارية نهائياً. فقد كان كل صوت في غرفة إقامة رجل ال ك ج ب مسموعاً، حتى صوت تقليبه الأوراق وصوت قلم الحبر وهو يكتب. ولكنه لم ينطق ولو بكلمة واحدة. وهكذا كان الفشل مصير عملية «مول» أيضاً.

كان من الصعب جداً تنفيذ الأوامر المعطاة لأم آي ٥ نظراً لضعف امكانيتها في فترة الخمسينات. وبالنتيجة فإن ضغط العمل على الضباط الأفراد، وخاصة أولئك الذين يعملون في شعبة أ٢ والذين أصبحوا مشغولين بحجم عملياتي واسع جداً، أصبح صعب الاحتمال. وكانت موجات من الأوراق تمر عبر مكتبي تحوي الخطط، والخرائط، والمعلومات والتقارير الفنية. وكان من الصعب غالباً التأكد في لحظة معينة أي من العمليات انتهت وأيها ما زالت في مرحلة التكوين. إن جمع العمليات عمل مربك بطبيعته حتى في أحسن الحالات. ولكن يوجد دائماً حيز في عقل ضابط المخابرات المحترف يحتفظ فيه بقدرته على متابعة النتف الصغيرة والتقاط أطراف الخيوط التي لسبب أو لآخر تثير أسئلة لا جواب لها. فقد كانت عمليات «كوير»، «ديو ورم» و «مول»، تشغل دائماً ذلك الحيز الصغير، تغطي عليها العمليات الحالية، ولكنها لم تتعرض للنسيان مطلقاً، حتى بدأت فجأة باتخاذ أهمية مميزة بعد سنين طويلة.

تتصف مهنة المخابرات بالعزلة. ولا شك أن هناك صداقات حميمة، ولكن في نهاية النهايات تبقى وحيداً مع أسرارك. تعيش وتعمل في قمة مموهة من الإثارة، بالاعتماد دائماً على زملائك. وعليك أن تتحرك دائماً، أما نحو فرع جديد أم قسم جديد، أو حتى نحو

عملية جديدة. وكلما تحركت من جديد فإنك ترث أسراراً جديدة تؤدي إلى فصلك عن أولئك الذين عملوا معك في السابق. أما الاتصال، خاصة مع العالم الخارجي، فإنه يكون عادة عرضياً، طالما أن أكبر جزء من نفسك لا يمكن أن تشارك به الآخرين. ولهذا السبب فإن أجهزة الاستخبارات هي أكثر الأجهزة قدرة على استغلال الإنسان. وهذه الصفة ملازمة لطبيعة المهنة ذاتها، وكل من ينضم للعمل يعرفها. ولكنني واجهت في بداية عملي رجلاً أدت خبرته التي اكتسبها على يد المخابرات البريطانية إلى تعرية هذا الجهاز من أهميته القومية. وقد نشأ ذلك من خلال العمل الذي كنت أقوم به للجنة برانادريت عن التذبذب. وكنت أمضي وقتاً طويلاً في البحث عن طرق يمكن من خلالها تعديل منافض السجائر والتذكاريات بحيث تصبح لديها استجابة للأمواج الصوتية عندما يتم بثها بالميكروويف على ذبذبة معينة. وإذا ما تم إنجاز هذا المشروع، فإن النتائج المؤملة عليه ستكون مفيدة جداً. إذ أن هذا الجسم لن يكون بحاجة لأن يحمل مُرسِلاً أو مُستَقْبِلاً، الأمر الذي يجعل اكتشافه مستحيلاً. وفي عام ١٩٥٦ توصلنا بنجاح لإنتاج مثل هذه النماذج، وقررنا أن نقوم بعملية تجريبية ضد السفارة الروسية في لندن.

وكان أحد عملاء أم آي ٥ في ذلك الوقت عضو البرلمان هنري كيربي، الذي كان له علاقات مع الدبلوماسيين الروس. وكانت الخطة بسيطة. وهي أن تقوم أم آي ٥ بتصميم شكل تذكاري يكون معدلاً بحيث يعكس الصوت، أما كيربي فسيقوم بإهدائه للسفير الروسي. وكان أول شيء يجب معرفته هو نوعية الهدية التي يمكن أن يقبلها السفير ويضعها بشكل دائم على طاولة مكتبه أو في المكتب على الأقل. وقد اقترح علي مالكولم كمنع أن أزور كلوب أوستينوف الذي كان يدير عدداً من العملاء، وهو والد الممثل المشهور بيتر أوستينوف.

كان كلوب أوستينوف ألماني الأصل، تربطه علاقات قوية بمجموعة الدبلوماسيين الروس، كما كان يزور السفارة باستمرار. وكان أوستينوف يتميَّز بخدمته في الجيش الروسي وكذلك الألماني والبريطاني. وقد انخرط في عمل المخابرات أثناء الحرب. وكان يتحدث العديد من اللغات. وقد جعلته خلفيته الألمانية الروسية مصدراً جيداً للمعلومات. عندما جاء هتلر إلى السلطة، بدأ أوستينوف بالعمل بحماس ضد النازية. تقرب من روبرت فانزتارت، وهو دبلوماسي في وزارة الخارجية معاد دائم للنازية، طالباً منه العمل إلى جانب المخابرات البريطانية. وادعى بأن له علاقة مع بارون فولفغانج تزو بوتلتز، الذي كان حينها السكرتير الأول في السفارة الألمانية في لندن، والذي كما قال أوستينوف يعمل بشكل سري ضد النازية. وهكذا تم تجنيد أوستينوف من قبل أم آي ٥، وبدأ يحصل على معلومات استخبارية بالغة الأهمية من تزو بوتلتز عن الوضع الحقيقي لإعادة تسليح ألمانيا. وكانت هذه المعلومات

لا تقدر بثمن، وربما كانت أهم معلومات تحصل عليها بريطانيا من مصدر إنساني في فترة ما قبل الحرب. إذ بعد مقابلة أوستينوف لِـ تزو بوتلتز كانا يذهبان سوية للعشاء مع فانـزي تارت وتشرشل، حيث يقومان بتوصيل المعلومات التي حصلا عليها لهما ـ وقد أصبح تـزو بوتلتـز كابن ثانٍ للدبلوماسي الإنجليزي المهذب. وحتى بعد اندلاع الحرب استمر أوستينوف في الالتقاء مع تزو بوتلتـز الـذي أصبـح وقتهـا ملحقـاً للقـوات الجـوية في هولـنـدا. وأخيراً في عام ١٩٤٠ علم تزو بوتلتز بأن الغستابو يقترب منه فقرر الهرب. وهكذا قام أوستينوف بالسفر إلى هولندا، مغامراً بحياته، لمساعدة تزو بوتلتز في الهرب نحو الأمان.

ذهبت إلى شقة أوستينوف في كينغستون، وأنا أتوقع أن أقابل بطلاً من العالم الســري يعيش في تقاعد مشرِّف. أما في الواقع فقد كان أوستينـوف وزوجته يجلسـان في شقة قـذرة تحيط بهما أكداس الكتب القديمة. كان يقوم ببيع مكتبته.

ورغم صعوبة وضعه، فإن أوستينـوف خاف من زيـارتي. كان لا يـزال يمارس اللعبـة الكبيرة بأطراف أصابعه. ووضع كأسين صغيرتين من الفودكا وبدأ يفكر بالخطة التي أحضرتها معي من المكتب. كان رجلاً سميناً يتحدث بلهجة خاصة به، وكانت له عين ثاقبة فيما يتعلق بالمصالح الحقيقية للدبلوماسيين السوفيات في حدائق بارك كينغستون.

وقال بصوت حازم: «الخطر الحقيقي يا صديقي هو أنهم سيبيعون الهدية بدل عرضها، إذا كانت ذات قيمة عالية». وواصل حديثه قائلاً:

«إنهم بلا شفقة ـ ولهم أذواق مترمتة. ما رأيك بنموذج لمبنى الكرملين أو تمثال نصفي صغير للينين، ربما كان هذا أكثر قدسية عندهم».

أوضحت له بأن تمثال نصفي للينين ليس مناسباً، لأن النهايات المستديرة في جمجمة فلاديمير ايليتش غير مضمونة لعكس موجات الصوت. أمـا نمـوذج مبنـى الكرملـين فإنـه يقدم إمكانيات كثيرة. وسيكون من السهولة بمكان إخفاء النموذج الصحيح من انحناءات الإفريز في المجمع الذي يرمز إلى الأم روسيا. ورأى كلوب أوستينوف العملية وكأنها جزء غني من مسرحية، وعرض أن يقوم بزيارة للسفير ليجمع المزيد من المعلومات عن ذوقه.

وعندما فعلت الفودكا فعلها بدأنا نتحدث عن أيـام زمان. كان أوستينوف كهـلاً ولكن ذاكرته ظلت قوية. وبدأت الدموع تنحدر على وجنتيه عندما أخبرني عن قصته وما قدمه هو وتزو بوتلتز للبلاد. وأخيراً طفح الكيل وخرج عن تحفظه.

«لقد عملت أشياء كثيرة، يا بيتر، وهم يتركوني هنا. . أنا وزوجتي دون قرش واحد».

«والتقاعد؟» سألته.

فصرخ بمرارة قائلاً: «التقاعد؟ ليس لي تقاعد. عندما تعمل من أجلهم فيجب أن لا تفكر بالمستقبل وبالهرم. إنك تقوم بذلك لأنك تحبه. أما عندما يأتي وقت الموت فإنهم يتخلون عنك».

وجلست صامتاً. وبدا لي كم هو مؤلم وجارح أن يبقى مثل هذا الرجل وحيداً في مثل هذه الظروف، مجبراً على التسول. وأردت أن أسأله لماذا نسيه كل من تشرشل وفانزي تارت، ولكني شعرت بأن هذا سيزيد من عمق جرحه لا أكثر. وراح أوستينوف يواصل الشرب.

قال: «كانت لعبة مسلية». ثم سكب المزيد من الفودكا بيد مرتجفة. وساد الصمت لفترة، ثم تكلم ثانية، وهو يشير إلى صورة بيتر الشاب المعلقة: «هذا ابني. إنه ممثل. هل لديك أطفال يا بيتر؟» فأخبرته بأنه لدي ثلاثة أطفال بنتان وصبي واحد.

فقال بهدوء: «قل له إذن أن لا ينضم لهذا العمل. فأنا لا أحب أن ينضم ابني لعملنا. فالسادة هم الذين يديرون العمل، والسادة ليس لديهم ذاكرة».

وشيئاً فشيئاً بدأ الإحساس بالمرارة يفارقه. فسأل عن المكتب، عن غاي ليديل، ديك وايت ومالكولم كمنغ وعن كل أولئك الذين ارتبط بهم عن قرب في العمل أثناء الحرب. وأخيراً، غادرت الشقة عند الغروب. تصافحنا ثم عاد أوستينوف وحيداً إلى الفودكا وأكداس الكتب.

كنت ثملاً ذلك اليوم لدرجة أنني لم أستطع أن أعمل أي شيء سوى العودة إلى البيت. أما في اليوم التالي فقد طرحت الموضوع على كمنغ فبدا محرجاً. وقال:

«ولكنني متأكد من أننا حددنا له تقاعداً منذ عدة سنين. حسناً.. حسناً.. مسكين كلوب سأرى ديك في الحال».

كان طرح أي سؤال لاحق مسألة لا طائل من ورائها. من بالضبط يتحمل مسؤولية نسيان كلوب أوستينوف؟ لقد ضاع السؤال والجواب معاً في الأروقة البيروقراطية. ثم حصل أوستينوف على تقاعده رغم أنني لم أره بعد ذلك اللقاء أبداً. فقد توفي بعد ذلك بوقت قصير. ولكن أرملته تستفيد من هذا التقاعد الآن. ثم توقفت عملية «الكرملين الفضي» بإيعاز من وزارة الخارجية. وفي الحقيقة ان قلبي قرفها يوم زرت أوستينوف. لكنني تعلمت درساً لم أنسه مطلقاً هو أن أم آي ٥ تتوقع من ضباطها الولاء حتى القبر دون أن ترد بالضرورة هذا الولاء.

يمكن القول بأن سنوات الخمسينات كانت فترة متعة، حيث كانت الشعبة أ مكاناً لعدوى الضحك. وكان هيو وينتربورن يقول دائماً: «إن الحياة في أم آي ٥ رائعة رغم التوتر الشديد فيها». مثل تلك الأيام التي كنا نقوم فيها بتركيب أجهزة تنصت في خزنة بيت مجاور للسفارة الهنغارية. فقد تسلقت سطح البيت لكي أضع الهوائي فكان أن رآني أحد الجيران، الذي قامَ بدوره بالإبلاغ عن وجود لص على السطح. وخلال عشر دقائق كان رجال الشرطة يقرعون باب البيت بمرافقة الجار إياه، فساد الهرج والمرج. فقد كنا في الداخل غارقين بين قطع أجهزة التنصت والأسلاك. وبدأ وينتربورن برفع الطبقة الخشبية عن أرضية الغرفة ليضع تحتها على عجل ما يساوي عشرات الآلاف من الجنيهات من الأجهزة. واستمر قرع الباب بقوة. ثم بدأ رجال الشرطة يدفعون الباب بأكتافهم. فقد أوحى لهم الصوت الصادر من الداخل بأن سرقة حقيقية تجري تحت سمعهم. وأخيراً، أخفينا الأجهزة بطريقة عشوائية، فتحت الباب وأوضحت لهم بأنني كنت أقوم ببعض التصليحات الليلية بناء على طلب مالك المبنى. وأعطيت رجال الشرطة رقم تلفون للتأكد من صحة كلامي. وكان الرقم رقم الشعبة الخاصة المحلي.

الأطرف من ذلك هو ما مر بنا ونحن ننفذ عملية مشابهة ضد السفارة البولندية في شارع بورتلاند. كان البيت المجاور خالياً بشكل مؤقت، ودخلت شعبة أ ٢ لتركيب مجموعة من الميكروفونات. وقمت أنا وينتربورن بقيادة فريق يتألف من أثني عشر ضابطاً من الشعبة أ. كان الصمت جزءاً أساسياً في خطتنا لأن البولنديين يقيمون بشكل دائم في الغرفة التي لها جدار مشترك مع البيت. وقد تمسكت بأن يخلع جميع أعضاء الفريق أحذيتهم لتجنب إصدار أي صوت على سطح الأرضية الخشبي. عملنا لمدة أربع ساعات متواصلة في برد قارس يصل درجة التجمد. وقمنا بنزع السطح الخشبي كاملاً في الطابق الأول وأخذت أمدد الأسلاك بصبر وأناة كبيرين بين ثنيات الوصلات. وأثناء ذلك علق أحد الأسلاك الرئيسية بشق في إحدى الوصلات. ولما كنت غير قادر على تصحيح الوضع باليد، وضعت قدمي بهدوء شديد على مسمار بناء برز من إحدى الوصلات. وعندما بدأت أنحني نحو السلك سقط المسمار وسقطت أنا من سقف الطابق الأرضي. انهار كذلك جزء كبير من سقف الطابق الأرضي مصدراً صوتاً مدوياً وكأننا في حرب. وبعد الانهيار وجدت نفسي ما أزال معلقاً في السقف. وساد صمت كامل للحظات.

وقال وينتربورن يذكرني: «جميل أننا نزعنا أحذيتنا!»، ثم انفجرنا ضاحكين.

ولحسن الحظ كان الجيران نائمين، لأنه لم يأت أي شرطي ليتفقد البيت. ثم قام ليسلي جاغر بتصليح الأمور قبل الصباح، مستخدماً المواد سريعة الجفاف.

إن مثل هذه الحوادث كانت نادرة في أم آي ٥. فقد أصبحت هذه المهام تحت إشرافي أنا وويتربورن، وكنا مؤهلين مهنياً بشكل جيد جداً، وعلى العكس من ذلك تماماً كانت هذه الحوادث متكررة في عمل أم آي ٦. فقد كان الطابع العام لعمل أم آي ٦ في الخمسينات مأساوياً. ولعل أفضل مثال على ذلك هو ما سمعته عن إحدى العمليات التدريبية. فقد وضعوا ضابطاً جديداً في إحدى شقق أم آي ٦، وطلبوا من فريق من المجندين القبض عليه والتحقيق معه. أما بالنسبة لأم آي ٥ فإن هذه العمليات يتم الإبلاغ عنها بشكل روتيني لمواجهة أي خطأ محتمل.

وذات يوم تلقت الشعبة أ ٢ مكالمة من أم آي ٦ تطلب المساعدة. ويبدو أن فريق البحث التابع لأم آي ٦ قد أخطأ في رقم الطابق الذي يوجد به الضابط. فقاموا بفتح باب الشقة في الطابق الأعلى (فوق الشقة الهدف). وبدأوا في تنفيذ مهمتهم مع الشخص الموجود فيها. فقام هذا بدوره بنفي التهم الموجهة إليه وأعلن براءته باحتجاج شديد. وبالطبع أعتقد الفريق أن احتجاجه هذا يأتي ضمن الخطة التدريبية، وهكذا بدأ الفريق باستشارة كتاب أم آي ٦ فصل «الإقناع» وراحوا يعملون بحماس شديد. وما أن انتهوا من التحقيق حتى كان الرجل عارياً ويغني. كان في الواقع لص مجوهرات عاد لتوه من سرقة قطعة ألماس. فقام بإبراز المسروقات التي لا تزال بحوزته، وهو يعتقد بأن الفريق مجرد عصابة منافسة جاءت لتنتقم منه.

انفجر وينتربورن ضاحكاً عندما تلقى مكالمة أم آي ٦ التي تطلب فيها النصح فيما يمكن عمله بلص المجوهرات، وبالألماسة وبالشقة التي تحولت إلى فوضى خالصة. وفي النهاية أعطي اللص مهلة ساعتين للسفر إلى أوروبا، فيما قام ليسلي جاغر بإعادة ترتيب وتصليح الشقة.

بعد أن قضيت حوالى سنتين أو ثلاث سنوات في الشعبة أ ٢، بدأت أم آي ٦ الاتصال بي للمساعدة في التخطيط لعملياتها الفنية. لم أستمتع مطلقاً بالعمل معهم. كانوا يخططون لعمليات فنية فرص نجاحها الفني ضعيفة جداً. فقد كانوا دائماً يفكرون بعملية مشابهة لنفق برلين ـ شيء ما ملحمي يجبر الأمريكيين على المشاركة في نتائجه. ولكنهم لم يحققوا شيئاً من ذلك، بل إن العمليات الصغيرة كانت خالية من أي نجاح. كما أنهم كانوا يفتقدون الحس العالي في طريقة تعاملهم مع هذه العمليات مما جعلني أشعر غالباً بأن ذلك يهدد أمن عملياتهم. فمثلاً، كنا نخطط لعملية تشبه عملية «ديو ورم» في بون مستهدفين مجمع السفارة الروسية هناك.

كان ضباط أم آي ٦ يتجولون بشكل واضح حول المجمع، كما أن بعضهم كانوا يتبادلون الحديث مع حراس الأمن ال ك ج ب. كانت هذه الأحاديث تفيد في جلسات العشاء ولا تعطي

أي معلومات استخبارية ذات قيمة. وفي يوم اقترحت استخدام أسلاك ألمانية حتى إذا ما كشفت العملية كان بإمكاننا التنصل منها وإلقاء تبعتها على المخابرات المحلية.

ورد علي بعنف رئيس محطة أم آي ٦ «يا إلهي ما هذا يا بيتر؟ إننا لا نستطيع أن نفعل هذا. فهذا أمر غير أخلاقي».

الأخلاق! لقد كانت حسب معلوماتي مطروحة من قبل أم آي ٥ لاستهلاك الوايت هول وأم آي ٥. وفي الحقيقة فإن أم آي ٦ تحت قيادة السير جون سنكلير، أصبحت مسؤولية فعلية إذ أنها لا تزال ترفض الارتفاع إلى مستوى النتائج الناجمة عن كون فيلبي جاسوساً سوفياتياً. كانت تعمل في العالم المعاصر بمواقف الثلاثينات وبموظفي وأدوات الثلاثينات أيضاً. وأنا لم أفاجأ عندما وقعوا في نيسان ١٩٥٦ متخبطين في قضية «كراب».

فقد قام الزعيمان السوفياتيان خروتشوف وبولغانين بزيارة لبريطانيا على متن البارجة «أوروجو نيكيدزه» التي رست في بورتسموث. وكان مقدراً لهذه الزيارة أن تحسن العلاقات السوفياتية الإنجليزية في وقت حساس. وقررت أم آي ٥ أن تعمل ضد خروتشوف في غرفة في فندق كلاريدج. وبالطبع فإن هذا الفندق فيه العديد من التسهيلات الخاصة الدائمة موضوعة على أجهزة الهاتف، لأن الكثير من زواره لهم أهمية خاصة لدى أم آي ٥. ولكننا علمنا بأن فريقاً أمنياً سوفياتياً سيأتي لتفقد جناح خروتشوف قبل وصوله، لذلك قررنا أن هذا هو الوقت المناسب لأن نستخدم لأول مرة الجهاز الذي طوره جون تيلر في مختبر دوليس هيل. كان هذا الجهاز صعب الاكتشاف من الناحية العملية. إذ يمكن شحن التلفون لمسافات قصيرة باستخدام موجات صغيرة ذات تردد عال. وهكذا وضعنا الجهاز في مكتب بعمارة قرب الفندق. وعمل الجهاز بشكل رائع. كانت غرفة خروتشوف تحت سيطرتنا طوال فترة زيارته. أما في الواقع فإن المعلومات التي جمعناها كانت بلا قيمة نهائياً. إذ لم يكن خروتشوف غبياً كي يبحث أموراً هامة في غرفة فندق. وكنت في المكتب في الطابق السابع من البناية ومعي مترجم فوري. استمعنا لخروتشوف ساعات طويلة على أمل أن تتساقط اللآلىء من فمه. لكننا لم نسمع أي إشارة عن آخر أيام ستالين أو عن مصير رئيس ال ك ج ب بيريا. وبدل ذلك كنا نسمع مونولوجات من خروتشوف يخاطب خادمه حول ملابسه. كان إنساناً غريباً، يقف أمام المرآة يحدق في نفسه لساعات طويلة، ويناقش تصفيف شعره. وتذكرت أن خروتشوف وجد في إيدن النظير المناسب. فكلاهما كانا كثيري الشكوك وهمهما الوحيد هو أن يبرزا على مسرح الأحداث.

وفي الوقت الذي كانت فيها أم آي ٥ تتنصت فيه على خروتشوف، قامت أم آي ٦ بشن

عملية خرقاء ضد البارجة أوروجونيكيدزه. أدارت العملية محطة أم آي ٦ في لندن بقيادة نيكولاس اليوت. كانت أم آي ٦ تريد قياس ريشة الدفع في البارجة الروسية، لأن قيادة البحرية كانت تريد أن تعرف لماذا تسير البارجة بسرعة أكبر مما ورد في معلومات المخابرات البحرية. وقد رتب اليوت مع أحد رجال الضفادع، بستر كراب ليقوم بتنفيذ المهمة.

وفي الواقع لم تكن هذه المرة الأولى التي تحاول فيها أم آي ٦ إنجاز مثل هذه العملية. فقبل حوالي سنة، نفذوا عملية تحقيق تتعلق بغلاف البارجة أوروجونيكيدزه بينما كانت راسية في أحد الموانيء في الاتحاد السوفياتي. فقاموا باستخدام إحدى الغواصات الصغيرة التي كانت أم آي ٦ تحتفظ بها في خليج ستكوس. وكانت هذه الغواصات تتمتع بإمكانية إرسال واستقبال الغطاسين عن طريق غرفة خاصة في داخلها، كما كانت تستطيع الوصول إلى مياه الشاطىء نظراً لصغر حجمها. وقد قام أحد رجال الضفادع بمحاولة الدخول إلى الميناء، ولكنه لم يستطع بسبب كثافة الاجراءات الأمنية. وهكذا فشلت المهمة.

أما المحاولة الثانية في بورتسموث فقد انتهت إلى كارثة. حيث عانى كراب من الوزن الزائد وكبر السن، فاختفى، رغم أنه تم فيما بعد اكتشاف جثة بلا رأس دفعتها الأمواج إلى الشاطىء وشخصت على أنها جثته. وقد أبلغني جون هنري الضابط الفني في محطة أم آي ٦ في لندن بأن أم آي ٦ تخطط للعملية، وقمت بدوري بإبلاغ كمنغ الذي أبدى تشككه فيها منذ البداية. فقد كانت نموذجاً صارخاً لمغامرات أم آي ٦ سيئة التخطيط والتنفيذ على السواء. إلا أننا لم نستطع أن نفعل أي شيء إزاءها. وبعد يومين وصل جون هنري إلى مكتب كمنغ في حالة من الذعر يخبرنا بأن كراب اختفى.

وظل يردد أمامنا «لقد قلت لنيكولاس أن لا يستخدم بستر. فهو يعاني من أزمة قلبية، وهذا ما حصل».

كنا نشك في مسألة الأزمة القلبية، ولكن لم يكن هناك مجال لطرح الشكوك. فقد كانت مغامرة أم آي ٦ على وشك أن تصبح فضيحة عامة. فكراب وأحد زملائه من أم آي ٦ وقعا على وثيقة إقامة في فندق محلي بأسمائهم الصريحة.

وقال كمنغ: «ستكون مصيبة لو خرج هذا الأمر من أيدينا. سيعرضوننا في الشوارع».

طلب كمنغ من ديك وايت أن يقابله فوراً. وتجمعنا في الطابق الأعلى. كان ديك يجلس على مكتبه، ولم يبد أية ابتسامة ترحيب. وتحولت دماثته إلى تجهم وكأنما عادت إليه ملامح مدير المدرسة كما كان سابقاً.

وقال: «لقد سأل الروس الآن البحرية عن الرجل، وكان عليها أن تنكر أية معرفة

بالحادث. ويبدو لي أن كل شيء سينكشف في أية لحظة».

ثم سأل جون هنري فجأة: «كيف تورطت في هذا الأمر؟» وأوضح له هنري بأن البحرية كانت تضغط عليهم منذ عدة أشهر للحصول على تفاصيل ريشة أورروجونيكيدزه.

وأضاف: «أنت تعرف ايدن جيداً. إنه يقول بإمكانهم عمل هذا الشيء، وفي اللحظة التالية يغير رأيه. كنا نعتقد بأن المخاطرة مقبولة».

كان ديك وايت يبدو غير مقتنع. أزاح الأوراق ليضغط على زر في زاوية الطاولة. فانتشرت علائم الفوضى من كل مكان في الغرفة.

«يجب أن نقدم لكم كل مساعدة ممكنة، بالطبع». قال بإذعان ليكسر بذلك الصمت المؤلم. «سأذهب لمقابلة رئيس الوزراء هذا المساء، وأرى ما يمكن عمله لإنهاء هذا الأمر، وفي هذه الأثناء سيقوم مالكولم بوضع الشعبة أ٢ تحت تصرفكم».

انسحب جون هنري شاكراً. وقام كمنغ بالاتصال بأحد الأقسام ورتب معه عملية تصحيح سجل الفندق. أما وينتربورن وهنري فقد ذهبا بسرعة إلى بورتسموث لتصحيح ما يمكن تصليحه. ولكن كل هذا لم يكن كافياً للتخلص من فضيحة. وفي تلك الليلة قدم خروتشوف شكوى رسمية حول رجل الضفادع، أما إيدن فقد أضطر أن يقدم بياناً لمجلس العموم.

ـ إن طائفة رجال المخابرات في لندن تشبه قرية صغيرة. فكل الضباط الكبار يعرفون بعضهم البعض، على الأقل من خلال الشرب في النادي. وبعد عدة أسابيع من حادثة كراب، بدأت القرية بالحديث عن التوقعات التي كان حتمياً أن تحدث. أما أنا فقد عملت بنصيحة جون هنري، ولزمت الصمت، رغم أنني كنت أعرف تفاصيل العملية قبل تنفيذها.

بعد ذلك بوقت قصير، دخل كمنغ إلى مكتبي وكان يبدو منزعجاً.

«سيتركنا ديك. إنهم يريدونه أن يستلم أم آي ٦».

كان قرار تعيين ديك وايت رئيساً لـ أم آي ٦، كما أعتقد، واحداً من أهم الأخطاء التي ارتكبت في تاريخ المخابرات البريطانية بعد الحرب. ورغم وجود بوادر تحديث في منتصف الخمسينات، إلا أن أم آي ٥ بدأت خطواتها الحقيقية نحو التحديث في ظل قيادة ديك وايت. كان يدرك ضرورة التغيير ويحترم التقاليد في نفس الوقت، الأمر الذي ساعده على إنجاز مهامه بشكل مميز. وكان قبل كل شيء، ضابط تجسس مضاد، وبالتأكيد أفضل ضابط في القرن العشرين وأنسب شخص لمنصب المدير العام، كان يعرف الناس، ويعرف المشاكل، ويدرك

لقد كان ليديل شخصاً مأساوياً في أكثر من معنى. ربما كان موهوباً ومحبوباً بين زملائه، بل يمكنه أن يدعي عن حق بأنه كان مهندساً رئيسياً لنشاط مخابراتنا أثناء الحرب. ولكنه كان عاجزاً بسبب صداقاته.

وعندما كنت أصغي إليه عبر الشريط بدا لي أنه كان يحدث نفسه في غرفة مظلمة، يبحث في التاريخ عن مبرر لانهيار عمل كامل.

واستمعت إلى محاضرة على الشريط قدمها ديك وايت، وكانت عن المخابرات السوفياتية. وبدا لي أنه قد سجلت من إحدى الندوات التي كانت تعقد للضباط الجدد، لأنني كنت أسمع صوت الجمهور وهو يضحك على نكته. كان ديك وايت يمتلك موهبة كبيرة في تقديم كلامه مع بعض اللمسات والبهارات الممزوجة بشخصيات من الأدب الروسي. كان مؤهلاً بشكل جيد في الشؤون السوفياتية، لكونه مديراً سابقاً لدائرة التجسس المضاد: الشعبة د، قبل أن يصبح مديراً عاماً.

تحدث باستفاضة عن هوس الروس بالسرية، وكيف أن ال ك ج ب الحديثة ترتبط بجذورها في الشرطة السرية القيصرية. وكان واسع النظر في تحليله لأهمية ال ك ج ب التاريخية بالنسبة للحزب البلشفي. فالمخابرات السوفياتية كانت الضمانة لسيطرة الحزب في بلد واسع مترامي الأطراف ومليء بالتناقضات. وتكلم أيضاً عن سبب كون المخابرات البريطانية والروسية العدوين اللدودين الأساسيين في لعبة الجواسيس. فالسرية والمخابرات لها جذور عميقة في تاريخ البلدين. وكان ديك وايت يعتقد أن جهازي مخابرات البلدين يتشابهان في صفة الحذر والصبر التي تعكس شخصيتيهما القومية. كان يجري مقارنته كي يبهج المجتمعين بنشاط وحماسة «أبناء العم الأميركيين».

ورغم كل هذه النعومة التي رافقت طريقة ديك وايت في الكلام فإنه كان أرثوذكسياً متشدداً. كان مؤمناً بالفكرة التقليدية التي تقول بإمكانية «احتواء» الاتحاد السوفياتي، وبأن أم آي ٥ لها دور تلعبه في تحييد الموجودات السوفياتية في المملكة المتحدة. تكلم كثيراً عن الدافع عند الشيوعيين، واستند في ذلك إلى الوثائق التي وجدت اثر غارة آركوس والتي أظهرت مدى الجدية الذي تعاملت بها المخابرات السوفياتية مع إسقاط الحكومة البريطانية. وعلق أملاً كبيراً على مبادرات التحقيق الجديدة التي تتخذها الوايت هول كأفضل طريق لإفشال اختراق المخابرات السوفياتية للحكومة.

كان يعتقد بأن أم آي ٥ تمر في مرحلة اصلاحات عظيمة، والتي كانت بشكل أو بآخر تحت إشرافه هو. وكان الانطباع الرئيسي الذي أبداه هو اعتزازه بالخدمة. وظل هذا الشعور ملازماً له حتى بعد أن ترك أم آي ٥ لينضم إلى أم آي ٦. كان يعتمد بشكل رئيسي على العمل الجماعي، كما كان حريصاً على الحفاظ على معنويات المنظمة التي يديرها، مما جعله شعبياً وإنسانياً في نظر من يعمل معه، رغم أنه كان دائماً يحتفظ بمسافة تفصله عن الآخرين.

وعند نهاية فترة التدريب بدأت بجولة في البناء، وغالباً ما كان يرافقني كاكني أو وينتربورن. كان المكان مكتظاً بشكل مضحك، حيث كان كل أربعة ضباط في غرفة واحدة. أما أنا فكنت أتمتع برفاهية خاصة في غرفتي وحيداً بجانب غرفة وينتربورن، على الطابق الخامس. كانت مشكلة اكتظاظ المكان ناشئة عن الكره المتبادل بين أم آي ٥ وأم آي ٦. أما في نهاية الحرب، فقد تم التخطيط لانشاء بناية مشتركة لقيادة المخابرات تضم المنظمتين معاً. وتم الحصول على المكان المناسب في هورس فيري رود.

لكن اللجنة المشتركة أمضت عدة سنوات وهي تتجادل حول التقسيم الصحيح للمكاتب فيما كانت أم آي ٥ تبدي عدم قدرتها على الثقة بـ أم آي ٦ بسبب كيم فيلبي. وقد ظل الأمر معلقاً حتى الستينات عندما استقرت أم آي ٦ في بنائها الخاص في سنتشوري هاوس.

وبمعنى من المعاني فإن عدم القدرة على التوصل إلى قرار بخصوص تقسيم المكاتب كان مؤشراً يدل على فقدان التفكير السليم في الوايت هول حول دور كل من أم آي ٥ وأم آي ٦. فقد بقيت أم آي ٥ حتى السبعينات عندما استطاعت إقناع وزارة المالية بتحويل بناء دائم وخاص لها في كيرزون هاوس. فحتى ذلك الوقت كانت معالجة القضية تتم عن طريق عقود الإيجار قصيرة الأجل. فقد كان هناك أولاً شارع كورك الذي كان في الخمسينات مكاناً لأمبراطورية الشعبة جـ المزدهرة. ثم في الستينات كانت مكافحة التجسس تقوم بعملها من المبنى الموجود في شارع مارلبورو، وكنا مضطرين للدخول إلى عملنا عبر أماكن الدعارة والخضار العفنة في سوق سوهو لنصل إلى الملفات السرية جداً. وربما بدا ذلك مناسباً بشكل ما، ولكنه قطعاً لم يكن عملياً.

بدت أم آي ٥ في الخمسينات مغطاة بطبقة كثيفة من الغبار يعود تاريخها إلى سنوات الحرب. وكانت المنظمة تشبه إلى حد كبير بطلة ديكنز الآنسة هافيشام. فقد كانت تعج بالنخبة المثقفة في أيام الحرب ثم نبذوها بعد ١٩٤٥، بحثاً عن وظائف جديدة تاركين أم آي ٥ فريسة للغرف المظلمة، وتعيش على أمجاد غابرة، ونادراً ما يكون لها أي اتصال مع الوايت هول.

قوة المنظمة المضادة للتجسس التي سعى لإيجادها. وبدلاً من الاستمرار في عمله في هذه المنظمة، تم نقله على أسس سياسية إلى منظمة أخرى لم يعرف عنها إلا القليل، بالإضافة إلى أن مجيئه رئيساً لها لا يلقى الترحيب داخلها. إنه لن يكون ناجحاً هناك كما كان ناجحاً في أم آي ٥.

لكن الخسارة لم تقع فقط على أم آي ٥ بفقدان ديك وايت. فقد كانت القضية الأساسية في المخابرات البريطانية بعد الحرب هي الحاجة إلى التفكير الواضح في الدور النسبي لمختلف أجهزة المخابرات. ففي فترة ما بعد الامبراطورية كانت بريطانيا بحاجة إلى منظمة مخابرات محلية قوية قبل أي شيء آخر. إذ لم يكن لأم آي ٦ أهمية تذكر اثر تشكيل قيادة الاتصالات الحكومية. وقد أدى نقل ديك وايت لرئاسة أم آي ٦ إلى تقوية وضعها، واضعاف إمكانية نشوء مخابرات جيدة، وحكم على الجهاز الذي كان يعمل به بالإهمال لعشر سنوات. ولو بقي ديك وايت في منصبه، لأصبحت أم آي ٥ قادرة على النهوض من كبوات الستينات والسبعينات ودخلت الثمانينات مسلحة بوسائل أفضل لمواجهة التحديات.

تمت مغادرته بشكل سريع. فقد أهدي مجموعة من القطع الفضية الإنجليزية القديمة في حفل صغير في كانتين أم آي ٥. كانت مجرد مناسبة عاطفية. وكان الذين يعرفون ديك وايت بشكل جيد، وأنا لست منهم آنذاك، يقولون بأنه كان يعاني ما يشبه الموت بسبب النقل الى أم آي ٦، ربما لإدراكه بأنه سيترك عمله غير ناجز. وكان على وشك البكاء عندما ألقى كلمته في الحفل. فقد تكلم عن أيام ما قبل الحرب والصداقات التي كونها آنذاك. وشكر كمنغ لأنه شجعه على الانضمام للعمل. وتكلم بفخر عن الانتصارات أيام الحرب. وتمنى لنا الخير وطرح علينا وصيته الأخيرة.

«لقد قابلت بعد ظهر هذا اليوم السيد رئيس الوزراء، وقد أكد لي دعمه واهتمامه لهذه المنظمة. ويسعدني أن أعلن بأنه عين نائبي روجر هوليس، ليحل مكاني كإثبات لإيمانه بهذه المنظمة. وأنا متأكد من أنكم توافقونني بأن المنظمة في أيدٍ أمينة». وتقدم رجل طويل ليصافح ديك وايت. وهكذا انتهت مرحلة التحديث.

الفصل السابع

لم يكن روجر هوليس شخصية محبوبة في أم آي ٥ أبداً. كان رجلاً عنيداً ومتسلطاً. يجب أن أعترف بأنني لم أحبه مطلقاً. وحتى أولئك الذين كانوا ميالين إليه، كانوا يشكون فيما إذا كان مناسباً لشغل أعلى منصب. ومثل كمنغ، أقام هوليس علاقة صداقة مزيفة مع ديك وايت في أيام ما قبل الحرب. ورغم ذكاء ديك وايت، إلا أنه كان يحب دوماً أن يحيط نفسه بالرجال الأقل كفاءة. وكنت غالباً ما أشعر بأن هذا أمر غير مأمون، وبأنه كان يريد لمواهبه البروز بشكل واضح إزاء هؤلاء. ورغم أن هوليس كان أذكى من كمنغ خاصة في مجال العمل البيروقراطي، إلا أنني أشك في أن ديك كان يرى فيه رجلاً ذكياً ومثقفاً.

كان هوليس يعتقد بأن أم آي ٥ يجب أن تبقى منظمة دعم أمنية صغيرة، تجمع الملفات، وتتابع الاجراءات الأمنية لحفظ الأمن، دون أن تنجر إلى مجالات أبعد من ذلك مثل التجسس المضاد، حيث يجب اتخاذ إجراءات عملية للتوصل إلى نتائج، وحيث يجب مواجهة الاحتمالات وارتكاب الأخطاء. ولا أذكر أبداً أنني سمعت هوليس يبدي وجهة نظره حول الخطوط العريضة للسياسة التي يريد أم آي ٥ أن تتبعها. أو يأخذ في الاعتبار تعديل أم آي ٥ لتصل إلى مستوى الجاهزية الكافية لمواجهة حرب المخابرات. فهوليس بالرجل الذي يفكر بهذه الطريقة. كان أمام عينيه هدف واحد يعمل بكل قوته للوصول إليه. كان يسعى أن تنال أم آي ٥ وهو شخصياً الحظوة في الوايت هول. وهذا يعني أن لا يكون هناك أخطاء ولو تطلب الأمر ألا يكون هناك نجاح.

نشأ هوليس في سومرست، حيث كان والده مطران تاونتون. وبعد المدرسة وجامعة أكسفورد، سافر إلى الصين مراراً قبل أن ينضم إلى أم آي ٥ في أواخر الثلاثينات. وأثناء

الحرب تخصص بالشؤون الشيوعية، كمساعد لمدير الشعبة ف. وخلال عمله تحت إمرة سيليتو، أصبح هوليس مدير الشعبة ج، مما أعطاه مسؤولية كافة أشكال التحقيقات والأمن الوقائي، مثل تصنيف الوثائق ووضع أجهزة التنصت في المباني الحكومية. وقد أخذت خدمته في الشعبة ج بعين الاعتبار عندما عين مديراً عاماً.

وعندما جاء ديك وايت بعد سيليتو، مديراً عاماً في عام ١٩٥٣ عين هوليس نائباً له. كان هذا التعيين أمراً معقولاً إذا نظرنا للأمر بسطحيه. فبينما كان ديك يقوم بإنجاز الأفكار والمخططات، كان هوليس يقوم بإنجاز الأعمال الإدارية بمهارة عالية، الأمر الذي كان ينقص ديك. لم أصطدم بهوليس طوال مدة عملي معه وهو في منصب نائب المدير وكرجل طموح. لقد صعد لأكبر مما كان يأمل، ويدا سعيداً بأن ينهي عمله على أنه الذراع الأيمن لديك وايت وموضع ثقته. ولعل أبرز المعلومات المعروفة عن هذا الشخص المفرط في السرية هو علاقته الطويلة مع سكرتيرته، وهي فتاة طموحة. وما أن غادر ديك وايت إلى أم آي ٦ حتى دخلت إلى مكتب المدير العام بحماس فاق حماس هوليس نفسه. أما هوليس فإنه كان يعرف قصوره، كما أعتقد، وما أن تم تعيينه حتى بدأ بتغطيته بالاعتماد على الاستغلال الفج للسلطة. أما النتيجة الحتمية لذلك فقد كانت تراجع الناس بسرعة عن كل احترام حملوه له في بداية عمله.

جاء هوليس إلى المنصب في وقت لم يسبق له مثيل من الانهيار في العلاقات بين أجهزة المخابرات البريطانية المختلفة. كان هناك توتر دائم بين أم آي ٥ وأم آي ٦، يعود تاريخه إلى الأيام الأولى. ولكنهما كانتا قد خرجتا من الحرب العالمية الثانية كشريكتين لأول مرة في بيروقراطية استخبارية منسقة، بالتعاون مع قيادة الاتصالات الحكومية التي كانت مسؤولة عن كل أشكال الاتصالات والأشارات المخابراتية. (لمزيد من المعلومات يمكن مراجعة كتاب كريستوفر اندرو «الخدمة السرية»). ولكن خلال عشر سنوات أخذت هذه العلاقة القوية والفعالة في التفكك بشكل نهائي تقريباً. فمنظمة أم آي ٦ أصبحت عدائية جداً نتيجة لما كانوا يعتبرونه محاولات غير مبررة من قبل أم آي ٥ للتدخل في قضية فيلبي. كما أن أم آي ٦ رأت في تعيين إيدن لديك وايت في مكان سنكلير إهانة عظمى.

أما أكثر أوجه التقصير في الاتصال فلا شك أنه كان بين أم آي ٥ وقيادة الاتصالات الحكومية. ففي أثناء الحرب عملت أم آي ٥ بتوافق كبير مع قسم الإشارة التابع لها، على نظام الأمن المزدوج. وقد استطاع هذا القسم اعتراض وكشف الشيفرة المستخدمة من قبل المخابرات الألمانية، مما مكن أم آي ٥ من اعتقال الجواسيس الألمان حال هبوطهم في إنجلترا. وكان قسم الإشارة تحت إدارة أم آي ٦ ولحساب أم آي ٥. أما الشعبة ب فقد كانت تقوم

بفرز هؤلاء العملاء. إذ كان يتم إعادة أولئك الذين يبدون التعاون مع المخابرات البريطانية لكي يبدأوا في بث معلومات مزيفة للألمان. أما من كان يرفض فقد كان يعدم. ولكن نجاح عملية تزوير المعلومات يعتمد على القدرة على جعل عدوك يقبل بهذه المعلومات المزيفة. ومن خلال عملية «إينيغما» التي تم من خلالها كشف الشيفرة الألمانية، استطاعت لجنة العشرين المسؤولة عن عمليات الأمن المزدوج أن تعرف بدقة بالغة مدى تأثير تمرير الخدع على السياسة العسكرية الألمانية.

وفي فترة ما بعد الحرب أبدت أم آي ٥ القليل من الاهتمام بعمل قسم الإشارة، بسبب خلوها من النخبة المثقفة التي كانت موجودة أيام الحرب. وعلى أية حال، كانت قد فقدت سيطرتها المباشرة على قسم الإشارة منذ أيام الحرب لصالح أم آي ٦. أما العائق الأكبر فقد كان قيادة الاتصالات العامة التي فرضت احتكارها على كافة الإشارات والاتصالات الاستخبارية. وفي الوقت الذي بدأت فيه العمل بتفرغ كامل مع أم آي ٥ عام ١٩٥٥ انخفض مستوى الارتباط مع قيادة الاتصالات إلى درجة اجتماع واحد كل ستة أشهر بين ضابط أم آي ٥ وضابط من رتبه أعلى من هذه القيادة. وفي شباط عام ١٩٥٦ حضرت واحداً من هذه الاجتماعات لأول مرة. كانت التجربة مرة. فلم يكن أي من الطرفين يحبذ أن يكون لقيادة الاتصالات في ظروف الحرب الباردة، دور حيوي تقوم به في مساعدة أم آي ٥ في مهمتها الرئيسية في التجسس المضاد، كما كان الأمر أثناء الحرب العالمية الثانية. كما أنهما لم يكونا على استعداد لإدراك أن أم آي ٥ التي أصبحت تعتمد على التكنولوجيا، يمكن أن تقدم الكثير من المساعدة لقيادة الاتصالات. وبدأت بعدة اقتراحات منها على سبيل المثال التأكد فيما إذا كان الروس يتنصتون على أجهزة إرسال شعبة «واتشرز». ولكن بيل كوليتز، ممثل قيادة الاتصالات في الاجتماع، بدا منزعجاً جداً من هذا التوجه الإيجابي نحو العمل المشترك. وكان يقول: «لا أعتقد أنه عندنا من الوقت ما يمكن توفيره من أجل مثل هذا العمل».

شكوت إلى كمنغ، ولكنه هو الآخر بدا غير مهتم بالموضوع. فقد أجابني: «دعهم وشأنهم، من الأفضل أن نترك أمورهم لهم».

كان ضابط الارتباط لأم آي ٥ مع قيادة الاتصالات فريدي بيت رجلاً عملياً يدير العديد من العملاء ويعمل لمصلحة الشعبة د. كان أبوه من ويلز وأمه إسبانية منحته شغفاً كبيراً بلعبة الركبي، بالإضافة إلى النزق الإسباني. كان يتحدث الألمانية بطلاقة، وأثناء الحرب انخرط في نظام الأمن المزدوج، حيث كان يدير العملاء المزدوجين في البرتغال واسبانيا. وقد جاء ارتباط بيت بقيادة الاتصالات العامة بعد عملية «هالت»، التي قام بتنفيذها. بدأت عملية «هالت» في مطلع الخمسينات عندما طلبت القيادة العامة من أم آي ٥

المساعدة في الحصول على الشيفرة الدبلوماسية المستخدمة في لندن. وقد نفذ بيت عملية «هالت» عن طريق الطلب من أي عميل للشعبة د مجند داخل أي سفارة محاولة الوصول إلى غرفة الشيفرة. كانت القيادة العامة تأمل في أن يستطيع أحد عملاء بيت سرقة بعض بقايا أشرطة الشيفرة، التي يمكن فيما بعد استخدامها لحل الشيفرة.

انطلق بيت إلى العمل في هذه العملية بحماس شديد. ولكنها كانت مستحيلة. فقد كانت غرف الشيفرة في السفارات، وخاصة سفارات الكتلة السوفياتية، أكثر الغرف التي تكون إجراءات الأمن فيها مشددة، وإمكانية أن يصل إليها العميل إمكانية بعيدة. ومع ذلك فقد استطاع بيت أن يحرز نجاحاً بارزاً في عملية «هالت»، عندما جند عميلاً يعمل داخل السفارة التشيكية الذي كان باستطاعته الوصول إلى مفاتيح خزانة الشيفرة الحديدية الرئيسية. وحسب تعليمات ليسلي جاغر استطاع العميل أن يحصل على طبعة من المفتاح بواسطة المعجون. وكانت من نوع «كاب». وقد ساعدت نوعية المعجون الجيدة وأجهزة القياس الدقيقة على نجاح جاغر في عمل نسخة من المفتاح مطابقة تماماً. وقد استطاع العميل أن يفتح الخزنة وأن ينسخ الرموز المستخدمة في الشيفرة الدبلوماسية. وقد استطاعت القيادة العامة أن تقرأ الشيفرة التشيكية لمدة ستة أشهر. ولكن فجأة تغيرت الرموز، كما لم يلبث العميل أن فصل من عمله.

منذ ذلك الوقت تخلى النجاح عن بيت. وعندما بدأت العمل رأيت بأنه يوجد هناك طرق عديدة يمكن لأم آي ٥ أن تساعد بها في برنامج «هالت» باستخدام الأجهزة التكنولوجية بدلاً من العملاء. ولكن بيت لم يكن رجل تكنولوجيا، كما اعترف بنفسه، ووجد أنه من الصعب عليه أن يتابع النقاش معي. ولكن بما أنه كان الوحيد المصرح له الاتصال بالقيادة العامة، فقد قررت أن أقوم بذلك بنفسي. ذهبت ذات ليلة مع فريدي لتناول بعض الشراب وسألته فيما إذا كان سيغضب إذا ما طلبت منه موعداً للذهاب إلى القيادة العامة في تشيلتنهام لأرى الأمور بنفسي. فقال:

«أبداً، لا مانع لدي، فأنا لا أفهم في أجهزة الاتصال، اختصاصي هو الرذائل البشرية».

أخذت موعداً لمقابلة صديق قديم في البحرية، هو فريدي بتلر، الذي كان يعمل في إدارة القيادة العامة. وأوضحت لفريدي بتلر بأنني أشعر بأن كامل نظام الاتصال بين أم آي ٥ والقيادة العامة يحتاج إلى إعادة نظر كاملة. ورتب لي بتلر أمر تجاوز بيل كولينز، ومقابلة كبار محللي الشيفرة هناك وهما هيو الكساندر، وهيو دينهام.

كان الكساندر مسؤولاً عن القسم هنا في القيادة، الذي يضم محللي الشيفرة، ويساعده دينهام، الذي حل محله في الستينات. وكان الكساندر قد أنضم إلى العمل في بداية الحرب، وكان له الدور الرئيسي في حل رموز عملية «اينيغما»، بالإضافة إلى ألين تيرنغ وغوردون فيلتشمان. وبعد الحرب ذهب تيرنغ إلى مانشستر لتصميم الكمبيوترات، ثم مات منتحراً بسبب الإشاعات حوله بأنه شاذ جنسياً. أما فيلتشمان فقد ذهب للعمل في الكمبيوترات المتقدمة في الولايات المتحدة. الوحيد الذي بقي من الثلاثة هو الكساندر الذي استمر يعمل مع القيادة العامة في زمن السلم. كان لاعب شطرنج دولي ذكي جداً، كما كان متخصصاً في حل الشيفرات. ورغم ما يتطلبه عمله وهوايته من ذكاء، فقد كان يبدو دائماً هادئاً ووديعاً. لقد أمضى حياته في الريف، لا يدخن ولا يشرب، ثم فجأة توفي بسبب السرطان في سن مبكر نسبياً.

أخبرت الكساندر ودينهام بأنني أبلغت بعملية «هالت» بشكل وافٍ، وبأنني أشعر أن أم آي ٥ تستطيع أن تقدم الكثير لعمل القيادة العامة. وأوضحت لهما بأن أم آي ٥ تقدمت كثيراً على الصعيد التكنولوجي بعد لجنة برانسدريت التي شكلت عام ١٩٤٩، وخاصة في حقل الميكروفونات الجديدة. واقترحت عليهما بأنه يمكن الحصول على معلومات عملية «هالت» بواسطة الأساليب التقنية، بدلاً من استخدام العملاء، وهي طريقة أثبتت حتى الآن فشلها.

وقلت لهما:

«لست متأكداً كيف يمكن أن نقدم المساعدة حتى تكون لي فرصة التجربة، ولكنني أعتقد أنه باستخدام الميكروفونات ذات الحساسية العالية التي نمتلكها، فلا بد أن هناك إمكانية للحصول على شيء ما من آلة الشيفرة. هناك موظف يقوم بتشغيل الآلة كل صباح، لنفترض أن باستطاعتنا الحصول على صوت التشغيل الجديد. ألا يمكن أن يساعدنا هذا في شيء؟».

كان موقف الرجلين مشجعاً لاقتراحي. فقد بدا بوضوح أنهما متشوقان ليريا بنفسيهما أول نموذج لذلك النوع المجهول من البشر في عالم المخابرات: عالم الأم آي ٥.

وقال الكساندر: «إننا هنا نرحب بأية مساعدة. على أية حال فنحن ما زلنا أطفالاً في هذه المنظمة مقارنة بـ أم آي ٥. فنحن للآن لم ننهِ المبنى».

وتطلع من الشباك. كان هناك فريق من عمال البناء يقومون بإنشاء خط آخر من أكواخ نيسين خلف مجمع القيادة العامة.

وأضاف الكساندر يقول: «مشكلتنا أن نظرياتنا أكبر من إمكاناتنا التكنولوجية. إننا

للحصول على أصوات آلة الشيفرة. قام مكتب البريد بتعطيل خط التلفون وانتظرنا حتى اتصل المصريون بمكتب البريد. ورتبنا الأمور بحيث أذهب أنا، متخفياً في زي مهندس، مع الرجل الذي سيقوم بوضع جهاز مراقبة على مستقبل التلفون. كنت أريد التأكد من عدم وجود بقايا أشرطة شيفرة في الغرفة.

في الصباح التالي قابلت فريق مكتب البريد، وأخذتنا السيارة إلى السفارة. كانت الاجراءات الأمنية شديدة ورافقنا المصريون من غرفة إلى أخرى. أما غرفة الشيفرة فقد كانت في ملحق للبناية، وآلة هاجلين في داخلها. كان هناك ثلاثة رجال مسؤولين عن الشيفرة يجهزون أجهزة التلكس والبرقيات الدبلوماسية. بحثت باهتمام كبير عن أية بقايا أشرطة تالفة، ولكن المكان كان منظماً تنظيماً جيداً. وخرج أحد مسؤولي الشيفرة ودخل مع مرافقنا في الحديث. ثم عاد وأوقف الآلات واتجه إلي وأشار إلى التلفون. لم يكن يتحدث الإنجليزية، ولكنني عرفت من لغة الإشارات بأنه يريدني أن أضع التلفون قريباً من مقعده على الطاولة قرب الآلة. وهكذا بدأت بمد السلك، وأنا لا أكاد أصدق نفسي لهذا الحظ الجيد، وأدرت ظهري للرجل ببطء حتى يستطيع المهندس أن يضع الجهاز الصغير في المستقبل. ثم وضعت التلفون على الطاولة كما أراد، حيث كان يبعد عن آلة هاجلين حوالي قدمين فقط. وابتسم الرجل لي، فابتسمت له، ولكنني شعرت نوعاً ما، بأن سبب الابتسامة ليس مشتركاً بيننا.

عدت بسرعة إلى الطابق السابع للتنصت على الأصوات التي تبث من المستقبل. في البداية كانت مشوشة ثم بدأت تتضح مع تحريك المكثف إلى أن أصبح صوت آلة هاجلين مسموعاً بوضوح. وقامت أم آي ٥ بترتيب اتصال خاص مع قيادة الاتصالات الحكومية. وكل صباح كان القسم هـ في القيادة يتابع تشغيل الآلة ويقرأ الشيفرة. وأصبح تكتيك حل الشيفرة بواسطة التصنت على الآلات بواسطة الأجهزة يعرف بالكلمة الرمزية «إنغولف». وكان هذا التكتيك ذا أهمية بالغة. فقد مكنتنا هذه العملية المشتركة بين أم آي ٥ وقيادة الاتصالات الحكومية من قراءة الشيفرة المصرية في لندن أثناء أزمة السويس. وكان المصريون يستخدمون في مختلف سفاراتهم في العالم أربعة مفاتيح شيفرة، تم حلها جميعاً من خلال شن عمليات ضد السفارات المصرية في الخارج باستخدام أسلوب «انغولف». كانت عملية حل الشيفرة المصرية نجاحاً باهراً لأم آي ٥. فقد جاءت في وقت فشلت فيه أم آي ٦ في تقديم أية معلومات استخبارية. وفي الواقع فإن كامل شبكة أم آي ٦ في مصر كانت محاصرة ومعتقلة بناء على تعليمات من عبد الناصر في وقت مبكر من أزمة السويس. وكان كل ما قدموه محاولة خرقاء لاغتيال جمال عبد الناصر.

أما بالنسبة لهوليس، الذي وصل إلى منصب المدير العام في الوقت الذي وصلت فيه

أزمة السويس إلى قمتها، فكانت العملية بمثابة إنجاز هام خاصة في تلك الشهور القليلة الحاسمة. وعلى ضوء الأحداث اللاحقة، كنت دائماً أفكر بالمفارقة كوني منحته هذا الإنجاز.

كانت أهم معلومة استطعنا الحصول عليها من حل الشيفرة هي المتابعة المستمرة للمباحثات المصرية السوفياتية في موسكو، والتي كان يتم إعادة بث تفاصيلها إلى القاهرة عبر السفارة المصرية في لندن مباشرة من السفير المصري في موسكو. أقنعت المعلومات التي بثت عبر هذه القناة لجنة الاستخبارات المشتركة بأن السوفيات جادّون تماماً في تهديدهم بالدخول في أزمة السويس إلى جانب المصريين. كانت إحدى الرسائل متميزة في تأثيرها. فقد وردت فيها تفاصيل اجتماع بين وزير الخارجية السوفياتي والسفير المصري حيث أكد الروس نواياهم بحشد الطائرات للتحضير للمواجهة مع بريطانيا. وقد أدت محتويات هذه البرقية التي سلمت فوراً إلى اللجنة الاستخبارية المشتركة إلى إجبار إيدن على الانسحاب. أما الأثر الثاني لهذه البرقية فقد كان على الأمريكيين إذ كانت قيادة الاتصالات الحكومية تطلع شريكتها الأمريكية (جهاز الأمن القومي) على المعلومات التي لديها. وأنا واثق من ان هذه المعلومات لعبت دوراً أساسياً في الضغط الأمريكي على بريطانيا لإنهاء الأزمة.

وبعد فترة وجيزة من وضع جهاز التنصت قرب آلة هاجلين داخل السفارة المصرية خسرنا العملية كلها. فقد قام الروس، لإضفاء نوع من الخصوصية على علاقتهم بمصر مع تفاقم أزمة السويس، بإرسال فريق أمني لفحص السفارة المصرية في لندن وإخلائها من أية أجهزة تنصت. كانت لفتة صداقة من قبل الروس تمكنهم من جمع المعلومات لصالحهم في نفس الوقت. وقد اكتشف مركز المراقبة التابع لنا، والذي يراقب مدخل السفارة المصرية، فريق الأمن الروسي وهو يدخل مبنى السفارة. ودعيت على عجل لمراقبة أي تقدم يحرزونه في غرفة الشيفرة. وكنت بلا حول ولا قوة وأنا أسمعهم يدخلون الغرفة. بدأوا التفتيش في علبة الفيوزات، ثم أخذوا يفحصون الجدران والسقف بالأجهزة الألكترونية. وصدر صوت حاد عن الميكروفون عندما التقطت يد روسية التلفون وبدأت بفك المستقبل. وتوقف الميكروفون لحظة. ثم سمعت صوت سماعة التلفون توضع مكانها. وتنفس وينتربورن الصعداء.

كنا نعلم بأنه إذا ما اكتشف الروس الميكروفون فإنهم سينزعونه من المستقبل. ولكنهم لم يفعلوا ذلك! فإذا كانوا يعلمون عن الميكروفون وحذرين جداً منه، في السفارة الروسية مثلاً، فلماذا أهملوه في السفارة المصرية. ان ما يناسبهم هو أن لا يثيروا انتباهنا إلى أننا نعرف حقيقة أنهم اكتشفوا الميكروفون، لكي يغرونا بالاستمرار في استخدامه. وبهذا

يستطيعون أن يرسلوا المعلومات من خلال الشيفرة الروسية موسكو ـ لندن ومن ثَمّ تسليمها للمصريين في لندن. في هذه الحالة لا يمكن حل الشيفرة. ولكنني اعتقد بوجود سبب آخر ـ فقد أراد الروس منا أن نعرف صدق عزيمتهم في أزمة السويس بشكل صحيح. فهم لا يريدوننا أن نفترض بأنهم يراوغون. وأفضل طريقة لنأخذ نواياهم على محمل الجد هي أن نحصل على معلومات عن هذه النوايا من مصدر موثوق تماماً، برقية سرية على سبيل المثال. وكانت هذه أول مرة أدرك فيها تعقيدات المعلومات السوفياتية المضللة.

بعد انتهاء أزمة السويس، بدأت من جديد بطرح اقتراحاتي على قيادة الاتصالات الحكومية حول التعاون في المستقبل. ولكن بدا أنهم يريدون أن تعود العلاقات إلى نفس المستوى الذي كانت عليه في السابق. وفي الوقت الذي أبدت فيه قيادة الاتصالات الحكومية سعادتها لنتائج «انغولف»، إلا أنها لم تبدِ استعدادها لزيادة مساعداتها لأم آي ٥. وباختصار لم يعارضوا أن تعمل أم آي ٥ لصالحهم طالما أن هذا العمل ليس متبادلاً.

لقد شعرت بأن لقيادة الاتصالات الحكومية دوراً تلعبه في مساعدة أم آي ٥ في مواجهة شبكات التجسس السوفياتية في المملكة المتحدة عن طريق معالجة اتصالات التجسس السوفياتية. كانت المخابرات السوفياتية تفضل دائماً تنفيذ العمليات الحساسة بشكل «غير شرعي»، باستخدام عملاء يعملون باستقلال تام عن ضباط المخابرات «الشرعيين» في السفارة، حيث يقومون بالاتصال بموسكو مباشرة عن طريق أجهزة اتصال خاصة بهم. وكنت متأكداً من شعوري بأنه إذا ما كرسنا الجهد للمراقبة والتنصت على هذه الأجهزة فإننا قد نحصل على اختراق يمكن أن يقودنا إلى قلب جهاز المخابرات السوفياتية. وكنت أريد من قيادة الاتصالات الحكومية تزويد أم آي ٥ بالخدمات التي كان يقدمها لنا قسم الإشارة أثناء الحرب، وهي مراقبة كافة الإشارات اللاسلكية الصادرة والواردة في المملكة المتحدة. وقد بدا لي هذا الأمر منطقياً تماماً. إلا أن قيادة الاتصالات الحكومية كانت تكرس موقعاً تافهاً أو اثنين لهذه العملية، وهو جهد لا قيمة له، كما لم يكن بالإمكان إقناعهم لتكريس مواقع أكثر.

بعد فترة وجيزة من عملية «انغولف» الأولى والتي كانت ضد السفارة المصرية في لندن، ذهبت إلى كندا للتخطيط لعملية «ديو ورم». وعند نهاية إقامتي هناك طلب مني تيري غيورنسي رئيس التجسس المضاد في الشرطة الكندية أن أدرس قضية في الشرطة الكندية انتهت في ظروف غامضة. وخلال مراجعتي للقضية مررت بأحد التفاصيل التي أقنعتني بما لا يدع مجالاً للشك بأن قيادة الاتصالات الحكومية كانت مرغمة على تغيير رأيها في التعاون. دخلت مع غيورنسي إلى غرفة خاصة، وكان يوجد على الطاولة ثلاثة مجلدات من الملفات بعنوان «كيستون». بدأت قضية «كيستون» في عام ١٩٥٢ عندما دخل أحد الروس إلى كندا

تحـت اسـم مستعـار، بغية الحصـول علـى غطـاء له كعميل غير شرعـي لِـ ك ج ب. وفي الواقع فإن محطته النهائية كانت الولايات المتحدة حسب الخطة، ولكن ال ك ج ب غالباً ما ترسل عملاءها غير الشرعيين إلى كندا أولاً للحصول على هوية، قبل عبـور الحدود إلى الجنوب. ولكن بعد وصول هذا العميل، واسمه الرمزي عند الشرطة الكندية «غايديون»، وقع في حب امرأة. وكان هذا مخالفة شديدة لقواعد ال ك ج ب، وسرعان ما ثارت الشكوك حول مهمة غايديون.

وفي النهاية أصدر المركز في موسكو أوامره إلى غايديون للتخطيط للهجرة إلى الولايات المتحدة. ولكنه نجح في إقناعهم بأن في الأمر مجازفة كبيرة، وتم إحباط الخطة. وبدل ذلك تـم تعيينـه عميـلاً غير شرعي مقيماً في كندا، مهمته الإشراف على عمل عدد من العملاء غير الشرعيين هناك. كـانت المسـؤوليـات الجديدة شاقة. فقد كان المطلوب من غايديون، وهو رجل كسول على أي حال، أن يمضي ساعات طويلة في استقبال الرسائل على الجهاز الذي بحوزته، وأن يقوم برحلات طويلة عبر كندا لجمع المعلومات. وبدأ غايديون يقصر في إنجاز برنامجه مما دفع عملاءه للمضاربة عليه. وأخيراً قرر أن يعترف بكل شيء للمرأة التي يحب وقررا سوية الاتصال بالشرطة الكندية.

قرر تيري غيورنسي، لإحساسه الغريزي بأهمية القضية أن يعرض على غايديون العمل كعميل مزدوج بدل القبول به كمنشق.. وقد بدا القرار مبرراً عندما طُلب من غايديون إدارة عميل غير شرعي يعمل لصالح الروس في برنامج آفرو أرو للطائرات، وهو برنامج كندي. وقد راقبت الشرطة الكندية غايديون لمدة سنة كاملة وكأنه في مختبر. والواقع ان أعمـال العمـلاء السوفيات غير الشرعيين ليست معروفة في الغرب. وقام غيورنسي بتسجيل كافة الوسائل التـي استخدمهـا الـروس مع غايديون، والطريقـة التـي كان يتـم بهـا تزويده بالتعليمـات لجمـع المعلومات، والنقاط السوداء التي كان يستخدمها، والأهم من ذلك كله أن الشرطة الكندية قامت برصد كافة اتصالاته المبثوثة بالرمز.

وسار كل شيء على ما يرام حتى جاء صيف ١٩٥٥، عندما طلب رئيس غايديون منه العودة إلى روسيا لتقديم تقرير شامل. وبعد تردد أولي، قرر العميل المزدوج الذهاب. ولكنه لم يعد. وانتظرت الشرطة الكندية شهوراً وسنوات أية إشارة تدل إذا ما كان غايديون على قيد الحياة. ولكنها لم تسمع شيئاً. وفيما بعد بدأ البث من جديد من موسكو إلى كندا على شيفرة غايديون وجاء فيهـا أن عميلاً بديلاً قد وصـل. ولـم تستطـع الشرطـة الكنـدية اكتشـاف هذا العميل رغم شهور طويلة من البحث. والقضية التي كانت تعد بكثير من الآمال في البداية

أغلقها غيورنسي الحائر. كان مقتنعاً بأن خطأ ما وقع في هذه القضية، ولكنه من المستحيل وضع اليد على هذا الخطأ أو حتى التحقيق فيه. أما بينيت مساعد غيورنسي فقد كان على قناعة بأن غايديون وقع تحت سيطرة الروس وبأن القضية برمتها قصد منها خداع الشرطة الكندية.

ومن قراءة ملفات القضية اتضح لي بأنها تحمل علائم تدخل روسي من المراحل الأولى، ولم يكن باستطاعتي اقتراح أي شيء آخر. ثم لفتت انتباهي إحدى النقاط الصغيرة في القضية. فرغم أن غايديون كان عميلاً غير شرعي، إلا أن الروس طلبوا منه القيام بالالتقاء من وقت لآخر مع دبلوماسي شرعي من السفارة الروسية، والذي لا بد أن يكون ضابط دعم غير شرعي. والسبب المحتمل لهذه اللقاءات هو أن ال ك ج ب كانت تعتقد بأن غايديون عميل صعب ولا يعتمد عليه إلا من خلال اللقاءات المباشرة كي يواصل طريقه الصحيح. وخلال أحد هذه اللقاءات التي كانت الشرطة الكندية تغطيها، وقع شجار بين غايديون والمسؤول عنه. إذ كان قد أهمل الاتصالات من موسكو وأصبح عاجزاً عن الرد. وادعى غايديون بأنه لم يستطع استقبال الرسائل على الجهاز الذي بحوزته بسبب رداءة الطقس. ولكن رجل ال ك ج ب المسؤول عنه لم يفاجأ بهذا الإدعاء. فقام بتقديم لائحة لغايديون فيها تفصيلات كاملة عن الاتصالات التي أهملها مع التاريخ والساعة، موضحاً بذلك بأنه يعرف بأن غايديون يكذب. ورغم أن الروسي لم يذكر هذه الحقيقة بالتحديد، إلا أنه كان من الواضح لي بأنه كان يقوم برصد الاتصالات مع غايديون من داخل السفارة.

قرأت هذا التقرير مرات ومرات لأتأكد بأنني استوعبته بشكل صحيح. وبينما كنت أقلب صفحات الملف بدأت أدرك بأنه إذا كان ضابط الدعم غير الشرعي ل ك ج ب في كندا يرصد الاتصالات القادمة من موسكو، فإنه من الممكن تماماً أن يكون نظيره في السفارة الروسية في لندن يفعل نفس الشيء، وإذا ما تم إقناع قيادة الاتصالات الحكومية بالعمل ضد السفارة فبإمكاننا تحديد هوية الاتصالات، وأكثر من ذلك تحديد هوية ضابط الدعم غير الشرعي عن طريق مضاهاة تحركاته بما يرد في هذه الاتصالات. وفي حالة إنجاز هذه المهمة نستطيع بعدها أن نضعه تحت المراقبة الكاملة تمهيداً لإلقاء القبض عليه وهو يقابل عملاءه.

وحال عودتي إلى لندن طرحت هذه القضية على قيادة الاتصالات الحكومية. وكانوا يستمعون إلى مطالبي بمزيد من الجهد. ولكنني كنت لوحدي. ولم تحظَ فكرتي بأي حماس في داخل أم آي ٥ كذلك. ورغم أن قيادة الاتصالات الحكومية وافقت على تقديم مزيد من المواقع لرصد البث، غير أنها لم تكن كافية على الاطلاق. واقترحت على القيادة بذل جهد رئيسي لزرع مستقبلات داخل السفارة الروسية، تماماً كما فعلت بأجهزة شعبة «واتشرز».

ومرة أخرى أعتبر طلبي غير عملي وضاعت الفكرة في وسط البيروقراطية المتنامية في المخابرات.

بقي الوضع في حالة سكون حتى عام ١٩٥٨ عندما برزت قضية جديدة وأدت إلى تغيير شامل في العلاقة بين أم آي ٥ وقيادة الاتصالات الحكومية. وقد دفعت هذه القضية هوليس نحو أول أزمة داخلية يواجه من خلالها موضوعاً سيبقى يلاحقه طوال فترة عمله.

كنت في مكتبي أراجع مخططات زرع ميكروفون عندما طُلبَ مني الاجتماع بهوليس في مكتبه. كان يجلس على الكرسي المخصص له على طاولة الاجتماعات وفي يده بعض الملفات. بدا شاحباً. وطلب مني الجلوس على الكرسي المقابل.

«أريد منك أن تساعدني في حل مشكلة». قال لي وهو يسلمني أحد الملفات. قرأت المحتويات بسرعة. كانت معلومات أصلية من عميل اسمه فرانتسيك تيسلر، يعمل محلل شيفرة في السفارة التشيكية في واشنطن. وكانت المخابرات الأمريكية الاتحادية اف بي آي تدير هذا العميل، والتي قامت بدورها بتسليم المعلومات المتعلقة ببريطانيا إلى أم آي ٥. وقد ذكر تيسلر بأنه ذهب إلى تشيكوسلوفاكيا في صيف عام ١٩٥٧ وقابل بمحض الصدفة صديقاً قديماً هو الكولونيل بريبيل، الذي كان آنذاك في إجازة من عمله كملحق عسكري في لندن. وقد لعبت الخمر برأسيهما فباح بريبيل لصديقه تيسلر بأنه كان يدير جاسوساً مهماً في بريطانيا يدعى ليني، كان يقوم بتصميم أجهزة تضليل لاستخدامها في مشروع الصواريخ الموجهة لصالح الطيران البريطاني. ولم يستغرق الوقت طويلاً حتى اكتشفت أم آي ٥ العميل. ومع تقرير تيسلر كان هناك نسخة من ملف ليني الشخصي في سجل أم آي ٥. كان مهندساً كبيراً يعمل في مختبر مايلز للطيران في شورهام ـ ساسيكس، حيث بإمكانه هناك الاطلاع على تفاصيل العمليات والبرامج المتعلقة بالصواريخ.

«إنني لا أرى أية مشكلة يا سيدي. لماذا لا نضعه تحت المراقبة ونعتقله عندما يلتقي بريبيل؟».

«هذه هي المشكلة». قال هوليس وهو يسلمني ورقة إضافية.

وكانت رسالة إلى هوليس من إدغار هوفر مدير الاف بي آي، مطبوعة على الآلة الكاتبة الخاصة بالسيد هوفر. وقد ورد في الرسالة زعماً آخر أكثر أهمية منسوباً إلى تيسلر. فقد ادعى بأن بريبيل أخبره أيضاً بأن لدى الروس جاسوساً آخر داخل أم آي ٥ في لندن. وقد اكتشف بريبيل هذه المعلومات عن طريق عميل مهم في سيارة عبر شوارع لندن. وقد شعر بأن سيارة أخرى تتبعه، ويعتقد بأنها تابعة لـ أم آي ٥، فقام بعملية تضليل للتخلص من السيارة. ولرغبته في التأكد من أن هوية عميله لم تتعرض للكشف، قرر بريبيل الاتصال بنظيره الروسي الكولونيل

روجوف طلباً للمساعدة. فأخبره روجوف بأن الأمر يستغرق يوماً أو يومين، ولكنه في النهاية طمأن بريبيل بأنه رغم ملاحقة السيارة له، فإنها توقفت عن ذلك، لاعتقاد طاقمها بأنه كان يعطي زميله دروساً في السواقة. وأخبره روجوف أيضاً بأنه عليه إدراك حقيقة أن قسم المراقبة في أم آي ٥ غير تكتيكه مؤخراً، فبدلاً من الملاحقة العلنية لسيارات الدبلوماسيين حال خروجهم من سفاراتهم، أصبحوا يضعونهم تحت المراقبة على الجسور فوق نهر التايمز حيث تكون المراقبة المضادة أصعب.

وحينما قرأت الملاحظة هذه، عرفت فوراً بأن ما علم به بريبيل صحيحاً. فإن تغيير طريقة عمل قسم المراقبة تمت فعلاً، بإصرار مني كجزء من عملية تحديث العمل. فقد كانت الشرطة الكندية تقوم بالتجارب حول هذا التكتيك بنجاح ملحوظ. وكان الاسم الرمزي لهذه التجارب «كفر بوينت». ولا عجب والأمر كذلك أن يصر هوفر على تسليم رسالته لهوليس باليد عن طريق نائبه آل بيلمونت، الذي رفض مقابلة هوليس داخل مبني ليكون فيلد. وقد تم تسليم الرسالة في اجتماع سري في شقة مأمونة تابعة لـ أم آي ٥، ثم غادر بيلمونت إلى واشنطن تحت اسم مستعار.

«هذه هي المشكلة يا بيتر» قال هوليس، «فإذا ما قمنا بأي حركة ضد ليني فسنخسر تيسلر، والإف بي آي حريصة على الإبقاء عليه في مكانه لأطول فترة ممكنة. وإذا ما قمنا بالتحقيق في القضية بأساليب أخرى، فإن المصدر الروسي داخل أم آي ٥ سوف يكشفنا للروس» وفي كل الأحوال يجب الوصول إلى أساس هذا الاختراق».

وأخبرني هوليس بأنه خلال الثلاثة أشهر الماضية جرت تحقيقات مكثفة في قسم المراقبة من قبل مالكولم كمنغ وكورتني يونغ، رئيس قسم مكافحة التجسس السوفياتي. فقد كان هناك شعور بأن هذا هو مكان التسريب، ولكنهم لم يحصلوا على شيء. وأخيراً قام وينتربورن بالطلب من كمنغ إقناع هوليس بإطلاعي على القضية.

«هل لديك أية أفكار يا بيتر؟».

«لا بد من الاتصال بأولئك في تشيلتنهام يا سيدي!».

«أنا آسف. لا أعتقد بأنني. . .».

وأوضحت له بأنني أعتقد منذ وقت طويل بأن الروس يحصلون على المعلومات من خلال اعتراض وتحليل اتصالات شعبة «واتشرز».

«لقد قمت أنا وأبي بعمل مماثل عام ١٩٤٠ في ساسيكس. فقد تابعنا الإشارات ونجحنا في تحديد مسير الأسطول البريطاني أثناء عبوره القنال. وأنا متأكد من أن هذه هي

الطريقة التي حصل بها روجوف على المعلومات. وهي مسألة بسيطة بالنسبة لهم يا سيدي. مجرد مضاهاة اتجاه إشاراتنا مع سجلات تحرك رجالهم. فما يهمهم باستمرار هو أن يعرفوا دائماً متى يكونوا مراقبين».

وأخبرته بأنني كنت أطلب دائماً من قيادة الاتصالات الحكومية القيام بفحص كامل للمستقبلات التي تعمل داخل السفارة والمرتبطة باتصالاتنا نحن.

«وأخشى يا سيدي بأن هذا لم يكن ضمن الأولويات في قيادة الاتصالات الحكومية».

«ولكن هل تستطيع أنت أن تقوم بهذا يا بيتر؟».

«أجل يا سيدي. كل ما يجب عمله هو متابعة مجال المستقبل».

من حيث المبدأ فالمسألة بسيطة. فكل جهاز راديو يحتوي على مكثف يحول الإشارة القادمة إلى ذبذبة ثابتة يمكن تصفيتها. ويقوم هذا المكثف دائماً بإشعاع بعض الموجات الصوتية أثناء عمله، وهذا ما يكشف وجود المستقبل.

«لكنك تدرك يا سيدي بأنه ليس مسموح لنا القيام بهذا العمل. مما يسبب لي المشاكل مع قيادة الاتصالات الحكومية..».

ووضع هوليس رأسه بين يديه وهو يفكر بعمق. وساد صمت عميق مؤلم.

«لا بد من إطلاعهم على ما ذكره تيسلر، بالطبع، في حالة إشراكهم». وكان هوليس يدرك تماماً حدود مسؤوليات الوايت هول.

قلت له: «أستطيع في أية لحظة البدء، إذا ما قمت بحمايتي لدى تشيلتنهام عندما يعلمون بذلك. فعلى الأقل سنعرف عن مصدر تيسلر خلال أشهر قليلة. اما عن طريق قيادة الاتصالات الحكومية فإن الأمر سيستغرق سنة أو أكثر للبدء في العمل».

وبدأ هوليس يجمع الملفات فوق بعضها.

«أعتقد بأن هذه أفضل طريقة للعمل. لنبق على اتصال».

ونظر إلي وأضاف:

«بالطبع يا بيتر، أنت تدرك مدى خطورة هذا الأمر على الجهاز. أليس كذلك؟ أعني إذا كان الأمر صحيحاً. دعنا من تأثير ذلك على واشنطن. فإن الكثير من الجهد هنا معرض للضياع».

«بما فيه عملي أنا» فكرت بيني وبين نفسي. وغضبت من نفسي لأنني لم أشدد في الضغط على قيادة الاتصالات الحكومية لمراقبة أجهزة شعبة «واتشرز».

حال عودتي إلى مكتبي اتصلت مع كورتني يونغ وطلبت منه أن يرسل إليّ أية تقارير استخبارية تتعلق بأنواع الآلات الالكترونية التي كان الروس قد اشتروها من لندن أو استوردوها من الخارج منذ الحرب. وخلال مراجعة ملفات التقارير استطعت أن استجمع صورة دقيقة عن مدى ونوع المستقبلات التي يستخدمها الروس داخل السفارة. وقد توصلت إلى أن مدى مجال الأمواج الصوتية الصادرة عن المكثفات حوالي مئتي ياردة. وهذه المسافة بعيدة عن مراكز المراقبة خارج السفارة التابعة لنا. وفي هذه الأثناء كانت الشعبة أ مشغولة بإنتاج سيارة ذات جسم بلاستيكي وبداخلها جهاز رصد متطور. ضغطت على وينتربورن لإنهاء المشروع في أقرب وقت ممكن. وخلال أسبوعين كانت السيارة جاهزة ومزودة بجهاز تغذية ذاتية للطاقة ومستقبلين، أحدهما لالتقاط الأمواج الصوتية الصادرة عن الأجهزة الروسية، والثاني للتأكد من علاقتها بالذبذبات الصادرة عن أ ٤.

وفي أحد أيام الربيع في آذار ١٩٥٨، انطلقت بهذه السيارة مع مساعدي توني سيل لأول مرة. وحصلنا على تصريح يسمح لنا بقيادة السيارة مقابل السفارة الروسية وكأننا نقوم بتسليم مشتريات لأحد البيوت هناك. جلست أنا وسيل داخل السيارة والسماعات على آذاننا بانتظار سماع أي صوت يصدر عن المكبر. قمنا بجولتين. ولم يحدث أي شيء. ثم ذهبنا لنمر من أمام القنصلية في بيزواتر Bayswater. وعندما أصبحنا قرب المبنى، بدأنا نسمع صوت إشارة. ثم بدأت بضبط المستقبل حتى التقطنا ذبذبات جهاز الرصد الروسي. أبطأ السائق سرعة السيارة عند المدخل فازدادت الذبذبات وضوحاً، ثم عادت إلى الاختفاء عندما واصلنا سيرنا نحو ماربل آرتش. هناك بالتأكيد جهاز استقبال داخل السفارة. لكن هل كان يقوم برصد ذبذبات شعبة «واتشرز»؟

لأسابيع عديدة لاحقة قمنا بعدة جولات مماثلة في أوقات مختلفة من النهار والليل في محاولة للحصول على أية فكرة عن الوقت الذي يعمل فيه المستقبل داخل السفارة، ولمعرفة فيما إذا كان له صلة بأجهزة الشعبة. وبدت العملية وكأنها طويلة وعقيمة. وفجأة وبمحض الصدفة، بينما كنا نمر أمام القنصلية، مرت من أمامنا على الجانب الآخر سيارة تابعة للشعبة في الاتجاه المعاكس، وهي تبث على ذبذبات الشعبة إلى مركز الشعبة الرئيسي. وهكذا أصدر المستقبل الذي داخل سيارتنا والذي كان مضبوطاً على ذبذبات الجهاز الروسي، صوتاً حاداً.

«ما رأيك بهذا؟» سألت توني سيل.

نظر إلي بحيرة. ثم أشرقت الحقيقة علينا. فقد أعطتنا سيارة الشعبة الإثبات الذي نحتاجه. فأثناء بثها على ذبذبة الشعبة من مكان قريب جداً من القنصلية زاد حمل الدارة

الكهربائية على الجهاز في داخل السفارة. أما نحن فقد التقطنا الصوت الحاد بسبب الحمل الزائد. وبمعنى آخر، كان ذلك إثباتاً بأن المستقبل داخل السفارة كان مضبوطاً على ذبذبة الشعبة.

كانت نتائج هذا الاكتشاف الجديد، واسمه الرمزي «رافتر»، مذهلة. فهي لم تعطنا الإثبات الكامل بأن الروس يرصدون ذبذبات الشعبة وحسب، بل جعلتنا ندرك أن بامكاننا استخدام نفس التكنيك لفحص الذبذبات التي يتم رصدها بواسطة أي مستقبل داخل السفارة نضعه تحت المراقبة. فكل ما يمكن أن نعمله هو أن نبث إلى السفارة ونراقب زيادة الحمل الكهربائي على الجهاز السوفياتي. أما الأفكار التي وجدتها في ملفات «كيستون» فقد أصبحت الآن في موقع التنفيذ. وباستخدام «رافتر» بإمكاننا أن نرصد ما هو البث القادم من موسكو إلى العملاء غير الشرعيين والذي يتم رصده من داخل السفارة. وقد منحنا رافتر إمكانية اختراق العالم السري للاتصالات السوفياتية غير الشرعية.

ورغم أن «رافتر» أثبت لنا بأن اتصالات الشعبة كانت مصدراً أساسياً للمعلومات لدى الروس إلا أنه بقيت قضية جاسوس الصواريخ ليني. ومن الواضح أن التحقيق حول ليني يجب أن يتم بطريقة دقيقة لا تحتمل الفشل، بحيث تستمر اتصالات الشعبة في عملها المعتاد. وقررت على ضوء ذلك أن أفضل حل يتمثل في تغيير ذبذبات سيارات الشعبة المخصصة لإنجاز العملية. ذهبت إلى وزارة الدفاع وطلبت إحدى الذبذبات التي لديهم، وهي ٧٠ ميغا سايكل زيادة على الذبذبة الحالية للمراقبة، بحيث أن بث سيارة ليني يذوب في الذبذبات العسكرية الأخرى الكثيرة. وتطلب هذا الأمر مني أن أقوم أولاً بإجراء تعديلات على أجهزة الشعبة بحيث تعمل على الذبذبات الجديدة. ففي داخل كل جهاز بث قطعة تتحكم بالذبذبة التي يتم على أساسها البث والالتقاط. ولكي أتفادى أي خطأ فني محتمل، ذهبت في زيارة خاصة إلى صديقي القديم كمب رئيس قسم الأبحاث في شركة ماركوني، وطلبت منه إذا ما كان بإمكان إنتاج قطعة التحكم هذه في مختبره. وأعطيته نموذجاً للقطعة بحيث يستطيع إنتاج نسخ عنها بشكل صحيح. وأكدت عليه أن تكون مسألة الذبذبات سراً لا يطلع عليه أحد سواه هو ومساعده المباشر. وزيادة في الاحتياط الأمني قررنا أن توضع أرقام ذبذبات مزيفة غير تلك الحقيقية. وخلال ثلاثة أسابيع كانت القطع جاهزة وتكفي لتغيير ذبذبات حوالي اثني عشر جهازاً. وقام مهندسو أم آي ٥ المسؤولين عادة عن صيانة الأجهزة بتركيب هذه القطع حتى نتجنب إثارة الشكوك.

تم تنفيذ تفاصيل هذه العملية، واسمها الرمزي «لاف بيرد» تحت إجراءات أمن مشددة في أم آي ٥. ولم يعلم بأمر الذبذبات سواي أنا وويتربورن، كما لم يستخدم أي من

الأجهزة الجديدة في مدى السفارة السوفياتية. أما بالنسبة للمستقبل في داخل القنصلية فقد كان باستمرار تحت المراقبة بواسطة «رافتر»، كي نستطيع تسجيل كيف يتصرف الروس أثناء عملية ليني. في هذه الأثناء قامت الشعبة د بإنجاز تحليل وافٍ عن تحركات ليني وبريبيل المسؤول عنه. ومن خلال مقارنة تصرفات الاثنين اكتشفوا بأن اجتماعهم المنتظم كان في مكان قرب برايتون. وقد رتبنا مع الشعبة الخاصة أن يتم اعتقال ليني وبريبيل متلبسين في تسليم واستلام معلومات سرية في لقائهم القادم.

تمت ملاحقة ليني وهو في طريقه إلى مكان الالتقاء من قبل أفراد الشعبة المزودين بالأجهزة ذات الذبذبة الجديدة. وانتظر ليني مدة ساعتين ثم عاد إلى البيت. في هذه الأثناء بقي بريبيل في لندن. وفي وقت لاحق استدعي ليني للتحقيق حيث اعترف بشكل غير متوقع. وحكم عليه بالسجن لمدة ١٤ سنة.

وهكذا يبدو أن العملية انتهت بنجاح. ولكن بقيت نقطة صغيرة أزعجتني أنا ووينتربورن وضباط الشعبة والمسؤولين عن القضية. لماذا أحجم بريبيل عن اللقاء مع ليني في ذلك اليوم؟ يبدو أن هناك أسباباً كثيرة قد تبرر غيابه رغم أنه لم يتغيب عن أي لقاء سابق. وإذا كان علم بنية الاعتقال لدينا فمن المؤكد أنه لم يعلم ذلك من خلال رصد أجهزة شعبة «واتشرز». هناك طريقة واحدة فقط وهي أن يكون هناك تسريب للمعلومات من مصدر إنساني.

قررت أن أقوم بتجربة أخرى لحل مسألة فيما إذا كان هناك مصدر إنساني يعمل لصالح الروس من خلال المعلومات التي يستلمها عن طريق أجهزة شعبة «واتشرز». ورتبت أمر تغيير كافة قطع الذبذبات في الأجهزة في وقت واحد، مع القيام في نفس الوقت برصد جهاز الاستقبال في السفارة السوفياتية، بطريقة «رافتر»، لتسجيل ما يفعلوه بالضبط. وكان من المستحيل تنفيذ مثل هذه العملية على مثل هذا النطاق الواسع بدون تسجيل التفصيلات في مبنى ليكون فيلد، ولكنني كنت متأكداً من أن أيًا من أفراد الشعبة يعلم بهذه الخطة قبل تنفيذها.

بدأنا العمل بطريقة «رافتر» لرصد المستقبل الروسي في صباح يوم الاثنين، كما قمنا بملاحقة الدبلوماسيين السوفيات بشكل عادي وعلى الذبذبة المعتادة. أما في يومي الثلاثاء والأربعاء فقد قمنا بوقف كافة عمليات المراقبة بشكل كامل لتركيب قطع الذبذبات الجديدة. تم إبلاغ قوة المراقبة بأنه تم تغيير الذبذبة بزيادة ٢ ميغا سايكل، في حين كان الرقم الصحيح ناقص ٢ ميغا سايكل. وفي صباح الخميس أعيد العمل إلى طبيعته وبدأت ملاحقة الدبلوماسيين على الذبذبات الجديدة. وأخذنا نراقب، بطريقة «رافتر»، بشكل دقيق أية

إشارات تدل على بحث الروس عن ذبذباتنا الجديدة في المناطق التي حددناها للمراقبين. وثبت لنا أنهم كانوا يفحصون أجهزتهم وتقبلوا الأمر على أنه خطأ فني لديهم، ولكنهم استمروا باستخدام نفس الذبذبات القديمة حتى نهاية الأسبوع.

وعندما بدأنا العمل في صباح الاثنين، تغير كل شيء. فقد كان المستقبل الروسي في السفارة، وليس ذلك الذي في القنصلية، يلتقط ذبذباتنا. وهكذا وجدنا أنفسنا أمام لغز جديد. فإما أن يكون المستقبل الجديد بحث عن الذبذبة الجديدة في الأسبوع الماضي، دون أن نرصده بسبب تركيزنا على القنصلية، أو أن الروس حصلوا على الذبذبة الجديدة أثناء عطلة الأسبوع. ولكن لا يبدو أننا قد غفلنا عن الروس وهم يضعون مستقبلاً جديداً على الذبذبة الجديدة في الأسبوع الماضي.

طرحت المسألة برمتها أمام كورتني يونغ رئيس مكافحة التجسس الروسي، وقررنا أن نقوم بتجربة أخرى. فإذا ما كان هناك تسريب عن طريق شخص ما، افترضنا جميعاً بأن يكون بين طاقم شعبة «واتشرز»، أو بعض المحيطين بالعملية. لذلك قررنا أن نقدم «الطعم» وهو عبارة عن معلومات مهمة بما يكفي لأن يقوم المصدر الإنساني، إذا كان موجوداً بيننا، بنقلها إلى الروس.

كان كورتني يونغ مسؤولاً عن عميل مزدوج، اسمه الرمزي مورو، وكانت له اتصالات مع الملحق البحري الروسي اللفتنانت لولاكوف. وقررنا المضي بالخطة فوراً. لذلك قمنا بإبلاغ شعبة «واتشرز» عن قضية مورو وكأنه جاسوس حقيقي. وأخبروا كذلك في اليوم التالي بأن الشعبة الخاصة لديها أوامر بإلقاء القبض على مورو في عملية تسليم وثائق إلى لولاكوف في لقاء بينهما في هامبستيد. وطلبنا وضع كل من مورو ولولاكوف تحت المراقبة الكاملة. فإذا كان هناك خائن في شعبة «واتشرز»، فإنه سيقوم بإبلاغ الروس، الذين سيحاولون أما تغيبه عن اللقاء أو تحذيره بطريقة أو بأخرى.

وفي الواقع فإن لولاكوف جاء إلى موعد اللقاء حسب المقرر تماماً، ودخل إلى سيارة مورو في شارع هادىء قرب هامبستيد هيث، وقام بهدوء بتبادل الطرود معه. اعتقل الرجلان فوراً. وأبرز لولاكوف وثائقه الدبلوماسية فأفرج عنه، ثم غادر البلاد فيما بعد. أما الاتهامات ضد مورو فقد تم إسقاطها بهدوء.

للوهلة الأولى يبدو أن قضية لولاكوف - مورو أثبتت بأنه لا يوجد اختراق إنساني. ولكن كما في التجارب السابقة، كان هناك فجوات. فلولاكوف معروف من خلال مراقبته سابقاً بأنه صبور جداً في تحضير لقاءاته. كان يمضي ساعات طويلة وهو يتنقل في شوارع

لندن من سيارة صغيرة إلى باص إلى المترو والأسواق ثم يلتقي أخيراً مع مورو. أما في هذا اللقاء فقد خرج من مكتبه وأوقف سيارة أجرة وذهب فوراً إلى مكان اللقاء ـ حتى ان عملية استلام وتسليم المعلومات تمت وضوء السيارة الداخلي مضيئاً. وهذه جميعاً خرق لا يمكن قبوله لأسس العمل التجسسي السوفياتي كما يدرك أي شخص له معرفة جيدة بطريقة عمل المخابرات السوفياتية. وفي عام ١٩٥٨ كتبت تقريراً مفصلاً عن كامل التحقيقات في إدعاءات تيسلر وأرسلته إلى هوليس. استعرضت النقاط التي علمها تيسلر من صديقه الكولونيل بريبيل، وقدمت لهوليس تقييمي المبني على أن الروس ربما كانوا على علم بهما.

كنت متأكداً، من خلال استخدامي لطريقة «رافتر» التي طرحتها بإسهاب في التقرير، بأن رصد السوفيات لأجهزة شعبة «واتشرز» كان مصدراً أساسياً للمعلومات لديهم عن أم آي ٥، وأن هذا يحدث منذ سنين عدة. وشرحت بإسهاب قصة بريبيل «وتعليم السواقة»، كما أكدت على علم الروس بعملية «كفربوينت»، رغم أن محللي الإشارات عندنا أبدوا شكوكهم في أن يستطيع الروس الاستنتاج السريع أننا نلاحقهم على جسر التايمز، من خلال التقاطهم لبثنا فقط. أما بالنسبة لإحجام بريبيل عن اللقاء مع ليني، والسرعة التي حصل بها الروس على ذبذباتنا الجديدة عندما غيرناها، وقضية لولاكوف ـ مورو، فإنها جميعاً تحتمل تفسيرات عديدة ومختلفة. وفي الاستنتاج النهائي للتقرير قلت انني ارجع عدم وجود مصدر بشري لتسريب المعلومات إلى جانب اعتماد الروس على رصد بث الشعبة ، غير أن هذا الاحتمال لا يمكن استبعاده.

بعد يوم أو يومين من تقديم تقريري طلبني هوليس إلى مكتبه. وعندما دخلت المكتب كان ينحني فوق ملف يكتب عليه بريشة حبر. ظل منكباً على الملف، وبقيت أنا واقفاً مثل طالب مدرسة مشاكس بينما استمر هو في الكتابة. لم تتغير الغرفة كثيراً منذ أن تركها ديك وايت. كانت على الجدار صورة جديدة مضافة إلى صور المدراء العامين. أما على مكتب هوليس فكانت هناك صور لابنه بين ثلاثة تلفونات: واحد للاتصال برئاسة الوزراء، وآخر لوزارة الدفاع والثالث لأم آي ٦. وغير ذلك لم أشاهد أي شيء شخصي في المكتب.

«شكراً لك على هذا التقرير يا بيتر» قال هوليس دون أن ينظر إلي. بدا أنه أصبح إنساناً آخر يختلف عما كان عليه عندما سلمني ملف تيسلر قبل حوالي سنة. فلقد انتهت الأزمة. وبقي في منصبه. وواصل الكتابة.

«لقد كتبت لهوفر مبرزاً أهم التفاصيل عن ما جاء في تقرير تيسلر عن جاسوس أم آي ٥» قال هوليس. ثم أضاف «ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب أنت لإبلاغ طاقمهم الفني

عن خلفية قضية «رافتر». استغل الرحلة من أجل صداقات جديدة أليس كذلك؟!».

ونظر إلي وابتسم فجأة. ثم قال:

«يجب أن تعرف بأنك سبقتهم بخطوة هذه المرة. حسناً فعلت يا بيتر».

وعاد إلى الملف بما يعني أن لقاءنا انتهى. واستدرت لأخرج من الغرفة.

«آه بيتر..» قال وأنا قد أصبحت قرب الباب: «تمسك بالاكتشافات الفنية، أليس كذلك؟ يجب أن لا نعطي هوفر الانطباع بأننا لم نحل كل شيء».

«بالطبع لا يا سيدي. أنا أفهم ذلك».

كان الاسفين الأول قد دق بيننا ولكنني لم أدرك ذلك.

الفصل الثامن

مبنى الكابيتول مبنى ضخم، تحت سماء زرقاء، مصنوع من الرخام الأبيض وفوقه قبة لامعة. كنت أحب دائماً أن أزور واشنطن خاصة في الربيع. أما لندن فإنها دائماً قاتمة وقذرة، وأم آي ٥ مثلها. ومثل بقية الشباب الذين جُندوا بعد الحرب في العمل السري، كنت أشعر بأن أمريكا هي الأمل الكبير، ومركز المخابرات الغربية. لذلك قابلتها مفتوح الذراعين.

ولسخرية القدر، كانت العلاقات بين المخابرات البريطانية والاميركية في ادنى مستوى لها منذ فترة ما بعد الحرب. فقد آنهار التعاون بين أم آي ٦ والسي آي أي فعلياً بعد أزمة السويس، ووجدا نفسيهما في صراع متزايد لا في الشرق الأوسط وحسب، بل وفي الشرق الأقصى وأفريقيا. وقد وجد الكثير من المحاربين القدماء في أم آي ٦ أنه من الصعب عليهم القبول بأن تنحدر العلاقات الاستخبارية الأمريكية ـ الإنجليزية التي بنوها هم، إلى مستوى متدنٍ جداً.

أما العلاقات بين أم آي ٥ والسي آي أي فقد كانت مضطربة لعدة أسباب. كانت السي آي أي منظمة جديدة تعرض عضلاتها على الساحة الدولية لأول مرة. وكان هدفها جمع المعلومات. وبالرغم من أنه كان من المفروض أن لا تعمل في لندن بدون إشعار أم آي ٥، فإن كلاً من هوليس وديك وايت كانا يعتقدان بأن السي آي أي تتجاوز هذا الفهم.

ويكمن وراء صعوبة التفاهم بين المنظمتين، جو عدم الثقة الناتج عن هرب بيرغيس وماكلين، بالإضافة إلى تبرئة كيم فيلبي علناً. إذ لم يعد بالإمكان النظر إلى أم آي ٦ بنفس عين الثقة، خاصة وأن العديد من الموظفين الكبار كانوا أصدقاء مقربين من فيلبي. كما أن فشل

أم آي ٥ في اعتقال أي من الثلاثة جعلها تبدو للأميركيين منظمة لا كفاءة لها. أما قيادة الاتصالات الحكومية، والتي لها ميثاق تعاون رسمي مع نظيرتها الأمريكية وكالة الأمن القومي ضمن الاتفاقية المعقودة عام ١٩٤٨، فقد بقيت محصنة نسبياً ضد التيارات التي أودت بالعلاقة الجيدة بين المخابرات الأمريكية والبريطانية أثناء الحرب.

وعندما أصبح هوليس مديراً عاماً حاول أن يحسن العلاقات مع الأف بي. اي. وكان هوفر معروفاً بعدائه لبريطانيا. ويعود هذا العداء إلى أيام الحرب عندما تم تأسيس لجنة التنسيق الأمني البريطانية في نيويورك تحت إدارة السير ويليام ستيفنسون المعروف باسم «رجل يدعى الجريء». نشطت اللجنة ضد الألمان في الولايات المتحدة، وقد رفض هوفر بعناد كبير فكرة وجود أية منظمة لها الحق في جمع المعلومات على أرض الولايات المتحدة، فكيف إذا كانت تدار من الخارج. وقد رفض لعدة سنوات التعاون مع رجال ستيفنسون. وقد أدت قضية بيرغيس وماكلين إلى زيادة تعنت هوفر. فتم منع ضباط أم آي ٦ من الدخول إلى الاف بي آي لفترة من الزمن. أما أم آي ٥ فمنعت من الاطلاع على التقارير الاستخباراتية للأف بي آي.

في العام ١٩٥٦ قام هوليس بزيارة هوفر في محاولة لتحسين العلاقات وأقنعه بوضع أم آي ٥ على قائمة التوزيع مرة أخرى. وقد تحسنت العلاقات بما يتناسب مع شخصيتيهما. فكل منهما كان حريصاً على امبراطوريته. إلا أن هوليس كان ضعيف الشخصية فبدا كالمتوسل أمام هوفر العاصف. وكان هوفر، مثل بقية العصاميين الأمريكيين، عنيداً جداً ومحباً للنظام.

أصبحت أنا واسطة سلام. وادعى هوليس بأن تعييني بمنصب العالم الأول في أم آي ٥ هو الإثبات بأنه يسعى إلى تحديث الجهاز وتصعيد النضال ضد التجسس السوفياتي. وبعد زيارة هوليس، دعاني هوفر لزيارة قيادة الأف بي آي للاطلاع على مدى تقدمهم الفني. كنت حريصاً جداً على القيام بهذه الزيارة، لأنني كنت أعتقد منذ أول يوم دخلت فيه أم آي ٥ بأن المفتاح الرئيسي للنجاح على المستوى البعيد يكمن في الحفاظ على العلاقات مع الأمريكيين، من خلال اطلاعنا على مصادرهم التقنية. ولكن لم يشاركني أحد وجهة نظري هذه. فقد كانت أوهام الامبراطورية ما زالت معشش
ة في مبنى ليكون فيلد. فمثلاً لو أخذنا كمنغ الذي كان مدير القسم الفني في أم آي ٥، فإنه لم يقم بأي زيارة إلى الولايات المتحدة، كما أنه لم ير أي سبب وجيه لها.

وكان انطباعي الأول عن الاف بي آي هو درجة التقدم في المصادر الفنية الموضوعة تحت تصرفهم، والتي كانت أبعد بكثير مما يمكن تصوره في أم آي ٥. ولكن برغم كل هذا

التقدم شعرت بأنهم لم يستغلوه بشكل جيد. فهم يعتمدون على الأجهزة المتوفرة في السوق وليس على ما ينتجونه بأنفسهم. كانت أجهزة الاتصال كلها من نوع واحد «موتورولا» التي تستخدم في سيارات الشرطة. ورغم ذلك كان لديهم شبكة ميكروويف واسعة جداً تربط كافة محطات الأف بي آي في الولايات المتحدة ببعضها البعض. ولعل أكثر المسائل إثارة للاهتمام في الناحية الفنية لديهم، هو استخدام بصمات الأصابع للتحقيق في التجسس. إذ لم يكن في سجل أم آي ٥ قسم لبصمات الأصابع. شعرت أن هذا الإجراء أعطى الأف بي آي فائدة كبيرة.

كان يدير قسم الأبحاث في الأف بي آي ديك ميلين. وهو محام قبل أن يكون عالماً بالخبرة، الأمر الذي حدّ من فاعليته. ومع ذلك بدا لي بأنه رائع. فقد أخذني إلى مكان في الطابق الأرضي للتدرب على إطلاق النار. وأعطاني درساً مسهباً في ذلك. وقال لي بفخر بأن هوفر نفسه يتدرب بانتظام على إطلاق النار. كما زرت موقعاً للأف بي آي على شاطىء ماريلاند، حيث يقوم أمريكي هندي بتعليم عملاء الأف بي آي على استخدام البندقية. وقد عرض أمامي مواهبه. مثل إصابة الهدف بعد رؤيته من المرآة وغيرها من الحركات. ولكن راودني شعور بأن كل هذا التحديث ليس له علاقة بمكافحة التجسس.

لم أتوان عن إطلاع الأف بي آي على قضية تيسلر. وقد لمح هوفر أكثر من مرة في تعقيبه على القضية بأنه يأمل بأن نفشل في حسم الشكوك حول وجود جاسوس داخل أم آي ٥، بحيث يكون بمقدوره أن يوصي للرئيس بوقف التعاون الاستخباري مع بريطانيا. وكنت من ناحيتي آمل أن تكون زيارة هوليس وزيارتي بداية لتمهيد الطريق نحو علاقات أفضل.

كان يرافقني في الزيارة هاري ستون، ضابط ارتباط أم آي ٥ في واشنطن، وهو شخص دمث جداً، ولاعب ركبي دولي في فريق إيرلندا. إلا أنه كان يشارك هوليس حبه للغولف وإعاقته المهنية. الكل كانوا يحبون هاري، لأنه كان ينظر إلى مهنته على أنها مهنة اجتماعية، ولكنه لم يكن مؤهلاً ذهنياً لعمل الاستخبارات الحديث القائم على الأقمار الصناعية والكمبيوتر الذي بدأ فجره يبزغ في واشنطن في نهاية الخمسينات.

كان هاري يكره مقابلة هوفر. ويتعامل بأبسط طريقة عندما لا يستطيع تجنب اللقاء معه.

«خذ بنصيحتي أيها الصديق. دع الكلام له. ولا تقاطعه أبداً. ولا تنسَ أن تقول له شكراً جزيلاً عندما ينهي كلامه...».

دخلنا المبنى الكبير الرائع الذي يضم مكاتب الأف بي آي. واستقبلنا هناك

آل بيلمونت، رئيس قسم المخابرات المحلية ومساعده، بيل سوليفان، الذي كان مسؤولاً عن المكتب الشيوعي. (وقد وجد سوليفان ميتاً في منتصف السبعينات، وثارت شكوك حول ما إذا كان في الأمر جريمة). أما بيلمونت فكان نموذجاً لرجل الأف بي آي التقليدي الذي بدأ مع تأسيس المنظمة. كان سوليفان العقل المدبر لبيلمونت ذو العضلات المفتولة، وكلاهما كانا يؤمنان بفضائل الأدوات الصغيرة لا المسدسات. وكان لبيلمونت أعداءٌ كثيرون، ومع ذلك كان بيننا صداقة. لقد عانى مثلي من طفولة بائسة. مات والده في مشاجرة في الشارع، مما اضطر أمه للعمل ليلاً ونهاراً لتأمن دخوله الجامعة لدراسة القانون. وقد وصل إلى أعلى المراكز في الأف بي آي بسبب كده في العمل وولائه المطلق لهوفر.

ورغم كل هذه القوة الظاهرة في ملامح هذين الرجلين وفي مركزيهما إلا أنهما كانا تحت سيطرة هوفر الكاملة. وقد شعرت بأن هذا الولاء المطلق كان أمراً غير طبيعي. وبالطبع فأنا أفهم احترامهما لإنجازات هوفر في بداية تشكيل المنظمة، عندما استطاع أن يحولها من منظمة فاسدة وضعيفة إلى أكبر المنظمات قوة في مواجهة الجريمة. لكن الكل هناك كان يشعر بعقدة الاله عند هوفر، وبدا الأمر مغثياً كيف لا يطرحون هذه المسألة ولو على الصعيد الشخصي.

بحثت مع الرجلين قضية تيسلر وطريقة «رافتر» على مدى يوم كامل، حتى جاء موعد مقابلة هوفر. ومررنا إلى مكتبه عبر دهاليز متعددة مليئة بالضباط الشباب المنظمين. وكانت مكاتب الأف بي آي تذكرني دوماً بالعيادات الصحية. فالجدران بيضاء. والعمال مشغولين دوماً في التلميع والتصليح والدهان. وبدا لي أن هذا الهوس بالصحة ناتج عن عقل مخبول.

كانت غرفة مكتب هوفر نهاية المطاف لسيرنا في تلك الدهاليز. طرق بيلمونت الباب ودخلنا الغرفة. كان هوفر يجلس وراء مكتبه ببزته الزرقاء. وبدا أطول وأنحف مما كان يبدو عليه في الصور، بوجه متجعد. رحب بي وصافحني بهدوء.

ثم شرع بيلمونت يطرح أسباب زيارتي، لكن هوفر قاطعه بحدة:

«لقد قرأت التقرير، وأريد من السيد رايت أن يحدثني عنه».

ثبت هوفر عليَّ عينين سوداوين كالفحم، فيما بدأت الحديث عن اكتشاف طريقة «رافتر». ثم فجأة قاطعني:

«أعتقد أن منظمتكم راضية الآن عن معلومات مصدرنا التشيكي..؟».

وما أن هممت بالإجابة حتى قاطعني مرة أخرى بحدة:

«تتمتع منظماتكم هنا بتسهيلات كبيرة يا سيد رايت».

كـان في صوته تلميح واضح بالتهديد.

«يجب أن أبلغ رئيس الولايات المتحدة عندما تصبح هذه التسهيلات خطراً على أمننا القومي. كما يجب أن أبدي اهتماماً شخصياً في قضية مثل هذه، على ضوء المشاكل الأخيرة التي عانت منها المملكة المتحدة. أريد أن أعرف بأنني أقف على أرض ثابتة. هل أنا واضح فيما أقول؟».

«بالطبع يا سيدي، فأنا أفهم تماماً..».

كان هاري ستون يحدق في حذائه، أما آل بيلمونت وبيل سوليفان فقد جلسا بجانب المكتب في الظل. وكنت أنا الوحيد أمامه.

«أعتقد أنكم ستجدون تقريري..».

«لقد استوعب رجالي تقريرك يا سيد رايت. إن ما يهمني الآن هو الدروس التي تعلمتموها».

وقبل أن أجيب، شن هوفر هجوماً عاطفياً شديداً على عدم كفاءة الغرب في مواجهة الهجمة الشيوعية. كنت أشاركه مشاعره تلك، أما أسلوبه في طرحها فكان بغيضاً. ومن الحتمي بالطبع أن يطرح موضوع بيرغيس وماكلين. كـان هوفر يلفظ كل حرف من اسميهما بتقزز.

«أما الآن فلا يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء عندنا. جميع الضباط هنا مغربلين. يجب أن نتعلم دروساً كثيرة يا سيد رايت. أليس كذلك؟».

وأشرت برأسي على الموافقة.

وقال هاري ستون موافقاً:

«بالطبع يا سيد هوفر».

ثم حدّق هوفر بي فجأة:

«يقظة كاملة. يقظة كاملة يـا سيد رايت. فـالأضواء في مكـاتب القيادة العامة دائمـاً مضيئة».

ثم وقف معلناً انتهاء اللقاء.

في اليوم التالي للقائي مع هوفر، تناولت طعام الغداء مع جيمس أنغلتون رئيس قسم التجسس المضاد في السي آي أي. كنا قد التقينا سابقاً في واشنطن أثناء زيارتي لها عام ١٩٥٧. وكان انطباعي عنه مذهلاً. كان ذا ذهن حاد ويتمتع بتصميم هائل على كسب الحرب الباردة، وليس مجرد التمتع بخوض غمارها. كان يثيره ويسحره كل تعقيد ولو بسيط في مهنته. بالإضافة إلى شهيته المفتوحة دائماً للمؤامرات. لقد أحببته، وقام هو بالتلميح لي مشجعاً إياي لأفكّر في إمكانية التعاون معاً.

كان نجم أنغلتون صاعداً في سماء واشنطن في نهاية الخمسينات، خاصة بعد حصوله على النص السري الذي أدان فيه خروتشوف ستالين من خلال علاقاته بإسرائيل. وكان من أبرز المجندين في مكتب الخدمات الاستراتيجية أثناء الحرب. وتدرب على فن التجسس المضاد على يد كيم فيلبي في مكاتب أم آي ٦ القديمة في رايدر ستريت. قامت صداقة قوية بينهما في ذلك الوقت. كما تعمقت هذه الصداقة عندما عُين فيلبي في واشنطن كرئيس محطة عام ١٩٤٩. والمفارقة الطريفة أن فيلبي كان أول من اكتشف هوس ضابط السي آي أي الغر أنغلتون بوجود مؤامرة شيوعية. كما أن أنغلتون حظي بسمعة جيدة في أوساط ضباط المخابرات البريطانية لمحاولاته المستمرة في تحويل العداء المتبادل بين أم آي ٥ وأم آي ٦ لمصلحته الخاصة.

ذهبت إلى جورجتاون بالسيارة. وأدركت لماذا يعيش معظم كبار الموظفين الأمريكيين هناك. فهي مدينة جميلة. بيوتها مسقوفة بالقرميد الأحمر. والأشجار تحيط بشوارعها على الجانبين بالإضافة إلى المكتبات الكثيرة والمقاهي. وعندما وصلت إلى مطعم هارفي كان أنغلتون يجلس إلى الطاولة، ببذلة رمادية، يحمل كأس الشراب في يد والسيجارة في اليد الأخرى.

«كيف كان لقاؤك مع هوفر؟» سألني وأنا أهم بالجلوس إلى جانبه.

«يبدو أنه لديك معلومات اليوم».

ابتسم ابتسامة عريضة. كنت أعلم أنه يحاول اصطياد المعلومات. فالسي آي أي لم تكن تعرف شيئاً عن قضية تيسلر أو ادعاءاته. وكنا قررنا أن نطلع الأف بي آي على طريقة «رافتر».

«مجرد روتين. نقيم علاقات صداقة مع المكتب (اف بي آي) فهذه هي الموضة الآن في لندن».

«إنها مضيعة للوقت» وأضاف: «إنكم تحاولون تحسين العلاقة مع هوفر منذ مدة طويلة. ولكنه يقول دائماً بأنه لا يتحمل البريطانيين».

كنت أشعر أن هذه هي نية أنغلتون أيضاً. فقلت:

«حسناً. لا أستطيع أن أقول بأن الوكالة (السي آي أي) كانت أكثر وداً تجاهنا».

«لقد استنفذتم الكثير من الامتيازات في واشنطن خلال السنين الماضية». قال أنغلتون وهو يملأ كأسه من جديد. ثم أضاف:

«إن أمثال هوفر ينظرون إلى بيرغيس وماكلين، كما ينظرون إلى حالة أم آي ٥، ويتساءلون «ما المعنى من وراء ذلك؟».

ثم دعا النادل وطلبنا الوجبة.

«أنت بعيد عن الجو يا جيم. فالأشياء في تغير مستمر. فقبل عشر سنوات ما كانوا ليعينوني كعالم. أما الآن فأنا موجود. والباب مفتوح الآن لأشخاص جدد دائماً».

«لقد درست في مدرسة حكومية إنجليزية»، قال بلهجة ساخرة، «وبالتالي فأنا أعرفكم».

وقلت له:

«لا داعي للشكوى دائماً من بيرغيس وماكلين. أصبحت هذه القضية ملك الماضي. والعالم أصبح صغيراً، لذلك يجب أن نبدأ بالتعاون معاً من جديد».

أعجبت باللهجة العاطفية في كلامي. أما أنغلتون فقد بقي بلا حراك تحيط به هالة من دخان السجائر.

قال:

«لن تستطيع أن تحصل على أي مساعدة من هوفر». ولكنه لم يطرح أية أفكار جديدة.

امتدت فترة الغداء زمناً طويلاً، وبدا أن الشراب أثر في أنغلتون، ولكنه استمر في ضخ الأسئلة وتوجيهها إلي. ماذا عن فيلبي؟ فأخبرته رأساً بأنني أعتقد أنه جاسوس. وسألني عن أزمة السويس التي ظلت حية حتى في عام ١٩٥٩. كان أنغلتون يريد أن يعرف كل التفاصيل. كما سألني إذا ما كان بالإمكان الحصول من أم آي ٥ على ملف أرماند هامر، رئيس شركة أوكسدنتال للنفط، الذي لفت انتباه المخابرات الغربية على ضوء تعامله التجاري الواسع مع الاتحاد السوفياتي.

«نحن أصدقاء يا جيم، ولكن، لِسنا قريبين جداً حتى الآن».

وفي حوالي الساعة الخامسة أوصلت أنغلتون إلى سيارته. كانت من نوع مرسيدس. عرفت فيما بعد سبب الرفاهية التي يعيش فيها، إذ كانت له حصة في شركة مصرفية كبرى. ولكنه وجد أنه نسي مفتاح سيارته في داخلها الأمر الذي آثار اضطرابه. فقمت بإخراج سلك صغير من جيبي، وفتحت السيارة خلال نصف دقيقة بطريقة ليسلي جاغر.

«لا بأس يا بيتر. لا بأس». وقلت له:

«بالمناسبة، أنا جاد فيما أقول. فإذا كنت لن تساعدني في واشنطن فإنني سأجد غيرك ليساعدني».

«سأرى ما يمكن أن أفعله» قال متمتماً وهو يجلس وراء مقود السيارة. ودون أن ينظر جانباً انطلق بسيارته.

في الواقع، وبرغم الشكوك الموجودة في واشنطن، كانت هناك تغيرات مهمة من الناحية الفنية في عمل المخابرات البريطانية في أواخر الخمسينات. فقد بدأت أم آي ٥ آنذاك بتكريس جهد رئيسي لتعميم التقنيات الجديدة مثل «رافتر» و «أنغولف».

كخطوة أولى قمنا بوضع السفارة السوفياتية تحت المراقبة بطريقة «رافتر» وقام هوليس بإقناع وزارة المالية المترددة بشراء بيت لـ أم آي ٥ في وسط مجمع المباني الدبلوماسية السوفياتية. وزرعنا مستقبلات «رافتر» في الطابق الأعلى وقمنا بنقل الإشارات التي يتم التقاطها من داخل السفارة عن طريق كوابل في نفق حفر خصيصاً بين البيت الجديد والبيت القديم الذي كان يستخدم للمراقبة المباشرة، في الشارع الآخر. كما وضعنا أحد ضباط أم آي ٥ السابقين كمستأجر في البيت وهو صاحب السيرك المشهور كيريل ميلز. ظل ميلز يقوم بإدارة شؤون السيرك من هذا البيت لسنين طويلة. وفي كل مرة نحتاج فيها البيت لصيانة الكوابل مثلاً، كنا نستخدم سيارة عليها رسومات سيرك. كانت هذه السيارة غطاءً ممتازاً إذا لم يشك الروس في أي شيء.

كنا حريصين على استخدام مستقبلات مباشرة في عمليات «رافتر» بحيث يعمل كل مستقبل على ذبذبة، لمواجهة إمكانية أن يكون السوفيات قد طوروا «رافتر» بطريقتهم. بقي بيت ميلز السري يعمل دون أن يكتشف طوال فترة الستينات، إلى أن جاءت ليلة أشارت فيها أجهزة التحذير الداخلية إلى وجود دبلوماسيين سوفيات يتسلقون السطح. استطاع الاثنين فتح كوة في السطح، وقبل دخولهم تصدت لهم خادمة المنزل. وقام كيريل بتقديم احتجاج رسمي إلى السفارة السوفياتية. افترضنا آنذاك بأن الروس اكتشفوا وجودنا في البيت.

ما ان اصبح البيت جاهزاً، حتى كان بامكاني البدء بتنفيذ التجربة التي قمت بها اثناء مراجعتي لملفات «كيستون» في كندا. قمت بالبحث المتظم عن علائم تشير إلى وجود أجهزة استقبال داخل السفارة تقوم برصد الاشارات المبثوثة في موسكو إلى العملاء في بريطانيا. كانت هذه الاشارات ذات ذبذبة عالية من نوع HF ، في حين كانت ذبذبات اجهزة اللاسلكي التابعة لشعبة «واتشرز» من نوع VHF . كان الروس يستخدمون مكبرات مجهزة بلاسلكي عالي التردد لأجهزة الاستقبال من نوع HF ، الأمر الذي جعل مهمة رافتر أكثر صعوبة. ولكن قيادة الاتصالات الحكومية استطاعت أن تطور جهازاً جديداً، وتمكنا بنجاح، خلال ستة أشهر من ضبط أربع اشارات من موسكو كانت تضبط بشكل روتيني من قبل السوفيات الموجودين في السفارة.

كان الاسم الرمزي للإشارة الأولى «غروف». التقطناها مساء يوم ثلاثاء في العاشرة والنصف. كانت الإشارة واضحة وعالية، وقامت أجهزة الاستقبال عندنا في نفس اللحظة بالتقاط صوت الجهاز المحلي داخل السفارة بعد أن عدله الروس على نفس الذبذبة. وقامت قيادة الاتصالات الحكومية بتحليل «غروف» فوجدت بأنه يبث من منطقة موسكو مرتين في الأسبوع. وقد أكد المحللون بأن هذا الخط يحتوي على معلومات مهمة. وقررت لجنة العمليات تكريس الجهود لتحليل المعلومات الواردة عن طريق «غروف».

قمت بالاتصال مع كورتني يونغ الذي كان وقتها رئيس الشعبة د ا (مكافحة التجسس الروسي) وطلبت منه أية معلومات يمكن أن تساعدنا في تحديد مكان جاسوس غير شرعي نعتقد بأنه يعمل في المملكة المتحدة ويتلقى اتصالات لاسلكية من موسكو. وقد ذهل يونغ مما قلته له، وأوضح لي بأن الشعبة د كانت تتابع قصة عميل مزدوج وان متابعته لهذه القضية جعلته مقتنعاً بوجود جاسوس غير شرعي يعمل في منطقة لندن. وكان العميل المزدوج شاباً يعمل ممرضاً وعضواً سابقاً في الحزب الشيوعي البريطاني. وبعد عدة سنوات اتصل به الروس ليعمل معهم سراً. وبعد تردد أقنعه الذي اتصل به بأن المطلوب منه ليس التجسس. إذ كان المطلوب منه أن يقوم بإرسال الرسائل إلى البريد والاحتفاظ بحقيبة عنده من آن لآخر. وبعد فترة خشي هذا على نفسه واتصل بالشرطة التي وأحيلت القضية إلى أم آي ٥ بواسطة «الشعبة الخاصة».

قام كورتني يونغ بإعادة العميل إلى الروس كعميل مزدوج، وقد تعامل معه الروس لفترة قصيرة على أنه عميل لطرف واحد. وكان الشاب يعيش في ميدلاندز. ولكن طُلب منه استئجار شقة باسمه في منطقة (كلافام) جنوبي لندن. ثم طلب منه المسؤول عنه أن يستأجر عدداً من صناديق البريد قرب الشقة. وكان كورتني يونغ متأكداً من أن الشاب يُدرب من قبل الروس كعميل ثانوي غير شرعي ـ أي ذلك الذي يساعد العميل الحقيقي غير الشرعي في تحضير اتصالاته وإقامته قبل أن يدخل إلى منطقة جديدة. وفجأة انقطعت كافة الاتصالات مع

الشاب ولم يعد يستلم أية تعليمات فإما أن تكون العملية كلها أحبطت أو أنه تم ترتيب وضع العميل غير الشرعي بطرق أخرى.

كانت مسألة اعتبار هذا العميل الذي يلاحقه يونغ هو نفس العميل الذي يتلقى إشارات «غروف» من موسكو أمراً بعيداً عن التفكير. ولكن كان لا بد من وضع هذا الاحتمال في البال. وهكذا بدأت «لجنة العمليات» بالبحث في المنطقة بكثافة عن أية اتصالات. ووضعنا سيارة مزودة بجهاز «رافتر» في المنطقة، في ملجأ قديم. وزودنا الجهاز بالطاقة من نفس الملجأ. ورفعنا هوائياً كافياً لأن يعطينا مجالاً قطره نصف ميل.

جلست داخل السيارة أنا وتوني سيل. كانت السيارة باردة وسيئة التهوية، ومع ذلك جلسنا نراقب وننتظر ونصغي. كان موعد بث «غروف» في العاشرة صباحاً، لذلك قمنا بضبط الجهاز الأول على ذبذبات «غروف»، ورحنا نبحث من خلال الجهاز الثاني عن أية ذبذبة تمكننا من معرفة وجود جهاز في المنطقة. وفي الأسبوع الثاني شعرنا بنغمة ممزوجة بصوت الإشارة القادمة من موسكو. كان هناك شخص ما يلتقط بث «غروف» في مدى نصف ميل حول المنطقة التي نحن فيها. ونظر إليّ توني سيل وفي أنفه رائحة الضحية. وبدأت أشرطة التسجيل في العمل. وفصلنا السيارة عن مصدر الطاقة في الملجأ. واستخدمنا البطارية وبدأنا نجوب المنطقة.

كان توني سيل يرصد إشارة الجهاز المحلي في المنطقة عن طريق قوة الإشارة حسب قربنا من مصدرها أو بعدنا عنه. كنا نعلم ان «غروف» تستمر لمدة ٢٠ دقيقة في الهواء وبقي امامنا ١٧ دقيقة. عندما وصلنا إلى محطة المترو - غابت الإشارة. لذلك عدنا بسرعة إلى وندرورث، ولكنها غابت أيضاً. ثم اتجهنا جنوباً فغابت الإشارة فوراً.

لم يبق لنا من وقت البث سوى ست دقائق فقط. ولم ننطق بكلمة داخل السيارة. بقي أمامنا اتجاه واحد نحو اليسار. لا بد أن «غروف» موجود في الجهة الشمالية في مكان ما في بيوت الشوارع المزدحمة. وفي طريق لاتشمير بدأت سياراتنا بالتلكؤ. ونزل الإحباط على نفسي كالصاعقة. كنت أود أن أقف في الشارع وأنادي على الناس بمكبر للصوت لمحاصرة المكان. ولكن كل ما كان باستطاعتنا عمله هو مراقبة الأجهزة والمؤشرات التي عليها وهي تسكن بهدوء. فما أن عبرنا طريق وندرورث حتى كانت الإشارة قد صمتت نهائياً. وبعد ذلك بوقت قصير توقفت موسكو عن البث. وفلت «غروف» من أيدينا. وضرب توني سيل السيارة بيده. ونزعت السماعات عن أذني بغضب: كم شهراً سنحتاج للإقامة في هذا الحي حتى نصبح قريبين من «غروف» كما نحن اليوم؟

عندما عدت إلى ليكون فيلد قمت بطباعة تسجيلات الشريط لصوت الجهاز المحلي على أوراق خاصة. كانت أمواج الصوت مخلوطة بإشارات صغيرة من التيار الكهربائي العام. ولكن شكل الموجة لم يكن نتيجة للتيار الكهربائي. بل كان يشبه شكل الموجات الصادرة عن البطاريات المستخدمة في السيارات كبديل عن التيار الكهربائي العام. وكانت المصادفة في ذلك اليوم مؤلمة جداً.

في الستة أشهر التالية قامت «لجنة العمليات» بإغراق منطقة كلافام بكل احتياط الرجال الممكن ليكون تحت تصرفنا. ورصدنا مئات المواقع. وانزرع الضباط في كل شارع، يبحثون عن أي هوائي. كما قمنا بالبحث سراً عن موزعي أدوات الراديو. ولم نصل إلى شيء. كنا في مساء كل ثلاثاء وخميس نلتقط إشارة «غروف» القادمة من موسكو وكأنها تهزأ بنا.

وبالإضافة إلى «رافتر» المتحرك بواسطة السيارة، بدأنا بترتيب الحصول على «رافتر» جوي، عن طريق «لجنة عمليات الرادار». فأخذت طائرات تابعة لسلاح الجو ومزودة بجهاز «رافتر» تقوم بجولات منتظمة فوق لندن. كنا نعتقد بأن العلو النسبي للطائرة سيعطينا فكرة عامة عن مكان المستقبلات الموجودة في لندن. وفي حالة تحديد موقع ما يمكن أن نهاجمه بواسطة السيارات. كانت الطلعات الأولى للطائرة فوق السفارة السوفياتية بهدف التأكد من عمل أجهزتنا، التي التقطت أجهزتهم فوراً. والتقطت الطائرة مجموعة من الإشارات فوق منطقة فينزبري بارك. وهجمنا بسيارات «رافتر» كما فعلنا في كلافام. ولكننا فشلنا في كشف العميل كما فشلنا في كشف «غروف». وبقي العميل في مكانه آمناً داخل ضواحي لندن المكتظة.

كانت طلعات طائرة «رافتر» تشبه ألم الموت. فقد كنت أقضي الليلة وراء الليلة في السماء أستمع إلى البث القادم من موسكو بواسطة سماعات الأذن عبر ضجيج المراوح. وتحت، وسط أضواء لندن الواسعة كان العميل يقبع فوق أحد السطوح، أو داخل سيارة، يستمع مثلي. كنت أعرف ذلك. وكنت أشعر بأنني أسمع أنفاسه، ولكن لم يكن هناك طريقة لمعرفة أين هو بالضبط، ومن تراه يكون، وهل يعمل لوحده أم ضمن شبكة من العملاء، والأهم من ذلك كله ماذا كانت موسكو تخبره. وهكذا وقعت في مأزق أن تعرف المجهول. المأزق الذي يعيش فيه ضابط التجسس المضاد دائماً.

وبالرغم من أن «رافتر» بدا عاجزاً عن إعطاء نتائج مباشرة، فإن طريقة «أنغولف»، أي تكنيك حل الشيفرة، سرعان ما بدا ناجحاً. فقد انطلقت الأمور بعد اجتماع في تشيلتنهام برئاسة مساعد مدير الأبحاث في قيادة الاتصالات الحكومية، جوش كوبر، في عام ١٩٥٧. فلقد أدرك كوبر الحاجة إلى التنسيق الكامل بين الثلاث منظمات إذا ما أريد للهجوم الجديد

أن يؤدي إلى النجاح في حل الشيفرة. وقام لأول مرة بجمع الأطراف الثلاثة التي لها علاقة بالموضوع، هيو الكساندر وهيو دينهام من الشعبة هـ في قيادة الاتصالات الحكومية (محللي شيفرة)؛ وجون ستورر رئيس القسم العلمي في قيادة الاتصالات الحكومية؛ ووراي فريولي وأنا ونظيري من أم آي ٦ بات أوهانلون.

بالإضافة الروس فقد كان المصريون في المرتبة الأولى من الاهتمام. كانوا يستخدمون آلات هاجلين في سفاراتهم، ضمن أربع مجموعات، لكل مجموعة شيفرة معينة. وفي حالة حل شيفرة واحدة من مجموعة، فإن بقية المجموعة تصبح تحت تصرفنا. وقامت أم آي ٦ وقيادة الاتصالات الحكومية بتحضير قائمة بالسفارات المصرية في أنحاء العالم، مع تصنيف الشيفرة حسب موقعها في المجموعات الأربع. ثم قامت اللجنة بتحديد أية سفارة أفضل لإنجاح عملية حل الشيفرة لكل مجموعة على طريقة «أنغولف». وقمت بإطلاع طاقم أم آي ٦ على كيفية التخطيط للعملية. وخلال سنة واحدة كانت الشيفرة المصرية في كل المجموعات تحت تصرفنا.

ورغم أن طريقة «أنغولف» كانت مناسبة لحل رموز كافة أنواع آلات هاجلين، فإن هذه الآلات كانت مقصورة على دول العالم الثالث. ولذلك، طرح كوبر في الاجتماع الثاني أن نجد طريقة نطبق فيها أسلوب «أنغولف» على آلات أكثر تطوراً، والتي تحتاج إلى الكمبيوتر. وكان رأيي بسيطاً للغاية، أن نضع العمليات موضع التنفيذ العملي حتى ولو بدت من الناحية النظرية بدون نتائج.

وقلت: «يجب تناول القضية علمياً. فنحن لا نعرف إلى أي مدى سنصل، لذلك يجب أن نجرب، وحتى إذا أخطأنا فإننا سنتعلم أشياء لم نكن نعرفها من قبل».

كانت تدور برأسي فكرة وكأنها جرثومة. فكل آلة شيفرة، مهما كانت معقدة، يجب أن تقوم بتحويل النص الواضح للرسالة إلى سيل من الأحرف العشوائية. ففي الخمسينات، كانت أكثر الشيفرات تقدماً هي تلك التي يتم فيها كتابة النص بوضوح في جهاز تلبرنتر، يكون موصولاً مع جهاز شيفرة منفصل التي تقوم بإخراج الرسالة من الطرف الآخر وقد أصبحت شيفرة. وعنصر الأمان في هذه العملية يعتمد على إخفاء الجهاز بشكل كامل. وإذا لم تكن آلة الشيفرة مغطاة الكترونياً مع آلة التلبرنتر التي تحمل الرسالة الواضحة، فإن صدى هذه الرسالة يمكن أن يمر عبر الأسلاك مع الرسالة الشيفرة. وباستخدام المكبرات المناسبة فإنه يمكن، نظرياً، فصل النص المشوه وقراءته.

وبالطبع، لم يكن لدينا طريقة نعرف بها أي الدول تقوم بتغطية غرف الشيفرة لديها

تغطية كاملة، وأيها لا يفعل ذلك. كما أن أي عملية من هذا النوع ستستغرق ستين للوصول إلى نتائج مثمرة. ولم يكن هناك كثير من المنطق في بذل جهود كبيرة جداً لحل الشيفرة الروسية ونحن نعرف أنها محمية بشكل جيد. فالمسألة تعتمد على التقاط الأهداف الأمر الذي لم ننجح فيه.

الشيفرة الفرنسية كانت الأفضل لإجراء تجارب «أنغولف» وتطويرها. كانت أم آي ٦ وقيادة الاتصالات الحكومية تحت ضغط مباشر من وزارة الخارجية لتزويدها بالمعلومات عن النوايا الفرنسية تجاه طلب بريطانيا دخول السوق الأوروبية المشتركة. كما أن قيادة الاتصالات الحكومية كانت قد درست النظام الفرنسي في لندن. كان الفرنسيون يستخدمون نظامين للشيفرة، الأول من درجة دنيا يتم من خلاله إرسال الرسائل عن طريق خط تلكس إلى كواي أورساي، والثاني من درجة عليا، لاتصالات السفارة والذي كان يتم تشغيله مفصولاً عن آلة الشيفرة لمزيد من الأمن. وكانت وجهة نظر هيو الكساندر بأن شيفرة الدرجة العليا لا يمكن اختراقها، أما الدرجة الدنيا فإنها قابلة للاختراق ضمن الخطة التي تحدثت أنا عنها. وأقر كوبر العملية لنبدأ بتنفيذها تحت الاسم الرمزي «ستوكيد».

كانت أول مهمة في هذه العملية المشتركة بين أم آي ٥ وقيادة الاتصالات الحكومية، هي القيام باستكشاف فني مفصل لموقع السفارة الفرنسية، وخاصة، موقع غرفة الشيفرة. وفي هذه الفترة كان جون تيلر قد استقال وحل محله هـ. ت. ميشيل. وكان ميشيل يعاني من شلل نصفي بسبب حادث. ورغم أنه كان يتحدث بصعوبة إلا أن ذهنه كان دائماً متوقداً. وقدم لي ميشيل مخططات كاملة لجميع أسلاك التلكس والهاتف الداخلة والخارجة من وإلى السفارة. وقد استطعنا، من خلال مضاهاة هذا المخططات مع ما لدينا من رسومات قمنا بها مسبقاً تبين نوعية الأسلاك، أن نحدد المكان التقريبي لغرفة الشيفرة.

طلبنا من مكتب البريد أن يعطل الهواتف، ودخلنا تحت هذا الغطاء لكي نلقي نظرة عن قرب على منطقة الغرفة المستهدفة. لكن الفرنسيين كانوا بعكس المصريين، فقد قام رجال الأمن الفرنسيين بمراقبة كل حركة لنا. ومع ذلك استطعنا الحصول على المعلومات التي نريد. فلم يكن هناك تلفون في غرفة الشيفرة، بل كان موضوعاً في مكان بعيد في أحد الممرات. وكانت آلة الشيفرة وآلة التلكس في غرفتين متجاورتين يفصل بينهما فاصل من البلاستيك.

وباستخدام جداول مكتب البريد، تتبعنا الأسلاك حتى علبة التوصيل في نهاية مدخل ألبرت غيت إلى حديقة هايد بارك. ورتبت مع ميشيل أمر تركيب جهاز رصد ذي ذبذبة واسعة

على السلك داخل علبة التوصيل بحيث يتمّ من هناك تحويل الإشارات الملتقطة إلى غرفة في فندق هايدبارك استأجرناها لهذه العملية. تم تعطيل تلفونات الفندق كغطاء أثناء توصيل الأسلاك إلى الغرفة إياها على الطابق الرابع من الفندق. كما وضعنا مكثفات خاصة على الدارة الكهربائية للتأكد من سير التيار باتجاه واحد، حتى لا يكون هناك أي تسرب للتيار داخل السفارة الأمر الذي قد يؤدي إلى إفشال العملية كلها. وكانت قيادة الاتصالات الحكومية تقوم باعتراض كافة إشارات اللاسلكي والتلكس الداخلة والخارجة من وإلى أي سفارة في لندن، من موقعها في شارع بالمر. ورتبنا بأن يتم وصل سلك ينقل لنا الاتصالات الفرنسية من قيادة الاتصالات الحكومية إلى غرفة العمليات في الفندق. وقد استخدمنا هذا السلك أيضاً للتأكد من أن الإشارة التي نلتقطها على جهازنا هي فعلاً الإشارة المطلوبة.

وفي صباح أول يوم من العملية وجدنا الشيفرة ذات الدرجة الدنيا وقارناها مع خط شارع بالمر. وقد تم وصل جهاز الرصد بجهاز التلبرنتر الذي بحوزتنا في الفندق وبدأت الشيفرة الفرنسية تظهر أمامنا بوضوح على الجهاز. كان واضح لنا أن هناك أكثر من إشارة واردة عبر السلك الذي نقوم برصده. ولم يتبق سوى أن نجلس ونفصل النص الصحيح عن النص الشيفرة بواسطة قلم الرصاص، وعندها يمكن قراءة الشيفرة.

وفيما كنت أبدأ الترجمة وجدت آثار إشارة أخرى على التلبرنتر. وبعد التأكد من صحة الخط الذي نعمل عليه، اتصلت بالفنيين في قيادة الاتصالات الحكومية.

«يا إلهي!» صرخ أحد الفنيين من القيادة، «أننا نلتقط أيضاً الشيفرة ذات الدرجة العالية. لا بد أننا نلتقطها عبر الحاجز البلاستيكي».

واتصلت بسرعة مع بالمرستريت، وطلبت منهم تحويل إشارة شيفرة الدرجة العليا إلينا، لكي أقارنها بالإشارة التي لدينا. فقام الفنيون في القيادة باستخدام المكبرات لكي تصلنا الإشارة قوية بما يكفي لتسجيلها وطبعها على الأجهزة الخاصة. وخلال عشر دقائق حصلت على ترجمة مبدئية للنص الصحيح وكان عبارة عن رسالة من السفير الفرنسي في لندن موجهة إلى المكتب الخاص للرئيس ديغول.

استمرت قيادة الاتصالات الحكومية وأم آي ٥ بقراءة الشيفرة الفرنسية ذات الدرجة العليا الداخلة والخارجة من وإلى السفارة الفرنسية في لندن لمدة ثلاث سنوات من ١٩٦٠ - ١٩٦٣. كان كل تحرك فرنسي أثناء محاولاتنا المتكررة لدخول السوق الأوروبية المشتركة تحت مراقبتنا المباشرة. وبالطبع كانت وزارة الخارجية تستخدم هذه المعلومات، وكان يتم الاحتفاظ بنسخ عن رسائل ديغول في الصندوق الأحمر لدى وزير الخارجية.

في الواقع، كانت عملية «ستوكيد» تأكيداً واضحاً على محدودية المعلومات. فقد كان ديغول مصمماً على إحباط طلبنا بالانضمام للسوق الأوروبية المشتركة، ومن المؤكد أنه مهما بلغت كمية المعلومات المخابراتية فإن هذا لن يغير من الواقع شيئاً. قمنا بتسليم الأمريكيين تفاصيل عن نية الفرنسيين بخصوص قوتهم النووية المستقلة. وقد ساعدت هذه المعلومات في تشجيع شكوك الأمريكيين تجاه ديغول، أما الفائدة التي جنيناها من وراء ذلك كانت تافهة.

وعلى أية حال، اعتبرت عملية (ستوكيد) انتصاراً باهراً داخل وزارة الخارجية، قام وكيل الوزارة بطلبي ليهنئني على هذه العملية العبقرية.

وقال: «مواد لا تقدر بثمن. لا تقدر بثمن».

الفصل التاسع

في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بنت المخابرات البريطانية سمعتها على نجاح عمليتي «أنغولف» ضد المصريين، و «ستوكيد» ضد الفرنسيين. وقامت قيادة الاتصالات الحكومية بتحضير قائمة هائلة من الأهداف مقسمة إلى قسمين من الأولويات، الداخلي - والخارجي. وقامت أم آي ٥ بجمع المعلومات عن كل سفارة في بريطانيا، بما فيها المعلومات عن موقع غرفة الشيفرة وتفاصيل الأسلاك، وتقييم شامل من إمكانية استخدام إما عملية «أنغولف» أو «ستوكيد» ضد الهدف المحدد. أما أم آي ٦ فقد كانت تفعل نفس الشيء خارج بريطانيا. فقد أعدت مخططات فنية مفصلة عن أهداف لقيادة الاتصالات الحكومية ولولا المساعدة الثمينة التي يقدمها مكتب البريد لكانوا مضطرين للاعتماد على الطرق التقليدية في توجيه العملاء.

بعد نجاح «ستوكيد» تم وضع العديد من الخطط لمهاجمة الشيفرات الأوروبية بدءاً من الشيفرة الألمانية. وبعد جهد كبير أوقفنا العملية، لأن الآلات كانت مغطاة ومخفية بشكل كامل. ولكننا نجحنا في زرع ميكروفون جسّاس خلف آلة الشيفرة في السفارة اليونانية في لندن. وكانت أهمية هذا الهدف تنبع من الدعم الكبير الذي تقدمه اليونان للكولونيل غريفاس زعيم حرب العصابات في قبرص أثناء الأزمة القبرصية. كما عملنا بنفس الطريقة ضد السفارة الاندونيسية في فترة المواجهة بين اندونيسيا وماليزيا، وقرأنا الشيفرة طوال فترة الصراع تلك.

أما بالنسبة لأم آي ٦ فلا شك أن أفضل عملية للجنة عمليات الرادار كانت ضد البارجة الروسية أوروجونيكيدزه Ordzhonikidze . فرغم فضيحة كراب في بورتسموث صممت الأم آي ٦ على اصطياد البارجة. ففي ١٩٥٩ كان من المفروض أن ترسو في ستوكهولم، وعلمت

أم آي ٦ بأن المخابرات السويدية تخطط للعمل ضدها. واقترح رئيس محطة أم آي ٦ المحلي هناك على السويديين استعداد بريطانيا لتقديم مساعدة تقنية متقدمة. ورغم أن السويد محايدة إسمياً، إلا أن منظمة المخابرات السويدية «سيجيت» كانت تحتفظ بارتباط سري غير رسمي مع قيادة الاتصالات الحكومية، لذا قبلوا هذا الاقتراح بأريحيه.

ذهبت إلى ستوكهولم في عام ١٩٥٩ للتخطيط لعملية «أنغولف» ضد آلة الشيفرة في البارجة. وهكذا سرت على رصيف الميناء في سواد الليل وأنا متخفٍ كمهندس سويدي يرافقني رجلان ضخمان من فنيي «سيجيت» المحليين. كما كان معنا رجلان من قيادة الاتصالات الحكومية. نزلنا إلى مخزن كبير مقابل موقع البارجة، ودخلنا إلى غرفة العمليات المقررة لنا، حيث كانت توجد أجهزة عملية «أنغولف». بقينا في هذه الغرفة الصغيرة لمدة خمسة أيام متواصلة. وكان الوقت صيفاً، والحرارة في الخارج تصل إلى تسعين فهرنهايت وكان سقف الغرفة من الحديد. كنا نتصبب عرقاً في هذه الغرفة الحارة. ورغم أننا استطعنا رصد بعض أصوات الشيفرة، إلا أننا لم نستطع أبداً أن نحل الشيفرة. ولكن أم آي ٦ وقيادة الاتصالات الحكومية اعتبرتا العملية نجاحاً لهما.

تصاعدت عمليات «رافتر» و «أنغولف» بشكل دراماتيكي، بسبب تدفق المعلومات من خلال الاستكشاف التقني، بالإضافة إلى تعدد العمليات الناشئة عنها. وقد تم إنشاء لجنة عمليات الرادار من خلال جمع الموظفين الفنيين في أم آي ٥ و أم آي ٦ وقيادة الاتصالات الحكومية، في عام ١٩٦٠ لتنظيم العمل المتزايد. كانت اللجنة تجتمع مرة كل أسبوعين اما في ليكون فيلد أو في تشيلتنهام، وكنت أول رئيس لها، بالرغم من أن راي فريولي، وهو ضابط من قيادة الاتصالات الحكومية، أخذ على نفسه مهمة السيطرة على العمل المتزايد، وحدث أن أصبح مسيطراً على اللجنة. كان فريولي عبقرياً من الناحية الإدارية ويختلف كثيراً عن زملائه ضيقي الأفق في تشيلتنهام. كان مسؤولاً عن العمل الكتابي، ويقدم المصادر التقنية للعمليات، والرجال الفنيين المناسبين من قيادة الاتصالات الحكومية، بالإضافة إلى كافة الوثائق الحكومية اللازمة.

كانت لجنة عمليات الرادار من أهم اللجان في المخابرات البريطانية بعد الحرب. فقد ظلت اللجنة لمدة عشر سنوات، حتى مجيء جيل جديد من الكمبيوتر في نهاية الستينات، العامل الحاسم في نجاح عمليات تحليل الأسرار في قيادة الاتصالات الحكومية. أما الأهمية القصوى لهذه اللجنة فكان كسر الحواجز التي كانت في السابق تفصل بين أم آي ٥ وأم آي ٦ وقيادة الاتصالات الحكومية على مستوى العمل. وكما كان في أيام الحرب، بدأت المخابرات البريطانية بالعمل بوحدة منسقة، مما أدى إلى نجاحات أكثر.

أما فيما يتعلق بالأبحاث، كان هناك تحسن مهم في أواخر الخمسينات. فعندما انضممت للعمل في أم آي ٥ كانت لجنة كول مور مسؤولة عن البحث العلمي. إذ كانت أم آي ٦ تقوم مرة في السنة بدعوة عدد محدود من العلماء البارزين من خارج العالم السري إلى قاعة مؤتمرات مأمونة في مبنى كارلتون. وكانت أم آي ٦ تتوقع من هؤلاء العلماء أن يقوموا مقابل الغذاء الباذخ الذي يقدم لهم، بدور المستشار العلمي لها في مجال تقديم الأفكار الجديدة والاتصالات المفيدة. وعند حضوري لأول مرة اجتماع لجنة كول مور رأيت ببساطة أنها مجرد مضيعة للوقت. كانت نقاشات الصباح عشوائية وغير منظمة، وبعد الأكل الفاخر والشراب اللذيذ لا يتبقى سوى عدد ضئيل جداً من العلماء قادر على مناقشة القضايا العلمية المعقدة. وبعد انتهاء هذا العمل القسري الفوضوي أخذنا بيتر ديكسون إلى الريف لمزيد من الأكل والشرب. ولن أنسى مطلقاً نظرة ديك وايت، عندما وجدنا في منتصف الليل في احدى الحانات الرخيصة في سوهو. ابتسم وهو يرى الوجوه الحمراء حول الطاولة، وكنت أرى أنه كان يشعر مثلي بأن مثل هذه الجلسة لا يمكن أن تكون رداً على المشاكل العلمية الكثيرة التي تواجه أم آي ٥.

كانت الفائدة الوحيدة للجنة كول مور محصورة في الضجة المثارة حولها. أما أنا فأدركت منذ البداية أن أم آي ٥ بحاجة إلى برنامج أبحاث داخلي شامل، يتم تزويده بالموظفين المناسبين وتخصص له الميزانية المناسبة. وكنت أشعر دائماً بعبثية تصرف وزارة المالية، التي كانت تخصص الأموال الطائلة للأسلحة بجرة قلم، وتناقش وتجادل من أجل كمية صغيرة محدودة من المال لتحديث جهاز المخابرات.

بعد انضمامي بقليل إلى أم آي ٥ في عام ١٩٥٥ قمت بمقابلة السير فريدريك براندريت مرة ثانية، وطلبت منه المساعدة في الحصول على المصادر الضرورية. وقد أبدى تعاطفه مع رأيي. واقترح علي أن أقوم بإنجاز دراسة كاملة عن وضع الـ ك ج ب الحالي وتقدمها في المجال التقني. بالإضافة إلى كتابة النواقص التي أراها في أم آي ٥ و أم آي ٦. وقال إن أدراج هذه المعلومات في تقرير مكتوب سيجعل للقضية أهمية استثنائية.

اتصلت بنظيري في أم آي ٦ في القسم هـ ١. ولكن اتضح فيما بعد بأن معلوماتهم عن الموضوع قليلة جداً. ثم قررت أن أنجز دراسة كاملة عن طريق استجواب كافة العلماء الألمان الذين أجبروا مع نهاية الحرب على العمل لسنين طويلة في الاتحاد السوفياتي مقابل الإفراج عنهم. وكان هؤلاء العلماء يعرفون باسم «عودة التنين». وقد قدم استجوابهم معلومات مهمة ومفيدة حول الصواريخ السوفياتية، والمحركات النفاثة، والأبحاث النووية، وبدا أن هذا هو المجال الذي يسعى السوفيات إلى تطويره.

ذهبت إلى وحدة الاستخبارات العلمية الدفاعية، وطلبت من الجنرال ستروّنغ أن أدرس الأوراق لديهم. فأخذوني إلى غرفة في نورثمبرلاند أفنيو كانت تحتوي على كافة وثائق «عودة التنين» مرتبة في مجموعات يعلوها الغبار. ولم أصدق بأن أم آي ٥ وأم آي ٦ لم يكلفوا أنفسهم مشقة استخدام أي من هذه المواد لمصلحتهم.

استغرقني البحث في ملفات «عودة التنين» عدة شهور. واكتشفت بسرعة بأن عدداً كبيراً من العلماء الألمان قاموا بأعمال لها علاقة بأبحاث فنية للمخابرات في مختبرات في ضواحي موسكو تحت سيطرة ال ك ج ب. وحدّدت أسماء أخرى من هؤلاء العلماء لإعادة استجوابهم. فقد بدا لي من خلال الاستجواب المكتوب في الملفات بأن المحققين الامريكيين والإنجليز لم يكونوا خبراء في الحصول على المعلومات ذات الطابع العلمي. وكنت متأكداً بأنني سأحصل منهم على معلومات أفضل.

وهكذا سافرت إلى ألمانيا في عام ١٩٥٧، واستقبلني هناك ممثل أم آي ٥ بيتر دوميزين الذي رتب لي المقابلات مع العلماء في مبنى قيادة المخابرات العسكرية البريطانية في كل من هانوفر وميونيخ وغلادباخ. وكان معظم ضباط المخابرات في الخمسينات يحبون ألمانيا. فقد كانت خط الجبهة الأول، وكان العمل حراً وسهلاً. ولكن دوميزين كان قلقاً من التوتر المتزايد في برلين، إذ كان يعتقد بأن الروس لن يتوانوا عن القيام بمحاولة جديدة لابتلاع القطاع الغربي من المدينة.

كانت المقابلات صعبة ومثبطة. فكثير من العلماء كانوا يرغبون بالحظوة لدى أمريكا وبريطانيا. تمسكت أنا بالأسئلة ذات الطابع الفني، إذ شعرت بأنهم كانوا يقدمون الإجابات التي كانوا يعتقدون أنني أرغب بسماعها. ولا شك أنهم عانوا الكثير أثناء وجودهم في موسكو، والكثير من زملائهم ماتوا. ولكن كان من المستحيل أن أنسى مع أي طرف كانوا يقفون أثناء الحرب.

كان أحد العلماء الذين قابلتهم هو نفس الشخص الذي طور «الشيء» الذي وجده الأمريكيون عام ١٩٥٠ داخل شعار الدولة خلف مكتب السفير الأمريكي في سفارتهم بموسكو. كنت مسروراً أن أسمع منه تأكيداً بأن الجهاز كان يعمل حسبما توقعت أثناء تجاربي عليه في ذلك الكوخ الملحق بشركة ماركوني. ولكن عندما استجوبته، شعرت مرة أخرى بالخذلان الذي سرى في أم آي ٥ في الخمسينات، عندما أدركنا أن الـ ك ج ب قامت بنشر جهاز ما زلنا في بريطانيا نقوم بالتجارب لإنتاجه.

قدمت تقريري عن «عودة التنين» إلى أم آي ٦ في مطلع عام ١٩٥٨ للمصادقة عليه. وقد نصحني براندريت برفع التقرير عن طريق أم آي ٦، لأنه حسب رأيه سيلقى دعماً أكبر لو تقدمت به المنظمتان معاً. وبعد أن تم توقيعه من الطرفين رفع إلى لجنة سياسة الأبحاث الدفاعية التي كان براندريت يرأسها. وقد بث هذا التقرير الرعب في أوساط اللجنة. إذ لأول مرة يتم توثيق تقدم ال ك ج ب العلمي على المخابرات الأوروبية. وقد أثبت تقريري أن ال ك ج ب حققت تفوقاً تقنياً رئيسياً من خلال جهود علماء «عودة التنين»، وخاصة في مجال الالكترونيات وأجهزة المراقبة وخاصة أنظمة الأشعة تحت الحمراء، الأمر الذي وضع الروس في موقع المبادر منذ نهاية الأربعينات.

بدأت الأبحاث الفنية في التشكل من خلال اللجنة الخاصة التي ألفها براندريت وكنت عضواً فيها منذ ١٩٤٩. ولكن كان علينا أن نضع هذه الأبحاث في إطار محدد وأن نوسع برامج الأبحاث باستخدام المزيد من الموظفين والمصادر المالية. ثم قمت بتقديم تقرير آخر مشترك بين أم آي ٥ وأم آي ٦، والذي أطلقت عليه ال ك ج ب اسم «وثيقة التقنيات وظل هذا الاسم مستخدماً عندنا، وقد حددت في هذا التقرير التقدم المطلوب إنجازه بالإضافة إلى التأكيد على الالكترونيات. ونتيجة لهذين التقريرين «عودة التنين» و «وثيقة التقنيات» أصبح للأبحاث التقنية في مجال المخابرات بشكل عام، أم آي ٥ بشكل خاص، أولويه أفضل بكثير من السابق في سياسة الأبحاث الدفاعية. ولسوء الحظ فإن لجنة سياسة الأبحاث الدفاعية أصرت على نقض فكرة المخصصات المالية المحددة للمخابرات، على أمل تعويضها من خلال تلبية طلباتنا ضمن برامج الأبحاث الدفاعية. وكنت آمل أن تتحسن الظروف ولكن الطقس كان يتغير.

في عام ١٩٥٨، وبعد الموافقة على «وثيقة التقنيات»، قدمني هوليس إلى الرجل الذي بذل كل ما بوسعه لتأمين تحديث أم آي ٥، فيكتور روتشيلد. وكان روتشيلد يعمل مع أم آي ٥ منذ أيام الحرب (حيث حصل على ميدالية الملك جورج)، وكان له صداقات حميمة مع كبار الضباط، خاصة مع ديك وايت. وحين التقيت به، كان روتشيلد، رئيس قسم الأبحاث في شركة شل للنفط، يدير أكثر من ثلاثين مختبراً في العالم. أخبره هوليس عن تعييني كعالم في أم آي ٥، الأمر الذي دفع روتشيلد إلى طلب مقابلتي، ودعاني إلى العشاء معه في شقته الفخمة في قصر القديس جيمس.

ولا أعتقد بأنني قابلت رجلاً أثار انطباعي مثل فيكتور روتشيلد. كان عالماً بارزاً، وعضواً في الجمعية الملكية، وله خبرة في العديد من المجالات العلمية. وكان أكثر بكثير من مجرد عالم. فاتصالاته في المجالات السياسية، والمخابرات، والمصارف والخدمة

المدنية ومع الخارج كانت كلها اتصالات أسطورية. هناك خيوط قليلة جداً في الثوب البريطاني لم تمر من ثقب إبرة روتشيلد.

دهش روتشيلد من خططي لتحديث أم آي ٥ وقدم لي اقتراحات عديدة بهذا الخصوص. ثم لم ألبث أن أدركت بأنه يتمتع بشهية كبيرة لإشاعات ومؤامرات العالم السري، ثم رحنا نتبادل الحديث والقصص عن الكثير من الزملاء الذين يتذكرهم من أيام الحرب. وبقينا نتحدث حتى وقت متأخر من الليل، ثم خرجت من عنده يراودني شعور لأول مرة بأن دعمه لنا كفيل بتحقيق إنجازات عظيمة.

عرض روتشيلد أن يضع بعض مختبرات شل تحت تصرف أم آي ٥، وبدأ العمل على تطوير نوع من الشحم النفطي لحماية أي جهاز في حالة دفنه في الأرض لمدة طويلة، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من التقنيات. وقد أنتج هذا الشحم النفطي واستخدم بكثرة من قبل أم آي ٥ وأم آي ٦. واقترح روتشيلد عليّ الاتصال مع السير ويليام كوك، الذي كان حينها نائب رئيس مؤسسة أبحاث الأسلحة النووية، لتأمين المصادر المالية وكنت أعرف كوك بشكل جيد، إلا أنه كان صديقاً مقرباً من روتشيلد الأمر الذي جعل زيارتي له أسهل.

استمع إليّ كوك بانتباه شديد وأنا أعرض مطالبي. كان جوهر فهمي للتجسس المضاد هو تطوير الوسائل التقنية لمهاجمة اتصالات التجسس السوفياتية. فالاتصالات هي الأساس الوحيد لتغطية العميل لأن عليه أن يرسل ويستقبل المعلومات من وإلى المسؤول عنه. وأوضحت كذلك بأن جهاز «رافتر» زودنا بأهم وأثمن سلاح ـ وهو اختراق الاتصالات اللاسلكية السوفياتية ـ كما أننا بحاجة ماسة لتقنيات جديدة لمهاجمة أساليبهم الأخرى في الاتصال مثل الكتابة السرية، والنقاط المجهرية، والنقاط السوداء. ولا شك بأن التقدم في هذا المجال سيحسن من إمكانية نجاحنا في مكافحة التجسس.

وقال كوك وهو يرفع سماعة التلفون:

«دعنا نحل بعض هذه القضايا الآن». وتحدث مع أحد كبار العلماء لديه الدكتور فرانك مورغان: «فرانك، سأرسل لك رجلاً لكي يعمل معك في مشروع جديد. وسيوضح لك ذلك حال وصوله عندك. سيعجبك المشروع. . وستحب الرجل».

وبسخاء كوك المعهود، قدم فريقاً يتألف من اثنين من العلماء بالإضافة إلى مجموعة من الموظفين للعمل فقط مع أم آي ٥. وكان مجموع الذين يعملون معي في مؤسسة أبحاث الأسلحة النووية حوالي ثلاثين شخصاً، قامت المؤسسة بتحمل أعبائهم المادية لمدة سنتين كاملتين، الأمر الذي دفع لجنة سياسة الأبحاث الدفاعية إلى الموافقة على الاستمرار في

التمويل. كان فرانك مورغان اثمن هدية لي. كان يواجه المشاكل بحيوية وخلال السنتين اللتين امضاهما في تقديم الخدمات لنا حققت الأم آي ٥ انجازات تجاوزت فيها توقعات الولايات المتحدة الاميركية.

إن تكنيك الكتابة السرية واحد في كل أرجاء العالم. إذ يقوم الجاسوس بكتابة الرسالة الأصلية كتغطية. ثم يكتب رسالته السرية على القسم الأعلى من الرسالة الأصلية، باستخدام ورقة كربون خاصة لا لون لها، والتي تقوم بدورها بطباعة الكتابة على الرسالة. ثم يقوم مستلم الرسالة بتظهير الكتابة التي لا لون لها، وتتم هذه العملية باستخدام معامل كيميائي معين يبرز الكتابة ويجعل قراءتها ممكنة. وما لم يكن هذا المعامل معروف بشكل صحيح تبقى الرسالة عصية على الكشف. ولكن مورغان طور معاملاً كيميائياً يعتمد على المواد المشعة باستطاعته كشف جميع انواع الرسائل السرية. وبواسطة هذا المعامل أصبح بإمكاننا قراءة الرسائل السرية.

أما الصور المجهرية فهي طريقة أخرى للاتصال بين العميل والمسؤول عنه. إذ يتم هنا تصغير الصور إلى نقطة مجهرية لا تشاهد بالعين المجردة. وعادة ما يتم إخفاء هذه النقاط تحت الطوابع، وفوق علامات التنقيط في الرسائل المطبوعة على الآلة الكاتبة، أو تحت لاصق غلاف الرسائل. وقد اخترع مورغان طريقة لكشف الصور المجهرية باستخدام التفاعل النيوتروني.

أما الطريقة الثالثة التي يستخدمها الجواسيس في اتصالاتهم، وهي طريقة شائعة جداً، فهي النقطة السوداء. إذ يترك العميل طرداً صغيراً فيه مثلاً فيلم مظهر، في مكان متفق عليه، ثم يقوم المسؤول عنه باستلام الطرد في وقت لاحق، بحيث لا يتقابل الاثنان مطلقاً. وكانت الـ ك ج ب تعطي عملاءها علباً فارغة خاصة بحيث يمكن معرفة فيما إذا فتحت هذه العلبة أم لا. وقد اكتشف مورغان تكنيكاً جديداً في أشعة أكس يمكننا من الكشف عما بداخل العلبة دون أن تتأثر العلبة بذلك وحتى دون أن يتأثر الفيلم غير المظهر بداخلها بالأشعة.

والبرنامج الرابع والأخير لمورغان كان تطوير وسائل متعددة من أشعة أكس لاستخدامها ضد الخزانات الحديدية ذات المفاتيح الرقمية (الأرقام السرية). وقد أثبتت هذه الوسائل تحديها حتى لوسائل ليسلي جاغر. إذ يمكن بواسطة جهاز أشعة أكس الذي اخترعه مورغان قراءة الأرقام السرية لأية خزانة حديدية بمجرد وضعه أمامها، الأمر الذي أعطى أم آي ٥ قوة هائلة في كشف كافة الخزانات في بريطانيا.

ورغم هذه التحسينات في جانب الأبحاث التقنية ظل سجل أم آي ٥ في مكافحة

التجسس في الخمسينات يبعث على الأسى. وبعد أن أصبح ديك وايت مديراً عاماً سنة ١٩٥٣ أدرك التقصيرات الكبيرة في هذا الجانب. كما أن معظم الضباط الموهبين في أيام الحرب إما تركوا العمل، أو تقاعدوا، أو نقلوا إلى مناصب إدارية أعلى مثل ديك وايت، وكان من جاء محلهم من الدرجة الثانية من ضباط الشرطة السابقين في المستعمرات بخبرة قليلة جداً أو حتى بدون خبرة في مجال التجسس المضاد. وقد وجد هؤلاء أنه من الصعب عليهم التكيف حيث تغير الوضع من التفوق أيام الحرب على المخابرات الألمانية إلى حرب جديدة ضد المخابرات الروسية الأكثر ذكاءً وعدداً. لذلك قام ديك بتأسيس قسم جديد لمكافحة التجسس هو الشعبة د، ومنحني السلطات الواسعة لتقديم المشورة التقنية والعلمية. ولكن التحسينات كانت بطيئة في تقدمها. ففي بعض الأحيان كانت الشعبة د. تعرب عن عدم رضاها على اطلاعي على أسرارها. وكانوا يحومون داخل حلقة مفرغة من الجهل التقني. أذكر في احدى المرات أن واحداً من الضباط قال لي فيما كنت اشرح بعض التقنيات باستخدام قانون أوم:

«حسناً يا بيتر، لا حاجة لأن أعرف قانون أوم. فأنا أقرأ غريتس».

وانفجرت غاضباً:

«يا إلهي! كل طالب مدرسة يتعلم قوانين أوم!».

رئيس الشعبة د، غراهام ميتشيل، كان رجلاً ذكياً، ولكنه ضعيف. كان أسلوبه يعتمد على نسخ تكنيك الأمن المزدوج في أيام الحرب دون تمحيص، فكان يجند العملاء المزدوجين بأعدادٍ كبيرة، ويشغل الشبكات الواسعة من مخبريه في أوساط الجاليات المهاجرة الروسية، والبولندية، والتشيكوسلوفاكية. ففي كل مرة يتم فيها اكتشاف أو الإبلاغ عن اتصال روسي مع طالب أو رجل أعمال أو عالم تقوم أم آي ٥ بتشجيع هذا الشخص لقبول الاتصال، كي تتمكن أم آي ٥ من مراقبة القضية. وكان على قناعة ان واحداً على الأقل من هؤلاء العملاء سيقبله الروس ويأخذونه ليعمل في قلب شبكة عملائهم غير الشرعيين.

كانت قضايا العميل المزدوج عبارة عن لغز لهدر الوقت هباءً. كانت الحيلة المفضلة لدى ال ك ج ب هي إعطاء العميل المزدوج طرداً من المال أو شيء ما فارغ، والطلب منه أن يضعه في نقطة سوداء. وكانت الشعبة د تستهلك نفسها كلما يحدث شيء من هذا القبيل. فتخصص فرقاً من شعبة «واتشرز» لمراقبة النقطة أيام وأيام على أمل أن يأتي العميل غير الشرعي ليأخذها. وعادة لا يأتي أحد ليأخذها، اللهم إذ إذا كانت تحتوي على مبلغ من المال عندها يأتي ضابط ال ك ج ب الذي سلمها للعميل المزدوج فيأخذها ويمضي. وعندما طرحت شكوكي حول سياسة العميل

المزدوج، كانوا يخبرونني بحزم بأن هذه إجراءات تدريب تقوم بها ال ك ج ب من أجل اختبار مصداقية العميل. والصبر مفتاح الفرج.

أما الحقيقة وراء استخدام الروس لقضايا العميل المزدوج فهي تلهية أم آي ٥ عن العمليات الحقيقية التي يقومون بها، بالإضافة إلى تحديد هوية الضباط حسب القضية، وأخيراً تفتيت جهدنا ونثره. إن مقاييس عمل أم آي ٥ مرعبة حقاً. فإن رصد ال ك ج ب لأجهزة إرسال شعبة «واتشرز» أبعدتنا بلا شك عن عدد كبير من قضايا العميل المزدوج. أما ضباط الشعبة د فإنهم نادراً ما يستخدمون وسائل أخرى غير المراقبة المضادة البدائية قبل مقابلة عملائهم. وقد قام قسم كامل في وزارة الخارجية بتزويد أم آي ٥ بطعم من المعلومات السرية التي يتم إعطاؤها للعملاء المزدوجين لإثبات صدقهم للروس. وكان هذا الطعم مجموعة من الوثائق السرية المزورة والتي لا يمكن تصديقها عن أسلحة ليست لدينا، وسياسات لا ننوي إتباعها. وطرحت مسألة الطعم هذه على الشعبة د، وقلت لهم بأن مادته تبعث على الشك، وأن الروس لن يقتنعوا إلا بوجود أسرار حقيقية. ولكنهم ردوا علي بأن هذا الأمر ليس موضع نقاش.

أما منطقة نشاط الشعبة د الأخرى فهي أوساط الجاليات المهاجرة. فقد قامت أقسام إدارة العملاء في هذه الشعبة بإنشاء شبكة واسعة جداً، واستخدمت العملاء في لندن لتجنيد آخرين داخل الدول المضيفة. وكان هذا اختيار جذاب لـ أم آي ٥. إذ كان من السهل جداً تجنيد المهاجرين. وهذا مكن أم آي ٥ من المنافسة مباشرة مع أم آي ٦ في تجنيد العملاء الستار الحديدي، بسبب سخط هؤلاء. ففي الواقع، ومنذ بداية الخمسينات، كانت حلقات المهاجرين هذه مخترقة من قبل ال ك ج ب، أو مخابرات حلفائها. وكل ما فعلوه أو قدموه هو استنفاد جهدنا وتحديد ضباطنا المسؤولين عن إدارة العملاء، تماماً نفس الدور الذي يلعبه العملاء المزدوجون.

كانت أم آي ٥ تعيش في الماضي، تقلد تكنيك الأمن المزدوج في عالم المخابرات الجديد الذي تغير كثيراً منذ أيام الحرب. ولم ينقصها ضباط القضايا الأذكياء فحسب، بل والقدرة على فك الشيفرة، الأمر الذي تمتعت به أم آي ٥ ضد الألمان.

وخلال فترة الخمسينات، كانت أم آي ٥ تتجنب مواجهة أوضح عملية تجسس مضاد في بريطانيا في ذلك الوقت ـ وهي نتائج اختراق السوفيات للمؤسسة البريطانية في الثلاثينات. فقد أصبح اكتشاف تجنيد «إنجليزيي ستالين» أمراً واضحاً من خلال اعترافات الن نن ماي وكلاوس فوخس Klaus Fuchs and Alan Nunn May بالتجسس النووي في أواخر الأربعينات، وقد تبع هذا مباشرة هروب بيرغيس وماكلين عام ١٩٥١. وكان من الواضح تماماً لأي مطلع على الوثائق

أن المخابرات الروسية عولت على الشعور الواسع بالخيبة لدى المثقفين الإنجليز في الثلاثينات وأنها نجحت في تجنيد عملاء مهمين، بقي قسم على ولائه للقضية السوفياتية بعد الحرب.

صلعت قضية انشقاق بيرغيس-وماكلين أم آي ٥. ووقع فيلبي وبلانت في دائرة الشك، ولكن إنكارهم الشديد سرعان ما أغرق القضية برمتها في الرمال. ولم يبق من الوسائل للتقدم في القضية سوى شن برنامج مكثف من التحقيق والبحث داخل شبكة أصدقاء الدبلوماسيين في أكسفورد وكامبريدج. لكن هذه المهمة تكتفها صعوبات بالغة، فجميع أصدقاء بيرغيس وماكلين أصبحوا الآن يشغلون وظائف عليا، ليس في المخابرات وحسب، بل وفي الوظائف المدنية. وكانت هذه التحقيقات ستسبب إحراجاً سياسياً كبيراً إذا ما تسربت، في الوقت الذي يسعى فيه كل من له علاقة بالموضوع للتهرب منه. زد على ذلك فإن إجراء التحقيق بالقوة كان من الممكن أن يؤدي إلى المزيد من الهرب إلى موسكو، الأمر الذي قد يقود إلى نتائج غير محسوبة. ولم يرغب أحد في أن يمسك الشوك بيديه، فتوقف العمل في هذا الاتجاه نهائياً بدءاً من العام ١٩٥٤، إذ كانت أم آي ٥ تعتقد أن تطبيق الاجراءات الأمنية المشددة كفيل بحماية الأمن القومي. وكان هذا الإجراء أشبه بإغلاق قن الدجاج والثعلب في الداخل.

لم يقف بوجه سياسة التجاهل هذه سوى رجل واحد هو آرثر مارتن، ضابط سابق في سلاح الإشارة انضم إلى أم آي ٥ بعد الحرب بقليل. وقد أثبت مارتن بسرعة ذكاءه وقوة حدسه كضابط قضايا، من خلال معالجته لقضيتي فوخس وماكلين واحدة وراء الأخرى، كانت تقوم بمساعدته إيفلين ماك بارنيت الشابة في قسم الأبحاث، والتي ساهمت مساهمة عظيمة في هاتين القضيتين إلا أنها لم تكافأ على جهدها كما ينبغي. كان مارتن يتمتع بميزة هامة لدى دخوله العمل في التجسس المضاد، وهي أنه لم يكن يوماً من الأيام في مدرسة حكومية. وعندما علمنا بوجود تسريب خطير للأسرار في السفارة البريطانية في واشنطن، كانت وجهة النظر التقليدية أن نبحث عن المتهم بين الكتاب والموظفين والسكرتاريا. أما مارتن فقد أدرك من المراحل الأولى للقضية بأن المتهم يقبع بين الدبلوماسيين. وبدأ بمتابعة التحقيق بكل عزم وإصرار إلى أن أوقفه هروب ماكلين إلى موسكو.

بعد عمليات الهرب، طالب مارتن، بإلحاح، من إدارة الأم آي ٥ إجراء تحقيقات فورية في شبكة الاختراق الشيوعي في كامبريدج فترة الثلاثينات. ولكن الإدارة رفضت طلبه بمقابلة كافة الأوساط الاجتماعية التي عايشها كل من فيلبي وبيرغيس وماكلين. وظل يناضل سنتين كاملتين ضد هذه السياسة البغيضة، إلى أن ذهب أخيراً لمقابلة المدير العام ديك وايت، وأخبره بعزمه على الإستقالة والالتحاق بالعمل مع منظمة المخابرات والأمن الأسترالية الجديدة آنذاك.

إلا أن ديك وايت، الذي كان يقدر عاليا كفاءة مارتن، أقنعه بأن يذهب إلى الملايو، بدلاً من الاستقالة، كضابط ارتباط لأم آي ٥ إلى أن يتحسن الجو في الشعبة د. وكانت هذه الوظيفة، آنذاك، حيوية جداً. إذ لعب مارتن دوراً رئيسياً في حملة العصيان المضاد في الملايو. أما على صعيد التجسس المضاد فقد أصبحت النتائج كارثيه. ففي هذا العقد ترك الكثير من ضباط أم آي ٥ الموهوبين المنظمة.

وعندما جاء هوليس مديراً عاماً في عام ١٩٥٦، تم تعيين مدير جديد للشعبة د هو مارتن فيرنيفال جونز. وكان جونز محامياً متدرباً انضم إلى أم آي ٥ أثناء الحرب. ويبدو جونز لأول وهلة شخصية جامدة يعوزها الإحساس والنشاط. ولكنه كان يمتلك موهبة الضابط القيادية، وعقلاً منظماً وذهناً متوقداً منفتحاً على كل جديد. والأهم من ذلك أنه كان عنيداً، الأمر الذي جعله متميزاً في رئاسة التجسس المضاد. أدرك بأن المشكلة الأولى التي تواجهها أم آي ٥ هي نشاط الكتلة السوفياتية التجسسي في بريطانيا. فالشعبة د (١)، مثلاً، كانت مهمتها الرصد والعمل ضد حوالي ٣٠٠ ضابط مخابرات روسي. وكان مجموع موظفيها أحد عشر موظفاً، منهم أربع سكرتيرات. لذا كنا نغرق في العمل دون أن نعرف فيما إذا كنا نطارد جواسيس أم أشباحاً.

وكان من أول القرارات التي أتخذها هو إعادة آرثر مارتن من الملايو إلى مبنى ليكون فيلد ليعينه مسؤولاً في الشعبة د ٢ عن الشؤون البولندية والتشيكية، ثم فيما بعد في عام ١٩٥٩ مسؤولاً عن التجسس السوفياتي المضاد في الشعبة د ١. وكان جونز يكن احتراماً شديداً لمهارة مارتن وقوة شخصيته الأمر الذي ساعد على الاستفادة منه كثيراً رغم مشاكساته المستمرة. وهكذا بدأ مارتن فوراً في إعادة تأكيد الشعبة د ١ على التحقيقات في التجسس المضاد وبشكل نشط، كما أدرك بشكل غريزي أهمية الوسائل التقنية الجديدة مثل جهاز «رافتر»، لكونه كان يعمل في سلاح الإشارة أثناء الحرب، ولأول مرة أجد موظفاً كبيراً يصغي إلي بتعاطف ويعمل من أجل التغيير. وهكذا أصبحنا صديقين حميمين. وقمنا بتشكيل جدول مصادر في الشعبة أ، لتسجيل أي شخص أو أي شيء يمكن أن يفيد أم آي ٥. وقد وزعنا على المكتب النماذج لتعبئتها، وخلال عدة شهور كان جدول المصادر جاهزاً، بحيث يستطيع أي ضابط يتابع قضية ما ويحتاج، مثلاً، إلى ممرضة، أو مرآب مغلق، أو الاطلاع على ملفات شركة معينة، أن يراجع السجل مباشرة.

كما قمنا بتحقيق إنجاز مهم في مجال خوض المعارك المخابراتية، يعتمد على تحليل التحركات، وهي فكرة طرحها ونفذها في البداية غيورنسي رئيس الشرطة الكندية. ويتضمن هذا الاجراء تسجيل كافة تحركات الدبلوماسيين السوفيات في السفارة للوصول إلى صورة شاملة

لتحركاتهم ونشاطاتهم. ومن خلال هذا التحليل كان بإمكاننا الحصول على معلومات مهمة عن هوية ضباط ال ك ج ب.

أما التغيير الجذري الأكثر أهمية فهو الذي أجريناه على قسم العمليات، الذي كان يديره ميتشيل ماكول، وهو ضابط تحقيقات ذكي وموجه عملاء بارع. فقد وضع مارتن وماكول القسم في حالة حرب. ورغم أن قواتنا كانت أقل بكثير من قوات الروس، إلا أننا بدأنا الهجوم بتكتيكات جديدة لإرباك ال ك ج ب، الذين أعتادوا على التنبؤ برد فعلنا. وكانت بعض أساليبنا طائشة ومتهورة، مثل عملية نشل كافة ضباط ال ك ج ب المعروفين لدينا في شوارع لندن على أمل الحصول على معلومات ولو صغيرة منهم. ورغم أن العملية لم تنجح إلا أنها جعلت الروس يشعرون بأنهم عرضة للهجوم لأول مرة منذ عدة سنوات. كما قمنا بإدخال تغييرات جديدة أخرى. فقد تم جمع كافة شبكات المهاجرين السوفيات، خاصة تلك المخترقة بشكل كبير. أما قضايا العملاء المزدوجين فقد بدأ التعامل معها بعدوانية أكثر. بدأ الضباط المسؤولون عن العملاء بمرافقة عملائهم للقاء مع رجال ال ك ج ب، وتحذيرهم من أنهم إذا استمروا في تجنيد البريطانيين فإنهم سيعرضون أنفسهم للطرد من بريطانيا عن طريق وزارة الخارجية. كما بدأ ماكول ورجاله محاولات وقحة لتجنيد رجال ال ك ج ب. لم ننجح أبداً ولكن كنا نأمل أن يزرع تغيير التكتيك بذور الشك في السفارة الروسية.

قام ماكول بتنفيذ هذه التكتيكات بذكاء وإبداع. وذات مرة أخبر أحد الفنيين العاملين في مصنع المدفعية الملكي، الأم آي ٥ أثناء العمل في إنتاج قذيفة «بوفرز» بأن ضابطاً من ال ك ج ب اتصل به لتزويده بنموذج من القذيفة، وقام ماكول بتحضير قذيفة وملأها بالرمل بحيث تبدو وكأنها محشوة بالمتفجرات. وعندما قام العميل المزدوج بتسليم القذيفة في إحدى حدائق لندن خرج ماكول من وراء الأشجار، وأخبر الروسي بأنه وقع في مشكلة خطيرة، وأنه يحمل بشكل فاضح قطعة عسكرية بريطانية في غاية السرية، وهذا الأمر كاف لاعتباره شخصية غير مرغوب بها في بريطانيا. دب الذعر في نفس الروسي حيث يحرمه هذا من متعة الخدمة في الخارج، والأهم من ذلك إن فشله يعني أنه أصبح في خانة المتهمين في نظر ضباط التجسس المضاد المسؤولين عنه. وبدأ رجل ال ك ج ب بالارتجاف بشدة، فيما كان ماكول يحذره من أن رجال الشرطة سيقبضون عليه ويجرونه إلى زنزانة حيث يعذبونه هناك.

«لا تهز القذيفة، احذر»، صرخ ماكول، «سوف تنفجر!».

ورمى الروسي القذيفة على الأرض وفر هارباً من الحديقة وكأن الجن تلاحقه. وفي اليوم التالي كان يستقل الطائرة عائداً لبلده.

في الواقع، كانت وزارة الخارجية مترددة في تقديم أي دعم لنا. أرسلنا مرات عديدة إلى القسم المسؤول في وزارة الخارجية عن العلاقات الإنجليزية السوفياتية نوصي بطرد الروس الذين تم القبض عليهم وهم يجندون أو يديرون العملاء، ولكنهم نادراً ما كانوا يستجيبون لتوصياتنا. وقد كنت أحضر اجتماعات هذا القسم من حين لآخر لأطلعهم على ما يفعله بعض الدبلوماسيين الروس. وكانوا دائماً يردون بنفس الطريقة: ستعارض أم آي ٦ الطرد، خوفاً من إجراء انتقامي مماثل في موسكو. ثم تبدأ وزارة الخارجية بالتدخل على أساس عدم التشويش على محادثات الحد من الأسلحة المتوقفة، أو تعريض صفقة تجارية مهمة للخطر. وقد قال لي كورتني يونغ في إحدى المرات ونحن نخرج من أحد الاجتماعات هناك: «لم أرَ في حياتي مثل هذا السلوك!».

كان نقص الدعم لنا من وزارة الخارجية يعني أننا يجب أن لا نعتمد كثيراً على الأساليب المشروعة لتحذير السوفيات. وفي هذه الأثناء وصلنا فيض من التقارير من شعبة «واتشرز» تحدد فيها محاولات الروس الاتصال بهم. وقد ذكر أحد العاملين في الشعبة في تقريره أن أحد رجال ال ك ج ب جاء إليه في إحدى الحانات وسلمه مغلفاً فيه كمية كبيرة من المال، وطالباً منه تزويده بالمعلومات عن أم آي ٥.

وقرر ماكول بأن هذا العمل المباشر كان فرصة مناسبة. فقام بالاتصال تلفونياً مع رئيس ال ك ج ب المقيم في مكتبه في السفارة السوفياتية، وطلب منه موعداً، مستخدماً اسمه المستعار ماكولي الذي كان معروفاً بشكل جيد عند الروس. ومشى بخطوات واثقة داخل السفارة وحذر الروس من مغبة الاستمرار في الاتصال بالمراقبين، مهدداً بفرض العقوبات المنصوص عليها في حالة خرق القوانين الدبلوماسية، وهو في الواقع أمرٌ أبعد من أن يطبق. كان ماك كول مسروراً جداً من زيارته لعرين الأسد. وقد استقبله الرئيس المقيم بحرارة وتناولا شاي بعد الظهر معاً. وقد أبدى الروسي شكوكه في أن يكون أي من موظفيه الدبلوماسيين يقوم بعمل غير لائق مثل التورط في عمليات تجسس على أرض أجنبية، ولكنه قال إنه سيبحث هذه القضية في حالة إذا ما كان أحد الموظفين قد تحمس زيادة عن اللزوم.

وقال: «ربما أخطأ رجال المخابرات البريطانية. فالعمل أصبح كبيراً جداً. دول كثيرة، وسفارات كثيرة، ودبلوماسيون كثيرون. وفي بعض الأحيان من الصعب أن يعرف المرء من الذي يعمل ولمن. . .».

وبعد ذلك توقفت عملية الاتصال بشعبة «واتشرز».

وفي صيف عام ١٩٥٩، عندما بدأت الأمور تتحسن في الشعبة د، برزت من جديد

قضية تيسلر لتنشر فوق رؤوسنا غيمة من الشك والغموض. بدأ الأمر عندما اتصل الروس من جديد بالشاب الممرض الذي قاد تجنيده إلى ملاحقة «غروف» في كلافام. إذ أعطاه المسؤول الروسي حقيبة وطلب منه أن يخفيها عنده في الشقة. وفي داخل هذه الحقيبة كان هناك جهاز راديو قديم من أيام الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي جعلنا نشك فوراً بأن العملية كلها لإغرائنا وأبعادنا خارج لندن. ولكن لم يكن بحوزتنا أي دليل بأن الروس يعرفون أننا أعدنا العميل الشاب إليهم، لذلك قررنا متابعة القضية. فقامت الشعبة د (١) بمراقبة بيت الشاب في ميدلاندز مراقبة كاملة، فيما أوقفنا المراقبة في لندن. وقد رتبت مع قيادة المراقبة أمر الاستمرار في بث المعلومات عن تحركات الروس والتشيكوسلوفاكيين الذين يغادرون حدائق كينغستون بارك، بحيث يعتقدون بأننا ما زلنا نراقبهم.

وبعد ٣٦ ساعة من مغادرة العاملين في شعبة «واتشرز» لندن، أقفل جهاز الرصد الروسي الذي كان يرصد اتصالات الشعبة. وحالما أخبرني توني سيل بذلك، اعتراني الشك، وأنا أتذكر فشلنا في التوصل إلى نتائج من الاختبارات بعد قضية تيسلر. وبعد ستة أسابيع عدنا إلى لندن بقناعة أن الحقيبة مزيفة، وبدأت بعملية «رافتر» لكشف متى يبدأ الروس بتشغيل جهازهم ثانية.

ولم يتم ملاحقة أي روسي في صباح أول يوم إثنين، وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر فتحنا أجهزة الرصد على دبلوماسي تشيكي. وخلال نصف ساعة بدأ المستقبل الروسي بالعمل على ذبذبة شعبة «واتشرز». وأخذت نسخة من صورة بث «رافتر» لأسلمها إلى فيرنيفال جونز وهوليس. فقد ثبت هنا لأول مرة وجود مصدر إنساني داخل أم آي ٥. وأبدى كل من جونز وهوليس أنهما صدما من هذه المعلومة. كانت الإتصالات الروسية مع شعبة «واتشرز»، والتي اعتقدنا بأنها توقفت بعد زيارة ماكول للسفارة، قد أكدت وجهة نظر هوليس في أنه إذا وجد أي تسرب فلا بد أن يكون من شعبة «واتشرز». قمنا بإجراء اختبارات بواسطة وجبات الباريوم في محاولة لتحديد المصدر، ولكننا لم نجد أي شيء. وعندما شارف العام ١٩٥٩ على الانتهاء، كان هناك شعور يتنامى لدى قلة من الضباط الذين كانوا يعرفون عن إدعاءات تيسلر، بأنه يجب حل القضية نهائياً وإلى الأبد، حتى لو تطلب الأمر مزيداً من التحقيقات المكثفة. وفي كانون الأول طلبني هوليس وأخبرني بأنه ينوي إغلاق التحقيقات مع الشعبة.

وقال لي: «أنا متأكد من أن استنتاجات تيسلر الحقيقي صحيحه، وأعتقد أنه يجب أن نترك المسألة الآن».

كان مهذباً في حديثه ولكنه صارم. وفكرت أنه آن الأوان لأطرح شكوكي علناً.

«أعتقد يا سيدي، من الأفضل أن يطلب منا توسيع التحقيقات. فالتسرب قد يكون في مكان عالٍ في الجهاز».

ولم يرد هوليس بشكل واضح.

«إنها قضية حساسة يا بيتر، سيكون لها تأثير رهيب على المعنويات عندنا».

«ليس بالضرورة يا سيدي. وأعتقد أنك ستجد معظم الضباط يرحبون بأي عمل تقوم به. وعلى أي حال فإذا كان هناك اختراق، وخاصة على مستوى عالٍ نسبياً، فمعنى ذلك أن كل عملنا مضيعة للوقت».

«إن ما تطرحه ليس عملي». أجابني ولهجته تزداد صرامة.

وأشرت إلى وجود قسم التحقيقات في الشعبة د (١)، الذي يمكن أن يقوم بالعمل. وأخيراً انفجر هوليس.

«لست مهيئاً للبحث في هذه القضية. كما أنني ببساطة، لا أستطيع أن أقبل أي عمل يمكن أن يؤدي إلى وجود غيستابو بامتيازات عندنا».

وكتب بسرعة على الملف «لا داعي للمزيد من العمل» ثم وقعه وأغلقه معلناً انتهاء لقائنا. وهكذا ترك السرطان لينمو أكثر.

الفصل العاشر

«يقول سنايبر بأن للروس عميلين مهمين في بريطانيا: الأول في المخابرات البريطانية، والثاني في مكان ما في البحرية».

كان ذلك في نيسان ١٩٥٩، حيث كان هاري رومان، وهو ضابط في السي آي أي، يبلغ مجموعة من ضباط أم آي ٥ وأم آي ٦ في قاعة الاجتماعات على الطابق الرابع في مبنى قيادة أم آي ٦ في برودواي، عن منشق من الدرجة العليا. كان سنايبر مصدراً مجهولاً بدأ في بداية ذلك العام بإرسال الرسائل إلى السي آي أي، مكتوبة باللغة الألمانية، تتضمن معلومات عن عمليات للمخابرات الروسية والبولندية.

وقال رومان: «لا بد أنه يعمل في المخابرات البولندية. ولغته الألمانية متواضعة. كما أن المعلومات من داخل المخابرات البولندية نخب أول».

وقد أطلق سنايبر (واسمه الرمزي في أم آي ٥ «لافينيا») لجاسوسيه اسمي «لامبدا (١)» و «لامبدا (٢)». وكانت المعلومات حول لامبدا (٢) قليلة ولا تتعدى معرفة أنه عمل في وارسو وأجبر على العمل في التجسس بعد أن اكتشفت المخابرات البولندية تورطه في عمليات السوق السوداء. أما لامبدا (١) فقد بدا مشجعاً. أعطى سنايبر تفصيلات كافية في إحدى رسائله فتمكنا من تحديد هوية ثلاث وثائق لأم آي ٦ كان قد اطلع عليها.

أما الوثيقة الأولى فهي «قائمة المراقبة» المتعلقة ببولندا، وتضم تفاصيل البولنديين الذين يعتقد مكتب أم آي ٦ في وارسو بأنهم هدف مرغوب، أو بالإمكان تجنيدهم والاتصال بهم. أما الوثيقة الثانية فقد من القسم البولندي في أم آي ٦ «ر ٦» (R 6)، وهي تقرير سنوي يوزع على مكاتب أم آي ٦ يلخص المعلومات المخابراتية الواردة إلى أم آي ٦ من كافة أرجاء

العالم بلداً بلداً ومنطقة منطقة. أما الوثيقة الثالثة فهي جزء من «ر. ب.»(R B)، وهو تقرير أم آي ٦ الذي يتم توزيعه إلى المكاتب والمحطات في الخارج، ويتضمن آخر العمليات والأبحاث التقنية والعلمية في أم آي ٦.

وكان مكتب أم آي ٦ في كل من برلين ووارسو أكثر المكاتب احتمالاً للتعرض إلى تسريب هذه المعلومات الحيوية، وقمنا بتحديد قائمة بأسماء العشرة أشخاص في هذه المكاتب والذين كانوا يطلعون على الوثائق الثلاث. وجرى التحقيق في ملفات وسجلات هؤلاء الأشخاص العشرة، وتم تبرئتهم جميعاً بمن فيهم شخص يدعى جورج بليك ضابط شاب كان بدأ يصعد في أم آي ٦، كما لعب دوراً أساسياً في قضية نفق برلين. وتوصلت أم آي ٥ وأم آي ٦ إلى أن بليك لا يمكن أن يكون جاسوساً. وأفضل تفسير للتسرب، في غياب أي مرشح معتمد، هو سرقة الخزانة الحديدية في مكتب أم آي ٦ في بروكسل، والتي حدثت قبل سنتين. ولسوء الحظ لم يكن هناك سجل بمحتويات الخزانة قبل وقوع السرقة. وكان هناك إثبات بوجود واحدة أو اثنتين من الوثائق الثلاث في داخل الخزانة. ولم يكن هناك دليل على وجود الوثائق الثلاث جميعها في الخزانة. وفي ربيع عام ١٩٦٠، عندما تم تبرئة الضباط العشرة في أم آي ٦، قامت أم آي ٥ وأم آي ٦ بإبلاغ الأمريكيين بأن سرقة الخزانة كانت هي مصدر لامبدا (١).

وفي آذار ١٩٦٠، بعث سنايبر فجأة بمعلومات إضافية عن لامبدا (٢). رجح أن يكون اسمه «هيوتن»، واعتقد سنايبر بأن الروس استولوا عليه واستخدموه كجاسوس غير شرعي عندما عاد إلى لندن ليعمل في المخابرات البحرية. وكان هناك رجل واحد تنطبق عليه الصفات التي طرحها سنايبر: إنه هاري هاوتن، الذي كان يعمل في مؤسسة الأسلحة تحت سطح الماء في بورتلاند/ دورست، كما خدم في وارسو عام ١٩٥٢ قبل أن ينضم إلى المخابرات البحرية. وعندما تم التدقيق في اسم هاوتن في سجل أم آي ٥ اكتشفت الشعبة بأنه كان قد وضع على القائمة. وقبل سنين قليلة جاءت زوجة هاوتن إلى رجال الأمن في بورتلاند وأخبرتهم بأن زوجها هجرها من أجل فتاة تعمل في القاعدة. وزعمت بأنه يجتمع مع الأجانب، ويذهب بانتظام إلى لندن لمقابلة أجنبي هناك لم تستطع تحديد هويته، كما أن لديه كمية هائلة من المال مخزونة في علبة حديدية في الحديقة.

قام رجل الأمن برفع التقرير إلى قسم الأمن البحري، وقد أوصى بأنه مجرد اتهامات كاذبة لامرأة مهجورة. وأرسلت البحرية التقرير إلى الشعبة ج في أم آي ٥ حيث وصل أخيراً إلى مكتب ضابط شاب يدعى دانكام ووه. فقام هذا بمراجعة السجل بحثاً عن اسم هاوتن، وعندما لم يجد له قيداً استنتج بأن تقييم رجل الأمن صحيح. وقرر إهمال الاتهام. فنقل

الملف إلى رئيس الشعبة ج الذي قام بدوره بكتابة رد مناسب إلى بورتلاند وانتهت القضية هنا.

أما هوليس وگرنيفال جونز (الذي كان رئيس الشعبة ج في ذلك الوقت) فقد كانا في غاية الإحراج من الاكتشاف بأن هاوتن هو الجاسوس المحتمل. ولكن لم يكن هناك وقت كاف للاتهام المضاد، ذلك أن القضية بدأت تستجمع بزخم. وتولى القسم البولندي الشعبة د ٢، مهمة معالجة القضية، وسرعان ما اكتشف أن هاوتن كان يزور لندن مرة في الشهر بصحبة فتاته إيثيل غاي. طلب من شعبة «واتشرز» أن تغطي زيارة هاوتن إلى لندن في شهر تموز، فرأوه يقابل رجلاً في واترلو رود ويسلمه حقيبة، ويستلم بدوره مغلفاً. وتم التركيز فوراً على الشخص الذي قابله هاوتن، ومراقبته حتى وصل سيارته الستود بيكر البيضاء، فتعرف عليه المراقبون من ملامح وجهه بأنه ضابط استخبارات بولندي مركزه لندن. ولكن عند تدقيق أرقام تسجيل السيارة اكتشف بأنها تعود في ملكيتها إلى شخص كندي اسمه جوردون أرنولد لانزديل ويعمل في تأجير آلات موسيقية. أرسل المراقبون إلى السفارة البولندية لإعادة التدقيق في هوية الضابط البولندي، ولكنهم عادوا ليقولوا بأنهم أخطأوا.

وُضع لانزديل تحت المراقبة الكاملة. كان له مكتب في شارع وردر! وشقة قرب حديقة ريجنت. فقمنا بزرع أجهزة رصد فيهما، بالإضافة إلى إقامة مركزين للمراقبة المباشرة. وقد وجدنا بأنه يعيش حياة «قبضاي» في لندن، يسافر إلى الخارج باستمرار ويلاحق الفتيات اللواتي سرعان ما ينجذبن إليه بسبب ثرائه وحسن مظهره.

قام هاوتن وفتاته غاي بزيارة أخرى إلى لندن في بداية شهر آب ليقابل لانزديل مرة أخرى، في مقهى قرب المسرح الفيكتوري القديم هذه المرة. وقد رصدهما المراقبون عن قرب شديد، حتى انهم شغلوا الطاولة المجاورة لهما. وأخبر لانزديل هاوتن وغاي بأنه لن يكون هناك لقاء في شهر أيلول، لأنه سيزور الولايات المتحدة في عمل، وأعرب عن اعتقاده بأنه سيلتقيهما بعد عودته في الأول من تشرين أول. وإذا لم يظهر هو فإن شخصاً آخر يعرفانه سيحل محله.

في ٢٧ آب تم ملاحقة لانزديل لدى خروجه من شقته في الطابق السادس إلى بنك ميدلاند في شارع غريت بورتلاند، حيث أودع هناك حقيبة وطرداً ملفوفاً بورق بني. وبعد ذلك بقليل اختفى. فقام المدير العام بالاتصال برئيس بنك ميدلاند وحصل على تصريح بفتح الخزانة الحديدية التي وضع فيها لانزديل أشياءه. وفي مساء يوم الإثنين الخامس من أيلول تم نقل الحقيبة والطرد من البنك إلى مختبر أم آي ٥. وتم إخراج المحتويات ووضعها على

طاولة حيث قمت أنا وونتربورن بفحصها بعناية. وهكذا بعد سنين طويلة من المحاولات وقعنا على الشيء الحقيقي - حقيبة الأدوات الكاملة للجاسوس المحترف. كان هناك آلتا تصوير مينوكس، Minox وبراكتينا Prajtina، المتخصصة في تصوير الوثائق. وقد احتوت آلة مينوكس على فيلم مصور، قمنا بتظهيره وطبعه قبل إعادته إلى الكاميرا. كانت الصور غير ضارة: لقطات للانزديل وامرأة مبتسمة في مدينة قدرنا بعد التحليل بأنها مدينة براغ. كما كان هناك كتاب تعلم الطباعة على الآلة الكاتبة، والذي عرفت بأنه مرتبط بالكتابة السرية. ومن خلال تعريض طرف كل ورقة إلى حزمة من الضوء استطعت التوصل إلى اثار ورقة الكربون الخاصة بالكتابة السرية. أرسلنا كتاب تعلم الطباعة إلى الدكتور فرانك مورغان في مؤسسة أبحاث الأسلحة النووية الأمر الذي ساعده مساعدة ثمينة في برنامج أبحاثه الخاصة بكشف سر الكتابة السرية.

وكان أكثر الأشياء إثارة في الحقيبة ولاعة سجائر من نوع رونسون موضوعة في مكان خاص. وعند تعريضها لأشعة أكس حسب طريقة مورغان، وجدنا بأن قاعدة الولاعة مفرغة وبداخلها عدة أشياء صغيرة جداً. وقد أخرجناها من الولاعة بواسطة أداة مطاطية ماصة وملاقط دقيقة. فوجدنا لبادتين صغيرتين للشيفرة تستخدمان لمرة واحدة، وقد بدت إحداها مستعملة حديثاً. كما كان هناك خرائط مبنية على أساس الخرائط المستعملة من قبل شعبة «واتشرز».

منذ أن بدأ «رافتر»، وأنا أدرس أي شيء أحصل عليه عن الاتصالات اللاسلكية السرية السوفياتية، لذلك ما أن رأيت لبادات الشيفرة في حقيبة لانزديل حتى عرفت فوراً بأنها روسية المصدر. إذن فهذا ليس ضابط مخابرات بولندي. بل نسف كامل لعملية من عمليات ك ج ب. ولو كان لانزديل في حالة اتصال مع موسكو لأمكننا أن ننسخ اللبادة وأن نتابع الذبذبة، ولاستطعنا عندها أن نحلل الشيفرة فور وصولها. ولكن لسوء الحظ لم يكن في الحقيبة أي مخطط إشارات يدل على موعد استقبال الذبذبات وعلى أية موجة ينبغي التقاطها ضمن آلاف الرسائل التي تتدفق كل أسبوع من موسكو. وقد مكننا «رافتر» من القيام باختراق حيوي. فقد قررنا أن نقيم في الشقة المجاورة لشقة لانزديل، ومن خلال استخدام «رافتر» يمكن أن نعرف متى وأية ذبذبة كان يستخدم على المستقبل.

كانت عملية نسخ اللبادة دون إثارة شكوك لانزديل عملية في غاية الصعوبة. فبدون الوصول إلى كل طبقة في اللبادة لا يمكن حل الشيفرة. وكنت علمت من لجنة عمليات الرادار بأن المخابرات السويسرية حصلت مؤخراً على لبادة مستهلكة من نفس النوع، لذا فقد رتبت مع أم آي ٦ للطلب من السويسريين مسألة استعارتها. فوافقوا على ذلك، وذهبت بطائرة خاصة تابعة للقوات الجوية إلى سويسرا. وكانت اللبادة تشبه تماماً تلك التي

بحوزتنا، كان كل طرف منها مغطى بطبقة رقيقة من الصمغ لربط الرقائق مع بعضها. وقمنا بأخذ عينه منه وحللناه. لم يكن صناعة غريبة، ولكن الفنيين في مكتب البريد كانوا واثقين من أنهم يستطيعون صناعته.

ذهبنا مرة أخرى إلى البنك في مساء يوم السبت السابع عشر من أيلول، وأخذنا الحقيبة إلى المختبر. فنزعنا الرقائق بعناية بالغة حيث صورنا كل واحدة على حدة. ثم أعدنا تجميع رقائق اللباد في مكان خاص بحيث تبقى متماسكة بشكل جيد، ثم أعدنا تصميغ أطرافها بمحلول الصمغ الذي صنع خصيصاً لذلك. وفي ساعات الصباح الأولى من يوم الأحد، أعدنا الحقيبة إلى البنك وأخذنا ننتظر عودة لانزديل.

وبعد أيام قليلة اتصل بي توني سيل. وكان صوته مليئاً بالإثارة:

«هنالك شيء يجب أن تراه: بعض من تسجيلات «ليونزبيرد».

كان «ليونزبيرد» الاسم الرمزي لجهاز «رافتر» الدائم الذي يعمل على خط السفارة الروسية. وأخذت سيارة أجرة بسرعة إلى كينغستون بارك، ودخلت إلى البيت السري هناك في الشارع المجاور. فقابلني توني سيل في القاعة وسلمني الورقة التي عليها الرسومات التخطيطية.

«هل لديك فكرة عما يكون هذا؟» سألني مشيراً إلى دس جهازي استقبال بصورة مفاجئة داخل السفارة في شهل أيلول.

«ما هذه التواريخ؟»

«يبدو أنها ٦ أيلول، الذي كان يوم ثلاثاء، أما الأخرى فإنها تعود إلى الأحد الماضي - ١٨ أيلول».

وصرخت بحسرة: «يا إلهي، إنها تواريخ اقتحام البنك».

كنا قد استخدمنا شعبة «واتشرز» بشكل بسيط خلال العمليتين لأخذ حقيبة لانزديل من البنك. وفي حالة من اليأس والفوضى، أعدت جهاز طبع الإشارات إلى مبنى ليكون فيلد، وعملت جدولاً للأوقات الصحيحة التي يعمل بها المستقبل الروسي ضد تسجيلات الشعبة أ ٤ التابعة لشعبة «واتشرز» وقد تطابق ليونز بيرد مع تسجيلات الشعبة أ ٤ بشكل كامل. فلا بد أن الروس عرفوا بأننا نلاحق لانزديل.

لذلك طلبت كافة تسجيلات ليونزبيرد لسنتين ونصف السنة، وقمت بالتدقيق بعناد فيها لأرى فيما إذا كان هناك أمثلة أخرى تدل على استخدام الروس للمستقبل في منتصف ليلة

السبت أو الأحد. فلم أجد ولا مناسبة واحدة، غير هاتين المرتين، حيث كان الروس يستمعون بين ساعات منتصف الليل حتى الخامسة صباحاً.

أخذت المواد إلى فيرنيفال جونز، وذهبنا فوراً إلى هوليس. وتقبل هوليس النبأ بهدوء ووافق على أن البرهان على التسرب بدا قوياً. وطلب من فيرنيفال جونز أن يبدأ تحقيقاً جديداً في قسم المراقبة، وعلى ضوء التأكد من أن لانزديل جاسوس غير شرعي ل ك ج ب، حول القضية من الشعبة ج ٢ (المسؤولة عن التشيك والبولنديين) إلى آرثر مارتن في الشعبة د ١ المسؤولة عن (التجسس السوفياتي المضاد).

بدا للوهلة الأولى أن مغادرة لانزديل إلى الخارج أعطتنا أفضل اختبار لتثبيت شكوكنا. فوافقنا جميعاً على أنه إذا بقي هناك، فهذا يعني أنه أدرك أننا اكتشفناه. أما إذا عاد فهذا يعني أننا في الطريق الصحيح. وكان لانزديل قد أخبر هاوتن بأنه سيحاول العودة للالتقاء به في الأول من تشرين أول. وبدأ التوتر يتصاعد داخل مبنى ليكون فيلد، عندما لم تسفر تحقيقات جونز في قسم المراقبين عن شيء. وانتقل هاوتن إلى لندن، ولكن لم يأتِ أحد للالتقاء به. وحتى فيرنيفال جونز أصيب بصدمة والأيام تمر دون أية إشارة من لانزديل. وأخيراً في ٢٧ تشرين الأول أخبرنا مركز المراقبة قرب بيته بعودته. وذاب الشك، الذي كان يتصاعد في نفوسنا في غمرة حشد كل طاقتنا في عملية الصيد.

وعاد لانزديل إلى حياته المعتادة، يدير آلات الموسيقى، ويقابل هاوتن ويلتقي مع الفتيات الجميلات. ولكنه لم يكن يستخدم شقته حتى منتصف تشرين ثاني. ولم نكن نعرف أين يقضي لياليه. ففي كل ليلة يغادر مكتبه في شارع وردر ويتجه غرباً. وكنت أنا وآرثر قد قررنا عدم استخدام عمليات المراقبة باللاسلكي بعد عودة لانزديل. كنا مصممين على تحاشي أي خطأ. فالمراقبة المكشوفة ممنوعة... وأجهزة الاتصال في حالة صمت كاملة. الأمر الذي آثار حفيظة جيم سكاردون لهذا التدخل في أمبراطوريته. فلم يكن لديه علم بجهاز «رافتر» ولم يستطع أن يفهم صمت الأجهزة. فاشتكى الأمر إلى فيرنيفال جونز الذي أبلغه بحسم بأن هناك أسباباً وجيهة لهذه السياسة الجديدة.

أدركت أنا وآرثر بأنه من المستحيل تعقب جاسوس خبير ومدرب مثل لانزديل إلى أية مسافة حتى ولو قصيرة دون إثارة حفيظته، لذلك قمنا باستخدام تكنيك شبه جامد. ففي كل ليلة يقوم فريق بملاحقته لمسافة قصيرة محددة ثم يختفي. وفي اليوم التالي كان الفريق الآخر يلتقط لانزديل في المكان الذي تركه فيه الفريق الأول.. وهكذا. استغرقت هذه العملية أسبوعين استخدمنا خلالها الزوجات والمتطوعين من المكتب لدعم شعبة«واتشرز» بحيث لا نستخدم الوجه إلا مرة واحدة. وأخيراً وصلنا إلى المكان الذي ينام فيه لانزديل في

٤٥ كرانلي غاردنر غربي لندن. واتضح لنا بأن لانزديل كان يقيم في بيت صغير مع زوجين هما بيتر وهيلين كروجر وهما من نيوزلندا ويديران مكتبة متخصصة في بيع الكتب القديمة. وقمنا بوضع مركز مراقبة ثابت في البيت المقابل، وأخذنا ننتظر، دون أن نشعر أيًّا من الثلاثة بوجودنا.

وفي منتصف تشرين الثاني عاد لانزديل إلى شقته وأخذ حقيبته من بنك ميدلاند. وقمنا فوراً بتحضير فني من قيادة الاتصالات الحكومية هو آرثر سبنسر، ليدخل إلى الشقة المجاورة ويبدأ عملية «رافتر». لم يخرج سبنسر من الشقة الضيقة لمدة ثلاثة أشهر إلا لماماً. وقمنا بزرع جهاز رصد لاسلكي على المزود الرئيسي بالطاقة لمستقبل لانزديل متصل بجهاز طنان صامت يضعه سبنسر على أذنيه، حتى فيما لو استخدم لانزديل المستقبل أثناء الليل، فإن الجهاز الطنان سينبه سبنسر. وكلما صدر صوت عن الجهاز الطنان قام سبنسر بالبحث عن طريق جهاز «رافتر» حتى يجد الذبذبة التي يستمع إليها لانزديل. ثم يقوم بإبلاغ قيادة الاتصالات الحكومية في بالمرستريت، التي تحول الإشارة إلى تشيلتنهام. وهناك يقوم محللو الإشارة بتحليل الرسالة باستخدام نسختنا من لبادة لانزديل، ثم يتم تحويلها إلي أنا وآرثر في مبنى ليكون فيلد عن طريق شيفرة خاصة بالتلكس.

لم يستطع بيل كولينز محلل الشيفرة، أن يحلل الرسالة الأولى التي إستلمها لانزديل، فلم يكن مع الرسالة أية مجموعة إشارات. وهي مجموعة مرافقة للبادة وتكون صحيحة وليست رمزية. حيث يقوم المتلقي باستخدام هذه المجموعة ليضع الرسالة على اللبادة في المكان الصحيح، فتتحول إلى شيفرة. (بعد اعتقال لانزديل اكتشفنا بأن هذه المجموعة كانت رمزية، وبأنه كان يستخدم تاريخ ميلاده الحقيقي لهذا الغرض).

بدأت أنا وآرثر نتساءل فيما إذا كان لانزديل أدرك بأن اللبادة التي بحوزته تم خرقها، وأنه يستخدم الآن مجموعة جديدة أحضرها معه من الخارج. لم يكن أمامنا أي طريقة أخرى سوى أن نقوم بالسطو على شقته مرة ثانية، ونفتح الولاعة لنرى فيما إذا استخدم اللبادات التي بداخلها. ذهبت أنا وويتربورن ذات يوم إلى شقته في وقت ذهب فيه هو إلى سفولك لمتابعة شؤونه هناك. كانت في الواقع غرفة صغيرة جداً، يتطلب العيش فيها جلداً كبيراً، وبالكاد تتسع للسرير. وعندما فتحنا الولاعة وجدنا اللبادات فيها، كما أن بعض الرقائق تم استخدامها. وعندما أمعنت النظر أدركت بأن لانزديل كان يستخدم خطوطاً متعددة أكثر من المطلوب لتحويل الرسالة التي يتلقاها من موسكو إلى شيفرة. وعند أخذ الخطوط الزائدة بعين الاعتبار عند تجاوز الرسالة اللبادة فإنه يمكن قراءة الرسالة بشكل مرض.

وهكذا كنا نقرأ لمدة شهرين بنجاح كامل رسائل لانزديل القادمة من موسكو مرتين في الأسبوع. وكلها تتعلق «بالشاه» وهو الاسم الرمزي في ال ك ج ب لهاوتن. وكان لانزديل يتلقى تعليمات محددة عن كيفية التعامل مع هاوتن وأية أسئلة يسأله، وأية وثائق يحصل عليها من بورتلاند. أما بقية الرسائل فقد كانت شخصية تحتوي على أخبار عائلية عن زوجته وأطفاله في روسيا. كانوا يريدون عودته بعد خمس سنوات من العمل السري.

وفي يوم الاثنين، ٢ كانون الثاني، ترأس هوليس اجتماعاً لبحث القضية برمتها. وقال آرثر بأنه يفضل أن نترك القضية لتستمر. فقد كان يشعر غريزياً بأنه كان عميلاً لاشرعياً ثميناً لا يمكن أن يدير فقط جاسوساً واحداً، هاوتن. فنحن لا نعرف إلا القليل عن عائلة كروجر ويبتم في ٤٥ كرانلي غاردنز. بالإضافة إلى حقيقة أنه بعد إقامة لانزديل بفترة قصيرة عندهم، تم وضع خزانات حديدية من نوع كب، كما تم تصليح أقفال الشبابيك بما فيها مدخل السطح. وبالاستناد إلى كل ما نعرفه، فإن لانزديل لا بد أن يكون عضواً في شبكة واسعة. وقمت أنا وفيرنيفال جونز بدعم وجهة نظر آرثر. ووافق هوليس على الاتصال بالبحرية (التي كان هاوتن يخون أسرارها) ليطلب تصريحاً بترك هاوتن دون إزعاج لمدة ثلاثة أشهر أخرى. ووافقت البحرية. وقرر آرثر تخفيض عنصر المخاطرة إلى الصفر بمتابعة القضية بدون أي شكل من أشكال المراقبة، والاعتماد فقط على اعتراض الرسائل القادمة إلى لانزديل لتقودنا إلى جواسيس آخرين إن وجدوا.

بعد يومين حدث ما أجهض خطتنا. فقد تسلم هوليس رسالة مختومة من كليف كرام، ضابط الاتصال في السي آي أي المعين في السفارة الأمريكية في لندن والمكلف بالاتصال بأم آي ٥. وقد حذرت الرسالة أم آي ٥ من أن سنايبر قد أبلغ السي آي ايه بنيته الهرب إلى الولايات المتحدة في اليوم التالي ٥ كانون ثاني. وهكذا اجتمعنا مرة أخرى في مكتب هوليس، ولم يكن أمامنا إلا طريق واحد: إذا أن هاوتن، ولانزديل وعائلة كروجر كلهم سيختفون بعد عملية الهرب. ولذلك لا بد من اعتقالهم قبل أن يسحبهم الروس. ولحسن الحظ، كان هاوتن على وشك القيام بلقائه مع لانزديل في يوم السبت ٧ كانون ثاني، كما أننا علمنا بأن لانزديل سيستلم رسالته من موسكو في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، الأمر الذي يمكننا من معرفة فيما إذا أرسلت له موسكو تحذيراً أم لا.

كانت عملية الاعتقال شاقة ورهيبة، بحيث أنني لم أنم طوال ثلاث ليالٍ. ذهب تشارلز إلويل الضابط المسؤول عن قضية هاوتن إلى بورتلاند على استعداد لتفتيش مكان هاوتن في حالة إعطائه الإشارة بأن عملية الاعتقال تمت بنجاح. أما بيل كولينز فقد تمركز في بالمرستريت، استعداداً لحل شيفرة رسالة لانزديل فوراً حال استلامها. أما رجال الشعبة

الخاصة فقد وضعوا على أهبة الاستعداد خارج شقة لانزديل لاعتقاله الفوري إذا ما طلب منه في الرسالة القادمة من موسكو الانسحـــاب.

في مســاء يوم الجمعة كنت أنا وآرثر في الطابق الثالث في غرفة العمليات بمبنى ليكون فيلد، جاهزين لمناوبة ليلية. كانت مكتباً صغيراً ومطليه بـاللون البني. إنها أشبـه ما تكـون بزنزانة في سجن. كان هناك سرير حـديدي، وطاولةٌ صغيرة في الوسط، وكـابلات الأسـلاك الثخينة تملأ الأرض. وكان عندنا تلفونات للاتصال المباشر مع قيادة الاتصالات الحكومية، والمدير العام. كما كان عندنا مستقبل صغير يحول إلينا كل صوت داخل شقة لانزديل.

جلس آرثر فوق الطاولة وهو يدخن. أما هيو وينتربورن فقد كان متـوتراً ومنفعـلاً ولم يتحدث إلّا قليلاً وكان فيرنيفال جونز معنا أيضاً يتمدد على السرير ويعبث بشيـال البنطلون. ورغم أنه كان رئيس الشعبة د، فقد كان يشعر بولاء كبير للمهنة، وصمم أن يشاركنا. حتى انه كان يذهب إلى الحانة القريبة ليشتري لنا الساندويشات. شربنا الويسكي في تلك الساعات القليلة في حين امتلأت المنافض بأعقاب السجائر.

استمعنـا إلى عودة لانزديل في وقت متأخر وكانت معه فتاة. وقمت بقطع الصوت أثناء تبادلهما أحاديث الحب التي تصل إلينا. وعندما هدأ كل شيء في الشقة سألت آرثر كم سنة يعتقد بأن لانزديل سيبقى في السجن.

«١٥ سنة على الأقل».

بـدا وينتربورن منزعجاً. فقد كان رجلاً متديناً ولم يجد ما يفرح في فكرة تحطيم حياة إنسان. أما أنا فملأت كأسي من جديد.

وقلت: «لا أستطيع إلا أن أفكر بزوجته وأطفاله». وعرفوا ماذا أقصد. فقد قرأوا رسائل لانزديل مثلما قرأتها أنا: الحديث عن البيت، مشاكل العائلة، أعياد الميلاد، والأطفال الذين يفتقدون أباهم. ولانزديل رغم كل الحرفية في عمله كان جاسوساً إنسانـاً، مثل أي رجل آخر يعمل خارج وطنه. يشعر بالحنين إلى الوطن. ويبحث عن العزاء في صحبة نساء غريبات.

«إنه ليس خائناً. ليس مثل هاوتن. فهو يقوم بواجبه، مثلنا».

«كفى!» قال فيرنيفال جونز بغضب وهو ينهض بقوة عن السرير. «لقد اختار هذا العمل وعيناه مفتوحتان. كان بإمكانه أن يكون دبلوماسياً. كما أنه يعرف ما هي المخاطر التي أمامه. إنه يستحق كل ما يجري له».

وبقيتُ أنا صامتاً. ولكن الفكرة كانت في داخلنا جميعاً. فلقد عانينا الكثير من لانزديل في الشهرين الماضيين.

وعند الصباح أيقظ لانزديل الفتاة وأقنعها بمغادرة البيت. وقال لها بأن لديه عملاً مهماً يجب أن يقوم به، وكان هذا صحيحاً بطريقة أو بأخرى. وعندما ذهبت سمعناه وهو يجهز مجموعة الاستقبال واللبادة لكي يتلقى الرسالة من موسكو. ولعلع الجهاز عدة دقائق، ثم بدأ لانزديل بحل الشيفرة. وعرفنا بأنه لم يكن هناك أي تحذير من طريقة تصرفه بعد ذلك إذ دخل إلى الحمام وهو يغني باللغة الروسية. وبعد دقائق رن جرس التلفون الأخضر، وأبلغنا بيل كولينز بنص الرسالة. كانت تقريراً عادياً: مزيد من الحديث عن العائلة وأخبار من الوطن. ولم يكن هناك أي تحذير.

كانت التعليمات للشعبة الخاصة تقضي بإلقاء القبض على لانزديل عندما يتسلم الطرد من هاوتن بعد ظهر ذلك اليوم. وفي الخامسة رن جرس تلفون الشعبة الخاصة.

«لقد تم تنفيذ آخر فصل!» آخر فصل كان الاسم الرمزي للانزديل. وكانت مراسم سجنه على وشك أن تبدأ.

ذهب هيو وينتربورن فوراً إلى شقة لانزديل للتفتيش، بينما بقيت أنا وآرثر ننتظر الأنباء عن اعتقال عائلة كروجر. وفي السابعة ذهبنا بالسيارة إلى منطقة روزليب. ورغم التعب إلا أننا كنا سعداء. وعندما وصلنا إلى كرانلي غاردنز وجدنا البيت في فوضى كاملة. وحاولت ضبط الأمور ولكن بلا فائدة. واحتج آرثر على شرطي استولى على حقيبة بلاستيكية فيها مواد كيماوية. ولكن لا حياة لمن تنادي.

«آسف يا سيدي، أعتقد أنها دليل مهم، القضية الآن أصبحت جنائية، وإذا أردت أن ترى ما فيها فيجب أن يتم ذلك عبر القنوات...».

وكان يقود عملية الشرطة جورج سميث، رئيس المخبرين في الشعبة الخاصة، وهو رجل معروف في داخل أم آي ٥ بقدراته الذاتية التي ساهمت في ترقيته. وقد أكدنا له قبل الاعتقال بأننا بحاجة إلى ٤٨ ساعة تعتيم كامل على أية أخبار تتعلق بالاعتقالات، بحيث نتمكن من الاستماع إلى آخر بث من موسكو. ولكن لم تمض سوى ساعات قليلة حتى كان الخبر قد انتشر في فليت ستريت مؤكداً القضاء على شبكة تجسس كبيرة. كما قام سميث باختيار عدد من الصحافين ليطلعهم على الدور الكبير الذي ادعاه لنفسه في هذه العملية. ولذلك لم نستلم أي بث من موسكو.

ورغم التفتيش العشوائي الذي قامت به الشرطة فقد بدا واضحاً أن الشقة كانت تحتوي

على كميات كبيرة من أدوات التجسس. كان هناك مجموعتان من لبادات الشيفرة مخبأة في ولاعة سجائر مثل تلك التي كانت بحوزة لانزديل. كما وجدنا مخططات إشارة لثلاثة أنواع من البث من موسكو، ومواد للكتابة السرية، ولاستخدام النقاط الصغيرة عن طريق حامض الكروم والسيلوتيب. وكانت السيدة كروجرز قد حاولت التخلص من محتويات حقيبة يدها عن طريق إتلافها في الحمام، إلا أن إحدى الشرطيات أدركتها في الوقت المناسب، لنكتشف تفاصيل عن لقاءات مع عدد من الجواسيس. أما أكثر المضبوطات إثارة للاهتمام فقد كان مخطط إشارة للبث السريع من موسكو. حيث وجدنا في إحدى أواني الطبخ زجاجة تحتوي على أوكسيد الحديد الممغنط يستخدم لطباعة الإشارات القادمة عبر البث السريع على شريط خاص بحيث تسهل قراءة الرسالة دون الحاجة إلى تحويلها على جهاز تسجيل معقد وتشغيله ببطء. لقد كان هذا مفاجأة جديدة لنا وعرفنا بأنه السبب وراء فشلنا في رصد أي بث إلى بيت عائلة كروجر في الأشهر السابقة للاعتقال.

وما أن انتهت الشرطة من التفتيش وبدأت في إخلاء البيت مع حلول الليل، حتى سنحت لنا فرصة التفتيش في الحطام الذي تركوه وراءهم، تحت رقابة شرطيين شابين. واستمر تفتيشنا للبيت تسعة أيام. ولم نستطع تحديد موقع جهاز البث إلا في اليوم الأخير. فقد كان مخبأ في حفرة صغيرة في أرضية المطبخ مع أدوات أخرى. وكانت كل هذه الموجودات محفوظة بعناية في طرود مقاومة للرطوبة، الأمر الذي أوحى إلينا بأنها كانت مخزونة لتبقى فترة طويلة من الزمن.

وفي يوم الأربعاء اللاحق، دعا هوليس الجميع إلى مكتبه وهنأنا على هذا الانتصار. فقد واجه فريق الشعبة د الجديد بقيادة مارتن فيرنيفال جونز وآرثر مارتن أصعب امتحان بنجاح، واستطاع أن يتفوق على الروس لأول مرة منذ قضاء ماكسويل نايت على شبكة ترسانة وولوتش عام ١٩٣٨. وقد كان مفتاح النجاح في قضية لانزديل، وإنجازات «إنغولف» و «ستوكيد»، يكمن في التقنيات الجديدة التي عملت على تطويرها بالتعاون مع قيادة الاتصالات الحكومية، ومؤسسة أبحاث الأسلحة النووية. فقد مكننا «رافتر» وأشعة أكس، ونسخ رموز اللبادات من إدارة العملية من موقع قوة. وكنت أشعر بالفخر والاعتزاز لالقاء القبض على الشبكة، فلأول مرة ألعب دوراً رئيسياً في قضية مكافحة تجسس، وقد وضعت أمام إدارة أم آي ٥ الإمكانات المتوفرة. ونتيجة لذلك، تم الاعتراف بعظم حجم العمل الملقى على عاتق لجنة الرادار، وقسمت إلى وحدتين منفصلتين. وحدة الأسرار وتتولى كافة العمليات السرية ضد الشيفرات في الداخل والخارج. ووحدة الأسرار المضادة، وتتولى كافة الجوانب المتعلقة بمكافحة التجسس في عمل اللجنة مثل، «رافتر».

طلب مني هوليس تقديم تقرير مفصل عن دور التقنيات الجديدة في عملية لانزديل، مع التأكيد على أهمية هذا الأسلوب في آخر عمليات مكافحة التجسس في المستقبل. وبدأت كتابة تقريري بزيارة إلى المحكمة لحضور محاكمة لانزديل وعائلة كروجر وهاوتن وغاي. وكان الأخيران شاحبين يتطلعان بوجوم من وراء الحاجز.

أما لانزديل وعائلة كروجر فلم يظهروا أي تأثر بالمحاكمة. فقد كان آل كروجر يتهامسان ويتبادلان الملاحظات من حين لآخر. في حين بقي لانزديل صامتاً حتى النهاية، عندما أعلن للمحكمة بأن آل كروجر لم يعرفا أي شيء عن نشاطه. وبعد وقت قصير تم التعرف على آل كروجر من قبل الأمريكيين فقد كانا موريس ولونا كوهين، المطلوبان للأف بي آي لعلاقتهما بقضية روزنبرغ للتجسس النووي. ولم يكن هذا الأمر مفاجأة لي، فقبل عدة أشهر من الاعتقال قابلت ال بيلمونت من الأف بي آي في واشنطن وأطلعته على التقدم الذي أحرزناه في القضية. وقد أبدى شكه عندها في أن يكون آل كروجرز هما آل كوهين. ولكنني لم آخذ قوله على محمل الجد كما لم أستطع أن أتأكد من المسألة. أما شخصية لانزديل فقد كانت أكثر غرابة. فقد حددنا هويته قبل سنة من الاعتقال. فهو كونان تروفيموفيتش مولودي، ابن أحد كبار العلماء السوفيات المشهورين. كما أنه ضابط ك ج ب ذو خبرة واسعة، كان قد تقمص عام ١٩٥٥ هوية جوردون لانزديل الكندي وهو رجل فنلندي الأصل ومتوفٍ منذ زمن بعيد.

بدأت تحليلي لقضية لانزديل بالطلب من قيادة الاتصالات الحكومية تزويدي بملفات قضايا تجسس سوفياتية مشابهة لقضية لانزديل، والتي استخدم فيها البث السري. قدموا لي مجموعة من الأوراق بلغت في أقصاها مئة ورقة، تضمنت أولاً تفاصيل عن العميل المشار إليه ـ متى بدأ ومتى انتهى، وماذا كانت أهدافه، ولأي جهة كان يعمل، وهكذا. كما تضمنت كذلك تلخيصاً مفصلاً لمخططات الإشارة التي يستخدمها العميل، وقائمة بالرسائل التي استلمها من الاتحاد السوفياتي عن طريق البث، بما فيه عدد الرسائل ونوعيتها، وأنظمة الشيفرة المستخدمة وأوقات تغييرها.

صنفت المعلومات إلى صنفين: الصنف الأول مصدره الـ ك ج ب والثاني المخابرات العسكرية. ثم صنفت العلماء حسب نوعهم: العملي الذي يعمل بمفرده، العميل قليل التحركات، عملاء غير شرعيين يتابعون أكثر من مصدر، ومقيمين بصفة غير شرعية ويديرون غيرهم، وهكذا. ودهشت إذا اكتشفت بأن التغير في طريقة البث يعكس نوع العميل. فمثلاً، إذا ما نظرنا إلى أنماط العمليات اللاسلكية، مثل نوع الإشارات المستخدمة، فإن بإمكاننا أن نعرف فيما إذا كان الجاسوس تابعاً لـ ك ج ب أو المخابرات العسكرية. وإذا ما حللنا بنفس الطريقة عدد الرسائل وطولها، كان بالإمكان معرفة أي نوع من الجواسيس

يتلقى هذه الرسالة. مثلاً، فالجاسوس قليل التحركات يتلقى رسائل قليلة جداً والجاسوس الذي يعمل بمفرده لحساب المخابرات العسكرية يتلقى نفس العدد من الرسائل أما الجاسوس الذي يعمل بمفرده لحساب الـ ك ج ب فإنه يتلقى عدداً كبيراً من الرسائل كما أن عميل الـ ك. ج. ب - المقيم بصفة غير شرعية، وهو الأهم، فيتلقى أكبر عدد من الرسائل ويتراوح عددها من ٥٠٠ - ١٠٠٠ رسالة في الشهر.

وبدأت أدرك بأن قضية لانزديل تختلف تماماً عن أية قضية أخرى من مئات القضايا التي درستها. إذ لم يكن هناك أي قضية تتعدد فيها أشكال الاتصال مثل هذه القضية. هناك قضايا يستخدم فيها شكلان أو ثلاثة لا أكثر. وهنا لا يوجد سوى جاسوس واحد - هاوتن - يقوم على خدمته كل جهاز لانزديل و آل كروجر. لا شك أنه كان جاسوساً مهماً، إذ كان يطلع على تفاصيل حيوية في أنظمة كشف الغواصات، الأمريكية والبريطانية. ولكن ما الداعي لوجود آل كروجر؟ ولماذا لم يكتفوا بلانزديل لإدارته؟.

وحتى من الوهلة الأولى بدا أنه لا بد أن يكون هناك جواسيس آخرون متورطون في الشبكة. كان موقع آل كروجر في روزليب، قرب منشاءآت قاعدة جوية أمريكية، أما لانزديل فقد كان، كما اكتشفنا فيما بعد، قد درس في جامعة للدراسات الشرقية، ضمن منهج دراسي يعطى للضباط العسكريين البريطانيين والمتدربين في أم آي ٦.

لا بد أن يكون لانزديل هو الجاسوس غير الشرعي المقيم في بريطانيا. وقد قمت بدراسة جدول لكامل الاتصالات التي استلمها من موسكو بعد عودته إلى بريطانيا في تشرين الأول. كان معدل رسائله بين ٣٠٠ - ٣٥٠ في الشهر. ولكن المعدل في كافة القضايا الأخرى بالنسبة للمقيم هو بين ٥٠٠ - ١٠٠٠، وعادة ما تكون نحو الرقم الأعلى. إذن أين كانت رسائل لانزديل المفقودة؟ كان لانزديل يتلقى الرسائل بإشارة لها ثلاثة أشكال، منها شكل ١ إذا كان البث يحمل رسالة، وحذف الشكل ١ إذا كانت تدفقاً صامتاً. وطلبت من قيادة الاتصالات الحكومية فيما إذا كان بإمكانهم الحصول على أية رسالة تشابه من حيث طولها تلك الرسائل التي استلمها لانزديل بعد تشرين أول، في الفترة التي تسبق سفره في شهر آب. وبعد جهد جهيد وجدت قيادة الاتصالات الحكومية ما يدعى «ملحق» يعود تاريخه إلى ست سنوات، أي تقريباً في بداية دخول لانزديل إلى بريطانيا.

كان معدل عدد هذا الملحق في الوضع الصحيح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ في الشهر، ثم توقف فجأة في آب ١٩٦٠ في نفس الوقت الذي عاد فيه لانزديل إلى موسكو. وبالطبع ما كان لنا أن نستطيع قراءة أي من الرسائل بدون اللبادات. ولكن إذا كانت هذه هي رسائل لانزديل، كما بدا لنا، فالسؤال هو: لماذا تقلص عدد الرسائل فجأة بعد عودته؟

وأخذت أبحث في اتصالات آل كروجر. وقد كانت أكثر غموضاً. فقد كانت معظم اتصالاتهما لاستخدامهما الخاص. كما تبين بأنهما لا يديران أي جاسوس على الاطلاق. بل كانت مهمتها تقديم الدعم للانزديل. غير أنه بدا واضحاً بأن بعض هذه الاتصالات كانت مخزونة عندهم لصالح لانزديل. فاللبادات التي وجدناها في ولاعة سجائر مشابهة لتلك التي بحوزة لانزديل، كانت بالتأكيد له هو. قمت بعد الرسائل على اللبادات، فوجدت مجموعها يعادل تلك المفقودة من رسائل لانزديل بعد عودته في تشرين أول. ويبدو أن الروس قد فصلوا رسائل لانزديل بعد عودته تاركين «الشاه»، هاوتن على القناة التي نستطيع قراءتها، ووضعوا الرسائل الأخرى، والتي من المحتمل أنها كانت تتعلق بجواسيس آخرين، على قناة آمنة عند آل كروجر، واستخدام جهاز البث السريع، الذي لم يكن باستطاعتنا كشفه، لإرسال الرسائل التي يحتاجها.

إن هذا التغيير في نهج الإرسال يوحي بأن لانزديل كان يعرف، بطريقة أو بأخرى، بأن الرسائل التي كان يتسلمها من موسكو في شقته باستخدام اللبادات في الولاعة، معرضة للخطر ولكن إذا كان يخشى تعرض الرسائل للخطر فلماذا لم يستخدم لبادات جديدة؟ وإذا كان الروس يخشون تعرضه للخطر، فلماذا أعيد إلى بريطانيا أصلاً؟

وبدأت أحلل نتائج الأحداث طوال العطلة الأسبوعية التي جرى فيها الاعتقال. كنت قد رتَّبت تغطية مستمرة لأجهزة البث الدبلوماسية في السفارة الروسية منذ يوم الجمعة قبل الاعتقال حتى منتصف يوم الاثنين. كان آخر بث للسفارة الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت، أي قبل الاعتقال. أما البث التالي فقد كان في التاسعة من صباح يوم الاثنين. إذن، فالسوفيات لم يقوموا بأي اتصال مع موسكو رغم القضاء على شبكة تجسس رئيسية. الأمر الذي لا يمكن تصديقه إلا إذا كان الروس على علم بالعملية، بالطبع.

قمت بالتدقيق في معلوماتنا عن تحركات ضباط المخابرات السوفيات المعروفين في لندن أثناء العطلة الأسبوعية. وفي مساء يوم الأحد، كان عميل ك ج ب غير شرعي ومقيم واسمه كوروفين يتناول طعام العشاء مع كارتيلوف الذي كان نائب المقيم الشرعي لِـ ك ج ب، في الوقت الذي كان فيه التلفزيون يبث نبأ الاعتقال. قمنا بالتقاط كل كلمة تحدثوها بواسطة الميكروفون الحسّاس، وسمعناهم يصغون للأنباء، ولكنهم لم يدلوا بأي تعليق كما لم يكلفوا أنفسهم عناء الاتصال بالسفارة.

أعدت الاطلاع على القضية من بدايتها، لاكتشف بما لا يدع مجالاً للشك الدليل الذي أقنعني بأن القضية سربت إلى الروس. ففي البداية كانت القضية بيد الشعبة د D ٢ عندما

اعتقدنا بأن لانزديل بولندي. وعند مراجعة التسجيلات اكتشفت بأن الشعبة د ٢ D 2 لم تكن تعلم بشيء عن «رافتر». ولم يعلموا عن حقيقة أن الروس يستمعون إلى أجهزة اللاسلكي التابعة لشعبة «واتشرز»، ولهذا كانوا يستخدمون هذه الأجهزة في السبع عشرة مرة التي لاحقوا فيها لانزديل في تموز وآب، قبل أن يتسلم آرثر القضية.

كان قد تم تسجيل كافة اتصالات شعبة «واتشرز» والاحتفاظ بها في أم آي ٥، منذ بداية «ليونزبيرد»، لذا نظمت الاختبار التالي: أعطيت إيفلين ماك بارنيت، التي كانت تعمل باحثة مع آرثر، الشريط المسجل عليه اتصالات شعبة «واتشرز» أثناء اليوم الذي قامت به الشعبة د٢ بملاحقة لانزديل إلى البنك لأول مرة. كما أعطيتها خارطة لندن، كتلك التي يستخدمها الشعبة، وطلبت منها أن تحدد الطريق الذي تعتقد بأن مراقبي الشعبة قد سلكوه، بالاعتماد فقط على استماعهم للاتصالات اللاسلكية. ولم تكن إيفلين خبيرة في تحليل الاتصالات كما لم يكن لديها إطلاع مسبق على القضية. ولكنها استطاعت أن تعيد تركيب التحركات بدقة خلال ثلاث ساعات ونصف. فإذا كانت إيفلين تستطيع أن تفعل ذلك، فكيف لا يستطيع الروس ذلك وهم يحللون اتصالات الشعبة منذ سنين. لا بد أنهم كانوا يعرفون من البداية بأننا نطوق لانزديل.

وفي الوقت الذي كنت أكتب فيه تقريري، وصل سنايبر بسلام إلى واشنطن وأقام في شقة آمنة للسي آي أي. وأعلن عن نفسه بأنه ضابط في المخابرات البولندية واسمه ميخائيل غولينيفسكي. وكان هناك شيء عاصف في تفاصيل روايته يشير إلى ذلك الخيط الغامض في قضية لانزديل. فقد أخبر السي آي أي، بأن ضابطاً عالي الرتبة في المخابرات البولندية أخبره في الأسبوع الأخير من شهر تموز بأن الروس يعلمون بوجود «خنزير»، جاسوس في المنظمة. وأضاف غولينيفسكي بأنه عين نائباً لرئيس فريق البحث عن هذا الجاسوس. وما أن جاء عيد الميلاد حتى عرف غولسينيفسكي بأنه وقع في دائرة الشك، فهرب فوراً.

«الأسبوع الأخير في شهر تموز!» كانت هذه الجملة تبحلق فيَّ وأنا أقرأ استجواب السي آي أي لغولينيفسكي. إنها ليست جملة بريئة. وعدت للتدقيق من جديد. لقد رأينا لانزديل لأول مرة وهو يقابل هاوتن في الثاني من تموز. وتأكدنا من شخصيته الحقيقية في الحادي عشر منه. وبدأنا بملاحقته في السابع عشر منه. بقي أسبوع واحد لتتسرب فيه الأنباء إلى الروس. ويوم واحد لتصل إلى المخابرات البولندية. إذن فهذا يقودنا إلى الأسبوع الأخير في شهر تموز.

كان تقريري عن قضية لانزديل أكثر الوثائق التي أكتبها إيلاماً. فقد تحول انتصاري إلى رماد أمام عيني. وما زلت أذكر الإبحار في مصب «بلاك ووتر» قرب بيتي في ايسكس،

قبل تسليم التقرير، في آيار ١٩٦١. كانت الغيوم تتراكض عبر الأفق، والريح تملأ رئتي وتطرد من ذهني كل توتر واضطراب. وأينما توجهت بالقارب، ومع كل ضربة مجداف كنت أصل دائماً لنفس الاستنتاج. عرف الروس بأننا سنطبق على لانزديل فسحبوه، ثم أعادوه. لماذا؟

لم يكن هناك سوى تفسير واحد يغطي كافة الثغرات في القضية وهو: التسرب. فإذا كان للروس مصدر داخل أم آي ٥، كان لفت انتباههم إلى وجود سنايبر، الأمر الذي قد يفسر الضغط على غولسينيفسكي منذ الأسبوع الأخير من شهر تموز، بالرغم من أن الروس لم يكن بإمكانهم سوى التكهن بشخصية سنايبر الحقيقة مثلنا. إذن حالما علموا بأن لانزديل قد انكشف، قاموا فوراً باستدعائه إلى موسكو. ولكن عندما غيرت إدارة معلومات «ليونز بيرد»، وبدأ فيرنيفال جونز تحقيقاته، فإن المصدر سيتصل مع الروس بفزع. وعندها بالضبط وجد الروس أنفسهم أمام اختيار بسيط، فأما التضحية بلانزديل أم بالمصدر داخل أم آي ٥. وافضل طريقة لإحباط عملية صيد المصدر داخل أم آي ٥ هي إعادة لانزديل، على أمل حصوله على آخر المعلومات من هاوتن قبل الإطباق على هذه الشبكة. وقبل إعادة لانزديل، قام الروس بالاحتياط اللازم، فربطوا الجواسيس الآخرين إلى وسائل اتصال آمنة بديلة عن طريق آل كروجر. وإذا كانت المسألة بالشكل الذي أراه الآن فقد أخطأ الروس في تقديرهم للشعبة د الجديدة التي كانوا يواجهونها. فرغم تفوق الروس استطعنا التغلب عليهم واعتقال آل كروجر اللذين كانا جزءاً مهماً من الفريق التجسسي السوفياتي. أما بالنسبة للمصدر داخل أم آي ٥، فإنه يمكن أن يكون واحداً من بين عشرة أشخاص في قمة العمل في أم آي ٥. فهو ليس مصدراً خارجياً أو من شعبة «واتشرز». فالروس لن يضحوا مطلقاً بجاسوس ثمين جداً مثل لانزديل مقابل مصدر من مستوى متدنٍ. كان الدليل على التدخل المستمر في قضية لانزديل يشير دوماً إلى مستوىً أعلى - إلى قمة المنظمة.

قدمت تقريري إلى فيرنيفال في آيار ١٩٦١. وقام برفعه إلى نائب المدير العام، غراهام ميتشيل، مع ملاحظة صغيرة تقول: «سأحمل في ذهني عند قراءة هذا التقرير، بأن قضية لانزديل كانت انتصاراً شخصياً لبيتر رايت».

مضت عدة أشهر ولم أسمع شيئاً. وحضرت عشرات الاجتماعات مع هوليس وميتشيل تتعلق بقضايا أخرى، وكنت أتوقع أن يدعواني لبحث رأيي الوارد في التقرير ولو على أنه فرضية مزعجة! ولكن لم أتلق منهما أي شيء، لا رسالة، ولا تهديد ولا حتى محادثة عرضية. بدا الأمر وكأن تقريري لم يكن له وجود. إلى أن دعاني هوليس إلى مكتبه في تشرين الأول. كان يجلس إلى مكتبه وإلى جانبه ميتشيل. قال هوليس:

«سيقوم غراهام بالنقاش».

ولمست أصابعه تقريري بقرف واضح. وتطلعت بوجه ميتشيل الذي بدأ يتعرق ولم ينظر إلى عيني. وقال:

«لقد قرأت تحليلك عن قضية لانزديل، وأود أن أقول ان الكثير منه لم يقنعني. فالتجسس، من خلال خبرتي، عمل بسيط...».

وقاطعته فوراً:

«يسرني يا سيدي أن أوضح كافة النقاط الشاذة التي ضمنتها تقريري، إذا كان في هذا الأمر ما يساعد. وأنا أعرف أنه من الصعب التعبير عن القضايا التقنية في اللغة».

استمر ميتشيل في كلامه وكأنني لم أقاطعه:

«الحقيقة البسيطة هي أننا اعتقلنا وأبدنا ثلاثة جواسيس روس محترفين ـ وهؤلاء هم أول مواطنين روس يقدمون للمحاكمة عندنا منذ أجيال عديدة. كما اعتقلنا جاسوسين خطيرين في أهم مؤسسة أبحاث تحت الماء في البلاد. وبكل المقاييس فهذا نجاح كبير. فما هي الفائدة التي يسعى الروس إلى كسبها من أجل أن نفعل هذا؟!».

وبدأت أبرز بعض النقاط من تقريري لأكشف غموضها، وأنا أحاول الا أشير إلى أي استنتاج. ولكن ميتشيل كان يهاجم كل نقطة أطرحها. كيف عرفت؟ كيف لي أن أتأكد؟ حادثة البنك قد تكون مصادفة. ربما لم يعرف الروس بأننا نلاحق لانزديل، حتى ولو كانوا يستمعون إلى اتصالات شعبة «واتشرز».

قال:

«إنهم ليسوا آلهة... يا بيتر!».

ثم بدأت أتحدث عن التغيير في عمليات الاتصالات. ولكن ميتشيل رفض البحث فيها قائلاً بأنه ليس رجل إحصاءات. وأضاف:

«أنت تقول بأنه يوجد جواسيس آخرين، تعتقد أن الروس أعادوا لانزويل متعمدين. ولكن ليس لديك دليل على ذلك يا بيتر. ببساطة هكذا جرت الأمور!».

فأجبته فوراً:

«ولكن ليس لديك دليل، يا سيدي، بأن الأمور جرت هكذا. كلانا يطرح فرضية».

وقاطعنا هوليس:

«آه أجل. ولكن لدينا الثلاثة في السجن».

فقلت:

«وكم سيبقون في السجن يا سيدي؟ لقد كنا نواجه هذه المشكلة باستمرار منذ تيسلر، وفي كل مرة نهملها تعاود الظهور..».

فأجابني هوليس:

«لقد بحثت القضية أنا والنائب بعناية كاملة، وأعتقد أنك تعرف شعوري حول هذه النقطة».

فسألته:

«هل أفهم من ذلك أنه لن يكون هناك مزيد من التحقيقات؟».

«أجل، هذا صحيح، وسأكون شاكراً جداً لك إذا ما اعتبرت هذه المسألة سرية جداً». لقد أربكت المنظمة بما فيه الكفاية من وراء هذه القضية، كما أربكت أنت، يا بيتر، ولا أود أن أرى تراجعاً في التقدم الذي حققناه، بسبب تخمينات ضارة».

وابتسم لي هوليس. وأخذ يشحذ قلم الرصاص. فوقفت فجأة، وخرجت من الغرفة.

الفصل الحادي عشر

رغم الشكوك السرية التي كانت تراود الضباط داخل أم آي ٥ حول قضية لانزديل، كانت العملية موضع إشادة على أنها انتصار كبير داخل دوائر المخابرات الأمريكية. إذ لم يسبق أن تم ضبط شبكة جواسيس غير شرعيين وهم يعملون مباشرة، كما أبدت واشنطن اهتماماً كبيراً بعمل لجنة عمليات الرادار التي قامت بعملية التنسيق بين مختلف التقنيات.

وكانت وكالة الأمن القومي الأمريكية قد أصبحت على إطلاع على عمل لجنة عمليات الرادار، عن طريق قيادة الاتصالات الحكومية، وتحسد القيادة على علاقاتها السرية مع المنظمتين الشقيقتين أم آي ٥ وأم آي ٦. فإذا كانت الأمور سيئة في بريطانيا، فإنها في واشنطن أكثر سوءاً. فقد رفض هوفر بعناد وإصرار تأسيس السي آي أي بعد الحرب، وحافظ على عدائه لها طوال فترة الخمسينات. كما أن رجال السي آي أي، التي كان معظم كبار الضباط فيها خريجي «أيفي ليغ»، كانوا يعاملون رجال شرطة المباحث بازدراء وصلف. وكانت السياسة الوحيدة التي تجمع السي آي أي مع أف بي آي هي التصميم المشترك على إحباط وكالة الأمن القوي كلما كان ذلك ممكناً. كان الطرفان يعتقدان بأن الوكالة منظمة غير آمنة، وقد تأكد هذا الأمر في عام ١٩٥٩ عندما هرب إلى الاتحاد السوفياتي اثنان من محللي الشيفرة، وكشفا أسراراً حيوية.

كان لويس تورديلا نائب رئيس وكالة الأمن القومي، وقد أدار الوكالة بشكل فعال طوال عشرين عاماً. (كانت الرئاسة معطاة لأسلحة الجيش المختلفة بالتناوب). وكان يعرف بشكل جيد أن مصدر العداء الذي تواجهه منظمته من قبل السي آي أي والأف بي آي يعود إلى سيطرتها على «سيغينت». كما كان يعرف بأن المنظمتين كانتا مشغولتين في التصدي

لاختكاره. فقد بدأت السي آي أي عملية «سيغينت» السرية جداً، شاركها في نفس الحقل القسم د و أف بي آي. وعند زيارة بيلمونت إلى لندن في آيار ١٩٦٠، حيث كانت قضية لانزديل ما زالت في أوجها، أخذته معي إلى تشيلتنهام لأطلعه على عملية انغولف لحل شيفرة السفارة المصرية، وعملية «ستوكيد» لحل شيفرة السفارة الفرنسية، والتي كانت في مراحلها الأولى. أعجب بيلمونت أيما إعجاب بهاتين العمليتين، وقام فوراً بطلب ديك ميلر، الذي أمضى حوالي أسبوعين معي يتعلم التفاصيل التقنية لعملية «ستوكيد». وبعد فترة وجيزة، قامت الأف بي آي بتنفيذ عملية مماثلة ضد شيفرة السفارة الفرنسية في واشنطن.

أراد توردبلا إنشاء جهاز يشبه لجنة عمليات الرادار يكون تحت تصرف وكالة الأمن القومي. فقام في عام ١٩٦١ بدعوة كل من هيو الكساندر وهيو دينهام، وراي فريولي بالإضافة لي أنا وكريستوفر فيلبوتس رئيس مكتب أم آي ٥، إلى مؤتمر لبحث العمليات البريطانية لحل الشيفرة. كما قام بدعوة السي آي أي والأف بي آي على أمل زيادة التعاون معهما بعد الإطلاع على عمل لجنة عمليات الرادار.

أدركت بأن هذا المؤتمر فرصة لا تقدر بثمن لتصحيح صورة المخابرات البريطانية في عيون كافة منظمات المخابرات الأمريكية. وكانت السي آي أي في عام ١٩٦١ أكثر هذه المنظمات نفوذاً في واشنطن. وكنت على ثقة في أننا إذا عرضنا لهم المستوى التقني المتقدم الذي نتمتع به منذ عام ١٩٥٦، فإن هذا سيقنعهم بأهمية التعاون معنا، إذ كان المسؤولون في السي آي أي ينظرون إلى التحالف بين المخابرات الأمريكية والإنجليزية على أنه مجرد عاطفة دافئة في ظل حرب باردة لا عواطف فيها.

كنت أعرف أنا وهيو الكساندر بأن في الأمر مقامرة. فلم يكن هناك أي ضمانات تؤكد بأن الأمريكيين سيطلعوننا على أي شيء مقابل ذلك في المؤتمر. كانت كل الدلائل تشير إلى ذلك. كما أنه كان هناك اعتبارات أمنية واضحة. ولكن المكاسب الممكن تحقيقها من وراء التعاون كثيرة جداً. فعلى الأقل نستطيع أن نزرع الظلال التي تخيم فوق علاقات المخابرات البريطانية ـ الأمريكية منذ قضية فيلبي ـ بيرغيس وماكلين. والأهم من ذلك هو أن هيو الكساندر كان يخطط لتطوير عمليات حل الشيفرة داخل لجنة عمليات الرادار. كما كانت لدي خططي لتطوير جانب مكافحة التجسس فيها. ولا يمكن تحقيق هذين الأمرين بدون المصادر المالية والدعم الأمريكي. فبعد تطوير القنبلة الذرية في نهاية الحرب العالمية الثانية، أصبحنا بحاجة لإقناع الأمريكيين بضرورة تمويل أفكارنا لتتحول إلى واقع. أما على المدى البعيد فإن الفائدة كبيرة من خلال تبادل المعلومات المخابراتية ضمن اتفاقية بهذا الخصوص بين قيادة الاتصالات الحكومية ووكالة الأمن القومي.

عقد المؤتمر في قاعة خاصة، تم مسحها أمنياً، داخل القيادة العامة لوكالة الأمن القومي في فورت ميد/ميريلاند. والقيادة العامة عبارة عن مبنى زجاجي ضخم تحيط به الأسلاك المكهربة، وعلى سطحه مئات الهوائيات المختلفة الأنواع التي تصل القيادة بمئات المراكز المنتشرة في جميع أنحاء العالم. وقد حضر عن وكالة الأمن القومي كل من لويس توردیلا وآرت ليفنسون. وعن الأف بي آي ديك ميلين وليش ويتمان. أما عن السي آي إيه فقد حضر كل من جيم أنغلتون ورجل ضخم كالثور يدعى بيل هارفي، الذي عاد مؤخراً لرئاسة القسم في واشنطن بعد إنجازه عملية نفق برلين.

كان هارفي أسطورة حيّة في السي آي أي بسبب إقباله الشديد على المشروبات الروحية، وتصرفات الكاوبوي التي يمارسها. وقد بدأ عمله بالتعامل مع التجسس السوفياتي المضاد لمصلحة الأف بي آي، إلى أن فصله هوفر من العمل بسبب السكر. ولكنه انتقل فوراً إلى السي آي أي ليضع كل خبرته السابقة فيها، حيث كانت في بداية التكوين، وليصبح هو وأنغلتون من أهم الأمريكيين العاملين في الحرب السرية ضد ال ك ج ب. وقد أمضى معظم فترة خدمته في الخمسينات في برلين، يدير العملاء، ويحفر الأنفاق ويفتح المعارك مع السوفيات كلما سنحت له الظروف. كانت الحرب الباردة بالنسبة له أقرب إلى كونها قتالاً مباشراً بالسلاح الأبيض. ورغم عدوانية هارفي إلا أنه كان ذكياً وله أنف جاسوس. فقد كان أول من أشار إلى فيلبي في الولايات المتحدة بعد هرب بيرغيس وماكلين. كما كان يتمتع بذاكرة مذهلة فيما يتعلق بتفاصيل عمليات الهرب والقضايا المنسية القديمة، وهو الذي استطاع، قبل أي شخص آخر، أن يجمع خيوط رجل أم آي ٦ الغامض (فيلبي) رغم تشابكها وتناقضها. وفي الوقت الذي كان فيه الآخرون يلاحقون فيلبي بسبب الشك، كان هارفي يلاحقه بروح الانتقام الذي لا تراجع عنه. وقد تركت الحادثة في نفسه أثراً سيئاً من عدم الثقة في البريطانيين.

بدأ المؤتمر، الذي استغرق خمسة أيام، أعماله بدون أية آفاق للنجاح. كان توردیلا يريد تبادلاً حراً للأفكار. وطرح للنقاش تجربة أو تجربتين لوكالة الأمن القومي في حقل الوسائل الممكنة لحل شيفرة السفارات في واشنطن، مشيراً إلى أن ميثاق الأف بي آي لا يسمح لها بالخروج عن إطار التجارب في المختبر. أما ممثلا السي آي أي والأف بي آي فقد كانا صامتين، فهما لا يريدان مناقشة تطوير المسائل التقنية أمام الآخرين: نحن ووكالة الأمن القومي. كان أنغلتون يسجل الملاحظات، أما هارفي فقد قبع في كرسيه بعدائية لم يستطع إخفاءها، كما كان يشخر بعض الأحيان وخاصة بعد الغداء.

قال في صباح أول يوم للمؤتمر:

«صلاحيات السي آي أي هنا تقتصر على الاستماع فقط. فنحن لا نبحث أسرارنا في اجتماعات عامة!».

بدأت الأمور بالتحسن عندما قرأت تقريراً مطولاً عن نجاحنا في حل شيفرة المصريين، والتقدم الذي حققناه منذ ذلك الوقت في استخدام اللاسلكي لحل أصوات الشيفرة وما يمكن تحقيقه بالأساليب السمعية عن طريق الجيل الجديد من الميكروفونات. وواصلت حديثي بإسهاب عن عملية «ستوكيد»، وأخيراً بدأ النقاش يتزايد. حتى هارفي قدّم كرسيه إلى الطاولة وبدأ يستمع.

وفي اليوم الثالث شارك في النقاش ريتشارد هِلمز، الذي كان رئيس السي آي أي لشؤون التخطيط، وطرح السبل التي يمكن من خلالها تطبيق هذا التكنيك لحل الشيفرة الروسية. طرحت بقوة بأنه علينا أن نتنبأ ماهية الجيل القادم من آلات الشيفرة الذي يمكن أن يطوره الروس، وأن نبدأ فوراً بمواجهتها. وقد أبدى غير العلماء من الحاضرين شكوكهم فيما طرحت. ولكنني أكدت لهم بأننا قد فعلنا نفس الشيء أثناء الحرب. إذ تنبأنا من مختبر أبحاث البحرية بالجيل الجديد من التوربيدات والألغام الألمانية، الأمر الذي مكننا من مكافحتها حال استخدامها من قبل الألمان. وفي نهاية النقاش تعهد كل من القيادة العامة للاتصالات ووكالة الأمن القومي البدء في العمل ضد آلات الشيفرة السوفياتية الجديدة «الباتروس».

كان هيو الكساندر مهتماً كثيراً جداً بما يترتب على تحليل الشيفرة فيما يتعلق بالجيل الجديد من الكمبيوترات التي يتم تطويرها في أمريكا. فقد كان مهووساً بنظرية «الأيرغونوميا»، التي تقول بأن إنتاج مجموعة أرقام عشوائية فعلاً، ولو حتى بطريقة الكترونية كما في آلات الشيفرة، مسألة رياضية مستحلية. وكان الكساندر يعتقد بأنه إذا كان بالإمكان تطوير الكمبيوتر إلى درجة لا تحتاج فيها إلى الرموز أو حتى الدقة في برمجة الشيفرة، فإنه سيكون آمناً جداً. وفي العقد اللاحق كان هناك برنامج بحث مشترك لدراسة هذا الحقل. (وحسب تقرير نشر عام ١٩٨٦ في صحيفة الغارديان، أدّى التقدم الهائل في نظرية الأيرغونوميا منذ عام ١٩٨٠ إلى ثورة في تحليل الشيفرة بالطريقة التي تنبأ بها الكساندر).

أما بالنسبة للسي آي أي فلم يطلعونا على أي شيء يتعلق بالوضع التقني لديهم. وكان هذا الأمر متوقعاً. لقد تركوا لدينا الانطباع بأننا لسنا جديرين بالاطلاع على أسرارهم، غير أننا كنا نشك بوجود أسباب أخرى وراء صمتهم. في حين كان القسم د الذي يرأسه هارفي مصمماً على تجنب بنود الاتفاق الأمريكي - الإنجليزي التي أكدت على التبادل الكامل

للمعلومات الاستخبارية، «سيغنت»، بين وكالة الأمن القومي وقيادة الاتصالات الحكومية. كان القسم د هو المؤهل للقيام بعمليات حل الشيفرة حتى ولو كانت شيفرة بريطانية، وهو أمرٌ كُنّا متأكدين من قيامهم به.

وعلى أية حال، كان المؤتمر معلماً هاماً في العلاقات بين المخابرات البريطانية والأمريكية. فلأول مرة منذ عشر سنوات تجتمع الست منظمات لتبحث بشكل مطول إمكانية العمل المشترك لمواجهة مشاكل متعددة ومتنوعة. وقد تم تنفيذ عدة برامج أبحاث مشتركة، وخاصة في مجال الكمبيوتر. وكان ذلك بمثابة خطوة أولى نحو كسر حاجز عدم الثقة.

قبل سفري إلى واشنطن طلب مني آرثر مارتن أن أطلع السي آي أي على الجانب التقني في قضية لانزديل، وخاصة تطوير جهاز «رافتر». وكان في هذا الأمر بعض الإحراج في ليكون فيلد، ففي الوقت الذي أبلغنا فيه الأف بي آي عن رافتر من البداية، كانت السي آي أي تجهل كل شيء عنه. كما وافق هوليس على اطلاع السي آي أي بشكل كامل على القضية حال الانتهاء منها، وذلك لأن معلومات سنايبر التي قادت إلى إنهاء هذه الشبكة كانت من عمل السي آي أي في المرتبة الأولى. وكان برنامج الاجتماع بهم مقرراً بعد انتهاء مؤتمر توردبلا. وقد تم في مبنى نيسين الذي كانت السي آي أي تشغله بشكل مؤقت قبل الانتقال إلى مبنى القيادة العليا في لانغلي الذي لم ينته بناؤه بعد. وقد ألقيت محاضرة في غرفة مؤتمرات كبيرة أمام حوالي مئتين من ضباط السي آي أي. وكان جيم أنغلتون يرافقني هناك. وسألت جيم هامساً:

«هل أنت متأكد من أن كل هؤلاء يعرفون «سيغنت؟»».

«أخبرهم بالقصة، يا بيتر، وسنتولى نحن المسألة الأمنية. هناك كثير من الناس يودون سماعك».

ووقفت بعصبية، وأنا أتكلم متعمداً ببطء شديد لأتغلب على تلعثمي.. وطرحت قضية لانزديل من بدايتها. وبعد حوالي الساعة من المحاضرة استدرت إلى اللوح لأشرح التفاصيل التقنية المعقدة المتعلقة بجهاز «رافتر». وقلت:

«وبالطبع، فإننا نرى من وجهة نظرنا، بأن «رافتر» يمثل سلاحاً أساسياً في مكافحة التجسس. فنحن الآن في وضع نستطيع فيه إحباط عمل الجواسيس السوفيات أثناء استقبالهم البث من موسكو، وبالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نستخدمه لرصد الذبذبة المستعملة في البث...».

ولكنهم لم يستقبلوا «رافتر» بشكل جيد. وسمعت بعض الهمسات في البداية. ثم

رأيت ضابطين يتحدثان معاً بطريقة لا توحي بالخير. وأدركت أن في الأمر خللاً ما عندما رأيت هارفي يصعد إلى المنصة ليواجه انغلتون. فسألت دون أن أدرك ما الذي أثار الجمهور:

«هل هناك أسئلة؟».

صرخ أحدهم من بعيد:

«أجل.. متى بحق الجحيم طورت «رافتر»؟».

فأجبته:

«في ربيع ١٩٥٨».

«وما هو تاريخ اليوم بحق الجحيم؟».

تلعثمت وهربت الكلمات مني للحظات. فقاطعني:

«سأخبرك.. إننا نعيش الآن في عام ١٩٦١!».

وصرخ أحدهم:

«إلى الجحيم بهذا التحالف».

جلست بحدة. وبدأ الجمهور بمغادرة القاعة. ولم يعد هناك أية أسئلة.

بعد قليل عاد انغلتون وهارفي، الذي لم يستطع أن يخفي غضبه.

وقال جيم:

«اسمع يا بيتر، إن هذه القضية بحاجة إلى بحث أعمق. وأنا لا أشعر فعلاً بأن هذا هو المكان المناسب لطرحها. أنا وبيل ندعوك إلى العشاء هذه الليلة. سنرتب مكاناً آخر آمناً نتحدث فيه».

وأخذني بسرعة قبل أن يبدأ هارفي بالحديث.

في مساء ذلك اليوم جاء مساعد أنغلتون للشؤون التقنية، جو بيرك، ليأخذني من الفندق. لم يتحدث معي إلا القليل، وبدا لي أنه تصرف حسب الأوامر. وعبرنا جسر جورج واشنطن ثم مررنا بمقبرة أرلنغتون وانطلقنا عبر ريف فيرجينيا.

قال بيرك وهو يشير إلى الجهة اليمنى:

«مبنى القيادة العامة الجديد».

لم يكن هناك سوى الأشجار والعتمة.

بعد سفر ساعة وصلنا إلى بيت بعيد عن الشارع العام. في الجهة الخلفية منه كانت هناك شرفة فيها طاولة وبعض الكراسي، ويُحيط بها شبك ناعم دقيق ضد الحشرات. كان

الوقت نهاية الصيف. كنت أشم رائحة أشجار الصنوبر. ثم جاء انغلتون وحياني ببرود. وقال:

«آسف لما حصل بعد ظهر هذا اليوم».

ولكنه لم يقدم أي تفسير لما حصل.

جلسنا إلى الطاولة ومعنا رئيس قسم أوروبا الغربية في السي آي أي. وكان مؤدباً. وبعد عدة دقائق دخلت سيارة مسرعة إلى البيت. وسمعت صوت الباب يغلق بشدة، ثم صوت بيل هارفي يسأل أين نحن. وعندما دخل إلى الشرفة كان يحمل في يده زجاجة جاك دانيلز. كان واضحاً أنه في حالة سكر. وقال لي:

«والآن أيها الوغد. دعنا نسمع الحقيقة عن هذه القضية». وكسر الزجاجة وهو يضربها على الطاولة.

أدركت فوراً بأن تصرفه مرتبٌ مسبقاً. ففي العادة كان هاري ستون يرافقني في أية مباحثات جدية عن أم آي ٥، ولكنه كان في ذلك الوقت في المستشفى يعاني من أزمة قلبية.

قلت لجيم انغلتون:

«هذا ليس عدلاً يا جيم. أعتقد أنني مدعو للعشاء».

فقال جيم:

«أجل أنت مدعو للعشاء». ثم سكب لي كأساً من الويسكي.

قلت بهدوء:

«لن أقبل بالتهديد».

«لا.. لا.. إننا نريد أن نسمعك مرة أخرى».

أخذت أتحدث عن قضية لانزديل للمرة الثانية، وعندما انتهيت منها لم يستطع هارفي أن يضبط نفسه، فصرخ قائلاً:

«لستم أهلاً للثقة». وبصق علي. ثم أكمل صراخه:

«إنكم تأتون إلى هنا طالبين تمويل أبحاثكم..».

«ولكنني لا أرى مشكلة في هذا!».

وفتح هارفي زجاجة ثانية بعصبية وهو يلعن.

وقال انغلتون:

«المشكلة يا بيتر، هي عملياتنا، فالكثير من عملائنا يستخدمون أجهزة استقبال H F،

وإذا ما وقع «رافتر» في أيدي السوفيات فإن أغلبهم سينتهون. . . . هل استولى الروس على «رافتر»؟».

أجبته:

«في البداية لا . . ولكن أنا متأكد أنه لديهم الآن».

وتذكرت إحدى القضايا الأخيرة، حيث كان مصدر بولندي لـ أم آي ٦ داخل المخابرات البولندية يتحدث عن عملية تحقيق سوفياتية بولندية مشتركة في قضية ما. وفي النهاية عندما كانت ال ك ج ب تكاد تطبق على العميل، قاموا بإحضار سيارة إلى البناية التي يعيش فيها الجاسوس. وقد أكد مصدر أم آي ٦ على أن رجال المخابرات البولندية منعوا من رؤية ما يوجد بداخل السيارة، ولكنه عرف ما يكفي ليدل على أنها كانت تحتوي على جهاز رصد.

صرخ هارفي:

«يا إلهي. . . لقد خسرنا كل ما بنيناه في بولندا».

فأجبته:

«ولكننا أرسلنا هذه التقارير إلى القسم البولندي لديكم، وأي كان العميل، فهو ليس لنا، لذلك افترضنا أنه لا بد أن يكون لكم. وهذا على الأقل كاف لأن ينبهكم إلى أن البث إلى بولندا مراقب».

وهنا تكلم رئيس قسم أوروبا الغربية بذهول:

«سنتأكد من ذلك في الصباح».

وسأل هارفي:

«ومن يعرف أيضاً عن «رافتر»؟».

فأخبرته بأننا أطلعنا الأف بي آي والشرطة الكندية بكامل التفاصيل بعد تطويرنا الجهاز.

ضرب هارفي الطاولة بيده غضباً وهو يصرخ:

«الكنديون! السفلة!».

فقلت له:

«أخشى أننا ننظر إليهم بشكل مختلف. فالكنديون أعضاء موثوقون في الكومنولث».

«حسناً أخبرهم أن يستخدموا آلة شيفرة جديدة» قال هارفي، فيما كان انغلتون يدوس على قدمه ليخفف من غلوائه حتى لا يبوح بأسرار القسم د.

استمرت المناقشة والصراخ، وبدا واضحاً بأن الاهانة مخطط لها بعناية. أرادوا أن

يجعلوني أشعر بالذنب، لكي يدفعوني لقول حماقة أندم عليها فيما بعد، ثم أتحدث أكثر مما يجب. وقالوا لقد أعطيناكم «سنايبر» فانظر ماذا عملتم بالمقابل. وافقنا على إعطائكم ملايين الدولارات من أجل الأبحاث، فكيف ستعيدون دفعها لنا. وأعلن هارفي غضبه، وصب لعنته على كل غلطة أو إهمال أو ضعف مر بها الأمريكيون منذ الحرب: على فيلبي وبيرغيس وماكلين، وفقدان الزعامة والنضج، والانسحاب من الأمبراطورية، وحرمة الاشتراكية. وأكد انغلتون على ضرورة احترام التفوق الأمريكي في التحالف إذا كنا نريد أن نطلع على مصادرهم. وصرخ هارفي:

«ولكن تذكر أنك مجرد شحاد في هذه المدينة!».

وتدحرجت مع الكلمات. نعم فسجلنا متواضع في مجال التجسس المضاد، ولكن آرثر عاد الآن، وقضية لانزديل هي البداية فقط. لا لسنا ملزمين باطلاعكم على «رافتر» من البداية. إننا المسؤولون عن التصرف بأسرارنا.

وقلت لهم:

«لقد جئت إليكم وأعطيتكم تعب حياتي كلها ـ أنغولف، ستوكيد، ورافتر ـ أعطيتكم كل شيء. أما أنتم فقد جلستم أمامي خمسة أيام في وكالة الأمن القومي ولم تنطقوا بكلمة. فأين التعاون في ذلك؟ الحقيقة هي أنكم غضبتم لأننا تجاوزناكم بخطوة... !».

كان هارفي منتفخاً وأحمر وجهه وكأنه ديك حبش. العرق يتدفق من جبينه، وسترته مفتوحة ليظهر تحتها مسدس، وبطنه يتمايل لكثرة الشراب. كانت الساعة الرابعة صباحاً. كفاني ما عانيته تلك الليلة. فغادرت. أخبرت انغلتون بأن برنامج نهار الغد ملغى. وقررت أن الكرة في مرماهم لو أرادوا السلام.

في اليوم التالي جاءني أنغلتون إلى غرفتي في الفندق دون أن يبلغني مسبقاً. بدا جذاباً ومعتذراً. وألقى اللوم فيما حصل في الليلة الماضية على هارفي.

«إنه يشرب كثيراً، ويعتقد أن المواقف الصعبة تؤدي إلى قول الحقيقة. أما الآن فإنه يصدقك. كان يراك كخطر. هذا كل ما في الأمر».

ودعاني لتناول العشاء معاً. كنت في البداية قلقاً، لكنه قال انه يفهم وجهة نظري ويأمل أن أفهم وجهة نظره. وتحدث بحماس عن خططه لتقديم المساعدة المالية. وسرعان ما زال التوتر. وعرض علي مقابلة لويس تورديلا لإقناعه بتقديم المساعدة في مجال مكافحة التجسس للجنة عمليات الرادار. وفي اليوم التالي أرسل إلي سيارة لتقلني إلى فورت نيد. لم تكن زيارتي إلى وكالة الأمن القومي مقررة من الناحية الفنية بدون أن يرافقني أحد أعضاء وفد

قيادة الاتصالات الحكومية، لذلك تم إدخالي من الباب الجانبي لأصعد فوراً إلى مكتب توردیلا في أعلى طابق. وتناولنا الغداء هناك، وأعدت سرد الخطوط العامة لقضية لانزديل للمرة الثالثة.

عند نهايته جلستنا سألني توردیلا كيف يمكن أن يقدم المساعدة. فأوضحت له بأن الضعف الأساسي يكمن في أن قيادة الاتصالات الحكومية تعاني من عدم القدرة الكافية لتغطية البث القادم من موسكو، بالرغم من الاختراق الذي استطعت التوصل إليه. ومع أننا أدخلنا الكثير من التحسينات في هذا المجال منذ قضية لانزديل، إلا أنه لم يكن بحوزتنا سوى ١٠ ـ ١٥ جهازاً لاعتراض الإشارات السوفياتية، الأمر الذي يعني أننا نقلدهم ولا نتفوق عليهم. وكنا بحاجة إلى حوالي ٩٠٪ من الدعم حتى نستطيع تحقيق تقدم ذي أثر. وقد أبدى توردیلا دهشته من هذه الاحتمالات، ووافق على دعم في كافة أرجاء العالم يصل إلى ١٠٠٪ لمدة سنتين على الأقل. وكان الرجل عند وعده، وبعد فترة بسيطة بدأت المعلومات الاستخبارية تتدفق على قيادة الاتصالات الحكومية، حيث يتم معالجتها في قسم دعم لجنة مكافحة الأسرار. وقد قام محلل شيفرة شاب، ويدعى بيتر مارتشيرتش (وهو الآن مدير عام قيادة الاتصالات الحكومية)، بتحويل التصنيفات المختبرية، المكتوبة بخط يدي لآلاف خطوط البث إلى كمبيوتر لتحليلها تحليلاً عنقودياً بحيث يتم فرز الخطوط المتشابهة الأمر الذي جعل هذه التصنيفات دقيقة جداً. وخلال عدة سنوات أصبحت هذه الطريقة واحدة من أهم الأدوات المستخدمة في الغرب لمكافحة التجسس.

عدت إلى لندن مزهواً. فقد استطعت خلال زيارتي لواشنطن تأمين الدعم الأمريكي الكامل ليس لمشروع «أنغولف» في لجنة عمليات الرادار وحسب، بل وتأمين تعهد الأمريكيين بإدارة عمليات مكافحة التجسس أيضاً. وكنت قد نسيت مشاكلي مع هارفي إلى أن ذكرني بها انغلتون. فقد قال لي:

«هارفي يريد رؤيتك».

أبديت دهشتي.

«لا.. لا.. يريد أن يستشيرك. فهو يواجه مشكلة في كوبا، وأخبرته أنه بإمكانك مساعدته».

سألته بمرارة:

«ولكن ماذا عن تلك الليلة».

فأجاب انغلتون.

«لا تزعج نفسك بهذا. لقد أراد فقط أن يعرف فيما إذا كنت أهلاً للثقة. ولقد نجحت في الاختبار».

كان انغلتون متكتماً بشكل متعمد، ورفض أن يبوح بمزيد من التفسيرات، وقال إنه رتب جلسة غداء مع هارفي بعد يومين، وأنه بإمكاني أن أفكر حتى ذلك اليوم.

كان عام ١٩٦١ عام هوس السي آي أي بكوبا. كانت عملية غزو خليج الخنازير قد فشلت مؤخراً. وكنت أنا وأنغلتون نبحث الموضوع بشكل منتظم، بسبب خبرتي في أم آي ٥ وحملات مكافحة التجسس التي قمت بها في كل من اليونان وقبرص ضد الجنرال غريفاس في الخمسينات. وعندما زرت واشنطن عام ١٩٥٩، طلب مني ريتشارد هيلمز وريتشارد بيزيل، اللذين كانا مسؤولين عن العمليات جنوبي شرقي، آسيا، إلقاء محاضرة على مجموعة من الضباط في موضوع التمرد المضاد. وقد شعرت باهتمام الولايات المتحدة آنذاك للقيام بخطط ما في كوبا، حيث كان فيديل كاسترو ينشىء دولة شيوعية. وقد قام بيزيل بإدارة عملية غزو خليج الخنازير، ولكن عندما فشلت أدرك الجميع بأن بقاءه في منصبه أصبح مسألة وقت، إذ قام كنيدي بإقصاء كل المسؤولين عن عملية غزو كوبا الفاشلة.

عندما وصلت إلى المطعم بعد يومين، وقف هارفي ليصافحني بحرارة. بدا هادئاً وأقل شراسة مما هو عليه في العادة. ولم يذكر ما حصل في الليلتين الماضيتين. كان رجلاً فجاً يتعامل مع الناس بلا هوادة. وأخبرني بأنه كان يدرس القضية الكوبية، وأنه يريد أن يسمع مني ما أعرفه عن قضية قبرص.

وقال لي بهدوء وبدون أي أثر في لهجته أو ملامح وجهه لما حصل في تلك المحاضرة:

«لقد فاتني أن أحضر محاضرتك عام ١٩٥٩».

بدأت عملي في قضية قبرص بعد فترة وجيزة من انضمامي إلى أم آي ٥، عندما أرسل إلي رئيس الشعبة هـ (المسؤولة عن المستعمرات)، بيل ماغان بعض الأوراق عن النزاع المتصاعد هناك. كان المطران مكاريوس يقود حملة شاملة من أجل الاستقلال التام، ويدعمه في هذا الاتجاه الحكومة اليونانية، والحزب الشيوعي القبرصي «أكيل» بالإضافة إلى منظمة «أيوكا» المسلحة التي يقودها الجنرال غريفاس. وكانت بريطانيا تسعى بكل ما لديها للإبقاء على الجزيرة كقاعدة عسكرية، لذلك كانت تقاوم الاستقلال التام. وفي عام ١٩٥٦ أعلنت حالة الطوارىء القصوى اثر تغلب قوات الجنرال غريفاس المحدودة العدد على حوالي ٤٠ ألف جندي من القوات البريطانية.

كانت سياسة بريطانيا في قبرص كارثة حقيقية. فوزارة المستعمرات تحاول اتباع سبيل المباحثات السياسية في وضع أمني متدهور للغاية، معتمدة على الجيش للحفاظ على النظام. ولذلك كان المطلوب تحديد مكان غريفاس ثم عزله وتحييده قبل المفاوضات السياسية. فشلت كل المحاولات التي بذلها الجيش للعثور على الجنرال غريفاس رغم الحملة الواسعة النطاق التي تم شنها آنذاك. ومن خلال مطالعتي لأوراق القضية تكونت لدي قناعة بأن أم آي ٥ تستطيع أن تفعل ما لا يستطيع الجيش فعله. وأخبرت ماغان بأنه إذا ما أعطيت أم آي ٥ الوقت الكافي، فإننا نستطيع تحديد موقع الجنرال غريفاس بشكل دقيق عن طريق رصد اتصالاته بنفس الطريقة التي استخدمتها ضد الروس.

قام ماغان فوراً بترتيب لقاء لي مع السير جيرالد تمبلر، الذي قاد بنجاح عمليات التمرد المضاد في الملايو، كما كان من أشد المتحمسين لحل قضايا المستعمرات عن طريق المخابرات. وقد أبدى حماسة لخطتي ووافق على إبلاغ وزارة المستعمرات بها باسم الأم آي ٥. إلا أن وزارة المستعمرات أبدت تحفظها. إذ كانت تريد الاستمرار في سياستها وليس لديها الرغبة في إدخال أم آي ٥ في الموضوع. كما كانت أم آي ٥ غير متحمسة للتورط في وضع بدأ يتعقد ويتشابك. وقد عارض هوليس، بشكل خاص، التورط في شؤون المستعمرات بدون دعوة واضحة من الوزارة. وكان موقفه مبنياً على أساس أن أم آي ٥ منظمة تعنى بالشؤون الداخلية، وكل ما يستطيع تقديمه هو إرسال ضابط ارتباط يقوم بتقديم المشورة للجيش.

وفي عام ١٩٥٨ صعد الجنرال غريفاس من حملاته العسكرية في محاولة لإجهاض الجهود للتوصل إلى حل سياسي كان قد أعده الحاكم الجديد السير هيو فوت. وقام الجيش بحملة تفتيش واسعة ثابتة عن غريفاس. وقد تركزت هذه الحملة في جبال باخوس، ولكنه تمكن من الإفلات. واستمر فوت في الضغط من أجل حل سياسي، ووافق في نفس الوقت على إشراك أم آي ٥ بسبب تدهور الأوضاع بشكل سريع. وقد دخلنا منذ البداية في سباق: هل نستطيع العثور على غريفاس قبل أن توقع وزارة المستعمرات صفقة آيلة للسقوط؟

كان ماغان على قناعة كاملة بوجود معلومات كافية عن موقع غريفاس في ملفات الشعبة الخاصة المحليّة، وبأنه لم يتم ترجمتها بالشكل الصحيح. وكانت المشكلة تكمن في كيفية الوصول إليها. كانت «أيوكا» قد اخترقت الشعبة الخاصة المحلية. الأمر الذي يجعل إمكانية قراءة الملفات صعباً جداً بالنسبة لرجل من أم آي ٥ خشية كشف هويته الحقيقية. وكان أحد ضباطنا قتل بالرصاص في أكبر شوارع نيقوسيا.

وكان ماغان شخصية فريدة. أمضى فترة كبيرة في الجبهة الشمالية الغربية وفي بلاد فارس، حيث كان يعيش لوحده مع الأهالي هناك في الخيم ويتحدث لغتهم ويطبخ غذائه

على نار وقودها روث البقر، ولأنه كان يعرف الأخطار الكامنة وراء الإرهاب أصر أن يذهب بنفسه في المهمات الخطرة بدلاً من إرسال ضابط صغير. وكان معه ضابط الاتصال في قبرص الجنرال فيليب كيربي غرين، وهو ضابط طويل، شجاعته بلا حدود، وكان يمارس الرسم في أوقات فراغه. أما بالنسبة لدوري أنا، فكان من المقرر أن أجيء في وقت لاحق لتنفيذ الجانب التقني من العملية التي أطلقنا عليها الاسم الرمزي «سن شاين».

قد أكون فجاً جداً لو قلت بأن عملية «سن شاين» كانت عملية اغتيال. ولكنها وصلت إلى نفس المستوى. كانت الخطة بسيطة: تحديد موقع غريفاس، ثم حشد عدد كبير من الجنود. وكنا نعلم بأنه لن يستسلم وسيموت مقاتلاً. تماماً كما حصل مع اثنين من مساعديه، إذ حاصرهما الجيش وقتلا في المعركة.

وصلت إلى نيقوسيا في السابع عشر من كانون الثاني ١٩٥٩، وذهبت إلى قيادة الشعبة الخاصة لدراسة تحليل ماغان للملفات. كانت حملة غريفاس ضدنا منظمة بشكل جيد تماماً. فهناك أمثلة عديدة على التنسيق الجيد للهجمات الإرهابية والاضطرابات المدنية في طول الجزيرة وعرضها. ولا بد أنه كانت لديه اتصالات منظمة مع القادة الميدانيين. ولم يبدو أن «أيوكا» تستخدم التلفون أو النظام البريدي في اتصالاتها هذه، رغم اختراقها لهما. إذن، كانت الاتصالات تتم عن طريق المراسلين. أكدت دراسة الملفات بأن هؤلاء المراسلين كانوا من النساء اللواتي يستخدمن وسائط النقل العامة. ودلت تحرياتنا على أن ليماسول كانت مركز شبكة اتصالات «أيوكا». كما كان لها فروع عنقودية في قرى يراسا وبولوذيا في نفس منطقة ليماسول. وكان أفضل افتراض توصلنا إليه هو أن غريفاس يقيم في كلا القريتين.

كانت أول خطوة في عمليتنا زرع جهاز تنصت على تلفون قصر مكاريوس. كنا متأكدين من أن مكاريوس، وربما «أيوكا» في أوقات معينة، كان يستخدم التلفون مطمئناً إلى أن جواسيسه في مكتب البريد سيقومون أوتوماتيكياً بإبلاغه عن أي تنصت قد يقع على التلفون.

قررنا أن نزرع جهاز بث مخفياً على أحد الأسلاك الرئيسية الداخلة إلى القصر، يتزود بالكهرباء من سلك التلفون، ويبث الإشارات إلى جهاز الاستقبال الذي معنا في مكان يبعد ميل أو ميلين. وجاء لمساعدتي جون وايك وهو من أفضل رجال أم آي ٦ الفنيين، وكان هو الذي قام، عملياً، بزراعة جهاز الإنصات في نفق برلين. كانت العملية برمتها محفوفة بالمخاطر. كان على وايك أن يتسلق أحد أعمدة الهاتف في الظلام الدامس، وفي شارع يغص بدوريات حراس مكاريوس ورجال «أيوكا». تسلق العامود وحفر في أعلاه حفرة صغيرة لاخفاء الجهاز فيها، ثم قام بوصله بسلك الهاتف بطريقة مخفية. أما أنا فقد كنت في أسفل العامود أقوم بتسليمه الأدوات

من آن لآخر. وكنا نتجمد من الخوف كل خمس دقائق إذ تمر الدورية ونحن نتوقع إطلاق النار علينا بين لحظة وأخرى. وبعد ساعتين ارتخت أعصابنا، فقد نجحت عملية زرع الجهاز وأصبح مكاريوس مكشوفاً لنا.

لكن هدفنا الحقيقي من عملية «سن شاين» كان العثور على غريفاس. وكنت متأكداً من أنه يستخدم الاتصالات اللاسلكية لمراقبة اتصالات الجيش البريطاني، وأنه كان يعرف بكل مرة ينوي فيها الجيش شن حملة لإلقاء القبض عليه. وقررت القيام بهجوم في اتجاهين. الأول، البحث المكثف عن الهوائي الذي يستخدمه لجهاز إرساله. وفي نفس الوقت التخطيط لزراعة مستقبل يحتوي على جهاز إرشاد يقودنا إليه مباشرة. كنا نعرف بأن لدى غريفاس كمية كبيرة من المعدات الحربية زودته بها مصر، التي كانت تبيع الأسلحة البريطانية المستولى عليها في حرب السويس بأسعار متهاودة. فقامت أم آي ٦ بتجنيد تاجر سلاح قبرصي يوناني، كان قد اشترى صفقة من أجهزة الاستقبال من مصر. وقمت أنا بإضافة جهاز الإرشاد إليها. وبقي علينا أن نوصل هذه الأجهزة إلى داخل قيادة غريفاس.

سار الجزء الأول من عملية «سن شاين» بشكل جيد. وقمت أنا وكيربي غرين وماغان بعدة جولات صباحية في منطقة ليماسول للبحث عن الهوائي. وكان في الأمر مجازفة كبيرة. إذ كنا نعبر الطرق الفرعية الترابية، وساحات السوق متظاهرين بأننا مجرد زوار عابرين. وكان الرجال الكبار في السن يحدقون بنا من تحت المظلات. أما الأطفال والفتيان فكانوا ينظرون إلينا بشك ويختفون في الحارات. كنت أشعر بالعرق ينسكب من جسمي وراودني إحساس غريب بوجود بندقية ما تلاحقني باستمرار من مكان ما خلف السطوح والجدران القديمة.

لاحظت في يراسا وجود عمود على قمة سقف كنيسة هرمي الشكل. بدا للوهلة الأولى مانع صواعق مثبت على عازل للكهرباء ينطلق من السطح. كما كان هناك سلك عار يصل إلى الأرض. وعندما نظرت بالمنظار إلى العمود لاحظت بأن السلك العاري غير موصول بالعمود. وبدا واضحاً أنه الهوائي. وقمنا بخطوة غبية جداً. إذ حاولنا الاقتراب أكثر من الكنيسة. وفجأة خرج إلينا الأطفال وأخذوا يلقون علينا الحجارة. فانسحبنا بسرعة، وذهبنا إلى بولوذيا لنجد نفس الشيء هناك. تأكدت لحظتها بأننا كنا مصيبين في تحديدنا هاتين القريتين كمركز لعمليات الجنرال غريفاس.

بدأت أعمل بشكل محموم على جهاز الإرشاد. وكنا نقدر بأن عملية «سن شاين» ستستغرق ستة أشهر. ولكن ما أن انطلقنا في العمل، في نهاية شباط ١٩٥٩، حتى توصلت وزارة المستعمرات بسرعة إلى تسوية للقضية القبرصية في مؤتمر دستوري في لانكستر.

وهكذا سحب البساط من تحت أرجلنا بشكل فج، وأحبطت عملية «سن شاين» بين ليلة وضحاها. استشاط ماغان غضباً، خاصة عندما خرج الجنرال غريفاس من نفس المكان الذي حددناه وذهب إلى اليونان، ليمارس تأثيراً مشؤوماً على الجزيرة. وكان ماغان يعتقد بأن التسوية مؤقتة ولم تحل سوى القليل من القضايا المهمة. كانت وجهة نظره تتلخص في أن نزوع وزارة المستعمرات إلى تحقيق مكاسب آنية قصيرة الأجل، سيقود إلى بؤس دائم. وقد أثبت الزمن صحة وجهة نظره.

قبل أن نغادر قبرص بوقت قصير قابلنا، أنا وماغان، الحاكم السير هيو فوت. وكان لقاؤنا به مقتضباً. كان السير فوت مسروراً للتخلص من العملية، وأوضح لنا بأنه كان ينظر إليها كآخر حل يمكن اللجوء إليه، في حالة فشل الطرق الدبلوماسية. وبدا أنه لا يدرك أن المخابرات الفعالة يجب أن تبنى في البداية داخل العمل الدبلوماسي. وعندما أتذكر الآن هذه القضية أشعر بالثقة الكاملة في أنه لو سمح لنا بتنفيذ عملية «سن شاين» عندما بدأنا بالحشد لها عام ١٩٥٦، لأمكننا تحييد الجنرال غريفاس في النهاية، ولاستطاعت وزارة المستعمرات إملاء شروطها للسلام، بدلاً من منظمة «أيوكا»، ولربما تغير تاريخ هذه الجزيرة الجميلة المأساوي خلال الثلاثين سنة الماضية.

تركت قضية قبرص طابعها على السياسة البريطانية بخصوص المستعمرات. فقد تخلت بريطانيا عن مستعمراتها بنجاح اكبر عندما استطعنا أولاً هزم التمرد العسكري باستخدام الطرق المخابراتية بدل استخدام قوة السلاح وقبل البدء في التفاوض على حل سياسي مع قيادة حركة التمرد المهزومة ومن ثم من خلال استخدام الجيش البريطاني لتثبيت وضع الحكومة التي يتم تعيينها ـ وهذا ما حدث فعلاً في الملايو وكينيا حيث بقي وضع حكومتيهما مستقراً بحماية الجيش البريطاني.

كانت المشكلة الرئيسية فيما يتعلق بالمستعمرات هي كيف يمكن إخراج السلطة الاستعمارية مع ضمان قدرة الجيوش المحلية على تعبئة الفراغ. وبمعنى آخر كيف يمكن أن نخلق سلطة محلية مستقرة؟ كانت وزارة المستعمرات متمسكة بالنماذج الديمقراطية والأكاديمية المعقدة ـ دستور هنا، وبرلمان هناك ـ والتي كان قليل منها فقط يعمل بنجاح. بعد تجربة قبرص كتبت تقريراً قدمته لهوليس شرحت فيه أفكاري. قلت إنه ينبغي علينا أن نتبنى النموذج البلشفي، حيث ظهر أنه الوحيد الذي نجح. لقد فهم لينين أكثر من أي إنسان آخر كيف يسيطر على بلد ما، ومن ثم كيف يحتفظ بهذه السيطرة. بالنسبة له كلا الأمرين على نفس المستوى من الأهمية. كان لينين يؤمن بأن على السلطة أن تسيطر على الناس بالبنادق وبجهاز المخابرات، وبهذا تستطيع أن تضمن عدم تحدي الجيش أو أية سلطة أخرى لها.

لقد أسس فيلكس دزيرجنسكي المخابرات الروسية الحديثة «تشيكا» (التي أصبحت

فيما بعد ك ج ب)، وهو يضع في ذهنه هذين الهدفين. فأنشأ ثلاث مديريات ـ الأولى وتعمل ضد المتآمرين في الخارج والثانية ضد المتآمرين في الداخل؛ والثالثة تعمل في الجيش لضمان إحباط أي انقلاب.

استقبل تقريري برعب من قبل هوليس وبقية مدراء أم آي ٥. وقالوا لي بأنه تقرير يدعو للدهشة ولم يرسلوه إلى وزارة المستعمرات. وإذا ما نظرت خمسة وعشرين عاماً إلى الوراء، أجد أنه تم تجنب الديكتاتوريات العسكرية في الدول المستقلة حديثاً، فقط في تلك التي طبقت نموذجاً من مبادىء لينين.

أبدت السي آي أي شكها بهذه الأفكار في محاضرتي عام ١٩٥٩. فقال لي هيلمز بصراحة انك تدافع عن الشيوعية في العالم الثالث. وكان يشعر بأنه لدينا تفوق استخباري حاسم كان ينقصهم. فقد كنا سلطة استعمارية مقيمة، بينما لم يكونوا كذلك عندما قاموا بخلق التمرد شرقي آسيا وكوبا، ولهذا شعروا بأن السياسة الوحيدة التي يمكن أن يتبعوها هي الحل العسكري. وهذا التفكير بالذات هو الذي قاد الولايات المتحدة إلى الحرب في فيتنام. وهو أيضاً الذي قادهم إلى غزو خليج الخنازير.

صدم هارفي وهو يستمع إليّ أحدثه عن عملية قبرص، للتشابه الكبير بين هذه العملية وبين عملية خليج الخنازير. فكلاهما جزيرتين صغيرتين فيهما قوات مقاتلة يقودها زعيم محبوب من الجماهير. وقد دهش هارفي عندما قلت له بأن منظمة «أيوكا» كانت ستنهار بدون غريفاس.

سألني:

«ماذا يمكن أن يفعل البريطانيون في كوبا».

لم أكن متحمساً للخوض في قضية كوبا. كنت قد بحثتها مع هوليس قبل أن آتي إلى واشنطن، وباح لي بوجهة نظره أن السي آي أي تتخبط في البحر الكاريبي. وكان يشعر بضرورة تفادي هذا الموضوع. وقد أقلقني أنه إذا ما اقترحت شيئاً على انغلتون وهارفي، أن تعتبر السي آي أي اقتراحاتي هذه موقفا بريطانيا من القضية. الأمر الذي لن يستغرق وقتاً طويلاً ليصل إلى ليكون فيلد. لذلك أوضحت لهما بأنني أتحدث برأيي الشخصي.

وقلت لهما بأنه بالإمكان تطوير أية موجودات لنا هناك ـ قيادة سياسية بديلة، أو أي شيء من هذا القبيل.

قال هارفي:

«لقد فعلنا كل ذلك. ولكنهم جميعاً في فلوريدا. لقد خسرنا كل شيء بعد خليج الخنازير».

بيدا هارفي يحاول أن يصطاد المعلومات ليعرف فيما إذا كان لنا أية موجودات هناك في ظل الوجود الاستعماري البريطاني في البحر الكاريبي.

فقلت له:

«أشك في ذلك. فالتعليمات في لندن واضحة، تفادي القضية الكوبية. ربما كان هناك شيء عند أم آي ٦. ولكن يجب أن تسألوهم.

وسألني انغلتون:

«كيف يمكن أن تعالجوا كاسترو؟».

فأجبته:

«نعزله.. نجعل الناس ضده....».

وقاطعني هارفي:

«ما رأيك بالقضاء عليه؟».

توقفت عن الكلام كي أطوي منديلي. وكان النوادل يمرون بصمت من طاولة إلى أخرى. لقد أدركت الآن لماذا أراد هارفي أن يعرف إن كنت موضع ثقة. فأجبته:

«لدينا الإمكانيات بالتأكيد. ولكن أشك في أننا سنستخدمها هذه الأيام».

«ولم لا؟».

«الظرف لا يناسب الآن. لقد خرجنا من موقف مماثل قبل سنتين، بعد حرب السويس».

في بداية أزمة السويس، قامت أم آي ٦ بوضع خطة من خلال مكتب لندن، لاغتيال جمال عبد الناصر باستخدام غاز أعصاب. وقد وافق إيدن في البداية على العملية، ولكنه ألغاها فيما بعد، عندما حصل على موافقة فرنسا وإسرائيل للقيام بعمل عسكري مشترك. وعندما فشل هذا العمل، وأجبر على الانسحاب، عاد إلى خيار الاغتيال مرة ثانية. وفي هذا الوقت كان جميع عملاء أم آي ٦ في مصر قد سيطر عليهم عبد الناصر. فقاموا بتخطيط عملية أخرى تعتمد على الضباط المصريين المرتدين عن عبد الناصر، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً. ويعود فشلها بشكل أساسي إلى أن المخبأ الذي وضعت فيه الأسلحة في إحدى ضواحي القاهرة كان معطوباً.

سألني هارفي:
«وهل كان لكم دور في العملية؟»
أجبته بصدق:
«دور هامشي فقط. في الجانب التقني من العملية».

أوضحت لهما بأن جون هنري وبيتر ديكسون استشاراني حول الخطة، كانا مسؤولين عن رسمها. وقد حضرت أنا وهنري وديكسون اجتماعاً مشتركاً لـ أم آي ٥ وأم آي ٦ لنبحث في القضايا التقنية للمخابرات، في مؤسسة أبحاث الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. كانت أبحاث الكيمياء في الخمسينات حقلاً مزدهراً. وكنت أتعاون مع أم آي ٦ في بحث مشترك يتعلق بإمكانية استخدام حبوب الهلوسة (LSD) في التحقيقات. قمنا بتجارب مكثفة على هذا الموضوع في المؤسسة. وقد تطوعت ذات مرة لإجراء الاختبار علي وكانت أم آي ٥ وأم آي ٦ تريدان معرفة مزيد من المعلومات عن السموم المتقدمة التي كان يتم تطويرها في مؤسسة أبحاث الأسلحة الكيميائية والبيولوجية، رغم الدوافع المختلفة لكلا المنظمتين. كنت أسعى للحصول على مضاد للسموم لمواجهة حالة ما يقوم فيها الروس بتسميم أحد المنشقين في بريطانيا. أما أم آي ٦ فكانت تريد السموم لاستخدامها خارج بريطانيا.

بحث معي كل من هنري وديكسون استخدام السم ضد عبد الناصر، وطلبا رأيي. وبالطبع فإن غاز الأعصاب هو أفضل وسيلة لسهولة استخدامه. وأخبراني بأن مكتب لندن لديه عميل في مصر ذو علاقة محدودة بأحد أماكن قيادة عبد الناصر. وكانت خطتهما تقضي بوضع عبوة غاز الأعصاب داخل نظام التهوية. فأخبرتهم بأن هذه الطريقة تتطلب كمية كبيرة من الغاز، بالإضافة إلى أنها تؤدي إلى مقتل عدد كبير جداً من رجال عبد الناصر. كانت الخطة في الواقع نموذجاً لعمل أم آي ٦ - غير واقعية أبداً - ولم أفاجأ عندما أخبرني هنري فيما بعد بأن إيدن نفسه تراجع عن العملية. كانت فرص إلغاء العملية أصعب بكثير من فرص باستركراب.

سألني أنغلتون وهارفي عن كل جزء ولو بسيط في عملية السويس.

قال هارفي:

«إننا على وشك تأسيس قسم في السي آي أي ليعالج مثل هذه القضايا ونحن نبحث في السوق عن الخبراء المناسبين».

كان صوت هارفي، عندما يكون جاداً، ينخفض ويصبح أحادي النبرة، والكلمات مختصرة... تماماً بنفس الطريقة التي يحب المسؤولون في واشنطن التحدث بها. ووضح لي

بأنهم يريدون أشخاصاً يمكن إنكارهم للعمل في هذا القسم، وتسهيلات تقنيّة محسنة. وكانا مهتمين جداً بفريق «ساس». كان هارفي يعلم بأن هذا الفريق عمل على الحدود السوفياتية في الخمسينات لرصد إشارات الصواريخ، قبل أن يبدأ عصر الأقمار الصناعية. وكانت التعليمات مشدّدة لهم بعدم تسليم أنفسهم للروس ولو تطلب الأمر القتال كي يخرجوا سالمين. فقلت لهارفي:

«إنهم لا يعملون مع أكثر من طرف. وأغلبهم الآن متقاعدين. وعلى أية حال يجب أن تسأل أم آي ٦ عن ذلك.

وشعر هارفي بالامتعاض وكأنني أتعمد عدم التعاون. فسألته:

«هل حاولت أن تتصل مع ستيفنسون؟ فالكثيرون يقولون بأنه كان يدير مثل هذا العمل في نيويورك أثناء الحرب. كما كان يستخدم الإيطاليون إذا لم يجد طريقة أخرى لمواجهة سفينة تجسس ألمانية. ربما المافيا، حسب معلوماتي...».

كان انغلتون يكتب في دفتره، وينظر بسلبيّة.

ثم قلت:

«الفرنسيون! هل جربتم الفرنسيين، إنها تناسبهم كثيراً، كما تعلمون، فالجزائر وغيرها».

وكتب انغلتون في دفتره. وسألني هارفي:

«ماذا عن الناحية التقنية؟ هل يوجد لديك أجهزة خاصة؟».

أخبرته بأنه بعد التخلي عن عملية عبوة الغاز، بدأت أم آي ٦ بالبحث عن أسلحة جديدة. وذات مرة ذهبت إلى مؤسسة أبحاث الأسلحة الكيميائية والبيولوجية لأرى عرضاً لعلبة سجائر، تم تعديلها من قبل مؤسسة أبحاث وتطوير المتفجرات، لينطلق منها سهم مسموم. لبسنا ثياباً بيضاء. ثم ذهبنا إلى أحد مجمعات الحيوانات ومعنا الدكتور لاديل وهو العالم الذي كان يتولى قضايا أم آي ٥ وأم آي ٦ في المؤسسة. وأحضر خروفٌ في وسط حلقة. وكان قد تم حلاقة الصوف عنه جانبياً لكي يظهر جلده الزهري. وسحب مساعد لاديل علبة السجائر وتقدم للأمام. ومشى الخروف إلا أن الحبل أوقفه، فاعتقدت بأن الجهاز أخطأ الهدف. ثم رأيت أرجل الخروف وهي تنثني وعينيه وهي تدور في محجريها. ثم سقط ومات. ثم اجتمع العلماء بثيابهم البيضاء حول الجثة ليناقشوا فاعلية السم. وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تصطدم فيها عاطفة حب الحيوان وعاطفة حب المخابرات في نفسي. ومنذ ذلك الوقت عرفت أن العاطفة الأولى هي الحب الأكبر. كما عرفت حينها بأن الاغتيال ليس سياسة سلم.

شعرت بأنني لا أستطيع أن أقدم لانغلتون وهارفي المزيد من المساعدة. ولم تعد رؤية دفتر أنغلتون تثير أعصابي. لقد كان واضحاً أنهما مصممان ومقتنعان تماماً بأن هذه هي الطريقة للتعامل مع كاسترو، وأعلنت لهما بهدوء بأنني لا أستطيع أن أقدم لهما أكثر من ذلك. فقلت لهما:

«ما رأيكما بجون هنري أو ديكسون ربما يعرفان أكثر مني؟».

ثم مشينا على الشارع وودعتهما. ففي الغد كان من المقرر أن أسافر إلى لندن».

قال هارفي:

«إنك لا تتكتم علينا بسبب هذا. أليس كذلك؟» وبدا مسدسه مرة أخرى تحت السترة. وأعتقد أنه كان يتحدث عن «رافتر».

أوقفت سيارة تكسي.

«لقد قلت لك يا بيل، نحن خارج اللعبة. نحن الطرف الأصغر في التحالف. هل تذكر ذلك؟ إنها مسؤوليتكم الآن».

لم يكن هارفي من النوع الذي يضحك لنكتة. وطالما أن المسألة وصلت لهذا الحد، فإن أنغلتون لم يضحك أيضاً.

الفصل الثاني عشر

العام ١٩٦١ . الناس في شوارع لندن يقولون «بأن الأمور لم تكن أبداً جيدة بهذا الشكل»، بينما الرئيس الشاب الجديد في واشنطن يحاول أن يصنع من نفسه أسطورة كاميلوت، في الثقافة وحسن التصرف. أما في عالم المخابرات والأسرار، كان شكل العقد المضطرب أصبح واضحاً. كانت المخابرات الأمريكية والبريطانية تخوض الحرب لمبادرة بهدف واضح وتكريس كامل. ورغم أنها لم تكن حرباً هينة إلا أنه كان فيها بعض التعقيدات المميزة. ومع بداية الستينات بدأ المنشقون بالتدفق إلى الغرب قادمين من قلب آلة المخابرات السوفياتية، وكل واحد يروي الروايات عن اختراق الأمن الغربي. كانت رواياتهم في الغالب متناقضة ومشوشة، فلعبوا دوراً في بدء الشلل البطيء في المخابرات الأمريكية والإنجليزية حيث بدأ الشك يسري في النظام الاستخباري

وصل أول المنشقين في كانون أول ١٩٦١ . كنت ذلك اليوم في مكتبي بعد عدة أسابيع من عودتي من واشنطن، عندما دخل آرثر وفي يده سيجارة، وفي اليد الثانية نسخة من جريدة «التايمز». قدم لي الجريدة المطوية، وقال وهو يشير إلى فقرة صغيرة تتعلق بضابط سوفياتي كبير اسمه كليموف، لجأ هو وزوجته وطفله إلى السفارة الأمريكية في هلسينكي طالباً اللجوء السياسي.

لم يمضِ كثير وقت حتى سمعنا بأن كليموف كان في الحقيقة مأجوراً في ال «ك ج ب». وفي آذار من عام ١٩٦٢ كان آرثر يجوب مكاتب الشعبة د. كان يدخن أكثر من المعتاد، وبدا الحماس على وجهه الطفولي بينما كان يذرع الممرات، فعلمت بأن معلومات كليموف قد وصلت.

سألته ذات يوم:
«إنه المنشق أليس كذلك؟»

أخذني إلى غرفة مكتبه، وأغلق الباب، وسرد علي بعض أجزاء القصة. فأخبرني بأن كليموف لم يكن في الواقع سوى أناتولي غوليتسين، أحد كبار الضباط في ك ج ب، والذي كان يعمل في المديرية الأولى مسؤولاً عن العمليات ضد المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. كما عمل في قسم المعلومات في موسكو، قبل أن يحصل على وظيفة في هلسينكي. وكان غوليتسين في قائمة المراقبين من قبل السي آي أي أثناء جولاته في الخارج. ولكن لم يستطيعوا التعرف عليه بهويته المزيفة إلى أن أعلن عن نفسه في هلسينكي.

بعد الاستجواب الأولي قامت السي آي أي بإرسال قائمة إلى الأم آي ٥ تضم عشر أوراق متسلسلة زعم غوليتسين في كل واحدة منها بوجود اختراق في الأمن البريطاني. وبدأ آرثر في معالجة القائمة كاملة. أما باتريك ستيوارت نائب مدير الشعبة د ٣ (الأبحاث) فقد بدأ بعمل تحليل أولي للأوراق، وأخرج منها قائمة من المشبوهين تتشابه مع ما ورد في كل ورقة. ثم قام بعمل قوائم تحمل تفصيلات فردية وزعها على عدة ضباط في الشعبة د ١ (التحقيقات)، للتحقيق. وقد طلب مني تقديم المساعدة التقنية كلما اقتضى التحقيق ذلك.

ثلاث أوراق من العشر أوراق الأولى أصابت الهدف. فقد قال غوليتسين بأنه يعرف شبكة من خمسة جواسيس تم تجنيدهم في بريطانيا في الثلاثينات. وكان كل واحد منهم يعرف الآخر، وأن البقية جواسيس. لكن غوليستين لم يستطع تحديد هوية أي منهم. وكل ما استطاع أن يقوله هو أن الاسم الرمزي لأحدهم هو ستانلي، وأن له علاقة منذ وقت قريب بعمليات ال ك ج ب في الشرق الأوسط، مما يشير بشكل لا لبس فيه إلى كيم فيلبي الذي كان وقتها يعمل مراسلاً لصحيفة الأوبزيرفر في بيروت. وقال أيضا بأنه يعرف أن بيرغيس وماكلين كانا ضمن هذه الشبكة. واعتقدنا بأن الرابع يمكن أن يكون السير انتوني بلانت، مؤرخ صور الملكة، والذي كان ضابطاً سابقاً في أم آي ٥ أثناء الحرب. وكان قد وقع في دائرة الشك بعد هرب بيرغيس وماكلين عام ١٩٥١. أما هوية الرجل الخامس فكانت سراً غامضاً. ونتيجة لما جاء في أوراق غوليتسين حول شبكة الخمسة، تم إحياء قضيتي فيلبي وبلانت، ووضعت للتقييم من جديد.

كانت الورقة الثالثة والثامنة هما أوضح الأوراق العشر وأدقها. أشارتا إلى جواسيس في البحرية، مثل هاوتن، وإلى أهمية حصول الروس على تفاصيل عن الغواصات البريطانية وغواصات الأطلسي. وزعمت الثالثة وجود تجنيد في مكتب الملحق البحري البريطاني في السفارة بموسكو. وجرت هذه العملية بإشراف مباشر من الجنرال غريبانوف رئيس المديرية

الثانية، المسؤولة عن العمليات الاستخبارية الداخلية في الاتحاد السوفياتي. وشارك فيها أيضاً موظف روسي يعمل في السفارة واسمه ميخائيلسكي. وقدم الجاسوس ملاحظات مكتوبة باليد مأخوذة من وثائق سرية كانت تمر بمكتبه. وقال غوليتسين بأن هذا العميل عاد إلى لندن في عام ١٩٥٦ ليعمل في المخابرات البحرية، الأمر الذي تطلب نقل إدارته إلى قسم العمليات الخارجية.

أما الورقة الثامنة فقد زعمت بأن الجاسوس الثاني في البحرية كان ضابطاً أعلى رتبة. وقال غوليتسين بأنه اطلع على نسخ من ثلاث وثائق تخص حلف الناتو، اثنتان منها مصنفتان سري جداً. اطلع عليها بالصدفة بينما كان يعمل في المكتب الخاص بحلف الناتو في قسم المعلومات في ال ك ج ب، الذي كان يعد الأوراق السياسية للمكتب السياسي حول الناتو. فأثناء عمله في تحضير تقرير عن استراتيجية الناتو البحرية، وصلت من لندن ثلاث وثائق. كانت طبيعة عمل غوليتسين تتطلب أن تصله الوثائق وقد أعيدت كتابتها لإخفاء المصدر. لكن السرعة لإنجاز التقرير بين يديه فرض مسألة اطلاعه على نسخ منها. أجرت السي آي أي اختباراً لمعرفة مدى صدق غوليتسين. فعرضت عليه عدة وثائق متشابهة بينها الثلاثة المذكورة. فتعرف على الثلاث فوراً. كانت هذه الوثائق تتعلق بخطط توسيع قاعدة غواصات كلايد / بولاريس، وإعادة تنظيم مواقع حلف الناتو في البحر المتوسط. وتعرف غوليتسين على الوثائق، حتى انه ذكر بأن وثيقة كلايد كانت تحتوي على أربع مجموعات أرقام حسب قائمة التوزيع، في حين أن نفس الوثيقة التي أريناه إياها كانت تحتوي ست مجموعات. وعند التدقيق في قائمة التوزيع وجدنا رقم الوثيقة ولكن لم نستطع العثور على الوثيقة نفسها. جاء في تحليل باتريك ستيوارت بأن أحد كبار ضباط البحرية، المتقاعد الآن، بدا أنه المرشح المعقول. فتم تسليم القضية إلى الشعبة د أ (التحقيقات).

بعد عدة أشهر من وصول غوليتسين، قام ثلاثة آخرون بالهرب من قلب آلة الاستخبارات السوفياتية، بشكل مفاجىء، وكل منفصل عن الآخر كما بدا لنا. وعبروا عن رأيهم في تقديم الخدمة للمخابرات الغربية. كان أثنان منهم يعملان ضمن الوفد السوفياتي إلى الأمم المتحدة، الأول ضابط ك ج ب والثاني ضابط استخبارات عسكرية. اتصلا بالأف بي آي وعرضا العمل كعملاء. وأعطيا اسمين رمزيين «فيدور» و «توب هات». أما الثالث، فكان ضابطاً كبيراً في ال ك ج ب، اسمه يوري نوسينكو. اتصل بالسي آي أي في جنيف عام ١٩٦٢ وعرض تقديم خدماته.

قدم نوسينكو فيما بعد مؤشرات مهمة جداً للقبض على الجواسيس البحريين البريطانيين. وزعم بأن عملية غريبانوف تمت من خلال ابتزاز الشذوذ الجنسي، وأن العميل

زوّد ال ك ج ب بجميع أسرار الناتو من «الورد في البحرية». قامت أم آي ٥ بربط الورقة الثالثة بالورقة الثامنة، فتوصلنا إلى وجود مشبوه واحد واضح هو موظف في مكتب اللورد كارينغتون، واسمه جون فاسال. كان اسمه وارداً ضمن أربعة أشماء في قائمة المشبوهين في الورقة الثالثة التي أعدها باتريك ستيوارت. عندما عرضت القائمة على الضابط المحقق روني سيموندز، عارض رأي ستيوارت فيما يتعلق بفاسال. كان سيموندز يعتقد بأن فاسال الكاثوليكي المتدين والذي يظهر دائماً بمظهر الرجل الخلوق أبعد من أن يكون جاسوساً. لذلك وضع اسمه في آخر القائمة. بعد مراقبته بناء على ما رواه نوسينكو تم التثبت من أن فاسال يمارس للشذوذ ويعيش بعيداً عن الأخلاق والدين في شقة فخمة في دولفين سكوير. وجدت أم آي ٥ نفسها أمام قضية مكافحة تجسس كلاسيكية. فالجاسوسية تختلف عن أي جريمة أخرى في صعوبة إثباتها. ولا يتم الإثبات إلا بأحد طريقين، الأول اعتراف الجاسوس المباشر والثاني إلقاء القبض عليه متلبساً. سئلت فيما إذا كان لدي طريقة تقنية تثبت نقل فاسال لوثائق من البحرية. وكنت في هذه الأثناء أجري التجارب مع فرانك مورغان على تأشير الوثائق السرية باستخدام مواد مشعة دقيقة جداً. كانت الفكرة تقوم على وضع جهاز «جايجر» في مدخل البناء حيث كان يعمل المشتبه به، بحيث نستطيع رصد خروج فاسال بأية وثائق سرية. وعندما طبقنا العملية فشلنا. كان لمبنى قيادة البحرية عدة مخارج كان من الصعب تحديد من أي منها سيخرج فاسال. بالإضافة إلى أن.جهاز «جايجر» لم يكن يعمل بشكل جيد بسبب تأثره بخطوط البث المختلفة هناك. في النهاية تم وقف الخطة بسبب خوف الإدارة من تعرض الناس هناك لمزيد من الإشعاع.

بدأت أبحث عن طريقة أخرى. كان واضحاً من الاختبار الذي أجرته السي آي إي على غوليتسين بأن لديه ذاكرة فوتوغرافية جيدة. لذا قررت أن أجري عليه اختباراً آخر لأرى فيما إذا كان باستطاعته تذكر أية تفاصيل عن نوع صور وثائق حلف الناتو التي شاهدها. وخلال هذه العملية أستطيع أن أعرف ما إذا كان فاسال يسلم الروس الوثائق السرية نفسها ليقوموا بنسخها ومن ثم إعادتها إليه، لذلك قمت بعمل ٢٥ صورة مختلفة للصفحة الأولى من وثيقة قاعدة كلايد. كل واحدة منها تشبه طريقة محددة كنا نعرف أن الروس يستخدمونها داخل السفارة. قمت بإرسال هذه الصور إلى غوليتسين عن طريق السي آي أي. وحال رؤيته لها التقط غوليتسين إحدى الصور المأخوذة بواسطة كاميرا براكتينا. وبعد حصولنا على هذه المعلومة رتبنا عملية سطو على شقة فاسال عندما كان في العمل. فوجدنا الكاميرا مخبأة في درج خاص أسفل طاولة المكتب. كما وجدنا كاميرا أخرى من نوع مينوكس. اعتقلناه مساء ذلك اليوم، وأخذنا تصريحاً بتفتيش الشقة. فوجدنا في زاوية إحدى الطاولات ثقباً صغيراً فيه عدد من أفلام ٣٥ مم المظهرة، وعليها صور (١٧٦) وثيقة سرية. اعترف فاسال بتجنيده

بتعقب شذوذه عام ١٩٥٥ في موسكو. وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر عاماً.

ومع تدفق المنشقين من موسكو إلى لندن وواشنطن بدأت أواجه أزمة خاصة. فقد أثارت قضية لانزديل من جديد مسألة المصادر المالية لأم آي ٥ و أم آي ٦. إذ لم نستطع الحصول على مصدرٍ آخر غير مؤسسة أبحاث الحرب النووية التي بدأنا العمل معها أنا وفرانك مورغان عام ١٩٥٨. وفشلت عملية تمويل المخابرات عن طريق ميزانية الدفاع العامة، وخاصة تمويل حقل الالكترونيات المتقدمة. كنا وقتها ندخل بسرعة عصر الأقمار الصناعية والكمبيوتر في عمل المخابرات. ونتيجة لفصل لجنة عمليات الرادار إلى قسمين، واحد للأسرار والثاني لمكافحة الأسرار، بدا واضحاً أن مدى عملهما يعتمد على مزيد من الأبحاث العلمية والتقنية، لا مجرد الاكتفاء بما كان متوفراً. وكان الجميع يدركون بأن أسلوب تشكيل اللجان الخاصة الذي كنت أناضل من أجل تغييره، أصبح قديماً ولا بد من إصلاحه بشكل شامل. وكانت أم آي ٥ وأم آي ٦ بحاجة ماسة إلى مؤسساتهما وميزانيتهما، وموظفيهما الخاصين. وبعد قضية لانزديل بوقت قصير اتصلت بالسير ويليام كوك مرة أخرى بموافقة أم آي ٦ لعرض كامل متطلبات الجهازين عليه. أمضينا عدة أيام نزور معاً مؤسسات الدفاع المختلفة التي كانت تمده بالمساعدة. ثم قام كوك بكتابة تقرير مفصل، كان أهم تقرير في تاريخ المخابرات البريطانية في فترة ما بعد الحرب.

كان جوهر تقرير كوك ينص على ضرورة توسيع مركز اتصالات هانزلوب، الذي كان مركز قيادة الإشارة أيام الحرب، وأصبح بعدها مركزاً لاتصالات أم آي ٦ مع عملائها في الخارج، توسيعاً جذرياً ليصبح مؤسسة ابحاث لأم آي ٦ وأم آي ٥. كما أكد التقرير على أهمية الالكترونيات المتقدمة في عمل لجنتي الأسرار والأسرار المضادة. واقترح كوك بأن يكون طاقم الموظفين الجدد من الخدمات العلمية البحرية الملكية. وكان هذا الأمر بالنسبة لي هو أهم إصلاح. فمنذ انضمامي إلى أم آي ٥ حشدت كل الطاقات من أجل إزاحة الحاجز المصطنع الذي كان يقسم الخدمات التقنية في المخابرات، عن غيرها من الأقسام في الخدمات العلمية المدنية. كان هذا الحاجز مدمراً، فقد حرم المخابرات من أفضل وأنبه العلماء الشباب. أما بالنسبة لي شخصياً كان هذا الحاجز يعني أن أخسر حوالي عشرين سنة من التقاعد الذي كان يمكن أن أحصل عليه من البحرية، فيما لو لم أقبل العمل مع أم آي ٥. كنت أضغط على كوك باستمرار فيما يتعلق بهذه النقطة بينما كان يكتب تقريره. وكان يؤيد وجهة نظري. نتيجة لهذا التقرير تم نقل خمسين عالماً إلى هانزلوب مع المحافظة على تقاعدهم، وحقهم في العودة إلى عملهم السابق في أي وقت يشاؤون في المستقبل. ولأنني كنت أول عالم في أم آي ٥ فإن الترتيبات الجديدة لم تشملني كما أنني لم أبدِ أي انزعاج من

هذا الأمر. كنت أعتقد بأنه سيتم تعويضي كما وعدوني في الوقت المناسب. وللأسف كانت ثقتي في غير محلها.

كما تضمن تقرير كوك نقطة أخرى. أوصى بأن تنشىء أم آي ٥ وأم آي ٦ قيادة مشتركة يرأس عملها عالم، لتخطط وتشرف على برامج الأبحاث الجديدة لصالح الجهازين. كانت هذه خطوة شجاعة ومهمة. اعترف بأنني كنت أطمح بالوصول إلى هذه الوظيفة أكثر من طموحي لأي شيء آخر في العالم. ولا أجانب الحقيقة إذ أقول بأنني شعرت أنني سأحصل عليها. لقد كان الفضل الأساسي لي في التحديث الذي طرأ على أم آي ٥/ أم آي ٦ منذ عام ١٩٥٥، كما أنني أمضيت فترة زمنية طويلة أسعى لتوفير الامكانات والمصادر المالية. ولكن هذا لم يحصل. حشد فيكتور روتشيلد كل قواه إلى جانبي، ولكن ديك وايت أخبره أن الحقد الدفين في أم آي ٦ بسبب نقله هو من أم آي ٥ أكبر من أن يسمح لنا بإقناع كبار الضباط التقنيين هناك بالموافقة على العمل تحت إمرة أي ضابط من أم آي ٥. في النهاية تم حل القضية في اجتماع لجنة كول مور. وعندما اجتمعت اللجنة لمناقشة تقرير كوك، قام هيكتور ويليس، رئيس الخدمات العلمية البحرية، بالتطوع لاشغال وظيفة رئيس المديرية العلمية الجديدة، بعد أن قدم استقالته من الخدمات العلمية. فوافق كلٌ من هوليس ووايت على تعيين ويليس رغم معرفتهما الأكيدة بالروح البيروقراطية التي سيضفيها على عمل المديرية. أما أنا فأصبحت نائب رئيس مشارك، مع جوني هوكس نظيري في أم آي ٦ الذي طور جهاز «روككس» للشيفرة.

كنا، أنا وويليس، نعرف بعضنا بشكل جيد. كان ريفياً مرحاً من الشمال ذا شعر أبيض وحواجب سوداء. كما كان دائم التأنق في ملبسه. عملت تحت إمرته في أيام الحرب في حقل حرب الغواصات. وكان عقله رياضياً جداً، وافضل مني بكثير، بالإضافة لكونه عالماً مبدعاً. رغم كوننا مهندسين إلا أننا كنا مختلفين تماماً في وجهات نظرنا حول إدارة المديرية الجديدة. كنت أرى دور المهندس العالم في عمل المخابرات على أنه مصدر للتجارب التي يمكن أن تؤدي إلى نتيجة أم لا، إذ أن النجاح الذي حققته منذ ١٩٥٥ كان يعتمد دائماً على التجربة والتحسين. أردت أن تكون المديرية مركزاً قوياً، لرعاية وتوسيع مختلف الإنجازات التي كانت وراء تشكيل لجنة عمليات الرادار. أما ويليس كان يريد من المديرية أن تكون منظمة إيجابية، أي فرعاً من صناعة الدفاع بشكل عام، تنتج حسب الطلب. حاولت أن أوضح له بأن عمل المخابرات يختلف عن صفقات الدفاع في أنه ليس عملاً سلمياً. فهو حرب دائمة تواجه فيها باستمرار هدفاً متحركاً. فالتخطيط طويل الأمد لا يجدي، كما تفعل البحرية عند انتاج سفينة جديدة، إذ ما أن تجد نفسك متأخراً سنة أو سنتين عن الخطة حتى

تجد أن الأسرار تسربت إلى الروس. وطَرحت له مثالاً على ذلك نفق برلين، الذي دفعنا فيه عشرات ملايين الدولارات، لندرك في وقت متأخر بأن الروس يعلمون به منذ البداية عن طريق جورج بليك سكرتير لجنة التخطيط. كان رأيي دائماً تطوير مخزون من الأجهزة البسيطة مثل الميكروفونات ومكبرات الصوت التي يمكن أن تعيش مدة معقولة. ولكنني كنت أعارض تطوير أجهزة معقدة تشرف على تصميمها لجان، الأمر الذي يؤدي إلى تسربها للروس قبل إدخالها العمل أو أن تكون الحرب تجاوزت هذا النوع من الأجهزة.

لم يفهم ويليس أبداً ما كنت أرمي إليه. وشعرت بأن كان ينقصه الخيال، لذلك لم يشاركني وجهة نظري في إمكانات المخابرات العلمية. كان يريد مني أن استقر وأنسى الحياة التي عشتها، وألبس معطفاً أبيض لأشرف على العقود. أجبرت على ترك ليكون فيلد لأنتقل إلى بكنغهام غيت. كان الجزء الأخير من عام ١٩٦٢، الذي حل بسرعة بعد فترة الإنجازات في عام ١٩٦١، أسوأ فترة في حياتي العملية. كنت أمضيت سبع سنوات في حرية نادرة أتنقل بين أقسام أم آي ٥، لأشارك في كافة العمليات بنشاط. كان الأمر بالنسبة لي مثل ترك الخنادق للالتحاق بالحرس الوطني. ومنذ لحظة دخولي المكاتب الجديدة شعرت بأنه لا مستقبل لي فيها. فالابتعاد عن ليكون فيلد يبعدني عن أجواء الميكروفونات وأجهزة اللاسلكي. لذلك قررت أن أترك المديرية إما بالانتقال إلى وظيفة أخرى في أم آي ٥ إذا ما وافقت الإدارة، أو إلى قيادة الاتصالات الحكومية.

أدرك آرثر ما أعانيه. وكان يحاول دائماً أن يجد المبررات لإشراكي في العمل في قضية غوليتسين. ففي ١٩٦٢ ذهب إلى واشنطن وحصل على استجواب كبير لغوليتسين. وعاد من هناك ومعه ١٥٣ ورقة تستدعي المزيد من التحقيق. كانت بعض أوراقه غير ضارة، مثل زعمه بتجنيد المخابرات الروسية لمغن مشهور في لندن بحكم علاقاته الجيدة مع علية القوم هناك. وبعضها الآخر كان صحيحاً تماماً. ولكن أغلب المعلومات التي أدلى بها غوليتسين كانت غير دقيقة. كانت للوهلة الأولى تبدو صحيحة إلا أنها سرعان ما تتلاشى في بحر من الغموض. وكانت هناك مشكلة معه هي أنه كان يعتبر المعلومات مصدراً هاماً لاستمراره في الحياة. لذلك كان يخفي الكثير منها.

طلب مني آرثر المساعدة في واحدة من أغرب المعلومات التي قدمها غوليتسين وهي قضية سوكولوف غرانت. كانت المشكلة نموذجاً للصعوبات التي كنا نواجهها في المواد المستخلصة من استجوابه. فقد قال لنا بأن العميل الروسي تم وضعه في سفولك بجانب مطار عسكري فيه أحدث الصواريخ الموجهة. وبدا غوليتسين متأكداً من أن العميل من النوع الراقد، من المحتمل استخدامه في عمليات تخريبية في حالة نشوب أزمة دولية. اتصلنا

بسلاح الجو الملكي، وجدنا ستريتشال على أنه المطار المقصود. ثم قمنا بفحص القائمة الانتخابية للمنطقة حول المطار بحثاً عن أي اسم ذي قيمة. وبعد عدة أيام وجدنا اسماً روسياً، سوكولوف غرانت. ثم دققنا المعلومات مع السجل فوجدنا أن له ملفاً هناك. وعرفنا بأنه مهاجر روسي جاء إلى بريطانيا قبل خمس سنوات وتزوج من فتاة بريطانية، ويعمل الآن مزارعاً مأجوراً في المنطقة المحيطة بالمطار.

تسلم تشارلز إلويل القضية للتحقيق فيها، فأثبتت كافة التحريات ورصد التلفون ومراقبة الرسائل بأنه لا غبار عليه. طلب مني أن أقوم بالبحث في بيته، أثناء غيابه وزوجته في عطلة، لنرى فيما إذا كان لديه أية أجهزة تؤدي إلى تجريمه. وهكذا ذهبت إلى المنطقة برفقة جون ستورر من القسم م في قيادة الاتصالات الحكومية، والذي كان يعمل في مكافحة الأسرار عن طريق «رافتر». كان سوكولوف غرانت يعيش في بيت جميل داخل مزرعة تنقصها بعض التصليحات. وبإمكان المرء أن يرى من الحديقة الخلفية طرف مدرج المطار الممتد عبر الحقول. بدا الوضع مثالياً ودقيقاً، ولا يثير الشبهة مطلقاً. وهذا بالضبط ما كان يثير غضبي في التجسس: كان يجري دائماً ضمن مشاهد إنجليزية عادية جداً ومملة.

انطلق ستورر للبحث في المزرعة عن أية علائم تشير إلى وجود أجهزة اتصال سرية، بينما دخلت إلى البيت، فوجدته في حالة كبيرة من الفوضى. كانت الأوساخ منتشرة في كافة الممرات والكتب مكومة في الغرف الأرضية. اعتقدت في البداية بأنهم يوشكون على الرحيل منه. إلا أنني لاحظت طبقة كبيرة من الغبار تغطي كل شيء. عثرت في غرفة المكتبة على طاولتي مكتب متجاورتين. كانت الرفوف فوق احداها مليئة بالكتب. وعندما ألقيت نظرة على الأخرى وجدتها فارغة تماماً. ثم فتشت الأدراج فبدت لي نظيفة وكأنها أفرغت للتو. جلست على مقعد مقابل الطاولتين أحاول أن أصل إلى شيء من وراء أن تكون احداها مليئة بشكل كبير والثانية فارغة نهائياً. هل تم نقل محتويات احداها إلى الأخرى؟ أم هل تم تفريغ تلك الفارغة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ هل تبعث على الشك، أم أتقبل الوضع كما هو؟

بدأت أبحث في الأوراق في طاولة المكتب المتخمة بالكتب، وكانت كلها تتعلق بعمل المزرعة. لم يجد جون ستورر أي شيء في الخارج. وعدنا أدراجنا. وأخيراً ذهب تشارلز إلويل ليرى سوكولوف غرانت ويطرح بعض الأسئلة في القرية. وعاد مطمئناً إلى أن سوكولوف نظيفاً. فافترض بأن غوليتسين رأى اسم سوكولوف على قائمة المطلوب الاتصال بهم ولكنهم لم يتصلوا به مطلقاً.

بعد فترة قصيرة رحل سوكولوف غرانت وزوجته من المنطقة. ربما تسربت أسئلتنا إلى القرية ففضل أن يبدأ بداية جديدة. ورغم كل العبثية في قصة سوكولوف غرانت إلا أنها كانت

تعني لي شيئاً هاماً: رجل عادي يقع فجأة في دائرة الشك، ثم تبرأ ساحته بنفس السرعة. ولكن حياته تتغير من وراء جملة قالها رجل آخر لا يعرفه مطلقاً بل ويعيش في الجانب الآخر من العالم. وريف سفولك الهادىء يتصادم مع الخيانة في العالم السري، حيث لا يوجد مصادفات، وحيث يثور الشك فوراً حال رؤية مكتب فارغ. أما أهم المعلومات الدقيقة في أوراق غوليتسين فكانت تلك المتعلقة بوجود اختراق في أم آي ٥. وعلمت بها عن طريق آرثر بعد عودتي بقليل من واشنطن. قال غوليتسين بأنه رأى الخزنة الحديدية الخاصة في قيادة ال ك ج ب، حيث يتم حفظ الوثائق المتعلقة بالمخابرات البريطانية. كما رأى جدول الوثائق المحفوظة في الخزنة وأكد وجود مواد جديدة من أم آي ٥ فيها. كما زعم بأن ك ج ب حصلت على وثيقة من المخابرات البريطانية وأعطتها الاسم الرمزي «تكنيك». وهي وثيقة ضخمة تضم قائمة بالمعدات التقنية في المخابرات البريطانية. ولم يكن باستطاعته دراستها عن قرب، لأنه دعي ليحاول ترجمة فقرة بسيطة منها. ولكن يبدو أنها كانت وثيقة مهمة وإلا لما اضطروا إلى الترجمة بشكل سريع. وأضاف غوليتسين بأن الترتيبات الأمنية تغيرت في السفارة الروسية بلندن. فقد ألغيت وظيفة الضابط الأمني الخاص. وعبر عن اعتقاده بأنه لم يكن هناك حاجة للترتيبات الأمنية لأن الـ ك ج ب تخترق أم آي ٥ بشكل كامل. ثم تحدث عن قضية كراب. وقال بأن الروس تلقوا تحذيراً مسبقاً عن مهمة كراب ضد البارجة أوروجونيكيدزه.

وفي آب ١٩٦٢، حققنا تقدماً في قضية فيلبي، في الوقت الذي كانت فيه أم آي ٥ مازالت مشغولة بهضم المعلومات التي قدمها غوليتسين. فقد التقى فيكتور روتشيلد مع مهاجرة روسية صهيونية هي فلورا سولومون في إحدى الحفلات في إسرائيل، وأخبرته بأنها مستاءة جداً من المقالات التي كتبها فيلبي لصحيفة الأوبزيرفر، لمعاداتها لإسرائيل. وباحت بأنها تعرف أن فيلبي كان عميلاً سرياً منذ الثلاثينات. وبذل فيكتور روتشيلد محاولات يائسة لإقناع فلورا بمقابلة آرثر مارتن في لندن لتخبره قصتها مع فيلبي. طُلب مني أن أقوم بزرع الميكروفونات في شقة فيكتور حيث من المقرر أن تجري المقابلة. قررت أن أضع جهازاً للرصد على التلفون، الأمر الذي آثار عصبية فيكتور. وقال:

«أنا لا أثق بكم أيها الفنيين، فهل حقاً ستزيله بعد المقابلة؟». وأجبرني على الوعد بأن أقوم بإزالته بيدي. كان فيكتور يعتقد بأن أم آي ٥ تقوم بالتنصت عليه سراً، لمعرفة تفاصيل علاقته القوية مع الإسرائيليين. ولكنني وعدته وعداً صادقاً، وقابلت الفنيين بعد ظهر ذلك اليوم وتأكدت من سير عملهم. كما قمت بالإشراف على عملية إزالة الجهاز بعد انتهاء المقابلة.

تابعت المقابلة من مكاني في مبنى ليكون فيلد من الطابق السابع. كانت فلورا

سولومون امرأة غريبة، أكثر من كونها غير أهل للثقة. فقد أبت أن تقول الحقيقة عن بعض الأشخاص الذين عرفتهم في الثلاثينات، مثل فيلبي، رغم أنه بدا واضحاً أنها تحقد عليه. وبعد محاولات متعددة نجح آرثر في إقناعها بقول الحقيقة. فقالت بأنها كانت تعرف فيلبي قبل الحرب. وكانت معجبة به. ودعاها ذات مرة للغداء في لندن أثناء تواجده هناك في إجازة من إسبانيا حيث كان يعمل مراسلاً لصحيفة التايمز في فترة الحرب الأهلية. وأثناء تناولهما الطعام اخبرها فيلبي بانه يقوم بعمل خطير من أجل السلام ـ وبأنه يطلب مساعدتها له في مهمته. وأنه يعمل لصالح الكومنترن والروس. عرض عليها الانضمام إليه لخدمة القضية. لكنها رفضت، وقالت له ان بامكانه أن يلجأ إليها في كل مرة يشعر فيها بالخيبة.

توقف آرثر عن طرح الأسئلة على المرأة. واستمع إلى قصتها هذه، دون أن يهتم كثيراً بما إذا قامت بدور أكثر إيجابية، مما ذكرت أثناء الثلاثينات. كانت تقاطع الأسئلة بين حين وآخر وتنفعل وتثور. وتقول:

«لن أدلي بشهادة علنية. فهذا أمر خطير للغاية. ألا ترون ماذا حدث لتوماس منذ تكلمت مع فيكتور». كانت تشير بذلك إلى موت توماس هاريس، وهو أحد الأصدقاء المقربين من فيلبي الذي توفي في حادث سيارة، غامض في اسبانيا. وتضيف فلورا:

«سيتسرب الأمر، فماذا سيحصل لعائلتي؟».

رغم أنها أبدت خوفها من الروس، فقد بدا واضحاً تعلقها بفيلبي. وقالت إنها مازالت تهتم به، وراحت تكيل له اللوم على الطريقة التي عامل بها نساءه. ورغم أنها لم تعترف لنا بحبها لفيلبي، إلا أنني شعرت من طريقة حديثها بأنهما كانا عشيقين في الثلاثينات. وقامت فيما بعد بالانتقام منه.

قرر كل من ديك وايت عن أم آي ٦ وروجر هوليس عن أم آي ٥ التحقيق مجدداً مع فيلبي في بيروت، بعد ربط معلومات فلورا سولومون بالمعلومات التي حصلنا عليها من غوليتسين. وقد أمضت إيفلين ماك بارنيت الفترة من آب ١٩٦٢ حتى نهاية العام وهي تعد نفسها للمواجهة. ولكن الخطة تغيرت في آخر لحظة. كان تقرر إرسال آرثر إلى بيروت بحكم ارتباطه بقضية فيلبي منذ البدايات في عام ١٩٥١، وكان أكثر المطلعين عليها. لكن قيل له بأن نيكولاس اليوت سيذهب إلى بيروت بدلاً منه. كان اليوت، رئيس مكتب بيروت، موجوداً حينها في لندن. كما أنه أصبح مقتنعاً تماماً بأن فيلبي جاسوس. وساد شعور بأنه أنسب شخص يستطيع التأثير على مشاعر فيلبي. دب الرعب في قلوب القلة في أم آي ٥ الذين لم يعلموا بذلك. كنا في أم آي ٥ لا نشك منذ البداية بأن فيلبي مذنب، ولدينا الآن الدليل الذي

يضعه في الزاوية. بينما كان أصدقاء فيلبي في أم آي ٦، ومن بينهم اليوت، يدافعون عنه وعن براءته. والآن، وبعد أن أصبح الدليل متوفراً بشكل لا يدحض، يحاولون إبقاء القضية في حدود البيت. لذلك أثار اختيار اليوت الغضب الشديد بيننا. ولكن القرار تم اتخاذه، فسافر اليوت في كانون الثاني ١٩٦٣ إلى بيروت، ومعه عرض بحصانه شكلية.

بعد أسبوع عاد اليوت منتصراً. اعترف فيلبي، وأقر بأنه بدأ التجسس منذ سنة ١٩٣٤. وبأنه يفكر بالعودة إلى بريطانيا. كما أنه كتب اعترافه خطياً. وأخيراً تم حل هذه القضية الغامضة.

أصبح اليوم الذي اعترف فيه فيلبي تاريخاً نؤرخ به في العالم السري لأهم الأحداث في حياتنا الشخصية. فأنا كنت في حوالي الخامسة والأربعين من عمري. فالشك بالخيانة شيء، وأن تسمع الخائن يعترف شيء آخر. وفجأة لم نعد نشعر بأي مرح في المسألة وبدا بأن مرحلة كاملة انتهت. فالقبض على فيلبي ليس مثل القبض على لانزديل حيث كانت الأخيرة عملية «عسكر وحرامية». أما أن تكتشف خيانة شخص مثل فيلبي، يمكن أن تحبه، وتشرب معه أو حتى تعجب به، وتفكر بالعمليات العديدة والعملاء الكثر الذين ضاعوا، وبالشباب الضائع في هذه العمليات، فلا شك بأنها مصيبة. وحل علينا ظلام العصور الوسطى.

وبعد عدة أيام أوقفني آرثر في الممر. بدا هادئاً إزاء حجم الخبر:

«لقد هرب كيم».

«يا إلهي.. كيف..؟».

ابتسم آرثر ابتسامة مغتصبة. وقال:

«لقد هرب، كما هرب الشباب في ١٩٥١».

كان هرب فيلبي جرحاً عميقاً في معنويات كبار الضباط في أم آي ٥. فحتى ذلك الوقت كانت قضية الاختراق تعالج بشكل سري. أما الآن فقد أصبحت المخاوف علنية. لقد هرب ماكلين عام ١٩٥١ بتوجيه من داخل أم آي ٥. ولا بد أنه يوجد الآن رجل خامس ساعد فيلبي على الهرب. وبالطبع كانت هذه الفكرة تلتقي تماماً مع المعلومات التي حصلنا عليها من غوليتسين حول شبكة الخمسة. فهناك بيرغيس وماكلين وفيلبي، وبالتأكيد بلانت، والخامس. هناك الشخص الخامس الذي لم يُكشف عام ١٩٥١، وبقي بعيداً عن المراقبة، بل ويُراقِبُ الآن فتح القضية.

كنت غالباً ما أتحدث في الموضوع مع هيو وينتربورن. فيقول لي بأنه مقتنع تماماً بأن جهازنا مخترق على مستوى عالٍ؟

«لا أصدق اننا عاجزون بالشكل الذي نبدو عليه. . ».

كان لعملية «كوير»، التي اكتشفنا أثناءها بأن الروس قاموا بسد الثقب لتعطيل الميكروفون الجسّاس، أثر كبير على تفكير وينتربورن، رغم أنه ظل يتحدث عنها طوال ثماني سنوات بحيوية. كما كان هناك العديد من الأحداث التي زرعت الشك في نفسه. فزرعنا جهاز تنصت صغير على تلفونات السفارة الصينية. لكن الروس قاموا مباشرة بنزعه. وبعدها قضية «فالبر». فبعد عملية «بارتي بيس - Party Piece» قامت أم آي ٥ بمواصلة ملاحقة ملفات الحزب الشيوعي البريطاني المدون فيها الدفعات السرية التي يقدمها السوفيات للحزب. اشتبهنا بأن تكون الملفات في شقة روبين فالبر عضو الحزب الشيوعي البريطاني، ومحاسب الأموال الروسية. وعندما أعلن فالبر عن تأجير الطابق الأرضي من بيته قمنا بإرسال عميل لنا ليستأجر ويقيم هناك. لكن، لم يمضِ طويل وقت، عندما كنا نستعد للسطو على الشقة الأعلى، حتى قام فالبر بإجلاء العميل من الطابق الأرضي. ولم يقدم فالبر للعميل أي مبرر لطلب الإخلاء.

وبينما كانت موجة الغضب تمر بمبنى ليكون فيلد، كنت ما أزال في عزلتي داخل المديرية العلمية. وقررت أن أقوم بتحقيقاتي الخاصة. أمضيت عدة أشهر وأنا أراجع العديد من الملفات في السجل. بدأت في سجلات عمليات زرع الميكروفونات التي قمت بها منذ منتصف الخمسينات ـ عملية «كوير» Choir في لندن، و «ديو وورم» Dew Worm و «بيغ روت» Pig Root في كندا، و «مول» Mole في أستراليا. وكل العمليات التي انتهت إلى فشل. تفحصت هذه القضايا بعناية. فلقد فشلت كل هذه العمليات، ولكن في الوقت الذي يصعب فيه تفسير إمكانية الفشل في كل عملية منها من الناحية التقنية يظهر لي دوماً أن إفشالها عن طريق جاسوس داخل أم آي ٥ أمر قائم. ثم راجعت القضايا التي شغلت وينتربورن. وهنا أيضاً وجدت تفسيرات بديلة غير الإخفاق الفني. ربما كنا أغبياء. وربما أن فالبر عرف هوية العميل. . لكن هذا أمر صعب التصديق. فالتسرب في المعلومات محتمل أيضاً وبنفس الدرجة. عدت لدراسة ملفات العملاء المزدوجين الذين تعاملت بقضاياهم في الخمسينات. فوجدت أن هناك تقصيراً في طريقة عملنا وخاصة في أجهزة اتصالات شعبة «واتشرز». لم يستثنِ اختبار لولاكوف/ مورو إمكانية وجود مصدر بشري بالإضافة إلى مراقبة أجهزتنا. ثم قضية لانزديل. وأخيراً فيلبي. كلها كانت من نفس النمط. إذ لم تنجح أية عملية من هذه كما خططنا لها، وكلها تشير إلى وجود تدخل روسي.

في كل قضية من هذه القضايا كنت أجد نقطة يتضح عندها الجواب. فقد أمضيت كل تلك الشهور البائسة في مبنى بكنغهام غيت في شتاء ١٩٦٢ - ١٩٦٣، وانغمست في مراجعة

الملفات، أدقق وأعيد التدقيق في تفاصيل ثمانية أعوام من العمل المحموم. وما بدا لي حتى ذلك الوقت مجرد فرضية أصبح إيماناً قاطعاً. يوجد لدينا جاسوس، لكن السؤال: من يكون؟ أمضيت أسابيع أخرى وأنا أدقق تواريخ الملفات، متى فتحت ومتى أغلقت، كانت الدلائل تشير دائماً إلى الأسماء الخمسة: هوليس، ميتشيل، كمنغ، وينتربورن، وأنا. وأنا أعرف نفسي، وهيو وينتربورن لم يكن أبداً مناسباً؛ أما كمنغ فقد حذفته منذ البداية. فهو ليس خبيثاً ليقوم بهذا العمل. وهكذا بقي اسما هوليس وميتشيل. هل كان هوليس هذا الأوتوقراطي الجامد، والذي كانت علاقتي به ضعيفة؟ أم نائبه، ميتشيل، والذي كانت معرفتي به أقل من هوليس؟ كان يتحاشى النظر في عيني وكأنه يخفي سراً. كان ذكياً بما يكفي لأن يكون جاسوساً. وأنا أعرف بأن اختياري قائم على التحيز، ولكن عقلي يُسقط ميتشيل.

في بداية ١٩٦٣ أدركت بأن أحدهما عرف ماهية عملي. وعندما بدأت تحقيقاتي الخاصة، كنت أضع الملفات في خزانتي الحديدية وعليها إشارات دقيقة لأعرف من خلالها إذا ما لمسها أحد في غيابي. ذات صباح عدت لأجد أن أحداً ما حركها. وهناك شخصان فقط بامكانهما الاطلاع على محتويات خزانتي: المدير العام ونائبه، اللذان كانا يحتفظان بنسخ من كافة المفاتيح في الجهاز. بدأت الظلال تتجمع؛ وبدأت الخيانة تجول في الممرات.

بعد هرب فيلبي ابتعد آرثر عني بشكل ملفت للنظر. كنت أفهم بأنه مشغول، ولكنه كان يتجنب تماماً محاولاتي لمعرفة ماذا يعمل. أمضيت معه عدة أمسيات في شقته نتحدث عن أشياء كثيرة. ورغم أننا كنا نتحدث عن قضية غوليتسين بشكل عام، إلا أنه كان يرفض الخوض في ما وصلت إليه تحقيقاته. وإذ كنت مقتنعاً بأنني على وشك أن أفصل من العمل، أو على الأقل أن يتم إبعادي بطريقة أو بأخرى، فقد بدأت أجد المبررات المناسبة لاختلاق زيارة لآرثر في مكتبه بعد الدوام، وأحضر معي الملفات التي استخدمتها في تحقيقاتي الخاصة لثمان وثلاثين قضية. وأسأله متعمداً:

«هل تعتقد بأن هذا ذو دلالة؟».

كنت أحاول بسؤالي أن ألفت انتباهه إلى أمر صغير غامض في قضية عميل مزدوج، أو نحو نقطة غامضة في قضية زرع ميكروفون. كان آرثر يحدق بصمت فيما أعرض عليه ثم يشكرني دون أن يعلق بشيء. وأخيراً قال لي آرثر ذات ليلة: «أنت تعرف من يكون، أليس كذلك يا بيتر؟».

قلت:

«إنه واحد من اثنين إما روجر أو غراهام».

وأخبرني بأنه يجري تحقيقاً عن ميتشيل. وعبر لي عن اعتقاده بوجود تسريب أدى إلى هرب فيلبي. لقد توصل آرثر أيضاً إلى الاستنتاج بأن هوليس أو ميتشيل موضع شك، ولكنه لم يستطع أن يحدد أيهما بالضبط. لذا، ذهب بعد هرب فيلبي، إلى ديك وايث وطرح عليه القضية برمتها. كان ديك المعلم الذي لم يبخل بنصيحة وأنقذه من الموت في نهاية الأربعينات. فلم ينس آرثر الدين الذي يدين به لديك. وقال له ديك أن يأتي في اليوم التالي بعد أن يفكر ملياً بالقضية. جاء آرثر في اليوم التالي. كان ديك حساساً في طرحه للمسألة، ومتأكداً بأن روجر لا يمكن أن يكون جاسوساً، أما ميتشيل فأمر معقول. ونصح آرثر بأن يخبر هوليس بشكوكه في ميتشيل. وطلب هوليس منه أن يبدأ عملية تحقيق حول نائب المدير العام. وبعد أن بدأ يجري هذا التحقيق تبادلت الآراء معه. فسألني:

«منذ متى وأنت مهتم بهذه القضية؟».

«منذ قضية تيسلر..».

فتح آرثر درج المكتب وأخرج زجاجة ويسكي صغيرة. ثم سكب لنا في كأسين صغيرتين. وقال:

«هل أخبرت روجر؟».

قلت له بأنني أثرت القضية مرتين، مرة بعد قضية تيسلر والأخرى بعد قضية لانزديل، وفي المرتين أهملت. ففوجىء آرثر من كلامي. وقال:

«أعتقد أنك تعرف ماذا أفعل..؟».

«إنه ميتشيل، أليس كذلك؟».

وقال وكأنه يجيب على سؤالي:

«هناك شخص أخبر كيم متى يهرب. أنا متأكد من ذلك. لا بد أن أي شخص في موقع ميتشيل كان يعرف ما يكفي ليقوم بهذا».

أخبرني بأنه ذهب إلى ديك وايت، بعد هرب فيلبي، ليخبره بشكوكه بأن الجاسوس إما أن يكون هوليس أو ميتشيل. وهذا سلوك طبيعي يتناسب مع شخصية آرثر.

وعرض علي آرثر أن أقابل هوليس. وقال:

«أخبره بأنك تحدثت معي، وإنني اقترحت عليك مقابلته. هذه هي الطريقة الوحيدة».

اتصلت بمكتب هوليس. ففوجئت بتحديد المقابلة فوراً. صعدت إلى الطابق الخامس أنتظر الضوء الأخضر. ثم أدخلتني السكرتيرة. كان هوليس يجلس إلى مكتبه وبين يديه ملف

واحد. تقدمت إلى الداخل حتى أصبحت على بعد أقدام قليلة من المكتب. لكنه بقي منهمكاً في عمله، ينظر إلي. وانتظرت ربما دقيقة كاملة من الصمت بينما كانت صور سابقيه على الجدار تحدق بي. انتظرت. ظل هو يعالج الملف بقلمه. وأخيراً سألني:

«كيف يمكن أن أساعدك، يا بيتر؟».

تلعثمت بشكل سيىء.

«كنت أتحدث مع أرثر مارتن يا سيدي!»

«أوه!».

لم أشعر بأي أثر للمفاجئة في صوته. وتابع عمله. فقلت:

«قمت بإجراء تحقيق آخر يا سيدي، وقال لي آرثر انه يجب أن أطلعك عليه».

«ضعه على الطاولة. لو سمحت».

اتجهت نحو طاولة الاجتماعات، ثم جاء هوليس وأخذ يقرأ بصمت. وكان من حين إلى آخر يسأل عن نقطة أو أخرى في تحليلي. أحسست أنه لم يكن يعترض مقابلتي له. بل على العكس كان يتوقع مجيئي.

وبعد أن أنهى قراءة التحليل سألني:

«هل تعرف بأنه سيتقاعد بعد ستة أشهر؟

أوقعني سؤاله في ارتباك شديد. فأنا أعرف بأنه مازال لديه سنتان حتى يصل التقاعد. فسألت بحدة:

«ميتشيل؟!»

«لقد طلب التقاعد منذ فترة. ولا أستطيع تغيير الأمور الآن. سأعطيك مهلة ستة أشهر لإثبات ذلك. تستطيع أن تشارك مارتن، وسأدقق الموضوع مع ويليس».

أعاد إلي الملف. وهو يقول:

«لا داعي لأن أخبرك، فأنت تعرف ذلك. يجب أن لا يتسرب من هذا التحقيق أية كلمة. مفهوم؟».

«نعم يا سيدي».

«يجب أن تعرف خلفية ميتشيل. سأرتب مع آرثر ليأخذ ملف خدمته من السجل».

«شكراً يا سيدي».

وقبل أن أخرج عاد لكتابته.

الفصل الثالث عشر

اطلعت من خلال المشاركة في قضية ميتشيل، على أكبر سر في مكافحة التجسس في العالم الغربي ـ عملية «فينونا» Venona. ولفهم ما كانت «فينونا» بالضبط وأهميتها، لا بد أن يكون لدى المرء علم ولو بسيط بتعقيدات عالم الكتابة السرية. ففي الثلاثينات كانت المخابرات الحديثة مثل الروسية والبريطانية، تتبنى نظام اتصال يعتمد على اللبادة المستخدمة لمرة واحدة فقط. وهي أكثر طرق الشيفرة أماناً لأن نماذج اللبادة تكون متداولة فقط بين المرسل والمستقبل. وطالما أنه كان يتم إتلاف كل ورقة بعد استخدامها، فقد كانت عملية حل الرموز مستحيلة. فلإرسال رسالة باستخدام هذه اللبادة، على المرسل أن يترجم كل كلمة في رسالته إلى مجموعة من أربعة أرقام باستخدام دفتر رموزه. فمثلاً إذا كانت الكلمة الأولى من الرسالة «دفاع» تصبح ٣٧٦٥، ثم يضاف هذا الرقم (٣٧٦٥) إلى المجموعة الأولى على اللبادة، لنقل ١١٩٦. وعند جمعهما بنظام فيبوناكي نحصل على الرقم (٤٨٥١). وهذا يعني عملياً شيفرة للمرة الثانية. (ويطلق على نظام فيبوناكي أيضاً اسم الحساب الصيني، حيث لاتضاف الأرقام التي تزيد عن تسعة ٩). وكل أنظمة الشيفرة تعتمد على نظام فيبوناكي، لأن إضافة الأرقام بعد الرقم تسعة ٩ يؤدي إلى أرقام صحيحة وليست عشوائية وهو المبدأ الأساسي في الشيفرة.

لقد أمكن حل رموز «فينونا» لأن المادة الشيفرية نقصت لدى الروس أثناء الحرب. واضطروا بسبب الضغط الكبير على اتصالاتهم إلى إنتاج نسخ من اللبادات القديمة لتستخدم مرة ثانية وأرسلوها إلى عدة سفارات لهم في الغرب. ومع ذلك فإن إمكانية حل رموزهم كانت ضعيفة جداً. كان حجم رسائلهم في العالم كبيراً جداً. كانوا يستخدمون خمس قنوات في اتصالاتهم؛ السفارات، المخابرات العسكرية، المخابرات البحرية، ال ك ج ب، وأخيراً

هناك قناة للخط التجاري مرتبط ببرنامج المعدات العسكرية القادمة من الغرب إلى الشرق أثناء الحرب. كانت هذه القناة تشكل ٨٠٪ من الرسائل الروسية. وكانت إحدى اللبادات المستخدمة من قبل ضابط ك ج ب في واشنطن مثلاً، لها نسخة أخرى مع شخص آخر في الخط التجاري بين المكسيك وموسكو.

بعد الحرب بفترة قصيرة قام محلل الشيفرة الأمريكي ميريديث غاردنر، من وكالة أمن القوات الأمريكية المسلحة (التي أصبحت فيما بعد وكالة الأمن القومي)، بالعمل على بقايا كتاب رموز روسي وجد في أرض إحدى المعارك في فنلندا. ورغم أن الكتاب لم يكن كاملاً إلا أنه كان يحوي بعض المجموعات التي تدل على التعليمات العامة في الرسائل مثل: أقرأ، نهاية الرسالة، وهكذا. كانت هذه الكلمات شائعة لأن أي كتاب رموز يستخدمها لتحديد بدء الكلمة ونهايتها، وبدء الجملة ونهايتها. أدرك غاردنر من خلال هذه المجموعات العامة ومضاهاتها مع خطوط الاتصال الروسية السابقة، بأنه يوجد نسخ تستخدم في قنوات أخرى، أي أن نفس اللبادة تستخدم مرتين بدل مرة واحدة. واستطاع بعد جهد جهيد أن يحل شيفرة أحد الخطوط باستخدام النسخة الثانية من خط آخر. لم يصدق أحد في البداية بأنه حل الشيفرة الروسية إلا عندما حقق اختراقاً كبيراً لقناة السفارة بين موسكو وواشنطن. واستطاع أن يحل الجملة الإنجليزية «الدفاع لا يربح الحروب!». وأدرك بأن هذه الجملة تعني كتاباً عن استراتيجية الدفاع نشر في الولايات المتحدة قبل تاريخ إرسال الرسالة. وانطلاقاً من هذه النقطة قامت وكالة أمن القوات المسلحة باقتسام هذا السر مع البريطانيين الذين كانوا في ذلك الوقت قادة العالم في حل الشيفرة، وبدأ الطرفان في بذل الجهود لاختراق الاتصالات الروسية، التي استمرت ٤٠ عاماً.

كان اسم العملية الرمزي الأول (برايد) ثم تحول إلى «دراغ» وأخيراً في بريطانيا «فينونا». تقدمت العملية بشكل بطيء ومؤلم. فقد كانت عملية الحصول على نسخ مماثلة من نفس اللبادة أمراً يتطلب فترة طويلة من الزمن. وحتى في حالة الحصول على نسختين للبادة واحدة كان من الصعب حل الشيفرة أيضاً. كان كتاب الرموز غير كامل، لذلك أضطر محللو الرموز إلى اللجوء إلى المخابرات الموازية. فإذا ما وجد مثلاً تشابه بين قناة أ ل ك ج ب موسكو ـ واشنطن، وقناة الخط التجاري نيويورك ـ موسكو، فبالإمكان مهاجمة القناة التجارية باستخدام المعلومات التي يتم جمعها من بيانات الشحن، أوقات الوصول أو المغادرة، للتأكد من تاريخ الرسالة. ساعدت هذه المعلومات محلل الرموز على معرفة ما يحتويه الخط التجاري. وفي حالة التوصل إلى اختراق في نسخ اللبادة أمكن الانتقال إلى النسخة الأخرى.

قامت المخابرات الأمريكية والبريطانية بتطوير طريقة لتوسيع عملية حل «فينونا».

وتسمى هذه الطريقة «الجدولة». ففي كل مرة يتم فيها حل جملة أو كلمة يتم وضعها في أي مكان آخر تظهر فيه في الخط المشابه. قام البريطانيون بجدولة هذه الشيفرات المحلولة بطريقة متقدمة جداً. حيث كانوا يضعون على جانبي هذه الجملة أو الكلمة المحلولة مجموعتين غير محلولتين. وبعد فترة معينة بدأت هذه الجدولة تتكرر، وظهر في هذا التكرار نفس الجمل والكلمات وإلى جانبها نفس المجموعة غير المحلولة. وهذا التكرار كان يساعدنا على حل المجموعة وبالتالي توسيع قاعدة «الجدول».

كان العمل شاقاً ويتقدم بحيث لا نصل إلا إلى حل شيفرة كلمة واحدة أو اثنتين في الشهر، ثم فجأة ننطلق إلى الأمام. مثل تلك المرة التي وجد فيها الأمريكيون النص الكامل لحديث مسجل على قناة السفارة واشنطن/موسكو. ولكن في غالب الأمر كانت تبرز أمامنا مشاكل كثيرة، فأحياناً تكون اللبادات مستخدمة بطريقة غير صحيحة، أو مطوية أو عكسية الاتجاه الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة في الحصول على مثيل لها ومشاكل معقدة أكثر. كما كانت هناك صعوبات في كتب الرموز. ففي بعض الأحيان كانوا يغيرون هذه الكتب. كانت قناة السفارة والمخابرات العسكرية تستخدم كتب رموز مرتبة مباشرة حسب الحروف الأبجدية، مثل القاموس، إذ يستطيع محلل الرموز أن يعرف بسهولة أين تظهر المجموعة في كتاب الرموز. أما ال ك ج ب فقد كانت تستخدم الأحرف العشوائية المتعددة والتي تجعل محاولة الوصول إلى أسرارها أمراً في غاية التعقيد. كما تم بذل جهود هائلة في عملية فينونا. فقد أمضت وكالة الأمن القومي وقيادة الاتصالات الحكومية وأم آي ٥ العديد من السنين لحل هذه الرموز من خلال توظيف فرق كاملة من الباحثين يجوبون أنحاء العالم بحثاً عن معلومات موازية. ولكن كل الذي استطعنا أن نحصل عليه هو في الواقع نسبة ١٪ من ٢٠٠ ألف رسالة، وكان حلها يقتصر على بعض الكلمات.

ولكن أهمية عملية «فينونا» لا تكمن في المعلومات التي يمكن الحصول عليها من خلالها، بل في الأثر الذي تتركه في تشكيل المواقف في العالم السري. في نهاية الأربعينات تم تحقيق تقدم كاف في قناة نيويورك ـ موسكو التجارية، وقناة واشنطن ـ موسكو التابعة ل ك ج ب، مما أظهر النشاط التجسسي السوفياتي الكبير في الولايات المتحدة أثناء وبعد الحرب. قد اختلط عبر هاتين القناتين حوالي ١٢٠٠ اسم سري كان من السهل عزلهم حتى ولو لم نستطع حل الشيفرة. وتم تحديد ٨٠٠ اسم من هذه الأسماء على أنهم سوفيات مجندين. ومن المحتمل أن أغلب هؤلاء كانوا من المستوى الأدنى الذي تستخدمه كافة أجهزة المخابرات. لكن بعضهم كان مهماً بشكل أو بآخر. ظهر أنه يوجد (١٤) عميلاً يعملون في أو حول مكتب الخدمات الاستراتيجية (التنظيم السابق لتأسيس السي آي أي)، وكان خمسة

منهم لهم علاقة بشكل أو بآخر مع البيت الأبيض. حتى ان أحدهم سافر بطائرة السفير أفريل هاريمان الخاصة من موسكو إلى الولايات المتحدة الأمريكية. أما الأخطر من ذلك هو أنه يوجد للسوفيات سلسلة من العملاء داخل برنامج تطوير الأسلحة النووية الأمريكي. وسلسلة أخرى لها اطلاع على كل الوثائق المهمة المتبادلة بين الحكومتين البريطانية والأمريكية عام ١٩٤٥، بما فيها البرقيات التي كان يرسلها تشرشل إلى الرئيسين روزفلت وترومان.

تمكنا من حل بعض القضايا. فمثلاً تم تحديد هوية ماكلين على أنه واحد من المصادر لبرقيات تشرشل، بالإضافة إلى آخرين. وتم الكشف عن كلاوس فوخس وعائلة روزنبرغ كجواسيس في حقل الذرة. وعند جمع المعلومات الجغرافية المتناثرة من الرسائل تم تحديد هوية الجر هيس على أنه الشخص الذي رافق أفريل هاريمان، وهو يعمل في وزارة الخارجية الأمريكية. ومع ذلك مازالت معظم الأسماء مجهولة حتى اليوم رغم مختلف الأساليب التي استخدمناها بما فيها مقارنة المعلومات.

أما في بريطانيا فإن الوضع كان بائساً، مع فارق رئيسي واحد، فبينما كانت خطوط الاتصالات السوفياتية تعمل باستمرار من وإلى الولايات المتحدة أثناء الحرب وبعدها، أمر تشرشل بوقف كافة أعمال مكافحة التجسس ضد الاتحاد السوفياتي أثناء فترة التحالف في الحرب. ولم تعد قيادة الاتصالات الحكومية إلى استلام البث الروسي إلا بعد انتهاء الحرب. وبالنتيجة فإن كمية الرسائل المسجلة كانت قليلة جداً مما أدى إلى عدم وجود تقدم يذكر في حلها. واستطعنا أن نحقق مجرد خرق واحد فقط في الأسبوع الممتد من ١٥ أيلول إلى ٢٢ أيلول عام ١٩٤٥، على قناة ك ج ب موسكو ـ لندن.

كان هناك مجموعة من الرسائل مرسلة إلى ضابط ك ج ب في سفارة لندن، يدعى بوريس كروتوف، أخصائي في إدارة العملاء ذوي المستوى العالي. جاءت هذه الرسائل في فترة شهدت أزمة بالنسبة للمخابرات الروسية في الغرب. فقد هرب موظف شيفرة تابع للمخابرات العسكرية الروسية واسمه إيغور غويزنكو إلى كندا، آخذاً معه كمية كبيرة من المواد التي تدين جواسيس في كندا وأمريكا. وفي بريطانيا كُشِف الجاسوس النووي الان نان ماي. كانت كافة الرسائل القادمة إلى كروتوف من موسكو تتعلق بتعليمات للعناية بالعملاء الذين يديرهم. وقد وردت ثمانية أسماء سرية في هذه الرسائل، ثلاثة منهم كانوا يشكلون شبكة مهمة، وهم: ستانلي، هيكس وجونسون. ومع نهاية البث الأسبوعي توقف البث مع العملاء الثمانية ليقتصر العمل على المقابلات الشهرية، أو على أقل من ذلك في حالات خاصة وطارئة.

عندما اطلعت على عملية «فينونا» تذكرت مشاهدتي لأول مرة نسخ قيادة الاتصالات الحكومية المتعلقة بقناة الـ ك ج ب موسكو ـ لندن. كانت القيادة كلما استطاعت حل بعض

الكلمات في رسالة ما تقوم بتوزيعها على العدد القليل من المهتمين. حيث كان يتم ختم نسخ التوزيع بختم سري جداً «أومبرا فينونا» UMBRA VENONA.

كانت فينونا السر الرهيب والمغلق أكثر من أي سر آخر. كان واضحاً من الرسائل أن العملاء الثمانية مهمين جداً، من الاهتمام الذي أبداه الروس لحمايتهم كلهم في أيلول ١٩٤٥، ولأننا كنا نعرف بأن كروتوف متخصص في هذا النوع من العملاء. لكن لم يكن لدينا إلا القليل جداً من الأدلة عن طريق البث يمكن أن تساعدنا في تحديد هويتهم. كانت قيادة الاتصالات تقوم بتوزيع ترجمة الرسالة مع الأرقام الواردة فيها وغير المحلولة. وفي بعض الأحيان كانت تضيف إلى النسخة ورقة إضافية فيها ملاحظات تعطي ترجمة محتملة للمجموعات التي لم يتم حلها بعد.

كنا متأكدين بأن ستانلي هوفيلبي. فقد قال غوليتسين بأنه سمع الاسم الرمزي ستانلي، وربطه مع عمليات ال ك ج ب في الشرق الأوسط، لكن لم نجد أي إثبات في قنوات الاتصال. أما هيكس فاعتقدنا بأنه بيرغيس. أما جونسون فاعتقدنا بأنه بلانت رغم عدم وجود دلائل في الاتصالات. لكن بقية الجواسيس الخمسة ظلوا سراً مغلقاً. ماكلين لم يكن منهم لأنه كان في واشنطن في أيلول ١٩٤٥. أصبح الهدف من وراء التحقيق في قضية ميتشيل واضحاً. إن أي واحد من الأسماء الخمسة المتبقية يمكن أن يكون جاسوس أم آي ٥. وأذكر دهشتي وأنا أقرأ النصوص: كيف ينام شخص في قمة أم آي ٥ عشرات السنوات منذ حل جزء بسيط من الرسائل.

ربما أن أكثر الأمور غرابة في قضية «فينونا» هو إغلاق القضية على طرفي المحيط الأطلسي عام ١٩٥٤. فبعد المد الكبير في العمل في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، بدأت تتباطأ عملية حل الشيفرة إلى أن توقفت نهائياً. وانتهت عندها قدرة العقل البشري ليحل محله الكمبيوتر الذي لم يكن باستطاعته مواصلة الطريق. كما أن هناك سبباً آخر هو أن الروس في عام ١٩٤٨ بدأوا بتغيير وسائل استخدام الرموز في كل أنحاء العالم كما قاموا بسحب نسخ اللبادات. وكانت آخر محاولة ناجحة في قضية «فينونا» هي العملية الأسترالية، بحيث استطاع الأمريكيون والبريطانيون قراءة الشيفرة حال إرسال الرسائل. كان الأستراليون بعيدين عن هذه القضية ولا يعلمون عنها شيئاً، إلاّ عند استدعائهم للمشاركة فيها بعد عدة سنوات، عندما بدأ التجسس السوفياتي يخترق وزارة الخارجية. حيث بدأنا نزودهم بالمعلومات الاستخبارية بكثافة فقاموا بتأسيس منظمة المعلومات الأمنية الأسترالية بمساعدة أم آي ٥.

تبين سبب تغيير الروس للرموز في مطلع الخمسينات حين تسرب لهم نبأ حل قسم من

الشيفرة عن طريق موظف في وكالة أمن القوات المسلحة الأمريكية، هو وليام وايزباند. وفي الواقع ان وايزباند لم يكن يعلم مدى خطأ الروس، كما أنهم لم يعلموا بخطورة وضعهم إلا عندما علم فيلبي بذلك. علم هوليس بالقضية عام ١٩٤٨ عندما توقفت العملية فجأة في أستراليا بعد عودته من هناك اثر المشاركة في تأسيس منظمة المعلومات الأمنية الأسترالية.

ورغم أن السوفيات سحبوا نسخ اللبادات إلا أنه لم يكن باستطاعتهم إنقاذ بقية الرسائل التي أرسلت حتى عام ١٩٤٨. لكن بفضل نقل فيلبي للعمل في واشنطن عام ١٩٤٩ استطاعوا أن يراقبوا بدقة التقدم الذي وصلنا إليه. وحالما علم الروس حجم التسرب في «فينونا»، وتزايد الصعوبات الفنية في إيجاد النسخ المتشابهة، أصبح تغيير الأولويات بالنسبة لهم مسألة وقت لا أكثر. وهكذا حتى عام ١٩٥٤ تم إنهاء هذه القضية وإغلاقها نهائياً.

بعد عدة سنوات دعوت ميريديث غاردنر لزيارة لندن لمساعدتنا في عملية «فينونا». كان رجلاً هادئاً وعالماً. كان يخبرني عن عمله في تحليل الشيفرة، وكيف كان يزوره أثناء العمل شاب إنجليزي يدخن الغليون اسمه فيلبي، ويتطلع في الأوراق من فوق كتفه. وكيف كان فيلبي هذا معجباً بالتقدم الذي أحرزه. كان غاردنر في نهاية الستينات إنساناً حزيناً. كان يعتبر حل الشيفرة الذي توصل إليه شيئاً رياضياً جميلاً، لذا أصيب بالاكتئاب لتخليهم عنه. كان يقول:

«لم أفكر أبداً من وراء حل الشيفرة بإيذاء أي كان».

كان يشعر بالرعب عندما يتذكر بأن اكتشافه هذا سيقود حتماً إلى الكرسي الكهربائي. وكان مثلي يشعر بأن عائلة روزنبرغ تستحق الرحمة والرأفة. كانت عملية «فينونا» في ذهن غاردنر مجرد عمل فني، ولم يكن يسعى لربطها بفجاجة المكارثية. غير أنه كان لحل الشيفرة تأثيرٌ أساسي على المواقف في الحرب الباردة، بين الضباط القليلين المطلعين على العملية في المخابرات البريطانية والأمريكية على السواء. كانت منبعاً لا ينضب للتأكيد على التحقيق في التجسس المضاد الذي كان يخترق المخابرات الغربية بشكل متزايد. بمعنى آخر بيَّنت عملية «فينونا» اتساع نشاط المخابرات السوفياتية في العالم في وقت كان الغرب يتبع سياسة التحالف ويمد يده للصداقة. لقد وجدنا في اتصالات ال ك ج ب من موسكو إلى لندن في أيلول ١٩٤٥ ترتيبات لعودة سجناء التحالف إلى السلطات السوفياتية، مثل القوزاق أو غيرهم من المجموعات التي قاتلت ضد الاتحاد السوفياتي. فكثير من الرسائل كانت تحتوي على قوائم أسماء وتعليمات تقضي باعتقال هؤلاء الأشخاص في أقرب وقت. وعندما قرأت الرسالة كان أصحاب معظم الأسماء قد ماتوا. كما أن الكثير من ضباط المخابرات ذهلوا من الشعور

بأن السلام لم يأتِ عام ١٩٤٥، فقد تحولت معسكرات الاعتقال الألمانية إلى غولاغ سوفياتي.

في عام ١٩٥٩ أحيا اكتشاف جديد عملية «فينونا» مرة أخرى. فقد اكتشفت قيادة الاتصالات الحكومية، بأن المخابرات السويدية احتفظت بكمية لا بأس بها من مواد البث السوفياتي أثناء الحرب وكلها معلومات جديدة، تضم رسائل المخابرات العسكرية السوفياتية من وإلى لندن أثناء أيام الحرب الأولى. وأقنعت قيادة الاتصالات الحكومية المخابرات السويدية بتجاهل الحياد، وتمرير المواد لبريطانيا للتحليل. كان اكتشاف هذه المواد السويدية واسمها الرمزي «هاسب»، واحداً من الأسباب الرئيسية لعودة آرثر إلى الشعبة د أ، وهو من ضباط أم آي ٥ القليلين المهتمين بعملية «فينونا»، حيث عمل خلالها أثناء التحقيق في قضيتي فوخس وماكلين.

كانت هناك آمال كبيرة في أن تساعد مواد «هاسب» في تزويد عملية «فينونا» بالمعلومات عن كثير من الأسماء السرية، وعن مجموعات الأرقام في كتب الرموز، والتي يمكن أن تقود لتوضيح كثير من الأسرار. والأهم من ذلك، فإن وجود أجيال جديدة من الكمبيوترات جعل بالإمكان فتح القضية من جديد (أنا لم أكن مقتنعاً مطلقاً بوقف العمل في فينونا في الخمسينات). وقد حصل تقدم على يد آرثر في مطلع الستينات.

في الواقع، لم يكن في المواد المتعلقة ببريطانيا في «هاسب» مواد ذات قيمة فورية. كانت معظم الرسائل تتحدث عن تقارير روتينية لضباط المخابرات العسكرية عن الدمار الذي تلحقه القنابل في أماكن مختلفة من بريطانيا، بالإضافة إلى تقديرات عن القدرة العسكرية البريطانية. كان هناك عدد كبير من الأسماء ذات الأهمية، ولكن أغلب أصحابها ماتوا. منهم مثلاً ج. ب. هالدين الذي كان يعمل في محطة تجارب الغواصات التابعة لسلاح البحرية في هاسلر، والتي كانت تعمل في تجارب تقنيات الغطس العميق. وكان هالدين يقوم بتزويد المعلومات إلى الحزب الشيوعي البريطاني الذي يقوم بدوره بتوصيلها للمخابرات العسكرية الروسية في لندن. وهناك جاسوس آخر هو أوين مونتاج. وهو صحافي يعمل بالقطعة، كان مكلفاً من قبل الروس بجمع المعلومات السياسية عن حزب العمل والحزب الشيوعي البريطاني.

أما أغرب المعلومات الواردة في هذه الرسائل فكانت تلك المتعلقة بوضع رجال المخابرات العسكرية الروسية. إذ كانوا في عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ في وضع معنوي سيء، ويدورون حول أنفسهم مثل الدجاج المذبوح في موجة التصفيات التي مارسها ستالين في الثلاثينات. وفي عام ١٩٤٥ بدأوا بالانتقال إلى شكل جديد من العمل المهني المتميز ومنهم مثلاً كروتوف. وأصبح عمل إدارة العملاء على درجة عالية من المهارة والروح العملية. كما تم بذل جهد كبير لحماية

العملاء لضمان مدة عمل أطوّل لهم. ودلت الرسائل كذلك على ضعف النظام في المخابرات العسكرية. كما أشارت المقارنة بين بث قناة السفارات مع قناة ال ك ج ب إلى الأهمية البالغة التي تتمتع بها ال ك ج ب في الدولة السوفياتية. كان هذا الأمر مفارقة بشكل أو بآخر. فقد أدركنا من حجم آلة ال ك ج ب الكبيرة بشبكاتها الواسعة في الغرب أنها جاهزة للحرب الباردة بينما يستعد الغرب للسلام.

عندما انتهيت من دراسة مواد «فينونا» في المكتب الخاص الذي كانت تحفظ فيه، في الطابق الخامس، انتقلت إلى مكتب آخر مع إيفلين ماك بارنيت، مساعدة آرثر. جاء التحقيق في قضية ميتشيل في لحظة بائسة بالنسبة للشعبة د. فقد نقل هوليس فيرنيفال من وظيفته إلى الشعبة ج، تحضيراً لتعيينه نائب المدير العام بعد استقالة ميتشيل. وحل مالكولم كمنغ محل فيرنيفال. ولم يكن كمنغ موضع ترحيب بين شباب الشعبة د الذين كانوا يكدحون من أجل ترتيب أوضاعهم على أمجاد قضية لانزديل. حتى آرثر نفسه كان يطمح لهذه الوظيفة. ولا شك أنه يستحق ذلك نظراً لما حققه من إنجازات، لكنه لم يكن محبوباً لدى المدراء المتعاقبين نظراً للموقف الذي اتخذ في بداية الخمسينات. كان يبدو دائماً صارماً وعصبي المزاج، ولا يرغب بتحمل الحمقى بسرور، أو بسعة صدر، وهو الشرط المسبق للتقدم في العمل. وعندما أجيز العمل في التحقيقات بقضية ميتشيل، قرر هوليس عدم اطلاع كمنغ، الذي كان من الناحية النظرية مشبوهاً محتملاً. وسلمت متابعة القضية لفيرنيفال جونز الذي قام بالإشراف على التحقيق من قيادة الفرع ج في كورك ستريت.

أما إيفلين ماك بارنيت فقد كانت امرأة غريبة، في وجهها علامة منذ الولادة. عاشت كل حياتها في الحيز الضيق الذي يوفره المكتب، ولم يكن لها علاقة مع العالم الخارجي.

سألتني حال مشاركتي إياها المكتب:

«هل أنت ماسوني؟».

«لا. كما أنني لا أؤمن بالماسونية».

«لقد عرفت أنك لا تشبه الماسوني. ولكن من الأفضل لك أن تنضم لهم لتضمن النجاح هنا».

كانت إيفلين تعتقد بوجود اختراق في أم آي ٥. أمضت سنوات وهي تعمل باحثة في مكافحة التجسس. وهي أقدم مني ومن آرثر. كانت عبارة عن نشاط مكتبي كامل متحرك.

قالت لي:

«كنت أعرف دائماً بأنه لا بد من إجراء تحقيق».

كان لديها قناعة مخيفة بأن مجرى التحقيق معد سلفاً. بالإضافة إلى اعتقادها بأن الأسوأ قادم لا محالة. فقالت:

«لن يبقى آرثر في وظيفته، إذا ما اندفع في هذه القضية. ولن تبقى أنت أيضاً إذا ما ربطت نفسك به».

فسألتها مستغرباً:
«ماذا تعنين بهذا يا إيفلين؟»
فتحت خزانتها الحديدية وأخذت منها كتاباً صغيراً ذا غلاف أسود. وقالت.

«اقرأ هذا الكتاب».

فتحت الكتاب، كان مكتوباً بخط امرأة. وقلبت الصفحات بسرعة. كانت فيه قائمة للقضايا من الأربعينات والخمسينات. كنت أعرف شيئاً بسيطاً عن بعضها، والبعض الآخر لم أسمع به. كانت هذه القضايا مجموعة من سجل أم آي ٥. وكل قضية كانت تحمل في طياتها زعماً مضمراً عن وجود اختراق ما في أم آي ٥ وأم آي ٦.

سألتها:
«لمن هذا الكتاب؟».
«لصديقتي آن لاست. كانت تعمل معي هنا. لقد جمعت هذا الكتاب بعد هرب بيرغيس وماكلين. ثم تزوجت تشارلز إلْوِيلْ. وقبل أن تترك العمل أعطتني هذا الكتاب وقالت بأني سأفهم».

فقلت لها:
«وهل يعرف آرثر. . ؟».
قالت:
«بالطبع».
«ولكن هل اطلعتي أحداً آخر على الكتاب؟».
أجابت:
«ليقطع رأسي. . ؟».

واصلت قراءة الكتاب. كان اسم ماكسويل نايت يتردد باستمرار في الصفحات الأولى. ففي أثناء الحرب كان مقتنعاً بوجود جاسوس داخل أم آي ٥، وظل متمسكاً بهذا الاعتقاد بالرغم من عدم اتخاذ أي إجراء ضده. كان الكتاب يحوي عشرات الادعاءات. بعضها كان مجرد تكهنات أو تعليقات مجموعة من هنا وهناك من تقارير العملاء. لكن بعضها كان محدداً

وواضحاً، مثل شهادة إيغور غويزنكو، الموظف الروسي الشاب الذي هرب إلى كندا عام ١٩٤٥، والذي أدى هربه إلى إطلاق التحذير الوارد في قناة ال ك ج ب لأسبوع واحد فقط. وحسبما تقول آن لاست في كتابها فإن غويزنكو قال في استجوابه بأنه يوجد جاسوس داخل أم آي ٥ اسمه الرمزي إيلي. وقد علم بوجود إيلي أثناء عمله في موسكو عام ١٩٤٢ من خلال صديق له يدعى ليوبيموف الذي كان يتولى قراءة الشيفرة المرسلة إلى إيلي. وإيلي هذا فيه شيء ما روسي في خليفته، وله اطلاع على ملفات معينة، وكانت معلوماته تقدم فوراً إلى ستالين. تم وضع ادعاءات غويزنكو في ملف مع بقية المواد الأخرى التي قدمها، والتي سرعان ما تركت ليأكلها الغبار.

«لم يصدقه الناس هنا. يقولون إنه مخطىء. لا يمكن أن يوجد جاسوس داخل أم آي ٥».

أما على الصفحة الأخيرة من الكتاب فقد كانت هناك جملة أشبه بوصية أو شهادة ما قبل الموت. تقول الجملة: «إذا كان هناك جاسوس داخل جهاز أم آي ٥، فلا بد أن يكون أحد اثنين: هوليس أو ميتشيل».

وقلت:

«كيف يمكن التحقيق في كل هذا. يجب أن نقلب الأشياء كلها رأساً على عقب إذا كنا نريد أن نعمل بشكل صحيح؟».

فقالت إيفلين بمرارة.

«هذا ما قالوه عام ١٩٥١».

كان كتاب آن لاست هو أول سر تشاركني فيه إيفلين في الأسابيع الأولى من عملنا معاً. وشيئاً فشيئاً بدأنا نغرق سوية في الأحاديث عن التاريخ المنسي لأم آي ٥، حكايات عن الشك، وعن أعمال لا يمكن تفسيرها وعن المصادفات الغريبة. وسرعان ما أدركت بأنني لست أول من اعتقد بوجود اختراق كبير في الجهاز. كانت المخاوف من الاختراق قديمة قدم أثاث المكاتب نفسه.

في ذلك المساء انضممت إلى الجموع المحتشدة في شارع كيرزون قرب حديقة بارك لاين، والمعلومات التي عرفتها من إيفلين تدق رأسي. فنماذج الادعاءات تتوالى وكل واحد فيها يوحي بوجود جاسوس في الجهاز، ابتداء من عام ١٩٤٢ حتى اليوم. وقد مر وقت طويل دون التحقيق ودون المواجهة. لذا فإن عملية المطاردة والصيد الآن ستكون طويلة جداً وصعبة جداً. وتوقفت لألقي نظرة على مبنى ليكون فيلد، وفكرت:

«هذه المرة لن يفلت أحد. . . لن يهرب أحد. سأمسك هذا الجاسوس».

الفصل الرابع عشر

رغم آمالي الكبيرة، كان التحقيق في قضية ميتشيل أمراً بائساً. لقد ابتدأ بشجار وانتهى بشجار، ولم يكن هناك سوى القليل من الأشياء الصحيحة بين البداية والنهاية. كان واضحاً لي تماماً بأنه إذا أردنا أن نحسم هذه القضية بطريقة أو بأخرى قبل استقالة ميتشيل، فلا بد من مباشرة تشغيل أشرطة التسجيل وكل مصدر تقني متوفر لدينا. لكن هوليس عارض بعناد شديد أي طلب للتنصت على التلفون، أو وضعه تحت المراقبة الفنية الكاملة، قائلاً بأنه لا يريد أن يعرّف مزيد من ضباط أم آي ٥ على القضية، كما إن هوليس لم ينوِ إطلاقاً الاتصال بوزير الداخلية طالباً التصريح له بوضع أجهزة تنصت في بيت نائبه أو السطو عليه للتفتيش.

كان رد فعل آرثر سيئاً إزاء هذه التراجعات. وكان صبره قد نفد، فانفجر تلقائياً في اجتماع في مكتب هوليس عندما رفض المدير العام طلبه بوضع ميتشيل تحت المراقبة الكاملة. وقال آرثر بأن الوضع لا يحتمل هذه التقييدات في قضية خطيرة. وهدد بأنه سيتصل برئيس الوزراء لاطلاعه على هذا الوضع السيىء. كان هوليس بارد الأعصاب ويرد دائماً على التهديدات بهدوء، فقال إنه لاحظ تعليق آرثر ومع ذلك فإنه اتخذ قراره النهائي.

وقال:

«لن أسمح، تحت أي ظرف كان، بتوسيع التحقيق».

خرج آرثر من غرفة المكتب، وكان واضحاً بأنه عقد النية على تنفيذ تهديده.

في مساء ذلك اليوم، ذهبت أنا وفيرنيفال جونز إلى النادي، في محاولة لإيجاد طريقة ما لتجنب الكارثة. فقد تدهورت العلاقات بين هوليس وآرثر منذ تعيين كمنغ رئيساً للشعبة د،

وزادت هذه العلاقة تدهوراً بمجيء قضية ميتشيل، لدرجة أن وضع الجهاز كله أصبح في خطر.

كان فيرنيفال جونز في وضع سيء هو الآخر. كان يعلم، مثلما كنت أعلم، بأنه قد يصبح نائب هوليس خلال بضعة أشهر، رغم شعوره بمعارضة هوليس لوجوده في هذا المنصب.

وقال فيرنيفال:

«إذا قام آرثر بأي عمل غبي، فإنه سيقضي على الجهاز كله».

سألته إذا ما كان بإمكانه الاتصال شخصياً مع ديك وايت لممارسة بعض الضغط على هوليس لكي يلين. نظر إلي فيرنيفال وهو يعاني من ألم شديد، إذ كان يدرك بأنه أصبح وسط ولاءين متنافسين: ولاؤه لهوليس، وولاؤه لأولئك الذين يقومون بعملية تحقيق مخيفة ومرعبة. شارفت الساعة الواحدة صباحاً قبل أن نتوصل إلى قرار محدد. فوعد بالاتصال مع ديك وايت، مقابل أن أقوم بعمل للجم غضب آرثر ومنعه من أي عمل طائش. اتصلت بآرثر تلفونياً من النادي، وكان الوقت متأخراً، فقدرت أنه صاحياً يعاقر الخمرة. وعندما وجدته أخبرته بأنني يجب أن أراه وأتحدث إليه في أمر مهم. ثم ركبت سيارة أجرة وانطلقت نحو شقته.

كان مزاجه عصبياً. فقال:

«أعتقد أنك جئت لتخبرني بأنك ستتدخل في الأمر أيضاً؟».

جلست لأشرب للمرة الثانية تلك الليلة، في محاولة لأن استدرج آرثر للكلام. بدا لي بائساً ومكتئباً. كان يعمل بلا انقطاع ولا كلل حتى قبل قضية لانزديل، وكان وزنه في ازدياد مطرد وبدأ يفقد ملامح الشباب على قسمات وجهه. كنت أرى شبح عام ١٩٥١ يلاحقه، عندما سمح بنقله إلى الملايو.

وقال:

«كان يجب أن أقاتل ضد نقلي في ذلك الوقت، لقد وافقت على رأيهم، بدا لي أن الأفضل أن ابتعد، ولكن هذه المرة لا».

بعد حديث طويل أدرك منطقية رأي فيرنيفال. فإن فتح معركة مع هوليس لن تقودنا إلى نتيجة، وهناك أمل، على الأقل، في أن ينجح وايت بإقناعه بالاستجابة إلى بعض مطالبنا لمزيد من المراقبة.

في اليوم التالي تلقيت مكالمة هاتفية من فيرنيفال جونز. وقال لي بأنه اتصل مع ديك وايت وأننا جميعاً سنجتمع في شقته في كوين آن بعد ظهر الأحد القادم. وقال إن وايت يريد أن يطلع على عرض للقضية ليقرر ما يمكن أن يفعله.

وصلت إلى شقة ديك وايت في برودواي في الموعد. فتح وايت الباب لي، كان يلبس لباساً عادياً: قميص مفتوح وربطة عنق. وأدخلنا إلى غرفة مكتبه. وهي غرفة جميلة مليئة برفوف الكتب، ومزينة بأسلوب القرن السابع عشر. فعلى الجدران لوحات من المعرض الوطني، فيما كانت هناك مرآة كبيرة فوق الموقد. قال محاولاً أن يبدّد حالة التوتر التي كانت تبدو على وجوهنا.

«هل تشربون الشاي؟».

ثم قال:

«اطرح قضيتك يا آرثر. . .».

قال آرثر بأنني أحضرت مخططاتي التي تضم حوالي ٣٨ قضية، واقترح بأنه من الأفضل أن أقوم أنا بعرض القضية. سادت الفوضى لحظات. كان من الصعب نشر المخططات على طاولة الشاي الصغيرة. فأدرك ديك وايت ذلك وقال:

«لا بأس لننشرها على الأرض».

خلال دقيقتين كنا جميعاً نركع على السجادة، ثم فقدنا دفء لحظات بعد ظهر يوم الأحد. وعادت الشكوك والمخاوف تنخر عقولنا. وقلت بأنني كنت حضرت ملفين سابقين واحد لقضية تيسلر والثاني لقضية لانزديل، وقد رفض كلا الملفين. ونظر إلي ديك وايت ولم يعلق بشيء. فقلت له:

«في الواقع لا يمكننا أن ننظر إلى هذه القضية مجزأة، أحضرنا هذه المخططات لنستطيع أن نكوّن وجهة نظر شاملة حول ما إذا كان هناك دليل على وجود تدخل سوفياتي في هذه القضايا. . .».

وقال ديك وايت متشككاً:

«يبدو لي أنها قضية استقراء سيئة، ولكن استمر».

شرحت القضايا كلها واحدة بعد الأخرى، وشرحت كيف أنها كانت دائماً تنتهي عند الأسماء الخمسة.

سألني ديك وايت وهو يحدق بي مباشرة.

«هل كنت تتباحث مع آرثر في كل مرحلة قبل أن تتوصل إلى ربط هذه الأشياء ببعضها؟».

فأجبته:

«وكيف أستطيع ذلك وأنا طوال الوقت في المديرية».

وقال ديك لآرثر:

«هل تعني بأنكما توصلتما إلى هذا الاستنتاج؟».

كان واضحاً أن الأمر صعب التصديق بالنسبة له.

ثم بدأ آرثر حديثه وطرح قضية طلب مراقبة ميتشيل. وسأل ديك وايت فيرنيفال جونز الذي ظل حتى ذلك الوقت صامتاً، عن رأيه. فصمت للحظة ثم قال:

«لقد رفض روجر هوليس توسيع التحقيق. وأنا أعتقد، شخصياً، بأن هذا خطأ. فعندما تنقصنا المتابعة مع النقص في المراقبة فهذا يعني أن الأمل في الوصول إلى نتيجة في هذه القضية ضعيف».

أعجب ديك وايت بإجابة فيرنيفال جونز. وقال بعد لحظات من التفكير:

«يوجد عاملان الآن في هذه القضية، الأول، يجب أن نقوم بإجراء التحقيق، أما الثاني، يجب أن يرانا الناس ونحن نجربه، والثاني لا يقل أهمية عن الأول». وقال لنا بأنه لا بد من إجراء بعض التغييرات. وطرح أن يتم إجراء التحقيق في بيت غير رسمي، لا في مبنى حكومي، وقدم لنا بيتاً آمناً تابعاً لأم آي ٦ في بافليون رود.

«سأمضي الليلة في التفكير بما سأقوله لروجر هوليس، وستعرفون منه ذلك».

وفي اليوم التالي أخبرنا فيرنيفال جونز بأن هوليس أعطى تصريحاً لفريق من مراقبي أم آي ٦ لاستخدامه في القضية، مع التأكيد على أنه لا يحق لهم ملاحقة ميتشيل لأبعد من محطة قطارات لندن في حالة ملاحظتهم. كما سُمح لنا باطلاع ويتربورن، ووضع أجهزة مراقبة تلفزيونية داخل مكتب ميتشيل. قمنا بعد ظهر ذلك اليوم بنقل الملفات إلى شقة صغيرة غير مؤثثة في بافليون رود، التي بقيت حتى نهاية القضية مقر قيادتنا.

في المراحل الأولى من التحقيق قمنا بإعادة تفحص ظروف هرب فيلبي. أدى ذلك إلى اكتشاف حيوي مهم، فقد طلبت من السي آي أي التدقيق في سجلات الكمبيوتر لديهم لتتبع تحركات كافة ضباط المخابرات السوفياتية المعروفين في العالم، ووجدنا بأن يوري مودين، ضابط ال ك ج ب الذي كنا نعتقد بأنه المسؤول عن فيلبي في الأربعينات، وترتيب هرب بيرغيس وماكلين، زار الشرق الأوسط في أيلول ١٩٦٢، بعد مقابلة فلورا سولومون مع آرثر

في لندن. كما تبيّن لنا تدقيق الكمبيوتر كذلك بان مودين قام بزيارة سابقة في آيار من نفس السنة بعد وصول أوراق غوليتسين الثلاث المتعلقة بشبكة الخمسة إلى ليكون فيلد. كما أكدت السي آي أي بأن مودين لم يغادر الاتحاد السوفياتي منذ بداية الخمسينات. أما السيدة إيليانور فيلبي، زوجة كيم فيلبي، فقد قالت في مقابلة معها في ذلك الوقت بأن فيلبي قطع زيارة عائلية خاصة إلى الأردن في شهر أيلول، ومنذ ذلك الوقت حتى لحظة اختفائه وهو يظهر مزيداً من علامات الادمان والاكتئاب. بدا لنا واضحاً بان مودين ذهب إلى بيروت لينبه فيلبي بإثارة قضيته ثانية في ليكون فيلد. فعندما علمت الـ ك ج ب عن هرب غوليتسين، كان التحذير واضحاً، أما الشيء الملفت للانتباه هو أن فيلبي لم يظهر أي تأثر إلا بعد زيارة مودين الثانية في أيلول، والتي تزامنت بالضبط مع وقت فتح القضية ضده بشكل لا يدحض.

ثم عدنا إلى أشرطة تسجيل ما يسمى باعترافات فيلبي التي عاد بها نيكولاس اليوت من بيروت. بقينا عدة أسابيع نستمع إليها لأن التسجيل كان سيئاً. كان التسجيل نموذجاً لعمل أم آي ٦. إذا استُخدم ميكروفون عادي واحد والشبابيك مفتوحة. كان صوت السيارات في الشارع يصم الأذان. لذلك قمنا بتفريغ الأشرطة بواسطة جهاز طورته أنا وبمساعدة سخية من إيفلين ماك بارنيت ومن آن أورزاوينغ أفضل المسجلين حصلنا على نص دقيق بنسبة ٨٠٪. استمعت أنا وآرثر ذات يوم للشريط ونحن نتابع النص على الورقة بعناية. وأدركنا من سماع الشريط بأن فيلبي وصل إلى البيت الآمن المحضر خصيصاً للمقابلة مع اليوت. قال له اليوت بأنه يوجد دليل جديد يجعل اليوت مقتنعاً تماماً بإدانة فيلبي. فرد عليه فيلبي، الذي ظل ينكر ذنبه عقداً من الزمان، بهدوء وروية بالإقرار بأنه يتجسس منذ عام ١٩٣٤ _ولكنه لم يسأل ما هو الدليل الجديد.

وجد آرثر أن الاستماع إلى الشريط يبعث على الاكتئاب. فكان يضرب ركبته بيده لإحساسه بالإحباط. فيما كان صوت فيلبي يتدفق بالأكاذيب: كان بلانت بريئاً، أما تيم مايلن، وهو صديق مقرب من فيلبي وكان يدافع عنه دائماً، فليس بريئاً. كان الاعتراف كله، حتى الوثيقة التي وقعها فيلبي، مصمماً بطريقة تؤدي إلى تضليلنا. عادت بي الذاكرة إلى لقائي الأول بفيلبي، شبابه الجذاب، ولعثمته، وكيف كنت أتعاطف معه. وخيل إلي انني سمعت هذا الصوت في لقائنا الثاني عام ١٩٥٥ عندما كان ينحني على هذا المحقق من أم آي ٦ وينصب الشباك لذاك، ليضيع نصراً من بين أيديهم. والآن، ها هو اليوت يحاول بطريقة مهذبة أن يحصر في الزاوية رجلاً أصبح الخداع بالنسبة له جلداً ثانياً لثلاثين عاماً. فالمقارنة هنا معدومة. وعند نهاية الحديث بينهما بدا الاثنان وكأنهما مذيعا راديو يتبادلان الحديث بدفء أحاديث طلبة المدارس الحكومية، حول أكبر قضية خيانة في القرن العشرين.

وعلق آرثر:

«لقد عولجت القضية بشكل سيء. كان يجب أن نرسل فريقاً لتشويه. .».

ووافقته على رأيه. ان روجر وديك لم يأخذا في الحسبان إمكانية هربه.

بدا منذ الوهلة الأولى أن الروس مازالوا يحتفظون بمصدر لهم داخل المخابرات البريطانية يتابع تطور قضية فيلبي، رحلات مودين، وتوقع فيلبي لوصول اليوت للتحقيق معه، واعترافه المصطنع، كل هذا كان يشير إلى وجود المصدر. وهناك حفنة من الضباط لها مثل هذا النفوذ للاطلاع على قضية فيلبي وعلى رأسهم هوليس وميتشيل.

قررت الذهاب إلى قيادة الاتصالات الحكومية لأرى ما يمكن أن نستفيده من برنامج «فينونا» في قضية ميتشيل. كان العمل في «فينونا» يتم في كوخ خشبي كبير رقم هـ ٧٢، في وسطه مجمع بنايات قيادة الاتصالات الحكومية. كان يشرف على العمل هناك محلل شيفرة شاب يدعى جيفري سادبري. وكان هناك عشرات اللغويين الذين يجلسون تحت أضواء حادة يحاولون حل رموز ألف مجموعة من الأرقام.

كان مكتب سادبري نموذجاً لمكتب محلل الشيفرة. ففي إحدى الزوايا تتجمع ملفات الجداول، وعلى طاولته تتجمع الأوراق وعليها ما تم التوصل إليه على طريقة حل الرموز، ليقوم بتوزيعها بعد ذلك إلى أم آي ٥ و أم آي ٦. تحدثنا سوية عن كيفية دفع العمل إلى الأمام. فالمشكلة التي كانت تواجهه هي اعتماد العمل حتى ذلك الوقت على العمل اليدوي، بينما يقتصر استخدام الكمبيوتر في حالات معينة فقط، مثل كشف بعض الأسماء السرية. كان العمل يتركز على مهاجمة قنوات ال ك ج ب والمخابرات العسكرية مباشرة، بينما أهملت القناة التجارية إلا في حالة وجود خط مشابه لخط فيها. كان ينقص العمل استخدام الكمبيوتر الجديد الذي أصبح متوفراً في بداية الستينات، على أمل الحصول على مزيد من اللبادات المتشابهة.

كانت المهمة كبيرة للغاية. إذ كان هناك ما يزيد على ١٥٠ ألف رسالة، وقسم قليل منها منظم، ويمكن إدخاله في الكمبيوتر. عملية التنظيم وحدها كبيرة وهائلة. إذ كان يجب جمع كل مجموعة متجانسة في خانة واحدة، وهذا يتطلب المراجعة للتأكد من صحة التنظيم. ثم يجب وضع أول خمس مجموعات رقمية في كل رسالة في الكمبيوتر لمضاهاتها مع بقية المجموعات كلها. وهذا يتطلب حوالي ١٠ بليون عملية حسابية لكل رسالة.

عندما بحثت المسألة مع ويليز في المديرية العلمية، أبدى تشككه في العملية كلها، لذا ذهبت لمقابلة ويليام كوك في مؤسسة أبحاث الأسلحة النووية مرة ثانية، وكان معي فرانك

مورغان. كنت أعرف بأن لدى المؤسسة أكبر كمبيوتر في البلاد حتى أكبر من ذلك الذي لدى قيادة الاتصالات الحكومية. وأوضحت له ما أريد أن أفعله. كنا بحاجة إلى العمل على الكمبيوتر لديهم لمدة ثلاثة أشهر لإيجاد اللبادات المتشابهة، وعند إنجاز هذا العمل، يمكن أن نقدمها إلى وكالة الأمن القومي وقيادة الاتصالات الحكومية للقيام بعمليات التحليل. كان كوك رائعاً كما عرفته دائماً. فقد عاب على ويليز تشككه. وقال:

«هذا هو أهم ما يمكن أن تقدمه مؤسسة أبحاث الأسلحة النووية».

ورفع سماعة الهاتف ليتحدث فوراً مع رئيس قسم تحليل المعطيات في المؤسسة:

«أريد منك أن تبدأ فوراً بمهمة حيوية. سأرسل لك شخصاً مع التفاصيل، ولا داعي لأن تعرف أين يعمل. وأرجو أن تعمل وفقاً لما يطلب».

استطعنا خلال شهرين أن نعيد تنظيم وتصنيف كل رسالة. مضينا في العمل لثلاثة أشهر أخرى بواقع ست ساعات في الليلة الواحدة.

بدا لنا في البداية أن برنامج كمبيوتر مؤسسة الأبحاث قد يحوّل «فينونا» البريطانية. ثم وجدنا رسالة في فترة شهر أيلول مشابهة للرسالة التي قمنا بحلها، كانت تتعلق بستانلي أيضاً. وحوت تعليمات له بعدم حمل وثائق قد تجرمه عند لقائه القادم مع كروتوف. واستطعنا أن نصل من خلال مجموعة من الرموز المتشابكة إلى أزمة ما في شؤون ال ك ج ب في المكسيك. وقد طلب من كروتوف الرجوع إلى ستانلي بما أن شعبته كانت تتعامل مع قضايا المكسيك.

في تاريخ هذه الرسالة كان فيلبي رئيس شعبة إيبيريا في أم آي ٦، التي كانت مسؤولة عن مجموعة من دول أمريكا اللاتينية، بما فيها المكسيك. كانت تلك لحظة مرة. فالدليل القاطع على أن ستانلي هو فيلبي أصبح متوفراً لدينا بعد هربه بأشهر. ولو كنا حللنا الشيفرة في سنوات سابقة لاستطعنا اعتقاله في إحدى زياراته المنتظمة إلى لندن وصحيفة الأوبزيرفر. زاد هذا الاكتشاف الخوف على وحدة أم آي ٥، بعد أن قررت عام ١٩٥٤ وقف برنامج فينونا الأمر الذي يضعها موضع شك. وعندما راجعنا الملفات وجدنا أن غراهام ميتشيل هو الذي أمر في ذلك الوقت بوقف العملية، وكان وقتها رئيس شعبة مكافحة التجسس.

للأسف، فإن ما ورد عن فيلبي هو الشيء الوحيد الذي قدمه لنا الكمبيوتر في عملية «فينونا» البريطانية. لقد تم الحصول على رسائل متشابهة في قناة ال ك ج ب مع المكسيك وأماكن أخرى من أمريكا اللاتينية، وكانت ذات قيمة كبيرة للسي آي أي والشرطة الكندية، إذ

كانت المكسيك منطقة رئيسية لِـ ك ج ب لإرسال الجواسيس غير الشرعيين إلى أمريكا الشمالية. أما الرسائل في «فينونا» البريطانية فقد كانت عن القناة التجارية أكثر منها عن قناتي الـ ك ج ب والاستخبارات العسكرية التي كانت تهمنا أكثر. وقد استمر العمل في الكوخ رقم هـ ٧٢ بكثافة أكبر، وبدون انقطاع هذه المرة.

لم يكن هناك في سجل خدمة ميتشيل إلا القليل مما يمكن أن يساعدنا. فقد ولد عام ١٩٠٥، ودرس في أكسفورد، ثم عمل صحافياً وانتقل بعد ذلك للعمل موظف إحصاء في مكتب المحافظين المركزي. فاجأتني هذه النقطة. إذ تذكرت مناقشاتي معه لقضية لانزديل. فقد ادعى وقتها بأنه لا يفهم وجهة نظري لأنه لا يفهم في «الإحصاء». انضم إلى أم آي ٥ نتيجة الاتصال من خلال حزب المحافظين، وعمل في الجانب المعادي للفاشية أثناء الحرب، ثم عمل فيما بعد في الحزب الشيوعي البريطاني. صعد في الجهاز بسهولة: إذ أصبح رئيس الشعبة و في نهاية الأربعينات. وفي فترة رئاسة ديك وايت لأم آي ٥ أصبح رئيس قسم مكافحة الشيوعية عام ١٩٥٣، قبل أن يعينه هوليس نائباً له عام ١٩٥٦. كان هناك نقطتان مهمتان في حياة ميتشيل العملية. الأولى، علاقته الحميمة بهوليس. كانا معاً في نفس الفترة في أكسفورد، وانضما إلى أم آي ٥ في نفس الفترة أيضاً. وكانا يصعدان معاً نحو الوظائف العليا. أما النقطة الثانية فهي أن ميتشيل كان يبدو عاجزاً عن القيام بدور الرجل الأول. كان ذكياً: طلبه ديك وايت لتغيير الشعبة د. فقد بدا أنه فشل في مهمته التي دامت ثلاث سنوات. وبالفعل جاء قراره بوقف عملية «فينونا» بشكل مدروس. بدا أنه أراد أن يفشل في مهمته.

لم تقدنا المراقبة المكثفة التي وضع ميتشيل تحتها إلّا إلى القليل. وقمت بفحص نشافة الحبر بواسطة مادة للحبر السري، لنتأكد من كل ما يكتبه. ولكن لم نعثر على أية أوراق غير تلك التي يستخدمها عادة. كان جهاز المراقبة التلفزيوني يعمل باستمرار ومعه فريق من مراقبي أم آي ٦. كانت مهمة كئيبة: ففي كل صباح كان ميتشيل يدخل المكتب ويبدأ بتنظيف أسنانه بعود صغير. ويعيد هذه العملية قبل الغداء، وبعد الغداء وقبل أن يذهب إلى بيته. وعند نهاية القضية بدأت أشعر بأن كل ما نعرفه بشكل جيد عن ميتشيل هو لوزتيه.

لذلك رتبت أمر تقديم طعم له. فأرسلت إليه، بشكل روتيني، تحليلاتي عن الاتصالات اللاسلكية السوفياتية بتصنيفاتها المختلفة، والتي أرسلتها حديثاً إلى قيادة الاتصالات الحكومية. فإذا كان ميتشيل جاسوساً، فإنه لا يستطيع تجاهل هذه المعلومات. وراقبت ميتشيل وهو ينظر إلى التقرير بلا مبالاة. ثم جاء بعد ذلك جيمس روبرتسون، وهو مستشار سابق لي كان يدير مكافحة التجسس السوفياتي لفترة محددة في الخمسينات. بدأ

الاثنان في تبادل الحديث حولي أنا. إذ لم يغفر لي روبرتسون التغييرات التي أجريتها على الشعبة د عندما كان يعمل فيها. كان يعتقد بأنني وصولي، وعليّ أن أتعلم كيف أحترم من هم أكبر وأفضل مني قبل أن أقدم النصح أو المشورة. وقام ميتشيل وروبرتسون ببحث تحليلي، ولم يفهم الرجلان القَصد منه.

وقال روبرتسون:

«هذا المجنون رايت، يعتقد أنه يعرف كل شيء. لا بد من قص جناحه».

ووافقه ميتشيل بهزة من رأسه، ولم أستطع أن أكبت الابتسامة على شفتي وأنا أراقب هذه المفارقة.

كانت لحظات المراقبة هذه صعبة وثقيلة مليئة بالانتظار الممل لنرى رجلاً يخون نفسه. وذات مرة اعتقدت بأننا قبضنا عليه. ففي بعد ظهر يوم جمعة بدأ يرسم على قطعة صغيرة من الورق. وكان يركز ذهنه مدة تصل إلى عشرين دقيقة، ويستخدم ورقة أخرى أخرجها من محفظته مكتوب عليها بعض الملاحظات، ثم يمزق الورقة ويرميها في سلة المهملات. رتب هوليس لي مسألة تفتيش مكتب ميتشيل كل ليلة منذ بداية القضية، كما طلب من سكرتيره عدم رمي سلة المهملات. قمت تلك الليلة بأخذ قطع الورقة الممزقة وأعدت تركيبها. لقد كانت خارطة لحي تشوب هام كومون القريب من سكن ميتشيل، وفيها أيضاً نقاط وأسهم في مختلف الاتجاهات. وكان في منتصف الخارطة حرفا R V وموقع سيارتين حيث تقف كل واحدة في نهاية الشارع الذي يمر من موقع اللقاء.

قمنا بإخلاء بافليون رود، لتركيز الاهتمام كاملاً على النقطة المحددة في خارطة ميتشيل. ولكن لا ميتشيل ولا أحد آخر غيره جاء إلى هذه النقطة.

عندما فتشت لأول مرة مكتب ميتشيل كان هوليس عصبياً جداً.

«هناك وثائق حساسة جداً يا بيتر، وأريدك أن تعدني بأن تبقى مغلقة».

كان هوليس قلقاً على تقارير الموظفين، وأوراق أخرى محرجة، أكثر منها سرية، يتطلب الروتين أن تمر عبر مكتب نائب المدير. ولكن قلقه ليس في محله. فلم يكن هناك من الوثائق التي رأيتها عن بعد في مكتب ميتشيل ما هو أكثر أهمية من تأكيد وجهة نظري في أن أسوأ الوظائف في العالم أن يكون المرء نائب مدير عام لشخص استبدادي مثل هوليس.

بقيت لعدة أشهر التقي مع هوليس في الليل بعد الدوام. في البداية كان يعبر لي عن عدم ارتياحه للاطلاع على شؤون زميل قريب، ولكنني لم أشعر مطلقاً بأصالة هذه العاطفة.

وعندما أخبرته عن تنظيف ميتشيل لأسنانه بشكل متواصل، تجلجل ضاحكاً وقال:

«يجب أن يذهب إلى طبيب أسنان محترم».

أما أنا فقد وجدت نفسي مصمماً وبلا رحمة. فلقد انتظرت سنين طويلة فرصة الإمساك بقضية الاختراق.

أتاحت لي هذه الليالي التعرف على هوليس كإنسان. فرغم أنني عملت تحت إمرته ثماني سنوات، إلا أننا نادراً ما كنا نتحدث خارج حدود العمل الرسمي. كانت تمر بنا لحظات من التوتر، ولكن علاقتنا على أي حال كانت صحيحة. ولم يكن بيننا مواجهة حقيقية إلا مرة واحدة، عندما كنت في الشعبة أ ٢ مع وينتربورن في نهاية الخمسينات. فقد جاء وفد أرجنتيني للتفاوض مع الحكومة الأمريكية حول صفقة من اللحوم. قدم لنا هوليس طلباً من مجلس التجارة حول أية معلومات استخبارية، وأصدر لنا تعليماته بترتيب زرع ميكروفونات لتغطية الأرجنتين. غضبنا أنا ووينتربورن. كان ذلك خرقاً واضحاً لمذكرة فيندلاتر ستيوارت، التي حددت أهداف أم آي ٥ بتلك المرتبطة بالأمن القومي. وقد شاركنا بقية موظفي الشعبة أ ٢ رأينا فرفضنا تعليمات هوليس. كنا نتوقع عمليات فصل جماعية، لكن هوليس سحب تعليماته ولم يثر هذا الموضوع ثانية أبداً. كان ذلك أول إضراب في أم آي ٥ ينتهي بانتصار كامل لصالح المضربين.

وأثناء تفتيشنا معاً لمكتب ميتشيل تحدث هوليس أحياناً عن أيامه الأولى فأخبرني عن رحلاته إلى الصين أثناء الثلاثينات، حيث كان يعمل مع شركة التبغ الأمريكية ـ البريطانية.

«كان عملاً رهيباً هناك، باستطاعة أي أحمق أن يرى ما يفعله اليابانيون في منشوريا. كان واضحاً أننا سنخسر الصين إذا لم نقم بأي عمل».

كان مثل بقية قدامى أم آي ٥، تعود جذور كرهه للأمريكيين إلى أيام ما قبل الحرب. ويقول بأنه كان باستطاعة الأمريكيين المساعدة في الشرق الأقصى، ولكنهم رفضوا لأنهم كانوا متمسكين بمبدأ العزلة. أما الفرنسيون فكانوا عاجزين في الشرق الأقصى، ويفضلون أن تتدمر المنطقة كاملة على أن يساعدونا. لذلك لم يبق هناك سوى الروس.

وقال:

«كان الروس يراقبون وينتظرون، وحصلوا على الشرق الأقصى بعد الحرب عندما جاء ماو».

نادراً ما كان يتحدث عن عائلته، رغم أن الجميع في أم آي ٥ يعلمون بمشاكله العائلية. كان يتحدث فقط وبشكل عرضي عن ابنه أدريان، الذي كان عبقرياً في الشطرنج،

ومصدر فخر لأبيه. (كان أدريان يسافر إلى الاتحاد السوفياتي ليلعب الشطرنج).

وفي إحدى المرات التي كنا نتحدث فيها سوية عن قضية ميتشيل طرحت ما معناه، إنه أياً كانت النتيجة، فإن القضية تبين مدى الضعف الذي يعاني منه أمننا الوقائي. عندها استشاط هوليس غضباً. وسألني:

«ماذا تعني؟».

فقلت له بأن الاجراءات التي تتخذ عند اختيار المجندين في أم آي ٥ هي أقل صرامة من تلك التي يتم اتخاذها في الأقسام الأخرى في الوايت هول. وقلت:

«أنظر إليّ أنا.. لم يجرِ عليّ أي تدقيق منذ أن دخلت أم آي ٥ عام ١٩٥٥».

في اليوم التالي أرسل إلي الطلبات، ولم يعد للحديث في القضية ثانية، رغم أن الاجراءات بدأت تتغير، إذ كان على المرشحين تقديم معرِّفين أكثر، يجب أن يكون أحدهم معيناً من داخل الجهاز.

وأكثر ما أتذكره عن هوليس في تلك الجلسات الليلية هو حفظه لأقذر النكات التي سمعتها في حياتي. لقد بدت لي هذه النكات أشبه بميكانيكية للدفاع، أو مبرراً للكلام، أو طريقة لتخفيف العبء عليه عندما نزل من قمة الأولمب ليتحدث مع الجنود. سألته ذات مرة من أين جمع هذا الكم الهائل من هذه القصص:

«من الصين، فالناس هناك يشربون ويروون النكات، هذه هي الطريقة الوحيدة لتمضية الوقت».

وفيما بعد قررت أن أفتش مكتباً صغيراً في غرفة ميتشيل، وطلبت المفتاح من هوليس. فقال:

«إنه مكتب غاي ليديل. تركته عندما جئت مكانه. وهو هنا منذ عدة سنين..».

طلبت موافقته بفتح الدرجين المغلقين بدون استخدام المفتاح. فوافق. وأحضر لي في اليوم التالي أدوات الفتح، وقمنا سوية بتفتيش الدرجين. كانا فارغين، إلا أن أحدهما لفت انتباهي. لاحظت وجود آثار من الغبار تشير إلى وجود أشياء تمّ أخذها منه حديثاً. ناديت هوليس وأريته الآثار. أبدى دهشته مثلي، خاصة عندما فتشت القفل فوجدت آثار خدوش تدل على فتح الدرج منذ فترة قريبة.

عاد هوليس إلى غرفة مكتبه من خلال الباب الموصل بينه وبين غرفة ميتشيل، وأكملت التفتيش لوحدي.

فكرت بيني وبين نفسي «أنا وهوليس فقط نعرف بأنني كنت أنوي تفتيش المكتب. ولا بد أن هناك شيئاً تم إزالته. يمكن أن يكون جهاز تسجيل. وزال شكي عن ميتشيل. لأنه لم يعرف عن المكتب. هوليس فقط الذي يعلم. لماذا لا يوجد مفتاح للمكتب؟ ليديل ليس من ذلك النوع الذي يذهب ويأخذ المفتاح معه. هوليس فقط الذي يعلم. . هوليس فقط. »

نظرت فرأيت هوليس عبر الباب يحدق بي، لم ينطق بشيء. وظل يحدق بي، ثم انحنى فوق الملف الذي بين يديه.

استمر التحقيق على أشده في قضية ميتشيل طوال أشهر صيف عام ١٩٦٣، فيما كان موعد تقاعده يقترب. لكن العملية برمتها بدت يائسة. كنا على عجلة من أمرنا والتخطيط ضعيف. كنا نقترب من الطريق المسدود، كما كان ينقصنا دعم هوليس، لذلك بدا محتماً أن أسرار العملية تنهار. وارتاب ميتشيل في الأمر. ففي البداية لاحظ أن توزيع الأوراق من خلاله تضاءل كثيراً فيما كان هوليس يحاول تحجيم اطلاعه على الأسرار. ثم بدأ بتضليل المراقبين واتخاذ اجراءات مراقبة مضادة. أخذنا نشك بأنه يعلم بأنه مراقب. فنراه عن طريقة الجهاز التلفزيوني وكأنه يعاني من كآبة شديدة. كان طويلاً ونحيلاً ولكنه تحول إلى هيكل عظمي بعينين غارقتين في رأسه. وإذا ما دخل شخص إلى مكتبه، يبذل جهداً كبيراً كي يبدو طبيعياً، وما أن يبقى وحده في المكتب حتى يبدو كإنسان معذب. قال ذات يوم وهو ينظر إلى مكتب هوليس:

«لماذا يفعلون بي هذا؟».

في الشهر الأخير تحولت القضية إلى ملهاة تافهة. إذ لم نحصل على أي شيء في هذه الظروف. لذا قمت أنا وآرثر بالضغط على هوليس لإصدار تعليماته للتحقيق مباشرة وحل القضية بأي شكل كان. رفض هوليس التعهد بذلك. لكنه جاء بعد عدة أيام إلينا في بافليون رود ليقول لنا:

«ذهبت لمقابلة رئيس الوزراء. وأعتقد أن التحقيق المباشر غير وارد».

رأيت بطرف عيني آرثر وهو يكاد ينفجر. وقال:

«إنها مصيبة لو حصل هروب ثانٍ في هذا الوقت».

شكرنا هوليس على الجهود التي بذلناها ثم خرج ليركب السيارة التي تنتظره في الشارع. كان ذلك نموذجاً لسوء إدارة هوليس وتعامله مع موظفيه. ففي الغرفة كان يقبع عدة ضباط خبراء يعملون وهم على حافة اليأس، ولكنه يتركهم بدون كلمة. لقد انتهى العمل القذر. والأفضل تركه للعمال القذرين.

كانت عملية ساذجة. وقد أرعب قرار هوليس مجموعة مراقبي أم آي ٦ وعلى رأسهم ستيفان دي موبري الذي كان عصبي المزاج، واعتبروا القرار فوراً محاولة فجة للقمع الداخلي. وهي نفس التهمة التي وجهتها أم آي ٥ لأم آي ٦ في قضية كيم فيلبي. وكتب روني سيموندز تقريراً كاملاً عن التحقيق في قضية ميتشيل. وجاء في التقرير تاريخ الزعم بوجود الاختراق في أم آي ٥، وخلص إلى القول بأنه هناك اشتباه قوي بوجود جاسوس على مستوى عال داخل الجهاز. وطرح السؤال الواضح، ضرورة إبلاغ الأمريكيين.

أرسل التحقيق إلى هوليس وديك وايت. وبعد المداولات الشخصية بين الاثنين، دعينا إلى اجتماع بعد الظهر، في بيت هوليس. كان الفرق بين هوليس وديك وايت واضحاً في بيتيهما. كان بيت هوليس خالياً من الكتب، واستقبلنا لابساً بذلة العطلة. وأدخلنا إلى غرفة الإفطار وبدأ فوراً في العمل. طلب أن يسمع وجهة نظرنا. وأبدى الاهتمام بإشراك الأمريكيين. فلم يكن ليطيب له الحديث عنهم، وكان هناك أكثر من دلالة على عدم رضاه وأن الموضوع كان مفروضاً عليه.

قال آرثر بغضب بأنه يجب أن نجد طريقة لنخبر الأمريكيين الآن، قبل أن نضطر لإبلاغهم فيما بعد، في حالة ثبوت القضية ضد ميتشيل، لأن أثرها عندئذ سيكون وخيماً. عارض هوليس بشدة، وقال إن إبلاغهم سيدمر التحالف، خاصة بعد هرب فيلبي.

قلت له:

«حسب معلوماتي، أعتقد أنه ربما كان لدى الأمريكيين مصادر معلومات قد تساعد في حل القضية. ولن نحصل على هذه المعلومات دون أن نطلبها».

أمضى هوليس ساعة كاملة وهو يناقش القضية معي أنا وآرثر، وكانت أعصابنا مشدودة. أما الباقون مثل روني سيموندز الذي كان يتولى الشؤون الكتابية في القضية، وهيو وينتربورن، وفيرنيفال جونز فكانوا يحاولون تهدئة الموقف. قال سيموندز بأنه يريد أن تبقى الاختيارات مفتوحة. ربما من الضروري التحقيق المباشر مع ميتشيل، ولكن يمكن اعتبار القضية منتهية. أما بالنسبة لأمريكا، فقال إنه لا يعرف الوضع هناك بما يكفي لطرح وجهة نظره. وقف وينتربورن إلى جانب آرثر بصلابة وقال إن المصيبة الأكبر هي الصمت الآن لنجد فيما بعد أن القضية مثبتة. وانفجر فيرنيفال جونز:

«لسنا في مدرسة حكومية، كما تعلمون، لا يوجد ما يجبرنا على أن نكون مدينين للأمريكيين. إننا ندير جهازنا بالشكل الذي نراه صحيحاً. وآمل أن تتذكروا ذلك!».

وبالرغم من ذلك فقد اعترف فيرنيفال بأن هناك مشكلة يجب أن تحل. فقال بأنه يشعر

بشكل عام بأنه من الحصافة بمكان إبلاغ الأمريكيين، ولكن كيف، وشعر هوليس بأنه الوحيد خارج الدائرة ولذلك اقترح فجأة استعداده للذهاب إلى واشنطن بنفسه.

وسأله فيرنيفال جونز:

«أليس من الأفضل حل القضية على المستوى العملي؟».

لكن هوليس أصر على ذلك رغم محاولات آرثر لثنيه. وقال:

«استمعت لكل المناقشات. وقراري نهائي». كان يحدق بآرثر وعيناه تبرقان.

غادر هوليس فوراً إلى الولايات المتحدة، حيث قام باطلاع جون ماكون، الرئيس الجديد للسي آي أي، بعد إزاحة آلآن دلاس اثر فشل عملية خليج الخنازير. واطلع هوفر كذلك على القضية. وبعد ذلك بوقت قصير قام آرثر بزيارة الولايات المتحدة لاطلاع السي آي أي والأف بي آي على المستوى العملي. فاستقبل استقبالاً جافاً. إذ لم يستطع الأمريكيون أن يفهموا ببساطة كيف يمكن ترك قضية ما بدون نتيجة محددة. وفي هذه القضية بالذات لدينا زعم يقول بوجود واحد من أخطر الجواسيس في القرن العشرين، استقال منذ فترة وجيزة من أحد أهم أجهزة مكافحة التجسس في العالم الغربي، ومع ذلك لم يتم التحقيق المباشر معه. وقد رأوا في القضية كلها نوعاً من العجز الذي ظهر في أم آي ٥ عام ١٩٥١. فبشكل أو بآخر كانوا على صواب.

عاد هوليس مصمماً على حل القضية. وطلب من روني سيموندز كتابة مراجعة جديدة للقضية. كما طلب منه عدم الاتصال بي أو بآرثر لتحضير تقريره الجديد.

بعد تكليف سيموندز بقضية ميتشيل عدت إلى المديرية العلمية، حيث أبلغت بأن ويليس أجرى تغييرات في الاجراءات هناك، لأنه شعر بأن المديرية ليست بحاجة بعد الآن إلى توريط نفسها بشؤون قيادة الاتصالات الحكومية، ويريد مني قطع كافة اتصالاتي مع المنظمة. أدركت ما وراء هذا الإجراء. وعرفت أنه بدون التسهيلات التي تقدمها قيادة الاتصالات الحكومية لأم آي ٥ فإن الأمور ستتدهور وتعود إلى ما كانت عليه من وضع بائس قبل عام ١٩٥٥. كان القليل من ضباط أم آي ٥ يدركون تماماً ماذا يمكن أن تقدم لهم قيادة الاتصالات الحكومية، كما كان القليل من العاملين في القيادة يهتمون بما يمكن أن يقدمه أحدهم للآخر، وهي مسألة في غاية الأهمية لاستمرار عمل المديرية. لكن ويليس كان متصلباً في موقفه. كان يريدني أن أترك قسم مكافحة الأسرار وأنضم إلى البيروقراطيين. كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فذهبت إلى هوليس وأخبرته بأنني لم أعد احتمل العمل في المديرية. وقلت بأنني أود الانضمام إلى الشعبة د أو الشعبة أ. فقضية

ميتشيل زرعت في نفسي حس البحث، وكنت أعلم بأن منصب مدير الشعبة د ٣ شاغر. فوجئت عندما عرض علي هوليس التحويل الفوري إلى الشعبة د ٣. وقال إن لديه طلباً صغيراً واحداً هو العودة إلى المديرية لإنهاء مشروع خاص أخير مع ويليس، قبل أن استلم وظيفتي الجديدة في كانون الثاني ١٩٦٤.

كان مشروع ويليس واحداً من أهم المشاريع وأكثرها إثارة للخلاف والجدل الذي قمت به لأجل أم آي ٥. فقد طلب مني القيام بمراجعة شاملة، وهي الوحيدة التي تم عملها في المخابرات البريطانية حسب علمي، لكل صغيرة وكبيرة في المعلومات التي زودنا بها المنشق الروسي الجديد في مطلع الستينات ـ أوليغ بينكوفسكي.

كان بينكوفسكي في ذلك الوقت جوهرة تاج أم آي ٦. إذ كان ضابطاً كبيراً في المخابرات العسكرية السوفياتية، وكان يتجسس من داخل الاتحاد السوفياتي لحساب أم آي ٦ والسي آي أي في الفترة من ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، فزود الجهازين بمعلومات هائلة عن النوايا والقدرات العسكرية السوفياتية. وقد هللت له المخابرات الأمريكية والبريطانية على أنه أنجح عملية اختراق للمخابرات السوفياتية منذ الحرب العالمية الثانية. فقد نبه بينكوفسكي الغرب إلى وجود الصواريخ السوفياتية في كوبا، كما أثرت معلوماته عن الترسانة النووية السوفياتية في تشكيل الموقف الأمريكي من أزمة الصواريخ الكوبية اللاحقة. وقدم كذلك الدليل لتحديد الصواريخ الروسية في كوبا. وفي عام ١٩٦٢ تم اعتقال بينكوفسكي وزجل أعمال بريطاني هو غريفيل واين، الذي كان نقطة اتصال بينه وبين أم آي ٦. وجرت محاكمتهما، فحكم على واين بالسجن لمدة طويلة. (لكنه في النهاية تم تبادله مع لانزديل وآل كروجر). أما بينكوفسكي فقد بدا أنه أعدم بالرصاص.

انخرطت في قضية بينكوفسكي وهي حية. فقد زار بينكوفسكي لندن في عدد من المناسبات كعضو في وفد تجاري سوفياتي. حيث كان يتم استجوابه فيدلي بمعلومات سرية لأم آي ٦ والسي آي أي في فندق ماونت رويال. وفي ذلك الوقت كان هيو وينتربورن مريضاً لفترة طويلة، وكنت نائب مدير الشعبة أ ٢. طلبت مني أم آي ٦ تزويدها بالغطاء التقني لعملية بينكوفسكي في لندن. وقمت بترتيب تغطية كاملة له بالإضافة إلى زرع الميكروفونات الشديدة الحساسية لالتقاط كل معلومة يدلي بها أمام المسؤولين عنه في ليالي الاستجواب الطويلة.

سارت قضية بينكوفسكي بعكس كل المزاعم عن وجود اختراق في أم آي ٥. ولطالما بحثت هذه المسألة مع آرثر أثناء قضية ميتشيل. فإذا كان هناك اختراق على مستوى عال، فلا بد أن تكون قضية بينكوفسكي مفتعلة، لأن المعلومات التي قدمها معروفة من قبل حفنة من الكبار المشتبه بهم، بمن فيهم ميتشيل نفسه، منذ فترة مبكرة نسبياً. وعندما كنت أقوم بترتيب

تأمين التغطية التقنية في عملية ماونت رويال، سألني هوليس عن اسم عميل أم آي ٦، وأعطيته إياه. كما سألني كمنغ عن الاسم فرفضت اعطاءه له لأنه لم يكن على قائمة أم آي ٦ الذين يحق لهم الاطلاع. أثار هذا الأمر شجاراً بيننا، واتهمني كمنغ بأنني أتصرف باستعلاء أكثر مما يخولني مركزي. ويبدو أنه كان غاضباً مني لأنني لم أعترف له بدوره في نقلي للعمل في أم آي ٥.

كان بينكوفسكي أبعد ما يكون في معلوماته عن الالتقاء بما جاء في معلومات غوليتسين. فقد قال غوليتسين أن خروتشوف حوّل في كانون الأول ١٩٥٨ رئيس ال ك ج ب الجنرال سيروف إلى رئاسة المخابرات العسكرية السوفياتية. وحل محله في رئاسة ال ك ج ب الكساندر شيليبين، الذي كان رجلاً رقيقاً ومرناً بعكس سيروف الذي كان نموذجاً للرجل الذي تحدوه مصلحته الخاصة. وقد طرح خروتشوف والمكتب السياسي على شيليبين كيف يمكن أن تنتصر روسيا طالما أنه لا توجد حرب شاملة مع الغرب؟ استغرقت هذه المسألة ستة أشهر من الدراسة. ثم قام بعدها شيليبين بدعوة كافة ضباط الـ ك ج ب الكبار إلى مؤتمر موسع في موسكو لبحث السبل الكفيلة بتحديث أساليب عمل الـ ك ج ب. تباهى شيليبين، على حد قول غوليتسين، بأن لِـ ك ج ب مصادر كثيرة جداً في الغرب وبأنه يفضل العودة إلى أساليب المنظمة السابقة لِـ ك ج ب، وإلى «الثقة» كوسيلة لتغطية الطبيعة الحقيقية للنوايا السوفياتية.

ونتيجة لمؤتمر شيليبين تم تشكيل القسم د من المديرية الأولى في ال ك ج ب (المسؤولة عن كافة العمليات في الخارج)، ليقوم بعمليات تخطيط الخداع أو التضليل على مستوى استراتيجي. تم توكيل رئاسة القسم د إلى إ. أجاينتس وهو أحد رجال ال ك ج ب المحترمين والمخضرمين. وأضاف غوليتسين بأنه قام في العام ١٩٥٩ بالاتصال بصديق له كان يعمل في هذا القسم الجديد ليرى فيما إذا كان بإمكانه العمل فيه. أسر له صديقه بأن القسم د يخطط لعملية تضليل واسعة عن طريقة المخابرات العسكرية، ولكن لن يتم تنفيذ هذه الخطة بسبب اختراق السي آي أي للمخابرات العسكرية ولا بد من إزالة هذا الاختراق أولاً. ولا بد أن صاحب هذا الاختراق هو الكولونيل بوبوف، وهو ضابط كبير في المخابرات العسكرية، الذي كان يتجسس من داخل الاتحاد السوفياتي لصالح السي آي أي قبل أن يلقى القبض عليه وبعد تعذيبه قتل بالرصاص عام ١٩٥٩.

والواقع أن غوليتسين لم يعد إلى بلاده مطلقاً، حيث كان في ذلك الوقت يخطط للهرب. لذلك لم يكن لديه أي علم عن خطة التضليل المنظمة، بالإضافة إلى كونها تتطلب كافة مصادر المديرية الأولى. وعندما وصل غوليتسين إلى الغرب كان يتنبأ بالخلاف السوفياتي الصيني على أنه خطة القسم د، وأنه مجرد لعبة لتضليل الغرب. كان بعض المعجبين

بغوليتسين، مثل آرثر يصدقون هذا التحليل (وما زالوا يصدقونه)، وبالرغم من أنني كنت في البداية من المتحمسين جداً لغوليتسين في أوساط المخابرات الأمريكية - البريطانية، إلا أنه بدا لي أن عملية بينكوفسكي مناسبة أكثر بكثير لنوع المهمة الذي كرس القسم د نفسه لها، بعكس فرضية الخلاف الصيني - السوفياتي.

أصبح الخداع الاستراتيجي غير رائج في دوائر المخابرات الغربية، ويعود ذلك بشكل رئيسي إلى الحد البعيد الذي دفعه إليه الملتزمون به، ومنهم أنا في البدايات. ولكن لا شك أن للخداع الاستراتيجي تاريخاً طويلاً وكبيراً. إن عمليات «الثقة» التي قامت بها المخابرات العسكرية والمنظمة السابقة لِـ ك ج ب، في السنوات الأولى من النظام البلشفي، تشكل مصدر الهام لكل محبذ في الـ ك ج ب نظراً للدور الذي يمكن أن تلعبه هذه العمليات. ففي الوقت الذي كان فيه الخطر يحدق بالنظام البلشفي من قبل عدة ملايين من المهاجرين الروس البيض في العشرينات، قام فيلكس دزرجينسكي، الأسطورة الذي أسس المخابرات السوفياتية الحديثة، بإنشاء منظمة مزورة داخل روسيا كرست نفسها لإسقاط البلاشفة. اجتذبت منظمة «الثقة» دعم مجموعات المهاجرين البيض في الخارج، والمخابرات الغربية وخاصة أم آي ٦. وفي الواقع كانت الـ ك ج ب القديمة تسيطر على هذه المنظمة، واستطاعت تحييد أغلب هؤلاء المهاجرين والنشاط الاستخباري المعادي. كما استطاعت أن تختطف أكبر قائدين للبيض هما الجنرال كوتوبوف والجنرال ميلر، وأن تتخلص منهما. كما أقنعت منظمة «الثقة» البريطانيين بعدم الهجوم على الحكومة السوفياتية لأن القوات الداخلية ستقوم بذلك.

كما لعب الخداع الاستراتيجي دوراً رئيسياً في تاريخ المخابرات الغربية، خاصة في عمليات الأمن المزدوج في الحرب، والتي أدت إلى تضليل الألمان حول ساعة الصفر التي حددها الحلفاء.

وإذا ما نظرنا إلى التوازن المخابراتي عام ١٩٦٣، فإننا سنجد بلا شك بأن لدى السوفيات الظروف الضرورية للبدء في عملية تضليل واسعة. كان لديهم اختراقات واسعة وذات مستوًى عالٍ في المخابرات الغربية، خاصة في بريطانيا والولايات المتحدة، وحافظوا عليها بشكل مستمر منذ أيام الحرب. كان لديهم هيس وماكلين، وجواسيس القنبلة النووية: فيلبي، وبيرغيس وبليك، وآخرون. كل هؤلاء زودوا الروس بكل التفاصيل الدقيقة عن الأجهزة التي يريدون خداعها. والنقطة الثانية هي أنه كان لدى السوفيات اختراقات متواصلة لمنظمات الاتصال المخابراتي الغربية منذ أيام الحرب، من فيلبي وماكلين حتى عام ١٩٥١، إلى بداية الستينات من خلال هرب مارتن وميتشيل من وكالة الأمن القومي عام

١٩٦٠، وانتحار جاك دنلاب عام ١٩٦٣، الذي كان سائقاً في وكالة الأمن القومي ونقل عشرات التفاصيل من خلال سماعه مناقشات كبار المسؤولين في الوكالة للقضايا الحساسة في سيارته.

ومن خلال قراءتي للملفات، بدا لي أن بينكوفسكي لا بد أن يكون من ضمن عملية الخداع التي علم بها غوليتسين عام ١٩٥٩. ولخدسي هذا أسبابه العديدة. إذ كان أول ما لفت انتباهي في قضيته هو مصادفة وصوله. كانت أم آي ٦ أحوج ما تكون إلى انتصار في مطلع الستينات. فقد هزتها ضربات فيلبي وجورج بليك، كما كانت معنوياتها متدنية بشكل يبعث على اليأس بعد قضية كراب. ثم جاءت عمليات السويس المأساوية، وجاء ديك وايت ليحاول إعادة بنائها. فأزال منصب نائب المدير العام، وفصل عدداً من كبار الضباط المرتبطين أكثر بنظام سنكلير، وحاول أن يقدم خطاً إدارياً محدداً. ولكنه لم ينجح بشكل كامل. فلم يكن ديك وايت إدارياً ناجحاً. كانت إنجازاته في أم آي ٥ تعتمد على معرفته الدقيقة بالجهاز والموظفين، بالإضافة إلى معرفة عميقة بمكافحة التجسس، أكثر من الاعتماد على الحس الإداري.

وحرمانه من كل هذه الأشياء، كانت سنوات عمله الأولى في أم آي ٦ تعتمد، حتمياً، على المباشرة في العمل لا على الاستراتيجية الواضحة. وليس أدل على ذلك من قراره بالاحتفاظ بفيلبي في الشرق الأوسط ليقوم بإدارة العملاء وهو يعتقد بأنه جاسوس. سألته فيما بعد عن هذه المسألة فقال إنه شعر ببساطة بأن فصل فيلبي سيخلق المزيد من المشاكل داخل أم آي ٦ أكثر من المشاكل التي سيحلها. وكلما أنظر إلى وضع أم آي ٦ في مطلع الستينات أتذكر كلمات لينين الشهيرة لفيلكس دزرجينسكي:

«في الغرب يفكرون بالأمنيات. سنعطيهم ما يريدون أن يفكروا به».

كانت أم آي ٦ بحاجة إلى نجاح، وكانوا بحاجة لأن يصدقوه. فحصلوا على ما يريدون في قضية بينكوفسكي.

كانت هناك ثلاث نقاط محددة في قضية بينكوفسكي جعلتني أشك به. الأولى طريقة تجنيده. ففي نهاية عام ١٩٦٠ زار بينكوفسكي السفارة الأمريكية في موسكو بشكل يتطابق مع مهمته المعروفة، وهي ترتيب تبادل الزيارات مع الغرب في المجالات العلمية والتكنولوجية. وذات مرة عرض على الأمريكيين تزويدهم بالمعلومات. وجرت مقابلة بينه وبين السي آي أي في مقرها الآمن. وأخبرهم بأنه في الواقع ضابط كبير في المخابرات العسكرية؛ يعمل لصالح اللجنة المشتركة بين الـ ك ج ب والمخابرات العسكرية في حقل الاستخبارات العلمية

والتكنولوجية. اعتبر الأمريكيون عرض بينكوفسكي استفزازاً لهم ورفضوا. وفي الوقت الذي كنت أقرأ فيه الملفات كان الأمريكيون اكتشفوا من خلال منشق آخر هو نوسينكو بأن الغرفة التي جرت فيها المقابلة مع بينكوفسكي كانت مرصودة سرياً بواسطة ميكروفونات وضعتها الـ ك ج ب. وهذا يعني بوضوح أنه لو كان بينكوفسكي عميلاً أصيلاً، لعرف الروس بتجسسه للأمريكيين.

وفي مطلع عام ١٩٦١ قام بينكوفسكي بمحاولة أخرى. اتصل مع أحد رجال الأعمال الكنديين واسمه فان فليت في شقته بموسكو. فقام فليت بمقابلة بينكوفسكي في الحمام وفتح حنفيات الماء لحماية محادثتهما من أجهزة التنصت. ولم يكن هناك ما يثبت بأن الشقة كانت موضوعة تحت مراقبة أجهزة التنصت، ولكنهما افترضا ذلك. بسبب اتصالات فليت بالشرطة الكندية. ومع ذلك تم استخدام أشرطة التسجيل، في محاكمة بينكوفسكي، كدليل ضده، وعليها حديثه مع واين البريطاني، رغم أن الحديث أيضاً كان يتم في الحمام وحنفيات الماء مفتوحة. ومن الواضح بأنه كان لدى السوفيات وسائل تقنية لمكافحة هذا النوع من الغطاء الأمني.

محاولة بينكوفسكي الثالثة والناجحة كانت اتصاله مع واين، حيث كانت أم آي ٦ والسي آي أي تقومان سوية بتوجيهه. أما النقطة الثانية في قضية بينكوفسكي كانت نوع المعلومات التي قدمها. إذ كانت تقسم إلى قسمين: الأول «أرنيكا» وهي معلومات مباشرة. والثانية «روبي» وهي معلومات لمكافحة التجسس.

كانت المعلومات «روبي» تتألف في غالبيتها من تحديد هويات ضباط المخابرات العسكرية السوفياتية حول العالم، وكانت هذه المعلومات دقيقة وصحيحة بالإضافة إلى كونها معروفة لدينا. ولكن لا يوجد زيادة على هذه المعلومات، مثل مؤشرات قد تقودنا إلى تحديد عملاء سوفيات غير شرعيين في الغرب، أو الاختراقات السابقة أو الحالية في الأمن الغربي. وشعرت بأنها ليست منطقية. فهنا أرى رجلاً يقوم بوظيفة محددة مشابهة لوظيفتي، أمضى عدة سنوات في قمة المخابرات العسكرية السوفياتية وله اتصال منتظم مع الـ ك ج ب، ومع ذلك لم يستطع أن يلتقط أي خبر استخباري عن موجودات المخابرات السوفياتية في الغرب. وقارنت بين بينكوفسكي ومصدر آخر من المخابرات العسكرية السوفياتية الكولونيل بوبوف، والذي كان يتجسس لصالح السي آي أي داخل المخابرات العسكرية السوفياتية أثناء الخمسينات. فقد حدد بوبوف للغرب حوالي أربعين جاسوساً غير شرعي يعملون في الغرب، قبل إلقاء القبض عليه وقتله.

أما معلومات «أرنيكا» فكانت مختلفة؛ إذ قدم بينكوفسكي آلاف الوثائق المتعلقة

بالأنظمة العسكرية السوفياتية الحساسة. ولكن يوجد هنا ثغرتان. الأولى هي أنه كان يزود الغرب أحياناً بوثائق أصلية. وقد بدا لي أنه لا يمكن تصديق هذا الأمر إذ لا يعقل أن لا يشعر الروس باختفاء هذه الوثائق من الملفات. أما الثانية فهي أن أهم وثائق بينكوفسكي، تلك التي ساعدت الأمريكيين على تحديد الصواريخ الروسية في كوبا، اطلعه عليها عمه وهو ضابط كبير في المخابرات العسكرية ومسؤول عن القوى الصاروخية. وادعى بينكوفسكي بأنه كان ينسخ هذه الوثيقة بينما كان عمه خارج الغرفة. ومرة أخرى تبدو لي هذه الحكاية أقرب إلى عالم جيمس بوند منها إلى عالم الحياة الحقيقية.

أما النقطة الثالثة التي جعلتني أشك في بينكوفسكي فهي الطريقة التي تمت بها إدارته. فالتعامل معه تهورٌ مرعبٌ لا يتناسب وهذا المصدر الحساس. كانت المشكلة أن معلوماته قيمة جداً، في فترة أزمة الصواريخ الكوبية، ومع ذلك كان يطلب منه الحصول على كل ما يقع تحت يده، دون بذل محاولات كافية لحمايته والاحتفاظ به على المدى البعيد. وقرأت لائحة بأسماء المطلعين على معلومات بينكوفسكي فوجدتها تضم (١٧٠٠) شخص في بريطانيا وحدها يطلعون على هذه المواد في نفس الفترة التي كان يعمل فيها من موقعه. وكانوا موزعين على أم آي ٦، أم آي ٥، قيادة الاتصالات الحكومية، ومختلف أقسام المخابرات العسكرية، ولجنة المخابرات المشتركة، رؤساء الدوائر وموظفيهم، ووزارة الخارجية، ومختلف مؤسسات الأبحاث العلمية ـ كل هؤلاء كانت لديهم قوائم بأسماء الأشخاص المسموح لهم بالاطلاع على مواد بينكوفسكي، رغم أن القليل من الناس كان يرى هذه الدائرة الكبيرة. إذ لم يكن هناك بالطبع أية إشارة إلى كيفية الوصول إلى المعلومات، كما تعامل كافة تقارير المصادر، لكن هذا التوزيع كان مثار استغراب بكل المقاييس، كما أنه طرح السؤال المهم فيما إذا كانت المخابرات السوفياتية اليقظة دائماً تتبعه أم لا، وهي التي أبدت في تلك الفترة من عام ١٩٦٣ قدرة فائقة في اختراق أجهزة الأمن البريطانية في مستويات عالية.

كما أن الترتيبات في موسكو كانت أكثر غرابة. فقد رتبت أم آي ٦ لقاء لبينكوفسكي مع السيدة تشيشولم زوجة ضابط محلي لأم آي ٦، ليسلمها أفلاماً مظهرة في حديقة عامة في موسكو. تكرر هذا الإجراء أكثر من عشر مرات رغم اكتشافهما للمراقبة التي ضربتها الـ ك ج ب على تحركاتهما. وفي الوقت الذي كنت أقرأ فيه ملفات بينكوفسكي، علمنا من جورج بليك لدى استجوابه في السجن بأن الروس كانوا يعرفون جيداً هوية تشيشولم على أنه ضابط أم آي ٦. كنت متأكداً من أنه حتى نحن في أم آي ٥ بمصادرنا الهزيلة، والتقييدات المفروضة علينا بحكم العادة والقانون، لن نفشل في ملاحقة عملية بينكوفسكي لو أن الروس قاموا بتنفيذها في لندن بنفس الطريقة التي نفذتها به أم آي ٦ في موسكو.

واجه تقريري عن قضية بينكوفسكي غضباً شديداً. لقد اعتبرت هذه العملية عملية بطولية وشجاعة، لأنها بدت على السطح انتصاراً كبيراً لدرجة غرق معها الناس في بحور من العواطف ترفض النقد الموجه للعملية. جاء إلي ذات يوم هاري شيرغولد الذي كان مسؤولاً عن قضية بينكوفسكي في اجتماع في أم آي ٦ ليصرخ بوجهي:

«ماذآ تعرف بحق الجحيم عن إدارة العملاء؟ إنك تأتي إلى هنا لتشوه ذكرى إنسان شجاع وتتوقع منا أن نصدقك؟».

ويبقى السؤال، بالطبع، لماذا أرسل الروس بينكوفسكي كعميل تضليل، إذا كان فعلاً كذلك؟ أما الجواب، فأعتقد أنه يكمن في السياسة الكوبية وسياسة الحد من التسلح. كان لدى الروس هدفان استراتيجيان في مطلع الستينات ـ الأول هو الحفاظ على فيديل كاسترو في كوبا، في وقت كان فيه الأمريكيون يحاولون بكل قوتهم التخلص منه، إما بانقلاب عسكري أو بالاغتيال. أما الهدف الثاني فهو تعزيز وتطوير قدرات الصواريخ الباليستيكيه ballistic missile السوفياتية العابرة للقارات دون إثارة الشكوك في الغرب. كانت تلك الحقبة حقبة «فجوة الصواريخ». وكان الخوف من أن روسيا كانت تتقدم في إنتاج الأسلحة النووية، بنداً أساسياً في حملة الرئيس جون كنيدي الرئاسية عام ١٩٦٠، الذي تعهد بسد هذه الفجوة. كان الروس يسعون بقوة من أجل إقناع الغرب بأن «فجوة الصواريخ» مجرد وهم، وأنه إذا ما كان هناك فجوة فإن الروس يتخلفون عن الغرب.

كان من ضمن الأسباب التي تفسر المخاوف من قدرات الصواريخ السوفياتية هو أن الغرب عاش فترة من الزمن لا يعلم شيئاً عن الاتحاد السوفياتي بعد إلغاء طلعات طائرات الاستطلاع يو ٢ إثر إسقاط الطائرة التي قادها غاري بورز في آيار العام ١٩٦٠. وقد أدى ذلك إلى وقف عمليات الاستطلاع فوق أراضي الاتحاد السوفياتي إلى أن تم إطلاق أول قمر صناعي في نهاية العام ١٩٦٢. ولم يكن في تلك الفترة أي مصدر للمعلومات للغرب في الاتحاد السوفياتي سوى اعتراض الاتصالات اللاسلكية في مدى اختبار الصواريخ في القسم الآسيوي من الاتحاد السوفياتي، بالإضافة إلى بينكوفسكي بالطبع.

كان جوهر المعلومات التي قدمها بينكوفسكي يكمن في أن البرنامج السوفياتي لتطوير الصواريخ لم يكن قريباً أو متقدماً على البرنامج الغربي، كما كان يعتقد الغربيون، وبأنه لم يكن لدى السوفيات قدرة على إنتاج الصواريخ الباليستيكية عابرة القارات. وأن كل ما يستطيعون إنتاجه هو الصواريخ الباليستيكية متوسطة المدى. تسلح جون كنيدي بهذه المعلومات ليخدع السوفيات، عندما قام الأمريكيون برصد الصواريخ متوسطة المدى التي كانت تحت الإنشاء في كوبا. فتأكد للأمريكيين صدق المعلومات التي قدمها بينكوفسكي إذ

اعتقدوا بأن السوفيات يقومون بنشر الصواريخ متوسطة المدى، الأمر الذي أدى إلى الاعتقاد بأن السوفيات لا يملكون الصواريخ عابرة القارات. وأُجبر خروتشوف على الانسحاب، ولكن بعد أن حقق هدفه الرئيسي وهو قبول الولايات المتحدة النهائي بعدم مس كوبا بشيء.

فيما بعد، تأكدت معلومات بينكوفسكي من خلال المعلومات التي قدمها اثنان من المنشقين السوفيات اللذان تركا الوفد السوفياتي إلى الأمم المتحدة واتصلا بالأف بي آي في بداية الستينات، وهما توب هات وفيدورا. كان الأخير مثل بينكوفسكي ضابطاً علمياً وتكنولوجياً مزعوماً، قدم الإثنان، وخاصة فيدورا، معلومات تؤكد الرسالة التي أراد بينكوفسكي إيصالها إلى الغرب وهي أن الصواريخ متأخرة جداً عن الصواريخ الغربية. وقدم فيدورا تفاصيل هائلة من المعلومات عن ضعف الاتحاد السوفياتي في مجال تسارع الصواريخ.

كانت الثقة التي أعطتها معلومات بينكوفسكي وفيدورا وتوب هات، للأمريكيين عاملاً حاسماً في خلق المناخ الذي أدى إلى مفاوضات الحد من التسلح سالت ١، وإلى عصر الانفراج. وأعتقد أن هذا هو الغرض الحقيقي من وراء هذه المعلومات. فلقد نجح الروس في كبح جماح الشكوك في الغرب لفترة تزيد عن العقد، وضللونا بما يتعلق بالوضع الحقيقي لتطور الصواريخ السوفياتية.

في أواسط السبعينات بدأ المناخ الدولي بالتغير، وعادت الشكوك للبروز من جديد. فقد تحسنت تكنولوجيا الاستطلاع بواسطة الأقمار الصناعية. وعندما تم تحليل القدرة الصاروخية السوفياتية بواسطة الأجهزة الجديدة المعقدة، اكتشفنا أن الصواريخ السوفياتية أكثر دقة مما بدا لنا من خلال رصدها عن طريق الاتصالات اللاسلكية في مدى حقل التجارب. والتفسير الوحيد لهذه المسألة هو أن السوفيات نجحوا في ذلك الوقت بإدخال إشارات تضليل على اتصالاتهم في حقل التجارب، بهدف تضليل أنظمة الرصد الأمريكية.

وفي الوقت الذي احتفظ فيه بينكوفسكي بوضعه في أم آي ٦ على أنه أكبر إنجاز في فترة ما بعد الحرب، اعتبر الأمريكيون كلاً من توب هات وفيدورا بأنهما للاستفزاز فقط. اكتشفوا بأن معلومات فيدورا عن تسارع الصواريخ السوفياتية مضللة. كما كانت هناك دلائل على أن السوفيات وضعوا على صواريخهم جهازاً مزيفاً لكي تبدو أقل دقة مما هي عليه في الواقع.

ولعل هذه الاكتشافات تلقي بظلال من الشك على إمكانية دوام الاتفاقات السابقة للحد من التسلح، كما أن المخاوف من عدم قدرة الأمريكيين على التقييم الدقيق للقدرة الصاروخية

السوفياتية أدت إلى إجهاض محادثات سالت في نهاية السبعينات. كان هناك إدراك متنام في أوساط وزارة الدفاع الأمريكية للأهمية الحيوية للتفتيش على أرض الواقع، في أية مفاوضات قادمة، وهو تنازل رفض الاتحاد السوفياتي الالتزام به. ويبرز الآن رأي عام في أوساط استراتيجيي الدفاع الغربيين مؤداه أن الغرب بالغ فعلاً بالثقة في تقديراته للقدرة الصاروخية السوفياتية في الستينات، وأن الاتحاد السوفياتي استغل عصر الانفراج كغطاء لإنجاز مزيد من التوسع العسكري الكبير. ولا بد أن مشاركة بينكوفسكي في هذه العملية تبدو الآن واضحة أكثر منه في أي وقت مضى.

عندما كتبت تقريري عن القضية، أخبرني موريس أولدفيلد (الذي أصبح فيما بعد رئيس أم آي ٦ في السبعينات) وكان لعب دوراً رئيسياً في قضية بينكوفسكي من خلال وجوده في مكتب واشنطن:

«لقد بذلت جهداً كبيراً في هذه القضية يا بيتر. وهناك الكثيرون الذين ركبوا موجة بينكوفسكي».

كان يشير بذلك إلى الأمجاد التي أسبغها البعض على نفسه من وراء عملية بينكوفسكي.

اعتقد أن الأمور أصبحت أكثر وضوحاً الآن.

الفصل الخامس عشر

مع بدايات عام ١٩٦٤ كنت أنا وآرثر مقتنعين بأن هوليس، وليس ميتشيل، هو الجاسوس المحتمل داخل أم آي ٥على مستوى عالٍ. وهذه هي الفرضية الوحيدة التي يمكن أن تفسر التناقضات التي جاءت في التحقيق في قضية ميتشيل. فرفض هوليس لفترة طويلة الاعتراف بوجود أي احتمال باختراق الجهاز، وعدم رغبته في السماح لنا باستخدام التسهيلات التقنية لرصد ميتشيل، ورفضه كذلك لتوسيع التحقيق وأخيراً رفضه اطلاع الأمريكيين حتى أجبر على ذلك، كل هذا كان يشير إلى جهة واحدة.

وبينما كنا ننتظر تقرير سيموندز الثاني حول قضية ميتشيل، وقعنا فجأة في شباك قضية قديمة. فقد قام السير أنتوني بلانت، المتخصص في دراسة صور الملكة والمؤرخ الفني العالمي، بالاعتراف في نيسان عام ١٩٦٤ بأنه كان يتجسس لصالح الروس أثناء الحرب. وكان بلانت ضابطاً برتبة كبيرة في أم آي ٥ أثناء سنوات الحرب. ظهرت هذه القضية في نهاية عام ١٩٦٣، عندما أبلغت الأف بي آي نظيرتها أم آي ٦ بأن مواطناً أمريكياً يدعى ميشيل ويتني ستريت Michael Whitney Straight أخبرهم بأن بلانت جنّده لحساب السوفيات بينما كانا يدرسان معاً في كامبريدج في الثلاثينات. سافر آرثر مارتن فوراً لمقابلة ستريت، الذي أكد بدوره هذه القصة وأبدى استعداده للأدلاء بشهادته في محكمة بريطانية إذا طلب منه ذلك.

كانت مناقشة السبل لمعالجة قضية بلانت تتم من خلال سلسلة اجتماعات في مكتب هوليس. رأت الإدارة في هذه القضية إحراجاً كبيراً. ففي معظم القضايا السابقة كانت أم آي ٦ مليئة بالخونة، بينما كانت أم آي ٥ بعيدة عن هذه القضايا. ولعل هذا كان يشكل امتيازاً كبيراً لأم آي ٥ في الوايت هول. وكان هوليس، بالتحديد، قد صنع الاحترام لأم آي ٥ في أوساط

كبار الموظفين في رئاسة الوزراء ووزارة الداخلية، وكان يخشى من تأثير قضية بلانت على وضع الجهاز الذي يقوده. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الخوف من الفضيحة. وكان هوليس وعدد كبير من كبار الضباط لديه يشعرون بالخراب الذي يمكن أن يجره عليهم إعلان نشاطات بلانت، وعلى أم آي ٥ وعلى حكومة المحافظين التي كانت في السلطة. ففي ذلك الوقت استقال هارولد ماكميلان بعد سلسلة من الفضائح الأمنية وصلت ذروتها في قضية برفيومو(Profumo affair). لم يكن هوليس ليخفي عداءهُ لحزب العمال ذي الشعبية الكبيرة في ذلك الوقت، وأدرك بأن فضيحة كبيرة تثيرها محاكمة بلانت كفيلة بإسقاط الحكومة.

كانت دوافعي أنا وآرثر بسيطة. كنا نريد الوصول إلى بلانت في أقرب فرصة ممكنة لنرى فيما إذا كانت إجاباته ستلقي بعض الضوء على مزيد من الاختراقات في أم آي ٥. أما تقديمه للمحاكمة بحضور ستريت فإنها عملية غير ناجحة، لأنها ستأخذ وقتاً كبيراً بالإضافة إلى تعريض إمكانية حصولنا على أي تعاون من بلانت للخطر. كان القرار بمنح بلانت الحصانة هو القرار الوحيد الخاص باختراق أم آي ٥ الذي وافقت عليه جميع الأطراف، وبعد أن تم تثبيت الحصانة من قبل المدعي العام، قابل آرثر بلانت الذي اعترف فوراً على الغالب بدوره كمراقب مواهب وجاسوس للسوفيات.

بعد أيام قليلة من اعتراف بلانت، اتصل بي سكرتير هوليس ذات مساء وطلب مني الدخول إلى مكتب المدير العام فوراً. كان هوليس وفيرنيفال جونز يجلسان إلى الطاولة، أما فيكتور روتشيلد فكان يتطلع من النافذة إلى الحديقة العامة هناك.

«مرحباً يا فيكتور». قلت ذلك وأنا أشعر بالمفاجأة لعدم إبلاغه إياي بزيارة المبنى. رد فيكتور بصوت متهدج وهو يستدير ليواجهني. وقد بدا هائجاً:

«شكراً لمجيئك يا بيتر!».

قاطعه هوليس بسرعة:

«لقد أخبرت فيكتور عن أنتوني بلانت».

لم أستغرب حالة الدمار التي كان يحس بها فيكتور. كان هو وبلانت أصدقاء مدة ثلاثين عاماً، في البداية في كامبريدج، ثم أثناء الحرب عندما عمل الرجلان سوية في أم آي ٥. بعد الحرب فرقت بينهما فرص العمل المختلفة. كانا رجلين موهوبين في عالم كالح، فبقيت صداقتهما قوية. تعرض فيكتور، مثل بلانت، للشك بعد هرب بيرغيس وماكلين، كان متعاطفاً مع بيرغيس خلال الدراسة في الجامعة، ويملك البيت الذي عاش فيه بلانت وبيرغيس أثناء الحرب. وفي الوقت الذي زالت فيه الشكوك عن فيكتور إلا أنها

بقيت تحوم حول بلانت خاصة بعد أن قابله كورتني يونغ في منتصف الخمسينات.

كان جل اهتمام فيكتور، حالما علم بالحقيقة، ينصب على كيفية إبلاغ زوجته تيس Tess بهذا الخبر. كنت أنا وإياه نعلم إلى أي مدى سيكون هذا الخبر مرعباً بالنسبة لها. تعرفت على تيس روتشيلد من خلال فيكتور عندما التقيت به عام ١٩٥٨. كانت امرأة جذابة وأقرب إلى بلانت منها إلى فيكتور في كثير من المجالات. كانت تتفهم شخصية بلانت، وتشاركه حبه للفن. في الثلاثينات انضمت إلى مجموعة المثقفين اليساريين الموهوبين الذين درسوا في كامبريدج، حيث كانوا يجتمعون في لندن، ويقضون العطلة في كاب فيرات، فيما كان العالم يخطو نحو الحرب العالمية الثانية.

وعندما اندلعت الحرب، انضمت تيس ماير، وهذا اسمها السابق، إلى أم آي ٥ حيث كانت تعمل بشجاعة كبيرة إلى جانب زوج المستقبل. وفي هذه الفترة كانت لها أيضاً غرفة مجاورة لشقة بلانت وبيرغيس. وكانت تعيش مع تيس صديقتها بات رودن سميث التي أصبحت فيما بعد السيدة ليولين ـ دافيز (Llewellen-Davies). كانت تيس تعي تماماً شكوك أم آي ٥ حول بلانت بعد هرب بيرغيس/ماكلين، لكنها دافعت عنه حتى النهاية. كانت هي وزوجها يشعران بمدى الضيم الذي يلحق بالبريء، خاصة وأنهما تعرضا للشك بسبب علاقتهما مع بيرغيس. فبلانت بالنسبة لها شخص موهوب، تعرض بشكل قاس لنير الشك المقيم من خلال خيانة بيرغيس. وكانت تقول دائماً:

«كان أنتوني يعود للشقة ثملاً، وبعض الأحيان يثمل بحيث أساعده لينام في سريره. فلو كان جاسوساً لعرفت ذلك».

كان فيكتور يدرك بأننا سنحتاج إلى مقابلة تيس وإبلاغها بأن بلانت اعترف، أما هو فكان يخشى أن يقول لها الحقيقة. وقال بهدوء:

«لقد دعوتك لهذا الأمر إلى مكتب هوليس. أعتقد بأنه من الأفضل أن تخبرها أنت».

وشعرت بأنه كان بحاجة ماسة لمغادرة ليكون فيلد في أسرع وقت لينفرد بنفسه وبأفكاره.

«بالطبع»، قلت بلطف شديد. واقترحت أن تأتي معي إيفلين ماك بارنيت طالما أن تيس تعرفها.

بعد عدة أيام ذهبت أنا وإيفلين إلى منزل فيكتور حيث دخلنا إلى غرفة المكتب التي كانت مليئة باللوحات الفنية، والمخططات العلمية، والآلات الموسيقية، والكتب المختلفة،

وبيانو يعزف عليه فيكتور في أوقات فراغه. لم يكن فيكتور مرتاحاً، فأدركت بأن تيس أحست بأن شيئاً ما حدث. بعد عدة دقائق أخبرها فيكتور بأنني سأتحدث معها في موضوع خاص. ثم خرج من الغرفة.

سألتني بعصبية:

«ما الأمر يا بيتر؟».

«إنه أنتوني. لقد اعترف أخيراً».

«بماذا اعترف، لا تقل لي اعترف بأنه جاسوس؟».

«أجل لقد اعترف بالتجسس».

رفعت يدها إلى فمها وكأنها تعاني ألماً شديداً؛ ثم أسقطتها بهدوء. أخبرتها عن القضية بأفضل شكل ممكن، كيف اعترف بتجنيده عام ١٩٣٧، بعد سنة أو سنتين من تجنيد فيلبي وبيرغيس وماكلين، وكيف قدم شرحاً مطولاً ومفصلاً لنشاطاته التجسسية أثناء الحرب. لم تصرخ تيس ولكنها شحبت فجأة، وجلست متجمدة في المعقد. عيناها تحدقان بي وهي تصغي إلي. كانت تيس مثل زوجها، تؤمن بأهمية الوفاء للصداقة. صدمت لخيانة بلانت، تماماً كما صدم زوجها. كانت صدمة حتى العظم. وقالت:

«كل هذه السنوات ولم أشك بشيء».

بدأت أفهم لأول مرة مدى قوة تلك العواطف التي زيفت، منذ سنين طويلة في كامبريدج في الثلاثينات.

كان لاعتراف بلانت تأثير رهيب على سلوك آرثر. فبعد سنوات من الكدح والجد، أثبت أخيراً بأن موقفه كان صحيحاً من البداية. كان يشك في بلانت منذ البداية، رغم أن الكثيرين في الجهاز، بمن فيهم ديك وايت الصديق المقرب لبلانت، يشكون في هذه الإمكانية. وأصبح آرثر رجلاً صعباً.

زاد اعتراف بلانت من حدة المواقف تجاه الاختراق. وعادت إلى الظهور من جديد فكرة وجود جاسوس داخل أم آي ٥ بقوة أكبر. كان آرثر مقتنعاً بأنه إذا حافظنا نحن على الزخم فإن فريق الشعبة د باستطاعته الوصول إلى قلب مؤآمرة الثلاثينات. وشعر بأنه في ظل تدفق الأحداث أمامنا، والمنشقين والاعترافات بإمكانه حل أكبر لغز ألا وهو الكشف عن الجاسوس القابع الآن في داخل أم آي ٥. وفي حين ضغط آرثر باتجاه الإسراع والإلحاح في العمل، كان بذلك يواجه رئيس الشعبة د الجديد كمنغ الذي يفضل النهج البطيء والحذر.

في بداية عام ١٩٦٤ تدهورت العلاقة بينهما بشكل سيء. لم يكن آرثر يحترم كمنغ،

لاعتقاده بأن نهجه قديم ولا يواكب العصر الحديث. اكتسب آرثر سمعة وتأثيراً جيدين تخطت حدودهما الشعبة د ١، لكونه أعاد بناء مؤسسة مكافحة الجاسوسية السوفياتية منذ عام ١٩٥٩.

كان آرثر طموحاً، وتنقصه البراعة واللباقة. وكان يشعر بأنه أولى من كمنغ في رئاسة الشعبة د ولم يكن يخفي توقعه استلام هذا المنصب في أقرب وقت. كان يعتبر معالجة كمنغ لقضية الاختراق فاشلة. كما أبدى كمنغ عدم رضاه عن موقف آرثر وتدخله في سلطاته. وشعر بالمرارة لأن آرثر استثناه من التحقيق في قضية مينشيل، حتى إنه شعر بأن آرثر يشك في هوليس. وكانت المواجهة بينهما مسألة وقت.

وقعت المواجهة بعد اعتراف بلانت بفترة قصيرة. فقد زرت واشنطن في آيار عام ١٩٦٤ لإقناع السي آي أي بمساعدتنا في برنامج تحليل التحركات. إذ كنت أنا وهال دوين ويتماس المسؤول عن تحليل التحركات، نريد من السي آي أي تزويدنا بالجهد التكنولوجي لمعالجة الكميات الهائلة من المعلومات التي ينتجها برنامج التحليل (٧ مليون تحرك في السنة). وافق هوليس على هذا الطلب، وأبدى أنغلتون دعمه الكامل لنا، ووافق هيلمز على إرسال، ليس فقط شخصين فنيين، بل فريقاً كاملاً من عشرين شخصاً لضمان عمل الكمبيوتر بشكل فعال. وما أن عدت من الولايات المتحدة، لكي يلحق بي فريق الكمبيوتر التابع للسي آي أي بعد أسبوع، حتى أخبرني آرثر بأن هال دوين ويتماس تم نقله. فانفجرت صائحاً:

«كيف يمكن أن نقوم بأي عمل طالما يتم نقل الموظفين في الوقت الذي يباشرون بالعطاء؟ لقد أمضيت أنا وهال أربع سنوات ونحن نطور هذا العمل، وعندما بدأ مشروعنا في إعطاء النتائج يقومون بنقله!».

كان آرثر منزعجاً مثلي. فقد تمسك بعدد من الموظفين في الشعبة د ١، وعارض أية محاولات لنقلهم، خاصة في قمة نشاطه في حقل مكافحة التجسس السوفياتي. دخل آرثر بعنف إلى مكتب كمنغ ليطالبه بمعارضة النقل. وانتقل الشجار إلى الممرات فيما انفجرت مشاعر البغض بينهما. فاتهم كمنغ آرثر بالتدخل الوقح في الشعبة، متجاوزاً سلطاته. أما آرثر فقد أعلن عن رأيه في سوء إدارة الشعبة. وكان من المحتم أن يتركز النقاش الحاد بينهما على قضية ميتشيل. فاتهم كمنغ آرثر بأنه مهووس، حسب رأيه، بقضية ميتة، والأكثر من كونها ميتة هي أنها دمرت الروح المعنوية للجهاز كله. وأجابه آرثر بأن القضية لم تنته بعد. قام كمنغ بكتابة تقرير عن المشاجرة إلى هوليس الذي طلب فوراً تقريراً كاملاً مكتوباً عنها. وفي اليوم التالي أرسل كمنغ إلى آرثر نسخة من مسودة التقرير الذي ينوي تقديمه إلى هوليس.

ارتعب آرثر مما قرأه في التقرير. إذ لم يحتوِ تقرير كمنغ أية إشارة إلى الآثار التي يتركها

نقل ويتماس بعد زيارته للسي آي أي للتدرب على برنامج تحليل التحركات. كان التقرير مجرد هجوم ضمني على آرثر، ويشير إلى أن الأخير يضمر الشكوك عن هوية الجاسوس داخل أم آي ٥ ولا يريد اطلاع مديره على هذه الشكوك.

وصل آرثر في هذه اللحظة إلى حد القطيعة مع كمنغ، وكتب على هامش التقرير الجانبي «ليس صحيحاً» ثم استمر يشطب كل سطر في تقرير كمنغ قبل أن يرجعه إليه. وعندما وجد كمنغ التقرير بشكله هذا أحس بفرصته لتحقيق انتصار حاسم، أرسل التقرير فوراً إلى هوليس، فقام هذا بتوقيف آرثر عن العمل مدة أسبوعين لعدم الانضباط.

أما أنا فكنت في موضع بائس: كنت أنتظر فريقاً فنياً من السي آي أي ليصل إلى ليكون فيلد في أي يوم، لنبدأ أنا وديتماس وآرثر في مباحثات مع الفريق. جرت الأمور كما توقعت. كنت الوحيد مندوب أم آي ٥ في هذه المحادثات. وذهبت لمقابلة هوليس على انفراد وشرحت له، بأقل حقد استطعت كبته، طبيعة المشكلة. وذكرته بأن الاتصال بالسي آي أي قد تم باسمه، فوافق على الإبقاء على ديتماس في وظيفته لمدة سنة أخرى.

وسألته عن آرثر على أمل أن يغير رأيه في هذه القضية أيضاً. فأجابني:

«لست مستعداً الآن لبحث هذه القضية».

«ولكن ماذا عن بلانت؟ إننا لا نستطيع أن نتخلى عن آرثر بعد اعتراف بلانت».

فأجابني:

«حان الوقت ليعرف آرثر بأنه لم يصبح بعد المدير العام. عندما يجلس على هذا الكرسي باستطاعته فعل ما يريد، أما الآن فأنا أصدر الأوامر».

عندما عاد آرثر للعمل، بدأنا باستجواب بلانت بشكل منتظم بتحديد هوية مُجَنِّدِهِ والمسؤول عن إدارته، وبالتدقيق في كل معلومة قدمها إلى الروس. كان آرثر يقابل بلانت بانتظام ويسأله حسب الأبحاث الدقيقة التي حضرتها الشعبة د ٣ بمعاونة إيفلين. سجلنا كل جلسة استجواب حيث يتم بعد تفريغها إعادة التدقيق فيها لمعرفة أي النقاط تحتاج لمزيد من البحث.

ذكر بلانت بسهولة أسماء زملائه الجواسيس. ليو لونغ الضابط السابق في المخابرات العسكرية البريطانية. وجون كيرنكروس الذي عمل في وزارة المالية في الأربعينات، قبل أن ينضم إلى معهد الرموز والشيفرة في بليتشلي، حيث اطلع هناك على مواد علمية «اينيغما

سيغنت»، كما انضم عام ١٩٤٤ إلى أم آي ٦. وقد وعد آرثر لونغ بأنه لن يقدم إلى المحاكمة إذا ما تعاون مع أم آي ٥. فاعترف فوراً كما فعل كيرنكروس الذي قابله آرثر في روما.

بعد أن أدلى بلانت بالاعترافات الأولية، لم يعد لديه ما يقوله. جلس وأخذ يستمع إلى أسئلة آرثر، ليعلق عليها بين الحين والآخر. لم يكن في المعلومات التي قدمها ما كنا نأمل بالحصول عليه. لذلك قررنا أنا وآرثر مواجهته معاً. ورتبنا خطة بحيث يقدمني إلى بلانت على أنني الضابط المسؤول عن تحليل اعترافه. ثم أقوم بلعب دور الوقح مقابل آرثر اللطيف وأخبر بلانت بأنني أشك في صحة اعترافه. وهذه خدعة قديمة في التحقيق، ولطالما نجحت. كما أضفنا إلى التمثيلية عنصراً جديداً. ورتبنا أن تكون المقابلة في إحدى الشقق المزروع فيها أجهزة تنصت مخفية. كانت مقابلات آرثر وبلانت السابقة تسجل بواسطة جهاز عادي مكشوف. لذا قررنا أن نوقف الجهاز العادي أيضاً لإعطاء بلانت إحساساً أكبر بالأمان. أما هوليس فقد كان متردداً تجاه الخطة، إذ أصدر تعليماته من البداية بعدم الضغط على بلانت لكي لا ندفعه إلى الهرب. ولكننا نجحنا في إقناع هوليس بأن عنصر المغامرة هذه المرة بالذات يستحق المحاولة.

وهكذا قابلنا بلانت عدة ليالٍ فيما بعد. كان طويلاً ونحيلاً يلبس بذلة أنيقة. بدا محترماً لولا بعض التخنث. كما بدا ودياً ولكن بحذر، وخاصة مع آرثر. كنت أحس بوجود توتر بينهما، إذ لا أحد منهما يستطيع أن ينسى بأنهما عملا معاً عشر سنوات في الماضي وكان بلانت يكذب طوال هذه المدة. تحدثنا لمدة نصف ساعة بأسلوب عملي، خاصة عن الوثائق التي نقلها بلانت من السجل. كان بلانت ينظر إلي من حين إلى آخر. وشعرت بأنه يعرف ما سيأتي. وأخيراً أشركني آرثر في الحديث قائلاً:

«بيتر كان يقوم بتحليل الاعتراف، يا أنتوني، اعتقد أن لديه ما يقوله. . .».

فأوقف جهاز التسجيل وصمت للحظة للتأثير عليه. ثم قلت:

«من الواضح لي من خلال قراءتي للاعتراف بأنك لم تخبرنا بالحقيقة كاملة. . .».

انتفض بلانت وكأنني ضربته. كان يجلس على الكنبة وقد وضع رجلاً على رجل. وأجابني وهو يحدق بعيني:

«لقد أخبرتكم عن كل شيء سألتموني عنه».

«هذا هراء، وأنت تعرف أن هذا هراء. لقد قلت إنك تعرف فقط عن لونغ وكيرنكروس. أنا لا أصدقك!».

احمر وجهه وبدأ خده يرتعش بحركات عصبية. وصب له كأساً من الجن في محاولة لكسب الوقت. فقلت له:

«كنا عادلين معك. كنا مؤدبين. كما التزمنا بما يخصنا من الصفقة. أما أنت فلم تلتزم بما يخصك».

أصغى إلي باهتمام وأنا أقوم بدوري، وكأنه يقول، أصحيح أنني لم أقل الحقيقة؟ أشرت إلى الثغرات التي كنا نشعر بأنه أمتنع عن الخوض فيها. وكنت أعرف بأنه يحاول أن يحدد فيما إذا كان لدي دليل أو معلومات تضعه في الزاوية، أم اننا نعمل فقط بمشاعر الشجاعة الجياشة. وبعد عدة لحظات من القلق استعاد وضعه الطبيعي. وبدأت الحمرة تزول عن وجنتيه. فقد عرف بأنه ليس لدينا ما نواجهه به. وقال:

«قلت لك يا بيتر، لم يكن هناك أي شخص آخر».

غيرت وجهة الحديث لأخاطب ضميره:

«هل حدث أن فكرت بالناس الذين ماتوا؟».

تجاهل بلانت هذه الفكرة قائلاً:

«لم يكن أي موت في عملي. لم أطلع مطلقاً على شيء له علاقة بالموت».

«وماذا عن جاسوس جيبسون؟».

كنت أحاول أن أذكره بعميل لأم أي ٦ داخل الكرملين اسمه هارولد جيبسون كان يزودنا بوثائق المكتب السياسي قبل الحرب إلى أن كشفه بلانت وأعدم. فأجاب بلانت:

«إنه جاسوس. كان يعرف اللعبة وحجم الخطر فيها».

كان بلانت يتحدث وقد خرج للحظة عن حذره ليظهر الاحتراف في عمل الـ ك ج ب.

أدرك أن الأمر مرتب فعادت الحركة العصبية. صارعناه حوالي ساعة من الزمن، ولكن كلما مر الوقت كلما أدرك أكثر قوة موقعه. وانتهى اللقاء بمزاج مبيء لم نستطع إخفاءه.

قلت له ونحن نخرج من الشقة:

«أعتقد بأنه لو كانت لديك الفرصة لما خنت أي شخص تعتقد بأنه غير حصين. أليس كذلك؟».

«هذا صحيح. ولكنني أخبرتك بأنه لا يوجد أية أسماء أخرى عندي».

قالها بإصرار جعلني أعتقد بأنه يصدق ما يقول.

أثناء اللقاء حصل حادث بسيط آثار قلقي. حدث أن جهاز التسجيل المكشوف طوى الشريط وتوقف عن العمل، فركعت على الأرض وبدأت بإعادة تصليحه. وبينما كنت أقوم بهذا العمل قال بلانت موجهاً حديثه لآرثر «أليس جميلاً أن ترى خبيراً فنياً وهو يعمل؟».

والآن، لا أنا ولا آرثر أخبرنا بلانت بأنني عالم. بل إن آرثر قدمني له على أنني الرجل الذي حلل ما حدثنا هو به. وعندما نظرت في عينيه حينها أحمر وجهه. فلا بد أن يكون شخص ما أخبره من أكون.

وقال آرثر بعد خروج بلانت:

«تابع معه إنه منهك».

كان آرثر يتشوق ليسلخ لحم الآخرين عن عظمهما: لونغ وكيرنكروس.

كان لونغ في جامعة كامبريدج عضواً في جمعية الرسل، وهي نادٍ للنخبة المثقفة، وأغلبهم يساريون وشاذون. وعندما اندلعت الحرب انضم إلى المخابرات العسكرية حيث عين في أم آي ١٤ مسؤولاً عن تقييم القوات الألمانية «سيغنت» وقوتها العسكرية. التقى مع بلانت سراً أثناء الحرب حيث كان يسلمه كل ما يقع تحت يده من معلومات. أما بعد الحرب فقد نقل إلى لجنة السيطرة البريطانية في ألمانيا التي صعد فيها ليصبح نائب رئيس المخابرات العسكرية قبل أن يترك عمله عام ١٩٥٢ ويتفرغ لأعماله التجارية الخاصة. وترك المخابرات لأنه كان ينوي الزواج ولم يرغب أن يضطر لإخبار زوجته بأنه كان جاسوساً.

قابلت أنا وآرثر لونغ عدة مرات. وقد كرهته جداً. كان يختلف عن بقية أعضاء شبكة الخمسة فقد كان ينقصه الرقي الاجتماعي، واستغربت كيف يمكن أن يقبل مثله في جمعية الرسل. كان فضولياً وتافهاً، له وجه ميكانيكي سيارات، وبدا لي أنه ما زال يعتبر نفسه ضابطاً كبيراً في الجيش رغم الخيانة. ولم يكن متعاوناً أثناء الاستجواب. كنا كلما تحديناه في نقطة ما يسارع إلى القول بأنه سيقول الصدق فيها. وروى لنا قصته بسهولة ويسر، فقال: إنه لا يعرف جواسيس آخرين وادعى بأنه ترك العمل الجاسوسي في عام ١٩٤٥. وكان هذا يتناقض مع ما قاله لنا بلانت. فقد ذكر بأنه في عام ١٩٤٦ ذهب إلى ألمانيا لإقناع لونغ بتقديم طلب توظيف إلى أم آي ٥. فوافق لونغ، وقام بلانت الموثوق به آنذاك وعلى وشك ترك العمل، بكتابة توصية له. ولحسن حظ أم آي ٥ أن غاي ليديل كان متحيزاً ضد الضباط العسكريين وزيهم الرسمي، فخذله في اللجنة رغم أن ديك وايت كان إلى جانبه. ولكن رغم هذه المحاولة للانضمام إلى أم آي ٥، وعمل لونغ السري المتواصل في ألمانيا، فقد أنكر أية اتصالات أخرى مع الروس وهو أمر لا يصدق.

أما كيرنكروس فكان شخصية مختلفة تماماً. رجل ذكي بشعر أحمر ولهجة سكوتلاندية مميزة. جاء من عائلة فقيرة من الطبقة العاملة. ونظراً لذكائه، استطاع الوصول إلى كامبريدج في الثلاثينات، ليصبح شيوعياً علناً قبل أن ينسحب حسب تعليمات الروس ويقدم طلباً للعمل في وزارة الخارجية.

كان كيرنكروس واحداً من المشتبه بهم الأصليين لدى آرثر في عام ١٩٥١، بعد اكتشاف أوراق فيها معلومات من وزارة المالية في شقة بيرغيس اثر هربه. افلين ماك بارنيت تعرفت على خط جون كيرنكروس. فوضع تحت المراقبة المستمرة، ورغم أنه كان يذهب حسب الموعد، إلا أن زميله الروسي لم يظهر مطلقاً. وعندما واجهه آرثر في عام ١٩٥٢ أنكر أن يكون جاسوساً مدعياً بأنه كان يزود بيرغيس بالمعلومات لأنه صديقه، ودون أن يدرك بأنه جاسوس. وفيما بعد غادر كيرنكروس بريطانيا ولم يعد إلا عام ١٩٦٧.

بعد أن اعترف كيرنكروس ذهبت أنا وآرثر إلى باريس لمقابلته ثانية لمزيد من الاستجواب في موقع محايد. وكان قد أخبر آرثر عن تفاصيل تجنيده عن طريق الشيوعي المخضرم جيمس كلوغمان، وعن المعلومات التي حصل عليها من قيادة الاتصالات الحكومية و أم آي ٦ ليوصلها إلى الروس. كانت تحدونا الرغبة في مقابلته مرة أخرى لنرى فيما إذا كان لديه شيء من المعلومات يقودنا إلى جواسيس آخرين. كان كيرنكروس رجلاً ملتزماً. فبينما كان لونغ يسبح مع التيار، فيكون شيوعياً وقت نهوض الشيوعيين، ثم يسعى لحماية رأسه وقت الانحسار ظل كيرنكروس شيوعياً ملتزماً. كان يؤمن بالشيوعية ويتمسك بها بعناد سكوتلندي تقليدي. ومع ذلك كان كيرونكروس بعكس لونغ. إذ أبدى استعداداً كبيراً للتعاون معنا. كان يحن للعودة إلى بلاده، واعتقد بأن التعاون هو الذي يكفل له تذكرة الإياب.

قال كيرنكروس بأنه ليس لديه دليلٌ ثابت ضد أي كان، ولكنه يستطيع أن يحدد موظفين مدنيين كبيرين كانا شيوعيين معه في كامبريدج. وقد طلب من أحدهما أن يستقيل، أما الآخر فقد أنكر اطلاعه على الأسرار المتعلقة بالدفاع. انصب اهتمامنا في المقابلة على المعلومات التي يمكن أن يزودنا بها كيرنكروس والمتعلقة بقيادة الاتصالات الحكومية التي كانت بعيدة عن انتباه المخابرات الروسية الأمر الذي زرع الشك في نفوسنا خاصة وأن عدد الموظفين فيها هائل جداً.

وأخبرنا كيرنكروس عن أربعة أشخاص في قيادة الاتصالات الحكومية يعتقد بضرورة استجوابهم. أحدهم عمل معه في القسم الجوي في قيادة الاتصالات وتحدث عن الرغبة في إيصال مواد «سيغنت» البريطانية إلى الاتحاد السوفياتي. أعجبت كيرنكروس هذه المفارقة

ولم يأخذ كلام الرجل على محمل الجد مكتفياً بالمحافظة على دوره هو. أما الرجل الثاني فقد فصل بعد عودته إلى أكسفورد واطلاع أستاذه على تفاصيل العمل داخل قيادة الاتصالات الحكومية. جاء ذلك نتيجة خوف الأستاذ من هذه المعلومات فقام بكتابة تقرير ضده للقيادة التي قامت بدورها بفصله. أما الشخص الثالث فكان قد ترك العمل في قيادة الاتصالات الحكومية منذ فترة طويلة لمزاولة عمله الأكاديمي. لذلك تركزت جهودنا على الشخص الرابع وهو ضابط كبير في قيادة الاتصالات الحكومية يعمل في القسم التقني. وبعد إجراء التحقيقات الكاملة تبين بأنه بريء كلياً.

أثارت تحقيقات الشعبة د الناتجة عن معلومات كيرنكروس قيادة الاتصالات الحكومية، والشعبة ج. فكلاهما يسعى لحماية امبراطوريته، ويرفض ما يعتقد بأنه تدخل في شؤونه، خاصة عندما كنت أبدي ملاحظات حول ضرورة تشديد على أساليب التدقيق.

في الفترة التي كانت فيها الشعبة د ٣ تتابع قضايا هؤلاء الأربعة، كنت أبذل قصارى جهدي في كيفية التعامل مع قضية بلانت، فقد أصبح الآن ضمن مسؤولياتي. فقبل أن أقابل بلانت لا بد أن أحضر اجتماعاً قصيراً مع ميشيل آدين سكرتير الملكة الخاص. كنت اجتمع به في القصر. وكان الرجل دقيقاً وواضحاً وأكد لي بأن القصر راغب تماماً في التعاون في أي استجواب ترى المخابرات أنه مناسب. كان يتكلم بطريقة توحي بأنه لا يريد أن يعلم المزيد عن القضية. فيقول:

«لقد تم إبلاغ الملكة بكل التفاصيل عن السير انتوني بلانت وهي راضية عن التعامل معه بأي طريقة توصل إلى الحقيقة».

كان هناك اعتراض واحد للقصر:

وقال آدين:

«ربما تجد أن بلانت يذكر مهمة قام بها باسم القصر، مثل زيارة إلى ألمانيا بعد الحرب. الرجاء عدم ملاحقة هذه المسألة. ولنتكلم بوضوح فهذه الزيارة ليس لها علاقة بالأمن القومي».

ورافقني آدين باهتمام إلى الباب.

قارنت بين طريقته المهذبة، والطريقة الهستيرية التي عالجت بها أم آي ٥ قضية بلانت خوفاً من هرب بلانت أو من تسرب الفضيحة. ورغم أنني قابلت بلانت مئات الساعات إلا أنني لم أعرف سر مهمته في ألمانيا. ولكن في تلك الأيام كان القصر قد أمضى عدة قرون يتعلم فن دفن الفضائح الصعب. في حين بدأت أم آي ٥ العمل منذ عام ١٩٠٩ فقط.

وعندما بدأت بمعالجة قضية بلانت، أوقفت كافة اللقاءات معه فيما كنت أعد لسياسة جديدة معه. اتضح لي أن المواجهة لن تنجح لعدة أسباب. أولها، ان هوليس يعارض بعناد أي شيء قد يؤدي إلى هرب بلانت، أو أن يذيع بياناً عاماً. وثانيها، إن بلانت نفسه كان يعلم بأن يدنا ضعيفة وأننا ما زلنا نتخبط في الظلام نحقق معه من موقع جهل لا من موقع قوة. لذلك قررت تبني طريقة لطيفة في محاولة لاستغلال شخصيته. أدركت بأن بلانت يريدنا أن نظنه متعاوناً، حتى في الحالات التي لا يكون فيها كذلك. وبالإضافة إلى ذلك كان يكره الكذب عليه. لذا كان علينا أن نسحب منه المعلومات بعملية بطيئة وبمراكمة الضغط عليه، بحيث نتقدم في جبهات صغيرة محدودة بدلاً من الجبهات الواسعة. كان لا بد من الرجوع إلى أيام الثلاثينات لنحصلَ على معلومات وافية عنها، غير تلك المتوفرة لدينا في أم آي ٥.

وقررت كذلك، نقل مكان المقابلات إلى بيته. كان دائماً صدامياً معنا وحاداً ودفاعياً ويدرك بأن حديثه مسجل في شقتنا. وشعرت بأن الانتقال إلى بيته سيخفف من التوتر وسيمكننا من إقامة علاقة معه.

وفي السنوات الست اللاحقة كنت التقي مع بلانت في غرفة مكتبه مرة في الشهر. كان مكتبه أنيقاً وجميلاً. تزين جدرانه لوحات فنية اشترى إحداها في باريس العام ١٩٣٠ بثمانين جنيهاً اقترضها من فيكتور روتشيلد. (كان من المفروض أن يترك هذه اللوحة لكبرى بنات روتشيلد، ايما، ولكنه لم يفعل. ووصلت قيمة اللوحة إلى ٥٠٠ ألف جنيه وعادت إلى الحكومة).

كان المكان مناسباً جداً لنجلس تحت اللوحة ونتباحث في الخيانة. كنا نجلس في كل اجتماع في نفس المكان تحت اللوحة. كنا أحياناً نشرب الشاي، مع الشطائر. وأغلب الأحيان كنا نشرب، الجن له والويسكي لي. ونتحدث دائماً عن أيام الثلاثينات، عن الـ ك ج ب، والتجسس والصداقة، عن الحب والخيانة.

كان بلانت واحداً من أبرع المثقفين الذين قابلتهم في حياتي. كان يتحدث بخمس لغات، بالإضافة إلى عمق معرفته واتساعها بشكل مدهش. إذ لم تكن معرفته مقصورة على الفن فقط. كانت أول شهادة علمية له في كامبريدج في الرياضيات، كما كان مولعاً بفلسفة العلم.

ولعل أهم ما لاحظته في بلانت هو التناقض بين قوة شخصيته الواضحة وهشاشته في نفس الوقت. إن هذا التناقض هو الذي كان يجذب الناس إليه من كلا الجنسين. كان واضحاً بأنه شاذ جنسياً، وعلمت منه بأن له علاقة مع امرأتين بقيتا متعلقتين به طوال حياته. كان

بلانت يجيد الانتقال من شخصية المؤرخ الفني، إلى الشاذ، إلى موظف مخابرات بيروقراطي وإلى الجاسوس، ولقد أثرت عليه هذه الأدوار بشكل سيء. وسرعان ما أدركت أنه، بالرغم من الحصانة التي عرضت عليه، ظل يشعر بأنه يتحمل عبئاً ثقيلاً. ولم يكن هذا العبء ناتجاً عن الشعور بالذنب، لأنه لم يشعر بالذنب مطلقاً. كان يشعر بالألم لأنه خدع تيس روتشيلد، وأصدقاء آخرين مثل ديك وايت وغاي ليديل. (كان يبكي بحرارة في جنازة ليديل). كان هذا الألم ينبع من زاوية ماذا يمكن أن نفعل الآن، وليس من زاوية ما كان يمكن تجنبه. كان هذا العبء يرجع إلى عظم الالتزامات التي ألقيت على كاهله من قبل أصدقائه. كان يعرف نواقصهم وأسرارهم ويشعر بعبء الحفاظ عليها.

ما أن بدأنا لقاءاتنا في بيته حتى لاحظت شعوره بالاطمئنان. ولكنه بقي على حذره. وبما أنه كان يعلم كل شيء عن أجهزة التنصت فقد لاحظت بأنه أبعد جهاز التلفون إلى ركن بعيد من القاعة.

في البداية كنت أسجل الملاحظات في دفتر صغير. كانت عملية صعبة ومرهقة بالإضافة إلى أنها لا تمنحني القدرة على تسجيل كل شيء. لذلك خططت لزرع تغطية سرية للقاءاتنا. وأخيراً اكتشفت بأن البيت المجاور كان تحت التصليح، فرتبت عملية زرع ميكروفون جسّاس عبر جدار غرفة المكتب. كانت العملية حساسة جداً. إذ من الضروري اتقان العملية بحيث يكون الميكروفون الجسّاس باتجاه مقعد بلانت. قامت الشعبة أ ٢ بترتيب مكالمة تلفونية يقوم بها فنان صديق لبلانت أثناء وجودي عنده. بحيث استطعت أن أقوم بإنجاز كافة الترتيبات الداخلية للميكروفون أثناء حديث بلانت مع صديقه على التلفون في القاعة. نجحت العملية نجاحاً باهراً. وكل ما أعرفه عن الميكروفون الآن أنه ما زال هناك. حاولت قدر المستطاع تطمينه في بداية جلساتنا. لم أحاول أن أضغط عليه بشدة، راضياً بمجرد سرد الذكريات. فروى لي كيف تم تجنيده لخدمة القضية السوفياتية عن طريق الشاب الذكي آنذاك غاي بيرغيس. كان غاي لايزال موضوعاً مؤلماً لبلانت؛ إذ مات منذ فترة بسيطة في موسكو، وحيداً، محطمَ الجسد.

وقال بلانت وهو يسكب الشاي:

«ربما تجد الأمر مستحيل التصديق، لكن كل من عرف غاي جيداً سيخبرك بأنه وطني كبير».

فأجبته:

«أصدق هذا. غير أنه كان يريد بريطانيا أن تصبح شيوعية. هل سمعت منه شيئاً قبل وفاته؟».

رشف بلانت الشاي بعصبية، والكأس تهتز في يده المرتجفة. ثم ذهب إلى طاولة المكتب ليحضر لي رسالة. وقال:-

«هذه آخر رسالة من بيرغيس. أنا متأكد أنك تعرف عنها لقد وصلتني باليد». ثم غادر الغرفة.

كانت رسالة مرضيّة، مفككة ومليئة بالملاحظات العاطفية المترهلة. كان بيرغيس يتحدث عن الحياة في موسكو، محاولاً أن يجعلها تبدو جيدة كما كانت دائماً. وكان يكرر ذكر الأيام القديمة في نادي الإصلاح وأصدقاء تلك الأيام. وفي نهاية الرسالة تحدث عن شوقه لبلانت والحب الذي استمر بينهما ثلاثين عاماً. كان يعرف بأنه يحتضر، ولكنه كان يطلب الموت. عاد بلانت إلى الغرفة بعد أن انتهيت من قراءة الرسالة، بدا مضطرباً، وقدرت أن اضطرابه نابع من كوني عرفت أن بيرغيس كان يعني له شيئاً مهماً. وهكذا حصلت على أول انتصار حاسم. فأزاح الستار لأول مرة لألقي نظرة سريعة على العالم السري الذي كان يجمع شبكة الخمسة سوية.

انضم بلانت إلى المخابرات السوفياتية في فترة الإعجاب بالنظام السوفياتي المعروفة لدى دوائر مُكافحة التجسس الغربية باسم «فترة الجواسيس غير الشرعيين العظام». فقد قامت أم آي ٥ بعملية «أركوس» عام ١٩٢٨ وقضت فيها على قسم كبير من جهاز التجسس السوفياتي في لندن. الأمر الذي دفع السوفيات إلى الاستنتاج بأن وجودهم الشرعي عن طريق السفارات والقنصليات وما شابه، لم تعد مراكز آمنة لإدارة العملاء. لذلك غيروا استراتيجيتهم بإدارة العملاء عن طريق «الجواسيس اللاشرعيين العظام أمثال، تيودور مالي، دويتش، أوتو، ريتشارد سورج، الكساندر رادو، «سونيا»، ليوبولد تريبر، وآل بيكس، وآل بوريتسكي وكريفيتسكي. لم يكن هؤلاء روس، رغم أنهم كانوا روس بالجنسية. كانوا تروتسكيين يؤمنون بالشيوعية الأممية والكومنترن. وكانوا يعملون تحت غطاء يتطلب مخاطرة شخصية كبيرة جداً، ويجوبون أطراف العالم بحثاً عن تجنيد آخرين. كانوا أفضل المجندين ومديري العملاء في تاريخ المخابرات الروسية. إذ كانوا يعرفون بعضهم البعض، لذلك نجحوا في تجنيد العملاء وإنشاء الشبكات ذات المستوى العالي، مثل «شبكة الخمسة» في بريطانيا، وشبكات سورج في الصين واليابان، وروني دراي في سويسرا، وروني كابيل في أوروبا تحت الاحتلال البريطاني. كانت هذه هي أفضل شبكات التجسس في التاريخ، والتي ساهمت بشكل كبير في بقاء الروس ونجاحهم في الحرب العالمية الثانية.

وبعكس فيلبي وبيرغيس، لم يقابل بلانت «ثيو» أول مدير لهم، وهو قسيس هنغاري سابق اسمه ثيودور مالي. استطاع مالي أن يفهم الروح المثالية لدى أشخاص مثل فيلبي وبيرغيس، ورغبتهم في العمل السياسي. وأصبح أستاذاً آسراً في السياسة الدولية، فأحبه

تلامذته حباً شديداً. وفي العام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ حل «أوتو» محل مالي، الذي رتب عملية تجنيد بلانت عن طريق بيرغيس. وهو، مثل مالي، من الطبقة المتوسطة في أوروبا الشرقية، ربما كان تشيكياً، واستطاع أن يبرز القضية السوفياتية ليس من خلال الأسباب السياسية، بل من خلال نفس الخلفية الثقافية التي كان يشارك فيها مجنديه الأوروبيين. وقد اعترف بلانت لي في عدة مناسبات بأنه ما كان لينضم للشبكة لو أن الاتصال به تم عن طريق الروس مباشرة.

لم نستطع تحديد هوية «أوتو». فقد زعم كل من فيلبي وبلانت وكيرنكروس بأنهم لم يعرفوا مطلقاً اسمه الحقيقي، رغم أن فيلبي تعرف على صورته في ملفات الأف بي آي في واشنطن على أنه عميل الكومنترن أرنولد دويتش، وذكر ذلك في اعترافه المشهور لنيكولاس اليوت. لكننا لم نجد أية صورة لدويتش في ملفات الأف بي آي في الفترة التي كان فيها فيلبي في واشنطن. كان دويتش ذا شعر جميل مجعد. كنت أحضر معي بين حين وآخر ملفات ضباط المخابرات الروسية آملاً أن يتعرف بلانت عليه. وكان بلانت يتعامل مع هذه الملفات وكأنها كتب توضيح في المتحف الوطني. كان يتأملها بعناية من وراء نظارته، ويتوقف لحظات ليبدي إعجابه بوجه معين، أو بلقطة ما على زاوية شارع. لكننا لم نستطع تحديد هوية أوتو، أو اكتشاف السبب في إصرار شبكة الخمسة على إخفاء هويته لسنين عديدة.

في العام ١٩٣٨ قام ستالين بتطهير المخابرات من كافة جواسيسه العظام، تروتسكيين وغير روس. كان مقتنعاً بأنهم يتآمرون ضده. كما قام أيضاً بطرد عناصر من الجيش الأحمر. كان يستدعيهم واحداً واحداً إلى موسكو، ثم يقتلهم. أغلبهم ذهب بملء إرادته، وهم يعون المصير الذي ينتظرهم. ربما كانوا يأملون في إقناع الدكتاتور بخدماتهم الجلّى التي صنعت شخصيته في الغرب. أما البعض الآخر، مثل كريفتسكي، فقد قرر الهرب إلى الغرب، رغم أنه اغتيل على الأغلب على يد قاتل روسي في واشنطن العام ١٩٤١.

أهملت الشبكة لمدة سنة بعد مغادرة «أوتو». ثم أعاد بيرغيس وفيلبي الاتصال مع الروس عن طريق زوجة فيلبي الأولى ليتسي فريدمان، وهي عميلة للكومنترن في أوروبا منذ فترة طويلة. أكد بلانت بأن إدارة الشبكة كانت تتم عبر سلسلة معقدة من المراسلين: ليسلي توصل الرسائل إلى صديقها، عميل الكومنترن ايديث تودور هارت، ومنه إلى بوب ستيوارت رجل الاتصال الرسمي من الحزب الشيوعي البريطاني مع السفارة الروسية ومنها إلى موسكو. قبل اعتراف بلانت لم نكن نعي نهائياً وجود هذه السلسلة ذات الأبعاد المهمة للغاية. وقال بلانت بأنه متأكد من أن كل واحد من هذه السلسلة يعرف هويات أعضاء الشبكة، كما عبر عن حيرته من أن الشبكة لم تكن تحت مراقبة أم آي ٥ في تلك الفترة. كنا نفترض دائماً بأن

الشبكة مفصولة تماماً عن جهاز الحزب الشيوعي الذي كان مخترقاً بشكل كامل في الثلاثينات عن طريق عملاء ماكسويل نايت.

- أدركنا الآن فقط بأننا لم نفلح في كشف أهم سر في الحزب الشيوعي البريطاني. ففي العام ١٩٣٨ كانت أم آي ٥ تعيش نشوة النجاح في قضية ترسانة وول ويش. حيث استطاعت عميلة ماكسويل نايت الآنسة اكس «مس أكس» تأمين الدليل الكافي لإدانة كبار أعضاء الحزب الشيوعي البريطاني بالتجسس في مصنع حربي في وول ويش (Wool Wich Arsenal) ولو تابعنا القضية ووسعنا التحقيق فيها، لاستطعنا القبض على أكبر الجواسيس في تاريخ بريطانيا وهم في المهد.

في نهاية العام ١٩٤٠ قام الروس بإعادة الاتصال مع الشبكة حيث تم توجيههم بشكل مستمر في عالم المخابرات. وكان يديرها في هذه الفترة ضابط مخابرات روسي اسمه الرمزي «هنري» أما اسمه الحقيقي فكان أناتولي غروموف أو غورسكي. ويعمل تحت غطاء دبلوماسي. أدار غروموف جميع جواسيس الشبكة، وهم بالتأكيد الثمانية أسماء الرمزية التي ظهرت في اتصالات «فينونا»، ثم غادر بريطانيا العام ١٩٤٤ لإدارة عميلة دونالد ماكلين الذي عين في السفارة البريطانية هناك. وحل بوريس كروتوف محل غروموف في إدارة بقية العملاء في بريطانيا. كانت عملية «فينونا» كشفت رسائله إلى العملاء الثمانية. وقال بلانت أنه يكنّ احتراماً شديداً لاتقان مسؤولي الـ ك ج ب مهنتهم، لكنهم لم يستطيعوا مطلقاً أن يثيروه مثل «أوتو». كان غروموف وكروتوف تكنوقراطيين من جهاز المخابرات الروسية الحديثة، بينما يرى بلانت بأن المسؤلين الأوروبيين في-الثلاثينات كانوا فنانين.

وسألته:

«ألهذا تركت أم آي ٥؟».

«جزئياً، كان هناك ما يغري بالبقاء، ولكنهم لم يريدوني هناك. كان كيم يخدمهم بشكل جيد. إذ كان يصعد إلى القمة. كنت أعرف ذلك. أما أنا، كنت أريد الاهتمام بفني. وعلى أي حال لو أرادوني في أم آي ٥ لابتزوني لأبقى فيها».

عززت الحرب الباردة وانتشار المكارثية إيمان بلانت بأن اختياره في الثلاثينات كان صحيحاً، واستمر في ولائه الكامل لأولئك الذين بقوا في الساحة. وفي العام ١٩٥١ اختار البقاء والمواجهة بدل الهرب مع بيرغيس وماكلين. كان «مودين» في تلك الأيام يضغط عليه للهرب، ولكنه رفض. وقال لي إنه لا يحتمل حياة المنفى في موسكو. فقد زار الاتحاد السوفياتي في الثلاثينات، وأحب هذه البلاد الجميلة المأساوية، ولكن أكثر ما كان يشده فيها هو متحف الارميتاج في لينينغراد.

في العام ١٩٥١ بقي بلانت وحيداً مع فيلبي الذي لم يكن قريباً منه كقرب بيرغيس. كان فيلبي ذا شخصية قوية طاغية، ولكنه كان أيضاً بحاجة ماسة إلى بلانت. وكانت كلمة بلانت ما تزال مسموعة لدى زملائه في أم آي ٥، وباستطاعته الحصول على ما يكفي من المعلومات ليعرف فيلبي تطورات الموقف ضده. كانا يجتمعان ليبحثا إمكانية البقاء. كان فيلبي يبدو كالمحروم بدون عمله في أم آي ٦، ولم يكن كثير الفهم في مسائل الفن والعلم بالنسبة لبلانت، حتى عندما أطبقت الشباك عليهما.

«كنت أنا وكيم مختلفين في وجهة نظرنا من الحياة. كان طموحه الأوحد في الحياة أن يكون جاسوساً. أما أنا كان لي طموحات أخرى..».

كان بلانت معجباً بشخصية فيلبي، ولكنه يخشى فيه نظرته ذات البعد الواحد إلى الحياة. وكان بلانت يحتاج إلى الحب والفن، وفي النهاية إلى الهدوء في المؤسسة الملكية للفنون. أما فيلبي فقد عاش حياته من أحضان امرأة إلى أحضان أخرى. لقد كان له وجهة نظر شرقية بالنسبة للمرأة وكأنه لم ينقصه شيء لتشويهه سوى التجسس. قال لي أحد الأصدقاء ذات مرة عن بلانت:

«مشكلة أنتوني أنه كان يريد الصيد مع كلاب المجتمع ويهرب مع أرانب الشيوعيين!».

وقال بلانت:

«لم يتراجع كيم أبداً. ظل على ولائه حتى النهاية».

غرقت في نهاية العام ١٩٦٤ في الكمية الهائلة من المواد التي جمعتها من اعترافات لونغ وكيرنكروس وبلانت، بالإضافة إلى التدقيق في كمية مماثلة من المعلومات التي وصلت إلى أم آي ٥ منذ العام ١٩٦٠ عن طريق بعض المنشقين. وفي هذه الفترة وصلني التقرير الثاني الذي كتبه سيموندز عن قضية ميتشيل.

وذات صباح في شهر تشرين الأول من العام ١٩٦٤ وقبل أسبوعين من الانتخابات العامة، سلمني سكرتير هوليس ملفاً ضخماً وطلب مني الحضور بعد ظهر ذلك اليوم إلى مكتب المدير العام للبحث فيه. ولم يكن هناك وقت كافٍ لقراءة التقرير ناهيك عن دراسته. اتبع سيموندز تعليمات هوليس بحماس، فلم يبحث معي أو مع آرثر محتويات الملف طوال الثمانية أشهر التي استغرقها في كتابته. لكن قوة الدفع فيه كانت واضحة. فقد أعاد سيموندز تقييم قضية ميتشيل على ضوء اعترافات بلانت التي لم تكن متوفرة في التقرير الأول. أكد سيموندز في تقريره بأن القضية ضد ميتشيل ليست قوية. لم يكن سيموندز مؤهلاً لأن يحكم

من خلال التقرير فيما إذا كان هناك اختراق حديث العهد، لكنه عبر عن شعوره بأن هذا الأمر يستند إلى أساس من الصحة.

استلم آرثر ذلك الصباح تقرير سيموندز؛ وكان يعلم بأنه جرى الالتفاف عليه، وبأن قرار توزيع التقرير في تلك المرحلة المتأخرة يراد منه منع أي هجوم مضاد. وقال لي بأنه قرر أن يتخذ موقفاً من التقرير يقوم على أساس أنه لا يستطيع التعليق عليه إلا إذا أعطي وقتاً كافياً لدراسته، كان أثناء الاجتماع صامتاً تماماً.

افتتح هوليس الاجتماع على الفور:

«آمل ألا نضيِّع مزيداً من الوقت. لقد قرأت هذا التقرير وأعتبره مقنعاً جداً. وأريد أن أسمع وجهة نظركم قبل التوصل إلى قرار. فأنتم تعلمون أيها السادة بأن الانتخابات العامة على الأبواب، وأشعر أنه من الأفضل لجهازنا أن نحل القضية الآن بحيث لا أكون مجبراً على اطلاع رئيس الوزراء الجديد، أياً كان، عليها».

عرفنا ماذا كان يقصد بهذا الكلام. إذ أنه لا يريد أن يطلع الزعيم العمالي، هارولد ويلسون، الذي يبدو على وشك دحر المحافظين بعد أسبوعين. كان موقف هوليس بسيطاً: استطاع بلانت ولونغ وكيرنكروس من ربط بعض المداخل المهمة، كما سقطت قضية ميتشيل، إذن، تمْ حل المشكلة بشكل جيد، واقترح إغلاق قضية ميتشيل واعتبار قضية الاختراق منتهية.

«طلب هوليس سماع آرائنا. كانت التعليقات قليلة في البداية بشكل مفاجىء. فقد عولجت قضية ميتشيل بشكل أخرق وسيء من جميع الجوانب بحيث أننا جميعاً شعرنا بعبث الدفاع عنها، خاصة أنا وآرثر، إذ كنا نشك بجدية بأن هوليس هو الشخص الخامس. وقلت ببساطة إنه إذا كان تقرير سيموندز الأول لإدانة ميتشيل فإن تقريره الثاني للدفاع عنه، وإنني لا أقبل الحكم عليه بأنه «غير مذنب» بدون استجواب. وطلبت تسجيل وجهة نظري ضمن ملاحق الملف. وكتب هوليس ملاحظة على ورقة أمامه ونظر إلى كمنغ. فقام هذا بإلقاء محاضرة عن عدم الانضباط الذي ساد فترة التحقيق في القضية. وبدا واضحاً لنا جميعاً بأن عملية إقصائه عن القضية جرحت كبرياءه». أما فيرنيفال جونز فقال إن أفضل ما يمكن قوله في قضية ميتشيل هو أنها غير مثبتة.

سأل هوليس:

«وأنت يا آرثر؟».

«حسناً، هناك احتمال ثالث. وهو أن يكون هناك من يختفي وراء ميتشيل».

وصمت الجميع حول الطاولة. وحدّق كل من آرثر وهوليس بوجه الآخر لحظة قصيرة. فقد عرف كل من في الغرفة ما كان يقصده آرثر.

اخترق الصمت صوت كمنغ من آخر الطاولة يقول:

«أرجو أن توضح كلامك يا آرثر».

راح سيموندز يقلب ملفه بسرعة وكأنه يبحث عن فرضية آرثر وقد زحفت رغماً عنه داخل التقرير.

استمر هوليس من حيث توقف وكأنه لم يسمع ما قاله آرثر.

«حسناً. يجب أن نصل إلى قرار، لذلك أقترح إغلاق هذه القضية وتلخيص الملف...».

توقف قلمه فوق الملف. إذ لم يستطع آرثر أن يتماسك. فصرخ بطريقته العصبية الهوجاء:

«لا تستطيع أن تفعل ذلك. إنك تتجاهل في الواقع كافة إدعاءات غوليتسين بوجود اختراق. هناك التسرب في عملية «كراب». وهناك أيضاً «الوثائق التقنية» ـ ولا نعرف لحد الآن لأي وثيقة كان يشير غوليتسين. ومهما كان وضع قضية ميتشيل، فليس من الصحيح تجاهل كل هذه المسائل».

حاول هوليس أن يحرف الهجوم، لكن آرثر استمر باندفاع. كان يعرف أن هوليس يخدع نفسه. وأقر سيموندز بأنه لا يعرف سوى القليل عن معلومات غوليتسين ولذا لا يمكنه إعطاء رأي نهائي. أما فيرنيفال جونز فقد مال باتجاه الموافقة على مزيد من العمل على معلومات غوليتسين واعتبر الأمر معقولاً. شعر هوليس بأن الاجتماع يفلت من يديه، فقذف القلم من يده بازدراء وأصدر تعليماته إلى باتريك ستيوارت للقيام بمراجعة نهائية لكافة أوراق غوليتسين. وفي نفس الوقت أمر بإغلاق قضية ميتشيل.

اتصلت مع فيرنيفال جونز بعد الاجتماع، وقلت له بأنه أمر غير محتمل أن يقوم المدير العام بتكليف ضابط بمهمة بحث دون استشارتي وأنا رئيس قسم الأبحاث، في وقت كنت أصارع الكميات الهائلة من المعلومات التي تتدفق من بلانت وكيرنكروس ولونغ، ومن المنشقين في واشنطن.

وقلت له:

«لا داعي لزيادة الأمور تعقيداً، فإذا بدأنا في تفتيت العمل، فلن نجد سوى الفوضى. !».

كان فيرنيفال جونز يفهم المشكلة. فالعمل ينوء بأحمال كبيرة جداً، ووافق معي على ضرورة الاعتماد على مزيد من التنسيق لا أكثر. اقترحت عليه تشكيل فريق عمل مرتبط بكافة الأجهزة والفروع لبحث دائرة المعلومات المتعلقة بالاختراق، والتي كانت تصلنا من المنشقين. ووعد فيرنيفال جونز بعمل ما يستطيعه.

بعد فترة قصيرة دعاني إلى مكتبه وقال لي بأنه بحث القضية برمتها مع ديك وايت، الذي وافق على إقامة لجنة من هذا النوع. اتصل ديك وايت مع هوليس الذي وافق بتلكؤ. كان من المفروض تشكيل اللجنة بشكل مشترك بين الشعبة د في أم آي ٥، وقسم مكافحة الجاسوسية في أم آي ٦، وترفع تقاريرها إلى رئيسي كلا القسمين. رشحت أنا لرئاستها بعد أن أطلقنا عليها الاسم الرمزي «فلوينسي» (Fluency).

استخدم هوليس المشاجرة حول تقرير سيموندز حجة لقص جناحي آرثر. فقام بتقسيم امبراطورية الشعبة د ١ إلى قسمين: قسم د ١ وهو مخصص للعمليات. وقسم د أ الجديد (قسم التحقيقات) ووظيفته متابعة التحقيقات في مكافحة التجسس، وأبقى على آرثر رئيساً لقسم د ١ (العمليات) فيما تم ترفيع روني سيموندز لمنصب مدير مساعد مسؤولاً عن قسم د أ (التحقيقات).

كانت ضربة قاسية لآرثر، الذي يعتبر التحقيقات كالدم الذي يجري في عروقه منذ أن بدأ العمل في الأربعينات، وقد بذل في هذا القسم كل جهد لديه منذ عودته العام ١٩٥٩. وقد استشاط غضباً لأنه لم يطلب منه رئاسة لجنة فلوينسي، رغم أنه كان يفهم أن هذه المهمة منوطة بالشعبة د ٣ (الأبحاث). كما أنه لم يستسغ مرارة تعيين سيموندز مكانه، وهو ضابط أقل منه ويعتبر آرثر معلمه. شعر آرثر بأن تقرير سيموندز خذله، ولم يستطع أن يفهم كيف يمكن لسيموندز أن يكتب تقريرين متناقضين في فترة قصيرة جداً. واعتقد أن أم آي ٥ ارتكبت خطأ شنيعاً.

أصبح آرثر يائساً، كأنما وقع فجأة في حبائل الرغبة في تدمير الذات. كان مقتنعاً بأنه كان ضحية إصراره على ملاحقة قضية الاختراق. وزاد الأمر سوءاً أن هوليس قرر مع التأكيد على فصل عمل القسمين عن بعضهما، أن يقوم آرثر بالإشراف على كلا الجانبين، الأمر الذي يتعارض وخبرته الكبيرة. كان الترتيب عبثياً، ويقود إلى الكارثة. كان الرجلان يتشاجران باستمرار. فقد فهم آرثر الإشراف على أنه سيطرة على القسمين، أما سيموندز فكان يريد

السير في طريقه الخاص المستقل. وأخيراً تصاعدت الأمور عندما طلب آرثر بفجاجة من سيموندز استدعاء ضباط التحقيق لديه إلى مؤتمر، ورفض سيموندز الامتثال للطلب. وقال آرثر بأن سيموندز يُعيق عمله كمنسق بين القسمين. أما سيموندز فاتهمه بأنه يتدخل في شؤونه وقام بكتابة شكوى إلى كمنغ حول المسألة. ورفع كمنغ الشكوى إلى هوليس مع توصية بفصل آرثر فوراً. فوافق هوليس بحماس.

بحثت هذه القضية في اجتماع المديرين التالي. لم يكن بين الحضور أي حليف لآرثر. كان أغلب المديرين يشعرون بالخوف من أسلوبه العصبي والعنيف. كان الصديق الوحيد لآرثر بينهم بيل ماغان الذي كان يدافع عنه حتى النهاية، لكنه غاب وقت اتخاذ القرار.

مازالت أذكر مجيء آرثر إليّ في ذلك اليوم، وهو هادىء بشكل حديدي.

وقال ببساطة:

«لقد فصلوني. أعطاني روجر يومين لإخلاء مكتبي».

بعد ذلك عينه ديك وايت للعمل في أم آي ٦ رغم احتجاجات هوليس. ورغم أن نقله هناك حفظ له الحق في التقاعد، إلا أنه حطم عمله وهو في قمته.

. لم أستطع أن أصدق ما حدث. فهنا أفضل ضابط مكافحة تجسس في العالم، رجل معروف في العالم كله ببراعته وخبرته، يفصل لأسباب بيروقراطية تافهة. هذا هو الرجل الذي بنى الشعبة د ١ منذ العام ١٩٥١ ليحولها من قسم بسيط غير فاعل إلى وحدة حديثه فعالة في مكافحة التجسس. ومع ذلك فهذه حقيقة رغم أن آرثر غير ملام.

كان خطأ آرثر الكبير سذاجته. لم يعرف إلى أي مدى جلب على نفسه من الأعداء في سنوات عمله. وكان خطأه أنه اعتقد بإمكانية تحقيق التقدم جنباً إلى جنب مع تحقيق الإنجازات. كان رجلاً طموحاً، وله الحق في ذلك، لكن طموحه لم يكن مقسماً إلى مراحل. إذ كان يريد أن يقتل التنين ويقاتل الوحوش في الخارج، ولم يفهم مطلقاً لماذا لم يدعمه إلا القليل من رؤسائه. كان عصبي المزاج ومسكونا بالأفكار الغربية، ومع ذلك فإن أم آي ٥ ستظل تواجه دائماً الاتهام الكبير بعدم القدرة على استغلال قدرات آرثر والحد من عصبيته.

قال لي يوم فصل:

«من الأفضل أن أترك هذا العمل».

كنت أعلم بأنه لم يقصد ذلك جدياً.

حاولت أن أروّح عن نفسه، لكنه كان مقتنعاً بأن هوليس رتب المسألة كلها ليحمي نفسه، ولم يعد هناك ما يمكن أن أفعله. كانت عملية الفصل ثمناً مراً يدفعه آرثر بعد عشرين عاماً من الانجازات. وكان يعلم بأن عمله انهار، وأن كل ما بناه، كما حصل معه العام ١٩٥١، دمر. لم أر في حياتي رجلاً حزيناً مثل آرثر في اليوم الذي تركت فيه العمل. صافحني، وشكرته على كل ما قدمه لي. وألقى نظرة على المكتب وقال:

«حظاً طيباً!».

وخرج من المبنى لآخر مرة.

الفصل السادس عشر

في الوقت الذي ترك فيه آرثر العمل، كنت بصدد عملية إعادة بناء قسم الأبحاث د ٣. إذ لم أجد فيه، عند استلامه، أي حس واضح بالمهمة التي أردت إناطتها به. كنت أعتقد أنه يجب أن يَلْعب دوراً رئيسياً في الوصول الى أسس مؤامرة الثلاثينات. فإن أية منظمة مخابرات، وخاصة إذا كانت منظمة مكافحة تجسس، تعتمد على ذاكرتها وإحساسها بالتاريخ، وبدونهما فإنها تضيع. لكن في العام ١٩٦٤ كانت.أم آي ٥ تنوء بحمل ثقيل من المعلومات المتناقضة التي تتدفق من المنشقين واعترافات الجواسيس. ولا شك أن النهايات المفتوحة في هذه المهنة أمر طبيعي، لكننا كنا نعاني من كم هائل من الادعاءات والشكوك غير المحسومة، تتعلق بالثلاثينات. وكان يجب علينا أن نعود إلى تلك الفترة لنحقق في تفاصيل حياة كل من فيلبي، بيرغيس، ماكلين، بلانت، لونغ وكيرنكروس.

من الصعب أن ندرك اليوم، حتى في تلك الفترة من العام ١٩٦٤، قلة ما نعرفه عن البيئة التي عاش وتحرك فيها هؤلاء الجواسيس رغم حالات الانشقاق التي حدثت عام ١٩٥١. كان الاتجاه آنذاك هو اعتبار المنشقين «تفاحات عفنة»، وليس جزءاً من مؤامرة أوسع ولدت ضمن ظروف الثلاثينات الخاصة.

أدت الهوة المتزايدة داخل الجهاز بين أولئك الذين يعتقدون بوجود اختراق، وبين أولئك الذين لا يعتقدون بوجوده، إلى انشقاق بين من يعتقد بأن اختراق الثلاثينات كان محدوداً، ومن يعتقد بأنه كان واسعاً ومتشعباً، ودليلهم على ذلك هو الأسماء الرمزية الثمانية التي وردت في عملية «فينونا». ازداد التوتر بين المجموعتين ونما في فترة الخمسينات على أثر مقاومة هوليس لأية محاولة يقوم بها آثر أو أنا لمعالجة القضية.

لا شك أن الفشل في مواجهة المؤامرة بشكل كافٍ يعود إلى أسباب عديدة معقدة. أما على المستوى البسيط فقد حققنا تقدماً محدوداً مع أفضل المشبوهين فيلبي وبلانت، أدى هذا إلى صعوبة تبرير القيام بعملية تحقيق واسعة. كما كان هناك الخوف من مؤسسة الدولة. ففي الوقت الذي حصل فيه الهروب، كان معظم أصدقاء وزملاء ومعارف بيرغيس وماكلين أصبحوا شخصيات بارزة في الحياة العامة. كان من السهل طرح أسئلة محرجة على شاب لم يتخرج من الجامعة بعد، ولكن من الصعب طرح هذه الأسئلة على قائمة طويلة من موظفين يصعدون إلى مناصب عليا مثل وكيل وزارة.

كنت أشعر في داخلي بأنه تنقصنا الإرادة. كان السياسيون والمديرون المتعاقبون على أم آي ٥ يخشون أن تؤدي التحقيقات المكثفة إلى مزيد من الهرب، أو إلى كشف فضائح عامة، وهي مخاطرة لم تكن مقبولة في الخمسينات. بالاضافة إلى ذلك، فالقيام بتحقيقات واسعة سيضطر أم آي ٥ إلى الكشف عن بعض أسرارها ورجالها. ولعل هذه المصيبة الأزلية تواجه أي جهاز مكافحة للتجسس: فلكي تحقق لا بد من المغامرة بالاتصال بالناس ومقابلتهم، وبذلك تزداد إمكانية التسرب بازدياد كثافة التحقيق الذي تقوم به. كانت هذه المصيبة حادة جداً عند مواجهة مشكلة التحقيق في تجنيد السوفيات للعملاء في أكسفورد وكامبريدج في الثلاثينات. فمعظم الناس الذين نريد التحقيق معهم ما زالوا جزءاً من العلاقات المتشابكة لخريجي الجامعتين، دون أن يكون لهم بالضرورة ولاء لأم آي ٥، أو لعملياتنا السرية المستمرة. كنا نخشى أن تنتشر أخبار تحقيقاتنا ونشاطاتنا مثل النار في الهشيم، الأمر الذي بث الرعب في نفوس مديري أم آي ٥ المتعاقبين من الإقدام على هذه الخطوة. فاخترنا المضي في التحقيقات السرية، وهي أقل إنتاجية من تلك العلنية.

جاء هرب فيلبي واعترافات بلانت ولونغ وكيرنكروس لتمحو الكثير من هذه التحفظات، لكن الخوف من مؤسسة الدولة ظل دائماً حاداً وقوياً. وافق هوليس على توسيع عمل الشعبة د ٣، وأنيط بها مهمة بسيطة وكبيرة في نفس الوقت ـ العودة إلى الثلاثينات والبحث في الملفات عن نقاط قد تقود إلى جواسيس ما زالوا يعملون حتى الآن. أي التحقيق مع جيل كامل، لتوضيح كثير من النهايات المفتوحة، وتقديم تاريخ دقيق للمخابرات لأول مرة.

أعطاني غاي ليديل، عندما أصبحت مسؤولاً عن الشعبة د ٣، أول مبدأ استرشد به، أثناء إحدى زياراته لي بعد تقاعده، إذ قال:

«أراهن أن ٥٠٪ من الجواسيس الذين يمكن أن تصطادهم في العشر سنوات القادمة لهم ملفات ونهايات مفتوحة في السجل. باستطاعتك أن تبدأ من هنا».

كنت متأكداً بأن ما قاله صحيحاً. تذكرت هاوتن وتقرير زوجته عنه. كما تذكرت بليك، سنايبر، فيلبي، وبلانت. كان الدليلُ متوفراً دائماً لكن لا أحد كلف نفسه عناء المتابعة الكافية. ولعل أكثر ما أدهشني، عند قراءة ملف كلاوس فوخس، إنني اكتشفت بأن أم آي ٥ عرفت اسمه، وخلفيته الشيوعية، وحتى رقم بطاقة عضويته في الحزب، إذ كانت جميعها موجودة في سجلات الغستابو التي صادرتها أم آي ٥ بعد الحرب. لكن لم يكن هناك معلومات في الملف عن اسم الضابط الذي كان يحقق معه. ومن ناحية أخرى، قام الضابط ميشيل سوربيل بين عامي ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ بالبحث في قضية فوخس وكتب في الملف أن فوخس لا بد أن يكون جاسوساً.

اطلعت في السجل على كمياتٍ هائلةٍ من الأوراق بحاجة لأن تُستنطق. كان هناك سجلات الغستابو، وهي منظمة مكافحة تجسس فعالة جداً عملت بنشاط ضد الأحزاب الشيوعية الأوروبية والمخابرات السوفياتية. إذ كان لدى الألمان معلومات قيمة وثمينة عنهم، في وقت لم يكن لدينا أية معلومات عن أوروبا بسبب انخراطنا في الحرب. ضمت سجلات الغستابو معلومات نفسية عن أهم شبكات التجسس السوفياتية في أوروبا: روته ـ كابيل والأوركسترا الحمراء. كانت هذه الشبكات مرتبطة جزئياً ببعضها البعض، وتعتمد على قوتها الذاتية، وتخضع لإدارة المخابرات العسكرية السوفياتية في الأراضي الأوروبية المحتلة من قبل الألمان. كانت شبكة روته ـ كابيل تعمل بشجاعة ومهارة في نقل المعلومات الحيوية عن التحركات العسكرية الألمانية بواسطة أجهزة اللاسلكي إلى موسكو.

كان أهم ما في سجلات الغستابو بالنسبة لبريطانيا هو أوراق هنري روبنسون! وهو عضو قيادي في شبكة روته ـ كابيل في باريس، ومن أكثر عملاء الكومنترن أهلاً للثقة. ألقى الغستابو القبض عليه في العام ١٩٤٣ ونفذ فيه حكم الإعدام. ورغم أن روبنسون رفض البوح بأسراره حتى الموت، إلا أن الغستابو عثر على أوراق مخبأة في أرضية بيته تغطي بعض نشاطات الشبكة. وقد ضمت الملاحظات المكتوبة باليد قائمة بحوالي ٤٠ إلى ٥٠ أسماً وعنواناً في بريطانيا، تدل على أنه كان مسؤولاً أيضاً عن الاتصال بشبكة روته ـ كابيل في بريطانيا. وقد قامت إيفلين ماك بارنيت بجهد كبير في مراجعة وتصنيف أوراق روبنسون، لكن الأسماء كانت سرية، وكثير من العناوين كانت إمّا صناديق بريد أو دمرت أثناء الحرب. وقام كذلك ضابط آخر من أم آي ٥ هو ميشيل هانلي بالبحث في هذه الأوراق في الخمسينات لتحديد هوية كل عميل في هذه الشبكة. كانت قوائم الأسماء تضم ما يزيد على الخمسة آلاف اسم. وبعد هانلي توقف العمل في الأوراق. اعتقدت بإمكانية وجود نقاط في هذه المواد تقودنا إلى مكان ما.

ومن المصادر الأخرى للبحث كان هناك أيضاً سجلات استجواب المنشقين. كان العمل في هذا المجال يتقدم مع المنشقين الجدد مثل غوليتسين وغولينيفسكي، أما في استجوابات المنشقين قبل وأثناء الحرب فقد كان هناك الكثير من النهايات المفتوحة من استجواباتهم. فجاء في إفادة المنشق والتر كريفيتسكي العام ١٩٣٧، بأنه يوجد جاسوس في أم آي ٥ من عائلة محترمة ودرس في آيتون وأكسفورد، وانضم للعمل في وزارة الخارجية. اعتقد الجميع لسنين طويلة بأن هذا العميل هو دونالد ماكلين، رغم أنه درس في غريشام هولتز وكامبريدج، ولا تنطبق عليه المواصفات، وبدل مواجهة المشكلة تركوا هذه الإفادة في السجل ليعلوها الغبار.

ثم جاء ضابط المخابرات السوفياتية كونستانتين فولكوف الذي اتصل بالقنصلية البريطانية في استانبول وعرض كشف أسماء الجواسيس السوفيات في بريطانيا مقابل المال. أعطى لأحد موظفي السفارة قائمة بالمؤسسات التي يعمل فيها هؤلاء الجواسيس. ولسوء حظ فولكوف أن قائمته هذه وصلت إلى مكتب فيلبي في قيادة أم آي ٦. وكان فيلبي في ذلك الوقت رئيس قسم مكافحة التجسس السوفياتي، فقام بإقناع رئيس الشعبة ج بالسماح له (لفيلبي) بالذهاب إلى تركيا بحجة ترتيب هرب فولكوف. ثم أخر فيلبي وصوله إلى استانبول مدة يومين. وهكذا اختفى فولكوف. ويعتقد الأتراك بأن فولكوف وزوجته نقلا على حمالة إسعاف إلى طائرة سوفياتية أقلتهما من استانبول إلى موسكو. ساد الظن وقتها بأن فيلبي يمكن أن يكون ضمن قائمة فولكوف، ولكن من المؤكد وجود آخرين لم يظهروا بعد ـ مثل ذلك التجاسوس الذي ذكر فولكوف بأنه يعمل لصالح أم آي ٦ في إيران.

وأخيراً هناك مواد «فينونا»، وهي أفضل المواد التي يمكن الاعتماد عليها في كشف الاختراق القديم في المخابرات الغربية. وبعد أن ترك آرثر العمل في أم آي ٥، استلمت بدلاً منه برنامج «فينونا»، وأشرفت على عملية مراجعة جديدة لكافة المواد فيه لعلنا نصل إلى نقاط مهمة جديدة. قادتنا المعلومات التي حصلنا عليها إلى أول قضية تكتشفها الشعبة د ٣، كانت قضية فرنسية أكثر من كونها بريطانية. فقد احتوت مواد «هاسب» المتعلقة بنشاط المخابرات العسكرية السوفياتية من ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، على معلومات عن الاختراق السوفياتي لعديد من الحركات الوطنية والمهاجرين الذين اتخذوا لندن مقراً لهم في السنوات الأولى من الحرب. فمثلاً كان للسوفيات مصدر رئيسي في قلب جهاز مخابرات تشيكوسلوفاكيا الحرة، الذي يشمل نشاطه أراضي أوروبا الشرقية الواقعة تحت الاحتلال الألماني. كان هذا الجهاز يعتمد في عمله على المراسلين. وكان الاسم السري لهذا المصدر السوفياتي بارون، ويعتقد بأنه السياسي التشيكي سيدليسيك الذي لعب دوراً بارزاً في شبكة لوسي في سويسرا.

كان أهم اختراق بالنسبة لأم آي ٥ هو ذلك الذي وصل إليه السوفيات في حكومة فرنسا الحرة التي كان الجنرال ديغول يقودها. فقد واجه الجنرال ديغول المؤامرات المستمرة في لندن، التي كان يخططها نائباه الشيوعيان، أندريه لابارث، المسؤول عن الشؤون المدنية، والأدميرال موسيلير المسؤول عن الشؤون العسكرية. كان تشرشل يحرض أم آي ٥ على مراقبة هذه المؤامرات أثناء الحرب، ثم أمر باعتقال كلا الرجلين بعد ذهاب ديغول إلى داكار لتحرير تلك المنطقة لحساب فرنسا الحرة. وفي العام ١٩٦٤ استطعنا أن نحل إحدى الشيفرات التي أثبتت لنا بما لا يدع مجالاً للشك بأن لابارث عمل كجاسوس سوفياتي، في تلك الفترة عندما كانت معاهدة مولوتوف ـ فون ريبينتروب سارية المفعول.

كما احتوت «فينونا» الأمريكية على مواد معلومات عن الاختراق السوفياتي لحكومة فرنسا الحرة. ولكن السي آي أي لم تكترث بها. ربما لأنهم اعتقدوا بأن هذه المعلومات قديمة جداً، أو لأنه لم يكن لديهم من يعرف التاريخ الفرنسي بشكل جيد. وعندما قمت بدراسة هذه المعلومات وجدت أن هناك سياسياً فرنسياً كبيراً، بيير كوت وزير الطيران في حكومة دالاديه قبل الحرب، كان أيضاً جاسوساً نشيطاً للسوفيات.

جاء هذا الاكتشاف في زمن التوتر الكبير بين المخابرات البريطانية والفرنسية. كان العداء للمخابرات الفرنسية وقتها قوياً داخل المخابرات البريطانية. فقد عمل كثير من الضباط من كلا الجهازين في فترة الحرب ويتذكرون استسلام الفرنسيين المخزي. فمثلاً كان كورتني يونغ يدعي دائماً بأنه كوّن وجهات نظر لا تمحى عن الفرنسيين عندما عاد من دنكرك بقارب. وحتى بلانت لم يمنعه حبه الشديد للفن الفرنسي من ذم جبن الفرنسيين.

لم يحسن مجيء أناتولي غوليتسين هذه العلاقة، بل على العكس من ذلك، لأن أفضل المعلومات التي قدمها كانت تتعلق بالاختراق السوفياتي لجهاز المخابرات الفرنسية الموازي لأم آي ٦. قال غوليتسين أنه توجد شبكة من العملاء في قمة جهاز المخابرات الفرنسية واسمها «شبكة سابفير» (Sapphire Ring). وبعد فترة قصيرة من هرب غوليتسين انتحر نائب رئيس الجهاز برمي نفسه من الشباك. وقد أقنع رئيس السي آي أي، أنغلتون، الرئيس كنيدي ليكتب إلى ديغول محذراً من ادعاءات غوليتسين، لكن ديغول كان يشعر بأن الأمريكيين والبريطانيين يسعون لتشويه وحدة فرنسا. ظل الفرنسيون ثابتين على موقفهم هذا حتى بعد أن قدم غوليتسين معلومات أدت إلى القبض على جورج باك وإدانته عام ١٩٦٥، وهو مسؤول حكومي كبير.

زادت الأمور تعقيداً، عندما كانت الشعبة الفرنسية لمكافحة التجسس تتعاون مع أم آي ٥ في قضية تتعلق بعميل مزدوج، هو إير بيل. كان هذا رجل كيمياء وصناعة اسمه

الدكتور جان بول سوبرت، ويدير العملاء لصالح مخابرات ألمانيا الشرقية وال ك ج ب، إلا أن المخابرات البلجيكية جعلته مزدوجاً. وكشف عن اثنين من عملائه موظفين في شركة كوداك في بريطانيا يزودانه بالمعلومات عن العمليّات التجارية الحساسة. فأخبرتنا المخابرات البلجيكية بذلك. وقامت أم آي ٥ بتحقيقات مكثفة مع هذين الموظفين، ألفريد روبرتس وجودفري كونواي. كما جاء في معلومات سوبرت للبلجيكيين أن هناك عميلاً غير شرعي لألمانيا الشرقية اسمه هيربرت شتاينبرخر ويدير العملاء داخل مجمع مصانع كونكورد الفرنسية. تم تحويل هذه المعلومات إلى جهاز مكافحة التجسس الفرنسي للتحقيق فيها بالتعاون مع أم آي ٦.

ولسوء الحظ انتهت القضيتان إلى كارثة، فبالرغم من إلقاء القبض على كونواي وروبرتس إلا أنهما خرجا بريئين. ولزيادة الطين بلة في العلاقات البريطانية ـ الفرنسية، كشف استجواب شتاينبرخر أن أم آي ٦ جندت أحد ضباط الشرطة الفرنسية، الذي كانت منطقة عمله تصل إلى الحدود الألمانية. كان هذا الضابط عميلاً «أبيض» أي ان أم آي ٦ تعمدت إخفاءه عن الفرنسيين لاستخدامه في التجسس على المواطنين الفرنسيين والألمان. أما الفرنسيون فقد أجبروا من جهتهم على الإقرار بأن عملاء شتاينبرخر نقلوا إلى الروس كافة أنظمة كونكورد الالكترونية المتقدمة، والتي كانت مشروعاً فرنسياً بريطانيا مشتركاً. أدى كل هذا إلى مشاجرة لا نحسد عليها.

اتصلت مع أنغلتون ولويس توردیلا في وكالة الأمن القومي، وحصلت على موافقتهم بتزويد جهاز مكافحة التجسس الفرنسي بمواد «فينونا» التي تثبت أن كوت ولابارث جواسيس سوفيات. كانت هذه المواد قديمة، لكن لا تزال تحتفظ بأثرها السياسي، كما كنت أرى في تسليمها للفرنسيين إجراء احتياطياً. وهكذا سافرت إلى باريس في مطلع العام ١٩٦٥ لزيارة جهاز مكافحة التجسس الفرنسي، حيث قابلني هناك نائب الرئيس مارسيل شاليت. كان شاليت رجلاً صغير الحجم انضم إلى العمل في الجهاز بعد الحرب. وكان أبدى شجاعة كبيرة أثناء اشتراكه في المقاومة تحت قيادة جان مولين، وبالكاد استطاع الهرب من يد الغستابو يوم إلقاء القبض على مولين. كان شاليت، مثل بقية قدامى المقاتلين في المقاومة، يلبس وشاحه الوردي بفخر واعتزاز. ورغم أنه كان مناضلاً معادياً للشيوعية، إلا أنه كان معجباً أشد الإعجاب بشخصية مولين الذي كان شيوعياً بارزاً، ويحبه أكثر من أي إنسان آخر في حياته. بحثت معه عدة مرات قضايا المقاومة، لكنه حتى في الستينات لم يستطيع أن يتحدث عن قائده السابق دون أن تنهمر الدموع من عينيه.

شرحت له بأننا حصلنا على معلومات جديدة تشير إلى الدور الحقيقي لكل من كوت

ولابارث، وأطلعته على حل رموز «فينونا». فأدهشته المعلومات، وتعهد فوراً بإجراء تحقيق كامل.

سألته:

«لماذا لا تعتقد أنها قديمة جداً..؟».

نظر إلي نظرة حادة وقال:

«لا تستطيع أن تقول أن سياسياً فرنسياً أصبح قديماً جداً ما دام حياً!».

لسوء الحظ مات لابارث بسبب أزمة قلبية أثناء تحقيق مارسيل شاليت معه، أما كوت فقد ترك ليموت بسلام. لكن هذه المعلومات ساهمت في تخفيف التوتر بين أم آي ٥ وجهاز مكافحة التجسس الفرنسي، وجعلت مني ومن مارسيل أصدقاء حتى نهاية عملنا.

قبل ليلة من عودتي إلى لندن دعاني إلى العشاء. كان المطعم مخفياً، أما الطعام فكان ممتازاً. وكان مارسيل شاليت مضيفاً جيداً وكريماً. حدثني عن المخاطر التي تحيق بعمل المخابرات الفرنسية. وحدثته عن «فينونا» التي أدهشته فطلب إبلاغه بالنجاحات التي يتم تحقيقها.

قال:

«لقد حقق الروس بعض النجاح علينا منذ فترة قريبة».

ووصف لي كيف اكتشفوا في غرفة الشيفرة في السفارة الفرنسية بواشطن جهاز بث دقيق على شكل فيوز.

وأضاف:

«لم يكن بالطبع غربياً، ومداه يصل بشكل جيد إلى بيت الملحق العسكري السوفياتي عبر الشارع».

انتفضت أذناي وأنا أسمعه يتحدث عن السفارة الفرنسية في واشنطن. كانت عملية «ستوكيد» ضد السفارة الفرنسية في لندن وواشنطن قد انتهت بتهور واندفاع منذ فترة بسيطة، عندما دخل الفنيون الفرنسيون لمسح غرف الشيفرة. ومن الواضح إذن أن الروس توصلوا إلى إمكانية التقاط الإشعاع من الآلات شبه المكشوفة. طمأنت نفسي بأن الفرنسيين لم يكتشفوا لحد الآن عمليتنا.

أما شاليت فقد رأى في جهاز البث الصغير أمراً مسلياً، وعرض علي إرساله إلى ليكون فيلد لنفحصه. وسألني وهو يبتسم سؤالاً عرضياً:

«وأنت يا عزيزي بيتر، هل حققت أي نجاح بشأن الاشعاعات؟».

كدت أغص بالخمر.

وقلت:

«ليس كثيراً..».

سكب مارسيل الخمر في كأسي وقد بدا عليه أنه لا يصدق كل كلمة تفوهت بها. انتقلنا بسرعة للحديث في مواضيع أخرى كما يفعل عادة المحترفون الحقيقيون.

رغم الاستمتاع في تلك الحوادث الفرنسية، بقيت شبكة الخمسة المهمة الرئيسية أمام الشعبة د ٣. وطلبت من هوليس إدماج المحققين في الشعبة د ٨ ضمن الشعبة د ٣، لكي أتمكن من توظيفهم في برنامج المقابلات المكثف مع كل من كان له علاقة بفيلبي، بيرغيس، ماكلين، بلانت، لونغ وكيرنكروس. وافق هوليس على ذلك لكنه اشترط علي أن أقوم بالمقابلات الحساسة مثل تلك المقابلات مع لورد، أو فارس، أو سياسي أو موظف مدني كبير بالإضافة إلى المشبوه كجاسوس.

بلغ عدد الذين قابلتهم أكثر من مئة شخص. وأبدى سياسيون من حزب العمل مثل كريستوفر مايهو ودينيس هيلي، عدم رغبتهم في الحديث عن ذكرياتهم عن الحزب الشيوعي في الثلاثينات. أما وزير الدولة لشؤون الدفاع فقد رفض مقابلتي نهائياً. غير أنه كان هناك آخرون أبدوا تعاوناً كبيراً معي مثل المؤرخ إسحق برلين والكاتب آرثر مارشال، وكنت ألتقي بهما بانتظام للمناقشة حول معاصريهما في أكسفورد وكامبريدج في الثلاثينات. أصر برلين على أن نلتقي في نادي الإصلاح، لأنه يرى من الأنسب مناقشة موضوع غاي بيرغيس على مسرح أعظم انتصاراته. وكانت له نظرة ثاقبة بالمحيط الاجتماعي لبيرغيس-خاصة بالنسبة لأولئك الذين تغيروا مع الزمن. كما أنه لم يبخل علي بالنصائح الثمينة فيما يتعلق بطريقة الاستجواب.

فقد نصحني بألا أقابل أستاذ الأدب البارز في جامعة أكسفورد موريس بورا، فهو شاذٌ، وصديق مقرب من بيرغيس. كما كان قريباً من قمة قائمة أسماء الذين اعتقدت بأنهم سيساعدونني. وسألته:

«لماذا؟».

«لأنه سينشر الخبر بين الجميع في أكسفورد».

عملت بنصيحة برلين وتجنبت بورا طويلاً.

أما مارشال فقد كان يعرف كل من كانوا في كامبريدج في الثلاثينات، وخاصة مجموعة الشاذين. كان يتمتع بذاكرة قوية فيما يتعلق بكافة الإشاعات والمؤامرات والفضائح. والأهم من ذلك أنه كان يعرف من ينام مع من في دائرة علاقات بيرغيس وبلانت.

كان بلانت أيضاً يحب مناقشة الجانب الفضائحي في كامبريدج الثلاثينات. كان يستمتع بالإشاعات ولا يمل من الحديث عن كيف ورط السير ادوارد بلايفير في جمعية الرسل، الذي أصبح فيما بعد سكرتيراً دائماً لوزارة الدفاع. كان بلانت يعتبر بلايفير غبياً، في حين لم أوافقه على ذلك بعد لقائي بالرجل. وكانت أجمل قصص بلانت تلك المتعلقة ببيرغيس وابنة أخ تشيرشل لاريسا تشيرشل. ويبدو أن السوفيات طلبوا من بيرغيس الزواج منها لضمان تغطية كافية لنشاطه التجسسي. فقد ارتعب بيرغيس من هذه المهمة، لأنه شاذ جنسياً، بالإضافة إلى أنها كانت بالكاد أكثر جمالاً من عمها. وفيما بعد فتن بها جيمس هينيسي، الذي أصبح لاحقاً كاتباً بارزاً.

كان بيرغيس شخصاً عجيباً. فخلال شهر واحد كان يلاحق لاريسا مسبباً الاضطراب والغضب. إذ لم يعجب اهتمامه بها جيمس هينيسي. وذات مساء جاء إلى شقة بيرغيس وبيده مسدس مهدداً بأنه سيقتلهما الاثنين معاً قبل أن ينتحر. كان بلانت يحب رواية هذه القصة فقد كانت تبدو لي وله ذات قيمة لأن لاريسا تشيرشل تزوجت فيما بعد أنتوني إيدن، وأخيراً أصبحت ليدي آفون.

وسرعان ما أدركت بأن شبكة الخمسة كانت في وسط مجموعة من الشبكات، تلتزم كل واحدة بالصمت، وتحتفظ بأسرارها بعيداً عن الغرباء. فقد كانت هناك شبكة الشاذين، وولاؤهم الأساسي لنوعيتهم. وكان هناك عالم الرسل السري الذين حافظوا على الولاء فيما بينهم طول الحياة. وهناك أيضاً شبكة أصدقاء بلانت وبيرغيس الذين لم يكونوا جواسيس ولكنهم كانوا يعرفون أو يدركون بأن شيئاً ما يحدث، فشاركوهم سرهم وعملوا على حمايتهم لسنين طويلة. وكانت كل شبكة تدعم الشبكات الأخرى، وعملت على إخفاء المركز نهائياً بحيث يصعب الوصول إليه وتحديده.

لم يكن صعباً أن أكره الأشخاص الذين قابلتهم. والمفارقة أنني لم أكن معنياً كثيراً بالجواسيس، فلقد اختاروا طريقهم وساروا فيه حسب قدرتهم. أما أولئك الذين على السطح فإنهم شيء آخر. عندما قابلتهم كانوا يرتدون لبوس الاحترام التي أسبغتها عليهم حياتهم اللاحقة. لكن عنادهم وأصواتهم كانت تخفي الشعور بالذنب والخوف. وكانوا يقولون بأنني أنا المخطىء في إثارة القضية وليس هم، إذ كان يجب أن تبقى طي الماضي. وقالوا عني بأنني مكارثي النزعة. كانت الأمور مختلفة وقتها عنها الآن. التجسس بالطبع خطأ، ولكن كان له أسبابه. كانوا جيل اللوتس، يتبعون الاتجاهات السياسية وكأنها موضة ملابس، ولا يزالون ملتزمين في الستينات بعهود الصمت التي قطعوها على أنفسهم قبل ثلاثين عاماً. كانوا يكرهونني بدورهم. فلقد كنت أنظر إلى أسرار قلب مؤسسة الدولة عندما كان هؤلاء شباباً

عابثين. كنت أعرف الكثير من فضائحهم ومؤامراتهم، وهم يدركون ذلك.

كان من أولى مهمات الشعبة د ٣ إعادة التحقيق في إحدى النقاط في ملفات لم يستكمل البحث فيها منذ هرب بيرغيس وماكلين عام ١٩٥١. وهي معلومات قدمها صديقهما غورونوي ريس Goronwy Rees: فقد التقى بهما لأول مرة في أكسفورد في الثلاثينات، وكان يزورهما بانتظام أيام الحرب أثناء خدمته في المخابرات العسكرية. وبعد هربهما بفترة قصيرة اتصل مع ديك وايت، الذي كان وقتها رئيس قسم مكافحة التجسس، وأخبره بأنه يعلم بأن بيرغيس عميل للسوفيات منذ فترة طويلة. وقال بأن بيرغيس حاول أن يجنّده قبل الحرب، لكن ريس قطع علاقاته السرية معه بعد توقيع معاهدة مولوتوف ـ فون ريبنتروب Molotov-Von Ribbentrop. وادعى ريس كذلك بأن بلانت وغاي ليديل، وضابطاً سابقاً في أم آي ٦ اسمه روبين زايهنر وستيوارت هامشاير (ضابط في قسم أمن الاتصالات) كانوا متواطئين. وفي حين أن بلانت كان بلا شك جاسوساً سوفياتياً، فقد تم التوصل فيما بعد إلى أن الاتهامات بحق الآخرين لا أساس لها من الصحة.

كره ديك وايت ريس بشدة، واعتقد بأنه يوزع الاتهامات جزافاً للفت الانتباه إليه أو من باب الشهرة. كان الأربعة أصدقاء مقربين، ولهذا السبب لم يشارك ديك وايت آرثر شكوكه في بلانت. وقد تثبت ديك وايت من صحة وجهة نظره تجاه ريس عام ١٩٥٦ عندما كتب الأخير تحت اسم مستعار سلسلة من المقالات لصحيفة مشهورة. كانت مواضيع الجنس والتجسس مقروءة جيداً في الخمسينات مثلما هي الآن. فأثارت مقالات ريس التي تناولت حياة بيرغيس الجنسية وأولئك المقربين منه أشد الاستياء.

وعندما اعترف بلانت تغيرت أهمية شهادة ريس. وفكرت أنه من المنطقي أن أعود إليها ولو من باب التأكد بأن ريس لم يكن كاذباً عندما ادعى بأنه تخلى عن القضية السوفياتية قبل الحرب. وعندما قابلته بدا لي في البداية متردداً في التحدث إلي، كما اتهمتني زوجته بممارسة أسلوب الغستابو في محاولتي إحياء الماضي بعد كل هذه السنين. كانا كليهما قد عانى الكثير من وراء تلك المقالات، لأنه عرف بأنه كاتبها وفصل من الحياة الأكاديمية. ومنذ عام ١٩٥٦ وهم يعيشون حياة بائسة منبوذين من المجتمع. وأخيراً وافق على أن يروي لي قصته، وقال إنه لا يملك دليلاً على أن هؤلاء كانوا فعلاً متواطئين، لكنهم جميعاً كانوا أصدقاء مقربين في فترة ما قبل الحرب.

كان اتهام غاي ليديل ضرب من العبث. فكل من كان يعرفه أو يعرف عنه داخل أم آي ٥ كان مقتنعاً بأن ليديل نقي الولاء. ترك لنا مذكراته المعروفة بعنوان «زهرة الجدار» بعد إنهائه العمل في أم آي ٥. ومن يقرأ هذه المذكرات لا يمكن أن يصدق بأن ليديل

جاسوس. أما الاتهام الموجه إلى روبين زايهنر الذي عمل في أم آي ٦ في إيران، فقد التقى مع معلومات فولكوف عن العميل في إيران.

قمت بدراسة ملف زايهنر الشخصي. كان في أم آي ٦ مسؤولاً عن التجسس المضاد في إيران أثناء الحرب. كان هذا العمل خطيراً وصعباً، إذ أن خطوط السكة الحديد التي تعبر من هناك إلى الاتحاد السوفياتي لتنقل الدعم العسكري، معرضة لعمليات التخريب الألمانية. وكان زايهنر مؤهلاً بشكل جيد للمهنة، يتكلم اللهجات المحلية، ويقضي معظم وقته متخفياً، ويعمل في قسم مكافحة التخريب وهي مهنة قد تكلفه حياته. ازدادت مهمته خطراً عند نهاية الحرب. فقد كان الروس أنفسهم يحاولون السيطرة على هذه الخطوط، لذلك كان عليه أن يعمل خلف خطوط الروس مغامراً باستمرار بحياته لوجوده بين السكان المحليين الذين كان قسم منهم موالياً للروس والقسم الآخر موالياً للألمان. بدا للوهلة الأولى أن مجرد نجاة زايهنر من هذه الأخطار أعطى مصداقية لإدعاءات ريس.

بعد الحرب ترك زايهنر العمل في المخابرات وأصبح بروفسوراً يدرس اللغة الفارسية في جامعة أكسفورد. فاتصلت به وحددت موعداً لمقابلته هناك.

كان زايهنر قصير القامة ذا معرفة واسعة تجذب السامع إليه. سكب لي كأساً من الخمر وهو يتحدث بسهولة عن زملائه القدامى في العالم السري. احترت وأنا أستمع إليه، كيف سأطرح عليه القضية التي جئت من أجلها دون أن أزعجه، ولم أجد بداً من الطريقة المباشرة.

«أنا آسف يا روبين، فلقد طرأت مشكلة. فنحن نتابع التحقيق في إدعاءات قديمة. وأخشى أن هناك من يشير إليك...».

بعد كل الذي فعله هناك من يشير إليه؟ واحتج بعصبية على ذلك. وقال إنني مخطىء. فهل دققت في سجله؟ وما هو هذا الإدعاء؟

أخبرته عن معلومات فولكوف والجاسوس المقيم في إيران، فتكوم على نفسه وتغضن وجهه. عرفت لحظتها من رد فعله بأن ريس كان مخطئاً بشكل شنيع في ادعائه ضد زايهنر الذي استمر يحدثني بألم:

«لقد أمضيت ست سنوات في الصحراء. وبقيت سنتين إضافيتين في يالطا، في الوقت الذي عاد فيه الجميع إلى بيوتهم. ومع أنني لم أحصل على أية ميداليات أو تكريم، فقد اكتفيت بالثقة التي منحت لي».

كان زايهنر يتكلم بحزن ولكن بدون حقد. فقد جرح تماماً من فكرة اتهامه بعد كل

الذي عمله والمخاطر التي خاضها. وكان يمسح الدموع المتساقطة من عينيه. شعرت بأنني مثل الشرطي المكلف بإبلاغ أنباء سيئة إلى والديه في آخر الليل.

وعندما استعاد زايهنر سيطرته على نفسه، بدا من جديد ضابطاً محترفاً. فقد تفهم بالطبع لماذا كان علي أنّ أقابله. وبدأ يسترجع الذكريات عن أيام عمله في أم آي ٦ ليبحث عن نقاط قد تشير إلى الجاسوس الذي ذكره فولكوف. وبقينا نتحدث ساعات طويلة.

وقال:

«لا أستطيع أن أفكر برجل إنجليزي يمكن أن يكون هذا الجاسوس. كان عددنا قليلاً وأشهد أن جميعهم بريثون».

وقال إنه يعتقد بوجود عميل مرتبط مع الروس، وليس ضابطاً من أم آي ٦، فلطالما كانت أم آي ٦ وال ك ج ب يتقاسمان العملاء، فطرح اسماً بدا مناسباً جداً هو رودي هامبرغر. إذا قامت أم آي ٦ بتجنيده، ثم اعتقله الروس وبقي فترة بعيداً إلى أن عادت إلى تجنيده من جديد. تطابقت التواريخ بشكل كامل مع الوقت الذي كان فيه فولكوف مطلعاً على الملفات في موسكو. ويبدو أن هامبرغر تحول لصالح الروس داخل السجن ثم أطلق سراحه ليلتحق بالبريطانيين ويجمع ما يستطيع من معلومات. (كان رودي هامبرغر أول زوج لسونيا التي كانت فيما بعد جاسوسة غير شرعية في سويسرا وإنجلترا).

افترقت أنا وزايهنر كأصدقاء، ولكنني كنت أشعر بالمرارة على السهولة التي تم بها توجيه الاتهام له، وبالغضب على أولئك الذين تركوا مثل هذا الاتهام في الملفات لسنين طويلة دون البت فيه نهائياً. وفيما كنت في الطريق عائداً إلى لندن كنت أتساءل عن الثمن الذي يمكن أن يدفع مقابل حسم النهايات المفتوحة. وسألت نفسي هل كان عدلاً أن أحيي هذه المسائل من جديد؟ أو ربما كان من الأفضل تركها داخل الملفات.

في عيد الميلاد ذلك العام أرسل لي زايهنر بطاقة تهنئة بالعيد، ثم مات بعد سنين قليلة. فأرسلت اكليل ورد في محاولة لتصحيح الخطأ. ولكنني لم أستطع مطلقاً أن أنسى وجهه لحظة سألته إذا ما كان جاسوساً. ففي تلك اللحظة شعرت بأجواء أكسفورد الحضارية تتداعى من حوله، فيعود خلف الخطوط من جديد وحيداً يحيط به الأعداء من كل جانب.

أما آخر اسم في إفادة ريس كان السير ستيوارت هامشاير، محلل رموز ذكي في قسم أمن الاتصالات، وواحد من النخبة التي حلت رموز الشيفرة الألمانية، ووضعت أسس الأمن المزدوج. بعد انتهاء الحرب حصل على وظيفة في وزارة الخارجية، قبل أن يصبح فيلسوفاً في أكسفورد وبرينستون. لم يكن في إفادة ريس أي دليل على التهمة التي وجهها لهامشاير

عـام ١٩٥١ . إذ كانت تعتمـد فقط على حقيقـة قـوة العـلاقـة بينـه وبين بيـرغيس في أيـام الثلاثينات. كما كنت أعلم من أصدقائي المقربين بأن هامشاير يعتبر في أوساط معـاصريـه يسـارياً متشـدداً، رغم أنه لم يكن شيـوعياً، دهشت كثيـراً لأن أحـداً لم يكلف نفسـه عنـاء استجوابه عما يعرفه عن بيرغيس.

على أية حال كان هناك تعقيدات غير عادية في قضية هامشاير. إذ رغم أنه كان متقاعداً لفترة طويلة من العالم السري، فقد استدعاه سكرتير رئيس الوزراء بيرك تريند للقيام بتقييم شامل لمستقبل قيادة الاتصالات الحكومية. جاء هذا التقييم بعد ازدياد كلفة برنامج «سيغنت» المتصاعد منذ أن بدأت وكالة الأمن القومي بدخـول عصر الأقمـار الصناعيـة. فقد واجهت حكومة العمال الجديدة برئاسة هارولد ويلسـون فيضاً من الفـواتير السنوية تصـل إلى ١٠٠ مليون جنيه. ولذا قام الرئيس بتكليف تريند بإنجاز هذا التقييم لمعرفة مبررات هذه التكاليف الباهظة. استشار تريند ديك وايت الذي اقترح عليه اسم هامشاير نظراً لخدمتـه السابقـة في قسم أمن الاتصالات. والذي أثار دهشتي في قضية هـامشايـر ليس إدعاءات ريس بـل عدم تطبيق الاجراءات الأمنيـة على هامشـاير. فقـد اكتفى ديك وايت، الـذي كان يعـرفه لسنين طويلة، بكتابة رسالة إلى هوليس تحفظ في الملف، ولا شيء سوى ذلك.

غطى استجواب هامشاير طوال الفترة التي كان مطلعاً أثناءها على أسرار قيادة الاتصالات الحكومية، إضافة إلى الزيارة التي قام بها لمدة ستة أشهر لوكالة الأمن القومي. وأشار التقرير الذي أعده إلى عدة قضايا أساسية. الأولى هي مدى قدرة بريطانيا، في ضوء الكلفة المتصاعدة، على الحفاظ على حصتها من الاتفاقية الأمريكية ـ البريطانية التي كانت تضمن لنـا معلومـات متبادلة مهمة مع الأمريكيين. أما الثانية وكانـت ذات طبيعـة آنية، وهـي هل تختـار بريطـانيا الاشتراك مع الأمريكيين في إنتاج جيل جديد من أقمار التجسس الصناعية؟. وكانـت القضية الثالثة تتعلق بمدى دعم قيادة الاتصالات الحكومية لنشاطات قسم مكافحة الأسرار.

كانت الأجوبة باختصار نعم، لا ونعم. ففي القضية الأولى لن نغامر بـإنهاء الاتفـاقية الأمريكية ـ البريطانية، ولكننا، من ناحية أخرى، يمكن أن نحافظ عليها دون تمويل كل تطوير تقني بالجنيه مقابل الدولار. أما بالنسبة لمكافحة الأسرار، فقد صادق عليها هامشاير. والتغيير الوحيد الذي طلب إدخاله إلغاء «رافتر» المحمول جواً على أساس أنه مكلف للغاية. عارضت هذه الفكرة في ذلك الوقت، ثم عدلت عن معارضتي لها بسبب ما رأيته مباشرة من إمكانيـة للاقتصاد، كما كان سلاح الجو يتلكأ في الاستجابة لمطالبنا في هذا الخصوص.

أمضيت مـع هامشـاير فتـرة طويلة من الـزمن نناقش فيهـا العلاقـة بين أم آي ٥ وقيادة

الاتصالات الحكومية. وضغطت عليه لكي يوصي بإنشاء قسم جديد لأمن الاتصالات، بحيث يكون منظمة مستقلة عن قيادة الاتصالات الحكومية، وتحت قيادة أم آي ٥، وتكون مسؤولة فقط عن مراقبة اتصالات التجسس اللاسلكية المحلية واكتشافها. اعتقدت بأن هامشاير سيدعم هذه الفكرة بسبب خلفيته العملية، ولكنه رفض ليس من حيث المبدأ ولكن، كما اعتقد من الناحية العملية. وقال بأن قيادة الاتصالات الحكومية وأم آي ٦ ستقاتلان ضد هذه الفكرة بالأظافر والأسنان، الأمر الذي لا يرشحها للنجاح.

ظلت مسألة مقابلة هامشاير بخصوص ادعاءات ريس خارجة عن نطاق عملنا حتى الانتهاء من إعداد تقريره. ولكنني حصلت على تصريح عام ١٩٦٧ لمقابلته، فسافرت إلى جامعة برينستون في الولايات المتحدة حيث كان هامشاير يعمل أستاذاً محاضراً. كنت أعرف برينستون بشكل جيد فلطالما زرتها أيام كنت عالماً.

تحدثت إلى هامشاير لبعض الوقت عن ذكرياته عن غاي بيرغيس. وقال لي بأنه يشعر الآن وهو يستعيد الأحداث في ذهنه بأنه ربما كان هدفاً يسعى بيرغيس إلى تجنيده، رغم أن ذلك لم يحصل. وشرح لي كيف ذهب ذات مرة في عام ١٩٣٥ مع أنتوني بلانت إلى باريس حيث تناولا طعام العشاء ذات مساء مع جيمس كلوغمان والفنان بن نيكلسون. وبعد العشاء قاد كلوغمان جلسة مطولة جرى فيها اختبار آراء هامشاير السياسية.

بعد هذه الزيارة بعدة أشهر دعاه غاي بيرغيس للعشاء في شقته. وبعدما شرب الاثنان كميات كبيرة من الخمر، طرح عليه بيرغيس في تلك الساعات القليلة العمل من أجل السلام. وقال إن هذا العمل خطير ويستحق هذا الخطر. فقد كثر الحديث آنئذ عن الصراع الثقافي، والخطر النازي، والحاجة إلى اتخاذ مواقف أكثر قرباً من الخط الماركسي في الدراسات الأكاديمية. اعتقد هامشاير في ذلك الوقت بأن ما قاله بيرغيس مقدمة لدعوته إلى الانضمام إلى إحدى المجموعات اليسارية والتي كانت الموضة السائدة بين مثقفي أكسفورد وكامبريدج. لكن بيرغيس لم يعرض عليه عرضاً محدداً. وقال إنه عندما يستعيد الأحداث الآن يشعر بأن بيرغيس ربما كان يسعى لتجنيده.

بعد عودتي إلى بريطانيا دققت هذه الحكاية مع أنتوني بلانت. فقال بأنه يتذكر ذلك العشاء مع كلوغمان وأكد أن ذلك كان عملية استطلاع. ولكنه نفى علمه بما طرحه بيرغيس على هامشاير. كما أن بلانت لم يستطع أن يحدد متى كان هذا العشاء، في ١٩٣٥ أم في ١٩٣٧. وللتاريخ هنا أهمية كبيرة جداً. فإذا كان العام ١٩٣٥ كان وقتها بيرغيس وبلانت مجرد أعضاء في الحزب، أما عام ١٩٣٧ فكانا قد أصبحا جاسوسين وعملية التجنيد كانت ستتم لصالح الروس. أرسلت أحد موظفيّ لمقابلة بن نيكلسون. ولحسن الحظ انه كان

يحتفظ بمذكراته لكل سنوات عمله المهني، واستطاع أن يحدد لنا العام على أنه عام ١٩٣٧.

ذهبت إلى ديك وايت وأعطيته ملف هامشاير ليقرأه. وكان يحيرني في هامشاير عدم إبلاغه لأم آي ٥ عن علاقته مع بيرغيس بعد هرب الأخير عام ١٩٥١. وأكد ديك وايت بأن هامشاير لم يذكر علاقته هذه له أبداً. ذهبت لمقابلة هامشاير مرة أخرى عندما عاد إلى لندن. وكان محرجاً جداً وهو يقول لي بأن طريقة اتصال بيرغيس به كانت مشوشة ولم يكن متأكداً تماماً من أهميتها. أما بالنسبة لبلانت فإنه لم يخطر على باله مطلقاً أن يربط بين حضور بلانت للعشاء مع اتصال بيرغيس به، وطالما أنه كان على تلك العلاقة الشخصية مع أناس مثل ديك وايت وغاي ليديل أثناء فترة الحرب، افترض هامشاير نفسه بأنه جدير بالثقة. وعلى أية حال لم يكن هامشاير وحده راغباً في إغلاق القضية.

كان ديك وايت وروجر هوليس محرجين جداً من اكتشاف أن الرجل الذي اختاراه للقيام بأكبر عملية تقييم سرية لتبادل المعلومات المخابراتية بين بريطانيا وأمريكا كان هو نفسه هدفاً للتجنيد السوفياتي. وكانا يعرفان بأن الترتيبات لاتخاذ الاجراءات الأمنية بحق هامشاير ستبدو في عين الأمريكيين غير كافية، خاصة وأنهم كانوا يحاربون ما يعتبرونه عملاً صبيانياً في اتصالات ونهج المخابرات البريطانية. وهكذا قام ديك وايت وروجر هوليس بإغلاق ملف هامشاير إلى الأبد.

تنبع أهمية قضية تجنيد هامشاير الفاشلة من إلقائها الضوء على دور جيمس كلوغمان في عمليات التجنيد التي قامت بها المخابرات السوفياتية في الثلاثينات. كان واضحاً بأنه مكلف بترتيب ذلك العشاء في باريس للاستكشاف. إذ أخبرنا كيرنكروس كذلك بأن كلوغمان هو الذي جنده. وحتى ذلك الوقت كانت أم آي ٥ تفترض بأن كلوغمان مجرد عضو حزبي مكشوف وليس عميلاً سرياً يقوم بالتجنيد والاستكشاف. ومن الواضح أن كلوغمان كان سيفيدنا كثيراً في إضاءة بعض النقاط في الثلاثينات لو أقنعناه أو ضغطنا عليه ليقدم اعترافاً. وكنت أعرف بأن كلوغمان لن يقبل مطلقاً أي اتصال مباشر تقوم به أم آي ٥ معه. لذلك عقدنا صفقة مع كيرنكروس أن يأتي مؤقتاً لبريطانيا ليقابل كلوغمان ويقنعه بتقديم كل ما يعرفه لأم آي ٥، وإذا نجح كيرنكروس في ذلك سمحنا له بالإقامة الدائمة في البلاد.

قبل كرينكروس هذا العرض بحماس وزار كلوغمان في لندن. بدأ كلوغمان، المحارب القديم الصلب العود في الحرب الطبقية، بدأ بكتابة تاريخ الحزب الشيوعي البريطاني كشاهدة أخيرة يختم بها حياته. ضحك كلوغمان عندما عرض عليه كيرنكروس مقابلة أم آي ٥، وطرده عندما هدده الأخير بكشفه أن رفض. فشلت المحاولة فشلاً ذريعاً، واضطر كرينكروس إلى

العودة إلى المنفى. وبعد ذلك بوقت قصير مات كلوغمان وأخذ معه أسراره إلى القبر.

كان هناك حزبيون آخرون رفضوا التعاون معنا. فقد اتصلنا مع بوب ستيوارت وايديث تودور هارت، اللذان كانا مراسلين لشبكة الخمسة من عام ١٩٣٩ ولغاية عام ١٩٤٠. ورفض أي منهما أن يتكلم. كانا جنديين منضبطين، تمرسا في العمل وأصبح من الصعب تحطيمهما. ونادراً ما يدرك العامة ضعف موقف أم آي ٥ في مثل هذا النوع من الاستجواب. فنحن لا نستطيع أن نجبر الناس على أن يحدثونا عن أسرارهم. ويعتمد عملنا على التعاون، إلا في حالة الاعتقال. فمثلاً، أخبرنا بلانت بأنه يعرف جاسوسين آخرين - اكتشف أحدهما عندما قام بمحاولة تجنيد ليو لونغ الذي كان بلانت مسؤولاً عنه. وتعقد الوضع أكثر بسبب وجود علاقة بين هذا الرجل وبلانت، رغم أن أياً منهما لم يخبر الآخر بما يخططه تجاه لونغ. وكان هذان الجاسوسان، اللذان لا يزالان يعيشان في بريطانيا، يعملان في أحد المشاريع العسكرية أثناء الحرب، ثم تركا العمل العسكري ليلتحقا بالأعمال الأكاديمية، فبذلنا جهوداً مضنية طالبين منهما التعاون ولكنهما رفضا مقابلتنا والتحدث معنا عن تورطهما في العمل مع المخابرات السوفياتية. وكل ما قدمه لنا أحدهم أنه أخبرنا بوجود علاقة له مع أحد ضباط الشرطة فطلبنا منه قطعها.

الفصل السابع عشر

اكتشفت شيئاً جديداً بعد سنة من اللقاءات المستمرة مع بلانت، إذ استطعت أن أجعله يستجمع أحاديثه مع بيرغيس في حالات خاصة. فقال بأن هناك كاتباً في صحيفة التايمز تم الاتصال به. لاحقت القضية حتى توصلت إلى الرجل الذي أكد لي بأن بيرغيس اتصل به في محاولة لتجنيده، إلا أنه رفض ذلك خوفاً من النتائج المترتبة على هذه المسألة إذا ما قبض عليه. كذلك حدد بلانت هوية توم ويلي، الموظف في وزارة الحربية، وكان ميتاً منذ زمن بعيد. وقال بلانت ان ويلي كان يطلع بيرغيس على كل ما يقع تحت يده. ورغم أن بلانت كان يتوسع في ذكر بعض الهويات الغامضة، بضغط مني، إلا أن كل هذه الأسماء كانت إما لأناس ماتوا، أو لآخرين تقاعدوا منذ فترة طويلة، أو لأشخاص لا يشكلون أي خطر لعدم المامهم بمعلومات هامة.

كنت أعرف أن بلانت يعرف، بلا شك، أولئك الذين لم يتقاعدوا بعد، وما زالوا على اطلاع على الأسرار. كان يحمي هؤلاء الناس. ولكن كيف يمكن أن أحدد هوياتهم؟ لذا قررت أن أحضر قوائم بأسماء الذين وردت أسماؤهم في المقابلات على أنهم ذوي اتجاهات يسارية قبل الحرب، أو أولئك الذين شعر أصحاب هذه المقابلات بأنهم كانوا هدفاً محتملاً للتجنيد من قبل بيرغيس.

برز من بين هذه الأسماء، بشكل واضح اسم أليستر واتسون (Alister Watson)، في المقابلات مع برلين (Berlin) والكاتب آرثر مارشال وتيس روتشيلد. اجمعوا بأن أليستر كان ماركسياً متحمساً في جامعة كامبريدج في الثلاثينات، وعضواً في جمعية الرسل، وصديقاً مقرباً من بلانت وبيرغيس. كما أكدوا بأن بيرغيس كان معجباً به أثناء فترة الثلاثينات ـ وهذا مؤشر واضح على إمكانية الاتصال به بغرض التجنيد.

بدأت في التحقيق عن خلفية أليستر واتسون. كنت أعرفه جيداً أثناء الحرب. كان يعمل عالماً في مختبر أبحاث البحرية، كما عاش مع أخي في بريسول. لم أهتم بواتسون في ذلك الوقت، كان طويلاً ونحيفاً وذا وجه شبيه بوجه العنزة ومشية غريبة. ويعتبر نفسه أعظم الفيزيائيين النظريين في عصره، إلا أنّ معظم زملائه يعتقدون بأنه ارتكب أخطاء نظرية خطيرة. أما أنا فاعتقد بأنه محتال بعض الشيء.

كان واتسون فاشلاً. وفي كامبريدج كان يعتبر طالباً لامعاً سيصل إلى أعلى المراتب الأكاديمية، إلى أن وُجِدَتْ فرضياته قائمة على خطأ أساسي. ففشل في الحصول على منحة جامعية، وانتقل إلى وظيفة في البحرية. بعد عمله في مؤسسة الإشارات والرادار البحرية، أصبح رئيساً لقسم أبحاث كشف الغواصات في مختبر أبحاث البحرية. كانت هذه الوظيفة واحدة من أهم الوظائف في كافة مؤسسات الناتو الدفاعية، لكنها كانت وظيفة مغمورة خاصة لشخص عقدت عليه الكثير من الآمال في شبابه.

في كامبريدج كان واتسون ماركسيا متزمتاً، ووصفه العديد من أولئك الذين قابلناهم بأنه كان من كبار منظري الماركسية بين مجموعة الرسل. وللماركسية منطق جميل، فهي تعطي جواباً شاملاً لكل سؤال، فأسره هذا المنطق. انجذب نحو «رأس المال» كما ينجذب البعض نحو «الإنجيل»، وأخذ ينشر عقيدته، مثل الداعية الفاشل، بين أصدقائه خاصة عندما بدأت اماله بمستقبل أكاديمي بالتلاشي. فيما بعد، اعترف بلانت بأن واتسون هو الذي أقنعه بالماركسية.

وعندما درست ملفه لفت انتباهي تركه لجامعة كامبريدج ـ جاء ذلك في قمة رفض اليسار لمؤسسة الدولة. ووجدت أن انتقال فيلبي وبيرغيس إلى اليمين جاء في نفس الفترة. وبالإضافة لهذه النقطة كان هناك نقطة أخرى ذات أهمية. فقد كتب فيكتور روتشيلد رسالة إلى ديك وايت عام ١٩٥١ يقترح فيها التحقيق مع واتسون بسبب نزعاته الشيوعية في الثلاثينات. لكن هذا الاقتراح بقي حبراً على ورق. ومنذ ذلك الوقت تم التحقيق مع واتسون ثلاث مرات، دون أن يذكر خلفيته السياسية.

لذلك قررت أن أذكر اسم واتسون أمام بلانت في لقائي القادم به. وكنت أعرف أن طرح السؤال عليه مباشرة مضيعة للوقت. لذلك أعددت قائمة بأسماء المعروفين من الرسل بمن فيهم واتسون، وطلبت منه ذكر الأسماء التي يعرفها أو تلك التي تهمني. قرأ القائمة لكنه لم يذكر اسم واتسون.

وسألته:

«وماذا عن اليستر واتسون؟».

«لا، ليس له علاقة بالموضوع».

جاء الوقت المناسب لمواجهة بلانت، اتهمته بالكذب مرة أخرى، وبأنه يعرف، كما أعرف أنا، بأن واتسون كان صديقاً مقرباً وشيوعياً في كامبريدج. احمرت وجنتا بلانت مرّة أخرى، وقال، أجل هذا صحيح. واعترف بانهما كانا صديقين، وبأنهما لا يزالان يلتقيان من حين إلى آخر، لكن بلانت أكد بأنه لم يجند واتسون كما لم يجنده بيرغيس حسب معلوماته.

قال بلانت أن واتسون كان إنساناً تراجيدياً سارت حياته من سيء إلى أسوأ وانه كان يعد بالكثير ولم يحقق في حياته إلا القليل، في الوقت الذي حقق فيه أصدقاءه، الذين هم دونه، المراتب العليا كبلانت مثلاً أو حتى الخلود كما حدث بالنسبة لتيورنغ.

«لقد تعلمت الماركسية من أليستر».

وسألته:

«وأعتقد أنك تعرف أين يعمل؟».

«في البحرية، أليس كذلك؟».

«لكنك قلت بأنك لا تعرف المزيد من الأسماء يا أنتوني. وتدعي بأنك تقول لي الحقيقة..».

أخذ بلانت يوضب نار الموقدة بنشاط. وقال بعد لحظة:

«لا أستطيع أن أكون ويتش تشامبر».

كان يشير بذلك إلى شيوعي أمريكي شهير استنكر عقيدته في الخمسينات وكشف أسماء زملائه السابقين، بمن فيهم الغر هيس، في جلسات عامة أمام لجان الكونغرس.

واستمر بلانت في حديثه.

«هذه مكارثية يا بيتر، ذكر الأسماء، والإبلاغ والتصيد..».

وقاطعته:

«ولكنك حصلت على الحصانة مقابل الاعتراف الكامل. إنه اختيارك يا أنتوني، لا داعي لإخفاء أي شيء. وإذا لم تشر لنا...».

صمت بلانت، فقد مرت سنوات كثيرة منذ عام ١٩٣٧، ولكن العبء ما زال ثقيلاً.

ثم قال:

«أعتقد أنك ستقلب الأمور عليه الآن».

كتبت تقريراً مطولاً عن أليستر واتسون في مطلع عام ١٩٦٥، مع توصية بفتح تحقيق فوري معه. قدمت التقرير لروجر وهوليس وفيرنيفال جونز عن طريق رئيس الشعبة د، أليك ماك دونالد، الذي حل محل كمنغ بعد استقالة الأخير قبل الوصول إلى منصب نائب المدير العام. كان ماك دونالد شخصاً حساساً عمل في الشرطة الهندية، وله ولع بمتع الحياة، ويكره العمل الإداري الكثيف. كانت صحبته أمراً جيداً أما العمل معه فمصيبة.

لم يصلني أي جواب عن التقرير لمدة خمسة أشهر، إلى أن حان موعد اجتماع شعبة (د ٣) السنوي مع هوليس وفيرنيفال جونز لمراجعة القضايا فأثرت موضوع التحقيق. وسألتهما لماذا لم يحددا للآن موعداً للتحقيق. وردّا علي في البداية بأن ذلك يعود إلى مسألة أولويات العمل ومحدودية المصادر المالية. وقلت لهما بأن عمل الشعبة د ٣ هو اكتشاف القضايا، التي يتم تحويلها بعدئذ إلى الشعبة د ١ (التحقيقات). وهنا لدينا قضية مهمة تتعلق بمشبوه له الآن اطلاع على أسرار الناتو. وأكدت كذلك بأنه إذ كنا سنعمل بهذه الطريقة فلا داعي للشعبة د ٣ ولنغلقها إذن.

كان فيرنيفال جونز عقلانياً، أما هوليس فأصبح في موقف دفاعي. وقال لقد حصل الخطأ بمستوى الشعبة د، في فترة تسليم منصب الرئيس من كمنغ إلى ماك دونالد. ولذا لم تُعط القضية الأولوية المناسبة لها. وأصدر هوليس تعليماته بالتحقيق في القضية.

تسلم التحقيق في القضية باتريك ستيوارت، الذي كان حينئذ في الشعبة د ١. كان صديقاً عظيماً لي بالإضافة إلى كونه ضابطاً ذكياً وشجاعاً، وغير معقد وذا ذهن متفتح. أصيب في الحرب بشلل قوي، ومع ذلك استمر في العمل في أم آي ٥ وهو على كرسي المقعدين، إلى أن استقال في وقت مبكر بسبب تدهور صحته. وتم وضع واتسون تحت المراقبة الكاملة. وسرعان ما علمنا بأن زوجته وابنته أعضاء في الحزب الشيوعي. كما دلت محادثاته على أنه هو الآخر شيوعي، رغم أنه أنكر ذلك في التحقيقات الثلاثة السابقة معه.

كان التحقيق محدوداً، لأن واتسون كان يستعد لزيارة الولايات المتحدة للاطلاع على أحدث التقنيات الأمريكية في مجال كشف الغواصات. وأصرت البحرية على أن يتم الانتهاء من التحقيق وتوضيح القضية قبل سفره، لذلك قررنا استجوابه. وهكذا جرى استجوابه لمدة ستة أسابيع في وزارة الدفاع من قبل كبير محققي أم آي ٥ سيسيل شيب، الذي أصبح الآن نائب المدير العام.

بدأ واتسون بالاحتجاج وكأنه موظف أُهينت كرامته. وسألنا بأي حق نستجوبه. ولكن سرعان ما انحسر احتجاجه عندما بدأ شيب يطرح عليه أسئلته:

«هل تعرف غاي بيرغيس؟».

«طبعاً».

«هل كنت تزوره في شقته؟».

«في بعض المناسبات».

«من كنت تقابل هناك؟».

«غاي، أنتوني..».

««وغيرهما..؟».

«أجل، رجل أجنبي... لا أذكر اسمه...».

«هل تستطيع أن تصفه؟».

لم يستطع في البداية. ثم تذكر. وقال إنه رجل من وسط أوروبا. ذو شعر أسود ناعم. وشعرت بأنه يشبه «أوتو» الذي أدار شبكة الخمسة في نهاية الثلاثينات. وسأله شيب:

«هل يعني لك اسم «أوتو» شيئاً؟».

«نعم ـ كان هذا اسم الرجل. أجل «أوتو».

انتقل شيب إلى أسئلة أخرى. ثم عاد يسأل عن أوتو. سأله إذا كان قد قابله ثانية فلم يتذكر واتسون في البداية. ثم قال إنه يعتقد بأنه التقى به، ولكنه ادعى بأنه لا يستطيع أن يتذكر التفاصيل. ثم تذكر بأنهما كانا يلتقيان في الحدائق العامة وتحت أعمدة النور في زوايا الشوارع، وفي محطات المترو.

«وهل أعطاك شيئاً؟».

«لا، أنا متأكد من ذلك؟».

«هل أعطيته أنت شيئاً؟».

«لا ـ لا أعتقد ذلك..».

«أخبرني يا سيد واتسون لماذا تقابله بهذه الطريقة؟ لماذا لا تقابله في بيتك أو في مطعم؟».

لا جواب.

وصمت لفترة طويلة. ثم قال بتلكؤ:

«إنني مهتم بهؤلاء الناس، لقد أردت أن أعرف المزيد عن روسيا..».

في اليوم التالي عرض شيب على واتسون حوالي ثلاثين صورة نثرت على الطاولة

أمامه. كانت هذه الصور تضم صورا شخصية لبعض أهم ضباط ال ك ج ب منذ ١٩٤٥، الذين كانوا في بريطانيا. وسأله:

«هل تعرف أحداً من هؤلاء؟».

حدق واتسون في الصور، وأشار بإصبعه على واحدة أو اثنتين بتردد. كان يتمتم وهو يجمع قسماً منها في يده. ثم يعيد نثرها على الطاولة. كان الميكروفون المخفي يسجل كل كلمة. وكنا متأكدين، من خلال أجوبته عن «أوتو»، بأنه كان يخشى ويشك في أن يكون لدينا دليل ثابت ضده، مثل وجود صورة لإحدى مقابلاته مع ضابط ال ك ج ب، أو اعتراف يؤكد الاشتباه به. كان يعود في الليل إلى البيت حيث كنا نستطيع سماع كل كلمة يتفوه بها عن طريق أجهزة التنصت التي زرعناها في التلفون.

كان يهمس لنفسه:

«لا بد أن لديهم شيئاً ولكنني لا أعرف ما هو بالضبط».

وبعد حوالي ثلاث ساعات أشار واتسون إلى ثلاث صور كانت الأولى ليوري مودين المسؤول عن فيلبي؛ والثانية لسيرغي كوندارنشيف المسؤول عن جورج بليك؛ أما الثالثة فلنيكولاي كاربيكوف المسؤول عن فاسال. وأقر واتسون بأنه كان يقابل الثلاثة بشكل منتظم. وفي بعض الأحيان كان يقابلهم قرب مختبر أبحاث البحرية أثناء فترة الغداء. ولكنه أنكر تسليمهم أية أسرار أو معلومات. وجاء في معلومات غوليتسين بأن كاربيكوف كان مسؤولاً عن عميلين في البحرية، أحدهما عالم بحري. أما كوندارتشيف فقد كان أيضاً مسؤولاً عن عميلين، الأول بليك، والثاني جاسوس في البحرية.

راح شيب يضغط عليه محاولاً تدميره. فهل كان يريد أن يقول لنا بأنه كان يلتقي بأربعة ضباط ك ج ب كبار، بالصدفة، وبدون أسباب؟ وهل يعتقد بأننا أغبياء؟ أم سُذج؟. كما كانت كل هذه اللقاءات سرية، أليس كذلك؟ لقد كان جاسوساً. فكل المعلومات عنه تؤكد ذلك ـ صداقته مع بيرغيس، تعلقه بالماركسية في الثلاثينات، تراجعه عن الشيوعية ودخوله في العمل السري، مقابلة الروس. لا بد من الاعتراف.

ظل شيب يلاحقه بأسئلته. فيقول له لنبدأ الأسئلة من جديد. ويعود واتسون إلى رواية قصته التي لا يمكن أن تصدق. لكن المحقق الجيد يتميز بقوة الذاكرة، وشيب يتمتع بذاكرة فيل. كان يتصدى لأي تغيير في إفادة واتسون وأي حذف ليقذفه بوجهه من جديد طوال ساعات، وحتى أيام من التحقيق. لكن واتسون ظل متمسكاً بإفادته بعناد، ولم يتخلَّ عن أي

شيء فيها. كانت شفتاه ترتجفان ووجهه أحمر متعرقاً، مثل ملاكم أتخمته ضربات الخصم، ولكنه لم يستسلم.

ذبل واتسون بعد ستة أسابيع من التحقيق اليومي. وأخذ يجيء إلينا وقد تناول الحبوب المهدئة، وأصبح على درجة من الإنهاك لم يستطع معها فهم أسئلتنا. لما يأس شيب منه بدأ يطرح عليه الحصانة. وكنا في ذلك الوقت نحقق مع واتسون بدون تصريح من المدعي العام، لذا اضطر شيب لأن يطرح الحصانة على شكل فرضية وليس وعداً قاطعاً:

«هل تغير إفادتك إذا منحناك الحصانة؟».

ذهب واتسون بعيداً، ولم يفهم العرض الذي قدمه شيب له. وتوقف التحقيق.

لم يخف على أي شخص تابع التحقيق أو قرأ نصوصه أن واتسون جاسوس منذ العام ١٩٣٨ تقريباً. وبوصوله إلى المعلومات في أبحاث مكافحة الغواصات، رأيت فيه أخطر جاسوس أنجبته كامبريدج. وقد ورد في إفادته حادثة بسيطة حسمت الموقف من القضية. إذ ذكر واتسون قصة طويلة عن كوندارتشيف، الذي كان يلتقي به دون أن يحب شخصيته. كان برجوازياً في رأي واتسون. يلبس أغلى الثياب ويتنزه مع كلبه كل يوم. ولذلك تشاجرا وتوقفت لقاءاتهما.

تطابقت هذه المشاجرة مع ما ورد في معلومات غوليتسين في أوراقه الأولى. فقد قال إن كوندارتشيف أُرسل إلى بريطانيا لإدارة اثنين من العملاء المهمين، أحدهما في البحرية والآخر في أم آي ٦. كان الجاسوس في أم آي ٦ هو بليك بلا شك، افترضنا كلنا أن الثاني هو بليك أيضاً، لأنه عمل في البحرية قبل أن ينضم إلى أم آي ٦. وذكر غوليتسين نقطة أخرى صغيرة في معلوماته، وهي أن كوندارتشيف فَقَدَ صلته بعميله في البحرية، فقد عارض الجاسوس عاداته البرجوازية ورفض الاستمرار في مقابلته. وذكر غوليتسين كذلك أنه نتيجة لذلك تم استبدال كوندارتشيف بضابط ك ج ب مقيم سابق في لندن أجبر على العودة إليها لمواصلة اللقاء مع عميل البحرية. إذن فالقصة مطابقة تماماً لما ذكره واتسون. أصبح واضحاً الآن أن واتسون هو عميل البحرية.

وبناء على إصرار أم آي ٥ جرى نقل واتسون فوراً من عمله ذي الطبيعة السرية، إلى معهد دراسة المحيطات، حيث ظل يعمل هناك حتى تقاعده. ولأنه لم يعترف، اعتمدنا كمبررات شرعية لإجراء النقل، على عدم إعلانه عن خلفيته الشيوعية، وارتباطات ابنته وزوجته بالحزب. ولم يحتج على ذلك.

بعد انتهاء التحقيق مع واتسون قررت أن أقوم بمحاولة أخيرة لتدمير موقفه. فرتبت له اجتماعاً مع بلانت في منطقة محايدة في فندق براون بلندن. كان يحدوني من وراء هذا الاجتماع هدفين: الأول هو أنني لم أكن متأكداً من أن واتسون فهم معنى عرض الحصانة الذي عرضه عليه شيب، وكنت آمل أن يشرحه له بلانت. والثاني هو أنني كنت قدر الإمكان، أريد أن أتوصل إلى حل فيما يتعلق بكون واتسون أحد أعضاء شبكة الخمسة أم لا. فقد ذكر غوليتسين بأن أعضاء شبكة الخمسة كانوا جميعاً يعرفون بعضهم البعض ويعرفون كذلك بأنهم جميعاً كانوا جواسيس. أما بلانت فزعم بأن شبكتهم كانت مؤلفة من أربعة أشخاص فقط: بلانت، بيرغيس، فيلبي وماكلين. وكان حولهم مجموعة من المجندين مثل لونغ وكيرنكروس اللذان كانا يعملان منفصلين عن أعضاء الشبكة المركزية. بدا لي بأن واتسون مرشح قوي لأن يكون الخامس.

تردد بلانت في البداية للمشاركة في هذه الخطة ضد واتسون. وقال:

«لقد عانى أليستر كثيراً».

كنت رتبت لقاءات متعددة بين بلانت ومتآمرين سابقين في مناسبات عديدة. فمثلاً تم ترتيب اللقاء مع لونغ وستريت بسهولة وبساطة، حتى إن بلانت قال لستريت إن أفضل عمل قام به هو كشف ستريت. لكن عندما عرضت على بلانت الاتصال مع بارون تزو بوتلتز، الذي كان جاسوساً لكلوب أوستينوف أثناء الحرب، وعاد إلى ألمانيا الشرقية، ثار وغضب. كان بلانت وبوتلتز متحابين، في فترة ما بعد الحرب عندما خاطر كلوب أوستينوف بإحضار بوتلتز من هولندا إلى لندن. وفي العام ١٩٤٥ اصطحب بلانت بوتلتز إلى ألمانيا الشرقية، واستمرت علاقتهما منذ ذلك الوقت حتى الآن. وكان بوتلتز يعمل أيضاً لصالح الروس قبل وبعد الحرب ليضمن عودته إلى الشرق. وكنت أود من بلانت أن يحاول استقطابه لمصلحتنا. فطلبت من بلانت أن يكتب له رسالة يسأله فيها فيما إذا كان يرغب بمقابلتي في هلسينكي أو برلين. فقال بلانت معترضاً:

«هذا ليس عدلاً يا بيتر، بل عمل قذر، لقد قدم بوتلتز ما يكفي لبريطانيا».

لكن بلانت كان يعرف بأنه لا يستطيع أن يرفض. فكتب الرسالة. ولكن بوتلتز رفض اقتراحي الأمر الذي طمأن بلانت.

كان واتسون مثل بوتلتز. كان هناك شيء ما في علاقة بلانت وواتسون يقلق بلانت بطريقة لم تكن موجودة في علاقته مع لونغ وستريت والآخرين. كانت تقبع في داخله رغبة

عميقة لحمايتهم، وإنكار أية معرفة بنشاطاتهم، بالإضافة إلى رغبته في إخفاء اعترافه. كان يخشى أن يبدو في عيونهم مخبراً.

أخذت بلانت ذات مساء إلى فندق براون، حيث حجز باتريك ستيوارت غرفة لنا جميعاً. ووجدناه مع واتسون ينتظران مجيئنا. كان بلانت مضطرباً. فقال عند وصولنا إلى الفندق:

«هل يوجد لديك ما نشربه؟».

تبادل بلانت التحيات مع واتسون بعصبية، خشية أن يبدي أي ود بينهما أمامي أنا وباتريك. كان واتسون شاحباً مثل رجل خرج للتو من المستشفى في فترة نقاهة. ثم استطعنا أن نجعله يروي لنا مرة أخرى قصة تعامله مع الروس. كانت قصة مرضيّة بائسة في غرفة التحقيق، ولكنها بدت هنا أمام بلانت أكثر سخافة.

كانا يتحدثان معظم الوقت عن أيام جامعة كامبريدج، وعن أوتو، وتحولهما إلى اليسار في الثلاثينات. وقد أثار استغرابي أن تنتهي مثاليات ونشاطات الثلاثينات في جناح صغير في فندق بصحبة زجاجة من الويسكي وأخرى من الجن. كانوا أيامها يريدون تغيير العالم، ولكنهم لم يغيروا سوى أنفسهم.

وقال بلانت:

«لقد انتهيت يا أليستر. اعترفت. ومازلت هنا. ولا داعي لأن تقلق أنت من هذه المسألة».

لكن واتسون بالكاد كان يصغي لنصائح بلانت. كانا يتحدثان من منطلقات مختلفة. فقد كان واتسون يحسد بلانت منذ ثلاثين عاماً على وضعه. بدا ذلك واضحاً في حمأة السكر وهو يهاجم صديقه. كانت الخيانة بالنسبة له قضية ثانوية. وتركز حديثه على أن حياته كانت فشلاً ذريعاً، وأنها سارت في الطريق الخطأ. وقال لبلانت:

«لقد نجحت أنت في حياتك، فيما كنت أنا أمل كامبريدج العظيم. كانت كامبريدج حياتي كلها. ولكنني اضطررت للدخول في العمل السري، وقد دمرت حياتي الآن...».

ابتعد بلانت عن الطاولة، محرجاً ومضطرباً. وذهب إلى حيث يوجد الخمر. كان أنهى زجاجة كاملة من الجن، ولكنه كان يشعر بحاجته إلى المزيد. ولحقت به سائلاً:

«حسناً..؟».

وقف بلانت، وكتفاه تهتزان من البكاء. وقال:

«أعتقد أنك محق. لا بد أن يكون واحد منا، ولكنني لم أجنده أبداً، ويبرغيس لم يخبرني مطلقاً بأنه جنده».

- وانتهى الجن من الغرفة. فسكب بلانت لنفسه شراباً حلواً خلطه بماء معدني، ثم جرعه جرعة واحدة. وقال:

«أحياناً أعتقد بأنه كان من الأفضل الدخول إلى السجن!».

كان فيكتور وتيس روتشيلد متعاونين دائماً مع الشعبة د ٣ في تحقيقاتها عن فترة الثلاثينات. وكانا يعرفان شخصيات هذه الفترة وخبايا العلاقات التي سادت آنذاك. ولطالما ساعداني في إقناع المرتبطين بشبكة الخمسة بمقابلتي. كان فيكتور غالباً ما يقوم بأعمال حيوية كمقدمة لعملي. فمثلاً، لشد ما كان يقلقني، بعد قضية واتسون، أن يكون التجنيد السوفياتي امتد إلى غيره من العلماء. كان كل من بلانت وفيلبي ويبرغيس وماكلين طلبة كلاسيكيين، ولكنني كنت أتساءل فيما إذا نجح السوفيات في تشكيل شبكات لهم في أماكن أكثر حساسية مثل مختبرات كافيندش التابعة لجامعة كامبريدج.

هكذا تجددت شكوكي بخصوص العالم السوفياتي بيتر كابيتزا، أبو القنبلة الذرية الروسية. جاء إلى كامبريدج في العشرينات، حيث مولته الجمعية الملكية البريطانية لإنشاء مختبر حرارة قانون موند الملحق بمختبر كافيندش. وظل كابيتزا على علاقة وثيقة بالحكومة السوفياتية، كما لوحظ بأنه كان يستقبل في غرفته هناك عدداً من ضباط المخابرات الروسية. أصرت الحكومة السوفياتية في الثلاثينات على وجوب عودة كابيتزا إلى روسيا، بسبب ازدياد التوتر الدولي، وسمح له بالعودة ومعه جميع الأدوات التي كان يعمل بواسطتها. ولكنه استمر بالاحتفاظ بعلاقته بالعلماء البريطانيين قبل وبعد الحرب، وكان يستقبلهم في بيته في إحدى ضواحي موسكو. كانت تسري إشاعات كثيرة داخل أم آي ٥ بأن كابيتزا كان موهوباً في اختيار المجندين في كافيندش. ولكن لم يقم أي شخص بمتابعة هذه المعلومات والتحقق من صحتها. فلم يستطع أحدٌ أن يعرف أولئك الذين اتصل بهم كابيتزا ومتى وأين وفيما إذا نجح في ذلك أم لا. كانت هذه نهاية أخرى مفتوحة في الملفات لتثير الشك.

كان أفضل شخص يعرف كابيتزا جيداً، وصداقاته واتصالاته، اللورد أدريان، الذي أصبح في الستينات مستشاراً لجامعة كامبريدج ورئيساً للجمعية الملكية. وقام فيكتور روتشيلد بترتيب عشاء أستطيع من خلاله الالتقاء مع أدريان لأجذبه بلطف نحو إعطاء ما يعرفه من معلومات عن العالم الروسي.

كان أدريان متعاوناً جداً، وتفهم جيداً شكوكنا بخصوص كابيتزا، بالرغم من إعجابه

الشديد بإنجازاته العلمية. وشرع يتذكر أسماء أولئك الذين كانوا مقربين جداً من كابيتزا. كان قسم من هذه الأسماء لا يهمني، وقسم آخر لا بد من مراجعة ملفاته في السجل، وقسم ثالث لا بد من ملاحقته والتحقيق معه لحسم براءته واسم أو اسمان لابعادهما عن مواقع الاطلاع على الأسرار، لأصل بالنتيجة إلى عدم تسرب أي شخص من خلال الشبكة.

كانت أهمية مساعدة فيكتور أنه أقنع فلورا سولومون بمقابلة أم آي ٥ مرة أخرى. كنت أعلم من مقابلتنا الأولى معها بأنها كانت تعرف أكثر بكثير مما ذكرت. كانت منخرطة تماماً في أحداث الثلاثينات إما عن طريق الأفكار، أو التواطؤ، أو نقل الرسائل للشبكة الفتية الغنية آنذاك من خلال أصدقائها، ليتسي فيلبي، وايديث تودور هارت. كانت رفضت مقابلة أم آي ٥ مرة أخرى بعد مقابلتها آرثر. وهي تتمتع بخوف روسي نموذجي تجاه التآمر والخيانة. ومقتنعه بأننا قد نورطها ونضعها في السجن، أو يمكن أن يغتالها الروس كما حصل برأيها لتوماس هاريس. طلبت من فيكتور الاتصال بها باسمي، وأخيراً وافقت في منتصف ١٩٦٥ على مقابلتي.

قالت بصوتٍ هادر:

«هل يعني لك اسم دينيس بروكتور شيئاً؟».

وأخذت تتمدم: نعم، هذا الاسم يعني لها شيئاً.

كان دينيس بروكتور في ذلك الوقت السكرتير الدائم لوزارة النفط والطاقة. عمل في الحكومة في الثلاثينات سكرتيراً خاصاً لستانلي بولدوين. وخلال استجواباتي في أكسفورد وكامبريدج لم يذكر بروكتور سوى عدة أشخاص قالوا إنه كان قبل تخرجه يسارياً بارزاً، وليس شيوعياً. كانت فيه كل صفات مجندي الكومنترن - إذ كان صديقاً لبيرغيس وبلانت وفيلبي وواتسون وعدد آخر من الرسل.

كان هناك شيء آخر أثار حيرتي في شخصية بروكتور. فبعد فترة قصيرة من هرب بيرغيس وماكلين في العام ١٩٥١ ترك فجأة عمله في الحكومة بدون سبب واضح ليلتحق بعمل مع شركة شحن بحرية في كوبنهاغن. وفي العام ١٩٥٣ ظهر فجأة، كما اختفى، في لندن ليعود لمتابعة عمله الحكومي.

سألتُ فلورا لماذا سألتني عن اسم بروكتور. فقالت:

«كان كيم يعرض علي مجنديه، كان يثق برأيي فيهم، ورغم أنني لم أنضم إليه في عمله إلا أنني كنت أقوّم له مجنديه».

«وماذا كان رأيك بدينيس بروكتور؟».

«أحضره كيم ذات مرة للعشاء، لم أحبه، وقلت لكيم بأنه ليس جيداً. كان ضعيفاً، فكيف يستطيع تحمل الضغط النفسي؟».

بلانت كان يتعمد تجنب ذكر اسم بروكتور أمامي. وذهبت إلى هوليس وطلبت منه تصريحاً باستجواب بروكتور، لكنه رفض. وقال إنني سأسبب الكثير من المشاكل في الوايت هول التي يكفيها ما بها من مشاكل. وطلب مني أن أنتظر أشهراً قليلة حتى يتقاعد.

تقاعد بروكتور، وذهب إلى فرنسا ليعيش هناك مع زوجته الثانية وأطفاله في بيت ريفي فخم جداً في أفينون. وفي العام ١٩٦٦ ذهبت إلى فرنسا لزيارته.

كان دينيس بروكتور رجلاً مهيبَ الشكل ذا أنف معقوف وتبدو عليه مسحة وقار رجال الدين. حياني بلطف الطبقة الإنجليزية العليا. وأوضحت له بأن أم آي ٥ تبحث في مفارقات الثلاثينات. وقلت له:

«إننا نحاول تقصي النهايات المفتوحة!».

تحدث بروكتور عن تلك الفترة باقتضاب بطريقة المسؤولين الحكوميين. ونادراً ما كان يذكر اسمه في بداية الحديث. كان نموذجاً للموظف الحكومي المحايد الذي يشاهد من بعيد حياة ومصائر الآخرين. لكنني شعرت بأن وراء تحفظه، حماساً دفيناً تجاه عالم جميل. فسألته:

«كيف كان شعورك تجاه هذه القضايا؟».

«أنت تقصد ماذا كانت مواقفي السياسية آنذاك؟ حسناً، أنت تعرف بأنني كنت يسارياً طوال حياتي».

«حقاً؟».

«أجل هذا صحيح، لكنني لم أكن شيوعياً. فدخولي الحزب الشيوعي لا يسمح لي بالتقدم في وظيفتي الحكومية، بالإضافة إلى أنني لم أكن شجاعاً مثل بيرغيس الذي أعلن عضويته في الحزب».

سألته فيما إذا اتصل به بيرغيس ليعمل من أجل السلام أو الكومنترن أو أي شيء من هذا القبيل.

فهز رأسه بالنفي. وقال:

«كلا. لا أعتقد ذلك. لا، لا أذكر شيئاً من هذا القبيل».

«ولكن بيرغيس كان يعرف اتجاهاتك السياسية».

«هذا صحيح، كنا أصدقاء، أنا وهو وانتوني والرسل. . .».

«ألا تعتقد أنه من غير المعقول أن لا يعرض عليك التجنيد؟».

صمت لحظة ليفكر. ثم قال:

«أعتقد أن هذا صحيح، وبما أنك ذكرت المسألة الآن فإنني أشعر بالإهانة لأنه لم يفعل».

ضحك، وضحكت معه. ودعاني إلى مشوار قبل العشاء. كان الشتاء يقترب من نهايته والأرض حبلى بالعشب. تحدث عن أشياء أخرى، عن إنجلترا، والوظائف الحكومية، وكيف تغيرت الأشياء. وقال ونحن نعود إلى البيت:

«معظمنا أمضى حياته يحاول الهرب من فترة الثلاثينات. كنا جميعاً سعداء في تلك الفترة، كانت عالمنا، ولكننا فقدنا هذا العالم عام ١٩٣٩، ومنذ ذلك الوقت ونحن نحاول الهروب منه».

وأشار إلى بيته الريفي الذي يلفه ضباب بعد الظهر. وقال:

«لقد هربت إلى هذا البيت».

كان العشاء في تلك الليلة رائعاً للغاية. وعندما انتهينا، انتقلنا للجلوس في غرفة مكتبه. كان بروكتور قد وصل مرحلة السكر، ولاحظت بأن وجودي يضايقه. كان يعرف بأنني سأعود لأسأله عن بيرغيس.

شعرت للحظة بأنه يكاد يغفو، ولكنه انتفض فجأة، وأخذ يمسح العرق عن جبينه بعصبية بمنديله.

فسألته وأنا أسكب الخمر في كأسه:

«لماذا برأيك لم يحاول بيرغيس أن يجندك؟».

عب كأسه بسرعة ثم سكب كأساً أخرى، وقال:

«كنت معجباً ببيرغيس كثيراً، فالناس الآن ينسون كم كان موهوباً. ولا يتذكرون كيف كان قبل الحرب. حيويته وثقافته كل هذا نسوه فيه. ولا يفكرون به الآن إلا من خلال ما حصل لاحقاً».

لم أعلق بشيء بانتظار أن يكمل حديثه.

«لم أكن أخفي أسراري على بيرغيس. وكنت عندما أمر بمشكلة أطرحها على بيرغيس مهما كانت سرية. كنت معتاداً أن أبحث معه مشاكلي وكانت نصائحه لي جيدة جداً. أعتقد أن السبب في عدم محاولته تجنيدي هو أنه كان باستطاعته الوصول إلى أية معلومات يريدها. كان عليه أن يسأل فقط فيجاب فوراً».

وسألته محاولاً أن أدفعه أكثر للكلام:

«وماذا عن عام ١٩٥١؟».

«لالا... أنت مخطىء جداً. لقد تركت بريطانيا عام ١٩٥٠ لأسباب شخصية. لا علاقة لسفري بهذا الأمر. بل لأسباب تتعلق بفاردا زوجتي السابقة. لقد انتحرت عام ١٩٥١».

«وهل التقيت مع بيرغيس قبل هربه؟».

«كلا. لكن زوجتي قابلته قبل هربه بستة أسابيع. كانت هي وأبوها صديقين لبيرغيس. وكنت في كوبنهاغن في ذلك الوقت».

«وهل انتحرت بعد ذلك؟».

«أجل، بعد ذلك بوقت قصير».

ووقف فجأة وبدا بكامل وعيه. وقال:

«لا أحب أن نتحدث في هذا الموضوع إذا سمحت».

ثم جلس من جديد في مقعده. وواصل حديثه.

«لقد كانا حادثين رهيبين (انتحار زوجته وهرب بيرغيس). وبعد سنة أو سنتين استدعاني أدوارد بريدجز للعودة إلى العمل بعد أن استعدت قواي النفسية. وعدت إلى لندن». (كان بريدجز آنئذ السكرتير الدائم لوزارة المالية ورئيس الشؤون المحلية).

لم أتوصل مطلقاً لسبب انتحار فاردا زوجة بروكتور الأولى، ولا إلى الذي كانت تبحثه مع بيرغيس. وكان من الصعب جداً الحكم على بروكتور. كنت أميل إلى تصديق إدعائه بأنه لم يكن مجنداً رسمياً، غير أنني لم أصدق زعمه بأن بيرغيس لم يكن له علاقة بسفره إلى الدانمارك عام ١٩٥٠. وعلى أية حال كنت متأكداً تماماً بأن بروكتور كان يوصل كل الأسرار التي تقع تحت يده أثناء عمله سكرتيراً خاصاً لبولدوين حتى عام ١٩٥٠.

وعندما التقيت مع بلانت بعد ذلك أخبرته بلقائي مع بروكتور. وقلت له:

«لم تخبرنا يا أنتوني عن بروكتور. لقد صمت أيضاً لتحميه».

ووقف، ثم ذهب نحو الشباك يحدق منْ خلاله وكأنه يسترجع في ذاكرته كل ما مضى من أحداث.

وسألته ثانية:

«ماذا تعرف عن دينيس؟».

«كل ما أستطيع قوله هو أنه كان أفضل مصدر لبيرغيس. ولكنني لا أعرف ماذا كان دوره بالضبط. وكل ما كنت أعرفه عنه بأنه ظل يعمل في الحكومة».

«ولكن كان يمكن أن تقدر دوره..».

وسحب بلانت الستائر وكأنه انزعج من الأصوات والغبار والنماذج الموجودة في الساحة. وقال:

«ما لم تمر بنفس تلك الظروف، من الصعب عليك أن تفهم يا بيتر».

وأجبته بغضب:

«لقد مررت بتلك الفترة يا أنتوني. وأعرف عن الثلاثينات ربما أكثر مما يمكن أن تعرفه أنت. إنني أذكر كيف أصبح أبي مدمناً على الكحول لأنه عاطل عن العمل. وأذكر كيف خسرت حقي في التعلّم. وكيف خسرت عالمي وكل شيء. أنا أعرف كل شيء عن الثلاثينات».

كان من أبرز الأبحاث التي قامت بها الشعبة د ٣ هي قضية شبكة أكسفورد. ففي السابق كانت عمليات التجنيد السوفياتية مرتبطة أساساً بجامعة كامبريدج. لكن بلانت أشار إلى أن بيرغيس وكلوغمان استهدفا جامعة أكسفورد بنفس الطريقة. وقد جاءنا أول مصدر ثابت عن شبكة أكسفورد من صديقة لبلانت في معهد كورتوالد واسمها فيوبي بول. وأقر بلانت بأنها كانت مراسلة له أثناء فترة الثلاثينات. وكانت تحدوني رغبة جامحة في مقابلتها. كانت مقربة جداً من بلانت حتى انهما ألفا كتاباً مشتركاً عن بيكاسو.

أخبرني بلانت بأنها عصبية، وفي طريقها للانهيار الصعبي الكامل. وقال بأنها لن تقول شيئاً، هذا إذا لم تقم بعمل طائش إذا ما كلمتها بشكل مباشر. لذلك قام بترتيب طرح الأسئلة عليها عن طريق طرف ثالث هو أنيتا بروكنر. لجأنا إلى الحيلة. فأخبرتها بروكنر بأنه يجري التحقيق الآن في فترة الثلاثينات وأن بلانت يطلب منها معلومات عن أشخاص لا بد من تحذيرهم.

أخبرت فيوبي-بول أنيتا بأنها كانت تنقل رسائل من أوتو إلى أخوين هما بيتر وبرنارد فلود. وكان بيتر قد مات. أما شقيقه برنارد فكان نائباً في البرلمان عن حزب العمل. وقالت فيوبي أيضاً بأن هناك امرأة شابة اسمها جينيفر فيشر ويليامز، كانت متورطة. كما ألحت على بروكنر بضرورة تحذير السير أندرو كوهين الدبلوماسي الكبير. كنت أعرف أصحاب هذه الأسماء جيداً، ما عدا أندرو كوهين (الذي كان عضواً في جمعية الرسل وطالباً في جامعة كامبريدج). وقد كان على علاقة مع نادي كلارندون اليساري في أكسفورد الثلاثينات. كان هذا أول دليل قوي بأن النادي كان مركزاً للتجنيد السوفياتي.

كانت المفارقة أن جينيفر ويليامز متزوجة من ضابط في أم آي ٥ اسمه هيربرت هارت، في الوقت الذي ظهر اسمها لدينا. لذلك قمت بزيارة زوجها في أكسفورد حيث كان يعمل في وظيفة أكاديمية بارزة. وطلبت منه الاتصال بزوجته نيابة عني. وهكذا اتصل بها وأكد لها بأنه لا خطر على وضعها فوافقت على مقابلتي.

كانت جينيفر ثرثارة من الطبقة المتوسطة، وكبيرة في السن. وروت لي قصتها بسهولة بالغة. لكنها كانت تتحدث بطريقة ترضيني عن اليسار في تلك الفترة وعن سلوكهم غير الحميد.

قالت بأنها كانت عضواً علنياً في الحزب في الثلاثينات. وأن أحد الروس اتصل بها، تنطبق أوصافه على أوتو. وطلب منها أوتو العمل في السر. كانت تلتقي به بانتظام في كيو غاردنز. وقالت إن هذه اللقاءات جزء من عملها السري في الحزب، وتوقفت عن اللقاء به بعد عملها في وزارة الداخلية عام ١٩٣٨. كانت طبيعة عملها في الوزارة حساسة جداً تتعلق بتنظيم تنفيذ طلبات المراقبة على التلفونات. وأخبرتني بأنه لم يمر عليها أثناء عملها أية معلومات ذات طبيعة سرية.

كانت تتصل مع شخصين. الأول هو برنارد فلود الذي جندها. والآخر الشخص المسؤول عن إدارتها لفترة بسيطة، وقد تعرفت على صورته لنكتشف أنه آرثر واين، وهو صديق مقرب من ايديث تودور هارت وزوجها، وكان من نشطاء نقابات العمال قبل أن ينضم إلى العمل في الحكومة.

وسرعان ما تبين لي من حديث جينيفر بأن هناك شبكة مستقلة في أكسفورد ولكن من الصعب إثبات وجودها. وفجأة توفي السير أندرو كوهين بسبب أزمة قلبية. لذلك حذفته من القائمة. وبيتر فلود كان ميتاً هو الآخر. ولم يبق لي من أمل سوى شقيقه برنارد فلود، وعندما عينه رئيس الوزراء العمالي هارولد ويلسون في وظيفة في حكومته، طلب من أم آي ٥ تقديم

شهادة حسن سلوك له. فعارضنا وطلبنا تصريحاً بالتحقيق معه عن إدعاءات جينيفر هارت. وقتها فرض ويلسون حظراً على التحقيق مع أي عضو في البرلمان. ولكنه وافق على إجراء المقابلة بعد اطلاعه على أسباب رغبة أم آي ٥.

كان موقف برنارد فلود، عندما بدأت المقابلة معه، استثنائياً. إذ أنه لم يبال بأهمية القضية. وعندما ضغطت عليه بما قالته جينيفر هارت رفض أن يؤكد أو ينفي أنه جندها.

وكان يكرر القول:

«كيف أنكرها طالما أنني لا أتذكر أي شيء».

كنت فجاً معه. وكنت أعلم بأن زوجته المريضة نفسياً انتحرت منذ وقت قريب. ولكن فلود استعجل إنهاء المقابلة لاعتقاده بأن مركزه يساعده في ذلك. فوضحت له بما لا يدع مجالاً للشك بأنني المسؤول عن إصدار حسن السلوك له. ودون أن أحصل على معلومات مرضية لي عن قصة هارت فلن يكون باستطاعتي مساعدته. وعاد من جديد يعتذر عن ذاكرته السيئة. وانتهت المقابلة بدون نتيجة، فطلبت منه مقابلة أخرى في اليوم التالي. وخرج دون أن أحصل على أية معلومات منه.

في الصباح التالي تسلمت رسالة فيها خبر انتحار برنارد فلود بأنبوب غاز. بعد فترة قصيرة اتصل بي بلانت تلفونياً ليخبرني المزيد من الأخبار السيئة.

«لقد ماتت فيوبي».

«يا إلهي، كيف؟».

«رمت نفسها تحت عجلات المترو».

هكذا مات ثلاثة، اثنان منهم انتحاراً، من مجموعة قليلة جداً من الناس، في وقت شرعنا فيه بالتحقيق معهم. بدا لي الأمر أكثر من مجرد حظ سيء. وسري الرعب في أوساط أم آي ٥ خوف أن يرتبط اسمها علناً بحوادث الموت هذه. فأوقفنا العمل. كانت الصحف في ذلك الوقت تكتب عن قصة فيلبي كونه الرجل الثالث في شبكة الخمسة، كما اكتشفت لأول مرة علو منصبه في أم آي ٦. وبدأت الإشاعات تتناقل تورط بلانت بالتجسس. كانت الفضيحة تطل برأسها على الناس. وبقيت لنا قضية آرثر واين الذي صدف أن تم تعيينه نائب سكرتير لجنة التجارة، مما يتطلب شهادة حسن سلوك أمني.

سألني فيرنيفال جونز:

«ماذا سنفعل؟».

«سنقول له بأننا سنعطيه حسن السلوك مقابل أن يخبرنا الحقيقة عن الشبكة. وبدون ذلك لا أمل له».

«ولكن هذا ابتزاز».

لم أر في عرضي هذا أي شيء غير عادل. فلم يكن مقدراً لي أن أصبح دبلوماسياً أو سياسياً.

وقال فيرنيفال:

«هذه الانتحارات ستشوه صورتنا، فلسنا هذا النوع من المخابرات».

كانت شبكة أكسفورد آخر تحقيقاتي في مؤامرة الثلاثينات. فقد أكملت عملي فيها في نهاية الستينات. وقد أصبح أولئك المتورطون إما على عتبة التقاعد أو على عتبة القبر. لقد حددنا هوية كل عضو في شبكة الخمسة وعدداً آخر غيرهم، والمسؤولين عن إدارتهم. كما عرفنا كيف كانت هذه لشبكة تعمل في مختلف الأوقات. وعرفنا بأن اتصالاتهم كانت تتم عن طريق أولئك الذين اعتمدوا عليهم وقدموا لهم المساعدة. وحددنا هوية جاسوس لم نكن نعرفه هو واتسون، ومصدراً آخر مهماً للروس في الفترة من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٥١ هو بروكتور. بالإضافة إلى تحديد شبكة أكسفورد، كان مجموع ما توصلنا إليه من جواسيس حوالي أربعين جاسوساً محتملاً بين حي وميت. كما درسنا بدقة ملفات العشرات من الشخصيات العامة في بريطانيا، في مختلف جوانب الحياة. أعطينا بعضهم شهادة خلو من الأمراض، والبعض الآخر وجدناه شيوعياً سرياً أو متعاطفاً فأبعدناه عن الاطلاع على الأسرار أو شجعناه على التقاعد.

وبالطبع ما زال هناك نهايات مفتوحة. فقد أخذ جيمس كلوغمان أسراره معه إلى القبر. ولم نستطع أبداً تحديد هوية أوتو. كما لم نجد مطلقاً الأطراف البريطانية لشبكة روته كابيل (Rote Kapelle). ولكننا عرفنا أهم شيء ـ وهو مدى امتداد وتشعب هذه المؤامرة. عرفنا تاريخنا، ولا حاجة لأن نخاف بعد الآن.

كان التحقيق مع جيل كامل أمراً مؤلماً بلا شك، وربما كان أقل إيلاماً لو جرى في الوقت المناسب، عندما كانت الأحداث حية. لقد تخلصنا من الماضي، ونستطيع أن نعود أخيراً إلى الحاضر، دون أن ننسى إمكانية وجود أحفاد الثلاثينات.

الفصل الثامن عشر

بقيت قضية واحدة بدون حل، تطرح نفسها طوال فترة الستينات، وهي أهم من كل القضايا السابقة. كان علينا أن نتوصل إلى ما إذا كان هناك عميل داخل أم آي ٥ أم لا. واستمر فريق عملية «فلوينسي» بالبحث في تاريخ اختراق المخابرات البريطانية بشكل موازٍ للاستجوابات التي قامت بها الشعبة د ٣. لم يبد هوليس أي اهتمام بعملية «فلوينسي» لأنها ما كانت تستطيع تقديم تقريرها إلا بعد تقاعده في كانون الأول من العام ١٩٦٥. وكان لا يزال يعتبر قضية الاختراق مغلقة بعد الاجتماع الذي تم فيه بحث تقرير سيموندز الثاني في تشرين الأول العام ١٩٦٤، وأمر فيه بأن لا يقوم الضباط الذين عملوا في قضية ميتشيل ببحث القضية فيما بينهم. كان هذا الأمر ميؤوساً منه، لسبب واحد، هو أن زيارة هوليس إلى الولايات المتحدة وكندا العام ١٩٦٣ لاطلاع السي آي أي والشرطة الكندية على الشكوك بكون ميتشيل جاسوساً، سببت ضجة كبيرة واستنفاراً متوقعاً. وبعد زيارة هوليس قمت أنا بزيارة كندا. فقد قام السوفيات فجأة بإزالة ميكروفونات عملية «ديو وورم» التي زرعتها في السفارة السوفياتية العام ١٩٥٦. ولم يقم السوفيات بأية عملية بحث عن الميكروفونات، بل كانوا يعرفون مكانها بالضبط. وقد سمعنا أصواتهم وهم ينتزعون الميكروفونات قبل أن تصمت إلى الأبد.

ربطت الشرطة الكندية بين ميتشيل وعملية نزع الميكروفونات. وبدأ جيم بينيت بتقريعي (أصبح في هذه الفترة رئيس قسم مكافحة التجسس في الشرطة الكندية). وكان من الصعب مواجهة ادعاءاته. فقمت بإطلاعه على الدليل الذي يشير إلى وجود اختراق في مستوى عال في أم آي ٥. والواقع أنني طرحت عليه رأيي الخاص. كنت متأكداً أن أحداً ما أفشى سر عملية «ديو وورم» للروس العام ١٩٥٦، وهذا يفسر رفضهم لاستخدام الغرف التي

زرعت فيها الميكروفونات لأعمال غير تلك الروتينية العابرة وواضح بأنهم عرفوا بالضبط موقع الميكروفونات في العام ١٩٦٤ فقط. تزامن هذا مع التحقيق في قضية ميتشيل، حيث طرحت إمكانية أن يكون ميتشيل أفشى سر «فلوينسي» العام ١٩٥٦. وكان ميتشيل وهوليس تسلما ملفاً مفصلاً العام ١٩٥٦ يتضمن تفاصيل عن كيفية عمل نظام «فلوينسي». فلا بد أن إفشاء سر العملية تم في هذا الوقت بالذات. ولولا إفشاء السر في هذه الفترة سواء من قبل ميتشيل أو هوليس، لما استطاع الروس انتزاع الميكروفونات دون أن يعلموا مكانها بالضبط. وقد أمضوا عشرين يوماً من البحث دون أن يجدوا مكانها، رغم أنهم كانوا يفتشون في نفس المنطقة التي كانت موجودة فيها.

انفجر فيرنيفال جونز بوجهي عندما أخبرته بأنني تحدثت مع الكنديين عن قضية الاختراق. ولكنني أوضحت له بأنه كان من المستحيل تجنب الخوض في الموضوع خاصة بعد زيارة هوليس الفاشلة. وأن تجاهل المشكلة سيزيد الأمر سوءاً في نظر حلفائنا.

في واشنطن كان الاهتمام بالقضية حاداً. وأذكر أنني حضرت حفل استقبال في بيت ميشيل ماكول، الذي أصبح العام ١٩٦٤ رئيس المكتب المحلي في واشنطن بدل هاري ستون. فقد انتحيت جانباً أنا وأنغلتون الذي ظل يمطرني بالأسئلة حول الأوضاع داخل أم آي ٥.

سألني:

«ماذا جرى لكم؟ يأتي هوليس ليحدثنا عن قصة لا تصدق عن ميتشيل. ويبدو أنه لا يعرف أولويات القضية. فلم يكن هناك تحقيق فيها، ويقول بعد ذلك بأنه لا يوجد ما يبعث على الخوف..!».

حاولت أن أحدثه عن القضية. فقلت له بأن ميتشيل بريء. وإنني أنا وآرثر نشك في هوليس. وطلبت منه تقديم أية معلومات تساعد على فتح القضية وإنهائها. ووعدني ببذل كل ما يستطيع. كانت تلك فترة صعبة جداً بالنسبة للسي آي أي، إذ اغتيل كنيدي وتم تشكيل لجنة وارين للتحقيق في الاغتيال، فيما كان انغلتون يواجه مشاكل عديدة.

وحتى في عام ١٩٦٥ كانت المخابرات البريطانية تبدو للأمريكيين مصيبة المصائب. فقد لفت فضائح التجسس الأربع المتتالية أم آي ٥ و أم آي ٦ وألقت بظلالها عليهما. وتم الكشف عن هاوتن بأنه أفشى أسرار حلف الناتو في مجال مراقبة الغواصات. ورغم أن قضية هاوتن كانت نجاحاً لقدرة أم آي ٥ الجديدة في مكافحة التجسس، إلا أنها أثارت الغضب والسّخط في البحريّة الأمريكيّة التي لم تكنّ تخفي عداءها السابق لنظيرتها البريطانية. طفت

هـذه العداوة على السطح في اجتماع لمجلس الأمن القومي، بعد محاكمة هاوتن بفترة قصيرة، حيث طالبت البحرية الأمريكية بإنهاء كافة أشكال تبادل المعلومات بين المخابرات الأمريكية والبريطانية. ولكن جيم أنغلتون وآل بيلمونت قاما بإحباط هذا الاقتراح في مهده. فقال بيلمونت:

«الفرق الوحيد بيننا وبينهم، أنهم يلقون القبض على الجواسيس أما نحن فلا».

ولكن كل ما قاله بيلمونت لم يستطع تخفيف تدفق الكوارث اللاحقة. فقد حوكم بليك وادين عام ١٩٦١ ليلقي بظلال على الشك في كافة عمليات السي آي أي بما فيها عملية نفق برلين. واعتقل فاسال في السنة اللاحقة عام ١٩٦٢، وهنا للمرة الثانية تنتقل معلومات هامة عن أسرار البحرية في الناتو إلى الشرق عن طريق عميل بريطاني. وفي كانون الثاني ١٩٦٣ هرب فيلبي إلى الشرق والسلطات البريطانية صامتة وعاجزة. وكانت هناك في نفس السنة معطيات قضية بروفيومو التي أوحت، خاصة للأف بي آي، بأن الروس كانوا يحصلون على الأسرار النووية من بروفيومو عن طريق كريستين كيلر. ففي العام ١٩٦٤ اعترف كل من بلانت ولونغ وكيرنكروس، بينما تهاوت قضايا أخرى بشكل مخزٍ في المحاكم. ثم جاءت قضية كوداك العام ١٩٦٤. لكن أكثر القضايا سوءاً في عيون الأمريكيين كانت قضية مارتيللي في بداية عام ١٩٦٥.

بدأت قضية مارتيللي العام ١٩٦٣ عندما ادعى فيودورا بأن لِـ ك ج ب مصدراً أجنبياً عقائدياً داخل مؤسسة الأبحاث النووية البريطانية. وأنه كان يعمل فقط منذ سنة أو سنتين. كان هذا يعني أن غوليتسين لا يعرف عنه شيئاً لذا كان من الصعب جداً تحديد المرشحين. وبعد عدد من الخطوات المزيفة قادنا التحقيق إلى جوزيبي مارتيللي، الذي جاء إلى مختبر كلهام في خريف العام ١٩٦٢ من المؤسسة الأوروبية لأبحاث الذرة. ومع أن مارتيللي لم يكن له أي اطلاع على الأسرار الذرية، فقد تابعنا التحقيق. كان هناك إمكانية حصوله على المواد السرية عن طريق مصدر مطلع، مثل هاوتن في قضية لانزديل في بورتلاند، الذي اعتمد على صديقته في الوصول إلى الأسرار. وعندما وجدنا أنه كان لمارتيللي صديقة مطلعة أصبح من المؤكد احتمال وصول المعلومات إليه عن طريقها.

لم تعطنا التحقيقات اللاحقة أي دليل يثبت أن مارتيللي يحصل على معلومات سرية. وعند تفتيش مكتبه في كلهام وجدنا فيه دفتر مواعيد. وكان مارتيللي وقتها في إجازة في أوروبا. وعند عودته تم توقيفه في المطار. وقد قامت الشعبة الخاصة بالتحقيق معه، حيث تعرف على كاربيكوف وقال أنه روسي الجنسية وأنه من معارفه. وكان بحوزته خارطة تشير إلى

ترتيب المواعيد. ونتيجة لذلك تم تفتيش شقته في أبنجون حيث وجدنا أدوات تجسس مثل تلك التي استخدمها لانزديل. وقد تم استخدام إحدى رقائق اللبادات. كما وجدنا أيضاً مفكرة تحتوي تفاصيل عن كيفية تحويل الرسائل والكلمات إلى رسالة شيفرة تستخدم لمرة واحدة.

جرى اجتماع مطول مع هوليس بحضور ميتشيل لاتخاذ قرار بخصوص هذه القضية. إذ لم يتوفر لهذه القضية دليل ثابت بأن مارتيللي كان مطلعاً على الأسرار أو أنه كان يوصلها إلى جهة أجنبية. وينص قانون الأسرار الرسمية على مادة تقول بأن من يحضر نفسه لارتكاب عملية تجسس يدان. ولكن كان من الصعب جداً إثبات تهمة التحضير لعمل التجسس على مارتيللي. فلا يوجد أي دليل على أي اتصال سري مع جهة أجنبية. وتستطيع قيادة الاتصالات الحكومية أن تشهد بأن لبادات الشيفرة تشبه تلك التي يستخدمها الجواسيس للاتصال بمسؤوليهم الروس، ولكن بعكس قضية لانزديل، فإن القيادة لا تستطيع أن تثبت اتصال مارتيللي بمسؤوليه. ويغيب عن البال عادة أن شهادة قيادة الاتصالات الحكومية في قضية لانزديل هي التي أدت إلى إدانة المتهمين. ولولا هذه الشهادة لاقتصرت الأحكام على عقوبات بسيطة.

أدليت بدلوي في هذه القضية بوصفي خبير أم آي ٥ في «سيغميت». فأشرت إلى الإدارة في ذلك الاجتماع بأن دليل أم آي ٥ لم يكن كافياً لإثبات حتى نية نقل الأسرار إلى دولة أجنبية. كانت الشعبة القضائية في أم آي ٥ حريصة على إدانة مارتيللي عن طريق المادة المتعلقة بالتحضير للتجسس في قانون الأسرار الرسمية. وقد دهش ضباط مكافحة التجسس المحترفين عندما أصر هوليس وميتشيل على تقديم مارتيللي للمحاكمة. كانت النتيجة أن المدعي العام وافق على ذلك وعانت أم آي ٥ معاناة شديدة بعد ذلك.

وحتى اليوم أجد أنه من الصعب فهم لماذا قدمت قضية مارتيللي إلى المحكمة، إلا إذا أخذ في الاعتبار تاريخ المحاكمة وهو الثاني من تموز العام ١٩٦٣. ففي هذا التاريخ كانت قضية ميتشيل في قمتها. ومن الواضح أن هذا المنعطف مناسبٌ جداً للروس ولهوليس لتوجيه ضربة قاصمة إلى قسم مكافحة التجسس في أم آي ٥.

أما القضية الثانية التي لها علاقة بموضوعنا هنا فهي قضية فرانك بوسارد. فقد حصل توب هات، العميل المزدوج بين المخابرات العسكرية السوفياتية والأف بي آي في العام ١٩٦٥ على نسخ مصورة لوثائق من وزارة التجهيزات الحربية ذات درجة قصوى من السرية، تتعلق بالأسلحة الموجهة، وتتضمن أيضاً أسراراً بالغة الأهمية للولايات المتحدة الأمريكية. وكان من السهل تحديد المشبوه ضمن دائرة محدودة من الأشخاص. فوُضِعَ المشبوهون تحت كافة أنواع المراقبة. واكتشفنا بعد ذلك بأن بوسارد وهو أحد المشبوهين، كان يستغل ساعة

الغداء ليذهب لأخذ حقيبة من مكتب الأمتعة في محطة مترو واترلو. ثم يذهب بها إلى فندق ليسجل وجوده هناك تحت اسم مستعار. ويبقى في الفندق حوالي نصف ساعة يعود بعدها ليرجع الحقيبة إلى مكتب أمتعة المحطة، ومن ثم يعود إلى العمل. قامت أم آي ٥ بفتح الحقيبة بعد أخذها من المحطة في وقت مناسب، فوجدت فيها كاميرات، نسخ وثائق وأفلام، وأسطوانتين مسجل عليهما حوالي ثماني أغانٍ روسية. وسجلنا تفاصيل هذه الأغاني، كما تم تصوير كافة الأجهزة وإعادتها إلى مكانها في الحقيبة. وأعدنا الحقيبة إلى محطة واترلو. وخلال أقل من ساعة تمكنت قيادة الاتصالات الحكومية من تحديد خمسة ألحان تصدر عن جهاز بث روسي يعمل من منطقة موسكو. وقد حدّد جهاز البث هذا بأنه تابع للمخابرات العسكرية السوفياتية.

قررنا اعتقال بوسارد في المرة القادمة عندما يأتي ليأخذ الحقيبة من محطة واترلو ووضعنا غرفة للمراقبة في أحد الفنادق. حدث ذلك في ١٥ آذار ١٩٦٥. فألقينا عليه القبض متلبساً في عملية تصوير وثائق ذات أهمية قصوى. وعندما واجهناه بأن أم آي ٥ تعرف كل شيء عن ألحان الأغاني، اعترف بأنه كان يزود بصور الوثائق السرية عن طريق صناديق الرسائل مقابل المال. وكان يتسلم مستحقاته المالية بنفس الطريقة. وبعد تجنيده الأولي لم يقابل أي روسي إلا مرة واحدة طوال خمس سنوات. وقال بأن ألحان الأغاني كانت بمثابة توجيه له لوضع المعلومات في المكان الذي يتناسب واللحن، ولغيرها من التعليمات الأخرى. وهكذا حصلت أم آي ٥ على كل ما يجعلها تقدمه إلى المحاكمة. وفي آيار عام ١٩٦٥ حكم على بوسارد بالسجن مدة إحدى وعشرين سنة.

وطالما أننا نعرف الآن بأن توب هات، مصدر المعلومات عن بوسارد، كان مزدوجاً، فلماذا قرر الروس التخلي عن بوسارد؟ ولكي نفهم هذه القضية لا بد من الرجوع إلى عدة حالات. أولاً، استطاع الروس أن يدمروا أم آي ٥ عن طريق فيدورا ومارتيللي العام ١٩٦٣. وقد أدى ذلك إلى زيادة الشك، خاصة في أم آي ٥، بأن فيدورا لم يكن سوى خدعة. وفي العام ١٩٦٤ قدم توب هات لأم آي ٥ قصة عن وجود تغطية تنصت تقنية لمكتب رئيس الوزراء البريطاني، والتي لا أساس لها من الصحة خاصة وأن الروس لم يكن لديهم أجهزة معقده تتفوق عما لدينا في الغرب. فشلت كافة المحاولات لإيجاد هذه الأجهزة. وأدى الأمر إلى اعتبار هذه القضية زائفة. وبدأت كل من أم آي ٥ والأف بي آي بالشك في معلومات توب هات.

لم يحل تقديم توب هات للوثائق البريطانية ذات السرية القصوى دون الشك به بأنه مخادع (كنا نتساءل هل يتخلى الروس بسهولة عن مصدر هذه الصور؟). أدت هذه القضية

إلى زرع الشك عند الأمريكيين بالمخابرات البريطانية، وإلى الاتجاه بالمطالبة بابعاد البريطانيين عن أسرارهم. وإذا ما خير المرء بين توب هات وبوسارد فلا شك أن الأخير أفضل ويستحق المخاطرة لأجله. فلم يكن له أي اتصال مباشر بالروس. وكان اتصاله مع موسكو يتم عن طريق الأغاني البريئة. ولولا قدرة قيادة الاتصالات الحكومية على تحليل البث لما استطعنا مطلقاً فهم وجود الاسطوانتين وإثبات عملية الاتصال بين بوسارد ومديره من خلالهما. وكان سيحكم فقط في قضية تصوير الوثائق السرية وهي جريمة تتعلق بالعمل فقط والعقاب عليها بسيط للغاية. ومرة أخرى أثبتت المهارة الفنية في قيادة الاتصالات الحكومية وأم آي ٥ قدرتها على كشف الروس. ولهذا النجاح أهميتان رئيسيتان: فقد مكنت المخابرات الأمريكية من حماية المصالح البريطانية داخل الحكومة الأمريكية. كما زادت الشكوك في توب هات ولم تُزلها.

ولكن السؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا قرر الروس دعم مصداقية توب هات؟ فقد كان يعمل منذ نهاية العام ١٩٦٢، فإذا لم يكن للروس مصدر على مستوى عال داخل أم آي ٥ أو داخل الاف بي آي أو داخل السي آي ايه فلا يمكنهم أبداً معرفة أن توب هات قد أصبح في دائرة الشك. ففي نهاية العام ١٩٦٤ أصبحت أم آي ٥ متشككة جداً به. والوحيد الذي لم يشكك بصدق توب هات هو سوليفان رئيس قسم المخابرات المحلية في الأف بي آي وهو بالتأكيد ليس جاسوساً سوفياتياً. وفي السي آي أي لم يشك بصدق توب هات سوى أنغلتون وبعض معاونيه. أما القلّة في أم آي ٥ الذين كانوا يعرفون عن توب هات فلم يصدقوا بأنه جاسوس حقيقي. وكان هوليس يعلم بأن هؤلاء يشكون تماماً بتوب هات.

كان هناك أيضاً ضغوط كثيرة على التحالف. كما كان هناك عداء عميق في أوساط المخابرات الأمريكية لوصول هارولد ويلسون والحكومة العمالية إلى السلطة العام ١٩٦٤. ويعود ذلك إلى نزعة معاداة حزب العمال من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى تعهد حكومة العمال بالتخلي عن مشروع صواريخ بولاريس ـ ولكنهم سرعان ما تنكروا لهذا التعهد.

عندما قام هوليس بزيارة واشنطن في نهاية عام ١٩٦٣ كانت قضية ميتشيل ما زالت معلقة وكانت المخاوف من أن يكون جهاز أم آي ٥ مخترقاً من قمته في ذروتها. فيما بقيت أجهزة المخابرات البريطانية عاجزة عن معالجة هذه المشاكل. وجاء فصل آرثر مارتن من العمل ليزيد من شكوك الأمريكيين. كانوا يعلمون بأنه أخذ على عاتقه مهمة إلقاء القبض على رجال ستالين البريطانيين أينما اختبأوا. ورأى الأمريكيون في فصله مؤامرة.

وفي منتصف العام ١٩٦٥ وصلت الأمور إلى ذروتها. فقد أمر الرئيس جونسون

لجنة الرئيس الاستشارية للمخابرات الخارجية، بتشكيل لجنة لبحث قضية المخابرات البريطانية. وتشكلت اللجنة من كبار ضباط المخابرات المتقاعدين، ورجال البنوك والمال، والصناعيين والسياسيين. وكانت مهمتها تقديم النصح للرئيس في مجال تعزيز الأمن القومي. وقد تولى أمر تشكيل هذه اللجنة كل من جوردن غراي وهو وزير دفاع سابق في عهد الرئيس دوايت ايزنهاور، وجيرالد كوين، حاكم كارولينا الشمالية ورئيس اللجنة الاستشارية للمخابرات الخارجية لمدة خمس عشرة سنة متواصلة.

جاء غراي وكوين سراً إلى لندن في صيف العام ١٩٦٥ وبدآ بدراسة العلاقات الأمريكية البريطانية في مجال المخابرات، وخاصة فعالية جهاز أم آي ٥. كان العمل حساساً للغاية. ولم يتم إبلاغ أي من الضباط في المخابرات البريطانية بهذه العملية. ولو جرت هذه العملية في دولة أخرى لقيل بأنها عملية تجسس.

قام كليفلاند كرام مدير مكتب ارتباط السي آي أي في لندن بتزويد غراي وكوين بمعظم المواد. وكان كرام رجلاً ذكياً عمل في لندن لمدة طويلة من الزمن، ويعرف نقاط الضعف في أم آي ٥ جيداً. وقد رتب زيارات متعددة لكوين وغرام إلى ليكون فيلد وأم آي ٦ على أنهما مجرد زملاء. وفي تلك الفترة كان لضباط السي آي أي اطلاع كامل على كافة مؤسسات المخابرات البريطانية، ومن السهل والحال كذلك أن تنطلي علينا هذه الخدعة.

عندما زرت واشنطن العام ١٩٦٥ سمعت لأول مرة عن كوين وغراي. إذ اطلعني انغلتون على محتويات التقرير النهائي. وقد هزني التقرير لما فيه من نقد جارح لأم آي ٥. إذ تم فيه تحديد حجم النواقص التي تعاني منها المخابرات البريطانية، وقال إن فيها مواهب فردية وضباطاً أكفاء، ولكن ينقصهم حسن التنظيم والمصادر المالية. كما أشار التقرير إلى قصور قيادة أم آي ٥، خاصة هوليس وكمنغ، ورئيس قسم مكافحة التجسس. واختتم غراي وكوين التقرير بقولهما أن هوليس فقد ثقة كبار الضباط فيه (وهذا صحيح)، بالإضافة إلى تدخله في شؤون الوايت هول، وكان هذا أيضاً صحيحاً.

آثار التقرير الرعب في أوصال انغلتون، وقال إنه يجب أن يشكل قاعدة لعلاقاتٍ جديدة بين مكافحة التجسس الأمريكية والبريطانية. وأخبرني بأن السي آي أي تنوي الاتصال مباشرة مع هارولد ويلسون عن طريق السفير الأمريكي في لندن، ديفيد بروس، لاطلاعه على نتائج التقرير.

وقال:

«سيتغير كل شيء الآن. ستزيد من طاقم مكتبنا في لندن، كما سيعمل نصف هؤلاء

مباشرة داخل أم اي ٥. سنطلع على كل شيء لتتمكن من تقديم المساعدة في المكان المناسب».

وعندما سمعت عن تقرير غراي وكوين أصبحت في وضع لا أحسد عليه. فقد أطلعني انغلتون عليه من باب الثقة. ولكن كان علي أن التزم بواجبي وأبلغ عن وجود هذا التقرير وخطة الاتصال مع ويلسون. أما طموحات انغلتون فقد كانت واضحة، فهو يريد من السي آي أي أن تبتلع أم آي ٥، وأن تستخدمها كفرع لوكالة المخابرات الأمريكية. وعدت إلى لندن وأخبرت هوليس وفيرنيفال جونز بكل ما أعرفه. ولأول مرة، ربما، أرى على وجه هوليس علامات الصدمة. وطلب فوراً تدقيق السجلات، وخلال عدة ساعات جاء تقرير زيارة كوين وغراي لكل مؤسسة من مؤسسات المخابرات البريطانية دون أن يعلنا عن حقيقة أهدافهما من هذه الزيارات.

بعد ظهر ذلك اليوم رأيت الرجلين يهرعان إلى سيارة تنتظرهما أمام مبنى ليكون فيلد.

قال لي فيرنيفال جونز وهو عابس:

«شكراً لمساعدتك يا بيتر. لا يمكن أن تثق بالتزام الأمريكيين بقواعد اللعبة!».

اعتقدت أن كلام فيرنيفال جونز هذا مجرد نفاق، ولكنني قررت أن ابتعد عن المشاكل التي بدأت تتجمع بسرعة. فقد ذهب فيرنيفال جونز وهوليس لمقابلة وزير الخارجية للاحتجاج على هذا الانتهاك السمج لاتفاقية التعاون المخابراتي الأمريكي ـ البريطاني. ولم يكن باستطاعة، أحد معرفة إلى أين ستنتهي هذه المشاكل.

تلقى كليفلاند كرام الصدمة الأولى. فقد عارض الاتصال مع هارولد ويلسون، فيما اتهمه كل من انغلتون وهيلمز بالتسريب لجورج ويغ مستشار ويلسون الأمني. لكن هوليس كان في حالة لا تسمح له بقبول الأعذار. فقد أُهين أمام كافة مؤسسات المخابرات في لندن وواشنطن. وهدد كرام بالفصل إذا ما حصلت انتهاكات أخرى. ورأيت كليفلاند كرام بعد ذلك بعدة أيام يجوب ممرات الطابق الخامس في ليكون فيلد. كان يبدو ذليلاً بعض الشيء.

كان تقرير غراي وكوين إهانة فظيعة لهيبة هوليس كمدير عام لأم أي ٥، وكان يعرف ذلك. ولكن الأمريكيين تعاملوا مع القضية بدهاء ثور في متجر صيني. كان جوهر خطتهم تقديم الدعم المالي والبشري اللذان كانا ينقصان أم آي ٥. وبالطبع كان لهم دوافع أخرى. كانوا يريدون أن تكون أم آي ٥ كزبون تابع وليس حليفاً مستقلاً.

تدفقت الاصلاحات بعد التقرير. فلأول مرة أدركت الإدارة الحاجة إلى توسيع الشعبة د،

وغيرها من الملحقات مثل الشعبة هـ. ومنذ ذلك الوقت أصبح للشعبة د صوتٌ مسموعٌ وفتحت أمامها المصادر المالية. كما أصبح حتمياً البحث عن إدارة جديدة لها. فعين فيها أليك ماك دونالد، أما كمنغ الذي خاب أمله في أن يصبح نائب المدير العام فقد اختار التقاعد المبكر.

أما المبادرة الثانية المهمة التي نجمت عن التقرير فهي الاعتراف بضرورة وجود شكل محددٍ لضمان تعاون أكبر بين منظمات مكافحة التجسس الغربية. فقد أصبحت قيادة الاتصالات الحكومية ووكالة الأمن القومي تتبادلان المعلومات حسب مواد الاتفاقية الأمريكية ـ الإنجليزية. أما أم آي ٥ والسي آي أي فقد شرعتا بالتبادل المنتظم للمعلومات الخارجية عن طريق لجنة الاستخبارات المشتركة في لندن ومجلس الأمن القومي في واشنطن. أما مكافحة التجسس فقد ظلت مربوطة باللجنة الخاصة. ولطالما تباحثت مع أنغلتون حول أهمية إنشاء مؤسسة لتبادل المعلومات حول التجسس المضاد بشكل حر ومنتظم. فكثير من المعلومات في هذا المجال كانت أهميتها تفوق حدود الدولة الواحدة، خاصة مع ازدياد تدفق المنشقين. الأمر الذي يتطلب الاطلاع على ملفات الدولة الأخرى إذا ما أردنا للعمل أن يتقدم ويتطور. ولكن أنغلتون رجل أوتوقراطي، وكان يسعى إلى استخدام تقرير غراي وكوين من أجل الضغط علينا لتبادل المعلومات باتجاه واحد لصالحه. ولكنه تحول في النهاية إلى مؤمن بضرورة إيجاد صيغة مشتركة. وبناء على إلحاحه تمّ تنظيم مؤتمر لضباط مكافحة التجسس في كل من بريطانيا وأمريكا وكندا وأستراليا ونيوزلندا، يعقد مرة كل ثمانية عشر شهراً. وعقد المؤتمر الأول في ملبورن بأستراليا العام ١٩٦٧.

لم يكن تقرير كوين وغراي الشاهد الوحيد على مستقبل هوليس. فما أن اقترب موعد تقاعده حتى بدأت نتائج عملية فلوينسي تتضح. كان فريق العمل يتكون من تيرينس ليسكي، وجيوفري هنتون عن أم آي ٦. بالإضافة إلى آرثر مارتن الذي نقل إليها في منتصف العام ١٩٦٥. أما ممثلو أم آي ٥ فهم: باتريك ستيوارت، وآن أوروينغ، وإيفلين ماك بارنيت، من الشعبة د ٣. بالإضافة إليّ رئيساً. وكان يتم توزيع الأوراق مباشرة إلى رئيس الشعبة د، اليك ماك دونالد، وإلى رئيس مكافحة التجسس كريستوفر فيلبوتس. كنا نجتمع كل يوم ثلاثاء في مكتبي أو إحدى غرف الاجتماعات في الطابق الخامس من مبنى ليكون فيلد.

كان التوتر يسود بداية عملنا. فكل شخص منا يدرك الأثر السيء لهذه المهمة. وكان علينا أن نراجع بالتفصيل كافة الإدعاءات التي ذكرت عن وجود اختراق في المخابرات البريطانية. كان أول قرار اتخذته «فلوينسي» تغيير المنهج الذي وضعته أنا وآرثر في قضية ميتشيل. وكنا في العام ١٩٦٣ اعتمدنا، عندما طرحنا قضية الاختراق على ديك وايت، على

كافة المعلومات والتفاصيل المستقاة من قضايا العملاء المزدوجين والمصادر التقنية، التي كنا نسميها عادة «البيانات». وشعرنا بأن هذه البيانات ستغطي على بعض الادعاءات التي أوردها المنشقون وأنها الأساس ولذلك ركزنا فقط عليها.

كانت مهمتنا الأولى مقارنة هذه الادعاءات. فجرت هذه العملية بسهولة لأننا بدأنا بها منذ قضية ميتشيل، كما استمرت بملاحقة مني كجزء من مجمل برنامج البحث الذي تقوم به الشعبة د ٣.

بعد ستة أشهر من العمل تجمع لدينا ملف ضخم فيه قائمة كاملة بكافة الادعاءات، التي وصلت إلى حوالي مئتين، والتي يعود تاريخ بعضها إلى الحرب العالمية الأولى. ثم تَمَّ توزيع هذه الادعاءات على مختلف الضباط حول الطاولة. فأعطينا الادعاءات القادمة من مصادر بولندية، مثل غولينيفسكي، إلى تيرينس ليسكي. أما إيفلين ماك بارنيت فقد استلمت ادعاءات أم آي ٥ القديمة. وأخذ باتريك ستيوارت مواد غوليتسين. وأخذت أنا كريفيتسكي وفولكوف و «فينونا».

بعد جمع هذه الادعاءات بدأنا في تقييمها، وتفحص كل التفاصيل بدقة لاتخاذ قراراً بمدى صلاحية هذا الادعاء أو ذلك. أي لنصل إلى قرار فيما إذا كنا نعتبره صحيحاً أم لا. وفي بعض الحالات كنا نكتفي بقناعتنا الذاتية. كأن يقول أحد المنشقين مثلاً بأن هناك جاسوساً في أم آي ٥ أو أم آي ٦ فنقيّم فوراً هذا الادعاء ونكتفي بقناعتنا بأنه خاطىء. وبعد ذلك ندقق فيما إذا كان الادعاء نسب إلى جاسوس معروف مثل فيلبي أو بلانت أو بيرغيس. فإذا كان الأمر كذلك أعدنا التدقيق في نسبة الادعاء لنرى فيما إذا كان صالحاً على ضوء المعلومات التي تظهر لنا.

اعتمدنا في تقييم الادعاءات على نوعية سجلاتنا، بينما وجدنا مشكلة رئيسية في أرشيف أم آي ٦، الذي كانت الفوضى تعمه، إذ كان كل قسم يحتفظ بسجلاته الخاصة. فقسم مكافحة التجسس يجمع المعلومات بدون مقارنتها مع بعضها البعض. ولم يلتفتوا لأهمية ترتيب الأرشيف. وهذا يفسر ببساطة عدم القدرة على حل ومتابعة العديد من الادعاءات. لذلك طرحت «فلوينسي» مسألة تحسين أرشيف أم آي ٦. وعندما ترك آرثر مارتن العمل في مكافحة التجسس للعمل في أم آي ٥ أخذ على عاتقه تقديم مساهمة بارزة في عمل المخابرات البريطانية بإدخال تحسينات شاملة على نظام الأرشيف فيها.

بعد الدراسة الشاملة لكافة الادعاءات تَمَّ وضع كل واحد منها في أحد التصنيفات الستة التالية:

أ ـ الادعاء صحيح، ومنسوب نهائياً إلى جاسوس معروف.
ب ـ الادعاء صحيح، ومنسوب بشكل غير نهائي إلى جاسوس معروف.
جـ ـ الادعاء صحيح، وليس ممكناً نسبته إلى جاسوس معروف.
د ـ صحة أو عدم صحة الإدعاء مشكوك بها بسبب قلة المعلومات.
هـ ـ الادعاء مشكوك فيه.
و ـ الادعاء كاذب.

وما أن اقترب هوليس من التقاعد حتى كانت فلوينسي قد كشفت صورة جديدة تماماً عن تاريخ اختراق المخابرات البريطانية. فتم توضيح نسبة كثير من الادعاءات المنسوبة سابقاً إلى عملاء معروفين مثل فيلبي وبلانت وبيرغيس، بعد التدقيق الشامل. ووجدنا بأن (٢٨) إدعاء من المئتين تقع في الفئة ج من التصنيف. كانت صحيحة ولكنها منسوبة إلى جواسيس لم يكتشفوا بعد.

وهنا عشرة إدعاءات من أصل الثمانية والعشرين، لها علاقة بأم آي ٥، وذات أهمية بالغة.

١ ـ فولكوف بتاريخ أيلول العام ١٩٤٥.
٢ ـ غيوزنكو بتاريخ أيلول العام ١٩٤٥.
٣ ـ خيانة سكربكين العام ١٩٤٦ (جاءت المعلومات عن طريق راستفورف العام ١٩٥٤).

٤ ـ غولينيفسكي «عميل درجة متوسطة» بتاريخ منتصف الخمسينات.
٥ ـ غوليتسين ومعلوماته عن التحقيق مع سكربكين ـ العام ١٩٤٦.
٦ ـ معلومات غوليتسين عن الخزنة الحديدية الخاصة في ال ك ج ب للمعلومات القادمة من المخابرات البريطانية.

٧ ـ معلومات غوليتسين عن جدول الملفات في ال ك ج ب الذي يحتوي مواد من المخابرات البريطانية.

٨ ـ معلومات غوليتسين عن «الوثائق التقنية».
٩ ـ معلومات غوليتسين عن الترتيبات الخاصة بحماية الجالية السوفياتية في لندن.

١٠ ـ معلومات غوليتسين عن تسريب سر مهمة كراب.

وتعود تواريخ معلومات غوليتسين الى الفترة ما بين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣.

والشيء الملفت للنظر في هذه القائمة أنها جاءت في ترتيب زمني واضح من ١٩٤٢ - ١٩٦٥ . ورغم أن معلومات غوليتسين أحدث من البقية، إلا أنها ليست كافية لتشير باتجاه أي ضابط عادي. ولكنها تشير إلى مستوى عال للاختراق القائم في أم آي ٥. أما النقاط الثلاث الأولى فإنها تشير إلى هوليس، رغم أنها قديمة.

الفصل التاسع عشر

بدأنا التحقيق بالمعلومات الواردة في ادعاءات فولكوف. وكانت موضوع بحث مكثف في الشعبة د ٣ لمتابعة آثار الجاسوس الثاني في وزارة الخارجية. طلبت من جيفري سادبري، المسؤول في قيادة الاتصالات الحكومية عن عملية «فينونا»، إعادة ترجمة الرسالة كاملة. كان سادبري يتحدث الروسية بطلاقة. والأهم من ذلك أنه كان يعرف جيداً تعابير المخابرات السوفياتية المستخدمة في فترة محاولة فولكوف الهرب، بالإضافة إلى الخبرة التي اكتسبها من برنامج «فينونا». في حين أن الموظف في السفارة الإنجليزية في تركيا، الذي ترجم الرسالة في المرة الأولى لم يكن يملك مثل هذه الكفاءات.

احترت كثيراً أمام أحد المداخل إلى قائمة فولكوف. فالترجمة الأولى تشير إلى معرفته وإطلاعه على الملفات والوثائق المتعلقة بعملاء سوفيات مهمين في مؤسسات مهمة في لندن. «فإذا حكمنا من خلال أسمائهم السرية، لتبين وجود سبعة عملاء من هذا النوع. خمسة منهم في المخابرات البريطانية والآخران في وزارة الخارجية. وأعرف، على سبيل المثال، أن أحد هؤلاء يقوم بوظيفة رئيس قسم في إحدى منظمات مكافحة التجسس البريطانية».

وعندما طرحت قضية فيلبي في عام ١٩٥١، افترضت أم آي ٥ بأن آخر جاسوس أشار إليه فولكوف هو فيلبي، الذي كان فعلاً في عام ١٩٤٥ رئيس قسم لمكافحة التجسس في أم آي ٦ ـ هو قسم مكافحة التجسس السوفياتي. وبما أنني أعرف بعض اللغة الروسية من عملية «فينونا»، لاحظت عدم وجود كلمتين في الترجمة الأولى ـ الكلمة الأولى «أتديل» وتعني قسم، ثم تتبعها كلمة ثانية هي «أبرافلينييه» وتعني مديرية. وعلى أية حال فإنه لا يوجد سبب وجيه لأن يكون هذا المدخل من قبل فولكوف يعني فقط فيلبي. هناك خمسة جواسيس في

المخابرات البريطانية، وكلهم تنطبق عليهم صفات فيلبي.

بعد عدة أيام اتصل بي سادبري وهو منفعل انفعالاً شديداً.

«الترجمة خطأ، واللغة الروسية المستخدمة هي لغة ما قبل تأسيس الك ج ب. ولا بد أن الذي كتب الرسالة ضابط ذو رتبة عالية. كتبها بعناية وباعتزاز بمهارته ومعرفته. الترجمة الصحيحة هي التالية: أعرف، على سبيل المثال، أن أحد هؤلاء العملاء يقوم بوظيفة رئيس قسم في مديرية مكافحة التجسس البريطانية».

واستمر سادبري،

«وفي الواقع أعتقد أن وظيفة هذا الرجل مؤقتة. أي يقوم بوظيفة، ولكنه لا يشغل هذا المنصب. الأمر الذي يعني أنه رئيس قسم أو شيء من هذا القبيل».

وأجبته بحذر:

«أنا آسف. . ».

واستمر يتحدث عبر الجهاز الالكتروني، «ألا ترى معي بأن مديرية مكافحة التجسس البريطانية هي أم آي ٥ وليس أم آي ٦!».

المعنى واضح جداً. فإذا كان ما يقوله سادبري صحيحاً فالمقصود إذن ليس فيلبي، ولا بلانت الذي لم يكن رئيس قسم بالوكالة أبداً. هناك شخص واحد شغل وظيفة رئيس بالوكالة لقسم في مديرية مكافحة التجسس البريطانية العام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥. وكان اسمه روجر هوليس.

أما الادعاء الثاني فكان ضمن معلومات إيغور غيوزنكو عن جاسوس في أم آي ٥ (اسمه الرمزي «إيلي»). رأيت هذا الادعاء لأول مرة في دفتر آن لاست أثناء التحقيق في قضية ميتشيل. وعدنا للتحقيق مفصلاً في قضية «إيلي» عن طريق «فينونا». فالملفت للانتباه في «إيلي» الذي ذكره غيوزنكو أنه طرح في أيلول ١٩٤٥ في نفس التاريخ الذي جاء في ادعاء فولكوف عن «الرئيس بالوكالة»، وفي نفس التاريخ الذي حققنا فيه اختراقاً لخطوط «فينونا».

إن جوهر قصة غيوزنكو بسيط. قال إنه يعرف عن وجود جاسوس في أم آي ٥. وعرف ذلك من زميله ليوبيموف الذي عمل معه في غرفة شيفرة المخابرات العسكرية السوفياتية بموسكو عام ١٩٤٢. وكان إيلي يقوم بمراسلاته بواسطة الصناديق، حيث استخدم فتحة في شاهد(*) لوضع رسائله. وقال غيوزنكو كذلك إن في إيلي شيئاً ما روسياً؛ أما خلفيته الروسية، أو

(*) شاهد: ما يوضع فوق اللحد للدلالة عليه (الناشر).

لأنه زار روسيا، أو لأنه يتحدث الروسية. وكان إيلي مهماً لأنه كان باستطاعته نقل ملفات أم آي ٥ المتعلقة بالروس في لندن.

كما اطلع ليوبيموف غيوزنكو على أجزاء من رسائل الجاسوس الذي كان اسمه الرمزي «إيلي». وقال غيوزنكو بأنه عندما تأتي رسائل إيلي تقرأها امرأة فوراً داخل غرفة الشيفرة، وإذا كان مضمونها مهماً ترسل على الفور إلى ستالين. دعوت إسماعيل أحمدوف، وهو ضابط كبير في المخابرات العسكرية السوفياتية هرب إلى الغرب (بريطانيا) في نهاية الحرب، وسألته من تكون هذه المرأة. فقال إن اسمها فيرا وكانت تدير نشاط كافة الجواسيس غير الشرعيين للمخابرات العسكرية. وأنها كانت تعمل تحت إمرته مباشرة، إلا أن التعليمات الأمنية تمنعها من كشف هوية عملائها له. وقد وصفها كذلك الكساندر فوته الذي كان عميلاً غير شرعي للمخابرات العسكرية السوفياتية في سويسرا أثناء الحرب وهرب إلى الغرب العام ١٩٤٠، فقال عنها في كتابه «دفتر الجواسيس» انها كانت مسؤولة عنه عندما زار موسكو بقصد التدريب العام ١٩٤٥.

وأول مشكلة واجهتنا في معلومات غيوزنكو أنه دائماً كان يغير التفاصيل. فمثلاً كان يقول «خمسة (٥) أم آي»، ثم أصبحت أم آي ٥، والفرق واضح. من الناحية النظرية يمكن أن تفهم «خمسة أم آي» على أنها تعود إلى القسم (٥) في أم آي. وبالطبع، كان فيلبي في عام ١٩٤٢ يعمل في القسم (٥) في أم آي. والمشكلة الثانية التي واجهتنا مع غيوزنكو أنه أصبح في منتصف الستينات مدمناً على الكحول. وأصبحت ذاكرته أضعف من أن تستجمع ما حدث قبل عشرين سنة. وقد طلبت من الشرطة الكندية تصريحاً بمقابلة غيوزنكو مرة أخرى، لكنهم أخبروني بأنه أصبح يسبب لهم الكثير من المشاكل بسبب الخمر والمال. وأبدوا خشيتهم من أن أي اتصال جديد معه قد يزيد الأمر سوءاً. كما كان في مقابلته مخاطرة كبيرة، إذ أنه من المحتمل جداً أن ينشر الخبر.

طلبت من الشرطة الكندية تزويدي بالملاحظات الأصلية لاستجواب غيوزنكو علها تكون أفضل مصدر لما تفوه به بخصوص إيلي في الأيام الأولى لهربه. لكنهم أجابوني بأن الضابط الذي استجوب غيوزنكو مات منذ فترة طويلة ولا شك بأن الملاحظات التي كتبها في حينه ضاعت لأنها لم توضع في الملف.

أما الدليل الوارد في ملفات المخابرات البريطانية فقد زاد الأمور تعقيداً بخصوص تماسك قصة غيوزنكو. فعند هرب غيوزنكو إلى كندا ذهب ضابط من أم آي ٦ هو بيتر دوير، من واشنطن إلى أوتاوا لحضور الاستجواب. وكان دوير يرسل برقيات يومية إلى مقر أم آي ٦

في لندن تحتوي خطوطاً عريضة عن المعلومات التي باح بها غيوزنكو. كانت هذه البرقيات تصل يومياً إلى رئيس قسم مكافحة التجسس السوفياتي في أم آي ٦ كيم فيلبي. وكان فيلبي بعيد أسبوع تقريباً من استجواب غيوزنكو، يواجه مشكلة خطيرة هي محاولة فولكوف الهرب من تركيا. ولحسن الحظ طلب من نظيره في أم آي ٥، روجر هوليس، أن يذهب إلى كندا لمقابلة غيوزنكو بدلاً منه. فهل كان هذا التبديل محض صدفة؟ أم تم بترتيب مسبق لمعرفة فيلبي بأن هوليس جاسوس زميل وأهل للثقة بحيث يقوم بمهمة خلط الحقائق بالأكاذيب في قضية غيوزنكو؟ وتدلنا عملية «فينونا» أن ال ك ج ب لم تكن تعلم بوجود عميل للمخابرات العسكرية السوفياتية في أم آي ٥ عندما ذهب هوليس لمقابلة غيوزنكو. وكان أهم وأدق المعلومات في استجوابه هي تلك التي أشار فيها إلى جواسيس محتملين في برنامج تطوير الأسلحة الذرية. فتقرير هوليس ذكر هذه القضية بإسهاب. أما قضية الجاسوس إيلي في «خمسة أم آي» فقد بقيت على هامش التقرير. وكان رأي هوليس كما طرحه في التقرير أن غيوزنكو كان مشوشاً في ما يتعلق بتركيبة المخابرات البريطانية. وبالتالي فإن غيوزنكو مخطىء، لذا تم دفن القضية. وهذا ولا شك رأي خاطىء.

على أية حال، فإن المدخل مسجل في ذهن غاي ليديل، الذي كان حينها رئيس التجسس المضاد. فقد تكهن في مذكراته حول الهوية المحتملة للجاسوس «إيلي». ولم أكن أعلم بهذه المذكرات إلا عندما أحضرتها لي سكرتيرة ليديل وطلبت مني حفظها، بعد أن أمر هوليس باتلافها. وفكرت، هل جاء أمر هوليس صدفة أم أن هناك أسباباً وراء إتلافها؟

وفي العام ١٩٦٥ نجحنا في حل رموز رسالة عن طريق «فينونا». غيرت موقف «فلوينسي» من ادعاء غيوزينكو، فوضعناه في فئة الادعاءات الصحيحة.

بدأنا بحل رموز «فينونا» المتعلقة بخطوط البث في ١٥ أيلول العام ١٩٤٥، حيث توصلنا إلى رسالة إلى كروتوف تحذره بأن يعمل بهدوء على حماية عميله الثمين على ضوء المشاكل التي يواجهها «الجيران» في كندا. وهذا يشير بوضوح إلى هرب غيوزنكو الذي حدث في الأسبوع السابق لإرسال هذه الرسالة. أما كلمة «الجيران» فهي التعبير الذي تستخدمه ال ك ج ب لوصف المخابرات العسكرية السوفياتية، التي كان غيوزنكو ضابطاً فيها. ولم يكن هناك ما يثير مخاوف ال ك ج ب على عملائها في بريطانيا. فالمخابرات العسكرية لا تعرف شيئاً عن أسرار ال ك ج ب، بالإضافة إلى أن فيلبي كان يزود ال ك ج ب بالتطورات يومياً.

لكن لهجة الرسائل الواردة من موسكو إلى كروتوف في نهاية الأسبوع اختلفت تماماً. فقد اختفت علامات الهدوء منها. وكانت تحمل تعليمات دقيقة ومفصلة لكروتوف حول

التعامل مع عملائه. إذ يجب الاكتفاء «بالاتصالات العرضية» مع العملاء، وتخفيض المقابلات إلى الحد الأدنى النهائي، مرة واحدة في الشهر.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، لماذا أصبح المركز في موسكو قلقاً فجأة مما قد تحتويه معلومات غيوزينكو؟ لقد هرب غيوزنكو في ٥ أيلول، قبل أسبوعين من ظهور اللهجة الجديدة. ولا بد أن المخابرات العسكرية السوفياتية قامت فوراً بتقييم الخسائر والأضرار، واتخاذ الاجراءات الاحتياطية لحماية ما يعتقدون أن غيوزنكو قد أفشاه. وفي حوالي الثاني عشر من أيلول بدأ بيتر دوير يرسل لكيم فيلبي في أم آي ٦ ما يبوح به غيوزنكو. وبعدها بأسبوع بالضبط شعرت قيادة ال ك ج ب فجأة بالقلق.

يمكن أن نجد الجواب على هذه المسألة في ملفات أم آي ٦ عن تلك الفترة. ففي ١٨ ـ ١٩ أيلول وصلت برقية إلى مكتب فيلبي كان أول بند فيها أنه يوجد في معلومات غيوزنكو وصف لجاسوس اسمه الرمزي «إيلي». ويبدو واضحاً هنا أن هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيلبي فيها عن الجاسوس في «خمسة أم آي». أما النسخة الحقيقية لهذه البرقية فقد وجدناها في الستينات مطوية طويتين وأطرافها متآكلة مما يشير إلى أنها كانت موضوعة في جيب قبل إيداعها الملف. وبالإضافة إلى ذلك وقع عليها فيلبي بتوقيعه الرمزي «هارب» بعد يومين من تاريخ استلامها. وهذا يدل بوضوح على أنه أخذ البرقية خلال هذين اليومين وعرضها على مسؤوله الروسي في لندن ثم أعادها. لم نعثر على أية برقية أخرى في الملف مطوية بهذا الشكل. إذن، لا بد أن هذه هي البرقية التي أثارت الفزع في نهاية ذلك الأسبوع من البث.

طلبت من قيادة الاتصالات القيام بعملية بحث عن كافة شيفرة ال ك ج ب من لندن إلى موسكو. لكننا لم نستطع حل رموز هذه الشيفرة. فجميع الرسائل التي توصلنا لحلها كانت بالاتجاه المعاكس موسكو ـ لندن. وأخبرني سادبري بأن قيادة الاتصالات الحكومية لاحظت بأن رسالة أرسلت في أيلول ١٩ ـ ٢٠ إلى موسكو طغت على بقية الرسائل في نفس القناة، الأمر الذي جعلهم هناك يشكون بأنها ذات أهمية قصوى. ولهذا الأمر أهمية بالغة، فمن الواضح أنه تم إرسال هذه الرسالة بعد أن استلم فيلبي البرقية من كندا التي تحتوي معلومات غيوزنكو عن الجاسوس إيلي «خمسة أم آي». تم التأكد من ذلك، بعد أن أجرت قيادة الاتصالات الحكومية تحليلاً لفظياً للرسالة مع مقارنتها ببرقية كندا التي وصلت إلى فيلبي فوجدنا أنهما تستغرقان نفس الوقت.

عندما عرفنا أن هناك رسالة ذات أهمية قصوى من لندن إلى موسكو، أخذنا نبحث عن

[illegible] إلى لندن. وكانت هناك رسالة واحدة في الاتجاه المعاكس ذات أهمية قصوى. لكننا لم نستطع أن نقرأ هذه الرسالة بشكل صحيح. فتاريخها في نهاية أسبوع البث. ونظراً لأهميتها وصلت في وقت مبكر إلى لندن قبل وصول الرسائل الأخرى التي كان باستطاعتنا قراءتها. وفي نهاية العام ١٩٦٥ قررت أنا وسادبري القيام بمحاولة يائسة لفك رموز هذه الرسالة بالاعتماد على الحدس بأنها ردٌ على رسالة فيلبي. نجحنا في قراءتها، وجاء فيها ما يلي: «تم الحصول على موافقة الرؤساء لاستشارة الجيران عن معلومات ستانلي حول شؤونهم في كندا. معطيات ستانلي صحيحة».

أذكر أنني جلست في مكتب سادبري نتناقش حول هذه الترجمة. فلم تكن تعني شيئاً. كنت أخشى في البداية أن نكون مخطئين. ولكن سادبري قام بمضاهاة الترجمة مع النسخة الثانية من «فينونا» ووجدنا أن الترجمة صحيحة. لم يكن هناك أي خطأ. كان فيلبي في وقت إرسال هذه الرسالة ضابطاً كبيراً في ال ك ج ب ورئيس مكافحة التجسس في أم آي ٦ لمدة عشر سنوات. ولكن يبدو أنهم شكوا في معلوماته. فلماذا أرادوا التأكد من المعلومات؟ وما هي يا ترى معطيات ستانلي التي أربكت ال ك ج ب؟

هناك تفسير واحد فقط لكل هذه المسائل. لا بد أن ال ك ج ب لا تعلم شيئاً عن العميل في «خمسة أم آي»، الذي تديره المخابرات العسكرية السوفياتية. وعندما نقل إليهم فيلبي الخبر عن هذا العميل، والخطر المحدق به بسبب غويزنكو، كان على ال ك ج ب أن تطلب موافقة «الرؤساء»، أي المكتب السياسي، لاستشارة «الجيران» أي المخابرات العسكرية السوفياتية فيما إذا كان لهم فعلاً جاسوس في لندن. وعندما تسلَّمتْ تأكيداً من المخابرات العسكرية بوجود مثل هذا العميل، أدركت ال ك ج ب خطورة الموقف في لندن، فأرسلت رسالة تؤكد فيها معطيات ستانلي، وأتبعتها بأوامر وتعليمات لزيادة الإجراءات الأمنية الاحتياطية.

ولكن من هو إيلي، وأين كان يعمل؟ من الواضح أنه ليس فيلبي أو بلانت، طالما نعلم بأنهما ليسا عملاء للمخابرات العسكرية السوفياتية. وقد سألت كل المنشقين الروس عما تعنيه عبارة «خمسة أم آي»، فأكدوا لي جميعهم بأنها تعني أم آي ٥، وليس القسم (٥) في أم آي ٦. لا بد أن إيلي هذا كان على اطلاع على ملفات الروس، الأمر الذي يعني أنه عمل في الشعبة و، حيث كانت تعالج هذه المواد. وكان أعلى ضابط في الشعبة و روجر هوليس. أي نفس المشتبه به الذي جاء في ادعاء فولكوف على أنه «رئيس بالوكالة».

أمضت «فلوينسي» سنين عديدة وهي تحاول حل اللغز الذي يربط المداخل الثلاثة؛

إدعاء فولكوف «رئيس بالوكالة»؛ وادعاء «غيوزنكو «إيلي» والأسماء الثمانية السرية التي وردت في «فينونا». وكل واحد من هذه الثلاثة يعود في تاريخه إلى أسبوع واحد من أيلول ١٩٤٥ . من تراه يكون، هل هوليس أم ميتشيل؟ لا بد أن يكون واحداً منهما. إن التشابه بين هذه الخيوط لا يمكن أن يدحض. وعبارة «رئيس بالوكالة» و «إيلي» تشير بوضوح إلى هذين الرجلين. مع أن الادعاءين مختلفان من حيث المصدر فالأول من الـ ك ج ب والثاني من المخابرات العسكرية. أما حسب «فينونا» فهناك ثمانية جواسيس. وفولكوف قال إن هناك سبعة جواسيس في لندن، إثنان في وزارة الخارجية، وخمسة في المخابرات البريطانية. كان ماكلين في واشنطن لمدة سنة، لذا لا يمكن أن يكون أحد الاثنين اللذين في وزارة الخارجية. ربما كان بيرغيس أحدهما، فقد كان في ذلك الوقت يعمل في القسم الصحافي في وزارة الخارجية. أما أفضل تقدير عن الجاسوس الثاني فهو ما طرحه كريفيتسكي عن «ايتون وأكسفورد» الذي استخدمه فيلبي لإبعاد أم آي ٥ عن ماكلين عندما كانت الحلقة تطبق عليه العام ١٩٥١ .

ولكن ماذا عن الجواسيس الخمسة في أم آي ٥؟ كان الأول فيلبي والثاني بلانت والثالث كيرنكروس. أما لونغ فيبدو نظرياً أنه الرابع حسب ادعاء فولكوف، ولكنه لم يكن في لندن في ذلك الوقت، كما أنه بالتأكيد خارج دائرة الأسماء الثمانية الواردة في فينونا، طالما أنه كان في ألمانيا في أيلول ١٩٤٥ . وهذا يعني أنه تبقى جاسوس آخر حسب ادعاء فولكوف هو «الرئيس بالوكالة»، بالإضافة إلى أربعة أسماء في فينونا. وإنني أفترض أن «الرئيس بالوكالة» أحد هذه الأسماء الأربعة، بالإضافة إلى جاسوس فولكوف الثاني في وزارة الخارجية. أما بالنسبة لـ «إيلي» فلم نجد له أي أثر.

أما النقطة الثالثة التي بحثت فيها «فلوينسي» فهي قضية سكربكين. وقد جاءت هذه المعلومات عن طريق يوري راستفوروف، سكرتير ثانٍ في السفارة الروسية في طوكيو، وكان في الواقع لفتنانت كولونيل في ال ك ج ب. اتصلت المخابرات البحرية البريطانية مع راستفوروف في خريف عام ١٩٥٣ ، وبدأت تفاوضه على الهرب إلى الغرب. وافق راستفوروف أخيراً على الهرب بشرط أن يذهب فوراً إلى إحدى المستعمرات البريطانية مثل أستراليا (!)، وليس إلى بريطانيا نفسها. وقال إن السبب في رفض الذهاب إلى بريطانيا يعود إلى اعتقاده بأن المخابرات البريطانية مخترقة، ولم يوضح أكثر من ذلك.

رتب قسم المخابرات البحرية عملية نقل راستفوروف بحيث تقله طائرة عسكرية بريطانية من طوكيو إلى سنغافورة، ليسلموه هناك للجنة أم آي ٥/أم آي ٦ المشتركة في الشرق الأقصى. لم يخبروا راستفوروف بهذا المخطط. ولسوء الحظ أن عاصفة ثلجية هبت على المطار مما اضطر الطائرة للتوقف عن الاقلاع بعد استعدادها النهائي في طرف المدرج.

وفي فترة انتظار هدوء العاصفة اكتشف راستفوروف من حديث الطاقم بأن الطائرة متوجهة إلى سنغافورة وليس إلى أستراليا. فجن جنونه وهرب من الطائرة وذهب رأساً إلى السفارة الأمريكية ليلجأ إليها بدلاً منا.

بعد فترة من الزمن أخبرتنا السي آي أي بأن راستفوروف أعطى تفاصيل أكثر فيما يتعلق باعتقاده بوجود اختراق في المخابرات البريطانية. فقال إن صديقاً له يدعى سكربيكين اتصل بالبريطانيين العام ١٩٤٦ في الشرق الأقصى طالباً الهرب. ورتب سكربكين أوضاعه بحيث يعود إلى موسكو ليأخذ زوجته معه ويهربا سوية في الزيارة الثانية. أما في موسكو فقد كان سكربكين مراقباً. فاتصل به اثنان من ال ك ج ب على أنهما ضباط أم آي ٦. وهكذا سلم نفسه لهما فحوكم وأعدم رمياً بالرصاص.

وعندما راجعنا السجل بشأن سكربكين وجدنا فعلاً بأن له ملفاً، احتوى على تقريرين من المخابرات البحرية البريطانية في الشرق الأقصى، يتعلقان بخطط تهريب سكربكين، أحدهما مؤرخ في آيار ١٩٤٦ والثاني في تموز ١٩٤٦. وقد أرسل التقريران وهما مشبوكين سوية بدبوس إلى أم آي ٥ للاطلاع، ووصلا في آب ١٩٤٦. كان هوليس مساعد مدير الشعبة و، هو الذي أعد الملف ووضعه في السجل، حيث بقي هناك حتى روى راستفوروف قصته عام ١٩٥٤. وعندما سحب الملف نسبت العملية أوتوماتيكياً إلى فيلبي بواسطة الأم آي ٥.

بعد تدقيق «فلوينسي» في القضية ظهرت حقائق جديدة. أولها أن غوليتسين سألنا في الفترة الأولى لهربه عام ١٩٦١ عما نعرفه عن قضية سكربكين. وقال إنه عمل في القضية العام ١٩٤٦ عندما كان ضابطاً صغيراً في قسم مكافحة التجسس في المديرية الأولى. وأضاف بأنه يتذكر أن التقرير بخصوص القضية وصله من لندن، وبالتأكيد لم يكن من الشرق الأقصى، في نهاية عام ١٩٤٦، حيث كان الثلج يغطي الأرض في موسكو. وقد ذكر غوليتسين بدون أي إكراه كيف استطاع ضابطان من الـ ك ج ب تمثيل دور ضابطين في أم آي ٦. وطلبنا من غوليتسين أيضاً أن يصف لنا الوثيقتين اللتين شاهدهما. كان دقيقاً جداً في وصفه لهما. فقال إن الأولى كانت تتعلق بما قاله سكربكين، وتقييماً له. أما الثانية فكانت عبارة عن ملحق بخططه المستقبلية، يتضمن عنواناً يمكن الإتصال به من خلاله في موسكو. وأكد غوليتسين كذلك بأن كلا الورقتين كانتا مشبوكتين سوياً بدبوس، عندما صورهما العميل في لندن.

والحقيقة الجديدة الثانية التي توصلت إليها لجنة «فلوينسي» هي أن نيكولاس إليوت سأل فيلبي في بيروت أثناء التحقيق معه فيما إذا أفشى سر سكربكين. ولكن فيلبي أنكر بعناد

أن يكون فعل ذلك، وقال إنه لا يعرف حتى عن هذه القضية رغم التفاصيل التي عرضت عليه. افترضنا وقتها بأن من مصلحة فيلبي أن يدعي الصدق في القضية. وربما كان فيلبي صادقاً في هذه المناسبة.

طلبت بحثاً كاملاً في عملية توزيع تقريري سكربكين، لأرى فيما إذا كان ذلك سيلقي مزيداً من الضوء على القضية. وقد أظهرت لنا النتائج أشياء جديدة. ذهب تقرير شهر آيار إلى قسم المخابرات البحرية (هونغ كونغ)، ثم إلى سنغافورة وأخيراً إلى لندن. واحتفظوا بالتقرير في خزانة البحرية ثم وزعوا نسخاً منه داخل قسم المخابرات البحرية بشكل روتيني. وتم ايصاله فيما بعد إلى الشعبة (ر) (R) في أم آي ٦. كما أرسلوا النسخة الأصلية إلى الشعبة ٥ التي قامت بوضعه داخل ملف. ودلت كافة الأبحاث في سجلات أم آي ٦ على أن فيلبي لم يكن على قائمة التوزيع بالنسبة لهذا التقرير.

وثيقة تموز، الثانية، وُزِّعت بنفس الطريقة، باستثناء مكتب سنغافورة. وفي هذه الفترة اتخذ قرار شبك الورقتين معاً بدبوس وإرسالهما إلى أم آي ٥، حيث وصلا هناك في الثامن من آب تاريخ معرفة أم آي ٥ بالقضية. كما كان هذا المكان هو الوحيد الذي وصلته الورقتان مشبوكتين، وهي حقيقة تلتقي تماماً مع ما ذكره غوليتسين. فالذي أفشى سر سكربكين كان في أم آي ٥ وليس أم آي ٦. مما يجعل فيلبي مستثنى، أما بلانت فكان ترك أم آي ٥ قبل سنة من ذلك الوقت. وهنا تشير الحقائق مرة أخرى إلى روجر هوليس، مساعد رئيس قسم الشعبة «و» الذي حقق في القضية.

بعد أن أكملت «فلوينسي» عملية تحليل الادعاءات وإعطائها شكلها الواضح، بدأت أخطر مهمة في حياتي. قمت بدون أي تفويض رسمي بعملية بحث واستجواب في خلفية هوليس. وكان علي أن أكون حذراً جداً لأن أي تسرب عن مهمتي سيؤدي إلى فصلي من العمل. ذهبت إلى أكسفورد وزرت مكتبة بودليان. واكتشفت من خلال سجلات الجامعة بأن هوليس لم يستطع الحصول على درجة علمية رغم أنه كان يدرس في أكسفورد في العشرينات. ترك الدراسة بشكل غامض بعد خمسة فصول. بدا ذلك أمراً لا يتناسب مع رجل تقليدي مثله. كما زرت الكلية التي درس فيها هوليس، «ورسيستر» وبحثت في السجلات لأعرف مع من كان يعيش في نفس الطابق. ووجدت أنه انتقل في الفصل الرابع ليعيش في غرفة بالأجرة في ولينغتون سكوير. دققت في سجلات أكسفورد التي تحوي عناوين كافة الطلاب في الجامعة لأجد الطلاب الذين عاش معهم هوليس. وبحثت كذلك في سجلات نادي الجامعة للغولف على أمل أن أجد شيئاً ما يشير إلى لغز شخصية هوليس.

كان العمل بدون معرفة خلفية هوليس وسجله يفقدني القدرة على الرؤية الشاملة للموضوع. وعرفت من خلال حديثي المباشر معه بأنه زار الصين، لذلك قمت بتدقيق مواعيد مغادرته ووصوله عن طريق سجلات الجوازات العامة. وقمت باستجوابات سرية في بنك تشارترد ستاندارد الذي كان يعمل فيه قبل سفره إلى الصين، ولكنني لم أجد سوى عنوان قديم لبنك صيني.

كنت أحاول العثور على دليل عن حياته السرية، عن صديق عابث، أو إشارة ما عن نشاط سياسي علني، فكل إنسان يُعرف من خلال أصدقائه. بدأت أرسم صورة لأولئك الذين كانوا مقربين جداً من هوليس في أواخر عام ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فوجدت هناك شخصين مهمين في أكسفورد هما كلود كوكبيرن وموريس ريتشارد سون. الإثنان كانا يساريين. وعندما راجعت ملف كوكبيرن لاحظت بأن هوليس احتفظ بالملف لديه طوال فترة الحرب، ولم يكتب مطلقاً على الملف ما يشير إلى أنه يعرف كوكبيرن حسب تعليمات الجهاز، وتساءلت: هل كانت لديه أسبابٌ لإخفاء علاقته بكوكبيرن الذي يتمتع باتصالات مكثفة مع الكومنترن؟

وفي الصين سارت الأمور على نحو مشابه. ففي أواخر عام ١٩٣٠ كانت الصين بؤرة للنشاط السياسي، ومركزاً نشطاً للتجنيد لصالح الكومنترن. وأبلغني هيو وينتربورن أن كولونيلاً متقاعداً كان على صلة به في اليابان وتعرف على هوليس أثناء إقامته في الصين حيث سكنا سوية في نفس المنزل لمدة سنة. حدد لي وينتربورن موعداً لزيارته. كان توني ستابلز ضابطاً عسكرياً فجاً وتقليدياً، وتذكر هوليس جيداً. وقال إنه لم يعرف مطلقاً اتجاهات هوليس السياسية، ولكنه يعتقد بأنه يساري لأنه كان يختلط مع يساريين مثل آغنس سميدلي، وهو صحافي يساري ومكتشف مواهب، كما كان على صلة بآرثر ايورت الذي وصفه ستابلز بأنه اشتراكي دولي.

أما الشخص الثاني الذي قابلته فكانت جين سيسمور، التي كانت مسؤولة عن انضمام هوليس إلى أم آي ٥ قبل الحرب. فجين انتقلت من أم آي ٥ إلى أم آي ٦ وتزوجت من ضابط هناك وأصبح اسمها جين آركر. كانت امرأة ذكية ترأست قسم الشؤون الشيوعية في أم آي ٦. ولطالما كنت التقي بها أثناء استجوابات الشعبة د ٣. كانت دائماً متعاونة واقترحت علي أن تمتد الاستجوابات والتحقيق إلى سنين مضت. وبعد ظهر أحد الأيام طرحت معها موضوع ميتشيل وهوليس، اللذين عملا معها في فترة الحرب. وبما أن جين محاربة قديمة أدركت تماماً الهدف من السؤال.

وسألتها:

«هل يمكن أن يكون أحدهما جاسوساً؟».

فقالت:

«كلاهما ليسا أهلاً للثقة. ولكن إذا طلب مني أن اختار أحدهما لاخترت روجر هوليس».

في تشرين الثاني ١٩٦٥ طلبني هوليس إلى مكتبه. كان ودوداً وغير رسمي. فلم يحدث أن زرته دون أن يكون مجتمعاً مع سكرتيره. حياني بحرارة قرب الباب. وقال، وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

«تعال واجلس».

نفض الغبار، الذي لم يكن موجوداً، عن الصوفا، ثم جلس قبالتي في كرسيه الكبير. وكان هذا أيضاً غريباً، لأنه كان يجلس عادة عندما يقابلني على كراسي العمل. بدا لي واضحاً أنه يريد أن يجعل اللقاء خارج الحدود الرسمية. حتى إنه أخذ يتحدث عن قرب تقاعده وقال:

«الظروف صعبة الآن، والراتب التقاعدي لا يكفي، وكل شيء محسوب..؟».

فقلت:

«ما هي مشاريعك؟».

«آوه.. إلى الريف على ما أعتقد. فلدي هناك مكان صغير.. سأتخلص من متاعب العمل، لعبة الغولف والتنزه في الريف... شيء من هذا القبيل».

وجلجل ضاحكاً. وقال:

«من المضحك أن ترى صورتي معلقة على هذا الجدار بعد أسابيع قليلة».

وأشار إلى صور المدراء السابقين. كانوا جميعاً يختلفون عنه.

ثم استدار نحوي وانحنى قليلاً للأمام ويديه على ركبتيه. كان يبتسم مثل قط. وقال:

«أريد أن أسألك يا بيتر سؤالاً أخيراً قبل أن أغادر هذا المبنى. أريد أن أعرف لماذا تعتقد بأنني جاسوس؟».

كان علي أن أفكر بالجواب بسرعة. فإذا كذبت سيكون وضعي محرجاً، لأنه سيعرف ذلك ويفصلني. لذلك أخبرته بالحقيقة.

جعل هوليس الأمور تبدو طبيعية. فمنذ أن بحثت معه قضية تيسلر، قبل حوالي عشر

سنوات، ونحن نحضر لهذه المواجهة. أما الآن فالمواجهة قائمة ومكشوفة، وبدت الكلمات غير كافية أبداً على مواجهة كل الشكوك المتراكمة في الأبحاث السرية السابقة.

وقلت:ـ

«هناك ادعاءات قديمة يا سيدي. بالإضافة إلى الأمور التي كانت تسير في الطريق الخطأ. وأنت تعرف وجهة نظري حول الفشل في فترة ما بعد الحرب. انها مجرد عملية حذف، في البداية كنا نشك في ميتشيل أما الآن فنحن نشك بك».

وقال:

«أجل أجل. ولكن لا بد أنك تبحث عن أشياء جديدة؟».

«نعم، أبحث في الادعاءات القديمة، يا سيدي؟».

شرحت له لمدة ساعة تقريباً عن قائمة فولكوف، والترجمة، وإيلي الذي طرحه غيوزنكو، وتقرير سكربكين.

وقال ضاحكاً:

«حسناً يا بيتر، والآن ستضع القيود في يدي. أليس كذلك؟».

حاولت مقاطعته، ولكنه أشار بيديه لكي يهدأني:

«كل ما أستطيع قوله هو أنني لست جاسوساً».

«ولكن هل يوجد شيء محدد يا سيدي. أي شيء أستطيع أن أقدمه للجنة فلوينسي.. أي شيء؟».

بدا صوته خالياً من الثقة وهو يقول:

«أستطيع أن أعود لملاحظات استجواب غيوزنكو. لا أذكر سكربكين، حقيقة لا أذكره.. وفولكوف». وأخذ ينقر القلم على أسنانه.

«لا أعتقد أنك فهمت قضية فولكوف بالشكل الصحيح. فلماذا يذهب كيم فيلبي فوراً إلى تركيا؟ كان يجب أن يتأكد قبل الذهاب».

تنهد وكأنه يتذكر أشياء قديمة جداً. وسأل فجأة:

«أعتقد أن تشكيل لجنة فلوينسي هو عمل جيد أليس كذلك؟».

«أجل يا سيدي! أعتقد ذلك. لقد جاءت في وقت متأخر».

«نعم، وأعتقد أنك ستفكر بأ... ماك دونالد غير موثوق ـ أعتقد أنك تعرف ذلك».

إنه يتلقى التقارير يا سيدي، وأعتقد أنه يقرأها».

وأجاب هوليس:

«أجل، كلنا نقرأ التقارير. إنها رائعة. كل ذلك التاريخ. وهي جيدة للتخلص من الطفيليات».

ابتسم ابتسامة القط إياها. وقال وهو يقف:

«حسناً، شكراً لصراحتك يا بيتر. لدي عمل الآن. أشكرك على هذا الحديث، رغم. . .». واتجه نحو طاولة العمل. فيما ذهبت أنا باتجاه آخر نحو الباب. وكنا مثل ممثلين أنهيا دوريهما باتقان.

لم ألتق مع روجر هوليس مطلقاً غداة هذا اللقاء. بعد عدة أيام جاء فيرنيفال جونز مديراً عاماً جديداً. وكان أول قرار اتخذه نقل صور المدراء السابقين إلى مدخل المكتب. وعندما سألته لماذا، قال:

«لا أريد جمهوراً يراقب عملي».

كان فيرنيفال جونز رجلاً عملياً وصل إلى القمة من داخل المهنة. كان صلباً يؤمن بأن أمامه مشكلة واحدة رئيسية، هي حجم الهجوم السوفياتي، أي اعداد ضباط المخابرات السوفيات في لندن، مقابل قواه المحدودة. لذلك اتسمت مدة ولايته لمنصب المدير العام بحملة توسيع الأم آي ٥ وتقليص عدد الدبلوماسيين السوفيات. وقد حقق بعض النجاح في المهمة الأولى وانتصر في الثانية.

كانت الأولوية في عمله هي التجسس الروسي المضاد، ومنذ توليه المنصب تغير نهج التعاطي مع المسألة بالكامل. ففيما كنت في السابق أضطر إلى الإلحاح للحصول على موافقة أمر ما، أصبحت أكتفي بالاتصال بفيرنيفال جونز أو اذهب فوراً لمقابلته لأحصل على القرار الذي أريده فوراً. كان يدعم الشعبة د ٣ بدون أي تحفظ، ووافق على كل المقابلات التي نحتاجها دون أي سؤال. لم يكن ينتفض عندما أعرض عليه أحكاماً تقييميه في قضايا مثل قضية واتسون أو بروكتور. فإذا ما اقتنع بالدليل فإنه يبدأ العمل فوراً. لم يكن فيرنيفال جونز معقداً. فهو ظاهرياً رجل إنجليزي مهذب، ولكنه في الأعماق صلب ومتشدد. ولذلك لم يكن له أصدقاء كثر في الوايت هول. ماذا يفعل وعملنا يتطلب هذه الصلابة وهذا التشدد.

أسفت جداً لأنه عيَّن أنتوني سيمكنز نائباً له. فسيمكنز هو الشخص الوحيد، تقريباً، الذي أكرهه جدياً في أم آي ٥، وكان هذا الشعور متبادلاً. كنت أعرف بأنني سأواجه مشاكل عديدة عندما يصبح نائباً للمدير العام، فهو محام. وكان بيننا خلاف منذ عدة سنين قبل وصوله

إلى هذا المنصب، عندما كان مدير عام الشعبة ج، حيث كان متوسط النجاح. فقد طلب مني ترأس فريق عمل مشترك من أم آي ٥ و أم آي ٦ ووزارة الخارجية وقيادة الاتصالات الحكومية لبحث الأمن التقني في السفارة البريطانية في موسكو، بعد أن شب حريق في غرفة الاتصالات اللاسلكية المسؤولة عن اعتراض الاتصالات الروسية المحلية. كان واضحاً، من خلال التحقيق، أن الروس لم يبدأوا هذا الحريق فحسب بل كانوا على اطلاع على الغرفة لمدة طويلة. كان الروس يقرأون كل ليلة ما يرد إلى جهاز الاستقبال في الغرفة، وبالتالي كانوا يعرفون ما نعترضه من اتصالاتهم. لقد قام المنظفون الروس العاملون في السفارة ببساطة بفك أقفال الباب الحديدي ودخلوا مباشرة إلى الغرفة.

وخلال التحقيق في هذه القضية تمكنت من حل لغز آخر في قائمة فولكوف. فقد ادعى فولكوف أن الروس حلوا رموز شيفرة وزارة الخارجية المرسلة إلى موسكو. وبالتأكيد أن ماكلين أفشى سر كل رمز اطلع عليه في وزارة الخارجية. ولكن سجلات الوزارة بينت لنا أن سفارتنا في موسكو كانت تستخدم أثناء الحرب وبعدها نوعاً من اللبادات يستعمل لمرة واحدة، لذا لا يمكن أن يكون ماكلين مسؤولاً عن هذه القضية.

وإذ تذكرت عملي مع جهاز «الشيء» عام ١٩٥١، بت متأكداً أن الروس كانوا يستخدمون نظام ميكروفونات مخفية. بعد البحث وجدنا ميكروفونين في سقف غرفة الاتصالات. وأثناء الحرب كان يعمل داخل الغرفة موظفان اثنان يستعملان اللبادات التي تستخدم لمرة واحدة، وكان أحد الموظفين يقرأ النص الحقيقي للرسالة والثاني يحولها إلى شيفرة. فيسجل الروس النص الحقيقي فوراً عن طريق الميكروفونات. استطعنا من خلال تقارير مختبر أبحاث البناء أن نحدد تاريخ زرع الميكروفونات في حوالي عام ١٩٤٢، عندما كانت السفارة في كيوبيشيف.

وكشف تقرير لجنة العمل المشتركة عن وجود تقصير مرعب في الاجراءات الأمنية داخل السفارة، وأوصى كل عضو في اللجنة بتقديم انتقاد شديد اللهجة إزاء هذا التقصير. وطالب بتعيين ضابط أم آي ٥ مقيم في السفارة يعنى بالشؤون الأمنية. ووزعت هذا التقرير، فوصل إلى يد فيرنيفال جونز الذي كان آنذاك نائب المدير العام. وطلبت منه الموافقة على إرسال التقرير إلى وزارة الخارجية. واقترح علي فيرنيفال جونز إرسال التقرير إلى سيمكنز من باب اللياقة كونه مدير الشعبة ج المسؤولة عن الأمن الوقائي، الذي تأتي هذه القضية ضمن اختصاصه من الناحية التقنية. وهكذا أرسلت نسخة إلى سيمكنز. ففوجئت به يستدعيني إلى مكتبه بعد عدة ساعات.

فصرخ قائلاً:

«لا تستطيع إرسال مثل هذا التقرير إلى وزارة الخارجية».

«ولم لا؟ فالمكان كله أصبح خرائب».

«حسناً، أنا آسف، ولكنك تخاطب وزارة الخارجية. إنها من أهم المؤسسات في الدولة، ولا يمكن أن ترسل إليهم تقارير كهذه. وأنا لا أقترح إرساله!».

أذهلني أنه شطب التقرير بقلم أزرق. فأخذت التقرير إلى فيرنيفال جونز لأريه ماذا فعل سيمكنز. فاقترح علي تصنيفه وإرساله دون أي تغيير فيه. وكان فيرنيفال جونز يدمدم.

«وزارة الخارجية، لقد عانيت منهم كثيراً».

وأرسلت التقرير. ثم عين شاب من أم آي ٥، اسمه توم موشن، في موسكو. ولكن منذ هذه الحادثة أصبحنا أنا وسيمكنز أعداء مدى الحياة.

وبعد استلام فيرنيفال جونز منصب المدير العام بفترة قصيرة، سلمت لجنة «فلوينسي» تقريرها الأول له ولديك وايت، كرئيس لأم آي ٦. وكان التقرير مقسماً إلى قسمين، الأول جاء فيه قائمة للثمانية وعشرين ادعاءً التي كنا متأكدين من صحتها ومن أنها قابلة للتحقيق، ولكن لا يمكن أن نعزوها إلى جاسوس معروف. أما القسم الثاني فكان يحتوي الادعاءات المكتوبة على شكل رواية ابتداءً من غيوزنكو العام ١٩٤٢ وانتهاءً بمعلومات غوليتسين العام ١٩٦٢، لإظهار استمرار عملية الاختراق. وقدمنا هذا التقرير لكلا المديرين. وانتظرنا ستة أشهر حتى بُحث التقرير ثانية. طلب منا إعادة تصنيف ما توصلنا إليه، من خلال قائمة تضم فقط الادعاءات التي نشعر بأنها قابلة للتحقيق، بالإضافة إلى إصدار حكم في من تنطبق عليه هذه الإدعاءات أكثر من غيره.

قررت لجنة «فلوينسي» ضرورة التحقيق في ادعاء غيوزنكو بخصوص «إيلي» وادعاء فولكوف بخصوص «الرئيس بالوكالة». كما أوصت بأن يتم التحقيق فيهما معاً لتقارب الفترة الزمنية بينهما. أما اسم المشتبه به فقد كتب بعناية في أسفل الصفحة، دون رتبة أو لقب «روجر هوليس».

تضمن التقرير كذلك الادعاء الثالث وهو ادعاء غولينيفسكي بخصوص «عميل ذي مستوى متوسط»، وكان أيضاً يشير إلى هوليس. بدأت قصة «العميل ذي المستوى المتوسط» في تشرين أول ١٩٦٣. فقد قرر أخيراً غولينيفسكي (واسمه السري سنايبر)، أن يقابل أم آي ٥ لتوضيح بعض تفاصيل الادعاءات التي ذكرها في رسائله من بولندا. في البداية

كان غولينيفسكي غير راغب في أية مقابلة مباشرة مع أم آي ٥ لفشلنا في إلقاء القبض على «لامبدا»، أي جورج بليك. ولكن بعد اعتقال بليك قام رئيس القسم البولندي بزيارة غولينيفسكي، وكان هو الآخر من أصل بولندي.

وفي الوقت الذي قابلت فيه أم آي ٥ غولينيفسكي، كانت السي آي أي تشك بأنه يتجه بسرعة نحو الجنون. فقد بدأ يتوهم بأنه من نسل القيصر. ومع ذلك كانت ذاكرته المخابراتية دقيقة جداً. وذات صباح أثناء المقابلات التي كانت تتم معه، أعلن غولينيفسكي بأن لديه قصة لم يروِها من قبل، لأن المخابرات البريطانية بالكاد أمسكت بليك، وبأنه يعرف بأن هناك عميلاً ذا مستوى متوسط في داخل أم آي ٥.

وقال غولينيفسكي أنه عرف عن هذا العميل حين كان ذات مرة يبحث مسألة الهرب إلى الغرب في الخمسينات مع صديق له وضابط آخر أعلى منه رتبة. كان من الصعب عليهم اتخاذ تقرير وجهة الهرب إلى أمريكا أم إلى بريطانيا. وقد وافق ثلاثتهم على أن بريطانيا أفضل للعيش لوجود عدد كبير من المهاجرين البولنديين فيها، ولكن من المستحيل الاتصال مع أم آي ٦ بسبب وجود العميل لامبدا. وهكذا اقترح غولينيفسكي على زميليه محاولة الاتصال مع أم آي ٥ من خلال المهاجرين البولنديين في لندن. وكان يعرف أن الجالية البولندية كانت تحت المراقبة المكثفة للشعبة د. ولكن زميله الضابط قال له إن هذه الخطة خطيرة جداً، لأنه يعرف أن هناك عميلاً للروس داخل أم آي ٥ أيضاً.

جندت المديرية الثالثة في ال ك ج ب هذا العميل. وهذه المديرية مسؤولة عن التسلح، وسمح لها بالاحتفاظ بهذا العميل لأنه كان مهماً جداً لهم. ولم يتم نقله إلى مسؤولية المديرية الأولى حيث يجب أن يكون. عمل هذا العميل في الجيش البريطاني وتقاعد برتبة ضابط «بريطاني». ويعتقد غولينيفسكي بأن عملية التجنيد تمت في أوروبا الشرقية. وأعلن عن اسم ضابط ال ك ج ب الذي قام بها. زود هذا العميل الروس بمعلومات قيمة حول مكافحة التجسس في بولندا، ربما لأنه كان يعمل في القسم البولندي في أم آي ٥. وهناك تفصيل آخر. ففي منتصف الخمسينات نجحت المخابرات البريطانية في تهريب رئيس الوزراء البولندي هانكه إلى الغرب. أدى هذا إلى عملية تحقيق واسعة أشرف عليها الجنرال سيروف رئيس ال ك ج ب آنذاك بنفسه. فقد فشلت ال ك ج ب، لسبب ما، في الحصول على إنذار مبكر عن عملية التهريب. ويعتقد غولينيفسكي بأن السبب في ذلك يعود إلى أن العميل متوسط المستوى كان «مجمداً»، لأسباب تتعلق في كونه وقع في دائرة الشك، لأنه لم يكن حينها على اتصال مع المسؤول عنه، أو ربما لأن أعصابه كانت متوترة. ويظهر أن هذا الجاسوس كان «مجمداً» لمدة سنتين أو ثلاث قبل أن يتابع العمل في القسم البولندي في

نهاية الخمسينات. وأثناء زيارة غولينيفسكي لموسكو العام ١٩٥٩، سأل صديقاً له في المديرية الثالثة عن المسؤول عن تجنيد العميل، وفيما إذا كانت العملية مستمرة. أبدى صديقه استغرابه لمعرفة غولينيفسكي بالأمر ونصحه بالتزام الهدوء. قائلاً:

«هذا شأن كبير، وأنصحك بأن تنسى كل شيء عنه».

لا شك أن في ادعاء غولينيفسكي تفاصيل غير عادية. لكن التحقيق في ادعائه لم يتم بشكل صحيح إلا عندما بدأت به لجنة «فلوينسي». ويعود سبب هذا التأخير إلى حجم العمل الزائد في نهاية ١٩٦٣، بالإضافة إلى الشكوك في مصداقية غولينيفسكي. فقسمنا ادعاءه إلى سبعة مؤشرات منفصلة، وخصصنا علامات لكل مرشح تنطبق عليه كل من الصفات المذكورة. فوجدنا أن ثمانية أشخاص في أم آي ٥ تنطبق عليهم صفات العميل متوسط المستوى. ولكن واحداً فقط انطبقت عليه هذه الصفات بشكل كامل، وهو ميشيل هانلي مدير الشعبة ج، والمرشح ليخلف فيرنيفال جونز.

ولأن المواصفات انطبقت عليه «بشكل كامل»، أي لهذا السبب فقط، أوصت لجنة فلوينسي بالتحقيق معه على ضوء ادعاء غولينيفسكي. وأعطيناه اسماً رمزياً هو «هاريت».

انقضت ستة أشهر أخرى قبل أن يناقش تقرير «فلوينسي» الثاني نهائياً. وتمت الدعوة إلى اجتماع آخر في غرفة الاجتماعات بمكتب فيرنيفال جونز. حضر الاجتماع بالإضافة لي كل من آن أوروينغ، باتريك ستيوارت، إيفلين ماك بارنيت، أنتوني سيمكنز وفيرنيفال جونز. وتقرر أن يكون الاجتماع مقصوراً على أم آي ٥ لأن القضايا الثلاث المطروحة تخص أم آي ٥ وليس أم آي ٦.

بدأ الاجتماع بهدوء. ووضع فيرنيفال على الطاولة زجاجة ويسكي. كانت الأضواء تلقي ظلالاً درامية عبر الغرفة. وكان فيرنيفال جونز يتحرك هنا وهناك والغليون بين أسنانه. ثم سأل:

«هل أنتم متمسكون بأسماء المرشحين؟ أنتم تعرفون مضاعفات ما تقولون؟».

فقلت له، وقد هزتني طريقته في طرح القضية:

«أجل بالتأكيد».

وقال وهو يربت بيده على ملف هوليس:

«إنه أمر بشع، فلا تتوقع مني أن أقبله...».

ورمى التقرير على الطاولة. ثم قال:

«إلى أين سينتهي هذا الأمر يا بيتر؟ فأنت ترسل لي تقريراً تقول فيه إن من سبقني كان جاسوساً، ومن سيحل محلي سيكون جاسوساً أيضاً. هل فكرت بالأمر؟ هل توقفت لتفكر بالضرر الذي يمكن أن يحدث إذا ما عملنا بهذه التوصيات؟ سنحتاج لعشر سنوات حتى نتخلص من آثاره، حتى ولو لم يكن هناك نتيجة من وراء توصياتك.

وقلت له:

«إنني أتمسك بما كتبناه، يا فيرنيفال جونز، وأكثر من ذلك ان جميع أعضاء لجنة فلوينسي يتمسكون به أيضاً. وأحب أن أؤكد لك بأنه لو كان هناك مرشحون آخرون لشملهم تقريرنا أيضاً».

كان سيمكنز يجلس على الطرف الآخر من الطاولة وكنت أشعر بأنه ينظر إلي بنظرات غيظ. وكان يريد أن ينفجر بوجهي، ولكن فيرنيفال جونز هو الذي يدير التحقيق، وهو يرفض المشاحنات. وقال جونز:

«كنت تطلب إنجاز هذا العمل منذ سنين عديدة، أنت وآرثر، أليس كذلك؟ هل لديك فكرة عما سببه عملك لروجر هوليس؟».

فأجبته:

«لقد تحدثت معه باختصار حول هذا الموضوع قبل أن يتقاعد. ولم يبد أي انزعاج منه».

حبس فيرنيفال جونز أنفاسه وأنا أصف له مواجهتي الأخيرة مع هوليس. وعلق قائلاً:

«لا بد وأنه كان رجلاً صلباً».

وأخيراً وجد سيمكنز فرصة للكلام:

«إن هذا الأمر مثير للغضب، فالكل يعرف أنك أنت وآرثر لفقتما الأمر لروجر هوليس، فأنت توزع الانتقادات في وزارة الخارجية، ثم توزع الاتهامات لهذا الشخص أو ذاك ناشراً الإشاعات والسم. إن هذا ببساطة عدم انضباط. فإذا كان هناك ما ننتقد به هوليس فهو أنه تركك تتمادى في اتهاماتك».

فأجبته وأنا أحاول الحفاظ على تهذيبي:

«كل ما أريده هو الحقيقة يا أنتوني».

«الحقيقة؟ أنت لا تعرف معنى هذه الكلمة. إن هذا فضيحة. فما كاد الرجل يخرج من

مكتبه حتى بدأت تشهر به وتلوث اسمه وسمعته، وهو الذي خدم ثلاثين عاماً في هذا الجهاز وعمل ما لم ولن تستطيع عمله».

ولحسن الحظ أن باتريك ستيوارت وقف إلى جانبي، فقال:

«حسناً يا أنتوني، ولكنك لا تعلم شيئاً عن الموضوع».
أمسك سيمكنز طرف كرسيه بعصبية فرأيت يده أصبحت بيضاء.

واستمر ستيوارت في حديثه:

«لقد أمضى بعضنا سنوات طويلة يعمل في هذه القضية. إنها ليست سهلة. كما أنها ليست ممتعة، ولكننا كنا جميعاً نشعر بأنه لا بد من إنجازها، وأقل ما يمكن توقعه عند إنهائنا لتقرير صعب كهذا هو القليل من الحوار المنطقي».

لكن سيمكنز كان مصمماً على الهجوم:
«وماذا عن أمريكا، فلقد نشرت سُمّك هناك أيضاً. فعندما كنت هناك لم يسألوني إلا عن قضية الاختراق. هذا لا يحتمل، سنصبح مهزلة العالم».

فأجبته بسرعة:
«ألا تعتقد أيضاً بأننا مهزلة العالم عندما يهرب فيلبي، ويعترف بلانت. . .».

كان فيرنيفال جونز يعض على طرف غليونه بقوة، ويشعله من حين لآخر بعود ثقاب، وكأنه لا يسمع كل ما يدور من الشجار المتزايد. وبعد حوالي نصف ساعة قاطعنا:

«حسناً، إليكم قراري. وأنا متأكد بأنك ستوافق يا بيتر، سنقوم بحل قضية العميل متوسط المستوى كونها ذات الأهمية القصوى. فهو لا يزال معنا إن كان فعلاً موجوداً».

هززت رأسي موافقاً.
واستمر في حديثه:
«حسناً، أريد مراقبة هانلي. فهو الذي تنطبق عليه الصفات بشكل كامل. والأمريكيون يعرفون كل شيء عن الادعاءات. ولكن أريد أيضاً مراقبة أولئك الذين لهم نقاط عالية. أريد أن يصل عملكم إلى آخر الأرض، وبعدها سنخبر الأمريكيين. أما بالنسبة للآخر (يقصد هوليس)، فما زلت عند موقفي، إنه أمر بشع.

فض فيرنيفال جونز الاجتماع، وخرجنا جميعاً لنتركه وحيداً مع هموم المكتب الثقيلة. كان في الواقع مثل البابا الذي يحاول توحيد كنيسة منقسمة.

الفصل العشرون

كان مظهر هانلي الخارجي وضخامته يوحيان بأنه رجل صلب ويحجبان حقيقة نفسيته الخجولة. ومنذ وصوله إلى منصب مدير الشعبة جـ عام ١٩٦٠، رُجح بأنه سيتولى منصب المدير العام. كان في منتصف الأربعينات، العمر المناسب لمنصب كهذا، وكان كموظف مدني يتمتع بذهن منفتح الأمر الذي قربه من الوايت هول، وذي عقلية موظف، كما لعب مظهره العسكري الصلب دوراً في جعله مقرباً من الأم آي ٥. وفي الوقت الذي ظهرت فيه عملية التحقيق في قضية «هاربيت» كان هو «ولي العهد» الذي سيخلف بالتأكيد فيرنيفال جونز عندما يتقاعد في أوائل السبعينات.

لا شك أنه أمر مضنٍ تماماً أن تقوم بالتحقيق في قضية تتعلق بزميل. مع ميتشيل وهوليس كان الأمر مختلفاً. فعندما بدأت الشكوك تتزايد حولهما، كان ميتشيل وهوليس قد اقتربا من سن التقاعد ولم تكن تربطني بهما علاقة وثيقة. بالنسبة لهانلي كان الأمر مختلفاً. كنا نعرف بعضنا جيداً. كنا أصدقاء، وعملنا معاً بمحبة في اللجان لأكثر من عشر سنوات. كانت أبواب الصعود في عمله مفتوحة أمامه، أما مستقبله كان في يدي.

قمت أنا وباتريك ستيوارت من الشعبة د أ (التحقيقات) بالتحقيق سوياً. كانت المهمة الأولى هي أن نقدم صورة كاملة عن حياة هانلي. ورحنا نبحث في خلفيته العائلية، وانضمامه للعمل في المخابرات، وانطلاقته بعد ذلك. قابلنا عشرات الأشخاص المقربين منه تحت ستار تحقيق روتيني إيجابي.

كان أصعب جانب في قضية هاربيت أن التحقيق كشف أن هانلي عانى معاناة شديدة في طفولته بعد انفصال والديه. فظل يشعر عميقاً بأنه دون الآخرين. أكدت سجلات

الجهاز لدينا، بأن هذه العقدة النفسية تطلبت علاجاً نفسياً عام ١٩٥٠ عندما كان ضابطاً صغيراً في أم آي ٥. ولم ينكر هانلي هذه الحقيقة بل أخبر الجهاز بها في حينه.

لم تكن زيارة هانلي لطبيب نفسي، بحد ذاتها، أمراً غير عادي. فكثير من كبار الضباط في أم آي ٥ كانوا يقومون بمثل هذه الزيارات بشكل أو بآخر ليتمكنوا من تحمل أعباء العمل السري. ولكن تحقيقنا أدى، دون قصد، إلى جس جروح هانلي لمعرفة ما إذا كان لديه دافع للتجسس. بحثت أنا وفيرنيفال جونز وباتريك ستيوارت هذه القضية. وكتب فيرنيفال جونز رسالة شخصية إلى طبيب هانلي النفسي طالباً منه التخلي عن القَسَمْ بأن تبقى الأمور سرية. زرت هذا الطبيب، فقال إنه يعرف عمل هانلي، ولم يتردد في أن يشهد بأنه شخصية قوية ومتكاملة، تعلم أن يتعايش مع مشاكله السابقة. وسألته فيما إذا كان يرى فيه القدرة على أن يكون جاسوساً. فرد عليّ بحسم:

«لا إطلاقاً».

كما لم نجد أية إشارة تدل على التجسس في بداية حياة هانلي. كان في أكسفورد قبل الحرب نموذجاً للطالب اليساري المعتدل والمنطقي. وعندما جاءت الحرب بقي في أكسفورد لمدة سنة حتى حصل على درجته العلمية. ثم التحق بإحدى وحدات الحرس الوطني وظل هناك حتى عام ١٩٤٥. وكان هذا العمل مهماً وغير متناسب تماماً مع شخص مثل هانلي يتمتع بمواهب كبيرة. ولكن كل من كان يعرفه في تلك الفترة ربط قبوله لهذا العمل بشعوره الدوني الذي لازم طفولته، وقتل بالتالي الطموح في نفسه.

كانت أول مسألة أثارت اهتمامنا في سيرة حياته هي قراره عام ١٩٤٥ الالتحاق بدورة للغة الروسية في مدرسة اللغات في كامبريدج. كنا نعرف من خلال عملياتنا الخاصة، ومن خلال معلومات غوليتسين بأن هذه المدرسة معقل ال ك ج ب لتجنيد العملاء. (لكننا لم نجد أي دليل من مصادرنا بأن هانلي كان متورطاً معهم). وكانت دورة اللغة الروسية أول فرصة لهانلي ليتصل بالروس. أما ما تبقى من سيرة حياته لاحقاً فيتطابق تماماً مع ادعاء غولينيفسكي. فبعد العمل في بودابست، حيث خدم في لجنة استخبارات الحلفاء المشتركة مع ضابط ال ك ج ب الذي قال غولينيفسكي بأنه جند عميلاً متوسط المستوى، عاد هانلي إلى لندن، وقد أصبح ضابط ارتباط وزارة الحربية مع الملحق العسكري السوفياتي، وكان يتعامل بشكل رئيسي مع قضايا العائدين. وفي هذه الأثناء بدأ يتعامل مع أم آي ٥. وبعد تسريحه من الجيش في نهاية الأربعينات طلب الالتحاق بوظيفة ثابتة في أم آي ٥ ليصبح ضابط معلومات في القضايا الروسية. كانت أول مهمة له تجميع جدول العملاء في شبكة روته ـ كابيل والتي وجدتها أثناء عملي في د ٣ بعد سنوات في غاية التفاهة.

خلال سنتين انتقل هانلي إلى الخدمة في القسم البولندي (د ٢) وأنطلق من هناك. فذهب أولاً إلى هونغ كونغ لمدة سنتين ونصف، ثم عاد إلى الشعبة هـ (شؤون المستعمرات) قبل أن يصبح رئيس الشعبة د ٢. وفي عام ١٩٦٠ أصبح عضواً في لجنة المديرين، بصفته مدير الشعبة ج. كان نجاحه في مهنته يتزايد باستمرار ورغم ذلك، كان ماضيه يشير إلى احتمال تورطه في أعمال التجسس. كانت طفولة هانلي مضطربة ولدت لديه إحساساً عميقاً بعدم الاستقرار، وكان أول اتصال له بالروس هو في تلك الفترة الحرجة من حياته، عندما بدأ يحاول، ولأول مرة، الخروج من القوقعة المحيطة به. ربما كان هانلي مثقلاً كبليك بالأعباء، مما مكن الروس من اللعب بمهارة على مشاعره الدفينة بعدم الرضى فحولوها إلى خيانة.

كانت المشكلة أن باتريك وأنا لم نكن مقتنعين بذلك، رغم أن ما جاء في الأوراق يطابق ادعاءات غولينيفسكي تماماً. ويمكن قول العكس في قضية هوليس، حيث كان كلانا مقتنعاً بالفطرة بأنه جاسوس في حين أن ما جاء في الأوراق كان أضعف من أن يثبت ذلك.

أما بالنسبة لهانلي فقد كانت هناك مبالغة كبيرة في نظرية «الأعباء التي تثقل كاهله». فمنذ بداية انطلاقته في العمل في أم آي ٥ كان يبدو النجم الصاعد. كان موضع تقدير الجميع سواء أكانوا أنداداً له في العمل أم أعلى منه رتبة، رغم أسلوبه المستبد أحياناً. وتزوج من زميلة له في المخابرات وعاش حياة زوجية حميمة ومفعمة بالإخلاص. وأخيراً كان هناك تقرير الطبيب النفسي.

إن جريمة التجسس تخلو عادة من الدليل الثابت، لذا فإن الحدس، سواء نحو الأفضل أم نحو الأسوأ، يلعب دائماً دوراً كبيراً في كشفها بنجاح. فكل ما يكون بين يدي ضابط التحقيق في قضية تجسس هو خلفية المشتبه به، ومجموعة من الأحداث قابلة للتأويل في عدة اتجاهات، والتي مع ذلك تقود في النهاية إلى اللحظة التي تتراكم فيها الحقائق لتعطي استنتاجاً واحداً. أما في قضية هانلي فقد قادتنا الأحداث في طريق وقادنا الحدس في طريق أخرى. لم يكن أمامنا من طريق لحل القضية سوى التحقيق المباشر. وعندما قدمنا التقرير إلى فيرنيفال جونز نوصي بذلك، وافق عليه.

عند ذكر التحقيق يخطر ببال معظم الناس الجلسات الصاخبة تحت الأضواء المبهرة؛ والمحققون ينهالون بأسئلة عدوانية على مشبوه نصف نائم ومرهق، ولا يتركونه إلا بعد أن ينهار منتحباً على الأرض، ليقول الحقيقة. لكن الواقع يختلف تماماً. فعمليات التحقيق تجري بانتظام في أم آي ٥، تبدأ كل يوم من الساعة التاسعة والنصف صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر تتوسطها فترة الغداء.

إذن لماذا يعترف الكثير من الجواسيس؟ ان السر في ذلك يكمن في تحقيق التفوق على الرجل الذي يجلس قبالتك على الطرف الآخر من الطاولة. لقد كان هذا سر تفوق سكاردون كمحقق. ورغم أننا هزئنا به، بعد عدة سنوات، لرغبته في تبرئة متهمين عرفنا بعد حين بأنهم كانوا يعملون كجواسيس، غير أن سكاردون كان يشكل مصدر خوف حقيقي لبلانت وغيره من شبكة الخمسة. ولكن تفوقه في غرفة التحقيق لم يكن مبنياً على الذكاء أو القدرة الجسدية. لقد كانت بالطبع مجموعة المعلومات الصغيرة التي كان يزوده بها آرثر مارتن وإيفلين ماك بارنيت بشكل أساسي هي التي أقنعت رجالاً من أمثال فوخس بأن سكاردون كان يعرفهم أكثر مما يعرفون أنفسهم، إضافة إلى مهارة المراقبين في استراق السمع أثناء التحقيق. ففي قضية فوخس كان سكاردون على قناعة بأنه بريء إلى أن لفت أولئك نظره إلى النقاط التي كذب فيها فوخس. ساعدت هذه المعلومات سكاردون على كسر شوكة فوخس. وكان دور سكاردون مهماً أيضاً. فقد كان يلخص في سلوكه قيم الطبقة الإنجليزية المتوسطة ـ شاي بعد الظهر ـ لدرجة كان من الصعب فيها على المشتبه بهم أن يروا فيه تجسيداً لظلم الرأسمالية، الأمر الذي يؤدي فوراً إلى اختلال توازنهم منذ بداية التحقيق.

لكن هذه الأساليب مجتمعة ما كانت لتجدي نفعاً في قضية هانلي في حال كونه جاسوساً. فهو رجل من داخل الجهاز ويعرف كافة الخدع جيداً، مثله في ذلك مثل فيلبي، فهو يعرف كيف تمارس الضغوط. لذلك فإن أفضل طريقة للتعامل مع محترف هي استجوابه استجواباً كاملاً. بحيث يتم أولاً إعداد تقرير كامل مفصل عن حياته، ومن ثم تبدأ عملية مقارنة ما يقول بما لديك من معلومات. فإذا ما وجدت هناك أي حذف أو انحراف أو عدم دقة، عندئذ تستطيع أن تستند إلى تلك الهفوات. فإذا ما كان المشتبه به مذنباً فلا بد أن يقع في مزيد من الهفوات. وشيئاً فشيئاً تبدأ صورة حياته الحقيقية في الظهور.

إن نظام التحقيق في أم آي ٥ نظام غير متكامل، ولكنه، كما نظام المحاكمة بحضور المحلفين، يظل أفضل نظام طُوِّر حتى الآن. إنه يمكِّن المتهم من تبرئة نفسه إذا لم يكن لديه ما يخفيه، وإذا كان قادراً على تحمل الضغط النفسي. ومن عيوب هذا النظام أنه يكشف الجوانب المبطنة في حياة الشخص البريء مما يجعل استمراره في العمل مستحيلاً. إن عدالة هذا النظام تشبه إلى حد ما عدالة القرون الوسطى: في بعض الأحيان لا يمكن إثبات البراءة إلا على حساب المهنة.

عين فيرنيفال نفسه محققاً في قضية هانلي، وكان يعرف حق المعرفة صعوبة هذه المهمة كما كان يعرف أن مصير هانلي أصبح مرتبطاً به، وأحس بأنه سيكون من الإجحاف توكيل أي

ضابط آخر بقضيته. أكد علي وعلى باتريك ستيوارت مراقبة اجراءات التحقيق كلها عن طريق غرفة العمليات في الشعبة د ١ في مبنى ليكون فيلد.

وذات صباح استدعي هانلي إلى مكتب فيرنيفال جونز، حيث أبلغ بأن هناك ادعاءً ضده، وبأن عليه أن يقدم نفسه فوراً للتحقيق. جرى التحقيق في مكتب المدير العام باستخدام جهاز تسجيل مكشوف. قمت أنا وباتريك بتسجيل وقائع التحقيق. خلال اليوم الأول استعرض فيرنيفال جونز مع هانلي سيرة حياته. وتحدث هانلي عن حياته بصدق كامل ومؤلم أحياناً. كذلك لم يتجنب الإجابة على أي سؤال وجه إليه، كما أنه لم يخف أي تفصيل ذي علاقة بحياته الشخصية وبمشاعره الداخلية. في اليوم الثاني أعطيت إليه تفاصيل ادعاء غولينيفسكي. ولكنها لم تؤثر به بأي شكل من الأشكال. أصرّ هانلي بأن ادعاء غولينيفسكي ينطبق عليه بشكل تام. لكنه أنكر، بشكل هادىء جداً تهمة التجسس وقال إنه لم يكن في يوم من الأيام جاسوساً ونفى أي علاقة بينه وبين الروس في أي وقت من الأوقات كما نفى أي صلة بينه وبين أي طرف آخر رغم أنه كان يقابل في بودابست لمرة في الأسبوع على الأقل الضابط الروسي الذي اتهم بأنه جنده.

أثبت التحقيق مع هانلي أن العمل السري ورغم كونه مهنة خداع وتآمر، فإن العديد من ممارسيه هم رجال ذوو شخصيات استثنائية. فأمامنا هنا رجل فخور بنفسه، يعتز بإنجازاته الماضية ويتطلع إلى المستقبل ليقدم المزيد من الانجازات. ومع ذلك فإنه يُستدعى ذات صباح ليواجه اختباراً قاسياً ويعزل شيئاً فشيئاً حتى تزهق روحه. وفي نفس الوقت يكون على علم بأن زملاءه الوقحين يتابعون كل خطوة يخطوها، يسترقون السمع عليه في البيت، وفي المكتب وفي غرفة التحقيق. لا بد وأنّ هذا الضغط النفسي كان أعظم مما يستطيع تحمله أكثر الرجال. لم يكن باستطاعة أي من هؤلاء الذين كانوا يصغون إلى التحقيق ولو للحظة واحدة، أن يشكوا بنزاهة هانلي. كان صلباً مشى في اللهيب وخرج منه دون أن يصاب بأي أذى.

في تلك الليلة ذهبت مع فيرنيفال جونز وباتريك ستيوارت إلى النادي الذي أجلس فيه عادة لنتناقش حول التحقيق. جلس فيرنيفال جونز في زاوية وأمامه زجاجة من الويسكي. وكانت عيناه ذاويتين كما هو الحال دائماً عند شعوره بالحزن. سألني:

«هل أنت راضٍ؟».

فقلت موافقاً:

«إنه بريء».

هز باتريك رأسه بصمت.

«سوف تبلغ لّجنة فلوينسي، بالطبع . . ؟» قال فيرنيفال جونز.

في تلك اللحظة دخل هانلي بنفسه إلى النادي بشكل غير متوقع. كنت ألتقي معه عادة في هذا النادي، ولطالما جلسنا سوية، لكنني لم أكن أتوقع أن يأتي إلى النادي بهذه السرعة بعد الاختبار الذي مر به. كنا نجلس في زاوية هادئة فلم يلاحظنا عندما مر بنا وهو يجر قدميه جراً وكأنه مصدوم. وبدا وجهه المتورد وكأنه صفحة بيضاء.

بعد إغلاق ملف التحقيق مع هانلي (هاريت) طلب مني فيرنيفال جونز زيارة الولايات المتحدة لإبلاغ السي آي أي بأن أم آي ٥ تعتبر هانلي بريئاً من ادعاء غولينيفسكي. وكانت هذه مهمة بالغة الحساسية. كانت السي آي أي تغلي غضباً بسبب قضيتي ميتشيل وهوليس، بالإضافة إلى أنها كانت على علم بادعاءات غولينيفسكي وبأن الصفات تنطبق على هانلي بشكل تام. وكان من الضروري أن لا نترك لديهم أي شك بصحة استنتاجنا حفاظاً على التحالف القائم بيننا.

لم يكن فيرنيفال جونز على علاقة طيبة بالأمريكيين، وكان يفضل ترك مسألة التعامل معهم لي ولميشيل ماكول، فهو من جهة، يكره أنغلتون كراهية فطرية، ومن جهة أخرى، مثله مثل كل الطبقة الوسطى - العليا في إنجلترا، يكن العداء للأميركيين إجمالاً. وكان ديك وايت يؤيد موقف فيرنيفال جونز من الأمريكيين. فلم يكن أي منهما غنياً، حيثما لم يخف هيلمز وأنغلتون إلا نادراً ما كان يتلقيانه من رواتب خياليه لقيامهما بنفس المهام.

كان لدى فيرنيفال جونز وديك وايت أسبابهما القوية لعدم الثقة بالأمريكيين. فبالنسبة لفيرنيفال جونز فإنه لم يغفر مطلقاً لهيلمز وانغلتون قضية تقرير كوين وغراي، أما ديك وايت فلطالما تصادم مع كبار العسكريين الأمريكيين عندما كان يدير قسم مكافحة التجسس في أوروبا في نهاية الحرب، ولم يسامحوه مطلقاً. وفي العام ١٩٥٣، بعد تقاعد سيليتو، حاول الأمريكيون بغباء إعاقة تعيينه مديراً عاماً.

كان هناك خلاف منهجي، تلك هي الخلاصة. كان كل من فيرنيفال جونز وديك وايت يرى أنه خادم العرش، وأن خدماتهما هي جزء لا يتجزأ من ملامح تكوين الوايت هول. لقد كانا رجلين من داخل المؤسسة فيما كان أنغلتون وهيلمز وهوفر دخلاء. وكان هناك نهج من القسوة والانتهاكات بين رجال المخابرات الأمريكية، تثير قلق كبار الضباط البريطانيين. فكانوا يخشون من كوارث قادمة في المستقبل، لذلك حرصوا على أن يحافظوا على المسافة بينهم وبين الأمريكيين. لذا، كان من الحتمي أن يقع عبء الارتباط على ضباط مثلي.

سافرت إلى واشنطن عام ١٩٦٨ لإبلاغ أنغلتون نتائج قضية هانلي. كان لقاؤنا ذا طابع

عملي حيث شرحت له الخطوط العريضة للتحقيق، وأخبرته بأن رأينا استقر بالإجماع على أن هانلي بريء. ثم أخذني أنغلتون لمقابلة ديك هيلمز لأشرح له طبيعة مهمتي. وقال هيلمز بأنه لا يرغب بسماع المزيد حول هذا الموضوع. وأن مجرد قولي بأن هانلي بريء يكفي. ولكن تبرئة هانلي لم تحل إلا القليل من المشاكل.

بعد أن غادرنا مكتب هيلمز، قال لي أنغلتون بأنه يريد أن يبحث معي فيما إذا كان غولينيفسكي مجرد خدعة. فقد كانت مطابقة هانلي للادعاء كاملة لدرجة لا داعي معها حتى لشخص كثير الظنون أن يعتقد بأن ال ك ج ب أثارت عن قصد ادعاء غولينيفسكي لتجريد هانلي من مصداقيته. كان هيلمز وأنغلتون يشكان في أن غولينيفسكي عاد تحت سيطرة الروس قبل هربه بفترة قصيرة. أظهر التحليل المتكرر لمعلوماته بأن هناك تغييراً واضحاً في نسقها العام من القضايا البولندية إلى تلك الروسية، وكأن الروس كانوا يتعمدون تقديم الطعم من نفس معلوماتهم الاستخبارية في محاولة لإضفاء المصداقية على الادعاء. كانت أم آي ٥ تشارك الأمريكيين هذا الاعتقاد، وكان هذا هو السبب الرئيسي لإهمال قصة غولينيفسكي عن العميل متوسط المستوى لمدة طويلة. أثار وضوح قضية هاريت الشكوك حول موضوع العميل متوسط المستوى وحول صحة معلومات غولينيفسكي خاصة بعد هربه. ولم يظهر موضوع العميل متوسط المستوى حتى تشرين الثاني ١٩٦٣. وكان غولينيفسكي قد هرب عام ١٩٦١. ولكي تستطيع ال ك ج ب ترتيب القصة بالتفاصيل التي جاءت عليها، فلا بد أن يكونوا قد اطلعوا على ملف هانلي. ولشخص في منصبه فإن الوحيد الذي يمكنه الاطلاع على ملف هانلي هو روجر هوليس.

ولكن إذ كان غولينيفسكي تم تحويله، أو إذا كان استخدم كأداة للتضليل، فما معنى موجودات أم آي ٦ والسي آي أي في بولندا، التي كانت منذ الحرب المصدر الرئيسي لعمليات الغرب الناجحة داخل الكتلة الشرقية. لذا قمت بعمل تمهيدي حول هذا الموضوع أثناء التحقيق في قضية هانلي. فوجدت، ولدهشتي كل عملاء الأم آي ٦ كانوا يلتقون في شقة مستأجرة لحساب سكرتيرة تعمل في مكتب أم آي ٦ في وارسو. وقد جرى في هذه الشقة أكثر من تسعين لقاءً. عندها توقعت بأنه من الجائز أن يكون السبب، في عدم تمكن ال ك ج ب والمخابرات البولندية ظاهرياً من اكتشاف مثل هذه اللقاءات، المثيرة يعود إلى أنهم كانوا يدسون العملاء المزيفين عندنا. وظهرت من جديد مشاكل أم آي ٦ في الوقت الذي كانوا فيه مشغولين بقضية بينكوفسكي.

في مطلع الستينات كنا جميعاً نغرق في هاجس واحد هو الاعتقاد بأن المنشقين قد أرسلوا في فترة تدفق القادمين لخداع أجهزة مكافحة التجسس الغربية. فهناك قناعة غوليتسين

المركزية بأن ال ك ج ب شنت حملة تضليل منظمة، وأن منشقين مزيفين سيرسلون إلى الغرب لنسف مصداقيته. وقد وصل يوري نوسينكو مباشرة إلى عتبة باب المخابرات الأمريكية ليخلط الأوراق التي جمعها غوليتسين عن الاختراق السوفياتي للمخابرات البريطانية والأمريكية.

وأغرق نوسينكو السي آي أي في فوضى كاملة. فقال لهم بأنه اطلع على ملف لي هارفي أوزوالد قاتل كنيدي المزعوم. وادعى بأن ال ك ج ب ليس لها علاقة بالاغتيال، وبأنها لم تتصل بأوزوالد في روسيا، رغم أن نوسينكو كان يعمل في قاعدة سرية للغاية لمراقبة طائرات التجسس يوتو (U 2) قبل ارتداده بفترة بسيطة. وقد رأى الكثير من ضباط السي آي أي أن قصة نوسينكو كانت محبوكة زيادة عن اللزوم، خاصة عندما اكتشفوا بأنه كذب بخصوص رتبته ومنصبه في ال ك ج ب. ولكن لماذا أرسله الروس؟ وبدأت السي آي أي بمحاولة تحطيم مقاومة نوسينكو عن طريق سجنه وممارسة الضغط الجسدي عليه. وهو أمر لا يحتمل في أم آي ٥. ولكنهم لم يتوصلوا إلى حل اللغز حتى في عام ١٩٦٧.

بدأت الشكوك تتنامى أيضاً حول معلومات توب هات وفيدورا في الأف بي آي حيث كانا يسربان المعلومات من داخل الاتحاد السوفياتي دون الإفصاح عن المصادر. وبدت محاولتهما تقديم وثائق أصلية حول نوسينكو، رغم الصعوبة، وكأنها محاولة لإيهام الأمريكيين بصدقه. وقد وصل بهم الأمر إلى درجة دعم إدعاء نوسينكو الكاذب حول رتبته. ولكن إذا كان كل من توب هات وفيدورا عميلاً زائفاً فماذا عن المداخل التي قدماها حول الاختراق في المخابرات البريطانية؟

فقد أعطانا فيدورا المدخل للتوصل إلى مارتيللي، ولو أن القضية انتهت إلى المحاكمة البائسة وتبرئته فيما بعد. أما توب هات فقدَّم للأمريكيين نسخاً عن وثائق مفصلة حول أنظمة الأسلحة الأمريكية الموجهة مدعياً أن الروس حصلوا عليها عن طريق مصدر داخل بريطانيا. وبعد التحقيق توصلنا لإلقاء القبض على فرانك بوسارد وهو ضابط في وزارة البحرية قسم الصواريخ الموجهة. وقد اعتقل عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن لمدة ٢١ سنة فإذا كان فيدورا وتوب هات عميلين مزيفين فهذا يعني أن الروس مستعدون للتضحية بعملاء مهمين جداً من أجل خلق مصادر أصلية. كما يجب أن نضع في حسابنا أنه لولا مهارة قيادة الاتصالات الحكومية لربما كان من الصعب علينا التوصل إلى دليل يثبت أن بوسارد كان يعمل لصالح المخابرات العسكرية السوفياتية.

لقد كنا في مكان وصفه أنغلتون بأنه «غابة من المرايا»، مكان يكون فيه المنشقون مزيفين والكذب حقيقة والحقيقة كذب وكل تلك الانعكاسات تؤدي بك إلى الارتباك والتشوش. ان فكرة المنشقين المزيفين صعبة التصديق، ما لم تقرأ كتب التاريخ لتعرف كيف استخدمت أم آي ٥ نظام الأمن المزدوج خلال الحرب. وهي الآن نظرية قديمة. لكن عدداً قليلاً جداً من ضباط المخابرات، الذين عاشوا تلك الأيام في الستينات، لا يصدقون بأننا في تلك الفترة كنا ضحية عملية خداع سوفياتية يشكل المنشقون أحد عناصرها. قد يناقش البعض مدى نجاح هذه العملية أو مداها وحدودها، ولكن القلائل جداً قد يشكون بأنها جرت فعلاً. والأهم من ذلك أنه لا يمكن للروس أن يلعبوا لعبتهم هذه بمهارة دون أن يكون لهم مصدر للمعلومات داخل أم آي ٥.

وبعد عشرين سنة ما زال من المستحيل فك لغز حقيقة تلك الأيام. غولينيفسكي، بينكوفسكي، نوسينكو، فيدورا وتوب هات ـ جميعهم كانوا متورطين بشكل أو بآخر. ولست أعني أن كل واحد من هؤلاء كان منشقاً مزيفاً، رغم أن توب هات وفيدورا كانا بالتأكيد كذلك. وقد توصلت الأف بي آي إلى هذه النتيجة في السبعينات بعد فترة طويلة من تقاعدي. ولكنني أعتقد أنه تم استخدامهم في أوقات مختلفة ـ بينكوفسكي استخدم ليؤثر على طريقة فهمنا لتكنولوجيا الصواريخ السوفياتية، فيما استخدم نوسينكو للتأثير على الموقف الأمريكي إزاء اغتيال كنيدي. أما غولينيفسكي وفيدورا وتوب هات فقد كانوا على ما اعتقد جزءاً من محاولة منظمة لإضعاف تحالف المخابرات البريطانية ـ الأمريكية، ولدعم الانطباع الخاطىء حول أداء الصواريخ السوفياتية البلاستيكية العابرة للقارات حتى منتصف السبعينات.

ومما هو جدير بالاهتمام هنا هو التوقيت الذي أدلى به المنشقون الثلاثة بمعلوماتهم. فمعلومات غولينيفسكي عن العميل متوسط المستوى كانت في نهاية ١٩٦٣، أي بعد انشقاقه بحوالي ثلاث سنوات. أي في نفس الوقت الذي زار فيه هوليس واشنطن لإطلاع الأف بي آي والسي آي أي على نتائج التحقيق في قضية ميتشيل. فليس هناك طريقة لتوجيه ضربة أخيرة إلى العلاقات الأمريكية ـ البريطانية في مجال المخابرات، أفضل من طرح ادعاء بوجود عميل آخر داخل أم آي ٥. ولحسن الحظ فإن شكوك أنغلتون حول غولينيفسكي ساهمت إلى حد كبير في الحد من تأثير هذه القصة على العلاقات الأمريكية ـ الإنجليزية كما أنها دعمت شكوك الأمريكيين والإنجليز بهوليس وغولينيفسكي.

بعد ذلك مباشرة، اتصل فيدورا بالأمريكيين ليعطي المدخل الذي أوصلنا إلى مارتيللي. وكان اكتشاف عميل نووي آخر كفيلاً بخلق أقصى توتر ممكن بين لندن وواشنطن،

رغم أن ال ك ج ب لم تكن لتحلم أبداً بأن أم آي ٥ ستخوض المحاكمة بالشكل السيء الذي قامت به.

وفي ما بدا بأنه حملة منظمة، أوصلنا هارت إلى بوسارد. ومرة أخرى تدخلت تكنولوجيا الأسلحة الأمريكية. مما يعني تلقائياً بأن القوات المسلحة الأمريكية ستلعب دوراً فعالاً في الاحتجاج على ضعف المخابرات البريطانية. وعندما قيّمنا الأضرار الناتجة من بوسارد استنتجنا أن كل أنظمة التوجيه الأمريكية المتقدمة أُفشيت أسرارها للروس. وقام باتريك ستيوارت بإرسال نسخة إلى أنغلتون ملحق بها مذكرة كتب فيها كلمة واحدة فقط «النجدة!».

ولحسن حظ بريطانيا أن أنغلتون استطاع أن يحمينا من الهجوم، ولكن ذلك لم يكن سوى شيء عرضي، ولا شك أن القليل من الناس اليوم يدركون بأن تبادل المعلومات المخابراتية كاد ينهار في أوائل الستينات أكثر من أي وقت مضى منذ الحرب.

وفي آخر ليلة لي في واشنطن، ذهبت أنا وأنغلتون إلى مطعم صيني صغير في الكساندريا، حيث كان ابنه زبوناً دائماً هناك. وكان هذا المطعم من الأماكن المحببة لدى أنغلتون عندما كان يشعر بالحاجة إلى الكلام. قال لي: في هذا المكان نستطيع أن نضمن السرية، إن الصينيين يمنعون الروس من دخوله.

كان أنغلتون في ذروة قوته، رغم أن التوتر بدأ ينعكس عليه. فقد أمضى سنين عديدة وهو يشن حرباً بيروقراطية سرية ضد قسم الشؤون السوفياتية في السي آي أي، ليضمن استقلالية وتوسع قسم مكافحة التجسس التابع له. كان نجاحه فوق كل التوقعات، فقد استطاع أن يفرض رأيه على كل العمليات وعلى طاقم الموظفين في الوكالة. كذلك استطاع السيطرة على النشاط الإسرائيلي، وعزز وجود مكتب السي آي أي في تل أبيب لدرجة كبيرة. كما جعل كافة الاتصالات الهامة مع المخابرات البريطانية تمر من خلاله شخصياً، متجاوزاً بذلك مكتب لندن. ونجح أيضاً في إيجاد شيفرة خاصة به مستقلة عن اتصالات السي آي أي، التي كان يدعي بأنها مخترقة، أما نحن فكنا نعتقد جميعاً بأن السبب الرئيسي لذلك هو سعيه لبناء أمبراطوريته.

وكان من أبرز إنجازاته مؤتمرات المخابرات الغربية. فخلال هذه المؤتمرات كان يجتمع أفضل وأذكى وأكبر ضباط المخابرات الغربية مرة كل ثمانية عشر شهراً ليتباحثوا في جدول أعماله وفي الخطر السوفياتي وفي دور أجهزة مكافحة التجسس ولإعداد سيناريوهات جديدة للمستقبل. ولم يكن عبثاً اعتقاد أنغلتون بأن هذه المؤتمرات كانت أول خطوة حاسمة لإيجاد مخابرات غربية موحدة وقادرة على مواجهة الكتلة السوفياتية.

كانت هذه المؤتمرات تتناسب مع مزاج أنغلتون بشكل كامل، حيث كان يجلس فيها في جو آمن تماماً ليبحث في القضايا الغامضة اللانهائية التي تأتي من غابة المرايا. وكنت أدعم فكرة هذه الاجتماعات لأهميتها الخاصة.

كانت المقامرة دائماً إحدى أهم ملامح هذه المؤتمرات. فكل يوم من الاجتماعات ينتهي عادة بلعبة البوكر التي يجيدها أنغلتون، رغم أنني كنت أحياناً أستطيع جذب انتباهه، وكانت سباقات الخيل أيضاً إحدى الملامح الجانبية. أذكر أن أنغلتون كان ذات مرة في أحد المؤتمرات في نيويورك أواخر الستينات وأوائل السبعينات مسؤولاً عن شراء بطاقات الرهان للمؤتمر في سباق واشنطن الدولي. وقبل الاجتماع دفعت له مبلغ مئة دولار لأراهن على الحصان البريطاني. كان ليستر بيجوت يقود الحصان وسبق له في العام الماضي أن قاد الحصان الفائز. كان الأمل بفوز الحصان البريطاني ضئيلاً جداً، لكن فريقي أم آي ٥ و أم آي ٦ كانا يتشوقان لرؤية العلم البريطاني يرفرف حتى في أكثر الغرف سرية. ولذلك جمعنا حوالي ٥٠٠ دولار للمراهنة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كان أنغلتون يقدم تقريراً مطولاً حول أساليب التضليل السوفياتية، كانت أذهان الجميع، وخاصة البريطانيين، متجهة إلى حيث يجري السباق. بعد ساعة من الوقت دخلت سكرتيرة أنغلتون وسلمته بعصبية قصاصتين من الورق، كتب على الأولى، «بكم تريد بيع بيتك يا جيم؟» وعلى الثانية «فاز الحصان البريطاني!».

وصرخ أنغلتون،

«اللعنة! لقد نسيت أن أسحب المراهنات، وهذا الحصان البريطاني اللعين فاز بنسبة ١١ - ١!».

في تلك الليلة دفع أنغلتون ديونه على شكل أوراق نقدية من فئة المئة دولار، بينما كنا نعود إلى واشنطن بطائرة مروحية.

قال لي وهو يعطيني حصتي:

«التضحيات التي أقدمها للغرب. . . .».

لكن روح الدعابة لم تكن لتخفي حقيقة أنه كان يكتسب عداوات داخل السي آي أي - قسم الشؤون السوفياتية، وبين المدراء الآخرين الذين يحسدونه على قوته وسلطانه، وبين أولئك الضباط الذين وقف في وجه ترقيتهم. لقد كان آمناً أثناء فترة إدارة هيلمز. ولكن حرب فيتنام سرعان ما غيرت وجه الوكالة، كما بدأت سياسة الانفراج الدولي مسيرتها بتقويض الأسس التي أقام أنغلتون عليها أمبراطوريته «الحرب الباردة».

كان بيل هارفي، أحد أنصار سياسة الحرب الباردة، قد دُفع إلى التقاعد بتهمة الإدمان على الخمر. وأنغلتون أيضاً بدأ يحتسي الخمر بشكل دائم مما جعله يبدو في غاية التعب والإرهاق. لقد تغير مزاجه أيضاً. أخذ ينطوي على نفسه بسرعة كبيرة، كما انطفأت دعابته. أصبح مظهره ينم عن عدوانية فيما بدأت ثقته بمن حوله تتضاءل بعد انقلاب العديد من زملائه عليه.

كان أنغلتون يجد راحته في الشرب والتدخين وصيد السمك. وقد أخبرني باري راسل جونز بدهشته عن رحلة الصيد التي قام بها مع أنغلتون في جزء من نهر كان يملكه في ايداهو. كان أنغلتون قد وضع زجاجات من الويسكي تحت الماء تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ١٠٠ ياردة حتى لا ينقطع من الخمر. أما في واشنطن فقد وجد أنغلتون عزاءه في صناعة الجلود واستعراض فنون صيد السمك أمام أصدقائه ومعجبيه. وتحدثت أنا وأنغلتون حتى الرابعة صباحاً. ودرسنا كل السيناريوهات المحتملة للمنشقين. أيهم كان منشقاً حقيقياً وأيهم كان مندساً. كانت الخيوط معقدة كالشعر في رأس الطفل الصغير. كنا نحن الإثنين نتعذب، كل شيء تقريباً كان يعتمد على وضعنا للافتراضات الصحيحة حول المنشقين. بالنسبة لأنغلتون كانت القضية الأساسية هي اغتيال كنيدي أما بالنسبة لي فقد كانت الخطوة التالية هي اصطياد الجاسوس. وأخيراً خرجنا من المطعم لنسير في المدينة عبر الشارع رقم ٤٤. كان أنغلتون ترك سيارته خلف نصب أوكيناوا قرب المقبرة الوطنية. كان أنغلتون وطنياً على الطريقة الأمريكية الفريدة التي تعبر عن نفسها باحترام العلم والتراث القومي، لذا كانت مقبرة أوكيناوا تسحره. عند وصولنا إلى السيارة، وقف أنغلتون وأخذ يتأمل المقبرة فيما كانت السيارات تنطلق على الأوتوستراد خلفنا.

«إن هذا هو جهد كيم».

قال أنغلتون. ولعلها من المرات القليلة جداً التي أسمعه فيها يذكر صديقه فيلبي.

إذا كان هناك مؤامرة لخداع الغرب عن طريق استخدام المنشقين في بداية الستينات، لكنا ضحية سهلة لها. فخلال تلك السنوات كانت هناك سياسة واعية في كل من واشنطن ولندن تقضي بعمل المستحيل من أجل جذب المنشقين. كنا ننظر إليهم على أنهم السلاح السري الذي يمكن بواسطته إرباك آلة المخابرات السوفياتية الهادئة. وقد نمت هذه السياسة جزئياً في جو من الشعور بالذنب. فقد جرى مكافأة أوائل المنشقين من أمثال غيوزنكو وفون بتروف بشكل متواضع مما ولد لديهم شعوراً بالمرارة. في البداية دفع لهم مكافآت مالية لقاء معلوماتهم ومن ثم أهملوا وتركوا لمصائرهم، حيث فشل معظمهم في إعالة أنفسهم. وكان هناك أيضاً إحساس بالذنب لعدم اتخاذ الاجراءات الأمنية الكافية لحماية هؤلاء المنشقين

الأمر الذي أدى إلى موت فولكوف وكريفيتسكي. وأصبحنا نخشى من أنه بدون بذل جهد واع لإظهار المكاسب من وراء الانشقاق، فإن الأمور ستتعقد وسيحجم أي شخص عن التفكير بالهرب.

وفي الوقت الذي جاء فيه غوليتسين إلينا، قطعت هذه السياسة شوطاً مهماً إلى الأمام. فتم اتخاذ كافة السبل لتأمين الحماية للمنشقين، ابتداءً من دفع المبالغ المالية الطائلة ولكن مع استخدام الوسائل الأخرى أيضاً. وأذكر بشكل خاص إحدى العمليات التي بدأت في منتصف الستينات وتتعلق بضابط كبير من الـ ك ج ب يدعى سيرغي غريغورفين. وتوضح هذه العملية المدى الذي وصلنا إليه في هذا المجال. كان غريغورفين معروفاً لدينا لأنه عمل في الدانمرك، وقامت المخابرات الدانمركية بإبلاغنا بهويته بشكل روتيني. كما قدمت لنا مقتطفات من المعلومات عنه ـ منها أنه يحب صحبة النساء. تم توزيع تقرير المصدر على القسم د ٤ (قسم إدارة العملاء في الشعبة د)، وطلب منهم مراقبة سلوك غريغورفين تجاه النساء، لأنه ترك زوجته في موسكو.

كان أي روسي، خاصة إذا كان ضابطاً في ال ك ج ب، يقيم علاقة مع النساء في الغرب يواجه مشكلة خطيرة مع القسم الأمني في ال ك ج ب، قد تؤدي إلى نتائج غير محددة. وبعد حوالي سنة تلقى أحد مديري العملاء في القسم د ٤ أول إشارة. فقد كان أحد عملائه، وهو صحافي كبير في صحيفة «ذايلي ميرور» غالباً ما يلتقي غريغورفين في حفلات الاستقبال. وقد أخبرته صديقة له بأن غريغورفين على علاقة غرامية مع صديقة لها تعرفا على بعضهما عن طريقها. وطرح القسم د ٤ القضية في الاجتماع الأسبوعي مع القسم د ١ (العمليات) وتم الاتفاق على مراقبة الوضع بدقة أكثر. وطلب من العميل الصحافي أن يشجع صديقته على مراقبة تطور العلاقة الغرامية.

أخيراً أنهى غريغورفين علاقته مع هذه المرأة، وعندما قابل صديقته طلب منها تعريفه على امرأة أخرى. وأدرك القسم د ١ فوراً أن هذه هي الفرصة المناسبة. فإذا استطعنا أن نقدم له إحدى فتياتنا سنكون في وضع مثالي يمكننا من اصطياده. عرضت الخطة على فيرنيفال جونز الذي وافق عليها فوراً، رغم أننا لم نبلغ وزارة الخارجية بهذه العملية لاعتقادنا بأنهم سيرفضونها. وطلب من القسم د ٤ تقديم المرأة المناسبة لهذا العمل، كان لديهم عدد من فتيات الطبقة العليا اللواتي يستخدمن في عمليات كهذه. وأخيراً تم انتقاء الفتاة المناسبة وقدمت لغريغورفين في إحدى الحفلات. وسرعان ما نجحت العملية وارتبط غريغورفين مع الفتاة بعلاقة غرامية.

بدأت الأمور تسير نحو الذروة. كان غريغورفين قد وضع تحت المراقبة الكاملة، وقمنا

بتحليل كافة الاحتمالات. كان واضحاً لنا أن غريغورفين يولي الفتاة اهتماماً من زاوية الجنس، وكان احتمال وقوعه في غرامها احتمالاً ضئيلاً جداً. لذا كان بد من أن تكون عملية الصيد مباشرة.

إن اصطياد منشق عمل معقد جداً، ويتطلب أسابيع من التخطيط الدقيق. لذلك استأجرنا غرفة ووضعنا فيها مرآة خاصة وأجهزة تصوير. وجهزنا بيوتاً آمنة، ورتبنا عمليات النقل في حال وافق غريغورفين على الانشقاق. كانت له عائلة في موسكو لذا دققنا في وضعها تحسباً منا لطلب غريغورفين تأمين إخراج عائلته من موسكو.

وأخيراً جاء اليوم المنتظر. وتولى القسم د ١ تنفيذ العملية. ووصل غريغورفين والفتاة إلى الشقة. وبعد أن صورنا لهما فيلماً لمدة عشر دقائق وهما في السرير قام إثنان من رجال الأم آي ٥ بفتح الباب بمفاتيح ليسلي جاغر.

«إنها إحدى عميلاتنا».

قال ضابط د ١، فيما أسرعت الفتاة بالخروج.

بدا غريغورفين محرجاً للحظة. فيما أشار ضابط د ٥ إلى المرآة. ونظر غريغورفين إلى الكاميرا لدقائق ثم استوعب الوضع فقال:

«أنا دبلوماسي. أطلب أن أتحدث إلى السفارة.. لدي جواز سفري..».

حاول غريغورفين أن يصل إلى ملابسه. ولكن أحد رجالنا كان يقف عليها.

«إن سلوكك هذا ليس سلوكاً دبلوماسياً».

قال أحد رجال د ١ ثم انحنى والتقط ملابس غريغورفين ورماها له. وتابع حديثه:

«لنواجه الأمر، لقد انتهيت يا غريغورفين. سيعيدونك إلى موسكو إذا اكتشفوا الأمر».

يبدو أن الحياة في الغرب تناسبك أكثر. فنحن نعرف كل شيء. أمضيت أربع سنوات في أمريكا وثلاثاً في الدانمرك والآن لندن. وأنت لا ترغب بالعودة أليس كذلك؟. لماذا لا تبقى هنا؟ سنعتني بك وسندفع لك مبلغاً مناسباً وستكون بأمان. رفض الروسي العرض بإشارة من يده وطلب ثانية التحدث إلى سفارته.

وتابع ضابط د ١ محاولته مع غريغورفين لمدة ساعتين. وأخذ يقول له: فكر بالمستقبل. ستخسر امتيازاتك وتعود إلى موسكو مكللاً بالخزي لتنهي مدة خدمة في وظيفة صغيرة في سيبيريا. بدون عملة أجنبية أو رحلات للخارج.

وظل غريغورفين يردد: «أنا دبلوماسي وأطلب التحدث إلى سفارتي».

ظل غريغورفين يردد اسمه ورتبته ورقمه العسكري كما كان يفعل الطيارون الأسرى خلال الحرب العالمية الثانية. كان جندياً صلباً مما جعلنا نتأكد أنه لن يتخل عن معتقداته ولن يصبح عميلاً لنا. لذا أعدنا إليه ملابسه وأنزلناه في مكان قريب من حدائق كينغستون بارك. وهكذا ضاع جهد شهر من التخطيط وسنين من الصبر والانتظار.

في صباح اليوم التالي تم تسليم طرد مجهول إلى السفارة معنوناً للسفير شخصياً. كان الطرد يحتوي على صور غريغورفين في السرير. وفي مساء ذلك اليوم شاهد رجال الشعبة الخاصة غريغورفين يغادر لندن على متن طائرة أيروفلوت. وأرسلنا تقريراً خاصاً إلى مكتب أم آي ٦ في موسكو ننصح بمحاولة متابعة الرجل فيما إذا غير رأيه ورغب في الاتصال بنا. ولكننا لم نسمع عنه شيئاً أبداً.

غالباً ما تكون حالات الانشقاق مشوبه بالمآسي. ولكن قصة نادينسكي، المنشق الذي ندم على انشقاقه، هي أكثر تلك الحالات مأساوية. كان نادينسكي يعمل في قسم الشحن التابع للوفد التجاري، وعرفنا بأنه ضابط في ال ك ج ب. كان رجلاً هادئاً، وكل ما كان يدعيه من شهرة هو أن زوجته كانت قريبة أحد المسؤولين الكبار في المكتب السياسي. وقد لفت انتباهنا لأول مرة عندما رآه أحد أفراد شعبة «واتشرز» يقابل فتاة في حديقة لندن.

تركز جهدنا في البداية على الفتاة. فكان أفراد الشعبة يلاحقونها لمعرفة بيتها. وحددنا هويتها على أنها سكرتيرة في وكالة حكومية صغيرة لا تمكنها من الاطلاع على مواد سرية. وذهب ميشيل ماكول لمقابلتها وسألها عن سبب لقائها بالموظف السوفياتي. فأكدت له بأن نادينسكي ليس لديه أي غرض تجسسي من وراءها وأن علاقتهما هي علاقة عاطفية، وليس لديها أية فكرة عن كونه متورطاً مع ال ك ج ب. وقالت أيضاً أنه يختلف كثيراً عن الصورة التي في ذهنها عن الروس. فقد كان رومانسياً ويشعر بالخوف. وقد حدثها باستمرار عن رغبته في البدء بحياة جديدة في الغرب.

ومرة أخرى التقى القسم د ١ (العمليات) مع القسم د ٤ لبحث أفضل السبل للعمل. وقررنا أن نطلب من الفتاة الاستمرار في علاقتها بنادينسكي بشكل طبيعي، بينما خططنا للاتصال به. وكان واضحاً أن العملية لن تصمد لفترة طويلة. فالفتاة أصبحت تعيش في حالة نفسية سيئة جداً، وبدا لنا أنها على وشك أن تنهار. ولكن المحصلة في حال نجاح العملية فستكون مغرية، ورغم أن نادينسكي ضابط صغير الرتبة، اختير للبقاء في وظيفته في لندن، فإن له قيمة دعائية كبيرة جداً. فقد كانت تلك هي الفترة التي انشقت فيها ابنة ستالين، وكنا نعرف

مدى الإحراج الذي سيقع فيه السوفيات إذا ما انشق أحد أقرباء كبار السياسيين والتجأ إلى الغرب.

وفي يوم الأحد اللاحق كان من المقرر أن يزور نادينسكي ميناء هار وتيش بمهمة رسمية، كان يصطحب معه بعض البحارة السوفيات إلى باخرتهم التي كان من المقرر أن تبحر في تلك الليلة، وتقدم بطلب روتيني إلى وزارة الخارجية للحصول على تصريح باجتياز المنطقة المحدودة حول لندن (٨٠ كم المصرح للدبلوماسيين الشرقيين بالتحرك فيها). وجلس ماكول في سيارته مع فريق من المراقبين خارج الميناء بانتظار ظهور نادينسكي. وعندما مرّ به ناداه باسمه مباشرة فتردد نادينسكي قليلاً. فبادره ماكول بالقول:

«إننا نعرف علاقتك بالفتاة.. ونعرف أنك تريد البقاء في الغرب. ادخل بسرعة إلى السيارة لنتحدث».

نظر نادينسكي إلى طرفي الشارع ثم دخل إلى السيارة. وانطلق ماكول به فوراً إلى بيتي في أسيكس. قدمنا له الشاي وحاولنا ألا نتحدث معه كثيراً. فقد أصبح العصفور بأيدينا ولا داعي لإفزاعه. وبعد أن اعتاد نادينسكي على جو المكان سألته:

«سمعت أنك تريد الانضمام إلينا:.؟».

هز رأسه، بعصبية ثم أومأ ثانية بالقبول.

سألته:

«إننا نعتقد بأنه تم اختيارك للعمل هنا من قبل زملائك».

رشف شايه وقال بلغة إنجليزية جيدة:

«تعني ال ك ج ب؟».

«نحن نفترض ذلك».

وانطلق فجأة يتكلم بلهجة لا تخلو من المرارة:

«الخيار ليس في يدك. إذا أرادوا منك أن تعمل لصالحهم فما عليهم سوى أن يأمروك بذلك، لا خيار أمامك».

واستعرضت الترتيبات التي يمكن عملها. لا بد من توفير الحماية والمكافأة المالية وربما في مرحلة من المراحل لا بد من تأمين وظيفة أيضاً. سندعه يقابل الفتاة لفترة قصيرة، ولكن بعدها عليه أن يعمل بكد لبضعة أشهر.

«العمل مع المخابرات البريطانية. . أعرف ذلك!» كان يعرف أصول اللعبة سواء اختاره زملاؤه أم لا.

وفي مساء ذلك اليوم نقلنا نادينسكي إلى بيت آمن قرب ويمبلدون. ووضعنا معه في المنزل حراساً مسلحين. وبعد حوالي اثنتي عشرة ساعة تلقت وزارة الخارجية طلباً من السفارة السوفياتية حول إذا ما كان لديهم أي معلومات عن دبلوماسي اختفى أثناء عودته من زيارة روتينية إلى هاروتيش.

كانت وزارة الخارجية قد أبلغت نبأ انشقاق نادينسكي بواسطة نائب المدير العام ومن ثم أعلم فيرنيفال جونز بالأمر. وقد تعامل قسم الشؤون الخارجية مع هذا الموضوع بنفس المنهجية التي يتبعونها في القضايا التي تزعج الروس، أي بمنطق تحاشي كل ما قد يؤدي إلى إثارتهم مهما كان الثمن. لذلك فقد أرسلوا على الفور إلى مكان تواجد نادينسكي موظفاً رسمياً لمقابلته وسؤاله عما إذا كان قد اختار أن يتخلى عن حزبه بملء إرادته وعما إذا كان يرغب في التحدث إلى سفارته. وأكد نادينسكي أنه فعل ذلك بملء إرادته وأنه لا يرغب بالتحدث إلى أي روسي. وقام قسم الشؤون الخارجية بنقل هذه الأخبار إلى السفارة السوفياتية.

وفوراً تم ترحيل زوجة نادينسكي إلى موسكو وفي اليوم التالي طلبت السفارة السوفياتية من وزارة الخارجية السماح لزوجة نادينسكي بالتحدث إليه هاتفياً من الاتحاد السوفياتي. في البداية رفض نادينسكي التحدث معها. ولم نكن نحن سعداء بمحاولة ممارسة مزيد من الضغط. لكن وزارة الخارجية أصرت على هذا الإجراء لأنه إجراء بروتوكولي.

كانت هذه المكالمة واحدة من العديد من المكالمات التي أصر عليها الروس في الأيام الأربعة التالية. فقد كان المتحدث في هذه المكالمات وبشكل رئيسي هو الزوجة ومن ثم تبعها الأقارب الذين ناشدوه وهم يبكون العودة عن قراره.

«فكر بنا، فكر بالفضيحة والدمار الذي سيلحق بنا».

بدأ نادينسكي يذوي بوضوح. ودب الخلاف في الوايت هول بين وزارة الخارجية وأم آي ٥. كنا نريد أن نعرف لماذا تسمح وزارة الخارجية بهذه المكالمات في حين لا يسمح لنا الروس الاتصال برجالنا المعتقلين لديهم، كما هو الحال، بالنسبة لغريفيل واين.

ولكن وزارة الخارجية تجاهلت أولوياتنا كما تجاهلت مصالح نادينسكي، وتمسكت بالآداب الدبلوماسية. قالوا لنا:

«لا نستطيع أن نمنع الاتصال العائلي الإنساني».

وفي اليوم الرابع قال لنا نادينسكي بأنه قرر العودة إلى بلاده. فعائلته تواجه مشاكل كبيرة من جراء تصرفه وحاول ماكول أن يشرح له المخاطر التي ستواجهه، ولكن بدون جدوى كان يشبه مريضاً على طاولة العمليات، ينازع بين الحياة والموت وبدأنا نشعر بأنه يفلت من أيدينا بهدوء وسألت نادينسكي في آخر مرة رأيته فيها قبل أن يعود إلى بلاده:

«هل أنت متأكد من أنك تريد العودة؟».

فأجابني:

«لم يعد مهماً ما أريد. لقد قمت بواجبي تجاه عائلتي».

كان نادينسكي أحد ضحايا الحرب الباردة وكانت حياته مجرد تربة نزاع بين القوتين العسكريتين السريتين اللتين كانتا تتواجهان شرقاً وغرباً. لقد كان القدر خلاصه الوحيد.

ولكن إذا كان خطأنا أننا تعثرنا في متاهة المعلومات التي قدمها لنا المنشقون فيجب علينا أن نجد المخرج منها. لقد اختار أنغلتون الإيمان الأعمى بغوليتسين ليقوده إلى بر الأمان.

وقد بدا الأمر معقولاً أن نعود إلى مهندس هذه المتاهة ليساعدنا على إيجاد مخرج منها. ولكن رغم أنني كنت معجباً ومتحمساً لغوليتسين ونظرياته، فقد بدأت الشكوك تساورني حوله في نهاية الستينات.

كانت المشكلة تكمن في هوس غوليتسين «بأسلوبه». فقد زعم أنه إذا استطاع أن يطلع على ملفات المخابرات الغربية فإن ذلك سيساعده على شحذ ذاكرته ويقودنا إلى الجواسيس. وكانت نظريته تعتمد على التالي:

طالما أن معظم المعلومات التي اطلع عليها في مبنى دزيرجينسكي سكوير (مقر المخابرات السوفياتية) كانت سرية المصدر بهدف حماية هوية العميل الذي كان يزود ال ك ج ب بها، فإذا ما استطاع، غوليتسين أن يطلع على الملفات فربما كان بإمكانه أن يلتقط بعض النقاط المألوفة في سجل ال ك ج ب.

هناك طريقتان للمناورة مع غوليتسين. الأولى هي قبول نظريته وأسلوبه، والسماح له بإملاء كامل سياسة التجسس المضاد. أما الثانية فهي الاستمرار في مهمتنا المتعبة في محاولة لاستخلاص نتف الحقائق، التي، كانت تحتويها التقارير، والتي قال غوليتسين بأنه شاهدها

والتي تحتوي على معلومات حول أماكن تواجد العميل وغيرها من المعلومات، ومن ثم القيا بالتدقيق بصحة هذه المعلومات بالطرق المخابراتية.

وحيث نجحت المخابرات الغربية في الحصول منه على هذه النتف الصغيرة، كان غوليتسين ذا فائدة كبيرة. فعن طريق هذه المعلومات توصلنا إلى فاسال، واستطعنا أيضاً أن نتوصل إلى كيفية تحذير مارسيل تشاليت لهوية جورج باسك. والشيء ذاته ينطبق على معلومات غوليتسين السياسية. فحيث تمسك بما رأى وبما سمع، كان يبدو مؤثراً وصادقاً. فلا يمكن أن نشك، مثلاً، في أنه قد حضر مؤتمر شيليبّن الشهير الذي تأسست فيه المديرية الثالثة المسؤولة عن عمليات التضليل. ولكن حيث بادر غوليتسين لبناء نظرياته الخاصة، بناء على ملاحظاته، كنظرية برنامج التضليل الممتد لأربعين سنة، وحيث حاول أن يربط بين الأحداث التي جرت بعد انشقاقه، كما حصل بالنسبة للخلاف الصيني السوفياتي، فقد كان فظيعاً للغاية.

وسرعان ما انصرف المؤمنون بغوليتسين في أم آي ٥ عن نظرياته وأساليبه. وكنت أنا منهم بالطبع. ولم يبق مخلصاً له سوى آرثر وستيفان موبري الذي كان مسؤولاً عن غوليتسين أثناء قيامه بواجبه كرئيس لمكتب واشنطن في بداية الستينات.

أما في واشنطن فقد كان الوضع مختلفاً تماماً. فقد ابتلع انغلتون سنارة «النظرية»، وسمح لغوليتسين بالاطلاع بحرية على ملفات السي آي أي، حيث بدأ بتسمية الخونة عشوائياً على ما يبدو وغالباً ما كان يعجز عن تبرير قراراته على أي أساس صلب. وكانت النتائج مأساوية، وأدت إلى مزيد من الافراط في الأحكام الخاطئة. ووقع عدد كبير من ضباط السي آي أي في دائرة الشك، وكان أبرزهم وايف مورفي رئيس قسم الشؤون السوفياتية، وتدمرت حياتهم العملية. وفي النهاية ساء الوضع كثيراً مع تزايد عدد الضباط المشبوهين بسبب استنتاجات غوليتسين، لدرجة أن السي آي أي قررت أن العلاج الشافي لكل هذه الشكوك يكون بحل قسم الشؤون السوفياتية والبدء بطاقم جديد من الضباط. وقد كان واضحاً أن هذا الحل هو أحد المخارج، ولكن لا يمكن بأي حال تبرير الأضرار التي عكسها هكذا حل على الوكالة كلها.

ورغم أن أم آي ٥ تفادت الوقوع في الأخطاء التي انجرفت إليها السي آي أي في تعاملها مع غوليتسين، لكنها مع ذلك لم تتعامل معه كما يجب. فقد تركت له المجال لكي يعتقد بأنه شخص مهم للغاية. كان من الضروري وضع حدود للمنشقين وإلزامهم بها، كما كان من الضروري عدم اطلاعهم إلا على القليل جداً من المعلومات حتى لا يتمكنوا بأي حال من

الأحوال، من تثمين أنفسهم إزاء بقية النشاطات المخابراتية. صحيح أننا فتحنا قلوبنا لغوليتسين منذ أول زيارة له إلى بريطانيا عام ١٩٦٣-وأننا مسؤول عن ذلك مثلي مثل أي شخص آخر. فعندما بدأ العمل في قضية ميتشيل كنت أنا وآرثر نطلع غوليتسين على كل التفاصيل وبموافقة كل من هوليس وفيرنيفال جونز. حتى أن غوليتسين هو الذي اختار شيفرة «سبيترز» لهذه القضية تيمناً بضابط مخابرات تشيكي مشهور. كان يعرف منذ البداية أننا نحاول اصطياد جاسوس ذي مستوى عال، ولا بد أن ذلك ترك بصماته على المعلومات التي زودنا بها. وقد كان من السهل ملاحظة كيف عملت مخاوفنا وشكوكنا على تقوية نظريات غوليتسين خاصة في تلك الشهور الهستيرية من عام ١٩٦٣ حيث فاحت رائحة الخيانة في كل ممر من المبنى.

ولكن مما لا شك فيه هو أن غوليتسين كان على علم بكثير من الاختراقات في الغرب. وهذا ما تؤكده السجلات في كل من بريطانيا والنرويج وفرنسا. ولكننا وبتسرعنا، لم نكن لنتمكن من الحصول على نسخة غير مزورة من تقارير غوليتسين. الأمر الذي كلف، ومازال يكلف الغرب غالياً.

وانقلبت الظروف أخيراً ضد غوليتسين عام ١٩٦٧. فقد دعي لإلقاء كلمة في مؤتمر المخابرات الغربية في ملبورن بأستراليا. وكان كل الحضور يتلهفون لمشاهدته لكثرة ما طرح من أفكار في الخمس سنوات الماضية. وكان غوليتسين متباهياً كالعادة، وسرعان ما انهال بالسباب على فشل المخابرات الغربية في تفسير معلوماته بشكل صحيح. وقال:

«أنا أعرف عن جواسيس آخرين، فلماذا لا تريدون التعاون معي؟».

شدد غوليتسين بشكل خاص على بريطانيا، وعلى الاختراقات العديدة الموجودة فيها والتي ادعى بأنها لم تكتشف حتى الآن وقال بأنه الشخص الوحيد المؤهل لتحديدها. وابتسم فيرنيفال جونز تلك الابتسامة التي يخص بها الناس المملين. كان يكره دائماً نشر غسيله الوسخ علناً إلى أن فرغ صبره فقال: «ماذا تريد بالضبط؟».

«أريد السماح لي بالاطلاع على ملفاتكم!».

«حسناً لك ذلك.. لك كل ما تريد. سنرى إذا كان لديك ما تقدمه».

جاء غوليتسين في ربيع عام ١٩٦٨. كنت في البداية قد ضغطت عليه ليأتي رأساً إلى لندن. ولكن الفصل كان شتاء. فقال لي بأنه رأى ما يكفيه من الثلج، فوضع في بيت آخر قرب برايتون. وكان معه في البيت ميشيل ماكول وزوجته ليدبرا شؤون المنزل وحتى لا يشعر

بالملل. كنت أذهب لزيارته كل أسبوع ومعي حقيبة ملأى بالملفات كنت أسلمه إياها للدراستها.

عندما سلمته الدفعة الأولى من المادة حذرته بأنه لا يجوز له تدوين الملاحظات. فقد كنت أنا وفيرنيفال جونز نخشى من أن تكون الدوافع وراء «نظريته» هي جمع ما يقدر عليه من المعلوماتَ من كل جهاز مخابرات غربي لهدف مجهول في المستقبل ولكن غوليتسين قال بكبرياء:

«بالطبع لا، إنني شخص محترف يا بيتر وأفهم هذه الأشياء».

ظل غوليتسين يبحث في أكثر الملفات سرية في أم آي ٥ طيلة أربعة أشهر وفي كل شهر كان ماكول يذهب إلى بنك غلين ميلز ليسحب عشرة آلاف جنيه استرليني نقداً ويضعها في حقيبة صغيرة ويعطيها لغوليتسين.

لم تكن معلومات غوليتسين لتساوي المبالغ الطائلة التي كانت تدفع له. وكان فيرنيفال جونز أول من اكتشف ذلك. بالطبع، كان هناك بعض المعلومات ذات الأهمية. فقد درس «فينونا» واستطاع أن يحل بعض الرموز باستخدام معرفته لطبيعة عمل ال ك ج ب وأمضى وقتاً طويلاً في دراسة ملفات المرشحين في مدرسة اللغات في كامبريدج محاولاً أن يصل إلى شخص ما قد يلفت انتباهه. حتى اننا قمنا باختبارات صوتية لبعض الذين أبدى اهتماماً بهم، لنرى إذا ما كان باستطاعة غوليتسين أن يكتشف من خلال الألفاظ التي يستخدموها فيما إذا كانوا قد التقطوا بعض الكلمات الروسية من ضباط ال ك ج ب وكانت هذه طريقة فنية للغاية ولكنها لم تعط نتيجة، ووجدنا في النهاية أن أفضل شيء يمكن عمله هو إغلاق المدرسة نهائياً.

أما في المجال الحاسم ـ أي فيما إذا كان باستطاعته أن يلقي الضوء على قضية الاختراق، فقد كان غوليتسين عقيم الفائدة. لقد طرح المزيد من التفاصيل في شأن ادعاء سكربكين وكان عنده نظرية شاملة غريبة، وأمضى غوليتسين أسابيع عديدة بدراسة ملفات بث «فينونا» ليرى فيما إذا كان باستطاعته مساعدتنا في تحديد الأسماء السرية. وكان هناك اسمان يثيران اهتمامه بشكل خاص ـ دافيد وروزا ـ واللذان كانا يعملان سوياً كزوج وزوجة أو أخ وأخت، كما عرفنا من آخر رسالة استطعنا حلها. وطلب غوليتسين ملفات كل ضباط أم آي ٥ الذين عملوا في أثناء التقاط بث «فينونا» وجاء اليوم الذي قال فيه انه أصبح يمتلك الجواب.

«جواسيسك هنا. لقد استطعت أن أعريهم بأسلوبي». وأشار بإصبعه كما يشير الساحر إلى ملفين على الطاولة. كنت أعرف الملفين جيداً. كانا ملفي فيكتور ونيس روتشيلد.

فقلت له:

«لا تكن سخيفاً إلى هذا الحد يا أناتولي. إن فيكتور هو من أفضل الأصدقاء الذين عرفتهم هذه الدائرة فكيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟».

قال:

«إنهما يهوديان، اسمان يهوديان، دافيد وروزا اسمان يهوديان...».

وشعرت بأن قوله هذا مجرد لاسامية سوفياتية. وفكرت لو أن السي آي أي كانت في مكاني وكنت أنا أنغلتون لأصبح فيكتور وتيس بالتأكيد على قائمة الجواسيس، حسب تحليلات غوليتسين غير المنطقية. كانت مشكلة غوليتسين الرئيسية هي أنه كان يفسر ما في الملفات وكأنه لا يزال في ال ك ج ب. فقد كان يبحث عن العمليات التي فشلت، وعن الأخطاء التي يمكن أن نعزوها إلى ضابط محدد.

وكان يسأل:

«أين هذا الرجل؟»

وكنت أجيب:

«في نفس الوظيفة».

كان غوليتسين يصمت لعدة أيام، ثم يعلن بأنه متأكد من أن هذا الرجل خائن.

«لماذا يا أناتولي؟»

«لأن الفشل في ال ك ج ب هو خطأ جسيم. وإذا ما فشلت فإنك ستفقد ثقة الآخرين بك، الأمر الذي يجعلك حزيناً، وقد يؤدي بك إلى التفكير بالانشقاق».

لم يفهم غوليتسين مطلقاً ثقافة الغرب، ولأنه أجبر على الانشقاق بعد لقائه ستالين فقد افترض أن كل شخص في الغرب قد يتصرف بنفس الطريقة.

كنت أقول له دائماً ان الوضع في الغرب مختلف وأننا لا نتعامل مع الأمور بهذا الشكل ـ «إن هذه الأمور لا تحدث إلا في الأف بي آي».

كان وجه غوليتسين يشحب وكانت روحه تكاد تخلو من الدعابة.

قلت له:

«اسمع يا أناتولي، لقد درسنا هذه الملفات لمدة عشرين سنة، ولم نستطع أن نحدد من هم الجواسيس. وأن أسلوبك لم يساعدنا على الاطلاق».

نظر غوليتسين إلي ثم إلى الملف، ليجعلني أشعر بالذنب لأنني شككت به. وقال:

«أنت لا تعرف شيئاً يا بيتر. فأنت لم تكن في مبنى دزيرجينسكي سكويو. أنا كنت هناك».

ورغم خيلاء غوليتسين وكبريائه فقد بدا إنسانياً إلى أقصى الحدود عندما ارتسمت لَمحة الحزن المفاجئة على وجهه. أذكر أنني عرضت عليه ملف فولكوف بعد ظهر أحد الأيام. وعندما قرأ قصة ذلك الرجل الذي حاول الانشقاق وجاء ملفه إلى مكتب كيم فيلبي، شرع غوليتسين بالبكاء وسأل بألم وهو يعي بأنه لولا العناية الإلهية لواجه هو نفسه هذا المصير.

«كيف يمكنكم أن تكونوا بهذه الدرجة من الاهمال؟».

وشعرنا أنا وماكول بالخزي، لم يكن لدينا عذر نقدمه.

عند نهاية مدة إقامة غوليتسين تحولت أحاديثي معه إلى أحاديث ساخرة مملة عن أعمال التضليل، وعن المعلومات المتكررة الموجودة في ملفاتنا. لقد أصبح ظلاً باهتاً لرجل أسر أذكى العقول الغربية في مجال المخابرات، بذاكرته الفوتوغرافية وعينه التي لا تضيع أي تفصيل. وقبل أن يغادر قدم لنا كمية كبيرة من الأوراق المطبوعة على آلة كاتبة بإصبع واحدة. وقال لي إن هذه الأوراق هي بمثابة دراسة عميقة وشاملة في نظرية التضليل. وسلّمتها للسجل للحفظ. لقد ذهب ذلك الوقت الذي كنت انتظر كل كلمة يقولها. فلم اهتم حتى بقراءة ما كتب.

وقابلت غوليتسين مرة أخرى في نيويورك في الشتاء اللاحق. وتناولنا طعام الغداء سوياً في المطعم الايطالي قرب الحديقة المركزية. كان اللقاء مناسبة حزينة. كان غوليتسين ما زال يتحدث عن خططه لإنشاء معهد لدراسة التضليل، وعن مداخل جديدة اكتشفها. ولكنه كان يعلم بأن دوره قد انتهى فقد أدى غز و تشيكوسلوفاكيا في الصيف الماضي إلى لجوء عدد لا بأس به من المنشقين إلى الغرب مثل فورليك وأوغست اللذين كانت معلوماتهما أقل طموحاً من معلومات غوليتسين ولكنها كانت أسهل هضماً. كان يعلم أن اسمه أصبح في صحف الماضي، واعتقد أنه شعر بأنني كنت اهزأ به. وقد عاش غوليتسين في الفترة الأخيرة في مأساة حقيقية، حيث أصبحت ابنته التي كان يعبدها ضحية أخطر المفاسد الغربية على الاطلاق ـ إدمان المخدرات ـ مما أدى بها إلى الانتحار. وكانت هذه ضربة قاصمة لغوليتسين لام نفسه عليها.

بعد الغداء سرنا معاً عبر الحديقة المركزية في شمس الشتاء الساطعة، وعرض علي زيارة مزرعته في ضواحي نيويورك، ولكنني قلت له بأنني يجب أن أعود إلى لندن. ولم يبق سوى القليل نتحدث به. فقلت له قبل أن نفترق:

«هل تفكر بالعودة إلى الوطن؟».

فقال بعد تردد غير طبيعي:

«لا، لا، لن يسامحوني».

نادراً ما كان غوليتسين يتحدث عن روسيا ولكنها كانت دائماً في عقله.

سألته:

«هل تشعر بحنين إلى الوطن؟»

أجاب:

«في بعض الأحيان....».

ودّعنا بعضنا وسار غوليتسين مبتعداً عبر الثلج، كان صوت دعساته مسموعاً وكان الإحساس بالبرد يتسلل إليه. كما هو حال جميع الذين انشقوا.

الفصل الحادي والعشرون

بعد فشل غوليتسين في دفع قضية الاختراق إلا الأمام، ظلت أم آي ٥ تتخبط وسط المتاهة. وتوقفت عملية البحث عن العميل عالي المستوى، الذي توصلت لجنة «فلوينسي» إلى أنه السير روجر هوليس في عام ١٩٦٦، ليتركز الاهتمام على ملاحقة العميل متوسط المستوى. ولكن براءة هانلي جاءت لتسد علينا الأبواب. واحترنا، هل نعتبر قصة غولينيفسكي ملفقة ونتوقف عن البحث عن العميل متوسط المستوى، أم نواصل البحث عن مرشحين آخرين تنطبق عليهم الصفات كما انطبقت على هانلي؟ فإذا افترضنا بأن ادعاء غولينيفسكي ملفقاً، فهل نعتبر الهدف منه إبعادنا عن عميل آخر متوسط المستوى موجود فعلاً، أو عن العميل عالي المستوى؟ وهل هذين العميلين موجودان فعلاً أم لا؟ وكان واضحاً بأنه من المستحيل الاستنكاف عن عمل أي شيء، وبذلك أصبحنا مثل الممثلين في التراجيديا اليونانية، لا خيار لنا سوى الاستمرار في توسيع تحقيقاتنا، ونشر السم أكثر فأكثر عبر الممرات.

وكان المشبوه الثاني لدينا هو غريغوري ستيفنز (اسم مستعار) وهو ضابط موهوب ذي حس خبيث بالنكتة. وكانت الصفات تنطبق عليه ٦٠٪. وكانت خلفيته البولندية أقوى من خلفية هانلي. فنصفه بولندي منذ الولادة وقد ترفع إلى وظيفة هانلي السابقة كرئيس لقسم الشؤون البولندية في أم آي ٥. وساعده على النجاح معرفته للغة البولندية وثقافته وإلمامه بتاريخ موطن أمه. والمفارقة العجيبة هنا أن ستيفنز كان أول من حقق مع غولينيفسكي عام ١٩٦٣، وأول من سمع قصته عن العميل متوسط المستوى. فهل كان هذا مجرد صدفة، تماماً كما حصل مع هوليس عندما قابل غويزنكو؟

كان ستيفنز، مثل هانلي أيضاً، في الجيش وله اتصال بضابط الـ ك ج ب الذي ادعى غولينيفسكي بأنه نفذ عملية التجنيد. كما أن الرجلين حضرا مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥، حيث عُين ستيفنز مترجماً عسكرياً لمساعدة ستالين في التّرجمة إلى اللغة الإنجليزية، حتى اشتكى ستالين بأن الروسية التي يتحدث بها ستيفنز لا تخلو من اللكنة البولندية.

ومثل هانلي، خضع ستيفنز لعلاج نفسي، ومرة أخرى ذهبت لزيارة الطبيب النفسي. ففي حين أخبر هانلي طبيبه طبيعة عمله، فإن ستيفنز لم يشر إطلاقاً إلى تورطه في جهاز الأمن القومي. وقال الطبيب:

«لا أعتقد أبداً أن حالته النفسية تأهله أن يعمل في هذا المجال».

فسألت:

«هل تعتقد بأنه أهل للثقة؟».

قال:

«إنه ذكي جداً، ولكن ذكاءه يمكن أن يضله أحياناً».

سألته:

«ماذا تقصد بذلك؟».

أجاب:

«لا أعتقد أنك تستطيع الاعتماد دائماً على ما يقول».

وكلما كنت أمعن النظر أكثر في القضية كلما راودتني الشكوك أكثر أن يكون ستيفنز قد جند أصلاً. وبدا أن الأمر صعب للغاية. فقد كان ضابطاً جيداً ومصدر قوة للجهاز. ولكن في النهاية، إذا كان الاختيار دقيقاً، فما كان يجب أبداً السماح له دخول الجهاز. كانت مشاكله النفسية جزءاً بسيطاً من أشياء أخرى. كان القلق تجاهه ينبع أساساً من خلفيته البولندية. إذ دل سجله لدينا بأنه يقوم بزيارات منتظمة لبولندا لزيارة أقاربه هناك بعد الحصول على تصاريح رسمية من الجهاز. وكان عمه، وهو أقرب شخص له في بولندا، عضواً نشطاً في الحزب الشيوعي، وكانا أحياناً يلتقيان في لندن. وهذا زاد الطين بله. ذلك أن جهازنا يرفض روتينياً أي شخص نجد في خلفيته أي علاقة بالحزب الشيوعي البريطاني. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من الصعب جداً الإمساك به لأنه كان مرتبطاً منذ البداية بقضية العميل متوسط المستوى، الأمر الذي يمكنه من الإفلات بسهولة من التحقيق. كما أنه كان من المستحيل إنجاز التحقيق معه طالما أن نصف عائلته تعيش خلف الستار الحديدي. ومع ذلك قررنا التحقيق المباشر

معه لنصل إلى أبعد نقطة ممكنة، ودعي ستيفنز إلى التحقيق الذي قمت به أنا وضابط آخر أعور كان يعمل محققاً في القسم د ٣ هو جيم باتريك.

كان من الواضح أن ستيفنز يتوقع هذه الدعوة منذ أن سمع لأول مرة حديث غولينيفسكي عن العميل متوسط المستوى ذي علاقات بالبولنديين. كان دفاعياً وشرساً بثبات. حدق بي بعصبية، وكأنه أراد أن يقنعني بأنه كان يقول الحقيقة. ووافق على أنه مناسب للادعاء، كما تقبل بأن بعض ما في خلفيته لا يتناسب والتجنيد في أم آي ٥. وقال:

«كنت دائماً أخشى أن يثير أحد ما الجزء البولندي في شخصيتي. أعتقد بأنني سأسقط في الاختبار الآن، أليس كذلك؟».

أجبت:

«لا أعرف، ليس أنا الذي يقرر، إنه فيرنيفال جونز».

كان واضحاً له بأنه أينما اتجه التحقيق فإنه لن يفوز. وبعكس هانلي، فلم يكن لستيفنز أمل بأن يخرج من النار دون خدوش.

امتد التحقيق ثلاثة أيام. وفي صباح اليوم الثالث جاء بهدوء وجلس قبالتي على الطاولة، وقال:

«لقد حان الوقت لأخبرك شيئاً. لقد قررت أن اعترف. . .».

غمزت جيم الذي بدأ فوراً بتدوين الملاحظات، وكان هذا مجرد إجراء احتياطي حيث أننا كنا نسجل كل الجلسات السابقة.

استمر ستيفنز في حديثه،

«أجل. لقد كنت أبحث عن شخص أقول له الحقيقة منذ سنين عديدة. أنت محق. . فأنا الجاسوس الذي تبحثون عنه».

وتغضن وجهه واهتزت كتفاه وكأنه يبكي. ولكن لم يدم ذلك سوى لحظة انتفض بعدها ورفع رأسه عالياً وحدق بي، فقلت له:

«هل تعني ذلك حقاً يا غريغ؟».

«لديك شاهد أليس كذلك؟».

«هل تدرك بأنه عليك أن تدلي بتصريح للشعبة؟».

وهز رأسه موافقاً وانحنيت على زميلي وطلبت منه إبلاغ رجل الأمن في مكتب المدير

العام، توم روبرتس، ترتيب حضور رجال الشعبة الخاصة فوراً. وبقيت أنا وستيفنز نجلس متقابلين وبيننا الملفات والأوراق.

قال بصوت واضح:

«هذه هي الحقيقة يا بيتر».

قلت له انه من المفضل أن يصمت حتى يأتي توم روبرتس. وعاد جيم باتريك. وساد الصمت دقائق قليلة، ثم لاحظت أن كتفي ستيفنز تهتزان. للحظة اعتقدت أنه يبكي، أو أنه على وشك الانهيار. فلطالما يحدث ذلك. وفكرت بيني وبين نفسي.

«اللعنة، كان يجب أن يكون الطبيب موجوداً معنا».

فجأة بدأ ستيفنز يضحك هادراً. وصرخ.

«لقد صدقتموني، أليس كذلك؟».

للحظة شعرت بالإحراج فقلت له:

«لا أعتقد أنني فهمت..؟».

«كنت تريد جاسوساً، أليس كذلك؟ اعتقد بأنني أعطيتك إياه. فسيقطع رأسي على أي حال». وكان قد احمر وجهه فجأة، وانتهى من الضحك.

«يجب الا نبحث الموضوع هنا. سيأتي توم روبرتس خلال دقيقة. بإمكانك أن توضح كل شيء لفيرنيفال جونز».

بالنسبة لي كان موقف ستيفنز الأخير بمثابة محاولة تراجع عن اعتراف حقيقي رغم أنني شعرت لمعرفتي الكاملة به، بأن ما قاله كان مجرد نكتة من نكاته الخشنة. ولكن عمل ستيفنز هذا كان عملاً غبياً. فقد أضاع باعترافه أي فرصة لتبرئة نفسه.

ودب الرعب في نفس فيرنيفال جونز عندما علم بما حصل. كان محامياً، وكانت عمليات التحقيق لها عنده احترام خاص. فسألني عندما عدت إلى مكتبه:

«ما رأيك يا بيتر، هل كان اعترافه زائفاً، أم تعتقد بأنه سحبه عن وعي؟».

فقلت:

«أنت تعرف وجهة نظري، فأنا متأكد بأنه بريء. واعتقد أن قصة وجود عميل متوسط المستوى قصة مختلقة منذ البداية. أظن أنه مر بنوبة عصبية...».

صمت فيرنيفال جونز. كانت قضايا المنشقين المزيفين غير محببة لرجل في مثل مركزه، سألني:

«ألا تعتقد بأن غولينيفسكي قد اخترع الحكاية كلها ـ أقصد قصة العميل متوسط المستوى؟».

فأجبته بأننا قد دققنا في الأشرطة قبل التحقيق. وإنني طلبت من ستيفنز التحقق من الترجمة وبأن غولينيفسكي قال بأنها صحيحة.

قال فيرنيفال جونز وهو يعض على طرف الغليون:

«لا أدري كيف يمكن إبقاء ستيفنز بيننا». قلت،

«إنه رجل منهار نفسياً. وخلفيته البولندية مريبة، وسرعان ما تتسرب هكذا معلومات إلى الصحف».

وأشار فيرنيفال جونز لي بالانصراف.

وخلال ساعة أقيل ستيفنز من العمل. أمضى عشر دقائق مع فيرنيفال جونز ثم رافقه توم روبرتس خارج مبنى ليكون فيلد. ولم يعط فرصة حتى لإخلاء مكتبه.

بعد أيام قليلة جاء آرثر لزيارتي. وكنا قليلاً ما نتقابل منذ انتقاله للعمل في أم آي ٦. بدا أكبر سناً وأكثر هدوءاً وعصبية مما كان عليه، رغم أن الماضي ما زال يسكنه. أراد أن يعرف ماذا حصل لستيفنز. فقد كانا صديقين في الشعبة د في الماضي. ولأن آرثر كان أكبر منه سناً فقد شعر تجاهه بعواطف أبوية. سألني:

«هل كان من الضروري أن تفعل ذلك؟».

أخبرته عن العميل متوسط المستوى، وعن سحب ستيفنز لاعترافه، والفوضى والشك الذي لف الجهاز كله. وقلت:

«ماذا نستطيع أن نفعل غير ذلك؟ كيف نطالب الوايت هول بالتحقيق، ثم نتغاضى نحن عنه؟».

كان آرثر يعرف بأننا على حق، ولكن الثمن كان يزداد باستمرار. قال بهدوء:

«هذه القضية تسممنا جميعاً».

تركت مغادرة غريغوري ستيفنز مرارة كبيرة بيننا، فقد كان شخصاً محبوباً، وبالطبع ألقي اللوم عليّ. ولم يعرف أحد، إلا القليل جداً من الضباط ذوي المناصب العالية، بالظروف التي قادت إلى التحقيق مع ستيفنز ـ قصة اختراق أم آي ٥ القديمة، واعترافات بلانت، وسر النتائج الخطيرة التي توصلت إليها لجنة «فلوينسي» والتي طالت السير روجر هوليس، وأخيراً ملاحقة العميل متوسط المستوى.

بدأ الكلام ينتشر داخل الجهاز بأن القسم د ٣ يقوم بعملية تطهير دقيقة لصفوفه، وأن ضباطاً من أمثال غريغوري ستيفنز قد ضحي بهم. وسرى حديث عن الغستابو. وبدأ الضباط الشباب يتجنبوني في المطعم. وأصبحت أحاديثي العادية مع زملائي نادرة. كما أصبح أولئك الذين تورطوا في قضية الاختراق معزولين عن الجميع، بداعي الخوف منهم وعدم الثقة بهم على وجه التساوي.

وحصل نفس الشيء في أم آي ٦. فبعد سنوات من الإهمال تم تعيين رئيس جديد لقسم مكافحة التجسس، هو كريستوفر فيلبوتس، في منتصف الستينات، أي في الوقت الذي بدأت فلوينسي تنشط في عملها. وكان فيلبوتس ينظر لكل الأفكار والأهداف بمنظار المخابرات البريطانية البائد. وكان له بريق أبطال الحرب. ولكنه كان إنساناً ملتزماً بالنظام. وعندما أثيرت قضية فيلبي طرح فيلبوتس مسألة تنظيف الجهاز بأكمله. كان يرى أن إعادة الاعتبار للجهاز تستلزم مراجعة دقيقة لإجراءات الأمن المتخذة كما تستلزم إعادة النظر في موظفي الجهاز، هذا الجهاز الذي رغم جهود ديك وايت الجبارة، ما زال عليه أن يتعافى من الجروح التي أصابه بها فيلبي وسويس وكريب. ان هؤلاء الذين لا يستطيعوا أن يبرروا خلفيتهم بشكل مرض كان عليهم ترك الجهاز. إن الأمن القومي يتطلب ذلك وفي النهاية ستعود الفائدة على الدولة.

دعم فيلبوتس «فلوينسي» بدون أي تحفظ، وشرع في تنفيذ برنامجه القاضي بإجراء عملية تطهير داخل جهاز أم آي ٦. الأمر الذي أدى إلى إجبار ما لا يقل عن ثمانية ضباط كبار على تقديم استقالتهم في بداية عهد فيلبوتس. فقد أجبر مثلاً أحد الضباط، على الاستقالة عندما اكتشفت علاقته القديمة بليتسي فريدمان، والتي لم يكن قد أبلغ الجهاز عنها. وكانت ليتسي فريدمان زوجة فيلبي الأولى وبالتأكيد كان لها دور هام جداً في تجنيده لخدمة القضية السوفياتية. وهناك ضابط آخر فصل أيضاً وكان عضواً في الحزب الشيوعي البريطاني في الثلاثينات. كما كان هناك عدد من الضباط الذين درسوا في مدرسة اللغات في كامبريدج ولم يكن باستطاعتهم تفسير بعض الجوانب الغامضة في ماضيهم، واختاروا ترك العمل. حتى نيكولاس اليوت، الذي كان يدعم فيلبي لمدة طويلة، إلى أن سافر إلى بيروت ليحصل منه على الاعتراف، جرى التحقق من أمره لمعرفة فيما إذا استطاع فيلبي أن يحصل منه على معلومات. بعد تحقيق مطول استطاع إليوت أن يقنع آرثر مارتن ببراءته.

لم يكن في كل هذه القضايا ما يشير إلى خيانة. ولكن، ولمدة طويلة، كانت قوانين عملية التطهير العادية موضوعة على رف نوادي عالم المخابرات. وعندما جاءت ساعة الحساب كان الوضع مؤلماً جداً. ووضع معظم اللوم في عمليات التطهير التي جرت في الأم آي

٦ على أم آي ٥ وعلى أشخاص مثل باتريك متيوارت وعليّ أنا تحديداً. وشعر الكثيرون أن أم آي ٥ كانت تنتهز قضية انشقاق فيلبي لتسديد فواتير قديمة.

أصبحت غير محبوب في بعض أقسام أم آي ٦ منذ مراجعتي لقضية بينكوفسكي. ولكن القضية التي جلبت لي العداء والكراهية الدائمة في أم آي ٦ هي قضية إيليس. هذه العداوة كانت بمثابة وسام لي على إنجازي.

كانت قضية إيليس بمثابة إسفين وضع بين أم آي ٥ وأم آي ٦ لمدة طويلة لا تنقص عن المدة التي تركها إسفين فيلبي بيننا. بدأت القضية إثر كارثة هرب بيرغيس وماكلين، عندما شرعت أم آي ٥ بإعادة تحليل المعلومات التي قدمها المنشق والتر كريفيتسكي. فقد أشار كريفيتسكي في أحد ادعاءاته إلى وجود مهاجر روسي من البيض يقيم في باريس اسمه فلاديمير فون بتروف، وأنه عميل مهم للمخابرات العسكرية السوفياتية في فترة ما قبل الحرب، وله مصادر جيدة في بريطانيا وألمانيا، حيث كان يعمل عميلاً مزدوجاً للروس والألمان.

سعت أم آي ٥ لمعرفة من هي هذه المصادر، لذلك راجعوا ملف فون بتروف ودرسوه فوجدوا مجموعة من تقارير لضباط مخابرات ألمانية تم الحصول عليها في نهاية الحرب. أكد ضباط المخابرات الألمانية أن فون بتروف كان يعمل لصالحهم، ولكنهم بالطبع لم يكونوا على علم بصلته بالروس. وذكر العديد منهم أن فون بتروف له مصدر في المخابرات البريطانية يستطيع الحصول منه على أوامر المعارك، بالإضافة إلى تفاصيل العمليات الحيوية، كالتنصت على المخابرات التلفونية بين هتلر وسفيره في لندن، هو فون ريبنتروب. وتذكر أحد الضباط الألمان اسم أحد مصادر فون بتروف، المدعو كابتن إيليس، استرالي الجنسية يعرف عدة لغات، ومتزوج من امرأة روسية.

كان تشارلز «ديكي» إيليس، في ذلك الوقت ضابطاً كبيراً في أم آي ٦، ترقى منذ وقت قريب إلى منصب المسؤول عن شؤون الشرق الأقصى في الأم آي ٦، ليصبح مسؤولاً عن كافة العمليات في شمالي وجنوبي أمريكا. التحق بأم آي ٦ في العشرينات، حيث عين في باريس مسؤولاً عن تجنيد العملاء في جالية المهاجرين الروس البيض. وفي هذه الفترة جند عميلاً ذا صلة بفون بتروف.

كانت الجالية الروسية في فترة ما قبل الحرب مستنقعاً للولاءات غير الثابتة. وعندما طرحت أم آي ٥ تساؤلاتها حول إيليس، رفضت أم آي ٦ أي احتمال أن يكون جاسوساً. ورجحوا أن يكون فون بتروف هو الذي يعمل لصالح إيليس، وليس العكس، وأنه كان يكذب ليحمي نفسه. وعلى أي حال اختار إيليس التقاعد المبكر، وخطط للعودة إلى أستراليا.

وعندما عُين ديك وايت مديراً عاماً لأم آي ٥، لم يشأ أن يزيد التوتر القائم والذي كاد أن ينفجر بسبب الشكوك المتزايدة حول كيم فيلبي، فوافق ديك على وضع القضية على الرف حيث ظلت هناك دون أن يثيرها أحد إلى أن استلمت أنا مسؤولية القسم د ٣.

وعندما أصبح فيلبوتس رئيس قسم مكافحة التجسس اتصلت به بصفتي رئيس لجنة «فلوينسي» وطلبت منه تشكيل لجنة مشتركة من أم آي ٥ وأم آي ٦ للتحقيق في قضية إيليس لحل القضية نهائياً. فذهب إلى ديك وايت ليستشيره فوافق الأخير على ذلك، وشرعت في العمل مع ضابط شاب من قسم مكافحة التجسس في أم آي ٦ هو بني بانتشيف.

كانت الصعوبة الحقيقية في قضية إيليس تكمن في تحديد الجهة التي يعمل لصالحها: الروس، أم الألمان، أم كليهما. وسرعان ما توصلنا إلى تأكيدات من خلال قصة ضابط المخابرات الألمانية، عند مراجعتنا لسجلات عملية التنصت على مخابرات هتلر وفون ريبيتروب. كان إيليس مسؤولاً عن تحليل المعلومات المستقاة من جهاز التنصت. وكان علينا أن نعرف فيما إذا كان يزود فون بتروف بالمعلومات وهو يدرك أنه عميل روسي، أو أنه كان يفترض أنه يعمل فقط للألمان.

كان أول ما جعلني أقتنع بأن إيليس كان دائماً جاسوساً روسياً، هو قصة توزيع تقرير ضابط المخابرات البريطانية والذي يدعي فيه أن مصدر فون بتروف الإنجليزي هو كابتن إيليس. وقد أرسل التقرير روتينياً إلى كيم فيلبي في قسم مكافحة التجسس. فكتب على هامش التقرير «من يكون إيليس هذا؟» ثم أوصى بعدم اتخاذ أي إجراء في هذه القضية ودفن التقرير في الملفات، في الوقت الذي لم يكن فيه مكتب إيليس ليبعد إلا عدة أمتار عن مكتب فيلبي. وبدت لي ردة فعل فيلبي على التقرير بمثابة سهو مريب للغاية لرجل عادة ما يوصف، لدقة ملاحظته، بعين الصقر.

كانت هذه الحادثة هي الأولى من سلسلة من الحوادث الهامة بين فيلبي وإيليس. فخلال سنة من وقوع فيلبي في دائرة الشك سارع إيليس إلى التقاعد المبكر بحجة وضعه الصحي. وغادر إلى أستراليا، حيث عمل كمستشار للمنظمة الأسترالية لجمع المعلومات الاستخباراتية. وقد أطلعه الأستراليون هناك على نية فلاديمير بتروف بالانشقاق. وكان بتروف شخصاً موثوقاً من قبل بيريا، اختار أن يعيش في الغرب بدل الاستمرار في حياته في موسكو. على الفور عاد إيليس، إلي لندن واتصل بكيم فيلبي رغم تحذيرات موريس أولدفيلد له. لا أحد يعرف ماذا بحثا في لقائهما ولكن ومنذ ذلك التاريخ وضع بتروف في قائمة الذين تدور حولهم الشبهات، وعندما شعر بأن حياته قد أصبحت معرضة للخطر من قبل السفارة السوفياتية سارع بالانشقاق قبل الموعد المحدد بساعات وبذلك استطاع أن يفلت من ضابطي

ال ك ج ب اللذين أرسلا من موسكو لإعادته. ولم يعرف أحد سبب سفر إيليس بهذه العجلة إلى لندن. ولكنني كنت أفترض دائماً بأن إيليس كان يعتقد أن بتروف الذي كان على وشك الانشقاق هو نفسه فون بتروف الذي كان على اتصال به في العشرينات، والذي كان على علم بأسرار خيانته.

في ذلك الحين، قمنا بمراجعة سجل إيليس خلال فترة الحرب، كان قد أمضى معظم فترة الحرب في الولايات المتحدة يعمل نائباً للسير ويليام ستيفنسون (رجل يدعى المقدام) في مكتب الأمن البريطاني. وقد أظهرت بعض رسائل «فينونا» الأمريكية بوضوح بأن السوفيات زرعوا بعض العملاء داخل مكتب الأمن البريطاني. ورغم محاولاتنا المستميتة لتحليل العلاقة بين إيليس والأسماء الرمزية المكتشفة، لم نتوصل إلى ما يثبت علاقته بها.

بدأت أبحث في الماضي عن نقاط محددة تربط إيليس بالسوفيات في فترة ما قبل الحرب. وكنت في ذلك الوقت أدرس فترة ما قبل الحرب كجزء من أبحاث القسم د ٣. وكنت أقرأ كذلك السيرة التي كتبتها إليزابيت بوريتسكي عن حياتها بعنوان «شعبنا» والتي تحكي فيها عن حياتها كزوجة للودفيغ بوريتسكي (المعروف أيضاً باسم إيغناس رايس)، وهو واحد من الجواسيس العظام عمل مع كريفيتسكي في القسم الرابع في المخابرات العسكرية السوفياتية. وقد قُتل بعد أن انشق ورفض العودة إلى موسكو. كنت قد قرأت الكتاب أولاً بترجمته الإنجليزية، ولكنني في هذه المرة قرأته أيضاً بالنص الأصلي الفرنسي. ولاحظت وجود فقرة غريبة كانت محذوفة من النص الإنجليزي. فقد قالت اليزابيت بوريتسكي بأنه كان لزوجها لودفيغ في العشرينات عميل عالي المستوى في المخابرات البريطانية.

ذهبت في عام ١٩٦٦ إلى باريس لمقابلة السيدة بوريتسكي، التي ظلت تحافظ على ذكرى زوجها، كما احتفظت أيضاً بشكوكها حول كل عملاء الغرب الامبرياليين، وتحدثت معها عن زوجها لفترة قصيرة ثم سألتها عن تلك الفقرة في الكتاب. بالتأكيد كان سؤالي مغامرة، فقد كانت التواريخ عندها متداخلة فتوصلت من حديثها إلى أن ذلك العميل هو فيلبي!! وعندما قلت لها هذا بدأت تتهمني بالجهل. قالت:

«إنه ليس فيلبي. كان لودفيغ يدير هذا العميل في امستردام في الفترة ما بين عامي ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩. في ذلك الوقت كان فيلبي مجرد طالب مدرسة».

وسألتها محاولاً إخفاء شغفي:

«هل تستطيعين معرفة ذلك الرجل؟»

بدأت تتملص من الإجابة وقالت لي بأنها ما زالت متخلصة لشعبها، وبأنها لا تستطيع أن تقول شيئاً.

قلت:

«لا لا الأمر يختلف. . إننا نريد هذه المعلومات للسجل فقط».

وضعت أمامها على الطاولة حوالي عشرين صورة كنت قد أخرجتهم من حقيبتي، كان بعض هذه الصور قد وضع بهدف التضليل أما البعض الآخر فهو صور لأصدقاء زوجها المعروفين، وكانت هناك صورة لإيليس في فترة العشرينات. والتقطت كافة الصور التي تعرف أصحابها ومن ضمنها صورة إيليس.

أخبرتني أنها لا تعرف اسم الرجل ولكنها أكدت أيضاً أن وجهه مألوف لها.

من باريس توجهت بالباص إلى امستردام لمقابلة امرأة تدعى السيدة بيك، أرملة رجل هولندي اسمه هنري بيك، والذي عمل كجاسوس سوفياتي غير شرعي حيث جند العديد من الجواسيس في بريطانيا في فترة ما قبل الحرب بمن فيهم جون هيربرت كنغ موظف الشيفرة في وزارة الخارجية. وقد اقترحت علي اليزابيت بوريتسكي زيارة السيدة بيك لتلقي مزيداً من الايضاحات حول الصورة التي التقطتها، أي صورة إيليس. وكانت السيدة بيك حذرة في إجاباتها كالسيدة اليزابيت، وشعرت بأن أحداً ما قد حذرها من زيارتي. وقد انتقت هي أيضاً صورة إيليس ولكنها لم تقل لماذا انتقت صورته هو بالذات.

لم يتبق سوى مدخل واحد. فقد ذكرت اليزابيت بوريتسكي في كتابها كيف أن ريتشارد سورج، واحد من الجواسيس السوفيات العظام، استطاع إقامة أهم شبكات التجسس في التاريخ في الصين واليابان أثناء الحرب العالمية الثانية. وقالت إنه سافر إلى بريطانيا في نهاية العشرينات في مهمة خطرة للغاية. وعندما سألت اليزابيت عن مهمته رفضت إعطائي أية تفاصيل، بل حاولت بوضوح أن تقنعني بعدم زيارة كريستين أرملة سورج، التي تعيش في أحد المعاهد الدينية قرب نيويورك. لذا أبرقت إلى ستيفان دي موبري مدير مكتب أم آي ٦ في واشنطن آنذاك طالباً منه زيارتها.

وضعت كريستين آخر قطعة نملكها لاستكمال الصورة، ومع ذلك بقيت غير واضحة. فقد تذكرت بالفعل مهمة سورج، وقالت بأنها تتعلق بمقابلة عميل لهم لا تعرف شيئاً عن هويته. وتذكرت حادثة واحدة فقط ـ لقاء في زاوية شارع في لندن، حيث ذهبت هي وزوجها لمقابلة هذا العميل، ولكن سورج طلب منها البقاء بعيدة لتغطيته في حالة وقوع مشكلة.

ولكن هل باستطاعتها تمييز هذا العميل؟ قالت إنها رأته ولكن من بعيد. وعرض عليها ستيفان الصور. فأشارت إلى صورة إيليس وقالت.

«هذا الرجل يبدو مألوفاً لي، ولكنني لا أستطيع أن أجزم بعد مرور أربعين عاماً. . .».

وأخيراً حققنا مع إيليس. كان قد أصبح كبيراً في السن وزعم أنه بصحة سيئة، لذلك كانت التعليمات لي ولبني بانتشيف تقضي بمعاملته بلطف كامل. وأنكر إيليس كل شيء عدة أيام. وأنحى باللائمة على الزملاء الحاقدين والحاسدين. ولكن سرعان ما بدأت مقاومته تذبل عندما عرضنا عليه الأدلة، تقرير الضابط الألماني وقائمة المطلعين على جهاز التنصت على تلفونات هتلر لسفيره.

في يوم الجمعة عاد إيليس إلى غرفة التحقيق بعد تناول غدائه وفي يده ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة. كانت الورقة عبارة عن اعترافٍ كامل. وجاء في الاعتراف بأنه قد وقع في المشاكل في السنوات الأولى من عمله مع أم آي ٦. حيث أرسلوه للعمل مباشرة بدون تدريب وبدون مال. فاضطر أن يزود عميله زيلينسكي ببعض المعلومات البسيطة لتكون طعما لاصطياده. وكان زيلينسكي صهر إيليس، وله علاقة مع فون بتروف. وقال إنه فعل ذلك لكي يحصل على المزيد من المعلومات. وهذه لعبة خطيرة جداً، فسرعان ما وقع ضحية الابتزاز. وأدعى أيضاً أن زوجته كانت مريضة وأن حاجته للمال لمتابعة علاجها جعله يوافق على تزويد زيلينسكي بمزيد من المعلومات.

كان اعتراف إيليس مكتوباً بطريقة ذكية يخفي بها نوع المعلومات التي زود بها زيلينسكي، وإلى من وصلت تلك المعلومات. ولذا طلبنا منه أثناء التحقيق توضيح هذه الأمور. فأقر بأنه أفشى بالتفصيل أسرار خطط المعارك البريطانية إضافة إلى المعلومات التي وقعت بين يديه من جهاز التنصت على تلفون هتلر- فون ريبنتروب، رغم أنه كان يعلم بأن هذه المعلومات كانت تصل عن طريق فون بتروف إلى الألمان. (وقد حصلت المخابرات العسكرية الألمانية على أغلب المعلومات حول بريطانيا عن طريق ستيفنز وبست اللذان وقعا في أيدي الغستابو بالحيلة في منطقة الحدود الألمانية الهولندية). وقد تحدثنا معهما بعد الحرب فقالا أنهما دهشا أثناء التحقيق معهما من مدى إلمام المخابرات العسكرية الألمانية بنشاط أم آي ٦. وسألنا إيليس عن آخر اتصال له مع المهاجرين الروس، فأقر بأنه كان في كانون أول من عام ١٩٣٩ أي بعد اندلاع الحرب.

جلس إيليس أمامنا بوجهه الشاحب مجرداً من رتبه. ولم أقبل أن أسمع منه أي اعتذار. فأنا أفهم أن يختار إنسان ما السوفيات لموقف أيديولوجي، ولكن أن يبيع زملاءه

للألمان مقابل حفنة من الجنيهات فهذا شيء لا أفهمه؟ قلت له إنه لو ألقي القبض عليه في ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ لكان أعدم شنقاً.

بدا واضحاً أن إيليس اعتقد بأن التحقيق انتهى. ولكنه بالفعل قد بدأ الآن. فقلنا له: «كنا نريد أن نعرف مدى تورطك مع السوفيات».

ومرت لحظة كاد يسقط فيها أمامنا، ولكنه تمالك نفسه وصرخ.

«أبداً، لم أكن أبداً مع الشيوعيين...».

وفي اليوم التالي بدأنا نستعرض معه سلسلة من الأحداث، سفره إلى أستراليا، وعودته السريعة إلى لندن، وحادثة انشقاق بتروف. ولكنه أنكر كل شيء، حتى عندما اكتشفنا كذباته المتكررة حول مهماته حتى فترة تقاعده. حتى عرض الحصانة عليه لم يغير من موقفه شيئاً. أما أنا فقد كان لدي شكوك بسيطة حول تورط إيليس مع الروس.

كتبت التقرير أنا وبني بانتشيف حول القضية، وكان رأينا أن إيليس قد قام بالتأكيد بالتجسس لصالح الألمان حتى في فترة الحرب، وأنه كان لمدة طويلة عميلاً للروس إلى أن تم اقصاؤه، بعيداً عن الملفات السرية. وقد صدق كريستوفر فيلبوتس على التقرير بدون أي تحفظ ورفعه إلى ديك وايت ونائبه موريس أولدفيلد.

كان أولدفيلد شخصاً طيباً وخجولاً يفهم مبادىء مكافحة التجسس بشكل جيد. ولكنه كان ينقصه القدرة على الحكم على الأشخاص. فرفض في البداية تصديق صحة اعتراف إيليس، إلى أن قدم له بني بانتشيف الأدلة الحاسمة. ورغم أننا اكتشفنا خائناً ذا أهمية كبيرة. إلا أنني كنت أشعر في بعض الأحيان بأنني موضع لوم. فقد كان أولدفيلد يكره جو الرعب الذي خلقه فيلبوتس بعملية التطهير، ولذلك شن حملة ليغير وجهة نظر ديك وايت. فقد كانت فكرة اعتراف إيليس بالكاد تؤثر على تفكيره. كان يعتقد أنها حادثة قديمة ومن الأفضل نسيانها.

وفي الوقت الذي تحول فيه المناخ ضد التحقيقات في أواخر الستينات، حاولت يائساً توزيع استنتاجات لجنة «فلوينسي» بشكل أوسع داخل أم آي ٥/أم آي ٦. كنت واثقاً أن هذه هي الطريقة الوحيدة لاستمالة موافقة البعض على استمرار العملية. كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذه القضايا، وينظرون إلى عملنا على أنه مكارثية عمياء. وكان القسم د ٣ قد أصبح ذا شأن في الثلاثينات بحيث أصبح يضم لجنة «فلوينسي» كما يضم لجنة الأبحاث في القسم. وكان من المحتم أن يرفض بعض الضباط ذوي الرتب العالية الأولوية التي أعطيت لجهاز د ٣ على صعيد المصادر المتاحة كما على صعيد دائرة الموظفين. وبما أن هؤلاء لم يكن

باستطاعتهم الحكم على أهمية عملنا، فقد ازدادت معارضتهم لنا. واتهموني بأنني أشك في كل شخص. وكان فيرنيفال جونز يدافع عني في المواقف العلنية. وقد قال مرة لشخص هاجمني:

«إن مهمة بيتر تقتضي منه أن يرتاب بكل من حوله». كنت أشعر أن العداوات حولي بدأت تتنامى تماماً كما كان أنغلتون يشعر بتكاثر أعدائه. وكان هذا الشعور غريباً. فبعد كل هذه السنين وأنا أقوم بدور الصياد، شعرت فجأة بأنني طريد.

وصلت الأمور إلى الذروة عام ١٩٦٩ في الاجتماع السنوي لكبار ضباط أم آي ٥. حيث قام عدد من الضباط بشن هجوم قاس علي، وعلى آخرين من القسم د ا (التحقيقات)، وعلى العمل الذي نقوم به. كما أثاروا تساؤلات حول إنجازات الشعبة د ٣ وتحدثوا عن روابط الثقة التي دمرتها أجواء الشك التي افتعلتها الشعبة وأشاروا إلى العذاب والألم الذي تسببت به هذه الأجواء لكثير من الأبرياء.

عندها قلت:

«أي أبرياء تقصدون؟ هذا كذب. هاتوا أسماء الأبرياء!».

كانت يداي مقيدتين. فأنا لا أستطيع البوح بالتفاصيل ولا بالعموميات، ولذلك وجدت نفسي مضطراً للدفاع عن نفسي بالتأكيد على أن كل تحرك أو خطوة قمنا بها في أي قضية من القضايا كانت تتم بموافقة فيرنيفال جونز شخصياً. ولكنهم ما كانوا ليفهموا موقفي من قضية الاختراق، إلا إذا شرحت لهم تاريخها الطويل.

بعد ذلك طلبت من فيرنيفال جونز نشر بحث صغير لتقييم عمل «فلوينسي». وقد وضعت الخطوط العريضة لمسودة يمكن توزيعها على سبعين ضابطاً، وهي عبارة عن ملخص للادعاءات المستمرة عن وجود الاختراق منذ الحرب، بما فيه تلك المتعلقة بالجواسيس المعروفين، والادعاءات الأخرى الكثيرة التي بقيت بدون حل. ولكن فيرنيفال جونز رفض حتى مجرد النظر في المسألة.

وقال:

«لو فعلنا ذلك يا بيتر لحطمنا قلب الجهاز، ولن نشفى بعد ذلك مطلقاً».

«ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون بأنه حتى بلانت كان جاسوساً. فكيف يمكن أن يتعاطفوا مع عملنا ويدعموه، إذا لم نخبرهم ولو بشيء بسيط؟».

وقال:

«من الأفضل، برأي، ألا يعلم بذلك أي شخص على الاطلاق».

وسألته:

«ولكن كيف يمكننا الاستمرار في العمل؟ فكل سنة يأتينا شباب جدد. يسمعون الأشرطة ويقرأون تاريخ الجهاز ولكنهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الموضوع وهو أهم موضوع؟ كيف تتوقع منهم أن يعيشوا مع الكذب؟ يجب أن نشرح لهم كيف حدث ذلك ونقول، أنظروا هذه هي الأخطاء، ولهذا عليكم مواصلة الطريق».

لم يكن فيرنيفال جونز ليوافق على أي نقطة من النقاط التي طرحتها عليه، وكان يصمت معظم الأحيان. ولكن كانت تمر به لحظات يصعب معها إسكاته. وسألته:

«ماذا عني؟ كيف استمر في العمل بمواجهة كل هذا العداء؟».

وفجأة أصبح صلباً كالفولاذ وقال:

«هذا هو الثمن الذي يجب عليك أن تدفعه مقابل تنصيب نفسك حكماً على الناس».

وفي عام ١٩٦٨ عُين ميشيل هانلي رئيس قسم مكافحة التجسس بعد إعلان براءته. ومنذ تلك الأحداث الرهيبة في السنة السابقة نادراً ما كنا نتحدث سوياً. لم يقل شيئاً أبداً، ولكني كنت أحس به يلومني على قراري بالتحقيق معه. وعندما أصبح رئيساً للقسم لم يضع أي فرصة لقص أجنحتي. بدأ أولاً بالإحراج العلني، فكان يسألني بسخرية:

«آه يا بيتر، هذه واحدة من نظرياتك المجنونة!».

ثم تطور هجومه علي ليصبح أكثر خطورة. فبدأ يقلص المصادر المالية والموظفين في الشعبة د ٣ كلما أمكنه ذلك. وقاتلت في البداية دفاعاً عن شعبتي، فذهبت إلى فيرنيفال جونز طالباً إعادة المصادر المالية والموظفين. ثم بدأت أشعر أن المسألة لا تستحق القتال. فقد كانت مهمة الشعبة د ٣ تقترب من نهايتها. إذ لم يبق سوى كشف العميل عالي المستوى. وقد رفعت القضية لأكثر من ثلاث سنوات، ولا يوجد إلا مؤشرات بسيطة على إمكانية فتحها من جديد. كما أن ضغط العمل والتوتر كان يترك أثره على صحتي. وهكذا اتجهت أفكاري نحو التقاعد ونحو حبي الأول ـ الزراعة.

قررت مواجهة هانلي شخصياً قبل أن استسلم. فقابلته وسألته مباشرة لماذا كان يحاول دفعي لأخرج من العمل. وزعم بأنه لا يوجد أي سبب وراء ذلك، سوى أن الشعبة د ٣ قد أصبحت أكبر من اللازم، وأنها تثير الشكاوى المتزايدة لإهمالها بعض مهماتها، مثل شهادات حسن السلوك الأمني للوزراء وما شابه.

«حسناً، إذن أعطني موظفاً ليقوم بالعمل الكتابي».

ولكن هانلي رفض.

فقلت له:

«أنا أعرف بأنني ضعيف في الأمور الإدارية. ولكن هل أنت متأكد بأن السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنك تكره هذا النوع من العمل؟».

واحمر وجه هانلي. كان يعرف ما أرمي إليه، ولكنه أنكر أن يكون لتجربته الخاصة معي أي علاقة بموقفه. فقلت له:

«أعتقد أنك تعرف بأنني كنت وراء التحقيق. هل اطلعت على الملف؟».

وانكسر الجليد بيننا. عدت إلى مكتبي وأخذت ملف قضية «هارييت». واطلعت هانلي على كل شيء - كيف برزت قضية البحث عن العميل متوسط المستوى، من خلال تقرير لجنة فلوينسي، وكيف وضعت قضية العميل عالي المستوى موضع الإهمال، كما اطلعته على استجوابات الشعبة د ٣، وعلى قضيتي واتسون وبروكتور وعلى التحقيق وعن زيارتي لطبيبه النفسي.

قال وهو يدرس الملف:

«لم أدرك ذلك مطلقاً!».

فقلت له بمرارة:

«كنا نحن الذين يطلب إليهم القيام بالعمل القذر. والآن وبعد أن أنجزنا معظم العمل، يريدون كنسنا وكنس عملنا، يريدون نسياننا ونسيان كل ما عملنا».

تأثر هانلي بشكل كبير لدى اطلاعه على عبء الأسرار الكبير الذي تحمله عدد قليل من الناس. وأدرك بأنه لم يمر بتجربة مثل هذه، وأن كل ما يعلمه عن الشعبة د لا يزيد عما كان يعرفه في الوقت الذي كان فيه رئيس قسم الشؤون البولندية في الخمسينات. أدرك أن لا بد له من مرشد إذا ما أراد إنجاح عمل الشعبة د. وذات يوم طلبني إلى مكتبه ليشرح لي مشكلته. وكان موقفه واضحاً وصريحاً، وقد احترمته على هذا الموقف. فقال إنه ما زال مصراً على حل القسم د ٣. وأن مهمة القسم الضخمة قد انتهت تقريباً. وعرض علي أن أصبح مستشاراً شخصياً له في عملية إعادة تنظيم الشعبة د التي كان يخطط لها. كان عليَّ الاطلاع على كل ورقة وكل قضية في الشعبة بالتفصيل لأحدد له من خلال خبرة الخمس عشرة سنة الماضية كيف نعمل. وقد تمسكت بالشعبة د ورفضت مغادرتها مثل بقية الضباط. مع أنني لم

أحصل على ترفيع، تماماً كما وعدني ديك وايت عندما قابلني لأول مرة، ولكنني لم ألعب لعبة الانتقال من موقع إلى آخر. لقد كانت الشعبة د بالنسبة لي كل حياتي. فقد كنت أعرف فيها كل ملف وكل قضية. ورأيت أن عرضه عادل. فقبلت فوراً.

ولكن سرعان ما أطلت مشكلة الاختراق برأسها. فسألته:

«من سيواصل هذا العمل؟ لا نستطيع أن نميع الأمور ثانية. والا ستتراكم علينا قضايا جديدة تظل بلا حل».

بقيت حوالي سنة مقتنعاً بأننا بحاجة إلى آلية رسمية معينة لمراقبة قضية الاختراق من الداخل. كانت المشكلة في الستينات أنه لا يوجد قسم في جهاز المخابرات يمكن أن يقوم بالتحقيق في قضايا الاختراق. إذ كان العمل يتم من خلال لجان خاصة، وفلوينسي لم يكن لها طابع رسمي، بل كانت مجرد فريق عمل. كما أن العمل من داخل القسم د أ (التحقيقات) لم يكن سهلاً، لأن وظيفته كانت التحقيق في الاختراقات التي تحصل خارج جهاز المخابرات. وأعتقد أن هذه الصفة غير الرسمية هي التي قادت إلى اتهامنا بأننا «غستابو». كنا نبدو للآخرين أناساً يعملون خارج قنوات العمل الرسمي، وفي جهاز مثل جهاز المخابرات أم آي ٥ كان هكذا عمل يبدو خطيراً للغاية. فإذا أنشأنا قسماً مناسباً يكرس وقته وعمله لهذا العمل، فسيرى الآخرون دعم الإدارة له وسيكتسب بذلك شرعيته. كان بذهني عامل آخر. كنت أعرف أنه إذا قيض لمشكلة العميل عالي المستوى أن تجد حلاً، فإن هذا الحل سيتم فقط عن طريق إطلاع العقول النيرة على القضية. فخلال العشر سنوات الماضية اقتصر الموضوع على أشخاص محدودين ـ علي وعلى آرثر. وكان الآخرون ينظرون إلينا على أننا حاقدون، أو مهووسون، ولا نستطيع أن نفهم أي تفسير إلا من خلال اتهام هوليس بالعمالة.

كانت الشكوك تساور هانلي في حين استوعب فيرنيفال جونز الفكرة والتقطها بسرعة، وأقنع هانلي أن يضمنها في خططه. وفي نهاية ١٩٦٨ كانت الشعبة الجديدة قد اكتملت. وأصبحت الشعبة د، هي الشعبة ك وقسمت إلى وحدتين منفصلتين: الأولى ك س، المسؤولة عن كافة عمليات التحقيق ولها مديرها في لجنة الإدارة؛ والثانية ك ص، المسؤولة عن قسم العمليات والمعارك ولها أيضاً مدير مستقل. وقد اندمج في ك س الشعبة د أ وقسم كبير من الشعبة د ٣. وشملت ثلاثة فروع: ك ١ و ك ٢ وهي فرع الشؤون السوفياتية وفرع الأقمار الصناعية. أما ك ٣ فقد أصبحت فرعاً للأبحاث تشكل من القسم د ٣. ويقوم هذا القسم بتقديم الخدمات لأقسام التحقيقات. وتشكلت أيضاً وحدة جديدة هي ك ٧ تتلخص مهاماتها بالتحقيق في ادعاءات الاختراق في المخابرات. وانبثق عن وحدة ك ص الفرع ك ٤

المعني بالمخابرات، وك ٥ لإدارة العملاء والعمليات. وك ٦ للقيام بالإجراءات الأمنية وجمع السجلات الخاصة والاتصال بالوزارات.

كان دانكم ووه أول ضابط يعين رئيساً للوحدة ك ٧. وقد كان اختياره أمراً جيداً. فهو رجل عقلاني، متزن، وقادر على تبرير آلية عمله. وكان قد عانى كثيراً في عمله بسبب الغلطة التي ارتكبها بتبرئة هاوتن عندما شكته زوجته قبل عشر سنوات. ولكن إقباله على العمل الشاق، حيث شاركني في بعض الأحيان في فريق العمل في سفارتنا في موسكو، قد أكسبه فرصة كبيرة في ترأس الوحدة ك ٧. وكان يساعده ضابط بحري سابق قوي الشخصية هو جون داي. وقد طلبت بإلحاح عدم قبول أي شخص عمل في السابق في قضية الاختراق للعمل في ك ٧.

وقد اجتمعت مع دانكم ووه مرة واحد سلمته فيها كل ما يوجد في خزانتي الحديدية فيما يتعلق بفلوينسي ـ سجلات الاستجواب الخاصة عن خلفية هوليس، وتحليل لقضية لانـزديل وبعض الأوراق بخصوص العميل متوسط المستوى. ولم أدرك مدى العبء الـذي كان على كاهلي كل هذا الزمن، إلا عندما سلمته الصناديق الخضراء الصغيرة. وقلت له:

«خذ، لقد أصبحت مشكلتك الآن. الحمد لله!».

ولم يكن هناك عمل كثير لي في ك ٧ في البداية. فلم يكن دنكم ووه ولا جون داي يـريداني هنـاك، خشية التـأثير على مصـداقيتهم وحريتهم في المنـاورة. وكنت أفهم ذلك. عرفت جون داي على بلانت، وتحدثنا ثانية عن الأسباب التي دفعت الروس للسماح له بترك أم آي ٥ في عام ١٩٤٥. وكان بلانت يعتبر دائماً هذه القصة عرضية. ويقول:

«لو أنهم ضغطوا علي لبقيت لبعض الـوقت قبل أن أتـرك. كنت أحب العمل، وكنت معجباً بغاي ليديل وديك وايت. وكنت آمل بمواصلة عملي الفني... أما هم فلم يجبروني مطلقاً».

ولم يستطع بلانت أن يلقي مزيداً من الضوء فيما إذا كان له بـديل في أم آي ٥ أم لا، رغم أنه كان يعرف أن هذا الأمر يهمنا جداً. وأطلعناه على رسالة «فينونا» التي تحوي الأسماء الرمزية الثمانية. ولكنها لم تعن شيئاً له. وكل ما صرح به هو أنه رافق غاي بيرغيس وغراهام ميتشيل إلى نادي الإصلاح. وكان من الواضح أن هذا الاجتماع كان بغرض الاستكشـاف، ولكن بلانت نفى علمه بأن بيرغيس حاول تجنيد ميتشيل. وبعد ذلك بوقت قصير علمت بأن جون داي قد حقق مع ميتشيل تحقيقاً كاملاً وتوصل إلى أن الرجل بريء تماماً. وكمـا كنت أتوقع دائماً توجهت الشكوك نحو هوليس.

ومضت فترة طويلة لم أسمع خلالها أي شيء. وذات يوم جاء جون داي لزيارتي. وأحضر معه أول تقرير ل ك ٧ عن العميل عالي المستوى. وقد توصل هذا التقرير بشكل منتظم إلى أن افضل مرشح هو هوليس، وأوصى بالتحقيق معه فوراً.

وقال لي:

كنت أعتقد دائماً بانك مهووس بالشيوعيين. ولكن أود أن أقول لك بأنك كنت محقاً على طول الخط.

هذه المرة لا مفر لي ولا لفيرنيفال جونز، ولا لذلك الرجل ذو البذلة السوداء الذي يلعب الغولف في سنين تقاعده الهادئة.

الفصل الثاني والعشرون

كم كان جميلاً أن أتوج حياتي العملية بانتصار. وكم كان جميلاً أن أحل اللغز. ومن الأفضل أن يكون بريئاً من أن يستمر الغموض. ولكن العالم السري ليس بهذه البساطة، فقد ظلت الظلال في النهاية معتمة وقاتمة كما كانت عليه من قبل، حاجبة الحقيقة.

وفي صباح أحد الأيام من عام ١٩٦٩ ذهبت إلى غرفة صغيرة للعمليات في مكان كان ذات يوم مكاتب للشعبة د ٣. كانت السماعات الملصقة بالمكاتب تهمس بهدوء، فيما كان فنيو القسم أ ٢ يفحصون الميكروفونات في أحد بيوتنا السرية في شارع ساوث أودلي. كان الأمر بالنسبة لهم عملاً عادياً آخر ويوم تحقيق عادي آخر. أما بالنسبة لي فكان الفصل الأخير في مسرحية استمرت عشر سنوات. كان الملف الملقى على الطاولة بحجم وسمك دليل التليفون. وعلى الغلاف الداخلي على أول ورقة كتبت كلمة واحدة فقط «درات» وهو الاسم الرمزي لعملية التحقيق مع هوليس. كان هذا الاسم قد مرّ علي منذ زمن بعيد عندما قمت باستجواباتي الخاصة في القسم د ٣ في المكتب الصغير في الشعبة ب التي كانت تطلق أسماء رمزية. وقد ضحكت وقتها. فقد بدا هذا الاسم الرمزي عبثياً. ولم أدرك الآلام التي سترتبط به مستقبلاً.

كان آن أور ـ أونغ ضابطاً جيداً ترقى من دائرة السجلات إلى القسم د ٣ كضابط بحث قبل أن يلتحق بـ ك ٧. وكانت قضية ك ٧ تشبه إلى حد كبير تحرياتي المستقلة في عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦. ولكنها كانت مفصلة أكثر، بالطبع. فقد اطلعوا على ملف هوليس في الخدمة العسكرية. وقد اقتفوا أثر معاصريه في أكسفورد وأجروا معهم مقابلات. وقد نبشوا سجلات الشعبة الخاصة في شنغهاي، ولكنهم لم يجدوا أي دليل ملموس. وفي النهاية أصبحت المسألة مسألة قناعة.

أرسل مغلف صغير أبيض إلى هوليس يدعوه إلى الحضور إلى المكتب قبل أيام من بدء التحقيق. ووضعت اللمسات الأخيرة على الخطط. وبالطبع كان هناك مشاجرة أيضاً. فقد افترضنا أن هوليس سوف يوضع تحت المراقبة المستمرة أثناء فترة التحقيق، فربما دب به الرعب وحاول الاتصال بالروس، كما فعل بلاك. ولكن فيرنيفال جونز رفض ذلك، دون أن يقدم أية أسباب لرفضه ولكننا عرفنا من ملامح وجهه أنه لن يتزحزح عن موقفه. حتى هانلي احتج على هذا الموقف مشيراً إلى أن فيرنيفال جونز لم يقم بالاجراءات الكاملة. ولكن فيرنيفال جونز كان يشعر بأنه قد وُضع في مأزق حرج عندما وافق على التحقيق، وأن هذا آخر ما يستطيع تقديمه لنا على حساب كرامة من سبقه.

طُلب من جون داي إجراء التحقيق. وكان عليّ وعلى آن أور- اونغ التنصت وتقديم التحليل أثناء العملية. وكان فيرنيفال جونز يعرف بأنه منغمس تماماً في القضية لكي يجعلها اختياراً عادلاً وقد تيقن بعد مضي كل هذه السنوات من التأخير أنه يجب أن يظهر وكأنه يعطي الجنود فرصتهم.

فتح باب في شارع ساوث أودلي ودخل هوليس. وقال بصوته المألوف القوي رغم كل السنين التي مرت:

«أين تريدوني؟».

وبدأ جون داي يفسر اجراءات المقابلة.

«إنني ملم بالاجراءات. . ولكنني احتاج قلماً وورقة إذا سمحت».

حاولت أن أتصور المشهد داخل الغرفة في شارع ساوث أودلي. كان باستطاعتي أن أتخيل هوليس وهو يجلس مستقيم الظهر. وفكرت أيضاً بأنه قد يفتقد مكتبه. طبعاً الأقلام ضرورية. وسيضع على شفتيه ابتسامته التي تشبه ابتسامة القط، وتساءلت: هل سيشعر بالإهانة؟ أو بالخوف؟ ولكنني شككت في ذلك. فالعاطفة لم تكن من السمات المرتبطة به. وتذكرت أمراً كان يردده دائماً لي:

«يا بيتر أنت عاطفي جداً بالنسبة لهذا الموضوع».

وحاولت قدر المستطاع السيطرة على انفعالي.

بدأ جون داي باستعراض روتيني لتفاصيل حياة هوليس العملية ولبدايات حياته المبكرة. كان هوليس يعرف الإجراءات فبدأ يسبق المذكرة في أجوبته. فقال له جون داي:

«فلنتمهل قليلاً لو سمحت».

وبدا هوليس منزعجاً بعض الشيء. وقال:

«ولكن هذا مجهد، إذا سمحت لي أن أقول ذلك، فهذه المعلومات موجودة في سجلي».

لكن جون داي لم يهتز. وقال:

«من الأفضل أن نتبع الاجراءات في هذه القضية، إذا سمحت».

وروى هوليس قصة بسيطة. وقال بأنه غادر وطنه لأنه ليس متديناً. أما أكسفورد فلم تكن الملجأ المناسب لأنها ذكرته بتربيته الدينية.

«كنت أريد الهرب، وأن أعيش حياتي في العالم الخارجي. كان طموحي الوحيد هو أن ألعب الغولف. ثم أدركت في وقت مبكر في أكسفورد بأنني لا أستطيع أن أبني حياتي العملية على لعبة الغولف. لذلك قررت السفر للخارج».

وقال إن الشرق الأقصى طالما جذبه. في البداية فكر أنه ربما يسافر مع بعض الأصدقاء ـ وكان موريس ريتشاردسون أحدهم ـ ولكن الخطة فشلت. ويشعر الآن وهو يتذكر فشلها بالسعادة. فلم يكن هناك نقاط تقارب تجمعهما لكي يسافرا معاً.

أما الصين فقد سحرته. بالطبع فقد التقى هناك بالشخص اليساري الغريب، ولكن هذا أمر عادي. فالكل يعرف أن أغنيس سميدلي يساري. وقد كان له أصدقاء يساريون في أكسفورد مثل موريس ريتشاردسون وكلود كوكبيرن اللذين كانا أحمرين.

وقال إن صحته كانت مشكلة دائمة يعيش معها. فقد أصيب في هذه الفترة بالسل وقد أجبره المرض على العودة إلى أوروبا. فعاد عن طريق موسكو.

«أردت أن أرى هذه المدينة. ولكنها مكان بشع. مدينة قذرة، كئيبة، لا أحد يبتسم فيها. كان المثقفون يكثرون من الحديث عنها وكأنها شيء عظيم. ولكنني كرهتها».

«هل قابلت شخصاً ما هناك؟» سأله جون داي.

«في الباصات والقطارات وأمور شبيهة، أما بشكل آخر فلم أقابل أحد. فأنت لا تستطيع أن تلتقي بالروس كما تفعل في الدول الأخرى. في الصين مثلاً».

وفي فترة الغداء التقينا لاحقاً أنا وآن أور ـ اونغ وجون داي وفيرنيفال جونز في مبنى ليكون فيلد. كان أداء هوليس هادئاً وغير متصدع.

«سيبرىء نفسه إذا استمر على هذا الشكل». قال آن أور ـ أونغ.

وبعد الغداء استمعنا إليه يتحدث عن عودته إلى بريطانيا. وفجأة تلاشى التركيز القوي،

مع بقاء الإلقاء الحازم ولكن التفاصيل اختفت. فهو لا يتذكر أين كان يعيش، ومن قابل في هذه الفترة، وما كانت خططه. ولكننا كنا نعرف هذه الأجوبة لأنها في التقرير. كنا نعرف ماذا كان يفعل. فمثلاً كان يعيش بجوار ضابط أم آي ٦ قديم هو أرشي ليال، الذي كان صديقاً مقرباً جداً من غاي بيرغيس. وبالرغم من أنهما التقيا مراراً، فإن هوليس لم يستطع أن يتذكره على الاطلاق. وظل هوليس يتعثر ساعة أو أكثر إلى أن وصل إلى نقطة تتعلق بعمله عندما التحق بـ أم آي ٥ قبل الحرب. وفجأة عادت الدقة بنفس الطريقة التي اختفت فيها.

التقى فريق التحقيق في تلك الليلة في نادي أكسفورد وكامبريدج لبحث حصيلة ذلك اليوم.

سألت:

«ما رأيكم بتلك السنة البيضاء الفارغة؟».

وضع فيرنيفال جونز غليونه على الطاولة بسأم، وقال:

«اختلطت عليك هذه المسألة تماماً».

وقال بأن هوليس كان يعيش في حالة من الاضطراب والفوضى بعد عودته من الصين - كانت صحته سيئة، وليس لديه عمل، ولا آفاق مفتوحة أمامه. ولم يبد لفيرنيفال جونز أن كل ذلك يجعل هوليس مؤهلاً أكثر للتجنيد. بل إنه كان ينجرف، وهو لا يحب أن يتذكر هذه المرحلة من حياته. وكل ما أثار فيرنيفال جونز هو تساؤل بسيط: إن هوليس لا يتذكر أين كان يعيش.

علقت:

«حسناً، إنه تفكير جد غريب أن يبدأ بتقديم طلبات للعمل في أم آي ٥ أو أم آي ٦».

وكنت جاداً فيما أقوله بالرغم من النبرة الساخرة التي ظهرت في صوتي. ولكن فيرنيفال جونز قاطعني:

«بالله عليك يا بيتر!».

لكنه توقف عن الكلام. وكان هناك اجتماع آخر.

وفي اليوم التالي جلس هوليس على الكرسي ثانية.

وقال بلهجة وكأنه المسؤول عن مجرى التحقيق:

«هل نحن مستعدون؟».

صمت جون داي لفترة. وكانت هذه لفتة رقيقة منه ذكّر فيها هوليس بأنه ليس المسؤول في الغرفة.

ويبدأ داي التحقيق في اتجاه مختلف:

«اريد أن أسألك مرة أخرى عن ملف كلود كوكبيرن. . ».

كانت هذه القضية قد طرحت في صباح اليوم السابق. وقال هوليس بأنهما كانا صديقين في أكسفورد. وسُئل لماذا لم يذكر ذلك في ملف كوكبيرن كما يفعل أي ضابط في أم آي ٥ عند تعامله مع ملف أحد معارفه. فقال هوليس بأنه لم يكن هناك في تلك الفترة تعليمات تطلب تسجيل الصداقات الشخصية في الملفات.

وكانت هذه كذبة ولكنها كذبة صغيرة. فالتقرير تضمن ملحقاً يثبت بأن هذا الإجراء كان مطبقاً في أم آي ٥ في فترة ما قبل الحرب، ولا بد أن هوليس كان يعرف هذه القوانين.

بدأ داي يتحدى هوليس بالنسبة لإجاباته في اليوم السابق. لماذا كذب؟ لم يكن معروفاً عن هوليس أنه يتلعثم أو يرتبك. كان هناك فترة صمت قصيرة ثم اعترف أنه أخطأ. نعم اعترف بوجود سبب آخر. كان يعرف أن كوكبيرن مهم لمصلحة الجهاز لكونه يسارياً وعميلاً للكومنترن. وبما أنه كان قادماً جديداً ويطمح بالترقي والعمل في أم آي ٥، فقد فضل أن يتجاهل القانون حتى لا تعتبر هذه الصداقة نقطة سوداء وتسجل ضده في الجهاز. وقال:

«أنا واثق أنني لست الضابط الأول ولا الأخير الذي يتجاوز هذه القاعدة بالذات».

«وماذا عن الأصدقاء الآخرين؟ ماذا عن فيلبي؟ هل كنت ودوداً معه؟» ألح داي.

«لا لم نكن أصدقاء. فقد كان سكيراً. وكان بيننا علاقة مهنية جيدة، فقط».

«وبلانت؟»

«كذلك الأمر خاصة أثناء الحرب. كنت أعتقد أنه موهوب جداً. ولكنني أصبحت لا أراه إلا قليلاً بعد أن ترك الخدمة. وما زلنا نلتقي من آن لآخر. نتبادل الأحاديث العادية. فهو يحب الإشاعات».

أما بالنسبة لغيوزنكو، وفولكوف وسكربكين فقد مر على ذكرهم بسرعة: غيوزنكو كان لا يُعتمد عليه. فهو لا يزال يشك في أن يكون «إيلي» موجوداً حقيقة. أما بالنسبة لسفره إلى كندا، فليس هناك أي ضرر من إرسال فيلبي الملف له.

«لقد كنت وقتها أعتبر أكبر خبير في الشؤون السوفياتية. فمن الطبيعي أن يرسل فيلبي الملف إليّ، خاصة وأن القضية تتعلق بالكومنولث».

«وفولكوف؟».

«لا أرى سبباً لعدم تصديق فيلبي. فقد اعتقد أن جاسوس فولكوف هو نفسه. . . فلماذا يذهب بعيداً لحماية شخص آخر».

ولم تظهر في لهجته نبرة المدير العام القديم إلا مرة واحدة عندما بدأ جون داي يسأله عن أحداث بداية الستينات. فقد سأله عن فصل آرثر مارتن. فبرزت تلك النبرة الفجة في صوته.

«لقد كان غير منضبط. لم أكن أعرف ماذا يفعل. لنأخذ بلانت. فقد وافقنا على عرض رسمي للحصانة بخصوص أحداث ما قبل ١٩٤٥. فيذهب آرثر لمقابلته ويعرض عليه حصانة كاملة. فغضب المدعي كما غضبت أنا. لم نستطيع السيطرة عليه. وكان همه هو وبيتر رايت إنشاء غستابو مميز، وكان لا بد من عمل شيء ضده. وأنا لست نادماً على ذلك حتى الآن. وأعتقد أن القرار مبرر في ضوء الظروف التي اتخذ فيها. وإذا كان هناك من أمر فكان يجب أن يحصل قبل ذلك.

وسأله جون داي لماذا لم يسمح باستجواب غراهام ميتشيل عام ١٩٦٣.

«إن هذا مذكور في الملفات. فرئيس الوزراء لم يوافق على ذلك».

«وهل طلبت من الرئيس فعلاً تصريحاً بالاستجواب؟».

«بالطبع طلبت». أجاب هوليس متسائلاً.

«ولكن الرئيس لا يتذكر اللقاء». استطرد داي.

«هذا عبث! لقد كان الوضع حرجاً جداً. فقد كانت قضية بروفيومو في أوجها. وكانت قضية التبادل مع الأمريكيين موضع تقييم. وفضيحة أخرى كانت كافية لإسقاط الحكومة. لهذا كانت استشارة الرئيس ضرورية».

كان التحقيق أشبه بصراع في الظل. ظل داي يتحرك ويلطم دون أن يستطيع أن يوجه لكمة حقيقية. ولكنه لم ينزل إلى مستوى معارك الشارع لكي يستطيع أن يحشره وينتزع منه الاعتراف. ومر الوقت. . . وكانت القضية قديمة جداً بشكل لا يمكن من الوصول إلى الحقيقة. وعند نهاية فترة ما بعد الظهر لم يتبق غير الأسئلة الروتينية للسجل.

«هل سبق أن أوصلت معلومات رسمية لشخص لا علاقة له بذلك؟».

ورد هوليس بحزم:

«لا».

«وهل سبق أن اتصل بك شخص ما سرياً لتوصيل معلومات؟».

«أبداً».

وقف هوليس وعندها سمع احتكاك الكراسي وقال وداعاً. وكان يعنيها. وسافر عائداً إلى سومرست إلى كوخه وإلى لعبة الغولف. وخرج من غرفة التحقيق مجهولاً كما دخل ـ لغزاً محيراً، وكان في الظاهر إنساناً وزيناً يشوبه بعض الطبع النزق. إنه المستبد المتزعزع.

وفي تلك الليلة التقينا مع فيرنيفال جونز في نادي أكسفورد كامبريدج مرة ثانية. وكانت هناك رائحة استقالة تعبق في جو جلستنا. كنا نعرف بأننا لم نصل بالقضية إلى حل نهائي. وفي نفس الوقت كان يوجد شك من أننا نستطيع إبقاء القضية حية. كان فيرنيفال جونز صامتاً. فقد كان يشعر بأن التحقيق أثبت ثقته بهوليس. وقال:

«آمل أن ننتقل لقضايا أخرى».

ومرة أخرى أغلقت القضية. ولكن لا شيء، يستطيع أن يردم الهوة العميقة التي تفصل بين أولئك الذين يعتقدون بحصول الاختراق، وأولئك الذين يشكون فيه، مثل فيرنيفال جونز. ولا حتى التحقيق مع هوليس. لم أستطع منع نفسي من تذكر كل تلك السنوات الضائعة، حيث كان بالإمكان إجراء التحقيق، سنوات الضياع والفوضى، عندما كان الغبار يعلو الملفات المهملة، والتقارير تبقى بلا حلول. سنوات الخوف من المجهول التي حجبت عنا الحقيقة. أما الآن فإن حل اللغز يتطلب أن يهرب منشق، أو أن نحل رموز شيفرة ما. وأطبق عليّ إحساس بالفشل والإحباط والرغبة بترك ونسيان كل شيء. وعندما أتذكر هذه الليلة ـ أحس بأن تقاعدي بدأ تلك الليلة عندما عدت الى البيت في أسيكس بالقطار. أما ما بعد تلك الليلة فقد كان مجرد حركات آلية.

ان استجواب هوليس كان إشارة لنهاية عقد من الزمان وبداية عقد جديد. وجاءت أعوام السبعينات لتكون فترة الحساب، عندما أصبحت جيوش الغرب السرية مكشوفة بشكل نهائي ومؤلم لضوء العلنية الذاوي. فقد خاض الشرق والغرب ثلاثين عاماً من الحرب السرية الليلية تحت ستار العادة والضرورة. وخلال أربع سنوات تدفقت الأسرار خارجة للعلن.

وللمفارقة فإن السبعينات بدأت بشكل جيد لصالح أم آي ٥. فأخيراً حصلنا على منشق آمنا به، اسمه أوليغ ليالين. فقد جنده اثنان من أفضل ضباطنا في أم آي ٥، هاري وارتون وتوني بروكس ضابط سري سابق في س آي اس شديد الجرأة، عمل هو وزوجته في فرنسا وظل حياً. وقد أدار العملية رئيس الوحدة ك ص. رجل هادىء وصلب اسمه كريستوفر هربرت. كان ليالين على علاقة بفتاة، وعندما اتصل به وارتون وبروكس قال بأنه يريد أن يهرب إلى الغرب.

واستطاعا أن يقنعانه بالبقاء في مكانه. وظل يزود أم آي ٥، لمدة ستة أشهر بتفاصيل أوامر عمليات الـ ك ج ب في لندن. لقد كان ضابطاً متواضع المستوى في الـ ك ج ب. يعمل في قسم التخريب، ومع ذلك فكان أي خرق نتوصل إليه في درع الـ ك ج ب مهماً.

وما أن بدأت قضية ليالين حتى أدركنا أن هذا أفضل اختيار لمعرفة فيما إذا كان هناك اختراق عالي المستوى موجوداً في أم آي ٥ أم لا. فإذا نجا ليالين فسوف نسلم. فمنذ ١٩٦٦ حتى ١٩٧٦ لم يتوفر لنا أي دليل على وجود تدخل روسي في عملياتنا. فقد كان لدينا في هذه الفترة قضايا خمسة جواسيس، وقضية ليالين ومسألة طرد ١٠٥ دبلوماسيين روس، واستمرت القضايا مدة ستة أشهر. ولكن حتى نهاية عام ١٩٦٥ كانت كل قضية، على مدى عشرين عاماً أو أكثر، تتلوث بأصابع الروس اللزجة. ولا بد من ملاحظة أن هوليس قد تقاعد في نهاية ١٩٦٥. وظل السر محصوراً في عشرة أشخاص فقط بالإضافة إلى المندوب الدائم لوزارة الخارجية دينيس غرين هل. وكان غرين هل صديقاً جيداً لأم آي ٥، وكانت علاقتي به جيدة جداً. وكان قد درس في كلية المطران ستونفورد معي ومع ديك وايت. وقد بدأ تعاملي معه من خلال عملية «ستوكيد» الفرنسية. ولكن العمل بيننا ازداد ونما عندما استلمت القسم د ٣، وكنت أزود زملاءه الدبلوماسيين بالمعلومات الروتينية.

بدأ ليالين يشعر بالضيق الشديد بسبب الازدواجية في حياته. فقام وارتون وبروكس بترتيب بيت سري ليقابل فيه صديقته. وكانت ترتيبات هذه اللقاءات شاقة. وفي كل مرة كان لا بد لأحدهما أن يمكث خارج الغرفة لمعرفة أية دلائل تنم عن تخاذل أو خيانة. وبدأ ليالين يشرب بكثرة، وعندما نقل للعمل في موسكو ثانية قررنا أن نخلصه من العذاب. وكان نقله إلى موسكو فرصة للاستمرار في التجسس من موقعه هناك، ولكننا توصلنا ألى أنه لن يعيش. لقد ألحق بالوفد التجاري بدون حصانة دبلوماسية، لذلك قررنا اعتقاله وهو خارج من قسم الجمارك في مطار هيثرو وفرض الأمر عليه.

وفجأة انهارت كل خططنا. كنت في ذلك الأسبوع أعيش في لندن. وفي إحدى ليالي شباط ١٩٧٠ رن جرس التلفون في الساعة الثالثة صباحاً. وقال لي الضابط المناوب:

«تعال بسرعة. فنحن بحاجة لخزانتك الحديدية». ولبست ملابسي وانتقلت بالتاكسي إلى المكتب لأجد توني بروكس بانتظاري.

«نريد طقم الأدوات المضادة للسم، لقد ألقي القبض على ليالين قبل عدة ساعات بسبب القيادة في حالة السكر. وهو الآن في سجن مارلبورو ستريت».

وفتحت الخزانة وأخرجت منها حقيبة فيها مجموعة من الأدوات أعطاني إياها الدكتور

لاديل في بورتون داون قبل حوالي عشر سنين عند نهاية عملي كضابط عالم. وتحتوي هذه الحقيبة على مواد مضادة للتسمم الناتج عن كافة السموم المعروفة التي تستخدمها ال ك ج ب. وكلما كان هناك منشق نضع الحقيبة قربه لمدة ٢٤ ساعة في اليوم. أما في الحالات العادية فإنها تبقى في خزانتي. ولا أحد غيري اهتم بالاحتفاظ بها.

وشرحت لبروكس بسرعة المبادىء الأساسية لأعراض غاز الأعصاب أو السم السريع وكيف يستخدم هذه الأدوات على ضوء ذلك. وهرع فوراً إلى السجن ليحرس ليالين، بينما أيقظت رئيس الشعبة الخاصة من النوم وجعلته يخبر مدير السجن بهوية السكير الموجود في الزنزانة. وفي نفس الوقت قدمت الدائرة القانونية في أم آي ٥ طلباً لوزارة الداخلية وللمدعي العام من أجل الحصانة الرسمية لليالين من تهمة السكر، موضحين بأنه قد يتعرض هناك لعملية اغتيال إذا ما قدم لمحكمة علنية.

وكان نجاح عملية هرب ليالين فرصة فريدة لأم آي ٥. فمنذ أن أصبح فيرنيفال جونز مديراً عاماً وهو يحلم بتغيير حاسم لميزان القوى الذي كان في غير صالحه. وكان يعرف بأن المشكلة المركزية التي تواجه أم آي ٥ هو التفوق العددي الكبير لضباط المخابرات السوفياتية في لندن. وقد ناضل خلال الستينات من أجل إقناع وزارة المالية بتوسيع قدرات أم آي ٥ في مجال التجسس المضاد، ولكنهم كانوا دائماً مترددين. وكان يتدبر أمره عن طريق إعادة توجيه المصادر المالية داخل جهاز المخابرات لصالح الشعبة د. ومع ذلك كان التفوق علينا قائماً بنسبة ٣ ـ ١. وعندما جاء ادوارد هيث إلى السلطة طرح عليه فيرنيفال جونز تقليصاً كبيراً في عدد ضباط المخابرات السوفيات مع قائمة بأبرز هؤلاء الضباط. وقد حدث هذا قبل أن يظهر ليالين على مسرح الأحداث. وكان رد هيث «ألق بهم إلى الخارج». واحتجت وزارة الخارجية والكومنولث. ولم نكن حريصين على هذا العمل لأننا كنا بحاجة إلى عدد من الضباط هنا للرد بهم على أي إجراء روسي انتقامي. وأخيراً توصلنا إلى اتفاق مع وزارة الخارجية والكومنولث بهذا الخصوص في آذار ١٩٧١. وأجلنا العملية حتى الخريف بسبب ظهور ليالين على مسرح الأحداث، ولم نشأ إرباك الأوضاع قبل أن ينشق أو يعود لبلاده.

وذكر ليالين في استجوابه، العشرات من ضباط ال ك ج ب العاملين تحت غطاء دبلوماسي. وكانت معظم الأسماء التي ذكرها معروفة لدينا من خلال برنامج تحليل التحركات، الذي ساعدت في تأسيسه في مطلع الستينات مع آرثر مارتن وهال دوين ديتماس.

كانت عملية حساب قوة ال ك ج ب عملية شاقة ومثيرة للجدل دائماً، مع أنها كانت في صميم عملية تقدير خطورة أي جهاز معادي. وعندما كنت أدير الشعبة د ٣ قمت بإنجاز سلسلة من التحليلات للقوة السوفياتية في عام ١٩٤٥، مستخدماً في هذا العمل مواد

«فينونا». ورغم أن كمية البث التي استطعنا حلّها كانت قليلة جداً، إلا أن قيادة الاتصالات الحكومية استطاعت أن تقدر بشكل إحصائي عدد الجواسيس العاملين في بريطانيا بين ١٥٠ إلى ٣٠٠ جاسوس. (وقد قمنا بعملية التحليل الإحصائي هذه بناءً على طريقة أوجدها أحد كبار محللي الشيفرة، آي. ج. غوود). ومن خلال التحليل المبدئي لمواد «فينونا» في الستينات، بالإضافة إلى مقارنة المعلومات الواردة عن طريق المنشقين، ومعلومات بلانت وكيرنكروس بسجلاتنا، كنا واثقين من وجود ٤٥ ـ ٥٠ رجل مخابرات سوفياتي في لندن عام ١٩٤٥، من بينهم ٢٥ رجلاً يديرون العملاء. وبتقسيم هذا الرقم على عدد الجواسيس الوارد في مواد «فينونا» تبين لنا أن كل ضابط مخابرات سوفياتي يشرف على عمل ثمانية إلى تسعة عملاء. وقد تطابق هذا الرقم بشكل دقيق مع ما ورد في مواد «فينونا» خلال أسبوع بأن كروتوف كان يشرف على ثمانية عملاء.

والآن كيف يمكن أن نطبق هذه المعلومات على عصرنا الحديث. وقد دل برنامج تحليل التحركات في أواخر الستينات على وجود ٤٥٠ ـ ٥٥٠ ضابط مخابرات روسي في بريطانيا. ولكن ما هي نسبة المشرفين على عمل العملاء منهم؟ وحتى لو اعتبرنا أن هذا الرقم ظل ثابتاً طوال عشرين عاماً، أي حوالي ٢٥ مشرفاً، وأن البقية كانت مهمتها تقديم التغطية اللازمة لهؤلاء، ومكافحة المراقبة، والأمن الداخلي، والتحليل، تبقى المشكلة التي نواجهها كبيرة للغاية. فهذا يعني وجود ٢٠٠ جاسوس فما فوق يعملون حالياً في بريطانيا. وإذا ما حسبنا عدد المشرفين على العملاء بتناسب طردي مع ازدياد عدد ضباط المخابرات بشكل عام فإن الوضع يكون سيئاً للغاية ـ لأن هذا يعني وجود أكثر من ألف جاسوس! وبالطبع فإن السواد الأعظم من هؤلاء الجواسيس يمكن أن يكون من المستويات الدنيا من خلال عملهم بالحزب الشيوعي والنقابات المختلفة، ولكن إذا كان لدينا نسبة ١٪ فقط من هم بمستوى هاوتن أو فاسال فإن هذا مؤشر صاعق.

وكلما هممت بتقديم هذا التحليل إلى وزارة الداخلية لوضعه ضمن تحليلات تقدير الأخطار الروتينية، كنت أواجه صراعاً حاداً هناك. وكان جون ألين، وهو محام سابق، وقد ترقى بسرعة في عمله في الشعبة ك، يرفض تحليلي. ويقول:

«لا تستطيع أن تقول هذا. لا يمكن أن يوجد مثل هذا العدد من ضباط المخابرات السوفيات في لندن، ووزارة الداخلية لن تصدقك».

لكن هرب ليالين أزال كل الاعتراضات. وأكد الأرقام الواردة في التحليل بوجود حوالي ٤٥٠ ضابط مخابرات في لندن، وأضاف بأن نسبة كبيرة منهم كانوا يشرفون على العملاء بنشاط. وقد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك صحة برنامج تحليل التحركات، وصلاحية

أرقامي الإحصائية. وكان واضحاً أن الزيادة في عدد الجواسيس لم يقتصر على أولئك من المستويات الدنيا، وبتصميم لم ألاحظه في أي عمل آخر قام به قدم فيرنيفال جونز لوزارة الخارجية طلباً بابعاد عدد هائل من الدبلوماسيين السوفيات. وفي النهاية وافق تيد هيث ووزير الخارجية اليك دوغلاس هيوم على ذلك، بعد اتصالهما بشكل غير علني مع وزير الخارجية السوفياتي، الكسي كوسيغين(*) والطلب منه سحب عدد من ضباط المخابرات في بريطانيا دون إعلان. ولكن هذا الطلب رفض بشكل كامل.

بدت عملية الابعاد انقلاباً ذكياً في المخابرات الغربية والعالم، وقد تلقينا برقيات التهنئة من رؤساء أجهزة المخابرات في العالم. لقد كان هذا أعظم انتصار لفيرنيفال جونز، لأن عدم تسرب الخطة إلى الروس أثبت، بغض النظر عن الماضي، أن عهد الاختراق الروسي العالي المستوى في المخابرات البريطانية قد انتهى.

دعم أنغلتون عملية الطرد بدون تحفظ، واعترف بأنه كان يسعى دوماً لإنجاز مثل هذه العملية في واشنطن. ولكن هنري كيسنجر كان معارضاً حازماً. وأخبرني أنغلتون بأن كيسنجر قد انفجر غاضباً عندما علم بطرد الروس من بريطانيا. فقد كان حينئذ يسعى بشكل يائس من أجل الانفراج في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. وأرسل مذكرة غاضبة إلى السي آي أي، يخبرهم فيها بأنه لو علم بالاقتراح لاستخدم كل سلطاته لسحق العملية. ولحسن الحظ أن السي آي أي استطاعوا أن يثبتوا، عن حق، بأنهم لا يعلمون شيئاً عن هذه الخطة.

أما أنغلتون فقد كان متشككاً في قضية ليالين. ولذا فقد قام بزيارة سرية إلى لندن على أثر انشقاقه. وكان يبدو أسوأ من أي وقت مضى، وقد استهلكه العمل السري الذي كرس حياته له. كما كان يرى في نفسه مبشراً أسطورياً بانهيار الغرب. واعتقد أن ليالين مدسوس، وقد أخبرنا جميعاً بذلك في اجتماع في مبنى مارلبورو ستريت. وقلت له:

«دعك من هذا يا جيم، ليالين ليس مهماً إلى هذه الدرجة، انه مجرد قاطع طريق في ال ك ج ب. أية مصالح للتضليل يمكن أن يقدمها لهم؟».

كان أنغلتون يشعر بأنه خذل. فنحن لم نخبره عن ليالين بينما كنا نشرف على عمله في لندن. وذكرنا بعصبية باتفاقية تبادل المعلومات الاستخبارية بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وسرعان ما نفد صبرنا مع أنغلتون في لندن عام ١٩٧٠. فقد كان موريس أولدفيلد يضمر العداء له ولأفكاره ونظرياته. كما بدأ أنغلتون يكتسب مزيداً من الأعداء في أم آي ٥.

(*) نعتقد بأن وزير الخارجية السوفياتي في تلك الفترة كان أندريه غروميكو، (المترجم).

وعلمنا فيما بعد إلى أي مدى كان مستعداً لتكذيب ادعاءات ليالين. وبعد استجوابنا ليالين، أرسلنا بشكل روتيني خلاصة المعلومات التي صدرت عن الاستجواب، إلى الأف بي آي، لتوزيعها من خلالها إلى السي آي أي، ثم إلى مجلس الأمن القومي ومنه إلى الرئيس.

وبعد عدة أشهر كان ج. ادغار هوفر في عطلة في فلوريدا، فاغتنم هذه الفرصة ليتصل هاتفياً بالرئيس نيكسون الذي كان يمضي الإجازة في بيته في كي بيسكاين، وسأله:

«هل تعجبك التقارير البريطانية المستقاة من مصدرهم ليالين، أيها الرئيس؟».

«أية تقارير؟» أجابه الرئيس نيكسون. وظهر أنه لم يتلق هذه التقارير مطلقاً.

وعندما سأل هوفر كيسنجر عن التقارير اكتشف بأن وزير الخارجية لم يتلقاها أيضاً. واتصل كيسنجر بالسي آي أي وطلب بحثاً كاملاً عنها. وأخيراً وجدت التقارير في خزانة أنغلتون الحديدية. فقد توصل إلى استنتاج مفاده أن ليالين كان مجرد استفزاز، ورفض ببساطة أن يوزع هذه الوثائق. فقام توم كاراماسينز، مدير التخطيط في السي آي أي، بتوجيه توبيخ حاد لأنغلتون، وكان هذا بداية انهيار سلطة أنغلتون.

وترجع جذور انهيار سلطة أنغلتون إلى أيام غوليتسين ونوسينكو. فقد أصبحت مسألة موقفه من نوسينكو، بأنه مدسوس، مسألة إيمان عميق، طالما أن هذه الفكرة قد ضمنت سطوع نجم غوليتسين بين كافة المنشقين في بداية الستينات. وأذكر في عام ١٩٦٧، بعد المؤتمر الأول للمخابرات الغربية، انني أخبرت أنغلتون بنيتي العودة إلى بريطانيا عن طريق الولايات المتحدة. فقد كانت ابنتي تعيش في بوسطن، وفكرت أن استغل هذه الفرصة لأوفق بين رحلة عمل وزيارة شخصية بحتة. وما أن أخبرت أنغلتون عن نيتي بزيارة واشنطن حتى أصبح عدائياً جداً. وقال إنه لا يحق لي زيارة واشنطن وهو غير موجود في المدينة. واعتقدت في البداية بأن موقفه هذا له علاقة بالإسرائيليين. فقد كان الوضع في الشرق الأوسط في حالة غليان، وكان أنغلتون يسعى باستمرار لحماية علاقاته بالمخابرات الإسرائيلية «الموساد». وكان يعرف علاقتي الحميمة مع فيكتور روتشيلد، ولطالما حاول أن يضرب هذه العلاقة لإنهائها. حتى انه كتب في إحدى المرات إلى فيرنيفال جونز محاولاً إقناعه بأنها تدخل في العلاقات بين الموساد والسي آي أي. ولكن فيرنيفال جونز أهمل هذه الرسالة وهزء منها.

لكن قلق أنغلتون لم يكن مرتبطاً بالإسرائيليين. فقد عرفت الحقيقة فيما بعد. فقبل مؤتمر المخابرات الغربية مباشرة، أدى تحقيق داخلي في السي آي أي قام به ضابط يدعى بروس سولي إلى الاستنتاج بأن نوسينكو منشق أصيل، بالرغم من عدم القدرة على تقديم

إيضاحات للتناقضات في إدعاءاته. وقد حجب أنغلتون هذه الحقيقة عن المخابرات البريطانية، رغم ما يمكن أن تتركه من أثر على معلومات غوليتسين ونوسينكو. ويبدو أنه كان يخشى إن زرت واشنطن أن اسمع شيئاً عن تحقيق سولي من مصدر آخر غيره.

بدأت مثل هذه الأحداث تقلل من مصداقية أنغلتون. أما حادثة نوسينكو ولياليين فقد كان لها أثر كبير في تقويض دعائم إيمان، حتى أفضل المدافعين عن أنغلتون. وبدأنا نشك فيما إذا كانت المصادر التي يدعي أنغلتون اعتماده عليها موجودة أصلاً أم لا. فربما كانت مجرد لعبة الثلاث ورقات.

وفي عام ١٩٧٠ تلقى أنغلتون أقوى ضربة وجهت إليه. لقد فقد ضابطه الإداري والرجل الثاني جيم هانت. وكان هانت رجلاً صلباً، تعامل مع هواجس أنغلتون بشك متوازن. فقد كان واثقاً من نفسه ويجعل الأشياء تحدث. أما أنغلتون، فكان مثلي، إداري فاشل، فألقى الأعمال الإدارية على كاهل هانت الذي كان يتابع توزيع التقارير، والرد على الاستفسارات، والقيام بالروتين اليومي الذي تعتمد عليه فعالية أي جهاز مخابرات. وبدون هانت أصبح أنغلتون أشبه بسفينة بدون مرساة يجرفها التيار ببطء نحو اللجة.

لم يكن هرب لياليين وطرد ١٠٥ دبلوماسيين روس العلامات الوحيدة على إشراق فجر جديد في المخابرات البريطانية في السبعينات. فبعد انتخاب ادوارد هيث رئيساً للوزراء عام ١٩٧٠، عين فيكتور روتشيلد رئيساً للجنة مراجعة السياسة المركزية «تنك تانك». ولم يكن هناك أحد مناسباً لهذا المنصب مثل فيكتور روتشيلد. فقد كان فيكتور يتمتع بالصفات الصحيحة للوحي والراديكالية التي تحقق وحدة سياسية منافسة كما أراد هيث. كما جاءت دعوته لشغر هذا المنصب في الوقت المناسب له. فقد كنت أشعر بوضوح أنه بدأ يسأم في نهاية الستينات. إذ لم يشعر بأي احترام تجاه هارولد ويلسون، الأمر الذي حرمه من أي دور في الحياة العامة. لذلك حافظ على ارتباطه بالمخابرات البريطانية، مستخدماً صداقته مع شاه إيران. فأشرف شخصياً على العملاء في الشرق الأوسط لصالح ديك وايت. وكان من أهم عملائه هناك السيد ريبورتر الذي لعب دوراً حاسماً في عمليات أم آي ٦ في الخمسينات. وقد كان عمله هذا مليئاً بالإثارة، واضطر إلى التخلي عنه بعد مواجهة تحديات حقيقية. لذا جاء منصبه هذا حسب حاجته تماماً.

فمن خلال رئاسته للجنة «تنك تانك» اهتم فيكتور روتشيلد أكثر بالمجال الأمني. وقد شجعه أدوارد هيث في هذا الاتجاه. إلا أن الأمر أثار وزارة الداخلية وخاصة سكرتيرها الدائم في ذلك الوقت فيليب آلين (الذي أصبح الآن لورد أبيديل وعضو في لجنة الأمن). وأصبح روتشيلد بالنتيجة مثل اللورد ويغ، بالنسبة لحكومة هيث. وقد تولى مع ديك وايت داخل رئاسة

الوزراء (بعد تقاعد وايت) إدارة قسم تنسيق مخابرات الرئاسة الجديد. وقد أعطى كلاهما من خلال عملهما معاً الوجه الأفضل للمخابرات البريطانية بعد الحرب.

كانت أهم وأفضل إنجازات فيكتور روتشيلد لصالح أم آي ٥ هي تأمين خليفة فيرنيفال جونز. فيرنيفال لم يكن محبوباً أبداً في الوايت هول. فقد كان سيد نفسه بشكل لا يحتمل، كما كان متكتماً جداً حتى في تلك القلعة القائمة على التكتم. وكان النهج العادي أن يقوم المدير العام المتقاعد باختيار من يخلفه. وما أن اقترب هذا الموعد في عام ١٩٧٢ حتى بدأت وزارة الداخلية، وبالذات فيليب ألين، بممارسة الضغط. فقد كان ألين مقتنعاً بضرورة إسناد منصب المدير العام إلى رجل من خارجها. ويرجع موقفه هذا إلى الشكوك الكثيرة التي كانت تساوره من أن أم آي ٥ قد تحولت إلى مخزن خطير للفضائح. ولم يكن يعلم إلا القليل عن عمليات ملاحقة الجواسيس والجهد الكبير الذي بذل فيها. ولكنه كان يعرف عن بلانت ولونغ وغيرها من الأسرار التي تبرر خشيته. وقد أفزعه ما اعتقد بأنه سخاء في توزيع الحصانات، والمعايير الضعيفة في إدارة أم آي ٥. لذلك كان يريد وجود يدين آمنتين في قمة الجهاز ـ شخص يمكن أن يخبره ماذا يجري هناك، شخص يثق به.

استقال سيمكنز قبل الموعد المحدد لتقاعد فيرنيفال جونز، وخلفه ميشيل هانلي. وحسب رأي آلين فإن هانلي لم يكن ذا خبرة كافية، أو استقلال كاف للثقة به في تولي منصب المدير العام. وكان فيليب آلين يفضل تعيين السير جيمس واديل وهو نائب سكرتير الداخلية، الذي كان مسؤولاً عن الشرطة والشؤون الأمنية، ويقوم بأعمال الارتباط اليومي بين أم آي ٥ ووزارة الداخلية. وكان واديل كثير الاعتماد على الغير وضيّع فرصة الوصول إلى منصب سكرتير دائم. فاختيار آلين له وهو الذي خدمه بكل ولاء، لمنصب مدير عام أم آي ٥ بدا واضح المبررات.

تلقت أوساط أم آي ٥ إمكانية تعيين واديل باهتمام جدي واسع. فقد كان شخصاً يهتم كثيراً بالتفاصيل ويدقق في الفاصلة والنقطة في طلبات المراقبة. وكانت تنقصه خبرة رجل المخابرات القادر على اكتساب احترام كبار الضباط. وقد شعر العديد منا بأن تعيينه يأتي لإرضاء الوايت هول، وهو أمر قد يعيد الجهاز عشر سنين للوراء. تماماً كما حصل اثر تعيين ريني قبل عدة سنين والذي أدى إلى انهيار كبير في معنويات أم آي ٦.

ولا شك أنه كان هناك أيضاً اعتبار آخر. فهناك الكثير من الأسرار التي حجبتها أم آي ٥ عن الكثير من كبار السياسيين والموظفين، وكان آخر ما تحاول أم آي ٥ الحفاظ على سريته في تلك الفترة المتفجرة هو البحث عن الجاسوس الكبير داخلها. وهو أمر لا ترغب بأي حال أن يصل علمه إلى الوايت هول.

وأول مرة تسمعت فيها قصة الخلافة عندما ذكرها لي فيرنيفال جونز في نهاية عام ١٩٧١. أخبرني بأنه مصمم على منع واديل من استلام المنصب بعده، وأنه قد اتصل بديك وايت طالباً منه المساعدة في ذلك. ولكن الأمور بدت قاتمة جداً. فقد قامت لجنة من سكرتيري الوزارات الدائمين، برئاسة سكرتير الرئيس ومرتبطة بلجنة انتقاء الموظفين، وأصدرت توصية بتعيين واديل، ورفضت تعيين ميشيل هانلي الذي رشحه فيرنيفال جونز والذي لم ينل أي صوت. فقد بدا هانلي قليل الخبرة ومغموراً بالنسبة للجنة.

قال فيرنيفال جونز مشيراً إلى فيكتور روتشيلد:
«هل تستطيع أن تفعل شيئاً من خلال صديقك المتنفذ؟».

كنت في ذلك الوقت ألتقي مع فيكتور روتشيلد بشكل غير رسمي مرة كل أسبوع - بعض الأحيان في مكتبه برئاسة الوزراء، وأغلب الأحيان في بيته. وفي زيارتي التالية له عرضت عليه قضية الخلافة، وقد اشتملت على بنود أثارت خياله الواسع. ذلك الخيال المعتاد على أجواء المؤامرات والسرية.

أخبرني بأنه علم بالأمر عن طريق ديك وايت الذي قال له انه يدعم هانلي لملء هذا المنصب. وكان ديك قد أبدى بعض الدعم الأولي لموريس أولدفيلد. أما السير جون ريني الذي كان يرغب بإزاحة الرئيس الفعلي لأم آي ٦، رغم أنه كان هو نفسه الرئيس الاسمي لها، فقد طرح اسم أولدفيلد. ولكن أولدفيلد رفض ذلك وأعلن بوضوح أنه يفضل انتظار فرصة أخرى يحل فيها محل ريني في حالة تقاعده. (وقد تقاعد ريني في وقت مبكر بعد الكشف عن إدمان ابنه على المخدرات وإدانته بذلك. وقد خلفه في منصبه أولدفيلد).

سألني فيكتور:
«هل يريد الجهاز هانلي؟».
كان دائماً يعتبرني كصوت داخل الجهاز معارضٍ للإدارة.
«بالتأكيد!».
«هل لديك أي اعتراض عليه».

أخبرته بقضية «هاربيت». ورغم أن فيكتور يعرف عن شكوكي بخصوص الاختراق، وانني قد بحثت معه قضيتي هوليس وميتشيل، إلا أنه لم يكن يعرف بأن هانلي كان ذات يوم موضع شك.

قلت له بأنني متأكد من أن هانلي بريء تماماً، وأن هذا هو رأي الأمريكيين أيضاً. وأخبرته برفض الجهاز المستميت لتعيين واديل، وأن تعيينه سيجر علينا مشاكل جدية.

وقلت له:

«نحن بحاجة لكل مساعدة ممكنة يا فيكتور».

«تيد لن يعجبه ذلك»، أجابني بلهجة موظف الحكومة المسؤول.

ثم تغيرت اللهجة، وخلع هذا القناع، وراح يتحدث بطريقته العادية لتطغى عليه طبيعة المتآمر.

«لنر ماذا يمكن أن تفعل!».

ثم طلب مني أن أرتب له لقاءً مع هانلي في أقرب وقت ممكن.

وفي هذه الأثناء كان قد قام بيني وبين هانلي علاقة عمل معقولة. لقد كانت عملية «هاريت» سداً أمام أي دفء في علاقتنا. ولكنه كان يعاملني باستقامة. كما حاولت من جهتي أن أقدم كل ما أستطيع من مساعدة، أرشده إلى خبايا العشرين سنة الماضية في مكافحة التجسس، مثل السائق الجيد، أدله على الأماكن الجميلة ليستمتع بها وأجنبه العثرات. وكنت أعرف بأنه سيشمخ بنفسه عندما أخبره عن اجتماعي بفيرنيفال جونز وفيكتور روتشيلد. فقد كان لا يزال فيه ذلك الأثر من الاشتراكية، وهو الاعتزاز بأنه وصل إلى ما هو عليه بكفاءته الذاتية دون مساعدة أحد من أصدقائه. ولكن الطموح في النهاية هو سيد الموقف، فوافق على مرافقتي ذات مساء لزيارة بيت فيكتور الأنيق. وشربت كأساً ثم انسحبت إلى النادي لأترك لهما فرصة الحديث بحرية. وفي اليوم التالي اتصل بي فيكتور هاتفياً.

«إنه اختيار جيد. يجب أن نجتمع الليلة لإعداد خططنا».

رسمنا خطتنا في تلك الليلة ونحن نشرب الخمر الجيد. كان ديك وايت قد فشل في تقديم اختياره أمام زملائه في اللجنة أو أمام تيد هيث. فقد كان يعاني من الحياء في قضايا الموظفين، ولم يستطع الوصول إلى مرحلة فرض رأيه. وهذا ما يتعارض مع طبعه. وربما كان عيبه الوحيد في عمله هو سوء اختيار موظفيه. فقد كانت تخونه عاطفته أو استقامته. فلقد رقى هوليس وكمنغ داخل أم آي ٥، وفشل في إصدار الأوامر الحاسمة التي كنا بحاجة إليها لتطهير آثار فيلبي في أم آي ٦، إلى وقت متأخر جداً. ويبدو أن هذا ما حصل أيضاً بالنسبة لموقفه من تعيين هانلي. فبالرغم من أنه كان يعرف ما هو الأفضل لمصلحة الجهاز، إلا أنه بدا عاجزاً عن إدراك اللحظة المناسبة للعمل.

ولنكن منصفين، فهو لم يتمتع بعلاقة طيبة مع ادوارد هيث. فقد كان لكل منهما أسلوبه المخالف لأسلوب الآخر. كان ديك وايت يعبد هارولد ماكميلان، وكان العجوز الكبير يكن احتراماً شديداً لرئيس مخابراته. وكان كذلك على علاقة طيبة مع هارولد ويلسون. فكلاهما

لين العريكة. وقد كان ويلسون يقدر أسلوب ديك وايت المتطمئن في القضايا الساخنة والمعقدة مثل قضية روديسيا. أما هيث فقد كان رجلاً متسلطاً، غريباً تماماً عن كل ما مر مع ديك وايت من قبل. لذلك وجد ديك نفسه عاجزاً عن ترك أي تأثير على رئيس الوزراء.

راجعت أنا وفيكتور كافة الاحتمالات، بما فيها ترشيح فيكتور نفسه. فقد كنت أعرف أن روتشيلد كان يسعى لهذا المنصب منذ فترة بعيدة، وبالرغم أن تعيينه كان سيعد أمراً في غاية الذكاء وسيلاقي ترحيباً كبيراً، إلا أنه كان يشعر بأنه قد أصبح كبير السن، وأن «التنك تانك» كانت التحدي الحقيقي الذي يتناسب وإمكاناته.

وبحثنا مسألة حشد أي دعم ممكن في الأوساط العلمية، وقررنا أن يتصل فيكتور بالسير ويليام كوك ليكسب موقفه لصالح هانلي. كما وعدني بترتيب اجتماع مع هيث. وقال:

«لا يحسن بنا أن نرفع القضية إلى رئاسة الوزراء بشكل رسمي. فحالما يراها أو يسمع بها روبرت ارمسترونغ فإنها ستصل حتماً إلى وكلاء الوزارات الدائمين».

كان روبرت ارمسترونغ سكرتير ادوارد هيث الخاص، (أصبح الآن أمين رئاسة الوزراء ورئيس ديوان الموظفين) شخصاً أساسياً في الصراع، بحكم كونه أكثر الأشخاص قرباً من الرئيس هيث. وأية ملاحظة يمكن أن يبديها فيكتور سيتم إرسال تقرير بها إلى لجنة وكلاء الوزارات. لذلك قرر فيكتور أن الخطة المثلى هي أن يلتقي مع هيث في وقت لا يكون فيها روبرت ارمسترونغ موجوداً. وتوصل إلى أن أفضل فرصة هي في الاجتماع القادم للجنة «تنك تانك» بعد أسابيع قليلة.

«سآخذ تيد في جولة في الحديقة، حيث أستطيع التحدث معه بدون وجود ارمسترونغ والوي أذانه..».

عندما حدث ذلك، بدأت أقابل روبرت أرمسترونغ بكثرة. كنت في ذلك الوقت أراجع بعض مواد «فينونا» الأمريكية، وقد لفت انتباهي أحد الأسماء الرمزية. وقد ظهر في البث بشكل «العميل رقم ١٩» وكان «العميل ١٩» عميلاً سوفياتياً مهماً، وهو الذي نقل إلى السوفيات سلسلة تفصيلات ذات أهمية قصوى على المحادثات بين تشرشل وروزفلت أثناء الحرب في محادثات ترايدنت عام ١٩٤٣.

افترض الأمريكيون أن «العميل ١٩» هو ادوارد بينيس، الرئيس التشيكوسلوفاكي السابق، الذي كوفىء على خدماته الجلى للسوفيات، بالانقلاب عليه بشكل مخزٍ عام ١٩٤٨. فقد حضر بينيس محادثات ترايدنت، وكان معروفاً بأنه قناة مباشرة توصل المعلومات للروس. وعندما تفحصت الرسائل نفسها «فينونا» أخذت أشك في هذا التفسير. فالأحاديث

التي أوصلها العميل ١٩ كانت مجرد محادثات غير رسمية بين تشرشل وروزفلت حول خططهما بشأن الجبهة الثانية، وخاصة قسم قضايا البحرية والشحن. وقد لفت انتباهي استحالة اطلاع بينيس على هذه المحادثات، خاصة وأنه ليس لتشيكوسلوفاكيا أية بواخر لعدم وجود شواطىء لها.

أخذت أتساءل فيما إذا كان العميل ١٩ شخصاً من الداخل. وكانت مهمتي الأولى هي العثور على وثائق بريطانية تتعلق باجتماعات روزفلت وتشرشل في محادثات ترايدنت، لأرى إذا كان بمقدوري الوصول إلى هذا الاجتماع الخاص الذي أشار إليه العميل ١٩، ومن ثم الحصول على لائحة بالأشخاص الذين حضروه.

كانت عملية البحث عن شبح ترايدنت أغرب تجربة لي في حياتي العملية. وقد رتب لي فيكتور لقاءً مع روبرت أرمسترونغ، الذي أبدى استعداده للتعاون. وقد ترقى في عمله بسرعة كبيرة، وأصبح مرشحاً ليكون أمين رئاسة الوزراء القادم. وبما أنه كان بحاجة لمساعدة أجهزة المخابرات لحصوله على هذا المنصب، فقد أبدى حرصاً شديداً لإقامة علاقات ودية معها. وهكذا انخرط فوراً في العمل بحثاً عن أية وثائق في مبنى رئاسة الوزراء. ولكننا لم نحصل على شيء بعد عدة أسابيع من البحث.

اقترح عليّ أرمسترونغ الاتصال باللورد اسمي الذي كان رئيس أركان تشرشل، والسير جون كولفيل سكرتيره الخاص. ولكن رغم حضور الرجلين محادثات ترايدنت إلا أنهما لم يحضرا هذا الاجتماع بالذات. واتصلت بماري تشرشل، ولم أجد عندها أية وثائق. وأخيراً رتب لي أرمسترونغ لقاءً مع مارتن جيلبرت مؤرخ تشرشل. فقد كان أحد سكرتيري تشرشل يقوم يومياً بتسجيل كافة اجتماعاته وارتباطاته. وكان جيلبرت يحتفظ بهذه المجلدات. وتوقع أرمسترونغ أن أجد سجلاً لديه. وأعطيت جيلبرت التاريخ المطلوب فأخذ يبحث في المذكرات المفهرسة.

«يا إلهي، إن مذكرات هذا التاريخ مفقودة».

وهكذا غرق البحث عن العميل ١٩ في الرمال. وبقي سراً مغلقاً حتى اليوم.

جاءت المشاكل حول تعيين خليفة لفيرنيفال في ذروة عملي في البحث عن العميل ١٩، لذلك اقترحت على فيكتور أن أقوم أنا، بإبلاغ روبرت آرمسترونغ. فقد كان من الضروري الحفاظ على حياد فيكتور، بينما لا يمكن لأحد أن يلومني على فتح الصراع في قضية الخلافة. وهكذا قمت في زيارتي التالية لمبنى رئاسة الوزراء بإلقاء بعض الضوء على المخاوف داخل أم آي ٥. فابتسم ارمسترونغ، وقال:

«إن جميع أوراق اللعب مرتبة ضدكم. فلا جدوى من الضغط على هذه القضية».

فقلت له بأنه إذا كانت لجنة وكلاء الوزارات مصرة على تعيين واديل، فإن هذا أمر خاطىء. وأضفت:

«نحن لسنا موظفي حكومة، وسيكشف هذا المنصب فشل واديل، لأنه سيتعامل معها ضمن القوانين».

وقد خان ارمسترونغ نفسه بعض الشيء، بالإضافة إلى أنه أخبرني بما أعرف، أي أن الوكلاء الدائمين يدعمون واديل.

قلت بمرارة:

«إنهم يريدون مكافأته فقط. ولا يستطيعون أن يجدوا له وظيفة عليا في الوزارات الأخرى».

ضحك ارمسترونغ.

«لا يا بيتر فنحن لسنا متآمرين!».

بعد عدة أسابيع التقيت مع فيكتور مرة ثانية. وقد نجح في مقابلة هيث على انفراد، وأخبره بمقاومة أم آي ٥ الشديدة لتعيين واديل لأنه من خارج الجهاز. وأبدى هيث تعاطفه، ولكنه قال إنه يريد حجة قوية يستطيع من خلالها رفض نصيحة قدمت له بالاجتماع. ولكن فيكتور نجح أخيراً في إقناعه بمقابلة المرشحين شخصياً.

لقد كانت عملية اختراق ناجحة. وكنا جميعاً واثقين من أن هانلي سيترك انطباعاً جيداً لدى هيث بحكم قوة شخصية، بينما ضعف شخصية واديل سيؤدي إلى إضعاف موقفه. ولما سمع هانلي بالأمر تغير تصرفه. إذ رأى أن الأمور تسير لصالحه. وجاء هانلي ليخبرني بغرور كبير أنه ذاهب في اليوم التالي لمقابلة رئيس الوزراء. وقال:

«لا أريد أية توصية منكم. شكراً».

كنت أعتقد بأن إعلان تعيينه سيتم بسرعة. ولكن الأيام مرت دون أن أسمع شيئاً. وقد كانت الهوائيات منصوبة في الوايت هول بانتظار أية إشارة عن النتيجة. وفي كل زيارة كنت أقوم بها لوزارة الداخلية كنت أدقق في التشكيلات الجديدة. ولكن لم يكن هناك أي خبر، اللهم إلا العبارة الملحة «فيليب ألين لن يقبل بهانلي بأي ثمن».

في عطلة نهاية الأسبوع ذهبت مع زوجتي إلى دولغلاو في مقاطعة ويلز لشراء بعض الأبقار من المزاد للمزرعة التي اشتريناها حديثاً في كونوال للتقاعد. فقد كنت أخطط باستمرار

للعمل في الزراعة منذ التحقيق مع هوليس ومغادرتي للقسم د ٣. وكنت أسعى للتخلص من الهمسات التي تدور في أروقة أم آي ٥. ولم أكن أفكر بالوايت هول وأنا أتابع أصوات المزاد والناس الذين يتابعون حركة الحيوانات هناك. وفجأة سمعت صوتاً من مكبر الصوت:

«تلفون للسيد بيتر رايت من لندن في المكتب لطفاً».

شققت طريقي بين الزحام بين حوالى مئة من الفلاحين المكدسين على بعضهم وكل واحد يحاول رؤية الساحة. وأخيراً وصلت إلى غرفة المكتب الصغيرة. كان فيكتور على الخط.

«أتدري ماذا فعل هؤلاء».

«عن أي شيء تتحدث يا فيكتور؟».

«لقد تبدلت الأحصنة. يريدون الآن تعيين شخص اسمه غراهام هاريسون. هل يعني لك هذا الاسم شيئاً؟».

«لن يقبلوا به» صرخت قائلاً «فقد كان صديقاً لبيرغيس وماكلين».

وفجأة تذكرت أين أنا. ولكني لم أشعر بأي قلق لأن محاسب المزاد كان منهمكاً بإعداده ولم تثر كلماتي فيه شيئاً. وأخبرت فيكتور بأنني سأتصل به حال عودتي إلى لندن.

كان فرانسيس غراهام هاريسون نائب سكرتير في وزارة الداخلية. وبالرغم من عدم وجود ما يشير إلى كونه جاسوساً إلا أنه كان صديقاً مقرباً من بيرغيس، وكان عضواً في مجموعة أكسفورد التي تضم جينيفر هارت وآرثر واين. ولا شك أن اختيار شخص له هذه العلاقات يعد، حسب قول فيرنيفال جونز، أمراً مرعباً. وأخبرت فيكتور بأن المخابرات لن تقبل بهذا التعيين مطلقاً.

في الأسبوع التالي اتصل بي فيكتور هاتفياً:

«هناك إعلان سيصدر غداً. أعتقد أنه سيعجبك».

«كيف توصلت إلى هذا الإنجاز؟».

«لقد أخذت ديك من أذنيه لنقابل تيد وقد أبلغناه بأنه سيكون هناك تمرد داخل أم آي ٥ إذا لم يعين هانلي. وسرعان ما أدرك الوضع».

في اليوم التالي اجتمع فيرنيفال جونز مع اثنين من كبار الضباط ليخبرنا بقرار تعيين هانلي. وقال بوقار:

«لقد كانت حملة قاسية ولكنني ربحتها».

«وقلت له مواجهاً:

«أنا مسرور جداً لسماع ذلك يا سيدي؟».

قبل تقاعد فيرنيفال جونز بوقت قصير اجتمعت به لبحث الوضع غير الواضح في إيرلندا الشمالية. فقد كانت هذه هي المهمة الرئيسية التي ستواجه خليفته. كان يخشى أن تهدد هذه القضية كل ما فعله منذ عام ١٩٦٥ لبناء قدرة الأم آي ٥ على مكافحة التجسس. ولذلك طالب وزارة المالية بزيادة المصادر المالية ولكن طلبه رفض. لقد كانوا يريدون من فيرنيفال أن ينقل الأموال المخصصة لمكافحة التجسس وصرفها في مجال مكافحة الإرهاب. وبالنسبة لهم فإن طرد ١٠٥ دبلوماسيين سوفيات قد قصم ظهر ال ك ج ب لجيل قادم كامل. أما فيرنيفال جونز فقد كان يرى في هذا الرفض مضيعة لكافة المكاسب والمنجزات التي حققها.

بدا فيرنيفال جونز متعباً، وكأنه يود التخلص من العبء الذي على كاهله. ورغم أنه قليل الكلام فقد شعرت بأنه يود أن يتكلم. وقال إنه مسرور لأنه ذاهب. لقد اختفت متعة العمل. وقال إنه قلق على وضعه المالي. فبالرغم من أنه يعيش بأجواء ثراء إلا أنه لم يكن ثرياً. كان عنده بيت جميل في هامبستيد، ولكن كان لديه ابنته الصغيرة التي ما زالت بحاجة للعلم. وتحدث بمرارة عن أنه سيبيع نفسه في السوق كمستشار أمني في الوقت الذي يطمح فيه للتقاعد وتربية الطيور. (وفعلاً أصبح فيما بعد مستشاراً لشركة الصناعات الكيميائية).

وسألني وهو ينظف غليونه بشكل عصبي:

«حسناً، ما رأيك بعملي هنا؟».

فقلت له:

«ماذا، تريد أن تعرف بصدق؟».

وهز رأسه موافقاً.

«لقد تفوقت على نفسك في القضية الروسية، ولكني لا أعتقد بأنك نجحت في إقامة علاقات مع الضباط العاديين».

وبدا بأنه مجروح فجأة.

«أنا آسف. فلم أشعر مطلقاً بأن هذا مكاني».

كنت دائماً أحب فيرنيفال جونز، وأعتقد بأن أغلب كبار الضباط كانوا يحبونه. وقد كان جدياً دائماً، رغم أنه كان يرى عبثية الحياة وعبثية مهنته. وسأقدر له دائماً رحلتي معه إلى أستراليا لحضور المؤتمر الأول للمخابرات الغربية عام ١٩٦٧. فعندما وصلنا إلى حاجز الأمن العام كان هناك بعض ضباط المخابرات الأسترالية في انتظارنا. فقدم فيرنيفال جونز جواز

سفره. وقال الضابط وهو يقلّب جواز السفر بيده بعد أن قرأ في خانة «الوظيفة» بأنها وظيفة «سيد».

«ما هذا؟».

«هذه وظيفتي. أنا سيد (جنتلمان)، أليس لديكم أسياد هنا؟».

نهض الضابط الأسترالي من مقعده ولحسن الحظ فقد كنت قد جذبت نظر الطاقم المكلف باستقبالنا الذي أسرع فوراً وفسر الأمر للمسؤول وأدخلنا من الباب الجانبي. كان فيرنيفال جونز سعيداً طوال ذلك اليوم وكأنه حقق نصراً كبيراً لفريقه بمفرده.

وقد أدار فيرنيفال جونز العمل في الجهاز بروح ديمقراطية. فإذا كنت ضابطاً موثوقاً، فإن بابه كان دوماً مفتوحاً. ولكنه ظل شخصاً غريباً بالنسبة للضباط الشباب، وبقي مغمض العينين عن عدم الرضا الذي كان ينتشر في المراتب السفلى.

لم يحزن على تركه العمل إلا عدد قليل في الوايت هول. وفي فترة مشكلة اختيار خلفية له، اقترح أن يبقى سنة كاملة ويكون هانلي فيها نائباً له ولكن وزارة الداخلية رفضت رفضاً قاطعاً. لقد كان دوماً صادقاً فيما يقوله ولذا كرهه السياسيون والموظفون الحكوميون. كما أنه احتفظ بالأسرار فلم يتحدث بها، لذلك كان موضع خوف وشك.

وبعد سنة ترك ديك وايت العمل. فخسرت المخابرات البريطانية أهم اثنين من هيئتها الإدارية. ومن الصعب عدم الإقرار بما قدماه. فقد كانا صنوين كان ديك وايت المفسر الحاذق للمخابرات والملطف للأجواء والعواطف في الوايت هول ورئاسة الوزراء. أما فيرنيفال جونز فكان على العكس تماماً رجلاً صلباً، يطلق الانذارات ويجلب الأخبار السيئة.

وقد اختلفت معهما في قضية واحدة فقط خلال عشرين عاماً. الاختراق العالي المستوى. وأعتقد بأن التاريخ سيحكم لصالحهما بأنهما لم يكونا مؤهلين للسير في هذه القضية وقد أدى عدم مواجهتهما للأمور في حينها إلى تفاقم المشكلة وبقائها بدون حل. أما في المجالات الأخرى فكانت مساهماتهما كبيرة للغاية. فقد كانا الصلة بين العالم القديم والعالم الجديد. وقد عملا على جعل المخابرات البريطانية محترمة في العالم بأسره.

الفصل الثالث والعشرون

لم يكن هانلي مرتاحاً في البداية عندما انتقل إلى مكتب المدير العام. فقد كان يدرك بأن تعيينه كان موضع خلاف مما جعله يتصرف بشكل حذر جداً أكثر مما يتوجب الأمر. لقد كان يسعى لإسعاد وطمأنة رؤسائه في الوايت هول، لذلك اضطر إلى تقديم الكثير من التنازلات التي يأبى رجل أكثر اطمئناناً إلى مركزه أن يفعلها.

كان هانلي ذكياً جداً وأوسع ثقافة من فيرنيفال جونز، ولكن كانت تنقصه قوة شخصية الأخير. ولم أكن أثق به ثقتي بفيرنيفال جونز. وقد بدأ ابتعادي عن الجهاز منذ تنحي فيرنيفال. بدأ الجهاز يتغير، ولم تكن تلك السنوات الأربع سوى اعداد لوداع المهنة.

كانت التغييرات في البداية بسيطة، سخيفة - مثل احجام هانلي عن توصيل الضباط الكبار بسيارة المدير العام كما كان يفعل فيرنيفال جونز. ولكن سرعان ما بدأت تتعمق أكثر وأكثر. وانتقلت المكاتب من ليكون فيلد إلى مارلبورو ستريت، ثم إلى المباني الكئيبة في غوور ستريت. واقترحت على هانلي الانتقال إلى مكان تحيط به الحقول الخضراء مثلاً تشيلتنهام، ولكنه أصر على البقاء في لندن. وبدأ يدعم رجاله ويمنحهم الترقيات بسخاء. كانوا شباباً متحمسين، ولكن طابع الوظيفة كان يغلب عليهم، فهم رجال يبحثون عن الأمن وليس عن السلاح. وبدأت أشعر بأن جيلاً كاملاً ينتهي. ورغم الاختلاف بيننا، فقد بدأ الذين اشتركوا في عملية صيد الجواسيس من أي فريق كانوا، على الاختفاء بسرعة. وبدأ جيل المعتدلين يحل محل جيل الأبطال.

ودعاني هانلي بعد تسلمه منصب المدير العام بقليل إلى اجتماع لبحث وضعي.

«أنا أؤمن بقدراتك يا بيتر، وطالما أنا موجود هنا في هذه الوظيفة فسيكون هناك عمل

وفي هذه الأثناء سرت إشاعة بأن آرثر وستيفان دي موباري يحشدان لفتح قضية هوليس من جديد. كان آرثر قد تقاعد أما دي موباري فكان عمله يهبط باستمرار. فقد أصبح غير مرغوب به في أم آي ٦ في فترة الستينات لدعمه المتناهي لغوليتسين ونظرياته. وكان مرشده هو كريستوفر فيلبوتس، الذي عمل تحت إمرته في واشنطن. وقد أعاده فيلبوتس ليعمل معه في قسم مكافحة التجسس، وبعد تقاعد فيلبوتس في عام ١٩٧٠ أصبح دي موباري ضعيفاً. وكان ديك وايت مصمماً على التخلص منه، ولكن أولدفيلد اقترح نقله إلى وظيفة في مالطا.

وعندما عاد دي موباري عام ١٩٧٢ ليجد أن قضية هوليس قد أغلقت، بدأ ينشط لإثارة القضية من جديد. وقد أبدى كل من هانلي وأولدفيلد تخوفهما الشديد من أن يقوم دي موباري بالبوح عن مخاوفه من الاختراق السوفياتي لنائب في البرلمان. وكان آرثر أيضاً يسعى للاتصال بالبرلمان. وبعد تقاعده عين في وظيفة مكتبية هناك كوسيلة لتعويض تقاعده. وشعر هانلي وأولدفيلد بالخوف من أن يبلغ آرثر أحد أصدقائه الجدد عن مشاكل العشرين سنة الماضية.

لم تكن قضية هوليس هي هم دي موباري الوحيد. فقد كان يؤمن بأن مجمل نظام تعيين المدير العام في أجهزة المخابرات نظام فاسد ويؤدي إلى الكوارث. وكان مقتنعاً بأنه طالما استطاع جاسوس واحد أن يتسلل إلى قمة الجهاز فسوف يصبح في موقع ممتاز ويعين زملاءه الخونة.

طرح عليّ أولدفيلد قضية دي موباري في أحد لقاءاتنا. وقال لي:

«ألا تستطيع أن تكبح جماحه؟».

وأوضح لي بأن هانلي يرغب في ذلك أيضاً. وكان لأولدفيلد أسبابه الخاصة في عدم إعادة طرح قضية هوليس. لقد نحي جانباً بالنسبة إلى أعلى وظيفة في أم آي ٦ عندما عاد ديك وايت ولم يعد يأمل بأكثر من منصب الرجل الثالث في الجهاز.

وقلت له بأنني أشك في قدرتي على ممارسة أي تأثير على أي من آرثر أو دي موباري.

«أجل، ولكنهما لا يعرفان ما تعرفه أنت، إنهما لا يعرفان مدى حساسية المسألة. فأي فضيحة الآن ستدمرنا كلنا».

كان موريس إنساناً شفافاً، تستطيع أن تقرأ طموحه وكأنك تقرأ كتاباً. وقبل أن ينقضي المساء بدأ يحدثني عن المستقبل. فقال:

«إذا استقال ريني، وحالفني الحظ، فإنني لن أبقى لفترة طويلة».

وزارة الخارجية تخشى من تسّرب أنباء عن الخطة. وقد أشرت إليهم بأن الدرس الأساسي الذي تعلمناه من قضية قبرص هو عدم استقرار الحلول السياسية التي يتم التفاوض بشأنها بدون إجراءات أمنية حاسمة. ولكن لا حياة لمن تنادي. ولهذا فلم أفاجأ عندما انهارت اتفاقية سننغ دايل.

لقد آلمني جداً سقوط خطة دبلن. كانت تبدو لي مقياساً لمدى تسلط البيروقراطيين. كان بإمكاننا معالجة القضية قبل عشرين عاماً بدون أي قلق. واقترحت دراسة إمكانية استخدام فتيل مفخخ في أماكن تواجد الجيش الجمهوري الايرلندي. فربما تكون هذه العملية ذات مردود إيجابي لصالح أم آي ٦، إذا ما ارتبطت بزرع أجهزة التنصت كما فعلنا مع الجنرال غريفاس. ولكن الموضوع رفض، وحتى أم آي ٥ أبدت تخوفها منه وأحجمت عن المضي في الخطة. وقالوا لي:

«إنها جريمة».

فقلت:

«ولكن الأبرياء يموتون كل يوم ويشوهون».

سألوني:

«ما هي السياسة التي تعتقد أن الشعب البريطاني يريد منا أن نتبعها؟».

لقد كانت القضية الإيرلندية مجرد جزء واحد من التغيير الحاسم داخل أم آي ٥ فيما يتعلق بالقضايا المحلية. لقد قادت ثورات الطلبة في الستينات إلى تمرد العمال الصناعيين في السبعينات. كان هناك أضراب عمال المناجم عام ١٩٧٢، وإضرابات متواصلة في صناعة السيارات. كان لهذا تأثير مباشر على عقلية حكومة هيث. وطغت مهمة مكافحة الاضطرابات المحلية على أي قضية أخرى.

هذه هي أكثر الأمور حساسية التي يمكن أن يمر بها مدير عام المخابرات، وهي بلا شك تتطلب رجلاً قوياً يحافظ على استقلاله واستقلال جهازه. ولقد أثرت ظروف تعيين هانلي على ضعفه في مواجهة هذه الضغوط. وبينما كان فيرنيفال جونز بطل استقلال أم آي ٥، كان هانلي يخضع لما يريده منه السياسيون. وشرع يقدم لهم بحرفية عالية سيلاً من المعلومات الاستخبارية المحلية.

تقليدياً، كانت الشعبة ك، امتياز أم آي ٥، أما الشعبة و فكانت علامة الضعف فيها، وقد تجنبها الضباط الأذكياء. ولكن هانلي أخذ يوجه كافة المصادر المالية والرجال لصالح الشعبة و ويضن بها على الشعبة ك. وهكذا فقدت الشعبة عدداً كبيراً من الضباط الجيدين في

مكافحة التجسس ومنهم بالطبع ميشيل ماكول الذي فقد إلى الأبد.

كان أهم مؤشر على التغيير الذي حصل، بعد تقاعدي، عندما تم تعيين السير جون جونز مديراً عاماً سنة ١٩٨١. كان النجم الصاعد في عملية إعادة التنظيم التي قام بها هانلي. وعندما وصل إلى القمة كان أول مدير عام يشغل هذا المنصب منذ هوليس دون أن يكون لديه أية خبرة شخصية في مكافحة التجسس. لقد كان رجل الشعبة و بلا منازع، وجاء تعيينه ليوضح بدون أي لبس التغير الحاسم في مركز الجذب لدى أم آي ٥.

ففي بداية تولي هانلي لمنصبه مديراً عاماً، دعا إلى اجتماع لكبار الضباط في الشعبة أ والشعبة و لبحث التغييرات في أولويات أم آي ٥. وقد بدأ الاجتماع بتقديم هانلي لجو الاضطرابات في البلاد ونمو ما سماه «اليسار المتطرف». وقال إن رئيس الوزراء ووزارة الداخلية لم يتركا لديه أي شك في رغبتهما بزيادة الجهود في هذا الاتجاه. ثم سلم أحد ضباط الشعبة و الشاب ديفيد رانسوم، مسؤولية ترتيب إنشاء مجموعات يسارية انقسامية، مثل «حزب العمال الثوري»، و «حزب العمال الاشتراكي».

كان هانلي مغرماً جداً بالندوات، لذا استغرق هذا الاجتماع النهار بطوله. وطالب رجال الشعبة و بتخفيف القيود على استخدام أجهزة التنصت على التلفونات وفتح الرسائل، وتقوية العلاقات مع مكتب البريد. فقد كان العدو منتشراً، واتصالاته واسعة جداً، ولعل هذه هي الطريقة المناسبة الآن للتعامل معه. وكان جون جونز محامياً قوياً. قال إن الشعبة و بحاجة لكل المصادر التقنية الموضوعة حالياً تحت تصرف الشعبة ك. وأضاف أن استخدام العملاء لم يعد أمر ذا حيوية كوسيلة رئيسية للتغطية. وكبداية عارض في زرع رجاله في المجموعات اليسارية مدعياً بأنهم يعيشون حياة مليئة بالاغراءات الجنسية، وقال إن هناك تضحيات لمصلحة البلاد يعجز عنها حتى ضابط في أم آي ٥. أما من الناحية الأخرى، فإذا طلب تجنيد العملاء فإن في ذلك مخاطرة كبيرة بوقوع فضيحة عامة. وقال إن الطريقة الوحيدة لمواجهة هذه القضية تكمن في المصادر التقنية الكثيرة العدد. ورأيت بوضوح أن هانلي موافق على هذا الرأي.

أما أنا فقد وقفت إلى جانب استخدام العملاء. وقلت لهانلي بعد الاجتماع بشكل شخصي:

«لا بد من استخدام العملاء إذا أردت مراقبة هذه المجموعات. لأن استخدام المصادر التقنية ضدهم سيؤدي إلى تراكم المشاكل في المستقبل. إنك لا تستطيع أن تثق بمكتب البريد كما تثق برجالك. هذا الأمر سيقودك إلى خطأ كبير».

كان نفس الشيء ينطبق على فريق عمل الكمبيوتر. وسرعان ما أدركت بأن هدف الشعبة و من الفريق هو إنشاء شبكة كمبيوتر واسعة ترتبط بشكل أساسي مع كمبيوتر التأمين القومي في نيو كاسل. وقد كنا في الماضي قادرين، بالطبع، على الحصول على المواد التي نريد من سجلات التأمين القومي. فقد كان لنا هناك عدد من الضباط السريين يمكن الاتصال بهم فيما يتعلق بشؤوننا. أما إنشاء خط كمبيوتر مباشر مع التأمين القومي فهذا أمر مختلف تماماً.

لم أكن الوحيد من الضباط القدامى المعادين للسوفيات، الذين أبدوا انزعاجهم من هذه التطورات. كنا نرى بوضوح كيف يزول كل ما أنجزناه في مجرى ملاحقة هذه المجموعات اليسارية الصغيرة. بالإضافة إلى ذلك فإن الدخول في عصر الكمبيوتر كان مؤشراً على إهمال دور الضابط الفرد. فمن الآن وصاعداً ستكون مهمتنا مجرد تحليل المعلومات وإمعان النظر بعشرات الآلاف من الأسماء بمجرد أن نضغط على زر.

وبدأت أسمع في هذه السنوات كلاماً جديداً مثل،

«لقد ذهبت أيام المتعة».

لم يستطع هانلي أن يدرك المشاكل التي كان يوقع نفسه بها. فقد كان من السهل أن نصدق ان الجمهور قد قابل اقتحامنا لبيت أي دبلوماسي سوفياتي بالرضى. ولكن المراقبة الشاملة لقطاع كبير من الناس طرح أكثر من علامة استفهام. «الأخ الكبير» يلوح في الأفق.

كان قدامى الضباط في الشعبة د يرون في منظمات حزب العمال الثوري، وحزب العمال الاشتراكي، وحملة نزع السلاح، قطعاً لا قيمة لها من لعبة الأحجية. لا شك أنه لا بد من مراقبتهم، ولكننا لا نعتقد بأنهم الهدف الرئيسي لهجوم ال ك ج ب. أما أهداف ال ك ج ب فهي المخابرات، والوظائف الحكومية، وفي الستينات برزت النقابات وحزب العمال كأهداف أيضاً.

فمنذ الستينات كانت تتدفق المعلومات عن اختراق النقابات وحزب العمال إلى ملفات أم آي ٥، عن طريق منشقين تشيكوسلوفاكيين هما فروليك وأوغست. وقد طرحا أسماء العديد من سياسيي حزب العمال وقادة النقابات كعملاء للكتلة الشرقية. كان هناك أساس يدعم تورط بعض هذه الأسماء، مثل عضو البرلمان ويل أوين، الذي أقر بأن المخابرات التشيكوسلوفاكية دفعت له آلاف الجنيهات طوال عشر سنوات لتقديم المعلومات لها. ومع ذلك فقد تمت تبرئته اثر محاكمته عام ١٩٧٠ بسبب عدم اطلاعه على الأسرار، من ناحية وبسبب عدم استطاعة المنشق التشيكي من تقديم دليل ثابت يدعم أقواله في المحكمة.

وقد ذكر المنشقون التشيك أيضاً اسم عضو البرلمان توم درايبرغ. ذهبت بنفسي لمقابلة درايبرغ الذي أقر أخيراً بأنه كان يزود الموجه التشيكي بالمعلومات مقابل المال. قمنا باستخدام درايبرغ بعد ذلك لمصلحتنا ولكنه لم يخدمنا سوى في قضية واحدة تتعلق بالفضائح الجنسية لحزب العمال.

فقصته الوحيدة كانت عندما أعار أحد الوزراء شقته ليمارس الوزير فيها علاقة جنسية مع إحدى السيدات. وقد صمم درايبرغ على معرفة هوية السيدة محظية الوزير. وذات مساء دخل إلى الشقة بعد أن أخلاها الوزير، وبحث فيها ليجد رسالة معنونة إلى سيدة بارزة في حزب العمال. وقال درايبرغ ان هذا الأمر أرعبه جداً فاضطر إلى طرح القضية على الوزير نفسه، محذراً إياه من مغبة اكتشاف أمره. وطالما أن درايبرغ كان يزود التشيك بهذا المستوى من المعلومات فلا شك أن حرصه على أسرار حزب العمل أمر فارغ.

وكان هناك أيضاً عضو البرلمان جون ستون هاوس الذي ادعى المنشقون التشيك بأنه يعمل لصالحهم. ولكن بعد مقابلته بحضور هارولد ويلسون، نفى كل الاتهامات الموجهة إليه. واضطرت أم آي ٥ أن تسحب كافة اعتراضاتها عليه.

هذه هي صورة العلاقات بين أم آي ٥ ورئيس الوزراء في أغلب تلك الفترة. وقد كُتب الكثير عن أم آي ٥ وهارولد ويلسون، ولكن الكثير منه كان غير دقيق. ولكن، حسب معلوماتي، أن القصة بدأت بعد موت هيو غايتسكل المبكر في ١٩٦٣. كان غايتسكل سلف هارولد ويلسون في قيادة حزب العمال. وكنت أعرفه شخصياً وأحبه كثيراً. كنت أقابله هو وعائلته في نادي بلاك ووتر، وأذكر أنه قال لي قبل شهر من وفاته بأنه سيذهب إلى روسيا.

بعد وفاته جاء طبيبه وطلب لقاءً مع شخص مسؤول في أم آي ٥. فقابله آرثر مارتن الذي كان رئيس مكافحة التجسس السوفياتي. وشرح الطبيب له انزعاجه من الطريقة التي توفي بها غايتسكل. وقال إنه توفي اثر مرض جلدي يهاجم أعضاء الجسم. وقال إن المرض نادر في البلاد ذات الطقس المعتدل. وأضاف بأن غايتسكل لم يكن في أي مكان يمكن له أن يلتقط هذا المرض.

اقترح آرثر مارتن أن أذهب إلى بورتون، إلى المختبر الميكروبيولوجي والكيماوي التابع لوزارة الدفاع. قابلت هناك كبير أطباء مختبر الحرب الكيماوية، الدكتور لاديل، واستشرته في الموضوع وقال إنه ليس معروفاً كيف ينتقل هذا المرض وشك بأن يكون الأمر عائداً إلى بعض النظريات، ولم يكن لديه أدنى فكرة كيف يمكن ايصال هذا المرض لأي إنسان. عدت وكتبت تقريراً بهذا المعنى.

أما التطور الثاني فهو أن غوليتسين ذكر لنا بشكل استقلالي بأنه أثناء السنوات الأخيرة من عمله كان له اتصال مع القسم ١٣، الذي كان يعرف بقسم القضايا الرطبة في ال ك ج ب والذي كان مسؤولاً عن تخطيط الاغتيالات. وقال إنه علم قبل سفره بوقت قصير بأن ال ك ج ب تخطط لعملية اغتيال سياسية عالية المستوى في أوروبا لضمان مجيء رجلها إلى السلطة. ولم يعرف غوليتسين في أي دولة سيحدث ذلك. ولكنه أشار إلى أن رئيس القسم ١٣ هو رجل يدعى رودين، وقد خدم في بريطانيا لسنين عديدة وعاد منذ وقت قريب ليصبح رئيساً للقسم بحكم معرفته بالساحة السياسية البريطانية.

لم نستطع أن نتقدم أكثر في هذه القضية لأن الدكتور لاديل قال بأن طريقة ايصال المرض للرجل غير معروفة. لذا استشرت جيم أنغلتون حول القضية. وقال إنه سيقوم بعملية بحث في الوثائق الروسية العلمية ليرى ما يعرفه الروس عن هذا المرض. وبعد حوالي شهر أو شهرين أرسل إلينا مقالة عن المرض ترجمها عن اللغة الروسية من مجلة علمية سوفياتية. كانت هذه المقالة قديمة جداً، وقال أنغلتون بأنه لم يعثر في المطبوعات الروسية على غيرها. وقد ذكرت المقالة بأنه تم استخدام مادة كيماوية معينة اكتشفها السوفيات يمكن أن تؤدي إلى إصابة فئران التجارب بهذا المرض. وعلى أية حال لم يثبت لدينا بأن هذه المادة هي التي استخدمت لقتل غايتسكل لأن هذه العملية تتطلب إعطاء الشخص جرعات كبيرة منها وعلى دفعات. أخذت المقالة لأطلع الدكتور لاديل عليها، فأبدى استغرابه لتقدم الروس في هذا المجال، وأكد أنه من غير المحتمل أن غايتسكل قد قتل بطريقة القهوة والبسكويت. ولكنه أشار إلى أن تاريخ المقالة يعود إلى حوالي سبع سنوات ماضية، وإذا افترضنا أن الروس قد واصلوا العمل على تطوير هذه المادة فلا بد أنهم قد توصلوا إلى نوع تكفي كمية قليلة منه أو حتى حقنة واحدة للإيفاء بالغرض. وقال لي بأنه لا يمكن إثبات هذا الأمر بدون إجراء فحوصات مخبرية كاملة تتطلب جهداً علمياً كبيراً، والمختبر الآن مشغول جداً.

اقترحت عليه بحث هذا الموضوع مع إدارتي. وكتبت تقريراً ثانياً عما قاله الدكتور لاديل وأخذت منه موافقة شخصية عما كتبت. وقمنا في أم آي ٥ ببحث القضية بحثاً شاملاً، وتوصلنا إلى أننا لا نستطيع عمل أي شيء بدون الحصول على دلائل أخرى لاستخدام الروس هذه المادة في عمليات الاغتيال. وقد بقيت أراقب في السنوات اللاحقة حلول أي دليل وطلبت من لاديل أن يفعل كذلك. لم يعد هناك حاجة لنقول إنه لم نجد أي مثل آخر لشخص في مركز حساس يموت بنفس هذا المرض. وعلى أي حال، فإذا كان هناك من اختراق عالي المستوى في أم آي ٥، فلا بد أن الروس قد علموا بشكوكنا، وأنا متأكد بأنهم أحجموا عن الإقدام على أي عملية مشابهة قد تقع في أيدينا.

في تلك الأثناء جاء هارولد ويلسون رئيساً للوزراء. وكان حتمياً أن يثير ويلسون اهتمام أم آي ٥. فقبل أن يصبح رئيساً للوزراء كان يعمل مع مؤسسة تجارية شرقية ـ غربية، وزار روسيا عدة مرات. كانت أم آي ٥ تعي بأن ال ك ج ب لن يردعها شيء أمام اصطياد الزوار. لكننا أردنا أن يدرك هو المجازفة بأن الروس يمكنهم أن يضحوا به. وعندما جاء ويلسون بعد غايتسكل زعيماً لحزب العمال، كان هناك سبب آخر للاحتكاك بينه وبين أم آي ٥. فقد بدأ يحيط نفسه برجال الأعمال الشرقيين المهاجرين، وكان بعضهم هدفاً لتحقيقات أم آي ٥. وبعد أن أصبح هارولد ويلسون رئيساً للوزراء عام ١٩٦٤، قام جيم أنغلتون بزيارة خاصة لبريطانيا ليلتقي مع فيرنيفال جونز الذي كان حينها رئيساً لمكافحة التجسس. عرض علينا أنغلتون معلومات سرية جداً من مصدر رفض الإفصاح عنه تؤكد بأن ويلسون عميل سوفياتي. وقال إنه سيعطينا إثبات مفصل ومعلومات كاملة إذا ما ضمنت أم آي ٥ بقاء هذه المعلومات ضمن جهازها ولم تتسرب إلى الدوائر السياسية. وقد كان هذا الاتهام صعب التصديق، ولكن بما أن مصدرنا هو أنغلتون رئيس قسم مكافحة التجسس في السي آي أي، لم يكن أمامنا أي خيار سوى أخذ القضية بجدية كاملة. ولم أفاجأ بالاضطراب الذي عم أم آي ٥ بسبب الطريقة التي قدم فيها أنغلتون معلوماته. وبعد التفكير رفضت أم آي ٥ قبول المحاذير التي وضعها أنغلتون على طريقة التصرف بالمعلومات، وهكذا لم نستلم منه أية تفصيلات أخرى. وقد سجلت معلومات أنغلتون تحت اسم رمزي هو أوت شيف.

بعد تقاعد هوليس وتولي فيرنيفال جونز إدارة أم آي ٥ ذهبت إليه وقلت له بأنني سأقوم بزيارة إلى الولايات المتحدة. وسألته فيما إذا بإمكاني أن أناقش أنغلتون في قضية معلومات أوت شيف، على أمل الحصول على مزيد من المعلومات. فسمح لي بذلك، ولكنه أكد بأننا لا نستطيع تقديم أي ضمانة من تلك التي حددها أنغلتون. وتناقشت مع أنغلتون في واشنطن بالموضوع. ووضع القضية ضمن إطار كلاسيكي. فقال هناك إشاعات عن لقاءات سرية مع الروس. ولكن عندما ضغطت عليه من أجل مزيد من التفصيل لم أجد عنده أي شيء. وقد علمتني تجربتي المرة بأن أنغلتون قادر على اختراع الدليل حتى إذا لم يكن موجوداً.

لكن إذا كانت معلومات أوت شيف مجرد اختراع، فقد كانت المعلومات في نهاية الستينات تؤكد وجود اختراق سوفياتي في حزب العمال. فقد جاء أولاً المنشقان فروليك وأوغست إلى الغرب ليقدما سلسلة من أسماء نواب حزب العمال والنقابيين كمجندين لصالح الشرق. ثم جاءتنا المعلومات الخطيرة عن طريق أوليغ ليالين. فحين كان لا يزال في مكانه أخبر أم آي ٥ عن صديق له يدعى فايغوكاس. وكان هذا ضابط ك ج ب يعمل

تحت غطاء الوفد التجاري السوفياتي في لندن. وأخبرنا ليالين أن فايغوكاس ادعى بوجود اتصال بينه وبين رجل يدعى جوزيف كاغان، وهو مهاجر لتواني وصديق مقرب من هارولد ويلسون. وقد ساعد كاغان في تمويل مكتب ويلسون الخاص، ووضع تحت تصرفه طائرة خاصة لحملته الانتخابية. كما أن ويلسون كان يظهر في الصور وهو يرتدي معاطف مصنوعة في مصنع كاغان قرب ليدز.

سعت أم آي ٥ حتماً لمعرفة إذا ما كان هناك علاقة لكاغان بفايغوكاس. فوضعناه تحت المراقبة الكاملة وحاولنا تجنيد بعض العملاء في مصنعه. وبعد طرد ال ١٠٥ دبلوماسيين روس عام ١٩٧١ كانت هناك فرصة لبحث القضية مع الرجلين. فقد اتصل هارولد ويلسون، الذي كان قد خرج من رئاسة الوزراء في ذلك الوقت، مع السير آرثر يونغ رئيس شرطة مدينة لندن وأحد مستشاري شركات كاغان. قال ويلسون إنه يريد الاتصال بـ أم آي ٥ لأنه يرغب في بحث قضية كاغان. واعتقد فيرنيفال جونز بأن هذا الاتصال غريب، ولكنه وافق على إرسال هاري وارتون الذي كان يشرف في ذلك الوقت على عمل ليالين. واطلع وارتون هارولد ويلسون على ما يقوله ليالين بخصوص علاقة كاغان مع فايغوكاس. قال ويلسون بأنه لا يعلم شيئاً عن ذلك وبأنه لم يبحث مطلقاً أي قضايا سرية مع كاغان في أي وقت من الأوقات. أما كاغان فقد اعترف فيما بعد بأنه كان يلتقي مع فايغوكاس ليلعبا الشطرنج، ولكنه أنكر أية علاقة تجسس بين الاثنين.

فسر ويلسون موقف أم آي ٥ بأنه محاولة لتشويه سمعته وسمعة حزب العمال. وعندما جاءت حكومة المحافظين إلى السلطة أبدت اهتمامها أيضاً بهذه المعلومات. كان فيكتور يشتكي لي دائماً من نوعية المعلومات في التقارير المقدمة إلى رئاسة الوزراء من الشعبة و. ويقول:

«إنهم مستعدون للقتال دوماً. ألا تستطيع أن تعطينا معلومات أفضل؟».

وقد أخبرني عام ١٩٧٢ بأن أدوارد هيث خرج مرتعباً من اجتماع للوزراء تحدث فيه كل من جاك جونز وهيو سكانلون أقوى زعيمين نقابيين في مطلع السبعينات. وقال فيكتور.

«لقد اعتقد تيد بأنهما يتحدثان كشيوعيين. وسألت الشعبة و عن معلومات بشأنهما، ولكن بالطبع لم يكن لديها أية معلومات ذات قيمة».

كان فيكتور يعرف من خلال الشائعات أن المنشقين التشيكيين الجديدين يقدمان معلومات بخصوص تخريب النقابات وحزب العمال. وبدأ يضغط عليّ من أجل معرفة التفاصيل. فطلبت

منه توجيه مذكرة لي بشكل رسمي وسأرى ماذا يمكن أن أفعل. وفي اليوم نفسه تلقيت مذكرته التي استهلها بطريقته الخاصة: «رئيس الوزراء قلق ويود أن يرى. . .».

أرسلت المذكرة إلى فيرنيفال جونز للمشورة. فأعادها إليّ وقد كتب بخط يده على الحاشية «أخبره بكل ما يريد أن يعرف. . .».

عدت إلى الملفات لأكتب بصبر وأناة تقريراً مختصراً عن المعلومات التي أدلى بها كل من فروليك وأوغست. ولم أضمن التقرير أية استنتاجات، ولكن المعلومات كانت كاملة.

وانقلبت الدنيا في الوايت هول على رأسي. فطلبني السير جون هانت، سكرتير الرئاسة، وسألني هل أنا عالم بما أقوم به، كيف أقوم بتمرير معلومات سرية عن حزب معارض لأطراف في الحكومة في مثل هذا الوقت الحساس.

دافعت عن نفسي بكل شراسة. فهذه ليست مسألة سياسية. فقد قدمت هذا التقرير بناء على طلب رسمي من رئيس لجنة سياسة مراجعة الموظفين المركزية. وأعطيته إياها بعد موافقة المدير العام للمخابرات البريطانية. وليس لي علاقة فيما إذا كانت هذه المعلومات محرجة أم لا. وقلت:

«إذا كنا نرفض توزيع المعلومات لكونها محرجة فما الداعي لعملنا كله من الأساس!!».

وقد دعمني كل من فيرنيفال جونز وفيكتور بقوة. وشعر فيكتور باستمتاع كبير بالقضية، وراح يرسل المذكرة تلو الأخرى إلى الوايت هول دفاعاً عن حق المخابرات في تقديم المعلومات في حالة طلب رئاسة الوزراء ذلك. أما فيليب آلين الذي غضب من إهمال دور وزارة الداخلية، فقد قاطعني ولم يكلمني مطلقاً لعدة سنوات، وأرسل رسالة موجزة إلى فيكتور يطالبه فيها بالابتعاد عن القضية.

وبعد ظهر أحد الأيام والمشادة في ذروتها، كنت في مكتب فيكتور، عندما أطل تيد هيث برأسه من الباب. فقال فيكتور يقدمني له:

«سيدي الرئيس، أعتقد أنه يجب أن تتعرف إلى بيتر رايت، إنه أحد أغرب الظواهر في الوايت هول».

نظر إليّ هيث مازحاً وسألني أين أعمل. فقلت له:

«في المخابرات يا سيدي!».

فاصدر صوتاً غريباً.

وقال فيكتور:

«بيتر هو المسؤول عن التقرير التهديمي الذي يسبب المشكلة القائمة الآن».

وألقى عليّ هيث نظرة حديدية، ثم قال:

«يجب أن لا تتدخل في السياسة. هناك قنوات خاصة لمثل هذا النوع من المعلومات».

ثم استدار وخرج. وقلت،

«فيكتور بحق المسيح».

«لا تقلق، فهو دائماً هكذا، سأكلمه فيما بعد».

وفي اليوم التالي كلمني فيكتور على التلفون. وأخبرني بأن ادوارد هيث قد قرأ التقرير بإعجاب كبير تلك الليلة.

وقال له:

«أصحيح هذا يا فيكتور؟».

وعندما قال له فيكتور إن هذا صحيح صمم أكثر على البقاء في السلطة.

ولكن الطلبات من أجل المعلومات لم تكن لها شرعية. فذات مساء دعاني فيكتور لاحتساء بعض الشراب في أحد المطاعم. وقال:

«هناك رجل أعمال يجب أن تجتمع به. إنه صناعي ثري».

كنت في ذلك الوقت أبحث قضية تقاعدي مع فيكتور. فقد علمت بحلول عام ١٩٧٢ بأن الوعد الذي قطعته أم آي ٥ بخصوص تأمين تقاعد لي لم يحترم. فلكي التحق بالعمل في المخابرات كان لا بد أن أتخلى عن حقوق التقاعد لخمس عشرة سنة من الخدمة في البحرية. وفي ذلك الوقت تحدث كمنغ عن الدفعات الإضافية وعن الطرق العديدة التي يمكن للمخابرات أن تحل القضية من خلالها. ولكن الظروف تغيرت مع الوضع القائم في أم آي ٥ ولم يعد هناك مجال لاحترام الاتفاق الشفهي. بالنسبة للقوانين ليس لدي قضية تقاعد، رغم أن كافة العلماء الذين جاؤوا بعدي إلى المخابرات (ويصل عددهم إلى خمسين) استطاع القسم الأعظم منهم أن يحول تقاعده، من خلال إصراري المستمر على تصويب الأوضاع.

كان ذلك بمثابة ضربة قاسية لي، أدت إلى تسميم آخر السنوات التي قضيتها في

الخدمة. وفكرت في احتمالات العمل الأمني. وبالرغم من كونه غير مناسب لي، إلا أنه بدا محاولة لا بأس بها لتأمين تقاعدي. وفي البداية تناقشت مع فيكتور حول إمكانية العمل في مؤسسة روتشيلد، ولكن هذا الاقتراح لم يعجب هانليَ. لذلك عندما علم فيكتور بأن رجل الأعمال هذا بحاجة إلى مستشار أمني اقترح عليه الالتقاء بي.

كرهت الرجل للوهلة الأولى. فقد بدا واضحاً لي بأنه مخادع. إذ أخذ يتحدث وهو ثمل كلاماً سائباً عن حاجته لمستشار أمني دون أن يحدد بالضبط ما يريد وكم يود أن يدفع بالمقابل. وأخيراً اقترح عليّ أن أقابل بعض زملائه في فندق بلندن لبحث ما طرحه عليّ بالتفصيل.

كان زملاؤه مجموعة من المتقاعدين من مختلف فروع المخابرات والأمن الذين ولى زمانهم وانقضى منذ وقت طويل. وكان هناك أيضاً رجال أعمال بدا عليهم السرور لوجودهم في هذا الجو ولم يبالوا أن زمانهم قد ولى.

وهذه المرة تطرق الرجل الذي يريد أن يوظفني إلى النقطة المباشرة في الموضوع.

«إننا نمثل مجموعة من الناس قلقة على مستقبل البلاد.
كانت تبدو عليه ملامح أنغلتون وهو في وضع سيىء. وقال إنهم مهتمون بالعمل على منع عودة حزب العمال إلى السلطة. وأضاف:

«إن عودته ستقضي على الحرية التي نعرفها ونعيش في ظلها».

وهز الآخرون رؤوسهم موافقين. فسألته:
«وكيف تعتقد بأنني يمكن أن أساعدك».
«المعلومات! أجاب، نريد معلومات وأنا متأكد بأنك تستطيع تزويدنا بها».

فتساءلت:
«إلى ماذا تسعى بالضبط؟».
«أية معلومات عن ويلسون ستكون خدمة كبيرة لنا. وهناك أناس كثيرين مستعدون لدفع مبالغ طائلة مقابل هذه المعلومات».

«ولكنني موظف في المخابرات».
فقاطعني بإشارة من يده،
«ليكن تقاعدك مبكراً، وسنرتب كل شيء».

وأمضيت الليلة متجاوباً معهم، دون أن أعطيهم شيئاً. وفي اليوم التالي ذهبت

لمقابلة هانلي وأبلغته بما جرى. واقترحت عليه أن استمر في مراقبة المجموعة هذه كعميل. ولكن هانلي قال إن الحذر أفضل.

«دعك من هذا الأمر يا بيتر. إنها لعبة قذرة فابق خارجها».

لم يكن هانلي يعلم سوى القليل عن المواد التي جمعناها عن هارولد ويلسون وحزب العمال في الستينات، لذلك شجعته على دراستها. فالانتخابات تقترب ويمكن أن تكون قراءتها مفيدة.

وبعد أن قرأ الملفات قال:

«إنها تشبه برنامج «فلوينسي»، فهناك دخان كثير ولكن النار قليلة».

وعلى أية حال اقر بفائدة الاطلاع على الملفات. كان أنغلتون، بشكل خاص، قد بدأ يحثنا على عمل شيء بخصوص ويلسون، فقلت لهانلي لا بأس من أن نبدو وقد عملنا شيئاً ما.

وبينما كانت الأمور تسير نحو قمة العمل السياسي في مطلع عام ١٩٧٤، وانتخاب حكومة حزب العمال المصغرة، كانت أم آي ٥ تحتفظ بالمعلومات، التي قد يؤدي تسريبها إلى فضيحة سياسية من الصعب التنبؤ بنتائجها. فمجرد انتشار خبر طلب رئيس الوزراء نفسه للتحقيق سيؤدي إلى استقالته. وقد كان كل ضابط في أم آي ٥ يدرك هذا الأمر.

كنت في مكتبي بعد ظهر أحد الأيام عندما جاءني اثنان من الزملاء بصحبة ثلاثة أو أربعة ضباط، فأغلقت الملف الذي كنت أطالعه وسألتهم ماذا يمكنني أن أقدم لهم. فقال أعلاهم رتبة:

«نحن نفهم بأنك فتحت من جديد قضية ويلسون».

«ولكنكم تعرفون بأنني لا أستطيع الحديث في هذا الموضوع» أجبته.

وشعرت بأنني عاجز. ولم يعجبني أن تتم محاصرتي داخل مكتبي. وقال أحد الضباط الصغار:

«إن ويلسون شخص مزعج. وقد حان الوقت ليعرف الناس الحقيقة».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام. فقد التهبت المشاعر بالغضب في أم آي ٥ أثناء عام ١٩٦٨. فكان هناك محاولات تحريض ضد ويلسون في ذلك الوقت، خاصة بعد أن تعهد زعيم صحيفة «دايلي ميرور» سيسيل كنغ، والذي كان عميلاً لنا لفترة طويلة، بأنه سينشر أي خبر تريد أم آي ٥ تسريبه عن طريقه. وقد كان ذلك

جزءاً من عملية «الانقلاب» التي اعتقد سيسيل بأنها كفيلة بإسقاط حكومة العمال لتحل محلها حكومة ائتلافية برئاسة اللورد موتباتن.

أخبرت فيرنيفال جونز عام ١٩٦٨ بالمشاعر الملتهبة، ولكن رده كان محبطاً:

«تستطيع أن تخبر أي شخص لديه أفكار عن تسريب معلومات سرية، بأنني لن أستطيع أن أحميه».

كان يعرف بأن الرسالة ستصل.

ولكن الأمور في عام ١٩٧٤ كانت أكثر خطورة. كانت الخطة بسيطة. ففي حملة الانتخابات التي من المقرر أن تحل خلال عدة أشهر، ستقوم أم آي ٥ بترتيب عملية تسريب بعض التفاصيل السرية عن قادة حزب العمال، وخاصة ويلسون، إلى بعض المتعاطفين معها من رجال الصحافة. كما سيتم تسريب خبر محتويات الملفات في أم آي ٥ والتي تعتبر هارولد ويلسون شخصاً مشبوهاً..

وقد تم استمزاج رأي الضباط في الجهاز فكان هناك أكثر من ثلاثين يؤيدون الخطة. وقررنا كذلك إرسال نسخ من هذه الملفات عبر الفاكسميلي إلى الصحف في الخارج بالإضافة إلى طرح القضية في البرلمان لنحصل على أقصى حد من التأثير. وكان عندنا مثال نحتذي به. فقد كانت نسخة كربون عن رسالة زينوفييف هي الكفيلة بإسقاط حكومة رامزي مكدونالد عام ١٩٢٨.

قال أحد الضباط:

«سنخرجه من الرئاسة، هذه المرة سنخرجه حتماً».

سألتهم:

«ولكن لماذا تحتاجونني؟».

«حسناً فأنت مثلنا لا تحب ويلسون... بالإضافة إلى أنك مطلع على أحدث الملفات، قضية غايتسيكل وتفاصيل أخرى».

«ولكنها موجودة في خزانة المدير العام الحديدية».

«نعرف ذلك، ولكنك تستطيع أن تنسخها».

قلت لهم:

«أريد بعض الوقت لأفكر. فيجب أن أفكر كثيراً قبل أن أقدم على خطوة مثل هذه. أعطوني مهلة يومين».

أغرتني الفكرة في البداية. فالشيطان يسهل العمل للأيدي الخاملة، وكنت أعيش آخر أيام عملي قبل التقاعد. ولذا كانت الخطة تغريني. وشعرت برغبة لا تقاوم في الاندفاع في تيارها. فقد كانت البلاد على شفير هاوية مأساوية. فلماذا لا أدفع الخطة للأمام؟ كنت، على أي حال، أنوء بحمل عبء ثقيل من الأسرار فلماذا لا أخفف عن نفسي بعض هذا العبء.

كان فيكتور هو الذي جعلني أعدل عن هذه الفكرة.

«أنا لا أحب ويلسون مثلك»، قال فيكتور، «ولكنك ستخرج من هذه القضية مقطوع الرأس».

وكان محقاً. فلم يبق لي سوى حوالي سنة من العمل. فلماذا أدمر كل شيء في لحظة جنون؟.

وبعد يومين أخبرت رئيس المجموعة بأنني لن أسلمهم الملفات. وقلت له:

«أود أن أساعدكم، ولكنني لا أستطيع المجازفة. فأنا لا أملك في الوقت الحاضر سوى نصف تقاعد، ولا داعي لأن أخسره كله».

أصبح الكثير من أفراد المجموعة عدائيين تجاهي. فقد كانوا يعتقدون بأن تلك كانت الفرصة الأخيرة للإطاحة بويلسون.

«عندما يتقاعد لن نحصل على هذه الملفات مطلقاً!».

لكنني كنت قد عقدت العزم على الالتزام برأيي ولم أهتم لوصفهم إياي بالجبن.

أمضيت الفترة من نهاية ١٩٧٤ وبداية ١٩٧٥ في السفر خارج البلاد قدر المستطاع، أتابع بث «فينونا» في كافة أرجاء العالم. ورغم أن قضية ويلسون لم تطرح مطلقاً، إلا أنني شعرت بأن الشباب قد مضوا في خطتهم بكل قواهم. ولا عجب أن يعلن ويلسون بعد ذلك بأنه كان ضحية مؤامرة.

في صيف ١٩٧٥ تناولت طعام العشاء مع موريس أولدفيلد في مطعم لوكيتس. وغالباً ما كنا نتقابل هناك. كان موريس وحيداً، وكان لا يحب شيئاً مثل الثرثرة الدسمة في نهاية اليوم. كان قد أصبح مديراً لأم آي ٦ بعد محاولتين فاشلتين، وكنت سعيداً بما حققه. كان موريس رجلاً طيباً رغم تطفله. وشعرت ليلتها بأنه يريد أن يحدثني في شيء ما.

حوّل الحديث إلى قضية ويلسون. وسألني إلى أي مدى وصلت مشاعر الكره له هناك. وقال انه يسمع إشاعات كثيرة بهذا الخصوص.

لكنني أحجمت عن التورط، واكتفيت بالقول:

«معظمنا لا يحبه. فالجميع يعتقد بأنه سيدمر البلاد». وكان واضحاً أن موريس مهتم جداً بالموضوع لأنه ظل يعود إليه باستمرار. وأخيراً قال:

«لماذا لا تقول لي الحقيقة!».

«أنا لا أتابعك يا موريس....».

«لقد دعاني رئيس الوزراء أمس» وفجأة تغيرت نبرة صوته، «وتحدث معي عن مؤامرة. من الواضح أنه قد سمع بأن رجالكم يصعدون الموقف ضده وضد مارشيا فوكندر والشيوعيين في مبنى رئاسة الوزراء».

وأخذ يجرجر في الكلام وكأن الموضوع لم يكن يروق له، ثم عاد يقول:

«إنها قضية جدية يا بيتر. يجب أن أعرف كل شيء. أنظر ماذا يجري في واشنطن في ووترغيت. سيحدث نفس الشيء هنا إذا لم نكن حريصين».

وطلبت من النادل كأساً أخرى من البراندي وقررت أن أخبره بكل ما أعرف. وعندما انتهيت من شرح خطة الصيف الماضي سألني فيما إذا كان هانلي يعرف شيئاً عن الموضوع. فقلت:

«لا، ومن الأفضل أن ننسى الموضوع».

فقال:

«أريدك أن تذهب إلى المكتب غداً وتخبره بكل شيء».

وقام موريس يترنح إلى سريره وقال من خلف ظهره «لا تقلق».

«لا لن أقلق فلم يتبق لي سوى بضعة أشهر».

وعندما التقيت مع هانلي في صباح اليوم التالي، شحب وجهه. ربما كان يشك بأن مشاعر العداء لويلسون قد وصلت إلى مستوى عال في جهازه، ولكن أن يعلم بأن نصف موظفيه غارقون حتى رؤوسهم في مؤامرة للإطاحة برئيس الوزراء، فهذا أمر آخر. وكنت في أوقات كتلك أشعر بالسرور لأنني لم أتسلق سلم السلطة إلى الأعلى.

وكان رد فعله الأول غضباً ضد موريس،

فقال مزمجراً:

«اللعين موريس، إنه يحشر أنفه في عملنا».

وبعد أن هذا سألني عن الأسماء فأعطيته إياها. فلم يكن بإمكاني رفض ذلك طالما أنني أخبرته بالموضوع. وعندما كنت أقرأ الأسماء بسرعة وسهولة، شعرت لأول مرة بشعور بلانت. فليس من السهل أن تلبس قناعاً وتشير بإصبعك إلى الأشخاص الذين تعرفهم.

وسألت هانلي:

«ستعتني بهم، أليس كذلك؟».

وأجابني:

«بالطبع لا بد من التحقيق معهم».

تركت العمل قبل أن تنتهي قضية ويلسون. ولم أبحث هذه القضية مرة أخرى مع هانلي. سمعت بأن عضواً في اللجنة الأمنية قد دُعي لعمل تحقيق خاص من قبل مكتب الرئيس. وقد قام هانلي منذ ذلك الوقت بإجراء العديد من التغييرات، خاصة في مسألة التجنيد، بهدف إدخال دم جديد إلى أم آي ٥. وهذا ما يفسر الرسالة الرمزية التي أرسلها لي ميشيل هانلي بعد تقاعدي وأنا في أستراليا. وجاء فيها:

«ستسر حتماً بمعرفة أن الشركة قد اجتازت امتحاناتها الأخيرة وتسير الآن بشكل جيد».

بعد ذلك بوقت قصير استقال ويلسون. وانطبق عليه ما كنا نقوله دائماً في الجهاز «يأتي السياسيون ويذهبون ولكن المخابرات باقية إلى الأبد».

تفجرت الأمور حول هارولد ويلسون في نفس الوقت الذي بدأت تعود فيه قضية هوليس إلى السطح عام ١٩٧٤. فقد توقفت هذه القضية منذ التحقيق معه عام ١٩٦٩. كنت آمل أن هانلي سيقوم بإحياء القضايا المهملة عقب توليه منصب المدير العام. ولكن سرعان ما اكتشفت حرصه على ترك الكلاب النائمة تغط في نومها. كانت لديه رغبة جارفة في ترك الماضي خلفه، وإبعادي بأسرع وقت ممكن عن التحقيقات وقضايا الشعبة ك. وكان يرد عليّ كلما طرحت المسألة عليه:

«إن عقلي متفتح يا بيتر».

أصبح الخوف من الفضيحة أهم اعتبار يؤثر على كل شخص مسؤول عن متابعة اضطرابات الستينات. أما الآن فقد تأكد الجميع بأن المشاكل مهما كانت، قد انتهت نهائياً. وبحثت مع فيكتور فيما إذا كان هناك مجال لفتح القضية من جديد. فكان يرد عليّ:

«الوقت ليس مناسباً الآن. يجب أن نختار الوقت المناسب لكي أثير القضية مع تيد.

كـان صوته متقطعاً. وعرفت أنه يريدني أن أوصل هذه الرسالة إلى دي موباري.

بعـد عدة أسابيع تغديت مع دي موباري، وحاولت أن أقنعه بـأن الوقت غـير مناسب لدفع القضية إلى الأمام.

وقلت له:

«هناك أشياء كثيرة تحدث الآن. مع أن الأمور تبدو ساكنـة. وهناك طـرق كثيرة لسلخ جلد القطة. ولكن يجب أن يتم ذلك في الوقت المناسب».

لـم يقتنع بما قلت. فقد كان يعتقد بأنني أداة في يد هانلي. ولـم يحاول إخفاء رأيه.

كنـت في الواقع آمل أن تقودنا عملية «فينونا» التي أقرها هانلي، إلى مداخل جديدة في القضية. وكنت ما أزال آمل أن نعثر ذات يوم في خزانة قديمة يعلوها الغبار على ما يساعدنا في حل الأسماء الرمزية.

في ذلك الوقت حققنا تقدماً بسيطـاً في فك رمـوز البـث الـذي بـين يدينـا، الأمـر الذي أعطى سبباً للأمل. كان جيفري سادبري يعمل على جزء من معلومات «هـاسب» والذي لم نستطع التقدم فيه مطلقاً. وقد أثبتت تحليلات الكمبيوتر بأن هذا البث بالذات ليس «فينونـا» حقيقية. إذ لم يظهر لنا بأنه شُفِرَ على لبادات مـرة واحدة. وقـد استنتج سادبري من تـوزيع المجموعات العشوائي أن المعلومات شُفِرّت باستعمال دليل ما.

بـدأنا البحث في المكتبة البريطانية، ووجـدنا أخيـراً كتاب احصـاءآت مناسب يعـود تاريخه لفترة الثلاثينات. قمـنـا في ليلة واحدة بحل رموز كمية كبيرة من معلومات «هاسب». وقد كان بث المخابرات العسكرية السوفياتية مشابهاً للكثير من ذلك الذي حللناه في السابق. وحصلنا على سلسلة من الرسائل كانت مهمة للغاية. أرسل هذه الـرسـائـل ضابط المخـابرات العسكرية السوفياتية المقيم سيمون كريمر إلى المركز في موسكو. وكان يصف فيها لقاءاته مع عميلة المخابرات العسكرية السوفياتية، سونيا المعروفة باسم روث كوتشينكي.

توقف الاتصال مع سونيـا في الستينات بسبب ضعف المصـدر. وقد اتجـه الرأي في أم آي ٥ على تصديق ادعاء سونيا بلجوئها إلى بريطانيا هرباً من النازيين والحرب. وبأنها لم تبدأ العمل لصالح السوفيات إلا بعد أن عرض كلاوس فوخس خدماته عام ١٩٤٤. وأنكرت قيـادة الاتصالات الحكـومية بشـدة بأن سـونيا تستـطيع بث رسـائلهـا من بيتهـا القـريب من أكسفـورد، بواسطة الجهاز الصغير الذي كان لديها في الفترة ما بين ١٩٤١ ـ ١٩٤٣.

لكـن رسائل كريمر حطمت تماماً الاعتقادات. أثبتت الرسائل أن المخابرات الروسيـة

أرسلت سونيا إلى منطقة أكسفورد، وأنها كانت تشرف على شبكة من العملاء منذ عام ١٩٤١ . وقد احتوى البث كذلك على الدفعات التي كانت تقدمها للعملاء، إضافة إلى أوقات ومدد البث عن طريق جهازها. شعـرت بالمرارة لعدم توفر هذه المعلومات أثناء التحقيق مع هوليس عام ١٩٦٩ .

بعـد التوصل إلى هذه المعلومات شعرت بتأكيد أقوى من أي وقت مضى بأن العميل «إيلي» له وجود. وأنه كان يعمل تحت إشراف سونيا من أكسفورد. وأن تفاصيل هويته موجودة في رسائلها التي ضاعت بطريقة غير واضحة كل هذه السنين. لـم يبق أمامي من أمل سوى التجول في العالم بحثاً عن أية إشارة من أن بثها قد التقط في مكان آخر.

وخلال الفترة ما بين عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٦ قـطعت ما مسـافته ٣٧٠ ألف كم بحثـاً عن «فينونا» جديدة وعن رسائل سونيا. وقالت لي المخابرات الفرنسية بأنه لا يوجد لديهم مواد، رغم أن مارسيل أخبرني بأنه متأكد من التقاطهـا. وقال إن أحد عملاء «سبفاير» قد أتلفها منذ وقت بعيد. وفي ألمانيا ادعوا جهلهم المطبق بالنسبة للموضوع. ونفس الشيء في إيطاليا. أما الإسبان فقد رفضـوا أن يبحثوا في الـطلب قبـل إعـادة جبل طـارق إليهم. وأمضيت شهوراً عديدة وأنا أتجول في مكاتب التلغراف الكندية بحثاً عن آثار اتصالات التلكس هناك. ولكنني لم أجد شيئاً. حتى في واشنطن لم يقدنا البحث المكثف إلى أي شيء. وقد شعرت بالألم يعصف بي لأن ما أريده كان ذات يوم موجوداً في ملف ومخزون، ولكنه فقد وضاع من بين أصابعنا.

فـي عام ١٩٧٤ بدأت أنا وهانلي بإعداد التحضيرات لمؤتمر المخابرات الغربية الذي كان من المقرر عقده في لندن في شهر آيار. قـلت لـه بأنـه سيواجـه بعض الضغط من قبل الأمريكيين والكنديين عن بيان بشأن قضية هوليس. كـنا قد نجحنا في عدم تسريب أي مذكرة منـذ التحقيق معـه. ولكن أنغلتـون كـان مصمماً على الحصـول على شيء مكتـوب بهـذا الخصوص.

سألني هانلي:

«وماذا أقول لهم؟».

فقلت له أن يتعامل مع المسألة بضبابية.

«أعـطهم الحقـائق. فقـد كـان هنـاك سلسلة من الادعـاءات القـديمـة، وعـدد من المرشحين. وكان هوليس واحداً منهم، بل ربما كان الأفضل بينهم. ومع ذلك فإننا لم نستطع أن نثبت أي شيء ضده رغم التحقيق».

كـان مؤتمر عام ١٩٧٤ بعيداً جداً عن الروح العالية التي سادت مؤتمرات الستينات. فقد اختفت وجوه كثيرة عن طاولة المؤتمر. إذ ذهب سبراي، وجيم بينيت من الشرطة الكندية والذي كان مشبوهاً كجاسوس روسي داخل المخابرات الكندية، وكنت مطلعاً على قضيته، (وأعتقد أنه لم يكن جاسوساً رغم الطريقة الغريبة التي تصرف بها أثناء التحقيق معه). وذهب هيلمز أيضاً، أما أنغلتون فقد كان في آخر أيامه. وفي واشنطن كانت فضيحة ووترغيت في قمة التفاعل.

قـدم هانلي تقريراً قصيراً عن قضية هوليس. فاستقبل بالصمت. فكثير من الموجودين عانى من هذه المشاكل، ويعرف الألم والضرر الذي ينتج عن مثل هذه القضية. أنهى هانلي التقرير بطريقة دبلوماسية طالباً من المشاركين تقديم تقييمهم للأضرار التي نتجت على ضوء ما جاء في تقريره. كـان أسـلوبه نمـوذجاً كـلاسيكياً لتصـرفات الـوايت هول. وهي تقـديم الأرضية الصعبة، وترك الطرف الآخر يصل إلى الاستنتاج الحاسم!

لـم أر أنغلتون بعد المؤتمر إلا مرة واحدة، في واشنطن في نهاية تلك السنـة. كـان يعرف بأنه يعاني من ضغوط للإطاحة به. فالمدير العـام الجديـد ويليام كـولبي مصمم على إزاحته من منصبه. كان أنغلتون وكولبي يتشاجران لسنين عديدة حول إدارة مكافحة التجسس في جنوبي شرقي آسيا. وعندما جاء كولبي لمنصب المدير العام كانت الفرصـة للتخلص من أنغلتون اثر نشر صحيفة نيويورك تايمز قصة تقول فيها أنه كان العقل المدبر لبرنامـج مراقبـة شامل للبريد المحلي في الولايات المتحدة. وخلال عدة أيام استقال أنغلتون ومعه مجموعة كبيرة من كبار الضباط.

لـما التقيته كان ثائراً.

«لقد تخلوا عن مئتي سنة من مكافحة التجسس» وأخـذ يشتم عندمـا علم أن موظفيـه الكبار استقالوا.

أصبح واضحاً أن قصة نيويورك تايمز كانت الرصاصة الأولى في الحرب. وخلال ستة أشهر أصبحت السي آي أي غارقة في وحل الاستجوابات أمام لجان الكونغرس. عام ١٩٧٤ كان عام تقديم الحسابات. في كندا وأستراليا بدأت التحقيقات مع رجال المخـابرات ونبش خطاياهم السـابقة الواقعية أو المزعومة. أما نحن فكنا منبوذي العصـر الحديث ـ مكـروهين، غير مؤتمنين ـ ومطاردين.

سـرى الرعب في أوصـال أولـدفيلد وهـانلي من الأحداث التي تجـري في الخارج. كـان خوفهما يرجع أولاً إلى إمكانية انتقال الرؤيا هناك إلى جهازيهما. وقد أدركا أيضاً بـأن

حكومة العمال المنتخبة حديثاً قد تكون مستعدة لتشجيع مثل هذه التطورات. ووجد ستيفان دي موباري الوقت مناسباً لطرح أفكاره والبدء بالعمل. ففي منتصف عام ١٩٧٤ اتصل بصديق له هو فيليب دي زوليوتا الذي كان سكرتيراً خاصاً سابقاً لرئيس الوزراء السابق أليك دوغلاس - هيوم. وشرح له مخاوفه من إمكانية اختراق أم آي ٥، ومن طريقة تعيين المدير العام. فاقترح عليه زوليوتا الاتصال بالسير جون هانت سكرتير رئاسة الوزراء الجديد. وبعد أن أبلغ موريس أولدفيلد بأنه لم يعد يحتمل، قام دي موباري بالاتصال برئاسة الوزراء.

صرخ هانلي ذات صباح:
«ما الذي يفعله الآن؟».
كنت أسمع بالخبر لأول مرة.

«لقد عاد اللعين موريس إلى التدخل في شؤوننا. فكيف يسمح لأحد ضباطه بالذهاب إلى رئاسة الوزراء لنشر غسيلنا الوسخ هناك دون أن يسألني. . . إن هذا لا يحتمل».

قلت له بأنني أشعر بأن هذا الأمر حتمي. فقد كان دي موباري يسعى للاتصال بالرئاسة ولو تجاوز أم آي ٥ أو أم آي ٦. ولنحمد الله بأنه اتصل بالرئاسة وليس مع البرلمان.

كانت النتيجة إعادة نظر - مناورة كلاسيكية. ففي الوقت الذي كانوا يبدون فيه كبيري الأمل اتضح فيما بعد أنهم كانوا يهدفون إلى الوصول إلى الجواب الذي يرغبونه من الذين وضعوا الاستجواب. وقد عين للتحقيق في هذه المناورة اللورد تريند سكرتير الرئاسة السابق. وتقرر أن يطلع على كافة الوثائق، وأن يعطى الوقت الذي يحتاجه ليقرر صحة الاتهام أم عدم صحته.

ظهر تريند لأول مرة في مبنى ليكون فيلد في نهاية عام ١٩٧٤. فقد أعطي هناك مكتباً وخزنة وسكرتيرة وترك ليعمل وحده في الطابق الخامس. وبعد عدة أسابيع اتصل بي هاتفياً وطلب مني مقابلته في مكتبه.

كان نموذجاً لشخصيات أكسفورد: وسيم، له جبهة عريضة وشعر رمادي فاتح. بدأ حديثه معي بقوله:

«لا أريد أن أتحدث عن القضية. أريد فقط أن تعطيني صورة كيف جرى العمل في القضية. ثم سأنطلق للدراسة ومقابلة المعنيين، وسأراك في نهاية التحقيق».

كانت مجلدات «فلوينسي» العشرة موضوعة أمامه على الطاولة، وأمضينا النهار في الاطلاع عليها. وكان يريد أن يعرف:

«كيف بدأت العملية؟».

- ولطالما سألت نفسي هذا السؤال وأنا أحدق في هذه الملفات. كيف بدأت؟ هل بدأت منذ عام ١٩٤٥ عندما ترك بلانت العمل؟ أم عندما اتصل بنا غويزنكو وفولكوف؟ ربما قبل ذلك بوقت كبير، عندما جاء رجل مصاب بالسل، من الصين، ليعمل في المخابرات البريطانية. أو ربما بعد ذلك بوقت كبير أيضاً عندما أخبرنا تيسلر بوجود جاسوس في أم آي ٥. أو عندما تحدث غوليتسين عن وجود مئات والآف الجواسيس في كل مكان. أم ترى كانت قضية ميتشيل اللحظة الأولى الحاسمة، أول مرة نبحث ولم نر الجاسوس بيننا. كيف يمكن أن نصف اللحظة التي يتحول فيها الخوف إلى حضور ملموس؟ إنها موجودة. وكانت دائماً موجودة من البداية حتى النهاية.

بدت ملفات «فلوينسي» بعيدة. كانت منتفخة بساعات عمل طويلة غير منظورة. وكان فيها كل مذكرة واردة من أي جهاز مخابرات لملاحقة توزيع هذه الوثيقة أو تلك. وكل ادعاء مفصل تفصيلاً كاملاً. ولكل مشتبه به اسمه الرمزي. وفي الملف الأخير رأيت المذكرة المشهورة موقعة بخط يدي، وفيها أسماء أولئك المرشحين للتحقيق العاجل.

كان تريند يسأل من وقت لآخر عن التأخير في بحث القضايا. حاولت أن أشرح.

«إنه أمر صعب جداً أن يصل إلى علمك أن الرجل الذي تعمل معه منذ سنين طويلة، وأعطاك وظيفتك، أو الذي أعطيته أنت وظيفته، بأنه جاسوس. هذا ما جعل ديك وايت وفيرنيفال جونز يقعان في مفارقة صعبة... ولهذا استخدمنا الأسماء الرمزية منذ البداية لإخفاء أي شيء يمكن أن يكشف الأسماء الحقيقية».

«هكذا إذن». قال تريند.

«أنت تدرك أن قرارات «فلوينسي» كانت بالإجماع. وهذا يعني أن الرأي الأول والأخير ليس لي. كنا ستة أشخاص وقد فكرنا جميعاً بنفس الطريقة». «إيه نعم» تمتم تريند وهو يتأمل تقارير متبادلة غير مؤذية في الملف.

وبدا أن تريند مهتم بقضية العميل المتوسط المستوى. وطلب مني أن أوضح له كيف تعاملنا مع الادعاء، والنظام الذي اتبعناه بوضع العلامات للأربعة وثلاثين مرشحاً.

أمضيت عدة ساعات أشرح له برنامج «فينونا» أصيب تريند بالذهول من هذه الأحجية الجهنمية غير الكاملة التي تؤملك بالكثير ولكنها تفصح عن القليل. وشرحت له كيف توصلنا إلى مطابقاتنا. ستانلي وهيكس وجونسون كانوا بالتأكيد فيلبي وبيرغيس وبلانت، رغم أنه

لا يزال هناك مجال للشك بذلك. ستانلي كان هو فيلبي بسبب ذكر قضية الشؤون المكسيكية التي كانت ضمن مسؤوليات شعبته. أما هيكس فهو بيرغيس لأن إحدى رسائل المركز من موسكو طلبت من كروتوف تحديد تقارير هيكس بحقائق ومعطيات ثابتة، وإهمال النظريات.

«وجونسون؟».

«هنا يوجد شك. يوجد لديك هنا نقطة مهمة». وسلمته إحدى رسائل «فينونا» وقلت له: «بإمكانك أن ترى بأن جونسون مسافر للخارج. وهذا يدل على تحركات بلانت، فقد سافر إلى إيطاليا في نهاية الأسبوع الذي بث فيه الرسالة. ولكن يبدو الأمر غريباً جداً أن كروتوف لا يعلم بخطط جونسون. وقد سألت بلانت عن ذلك فقال بأنه أخبر كروتوف بنيته في السفر قبل رحلته بستة أسابيع».

«وهل يمكن أن يكون جونسون شخصاً آخر؟».

«الضابط الوحيد الذي سافر فجأة للخارج في نهاية ذلك الأسبوع هو «درات». . آسف أقصد هوليس، عندما ذهب إلى كندا لمقابلة غيوزنكو».

«إذن. . ؟».

فقلت بهدوء:

«أشك في ذلك. وأعتقد بأن جونسون هو بلانت، وقد كان يضللنا بمسألة الستة أسابيع. وجونسون مقرب جداً من هيكس وستانلي وبالتالي لا يمكن أن يكون شخصاً آخر غير بلانت. وعلى أية حال فلا يزال هناك أسماء رمزية عديدة لم تعرف يمكن أن يكون هوليس أحدها».

آثار تريند اهتمامي. فهو سريع البديهة ومتكامل التفكير. فلم يكن يجادل بين النقاط التي طرحها. وخرجت من اجتماعي الأول به بانطباع بأنني أتعذب بهدوء وصبر. ولكن ما آثار قلقي بأنه ذو خبرة مدنية وليس خبرة ضابط مخابرات. فهل يمكن له أن يخرج باستنتاجات معقولة من هذا الكم الهائل من المعلومات المتناقضة؟. فهو لا يمتلك الخلفية التي تمكنه من الحكم الصحيح على هوليس ولا حتى على الجواسيس الآخرين مثل فيلبي أو بلانت أو بليك. ولا يمكن لإنسان أن يحصل على قوة الحدس هذه إلا بالعمل سنين طويلة في العالم السري.

كانت سمعة تريند في أوساط أم آي ٥ جيدة جداً. فقد كان معظم الناس هناك يفضلونه على نورمان بروك، سكرتير الرئاسة السابق. كنت أنا وبروك نتردد على نفس النادي، ولطالما كنت أتحدث معه بعد تقاعده. كان يبدي حرصاً شديداً في عدم انتقاد

خليفته، ولكنه كان يشير بشكل غير مباشر إلى أن الأمور تسير الآن بشكل سيء هناك بعد تركه العمل. كان تريند أكثر هدوءاً، فلطالما قاتل في وزارة المالية من أجل دعم أجهزة المخابرات في الستينات.

واستمر تريند في العمل سنة أخرى في مبنى ليكون فيلد. وكنا نلتقي أحياناً في الممر. ولم يكن يتحدث سوى قليلاً. وفي نهاية عام ١٩٧٥ طلبني إليه. كنا في ذلك الوقت قد انتقلنا من مبنى ليكون فيلد إلى المكاتب القائمة في غوير ستريت.

وقال إنه يريد التحدث عن الادعاءات. وأنه يعتقد بأنها قديمة جداً.

«طبعاً، ولكن المهم فيها هو توافق التواريخ. فلقد جاءت جميعاً في نفس الفترة الزمنية. وهذا أمر غريب جداً».

وقال تريند، يبدو أن غوليتسين لم يقدنا إلى أي شيء. وعبر عن ذلك بقوله إنه «لم يساعدنا في شيء». فوافقته على أن غوليتسين لم يقدم لنا شيئاً بخصوص قضية الاختراق عالي المستوى. إنه لم يعطنا شيئاً لنحقق فيه. ولكنه على الأقل أكد لنا وجود الاختراق.

رفض تريند كذلك قصة العميل المتوسط المستوى. وقال:

«أعتقد أن القضية صعبة. صحيح أننا لا نستطيع إهمالها. ولكنها اليوم أصبحت قديمة وغير صالحة».

ثم أضاف وهو يقلب أحد الملفات ويثبت نظارته.

«أما بالنسبة لفولكوف، ألا تعتقد بأنه من النزق بمكان تغيير شكل الهجوم على الادعاء بعد ترجمة الوثيقة؟».

قلت له:

«لا أرى مبرراً لذلك. فلا يوجد أمامنا سوى طريقين فقط لمواجهة مثل هذه القضايا، الطريق الأول هو تقدير ما يعنيه الإدعاء، وإلى أين يتجه. وإلى أي مدى من الجدية يمكن أن نأخذه. أما الطريق الآخر فهو في تبني المنهج الدراسي الصارم لتحليل كل شيء بعناية ودقة لبناء استنتاجات علمية عليه».

قال تريند:

«وهناك قضية «إيلي». فلقد بحثت القضية مع أحمدوف. ولكنك لم تتابع أليس كذلك؟ إذ لا يوجد «إيلي» في خطوط البث».

قلت له،

«ولكنني لم أكن أتوقع وجود «إيلي». فهو جاسوس غير شرعي. وإذا كان كذلك فإن اتصالاته غير شرعية أيضاً، وليس من خلال السفارة. وإذا وجدنا بث سونيا فأنا متأكد بأننا سنجد «إيلي» ولكننا بدون ذلك لا نستطيع».

«أما زلت تعتقد بأن «إيلي» هو هوليس؟».

«بالتأكيد!».

«ولا يوجد شيء منذ ذلك الوقت يجعلك تشك بذلك؟».

«أبداً، بل إن هناك أشياء تزيد من قناعتي».

تنهد تريند بصبر:

«ولكن لا يوجد لديه خلفية أيديولوجية . . .».

«هناك الصين».

وتمتم قائلاً:

«آه نعم! الصين. ويبدأ صوته مترجرجاً».

كان تريند محترفاً حتى النهاية. فلم أستطع أن اكتشف مشاعره نهائياً. وقد ترك لدي بالتأكيد الانطباع بأن قضية الاختراق قوية، ولكنه لم يضف أي شيء غير الإشارة إلى شكه باختيارنا هوليس كجاسوس.

لم أعلم مطلقاً باستنتاجات تريند، ولا حتى من هانلي. فلم نبحث القضية مطلقاً، وأعتقد أن تريند أنهى تقريره بعد أن تركت في كانون الثاني ١٩٧٦. ولم يعلن عن تقريره إلا عام ١٩٨١ عن طريق السيدة مارغريت تاتشر، التي أبلغت حينها مجلس العموم بأن اللورد تريند توصل إلى استنتاج مفاده أن هوليس ليس عميلاً للمخابرات السوفياتية. فهو يؤمن ببراءة الرجل كما أؤمن أنا بخيانته. إن وجهة نظر رجل واحد، كما أدرك الآن، ليس لها قيمة، إنها الحقائق والحقائق فقط هي التي يمكنها أن تتوصل إلى حل اللغز الأبدي.

عندما اقترب موعد انتهاء خدمتي بدأت أشعر بالتعب. فلم أكن أدري، هل أبقى في بريطانيا لأناضل أم أقلل من خسائري وأذهب. كانت صحتي سيئة وتقاعدي متواضعاً. ولكن كان لي ذكرياتي.

بعد ظهر أحد الأيام ذهبت مع فيكتور إلى كامبريدج في فترة عيد الميلاد إلى بيته الريفي، لآخر مرة. كان الحديث بيننا صعباً. فقد كانت هناك أمور كثيرة يمكن أن نتحدث عنها. وكان في داخلي الكثير من الأسرار والكلام الذي أود أن أقوله. وسألني فيكتور:

«ماذا ستفعل؟».
«آه ـ لا أدري ربما أذهب إلى أستراليا».
ومرت الحقول الخضراء بسرعة أمام السيارة. وفي الأفق لاحت أبراج كلمبريدج.

«أشعر بأنك تريدني أن أشجعك على الذهاب إلى هناك».

«أعتقد ذلك».
كان مزاجي سيئاً. فقد كنت في الجانب الخاسر. وكان الإصلاح يجري على قدم وساق في المخابرات البريطانية. لقد حلت البروتستانتية مكان الكاثوليكية. وحروبي كانت حروب الماضي.

قال فيكتور:
«يجب أن تذهب يا بيتر. اذهب إلى الشمس. لتصبح صحتك أفضل، واترك التوتر ليتحمله غيرك هنا. لقد قمت بعمل معد لثلاثة رجال».

بدأ محرك السيارة يئن.
«إن مشكلتك يا بيتر أنك تعرف أسراراً أكثر من اللازم».

* * *

ملحق بالاختصارات

المخابرات الألمانية	Abwehr
مختبر أبحاث البحر (الأدميرالية) (بريطانيا)	ARL
منظمة المخابرات والأمن الأسترالية	ASIO
وكالة أمن القوات المسلحة (أمريكا)	ASSA
مؤسسة أبحاث الأسلحة النووية (بريطانيا)	AWRE
لجنة التنسيق الأمني البريطانية	BSC
المخابرات المركزية الأمريكية (السي آي أي)	CIA
الحزب الشيوعي البريطاني	CPGB
مكتب التحقيقات الفدرالي (أمريكا) أف. بي. آي.	FBI
قيادة الاتصالات الحكومية (بريطانيا)	GCHQ
المخابرات العسكرية السوفياتية	GRU
المخابرات السوفياتية (ك ج ب)	KGB
المخابرات البريطانية (أم آي ٥) للنشاط الداخلي	M I 5
المخابرات السرية البريطانية (أم آي ٦) للنشاط الخارجي	M I 6
وكالة الأمن القومي (أمريكا)	NSA
المخابرات الفرنسية	SDECE

خطوط البث، هي كافة إشارات الاتصال عن طريق مورس أو برقياً أو لاسلكياً وتحتوي رسائل ذات أهمية.

المخابرات البولندية	UB

الوايت هول، هو الشارع الذي توجد فيه أهم المؤسسات الحكومية البريطانية.

المحتويات

مقدمة المترجم ٥
تمهيد ٩
الفصل الأول ١٣
الفصل الثاني ١٧
الفصل الثالث ٢٨
الفصل الرابع ٣٩
الفصل الخامس ٥١
الفصل السادس ٦٣
الفصل السابع ٨٩
الفصل الثامن ١٠٨
الفصل التاسع ١٢٣
الفصل العاشر ١٣٨
الفصل الحادي عشر ١٥٦
الفصل الثاني عشر ١٧٦
الفصل الثالث عشر ١٩١
الفصل الرابع عشر ٢٠١
الفصل الخامس عشر ٢٢٤
الفصل السادس عشر ٢٤٦
الفصل السابع عشر ٢٦٢
الفصل الثامن عشر ٢٨٠
الفصل التاسع عشر ٢٩٢
الفصل العشرون ٣١١
الفصل الحادي والعشرون ٣٣٥
الفصل الثاني والعشرون ٣٥٣
الفصل الثالث والعشرون ٣٧٥
ملحق بالاختصارات ٤٠٣